

ترجمة الشيخ المهدي البوعبدلي
ويليه
قسم التراجم

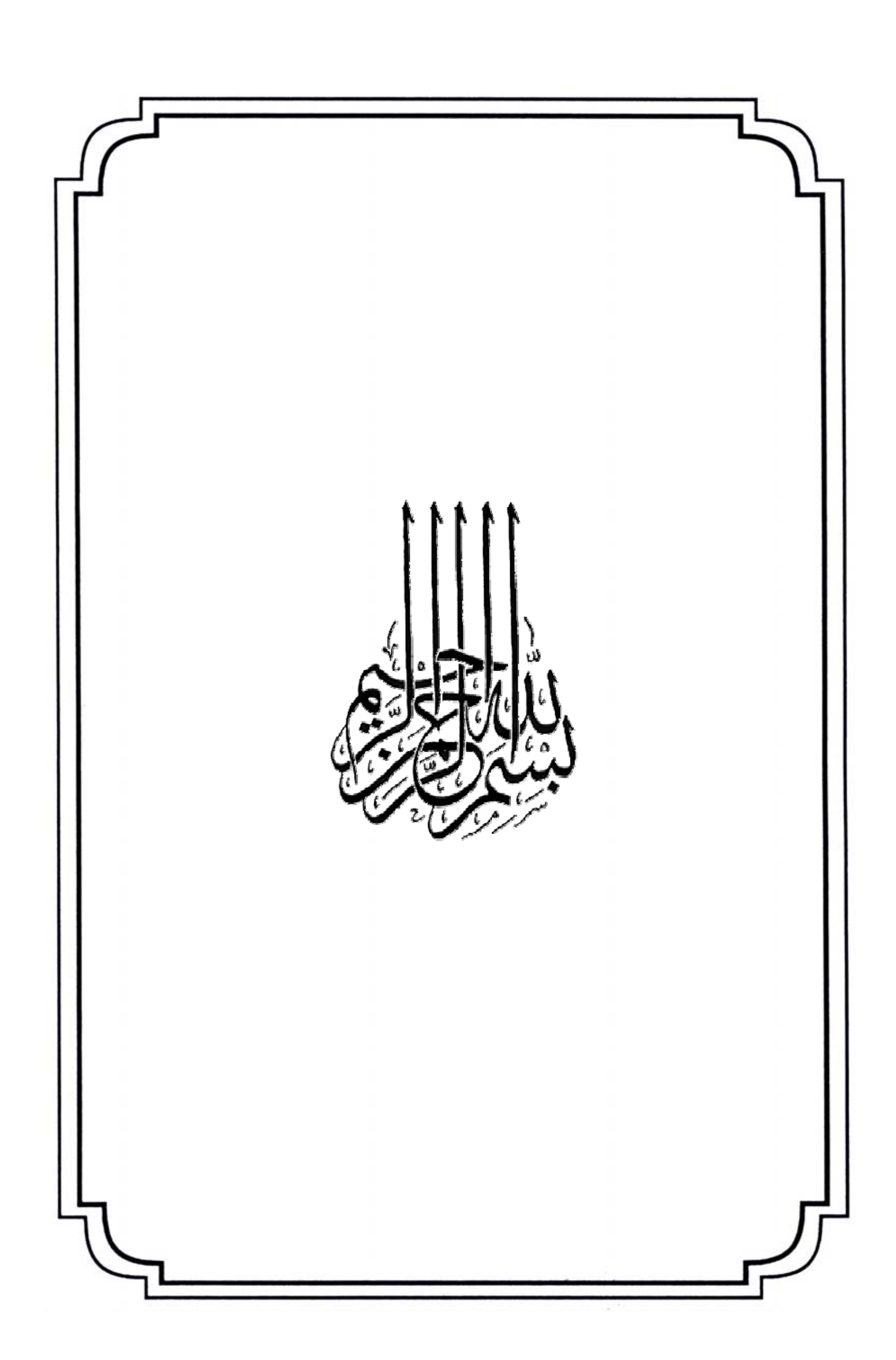
جمع وإعداد
عبد الرحمن دويب

هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين
بمناسبة الذكرى الخمسين لاستقلال الجزائر

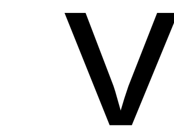
ترجمة الشيخ المهدي البوعبدلي
ويليه
قسم التراجم

جمع وإعداد
عبد الرحمن دويب

عالم المعرفة
للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

1) ترجمة الشيخ المهدي البوعبدلي
2) التراجم



الطبعة الأولى

2013

الإيداع القانوني: 4290-2012

ردمك: ISBN 978-9947-912-44-7

عالم المعرفة
للنشر والتوزيع

حي باحة 02، فيلا رقم 07، تماريس المحمدية / الجزائر

هاتف/ فاكس: 96 -92-21-021

البريد الإلكتروني: alemelmaarifa@yahoo.fr

الأُعمال الكاملة
للشّيخ المهدي البوعبدلي

(رحمه الله تعالى)

(1324 ـ 1412هـ/ 1907 ـ 1992م)

جمع وإعداد

عبد الرّحمن دويب

وتصدير

الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله

كلمة شكر وتقدير

الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات.

أشكر كل مَن كان له فضلٌ علينا في إظهار هذا الكتاب، ونخصُّ بالذِّكر منهم:

1) الشَّيخ **عياض البوعبدلي** (حفظه الله) الذي فتح لنا قلبَه قبلَ أن يفتح لنا أبواب **مكتبة الزاوية** التي استفدنا من مخطوطاتها ووثائقها كثيرا لإعداد هذا الكتاب.

2) الأستاذ المحقِّق **عمر عشاب** الذي ساعدنا في تصحيح قسمٍ كبير مِن هذا الكتاب.

3) أنجال الشيخ **المهدي**، خاصَّة منهم: السيد **عبد الغني**، والسيد **حسان**، اللذَين أمدَّانا ببعض الوثائق.

4) الأستاذ **بليل حسن** الذي أمدَّنا بمجموعة مِن مراسلات الشيخ **البشير المحمودي** مع الشَّيخ **المهدي** (رحمهما الله تعالى)،

5) وكلُّ مَن أمدَّنا ولو بوثيقة واحدة تخدم هذا الكتاب.

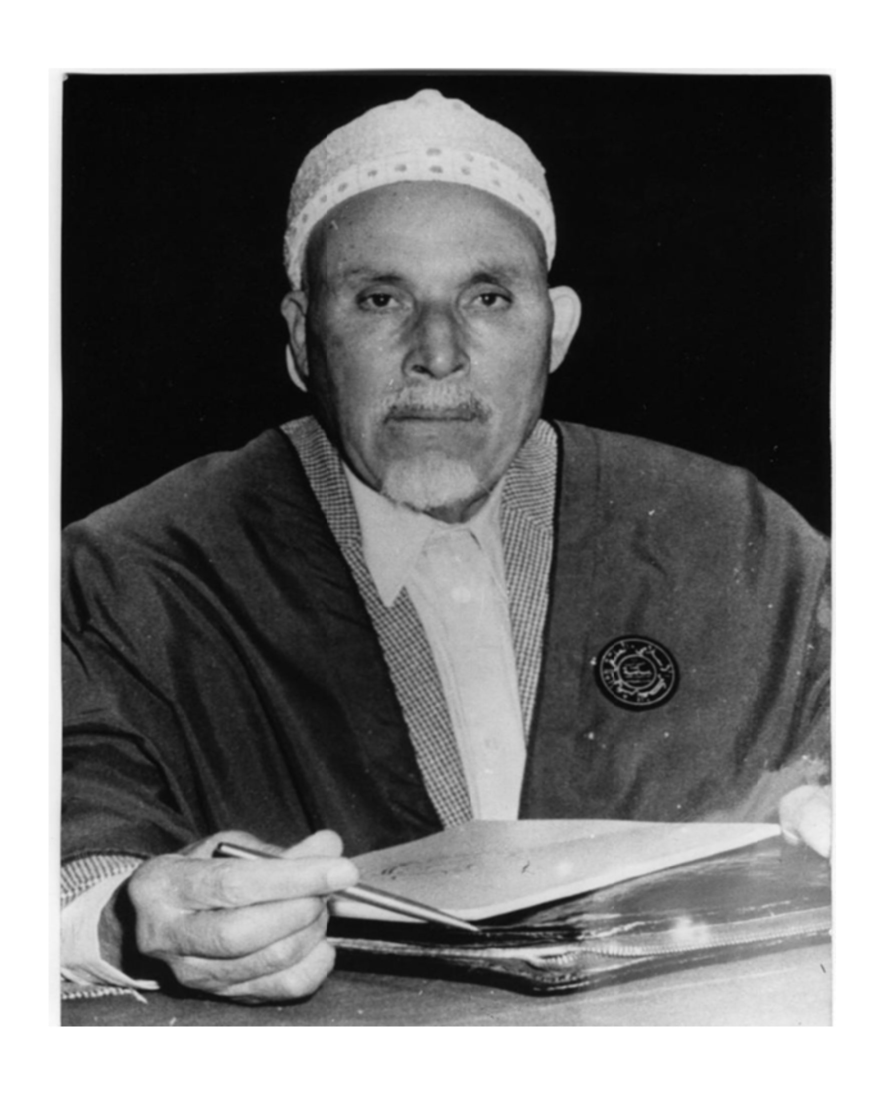
فلهم منَّا جميعا جزيل الشكر، وخالص الثَّناء.

عبد الرَّحمن دويب

قال الشَّيخ **عبد الرَّحمن شيبان** (رحمه الله تعالىٰ):

« إنَّ الِاحتِفاءَ بذِكرىٰ هذا الرَّجل المفتي المدرِّس، والمؤرِّخ المحقِّق، والأُستاذ المحاضِر، تُوجِبُ الِالتِفاتَ لآثارِه، والعملَ علىٰ جَمعِها ثمَّ نَشرها، لتكونَ نِبراسًا للباحِثينَ في **تاريخ الجزائر**، لِأَخذِ القُدوة الحسنة، التي بها يَعلو شأن الأَوطانِ والشُّعوب ».

جريدة البصائر: 12/ 6/ 1429هـ



الشيخ المهدي البوعبدلي

تصدير
بقلم الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله

عَرفنا الشَّيخَ **المهدي البوعبدلي** رَجلا موسوعيًّا قَلَّ نظيره في تاريخ المغرب الإِسلامي، وحاضِرا أَساسيا في مؤتمراتِ الفِكر الإِسلامي التي كانت تنعقِد بالجزائر خِلال السَّبعينيات مِن القرنِ الماضي، ومُحاضِرا رئيسيًّا في بعض الملتقيات الدولية من **الهند** إلى **ألمانيا**، ومحقِّقا لبضع مخطوطات هامة في تاريخ الجزائر السياسي والثقافي بالقرن التاسع عشر.

وعَرفنا كذلك أنَّ الذي هيَّأ له الصُّعودَ على المسرح هو الأستاذ **مولود قاسم** يوم كان وزيرا للتَّعليم الأَصلي، فهو الذي أشركَه في إنتاج الوزارة وأمره بتَمثيلها في بعض الملتقيات الدولية العِلمية والدِّينية، كما كلَّفته جِهات أخرى بالكشف عَن خَفايا التُّراث الثَّقافي الشَّامل للعمران والتصوُّف والتَّراجم والدِّراساتِ الفِقهية والمراسلات بين العلماءِ والأَعيان والدول، والبحثِ في المعاهدات الدَّولية القَديمة التي اختزَنتها الوثائق (الأرشيف).

كان الشَّيخُ **البوعبدلي** مِن الذين يقدِّرون الوثائقَ ويحتفِظون بالمخطوطات، ويَبدو أنَّه كان يحصلُ عليها بطرقٍ شتَّى، حتى أصبح لدَيه مِنها رَصيدٌ ضَخم عرفَ كيف يصنِّفُه ويحافِظُ عليه، فكانَت مكتبته في بطيوة غنيَّة ومنظَّمة يعثُر فيها على ضالَّتِه بِسهولة.

وقَد زُرنا هذِه المكتبة زيارةً قصيرة فَرأَيناها خِزانة مِن النَّوادر، كما لاحظنا العِنايةَ المركَّزة التي كانت كل مجَموعة تَحظىٰ بها.

هذه المكتبة هي التي كان يَشرب منها الشَّيخُ كلَّما أحسَّ بالعطشِ للمعرفة، فكان يعتمِدُ ما فيها ويفيدُ به الغَير إذا وثقَ به، فهو لا يَبخَلُ بِعلمِه إذا عرفَ أنَّ الطَّرفَ الطالب له سَيستَفيد ويفيد مِنه، ولكنَّه إِذا عرفَ أنَّ الطَّالِبَ لا يقدِّر قيمةَ وثائقِه فإِنَّه كان شديد الشحِّ والبخلِ بها.

وكانت الوظائفُ التي تولَّاها قبلَ الاستِقلال، والمواهبُ الإِلهية التي تمتَّع بها، والقُدرةُ علىٰ الدِّراسة والكَشف، والذَّاكرةُ القويَّة، وانتماؤُه لإِحدىٰ الزَّوايا (زاوية جدِّه) الشَّهيرة، وإتقانُه لغةَ الضَّاد ولغةَ فولتير، كلُّ ذلك أهَّله لأَن يسهمَ بدون كلَلٍ في الحياةِ الثَّقافية والتُّراثِ العربي الإسلامي.

درسَ الشيخُ **المهدي** في زاوية العائلة وفي مدينة **مازونة** بالجزائر، ثمَّ في الزيتونية بتونس.

وبعدَ رحلةٍ في عالمِ التأمُّلِ والإِصلاح والسياسة والصَّحافة والبحثِ شأن علماء الجزائر في العَهدِ الاستعماري تولَّىٰ القضاءَ في مدينة **بجاية** وغيرها قبل الاستقلال.

وكان عدد مِن زُملائه قد تكوَّنوا مِثله وتوظَّفوا مِثله، ولكنَّه اختلفَ عنهم في أنَّه كان ـ كما قلنا ـ مِن هُواةِ الوثائق والمخطوطات، عارفًا بِقيمتها وأهميتها للباحث، وهي المصادر التي أمدَّته بالمعلوماتِ المخبأة والأخبار النادرة، إضافةً إلىٰ استعدادِه الفِطري للكتابة.

والذي يَعرفُه عن كثَبٍ يعرفُ أنه كانت له هَيبةٌ وشفوف، ومعَ ذلك كان مُتواضِعًا وصاحبَ مجالس يُقابل الناسَ باهتمام، ويَستفيد مِنهم كما يَستفيدون مِن ثَروته المعرفية.

تَراسلتُ معه عندَ إِعدادي لتاريخ الجزائر الثَّقافي، فكانَ لي مَددا سَخيًّا، لا سيما عندَما اكتشفَ أنَّني لستُ مِن الذين **يبخسون النَّاس أشياءهم**، بل مِن الذين يقولون للمُحسنِ أَحسَنت.

ثمَّ جمعَت بينَنا مُناسبات ثَقافية عديدة، فكنَّا نَتبادلُ مَعارفَنا وأَخبارَنا بِكلِّ أَريحية، وكنتُ في الواقع أَستَفيدُ منه أكثَر مِمَّا كان يَستفيدُ مِنِّي، وقَد جمعتُ بعضَ مُراسلاتي معَه ونَشرتُها منذ عِدَّةِ سنَوات، وهي مُراسلات تظهر صَراحته ومُساهمته في الحياةِ الدِّينية والثَّقافية، وكان فيها أَعتقِد يحسُّ **بِظلم ذَوي القُربى** بعد استِقلالِ بِلاده، ولكِنَّه لا يُصارح إلَّا القَليلين بِذلك.

كانَ يَعتقِدُ أنَّ بعضَهم كان يَستغِلُّ مَعارفَه دون مكافأةٍ على جهدِه بما يَستحِقّ، ومعَ ذلك كان كثير الإِنتاج، ومُعظم إِنتاجِه كان ـ كما يقال ـ تحت الطَّلب وليسَ تِلقائيًّا، ولسان حالِه قول الشاعر:

فعلِّم ما استَطعتَ لعلَّ جِيلا سَيأتي يحدِثُ العجبَ العُجابا

وقَد ظهرَ هذا الجيلُ بِالفعلِ في شَخصِ السيد **عبد الرَّحمن دويب** الذي وهَبه الله الصَّبرَ وطولَ النَّفَس، فجمعَ أَعمالَ الشَّيخ **البوعبدلي** مِن مَظانِّها العَديدة والبعيدة في أَغلبِها، فإِذا هي ثَروة كبيرة تَعتزُّ بها البلاد وتَفتخر بها الثَّقافة العربية الإِسلامية عامَّة.

وهي ثَروةٌ تَشهدُ للشَّيخ بِسعة الأُفقِ الثَّقافي، وتؤَهِّلُ السَّيد **عبد الرَّحمن** لمنزلةٍ رَفيعة في عالمِ البحثِ والتَّنقيب، وتَمنحه تَقديرا عاليا لخدمةِ الثَّقافة والتُّراثِ في هذا القُطر

الذي جنحَ أَهله إِلىٰ الجهلِ بها أَنجَبوا وجايَلوا وتَركوا مِن آثار **يكاد الآخرون يلتهِمونَها، وهو نائِمون.**

فقد كشفَ السَّيد **عبد الرَّحمن** عَن تنوُّع الموضوعات وعُمقِ الدِّراساتِ التي قام بها الشَّيخ **البوعبدلي**، ثمَّ صنَّفها تَصنيفا لا يخرجُ عمَّا يلي:

أولا: قسم خاص بِحياة الشَّيخ مجملة، وفيه فصول تَتناولُ التَّعريفَ بآلِ البوعبدلي وابنها مَوضع الدِّراسة، والتَّعريف بِآثاره، ومَنهجه وآرائِه، ولعلَّ أهمّ الفصول في هذا القِسم هو التَّعريف بِمكتبة الشَّيخ، ثمَّ وفاته وما يَستتبع ذلك مِن وصيَّة وتأبين وما قيل فيه.

ثانيا: قسم يحتَوي علىٰ فصولٍ عديدة، كـ: التراجم والسير، وتاريخ الجزائر ومدُنها، ثمَّ الحياة الثَّقافية بالجزائر، وبالأَخصِّ المراكز والعَواصم والمناطق، ثمَّ المؤلَّفات، والتَّعريف بالكُتب، ثمَّ بالرَّحلات داخل الوطنِ وخارجه، والمراسلات الكثيرة مع أبناءِ يَعرب وأَعيانِ المسلمين والمستَشرقين، ثمَّ المتفرِّقات، وهي كثيرة.

ثالثا: قسم يَبدو أَنَّه قَصير نِسبيًّا لِقلَّةِ ما يحتَويه مِن مادَّة، وهو خاصٌّ بِكتابَين هامَّين قامَ الشَّيخُ بِتَحقيقهِما، وهما: **الثغر الجماني** لأَحمد بن سحنون الرَّاشِدي، **ودليل الحيران** لمحمَّد بن يوسف الزياني.

إذا كان بعض مُعاصري الشَّيخ **البوعبدلي** قد تميَّزوا بالانتماء إلىٰ الحركة الإِصلاحية والإِسهامِ فيها بنصيبٍ مَوفور، أَو إِلىٰ الحركةِ الإِستِقلالية وأَدلَوا فيها بِدلاءٍ فاضَت مِياهها، أَو صعدوا في سلَّمِ المعرفة عَن طريقِ التصوُّفِ أو الأَدبِ أَو الشِّعر أَو الفنِّ، فإِنَّ

الشَّيخَ **البوعبدلي** قَد تميَّز بأَنَّه مِن أَهلِ العلمِ والمعرفة، وستُبرهنُ جهود السَّيد **دويب** على ذلك.

ومِن حُسنِ الطَّالع أنَّ الشَّيخَ كان جامع آثاره شابًّا وناشِرها شابًّا، فالجامع هو **عبد الرَّحمن دويب** الذي عَرفناه عاشِقًا للعلمِ وأَهلِه، أمَّا النَّاشِر فهو **رضا رحموني** صاحب **(دار عالم المعرفة)** صديق المؤلِّفين الجادِّين.

والأَساسي هنا هو أنَّ أهلَ الثَّقافة والتُّراث سيقدِّرون موسوعة الشَّيخ **المهدي البوعبدلي** لأنَّهم سيَتفاجؤون بِغَزارة مُحتواها الذي بلغَ حتى الآن 4000 صفحة في حَوالي ثمانية مجلَّدات، وعلَيه فإِنَّ القرَّاءَ سيُقبِلون على هذه المائِدة التي صفت لهم مِن حيث يَدرون أَو لا يَدرون.

أ/ د. أبو القاسم سعد الله

دالي إبراهيم (بيت الأردن)، 28 سبتمبر 2012

مقدمة
بقلم الأستاذ محمد الهادي الحسني

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ لله حقَّ حمدِه، وصلواتُه الطيِّبات وتحياتُه المباركات على أشرفِ خلقِه، وأفضلِ أَنبيائِه ورُسلِه، وعلى آله وصحبِه، وعلى المهتَدينَ بِهَديِه، المستنِّين بِسُنَّتِه، المتخلِّقين بخلُقِه.

إنَّ أكبر محنة امتُحِنت بها **الجزائر**، وإنَّ أعظمَ بليَّة ابتُلِيَت بها عَبر تاريخها الطويل، هي المِحنة والبليَّة الفرنسية التي دامَت قرنًا واثنتَين وثلاثين سنة، وما نَزال نُعاني مِن آثارها السَّيِّئة إلى اليوم، بعد مُرور خمسين عامًا على تخلُّصِنا مِن الوُجود الفرنسي **الظَّاهري في الجزائر**.

إنَّ الاستعمارَ كلّه رِجس، ولكنَّ الاستعمارَ الفرنسي أكثر رِجسا، وإنَّ الاستعمارَ كلّه عَذاب، ولكنَّ الاستعمارَ الفرنسي أشدّ عَذابا مادِّيًّا ومَعنويًّا، وإنَّ الاستعمارَ كلّه شرّ، ولكنَّ الاستعمارَ الفرنسي أكبر شرًّا، فهو كما قال أحدُ الكتَّاب الأُوربيِّين: «إذا كان الله قَد خلقَ مُستَعمِرًا أسوأ مِن الإستعمار الفرنسي فإنَّه لم يخبِرني به »، انظر **محمَّد الصالح الصدِّيق: (مِن قلب اللَّهيب)**.

إنَّ الغالِبَ على أيِّ استعمارٍ هو أنَّه يَستَهدِف الجوانبَ المادِّيَّة في البلدانِ التي يحتلُّها، فيَستعبِد الإنسان، ويُسخِّره للعملِ مجَّانا أو بثَمنٍ بَخسٍ لِفائِدته، ويستغلّ الخيرات الطبيعية لمصالحِه، حارِمًا أَبناءَ البلدِ مِن تلك الخيرات، ولكنَّ الإستعمارَ الفرنسي تميَّز ـ

إضافةً إِلى الجَشَع والنَّهبِ ـ بِالرُّوح الصَّليبيَّة والنَّزعة العِرقية العُنصريَّة، ولذلك فقَد استهدفَ في البلدانِ التي استَعمرَها ـ خاصَّة **الجزائر** ـ الأَرواح والأَشباح، والأَرواح قبلَ الأَشباح، والعقولَ والحقول، والعقول قبلَ الحقول.

لقَد علَّق الإمام **عبد الحميد ابن باديس** مرَّةً علىٰ خطابِ الوالي العام الفرنسي في **الجزائر** الذي قال فيه: « إنَّ نِسبةَ الوفيات بينَ الأَطفالِ الجزائريِّين حَديثي الوِلادة مُرتَفِعة »، فعقَّب الإِمامُ **ابنُ باديس** علىٰ هذا الكلامِ قائِلا: « إِنَّنا نُعاني مِن الموتِ الفِكري أَضعافَ ما نُعانيه مِن الموتِ المادِّيّ».

كان هدَف **فرنسا** العاجل في **الجزائر** هو إِزالة **الدَّولة الجزائريَّة**، وقد تمَّ لها ذلك في: 5/ 7/ 1830 باحتِلالها مَدينة **الجزائر** (عاصمة الدَّولة)، وكان هدفها ـ **فرنسا** ـ الآجل هو محو الأُمَّة الجزائرية بِمَحوِ مُقوِّماتها ... مِن دين، ولسان، وعادات، وتقاليد ... فإذا كانَت الدُّول تَتشابَه في الهياكلِ والمؤسَّسات فإِنَّها تَتمايَز في الجوانب الحضاريَّة والثَّقافية.

لقَد اعتَمدت **فرنسا** لتَحقيقِ هَدفها الآجل علىٰ **سياسة (التَّجهيل)**، ليسهلَ علَيها محو الأمَّة الجزائرية، فَمنَعت الجزائريِّين مِن تَعلُّمِ وتَعليمِ دينهِم ولغتهم، وتاريخهم ... وهدمت مُنشآتهم، وأَتلفَت وثائِقَهم، وأَحرقَت مكتباتِهم ... وشوَّهت أَسماءَ مُدنهِم وقُراهم أَو غيَّرتها ... وحقَّرت في أَعيُنهِم وعقُولهِم كُبراءَهم مِن علماء، وأُدباء، وقادة سياسيِّين وعَسكريِّين ... وزَعمَت أنَّ أصلَ الجزائريِّين **غالي** (gaulois) أَو لَاتيني، وادَّعت أنَّ **الجزائر** لم تكُن أمَّة، ولم تؤسّس دولة، ولم تُنشِئ حضارةً ولا ثَقافة، بل زَعم أحدُ «**علمائها**» ـ وهو: **بيير مُورْلان** ـ أنَّ «الجزائريِّين غير قابِلين للتَّربية»، وقَد استَعانَت **فرنسا** في تَنفيذِ خُطَّتها في تَجهيلِ الجزائريِّين بِدينهم، ولُغتهِم، وتاريخهِم، وفي بَترهِم عَن جُذورهِم بِما سمَّاه الأُستاذ **مولود قاسم**: «**الترسانة التاريخية**».

لا شكَّ في أنَّ **فرنسا** قد حقَّقت بعض النَّتائج في هذا الميدان، حيثُ كتبَ أحدُ «**الجزائريِّين**» كِتابًا زعمَ فيه «أنَّنا لاتِنيون»، وكتبَ أحدُهم مَقالا نفَىٰ فيه وجودَ أمَّةٍ

جَزائريَّة بعدَما سألَ التَّاريخ، واستَنطقَ المقابر ... وجعلَ عنوانَ ذلك المقال: (**أنا فرنسا**)، وقد تَراجعَ هذا الشَّخصُ عمَّا قال، وكانَت آخِرته حَسنة، فَندعو الله له بالرَّحمة والمغفِرة.

إنَّ مِن سُننِ الله (سبحانَه وتعالىٰ) في خلقِه سنَّة التَّدافُع، وهذا التَّدافع كما يكونُ في الميدانِ المسلَّح يكونُ في الميدانِ الفِكري والحضاري، وقد تصدَّىٰ الجزائريون للفرنسيِّين في الميدان العسكري، وأَعلنوا كثيرا مِن الثَّوراتِ المسلَّحة حتىٰ سُمِّيت الجزائر: «**الأرض البركانية**».

ولكِنَّهم تأخَّروا في التَّصدِّي الفِكري للفرنسيِّين، خاصَّةً في مَيدانِ التَّاريخ، وسببُ ذلك التأخُّر هو السِّياسة الرَّهيبة التي انتَهجَتها فرنسا في هذا الميدان، التي تمثلت في:

- طردِ العلماء والنُّخبة المثقَّفة إلىٰ خارج **الجزائر**.
- منعِ مَن بقي منهم في **الجزائر** مِن أيِّ نشاطٍ منظَّمٍ مُثمِر.
- عدمِ وجود مَطبعة وَطنية إلىٰ مُنتصَف العشرينيات مِن القَرن العشرين، فقَد كان الشَّيخُ **أبو اليقظان** ـ مَثلا ـ يحرِّر جَريدتَه (**وادي ميزاب**) في **الجزائر**، ثمَّ يُرسِلُها إلىٰ **تونس** لتُطبعَ هناك، ثمَّ يُعيدها مطبوعةً إلىٰ **الجزائر**، وقَد تُصادِرها السُّلطات الفرنسية، ولا يخفَىٰ ما في هذِه العمليَّة مِن عنَتٍ، وخَسارة مادِّيَّة.
- فَرضِ حِصارٍ علىٰ دُخول الكتُبِ العِلمية ـ خاصَّةً التَّاريخية ـ مِن الدُّولِ العربية، وكان إدخال كتابٍ إلىٰ **الجزائر** في نَظر الفرنسيِّين أَخطر مِن إدخال المخدِّرات ... (انظر مَقالا للأستاذ الدكتور **أبي القاسم سعد الله** تحت عنوان: «**لعنة ميرانت**»)، و**ميرانت** هو مدير الشُّؤون **الأَهلية**، وهي المديرية التي سمَّاها الإمام **ابن باديس**: «**المملكة**»، لأنَّها كانت لا تُسأل عمَّا تَفعله في قَمع العلماءِ والنُّخبة مِن ذَوي الالتِزام الدِّيني والوطني، فقَد أوصَىٰ **ميرانت** المسؤولين الفرنسيِّين بِمُحاربة الكِتاب العربي وعَرقَلة إِدخالِه إلىٰ **الجزائر**.

وبالرَّغمِ مِن ذلك كلِّه، فقَد بدأَ الجزائريُّون يَنشرون كُتبا قَديمةً لأَسلافهِم، لها صِلة بِتاريخِهم الثَّقافي، مثل: كتاب (**الرحلة الورتلانية**) للشَّيخ **الحسين الورتلاني**، و(**عنوان الدِّراية**) لـ: **الغبريني**، و(**البستان في ذكر العلماء والأولياء في تلمسان**) لـ: **ابن مريم**، ثمَّ كتبَ الأميرُ **محمَّد ابن** الأَمير **عبد القادر** كتاب: (**تحفة الزائر في تاريخ الجزائر**)، وكتبَ **الحفناوي** كتابَه: (**تعريف الخلَف برجال السَّلف**).

كان أوَّل مَن تصدَّىٰ جِديًّا لمواجهة الفرنسيِّين في ميدانِ التأليفِ في **تاريخ الجزائر**، هو الشَّيخ **مبارك الميلي**، الذي أصدرَ في مُنتصفِ العشرينيات كتابَه القيِّم: (**تاريخ الجزائر في القديم والحديث**)، الذي استُقبِلَ باهتمامٍ كبير، وتُقُبِّلَ بِقبولٍ حسنٍ مِن الجزائريِّين، لأنَّه عرَّفهم ما لم يكونوا يَعرفون عَن تاريخهم، وأثبتَ لهم كذبَ الاِدِّعاءات الفرنسية، فأَعاد إِليهم الثِّقة في أنفُسهِم، وبعثَ فيهم الاِعتِزازَ بِسَلفهِم، ولهذا تمنَّىٰ الإِمام **ابن باديس** علىٰ تِلميذه **مبارك الميلي** لو سمَّىٰ كِتابَه: (**حياة الجزائر**)، ثمَّ أعقبَه (**كتاب الجزائر**) للأستاذ **أحمد توفيق المدني**، ثمَّ عُزِّز الكِتابانِ بِثالِثٍ للشَّيخ **عبد الرحمن الجيلالي** هو كتابه: (**تاريخ الجزائر العام**».

لقد اشتَرَكت هذِه الكتُب الثَّلاثة في ميزةٍ واحِدة، هي المزجُ بين التَّاريخ السِّياسي والتَّاريخ الثَّقافي للجزائريِّين، حيثُ أشارَت هذه الكُتب الثَّلاثة بِدَرجاتٍ مُتفاوِتة إلىٰ إِسهامِ الجزائريِّين في الحضاراتِ التي عاصَروها، خاصَّة الحضارة الإِسلامية التي ضَربوا فيها بِسَهمٍ وافِر، وكانوا في بعضِ الميادين رادَة ... وكان القصدُ مِن ذلك هو نَسفُ الأكاذيب الفرنسية بعدمِ وجود فِكر وثَقافة للجزائريِّين، كأنَّهم ليسوا بشَرا مِمَّن خلقَ الله.

إذا كانت المواجهةُ العَسكريةُ بين **الجزائر** و**فرنسا** قَد انتهَت بانتِصارِنا بِطَردِ الفرنسيِّين في 1962 مِن أَرضِنا، فإِنَّ هذِه المواجهةَ في الميدانِ الفِكري ـ وفي الجانبِ التَّاريخي خصوصًا ـ ما تَزال مُستَعِرة، لأنَّ الفرنسيِّين ما يَزال أكثرهم مصرِّينَ علىٰ

أَفكارهم غَير العِلميَّة، وعلىٰ آرائهِم غَير الموضوعيَّة في هذا الميدان، وهم يجتَهِدون في إِذكاءِ حَربِهِم النَّفسية ضِدَّ الجزائريِّين، ويحرِصون في ذلك أشدَّ الحِرص علىٰ مَنع استِعادة الجزائريِّين لأَرشيفهِم الذي سَرقَه الفرنسيُّون، لكي يَبقىٰ سِلاحًا بأَيديهِم، ولهذا كتبَ في سنة 1964 الأستاذ **محمَّد الشريف ساحلي** كِتابًا باللغة الفرنسية، دَعا فيه إلىٰ ما سمَّاه: «**تحرير التاريخ**»، وهو يَقصد التَّاريخ الجزائري مِن سَيطرة المدرسة التاريخية الفرنسية ذات التَّوجُّه العُنصري، المتَّسِمة بتَزييفِ الحقائق، وتحريفِ الكلِم عَن مَواضعِه، وقَد يُفضي **(استعمار التاريخ)** إلىٰ **(استعمار الجغرافيا)**، وقد يؤدِّي استِعمار الأذهان إلىٰ استعمار البلدانِ والأَوطان.

مِن الذين عمِلوا في مَيدانِ التَّاريخ الجزائري السِّياسي والثَّقافي الشَّيخ **المهدي البوعبدلي** (رحمه الله)، الذي بذلَ جهودًا كثيرة لتَجلِية هذا التَّاريخ، وتَعريفِ الجزائريِّين بِه، فكتَب وحاضَر حتىٰ جاوزَ ما جَمعه له الأستاذ **عبد الرحمن دويب** 4000 صفحة، وزَّعها علىٰ ثمانية مجلَّدات.

هناك **فكرة** يُردِّدُها بعض الكاتبِين هنا وهناك، وهي أنَّ أسلافَنا الذين تَولَّوا الكِتابةَ في مجالِ التَّاريخ الجزائري لَيسوا أكادميِّين، إذ لم يتخصَّصوا في التَّاريخ، ولم يلتَزِموا في كِتابتِهم مَناهجَ البحثِ الحديثة، ويَدعون بسببِ ذلك إلىٰ عَدمِ الإِقبالِ علىٰ كِتاباتِهم، لأنَّها ـ في زَعمِهم ـ «**غير عِلميَّة**».

وأَردُّ علىٰ هؤلاءِ وأُولئِك قائلا: ما لكم تَقبَلون وتُقبِلون علىٰ كِتاباتِ: **هَانُوتُو**، و**شارل فيرو**، و**جبريال إسكير**، و**إميل فيلكس جوتي**، و**لويس رين** ... وغيرهم، وهم لَيسوا مؤرِّخين، وليسوا مَنهجيِّين، وليسوا موضوعيِّين ؟

أَلا إِنَّهم مِن إِفكهِم لَمحجُوجُون.

إِنَّ تأكُّدَ أَسلافِنا مِن الهدَفِ الخسيسِ للمدرسةِ التَّاريخية الفرنسيَّة الخائِنة للضَّمير العِلمي، والمُضحِّيَّة بِالمنهجيَّة العِلميَّة علىٰ مَذبح الأيديولوجية الإِستِعمارية هو الذي

دفعَهم ـ مِن غَير إِعدادٍ وتخصُّص ـ إِلىٰ مُنازلةِ الفرنسيِّين في هذا الميدان، كَما فَرضَت الظُّروفُ علىٰ **الأَمير عبد القادر**، و**فاطمة نسومر**، و**المقراني**، وابن **ناصر بن شهرة**، و**ابن زيان**، و**بوعمامة**، و**الشريف ابن عبد الله**، ومجاهدي الصَّحراء، و**مجاهدي أوَّل نوفمبر** أَن يُواجِهوا ـ وهم غير عسكريِّين ـ الجيوشَ الفرنسيَّة وقادتها المدرَّبين قِتاليا، والمُعَدِّين عِلميًّا لخوضِ الحروبِ وقيادةِ المعارك.

لقد قدَّم الأستاذ **عبد الرحمن دويب** ـ في صَمتِ الباحثِ وجدِّه، وزُهدِ النَّاسِك، خدَماتٍ جليلة للثَّقافة الجزائرية، ومِن هذِه الخدمات جمعُه لهذِه (**الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي**)، ووضعها تحتَ تصرُّفِ الباحثين في **الجزائر** وخارجها، وبذلك فهو يستَحِقُّ الشُّكرَ والتَّقدير، خاصَّة أنَّه قامَ بذلك في **الجزائر** التي كتبَ لي أُستاذي **أبو القاسم سعد الله** رسالةً عِندما كنتُ في **باريس** (1987)، جاء فيها: « إنَّ الكتابةَ في الجزائر مُعجزة ».

ولا شكَّ أنَّ ممَّا ساعدَ الأستاذ **عبد الرَّحمن** علىٰ إنجاز ما أَنجَزه هو الإِستِعداد الكامل للأُستاذ **رضا رحموني**، صاحب دار **عالم المعرفة للنَّشر**، لتبنِّي هذا العمل المتميِّز وغيره مِن الأَعمالِ الجادَّة والجيِّدة، ونَرجو أن يجِدَ هذا العمل ما هو بِه حقيق مِن إِقبالٍ عليه واهتمامٍ به.

فَجزاهما الله أَحسنَ الجزاء، مُعجَّلا في الدُّنيا، ومؤَجَّلا في الآخِرة.

ورَحم الله علماءَنا العامِلين، وجَزاهُم الجزاءَ الأَوفىٰ، وثبَّتنا جميعًا بِالقولِ الثَّابتِ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخِرة.

محمَّد الهادي الحسني

البليدة: 14 ذو القعدة 1433هـ

30 سبتمبر 2012م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حق حمده، وصلواته الطيبات وتحياته المباركات على أشرف خلقه، وأفضل أنبيائه ورسله، وعلى آله وصحبه، وعلى المهتدين بهديه، المستنين بسنته، المتخلقين بخلقه..

إن أكبر محنة امتحنت بها الجزائر، وإن أعظم بلية ابتليت بها عبر تاريخها الطويل هي المحنة والبلية الفرنسية التي دامت قرنا واثنتين وثلاثين سنة، وما نزال نعاني من آثارها السيئة إلى اليوم بعد مرور خمسين عاما على تخلصنا من الوجود الفرنسي الظاهري في الجزائر..

إن الاستعمار كله رجس، ولكن الاستعمار الفرنسي أكثر رجسا، وإن الاستعمار كله عذاب ولكن الاستعمار الفرنسي أشد عذابا ماديا ومعنويا، وإن الاستعمار كله شر، ولكن الاستعمار الفرنسي أكبر شرا، فهو كما قال أحد الكتاب الأوربيين: "إذا كان الله قد خلق مستعمرا أسوأ من الاستعمار الفرنسي فإنه لم يخبرني به". (انظر محمد الصالح الصديق: من قلب اللهيب).

إن الغالب على أي استعمار هو أنه يستهدف الجوانب المادية في البلدان التي يحتلها، فيستعبد الإنسان، ويسخره للعمل مجانا أو بثمن بخس، ويستغل الخيرات الطبيعية لصالحه، حارما أبناء البلد من تلك الخيرات؛ ولكن الاستعمار الفرنسي تميز - إضافة إلى الجشع والنهب - بالروح الصليبية والنزعة العرقية العنصرية، ولذلك فقد استهدف في البلدان التي استعمرها - خاصة الجزائر - الأرواح والأشباح، والأرواح قبل الأشباح، والعقول والحقول، والعقول قبل الحقول.

لقد علق الإمام عبد الحميد ابن باديس مرة على خطاب الوالي العام الفرنسي في الجزائر الذي قال فيه: إن نسبة الوفيات بين الأطفال الجزائريين حديثي الولادة مرتفعة، فعقب الإمام ابن باديس على هذا الكلام قائلا: إننا نعاني من الموت الفكري أضعاف ما نعانيه من الموت المادي.

كان هدف فرنسا العاجل في الجزائر هو إزالة الدولة الجزائرية، وقد تم لها ذلك في 5/7/1830 باحتلالها مدينة الجزائر، عاصمة الدولة، وكان هدفها - فرنسا - الآجل هو محو الأمة الجزائرية بمحو مقوماتها.. من دين، ولسان، وعادات، وتقاليد.. فإذا كانت الدول تتشابه في الهياكل والمؤسسات فإنها تتمايز في الجوانب الحضارية والثقافية..

لقد اعتمدت فرنسا لتحقيق هدفها الآجل على سياسة «التجهيل»، ليسهل عليها محو الأمة الجزائرية، فمنعت الجزائريين من تعلم وتعليم دينهم، ولغتهم، وتاريخهم.. وهدمت منشآتهم وأتلفت وثائقهم، وأحرقت مكتباتهم.. وشوهت أسماء مدنهم وقراهم أو غيرتها.. وحقرت في أعينهم وعقولهم كبراءهم من علماء، وأدباء، وقادة سياسيين وعسكريين.. وزعمت أن أصل الجزائريين غالي (Gaulois) أولاتيني، وادعت أن الجزائر لم تكن أمة، ولم تؤسس دولة، ولم تنشئ حضارة ولا ثقافة، بل زعم أحد "علمائها" - وهو پيير مونلان - أن الجزائريين غير قابلين

-1-

صورة عن الصَّفحة الأولى مِن مقدِّمة الأستاذ محمد الهادي الحسني

جبريال إميل فيلكس
وشارل فيرو، وإسكير، وأجوتي، ولويس رين... وغيرهم وهم ليسوا مؤرخين، وليسوا منهجيين، وليسوا موضوعيين..؟ إلا أنهم من إفكهم لمحجوجون.

إن تأكد أسلافنا من الهدف الخسيس للمدرسة التاريخية الفرنسية الخائنة للضمير العلمي، والمضحية بالمنهجية العلمية على مذبح الأيديولوجية الاستعمارية هو الذي دفعهم - من غير إعداد وتخصص - إلى منازلة الفرنسيين في هذا الميدان، كما فرضت الظروف على الأمير عبد القادر، وفاطمة نسومر، والمقراني، وابن ناصر بن شهرة، وابن زيان، وبوعمامة، والشريف ابن عبد الله، ومجاهدي الصحراء، ومجاهدي أول نوفمبر أن يواجهوا - وهم غير عسكريين - الجيوش الفرنسية وقادتها المدربين قتاليا، والمعدين علميا لخوض الحروب وقيادة المعارك.

لقد قدم الأستاذ عبد الرحمن دويب - في صمت الباحث وجده وزهد الناسك - خدمات جليلة للثقافة الجزائرية، ومن هذه الخدمات جمعه لهذه «الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي»، ووضعها تحت تصرف الباحثين في الجزائر وخارجها، وبذلك فهو يستحق الشكر والتقدير، خاصة أنه قام بذلك في الجزائر التي كتب لي أستاذي أبو القاسم سعد الله رسالة عندما كنت في باريس (1987) جاء فيها: «إن الكتابة في الجزائر معجزة».
ولا شك أن مما ساعد الأستاذ عبد الرحمن على إنجاز ما أنجزه هو الاستعداد الكامل للأستاذ رضا رحموني، صاحب دار المعرفة للنشر - لتبني هذا العمل المتميز، وغيره من الأعمال الجادة والجيدة، ونرجو أن يجد هذا العمل ما هو به حقيق من إقبال عليه واهتمام به. فجزاهما الله أحسن الجزاء، معجلا في الدنيا، ومؤجلا في الآخرة.
ورحم الله علماءنا العاملين، وجزاهم الجزاء الأوفى، وثبتنا جميعا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة؟

محمد الهادي الحسني

البليدة 14 ذو القعدة 1433 هـ
30 سبتمبر 2012 م

- 4 -

صورة عن الصَّفحة الأخيرة مِن مقدِّمة الأستاذ محمد الهادي الحسني

تقريظ
بقلم الشَّيخ محمَّد الطاهر أَيت علجت



الحمدُ لله، والصَّلاةُ والسَّلام على رسولِ الله وآله وصحبِه.

إنَّ الأستاذَ الفاضِل **عبد الرَّحمن دويب** مِن شبابِ الجزائر النَّاهِض العامل في حقلِ الثَّقافة الإسلامية عامَّة، والباحثِ في تاريخ الجزائر خاصَّة، بما في ذلك هذا التَّأليف القيِّم الجامع لآثار الشَّيخ **المهدي البوعبدلي** (رحمه الله)، التي اهتمَّ بِجمعِها منذ نعومة أظفاره، ومنذ تخرُّجِه مِن جامعة الزَّيتونة وعيِّنَ مفتيا في عاصمة الحمَّاديِّين بجاية، حيثُ تعرَّفتُ بِه هناك في بِداية الأَربعينيات، وعرفتُ فيه جهودَه المبذولة في نشر الثَّقافة الإسلامية، وأعماله المشكورة التي أَثمَرت اِلتِفاف النَّاس حولَه، شيوخا وكهولا وشبابا، بِفضلِ ثقافتِه المتينة، وأخلاقِه العالية، ونشاطِه الجمِّ، وتَوجيهه السَّليم، وحِرصِه الشَّديد على جمع الشَّمل وتَوحيدِ الرَّأي وغَرسِ المعرفة الحقَّة في مختلف الطَّبقات.

علاوةً على اتِّصالاتِه الدَّائبة بالبيوتاتِ العِلميَّة في **بجاية** و**وادي الصُّومام**، التي استطاعَ بِفضلِها أن يحصلَ على كنوزٍ مِن المعرفة الحقَّةِ المتنوِّعة بِما تحويها مِن كتُبٍ نادِرة، ومخطوطاتٍ جمَّة نفيسة كانت توجِّهه نحو دراسةِ تاريخ **الجزائر** كما قال لي يوما: « إنَّ **وادي الصُّومام** هو الذي بعثَ فيَّ روحَ البحثِ والتَّنقيب على الحياةِ الثَّقافية السَّائدة في مختلف مَناطق **الجزائر** الواسِعة ».

كتبَه الرَّاجي عفوَ ربِّه وغفران ذنبِه

محمَّد الطاهر أيت علجت

بتاريخ 09 جمادى الأولى 1432هـ/ الموافق: 13 أفريل 2011م

بالجزائر العاصمة (بوزريعة)

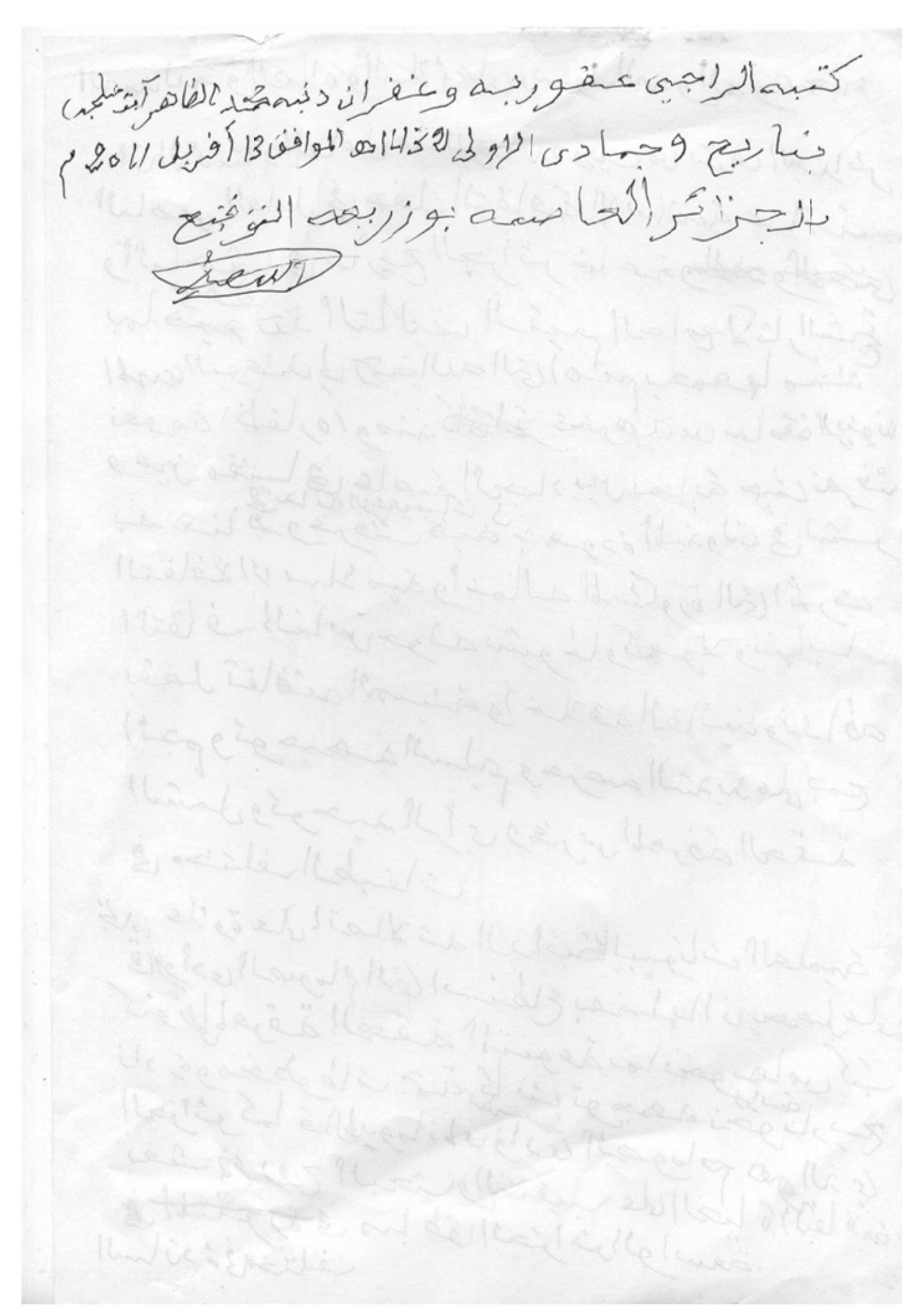
التَّوقيع

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه

إن الأستاذ الفاضل عبد الرحمان دويب من شباب الجزائر
الناهض العامل في حقل الثقافة الإسلامية عامة
والباحث في تاريخ الجزائر خاصة
بما أنجز ذلك هذا التأليف القيم الجامع لآثار الشيخ
المهدي البوعبدلي رحمه الله التي اهتم بجمعها منذ
نعومة أظفاره، ومنذ تخرجه من جامعة الزيتونة
وعين مفتيا في عاصمة الحماديين بجاية حيث تعرفت
به هناك في بداية الأربعينيات وعرفت قيمة جهوده المبذولة في نشر
الثقافة الإسلامية وأعماله المشكورة التي أثرت
التفاف الناس حوله شيوخا وكهولا وشبابا
بفضل ثقافته المتينة وأخلاقه العالية
الجم وتوجيهه السليم وحرصه الشديد على جمع
الشمل وتوحيد الرأي وغرس المعرفة الحقة
في مختلف الطبقات

علاوة على اتصالاته الدائبة بالبيوتات العلمية ببجاية
وبوادي الصومام التي استطاع بفضلها أن يحصل على
كنوز المعرفة الحقة المتنوعة بما تحويها من كتب
نادرة ومخطوطات جمة كانت توجهه نحو دراسة تاريخ
الجزائر كما قال يوما: إن وادي الصومام هو الذي
بعث في نفسه روح البحث والتنقيب على الحياة الثقافية
السائدة في مختلف مناطق الجزائر الواسعة.

صورة عن الصَّفحة الأولى مِن تقريظ الشَّيخ أيت علجت



كتبه الراجي عفو ربه وغفران ذنبه محمد الطاهر آيت علجت

بتاريخ 9 جمادى الأولى 1432هـ الموافق 13 أفريل 2011م

بالجزائر العاصمة بوزريعة التوقيع

صورة عن الصَّفحة الثَّانية مِن التَّقريظ

مقدِّمة
بقلم الشَّيخ عياض البوعبدلي
(حفظه الله تعالى)[1]



نُزولا عند رَغبة الأستاذ **عبد الرَّحمن دويب** صاحب الدِّراسة الضَّافية الشَّامِلة للشَّقيق **المهدي البوعبدلي** لتقديمِ معلوماتٍ شَخصية تمكِّن قارئَ الكتابِ مِن تَوسيع مجالِ اطِّلاعه إلى ما قَد يحيطُ بالموضوع مِن ظروفٍ وخصوصياتٍ وأَحداثٍ تجعلُه أكثر إلمامًا به.

ولهذا الغرضِ رأيتُ أن أذكُر تاريخَ العائلة التي ينحدِرُ منها الشَّيخ **المهدي البوعبدلي** مِن مَوطنها الأَصلي: بلاد **الونشريس**، إلى مَسقَط رأسِه ووفاتِه: **بطيوة**، والتَّعريفَ بهذا البلدِ وما امتازَ به مِن أَحداث.

ولد الشَّيخ **المهدي** يوم 30جانفي 1907 في البيت الذي توفي به في شهر جوان

(1) استلمتُ هذه المقدِّمة المرقومة بخطِّه مِن يده الكريمة بالجزائر العاصمة يوم الثلاثاء 13 شعبان 1434هـ الموافق لـ: 3 جويلية 2012م.

1992، وينحدِر نسبُه مِن قبيلة **مغراوة** (الونشريس)، وقد اشتهَر الكثير مِن أَسلافِه بالعلمِ والصَّلاح، وتَوارثوا مَقاماتِ الرِّياسة في التَّدريس والمشيَخة الرُّوحية، وقد ترجم المؤرِّخُ **محمد أبو راس الناصري** في كتابه (**الخبر المعرب**) لأحدهِم، وهو الشَّيخ **واضح** جدُّ **أَبي عبد الله المغوفل**، فقال: « ومنهم الشَّيخ **واضح بن محمد بن عيسى بن فكرون**، توفي سنة 865هـ، سمَّاه أبوه على شيخه الشَّيخ **واضح بن عاصم المكناسي** (دفين خنق ارهيو) ».

وذكر الشَّيخُ **أحمد بابا التنبكتي** في (**ذيل الدِّيباج**) ما نصُّه: « **واضح بن عثمان بن محمد بن عيسى بن فكرون المغراوي**، أبو البيان، الفقيه القاضي الأَعدل الصَّالح، قال **أحمد بن يحيى الونشريسي** صاحب (**المعيار**) في (**وفياته**) مِن بعدِ وَصفِه بما ذكر: بلديُّنا وقَريبنا، توفي سنةَ ستٍّ وخمسين وثمانمائة للهجرة 856هـ » انتهى كلام الشَّيخ **أحمد بابا**.

والخلافُ في تاريخ الوفاة يَدعو إلى ترجيح رواية **الونشريسي**، لما كان بينَه وبينَ الشَّيخ **واضح** مِن مُعاصرةٍ وجِوارٍ وقَرابة.

أبو عبد الله المغوفل (حفيد الشَّيخ **واضح**) هو جدُّ الأُسرة البوعبدلية الشَّلفية، ذكَره **أحمد بن القاضي المكناسي** في (**جذوة الاقتباس**) عنَد ترجمتِه لـ: **محمَّد بن علي الخروبي**، حيث قال: « كان ـ **الخروبي** ـ يَروي عَن **عمر بن زيان المديوني** عن **أبي عبد الله محمد بن يوسف السَّنوسي** عن **أبي إسحاق إبراهيم التَّازي** (صاحب وهران) عن **محمد بن واضح الشَّلفي** ».

و**محمد بن واضح** هذا، هو الذي انتقَل مِن **الونشريس** إلى بلادِ **شلف**، حيث استقرَّ بعائلَتِه، وهناك قُربَ مدينة **وادي ارهيو**، ولِدَ ابنه **أبو عبد الله المغوفل**، وهو صاحب أرجوزة (**الفلك الكواكبي**) التي تفوقُ أبياتُها ثلاثمائة بَيت، ذكَر فيها علماءَ وصُلَحاءَ **البطحاء** (**المطمر**) قُرب (**غيليزان**)، الذين وُجِدوا فيها في القرون السادس والسابع

والثامن.

ويذكره **محمد أبو راس الناصري** في كتابه: **(عجائب الأَسفار ولطائف الأخبار)** بِقَوله: « ومنهم **أبو عبد الله المغوفل**، كان أحد أعجوباتِ الدَّهر في علمِه وورَعه وكراماتِه، يشهدُ لعلمِه قصيدة مدحَ بها النَّبيَّ ﷺ، فيها سَبعون بيتا ليسَ فيها حرفٌ مما يستحقُّ النقط، بل كلُّها عَواطل مِن النقط، وكفى بِه حجَّة، وكان **دقيش** الذي هو مِن نَسلِ **بني مخزوم** يخدُمه، وخرجَ مِن نسلِه علماء وأَولياء (نفعنا الله بهم) يعسُر عدُّهم » اهـ.

وهذِه بعضُ أبياتٍ مِن القصيدة التي أشارَ إليها **أبو راس**:

حرس الإلـه حلى الإمـامِ محمَّـد	وكسا علاه حلى الرَّسـولِ الأَحمـدِ
وأماحَـه عسـلَ السُّـلوِّ وراحـه	وأَراحَـه أمـل العـدوِّ الأَحسـدِ
الكامـلِ الآمـلِ المؤمَّـلِ للـورَى	والعامـلِ العمـلَ المهـمِّ الأَوكَـدِ
مَـولى الملـوكِ إمـامهم وهُمـامهم	أعلى السُّلوك هِلال سَعدِ الأَسـعَدِ

وأكَّد الوالدُ (رحمه الله) أنَّ الممدوحَ بهذِه القصيدة إنَّما هو أحدُ أمراءِ عَصره، وليس الرَّسول ﷺ.

أما سببُ استيطانِ أُسرةِ الشَّيخ **المهدي** في **بني خلاد** بِجبال **ترارة** المتدَّة فيها بين **وادي تافنة** والحدود المغربية، فهو [قدوم] جدُّ أبيه **محمد** الملقَّب بـ: **المقدم** مِن مَسقطِ رأسِه بـ: **شلف** (أولاد سيدي الميهوب) إلى هذِه النَّواحي الجبلية التي ظلَّت بِمَعزل مِن الوُجود الأَجنبي إلى حدِّ الأَربعينات، نظرا لوُعورة مَسالِكها، وتكاثُفِ غاباتها، وندرة المساحاتِ الزِّراعية بها، وانعِدام المجموعاتِ السَّكنية الكبيرة التي كانت تجلب المعمِّرين الفرنسيِّين ومَن كان يُرافِقُهم مِن الأُوربيِّين الأفاقين والمرتَزقة.

ذلك أنَّه كان في رُفقة **الأَمير عبد القادر** حتى استِسلامِه ومُغادَرته **الجزائر** نحو

فرنسا، فرجعَ هو إلىٰ أهلِه بِالبلد الشَّلفي المسمَّىٰ اليوم بـ: **أولاد سيدي الميهوب،** وكان أهله تخلَّوا عَن **الأمير عبد القادر** بعدَ الخِلاف الذي أثارته وَفاة الخليفة السيد **العريبي** وهو في ضِيافة **الأَمير،** فما كان له إِلَّا أَن غادَر أهلَه مَصحوبًا بِولَدِه **عبد القادر** اليتيم مِن الأُمِّ التي كانت قَد توفيت عن وَحيدِها هذا، وتوجَّه السيد **محمد المقدم** بولدِه نحو غرب البلاد، قاصِدا الاِبتعادَ عَن أرضٍ يحكمُها الكفَّار، وعَن سكَّانها الذين تورَّطوا بقبولهم والإِذعان لحكمهِم.

وكان أَحدُ أقاربه وتلميذ مولاي **العربي الدرقاوي** (مؤسِّس الطريقة الدرقاوية)، وهو الشَّيخ **العربي بن عطية** قد قرَّر الهِجرةَ كما في رسالةٍ كتَبها إِلىٰ أحدِ علماءِ البلاد الشَّلفية، وهو الشَّيخ **عدَّة بن محيي الدين** يقول فيها: « فإنِّي في حيرة مما أصابَنا مِن الإقامةِ بينَ أَظهُر الكافرين، وقد ذمَّها رسولُ الله ﷺ في قوله: أنا بريءٌ مِن كلِّ مسلمٍ مُقيمٍ بينَ أظهُرِ الكافرين، وقوله أيضا: مَن باتَ ليلةً في أرضِ الكفر ناويًا الإِقامة، فقَد حبِطَ له عمل أَربعين سنة، وقوله ﷺ: نارُ المؤمنِ ونارُ الكافرِ لا يتَريان، بمَعنىٰ لا يتقارَبان، فادعوا الله لنا أن ينجينا مِن هذِه المصيبة، وينجي جميعَ المسلمين، وأن يردَّ علَينا وعلَيهم في جَمع الكلِمة علىٰ إِقامة شَرائع الدِّين التي أَتانا بها رسولُ ربِّ العالمين ».

وقد هاجَر صاحبُ الرِّسالة إِلىٰ **تونس،** حيث ماتَ ودُفن.

وكان **محمَّد المقدم** هذا، قَد تعاشَر مع **الأمير عبد القادر** طالبا للقرآن والعلمِ في **بطيوة** لدَىٰ الشَّيخ القاضي **أحمد بن الطاهر،** والتحقَ به عند مُبايعتِه أميرا، ولم يفارِقه في جهادِه إلىٰ يومِ انتهاءِ نِضاله، ثمَّ استقرَّ في بلاد **ترارة،** بِقبيلة **بني خلال،** حيث لجأَ الكثير مِن أَمثالِه الذين دفَعتهم الأَنفة إِلىٰ الهِجرة حِفاظًا علىٰ دينهِم وسَلامتهِم مما قَد يضرُّ بهما.

وبما أنَّ البلادَ كان لا يَصِلُها مِن حكمِ الاِحتِلال الجديدِ إلَّا علىٰ يدِ قيادٍ وموَظَّفين مُسلمين، فإِنَّ الكثيرَ مِن العائلاتِ المهاجِرة مكثوا في هذِه البِقاع، حيث لا يرَون أَجنبِيًّا ولا ما يَسوؤهم في دينهِم وحياتِهم.

حفظَ القرآنَ الكريم **عبدُ القادر البوعبدلي** على أبيه **محمَّد المقدم**، ولم يعدُ سِنَّ التزوُّج، فلما أينعَ الولدُ زوَّجه.

واتَّخذَ **محمَّد المقدم** على شاطئ البحرِ الصَّخري، بسفح جبل **هُنين** كوخًا مكثَ فيه منفردا مُنقطِعا للتِّلاوةِ والعبادةِ إلى أَن مات ودُفن فيه، وما زالَ الضَّريحُ شاخِصًا مُحاطًا بِجُدرانٍ لا يبلغُ ارتفاعُها مترا واحِدا، وشاءَ القدرُ أَن يبقَى هذا القبرُ مَعزولا عَن النَّاس، إِذ أَصبحَ المكانُ مقرًّا لشركةِ أَعمالٍ أَجنبيَّة يتعذَّر الوصولُ إِليه دونَ المرور في داخِلها، وهو أمرٌ غَير مرخَّص فيه.

أَمَّا الولدُ **عبد القادر** فقَد سكن بِسَفح رَبوة مِن بلاد **بني خلَّاد**، مكانا يُعرفُ بـ: **دار بن صالح**، ما زالت أَطلال المسكَن والمسجدِ شاخِصة للعيان.

في هذا المكانِ ولِد **أبو عبد الله بن عبد القادر** سنة 1868 فتعلَّم القرآنَ في مسجدِ أبيه إلى أن بَدا له السَّفر لِطلبِ العلم، وكانَت أمُّه قَد توفيت مِن قبل، فجمعَ بعضَ ما يحتاجُ مِن أَمتِعة مع لَوحتِه ودَواتِه وأَقلامه، وهو لا يتَجاوز الإِثنتَى عشَر مِن سنِّه، وبدأَ في رحلته بِشمالِ **المغرب** الشَّرقي، متَنقِّلا مِن مسجدٍ لآخَر، ومِن لدَى شيخ إِلى آخَر، فقَد كان الطالبُ في ذلك العهدِ إِنَّما يقصدُ مَن اشتهَر مِن المشايخ بِمكانتِه وريادتِه في الفنِّ الذي يُريده الطالب، مِن فنونِ الفِقه أَو اللغة أو تفسير الكتابِ المنزَّلِ أو الحديث، فذلك زمانٌ لم تُوجَد فيه مَعاهد وأساتِذة مختصُّون في مختلفِ الفنون، ما عدا بعض العواصِم التي ليس الوصول إِليها في مُتناوَلِ طلبة البَوادي.

ومرَّت على **أَبي عبد الله** سنون طويلة متنقِّلا بين مشاهير المشايخ علما وفَضلا وبركة، ثمَّ رجعَ إلى **تلمسان** حيث تتلمذَ على أشهَر مَشايخها، مثل: الشَّيخ **حرشاوي**، والشيخ **بن يلس** الذي هاجَر فيما بعد إلى **الشَّام**، وقبره هناك مشهور، والشيخ **أبو بكر شعيب** الذي أجازَه شِعرا ونَثرا، وصدَّر رسالتَه بهذه الأبيات:

أقـــولُ والقـــولُ بِـــالله ربي　　إنِّي أجــزتُ تلميــذي وحِبِّــي
العامــــلَ العــــالِمِ ذي المــــآثر　　الكامــلَ الفاضــلَ ذي البَصــائر
النَّــاظمَ النَّاشِــدَ ذي النَّــوادر　　**أبــا عبــد الله بــن عبــد القــادر**
الشَّــــلفي شرفـــا ونســـبا　　الشَّـــاذلي المـــالكي مَـــذهبا

إنَّ معظمَ طلَّاب العلمِ عندَ انتهاءِ دِراستهِم، ولدَىٰ تهيُّئِهم للعمل، يتَّجِهون إلىٰ البحثِ عَن مسجدٍ يتَعاقدون معَ أهلِه لتعليمِ القرآنِ الكريمِ للصِّغار والكبار، والقيامِ بإِمامة الجماعة في الصَّلواتِ الخمس، وذلك ما فعلَ **أبو عبد الله**، حيث اختارَه جماعة **المناصرية** ـ قرية بين مَدينتَي **سيق** و**أرزيو** ـ إمامًا معلِّما لمسجدِها، وبعدَ سنواتٍ قليلة انتقلَ في نفسِ المِهمَّة إلىٰ **بطيوة**، اسمُها آنذاك: **أرزيو**.

هذا البلد الذي أطلِقَ عليه اسم: **بطيوة**، بعدَ استقلال الوطنِ وتغيِير أَسماءِ المدُنِ التي سمَّاها الفرنسيون بِما يَهواهُم مِن أعلامِ ديانتِهم وعَسكرهم وعلمائِهم، فاختاروا لـ: **أرزيو**، اسم: **سان لو** (saint leu)، أمَّا كلمة: **أرزيو**، الذي ضلَّت اسم المدينة الرُّومانية (portus Magnus) منذ خَرابِها وهَدمِ مَعالمها.

وتُنبِئ الآثار والاِكتِشافات الجيولوجية في أماكن مختلفة مِن الناحية، كـ: **جبل سيدي موسى**، و**الحويسي**، وغيرهما ـ وهي تَتمثَّل في أَواني وأَدواتٍ وأَسلحةٍ حجَرية ـ بِوُجود الحياة البشرية فيها منذ العصور الحجَرية.

كما خلَّف التاريخُ آثارَ وجودٍ فينقي وقرطاجني استُخرِجَت مِن الحفرياتِ التي أُجريَت في **پورتوس ماڤنوس**، منها ما هو مَوجودٌ في (**متحف زبانا**) بـ: **وهران**، ومنها صَفيحتانِ حجَريتان قَرطاجنية بـ: (**متحف باردو**) بـ: **العاصمة**، وتثبِتُ هذه البقايا بأنَّ المكانَ كان مَركزا مِن المراكز التِّجارية التي كان يُقيمها الفينيقيون، وبعدَهم القَرطاجنيون، مَرافِق لمراكبِهم البحرية، ولِتِجارتِهم مع أربابِ الأرض، يَستبدِلون المنتوجاتِ المحلِّية، كـ: الحبوب، والزُّيوت، والمواشي، بالمستَورداتِ مِن الشرَّق، كـ:

المواد الزَّيتية، والعطور، والمنسوجات، والأَسلحة.

ولا يوجَد أثرٌ إِسلامي في هذا المكانِ بالضَّبط، بينَما تُوجَد مَداشر آهِلة بالسُّكان، علىٰ مَقربة مِن المدينة الأَثرية بِبضعة أميال، وعَن شاطئ البحر بنفسِ المسافة تَقريبا، يُعرف سكَّانُها باسم: **حميان،** سلالة **بني سليم،** وأهلُ **الطائف** الذين كانوا يتطيَّرون مِن الأَطلالِ والمنازلِ الخرِبة، ويتَحاشون مُجاوَرة شواطئ البِحار، ولعلَّ هذا هو السَّبب لبقاءِ المكانِ خاليا مِن السكَّان، فطُمِست مَعالِم المدينة تحتَ التُّراب المتراكم الذي تحمِله السُّيولُ والرِّياح.

وسمِّيَ المكانُ باسم: **أرزيو،** كتبه **البكري** سنة 1068م: **آرزاو،** وكتبَه **الإدريسي** بعدَه: **أرزيو،** وظلَّ مُشتهِرا بهذا النُّطق بـ: (ياء) عِوَض (ألف)، منذ ذلك العهد، وأول مَن ذكَره مِن الأوربيِّين جوَّالٌ إِنكليزي، فكتبه: (Arzew)، بكتابة الإنكليز حرف: (w)، بقيمة (واو).

أمَّا معنىٰ الكلمة فهي كأمثالها من كثير أسامي الأَعلام البربرية، فغالب الظنِّ أنَّ كلَّ محاولةٍ للحصولِ عليها سَتظلُّ بلا فائِدة، وذلك لسببٍ خاصٍّ باللُّغاتِ الشَّفاهية، فاللغةُ البَربرية بِمختلفِ لهجاتها غير مكتوبة، وبما أنَّ كلَّ لغة ينتابُها التَّغيُّر مع تَوالي أَجيالها، فالمكتوبة تحافِظ علىٰ الأَسماءِ بِمعانيها، وغير المكتوبة تُحافِظ علىٰ الأَسماء وتضيع معانيها، وتفوتُ مع فَواتِ الأَجيال، ومما يؤيِّد ذلك هذا الخلافُ في بنية اللفظِ بين **البكري** و**الإدريسي،** (**أرزاو**) عند الأول، و(**أرزيو**) عند الثاني، ولا يفصلُ بينهما إلا قُرابة قرنٍ واحدٍ مِن الزَّمن، كان كافيًا لتغيير الكلمةِ متأثِّرة باللَّهجة المحلِّية عَن الكلمة الأَصلية، وذلك شأن الآلاف مِن الأَعلام في بلادنا، حيث تُوجدُ أسماء مدُنٍ أَو جِبال أَو وديان فقَدت مَعانيها ومدلولاتها.

عرف عن **أرزيو** أنَّ مرساها كان مركزا هامًّا للصِّناعة البحرية في غربِ البلاد، وفيه أَمر الخليفةُ **عبد المؤمن بن علي** بصُنع مائة سفينة حربية سنة 1162م، وظلت

أرزيو تابعة لمملكة **تلمسان** على طول تَداول حكمِها بين مدينتَي **سيق** و**أرزيو** التي كانت مرفأهم ومركز تجارتهم مع الخارج، معروفة باسم: **مرسي بني زيان**، ثمَّ أُطلِق عليها اسم: **مرسى أرزيو**، ثم: **المرسى**، فحسب.

والذي جاء بأهلِ قرية **بطيوة** إلى **أرزيو** حيث عمَّروا فَراغها، هو خروجُهم مِن بِلادِهم في **الرِّيف المغربي** مُناصرين لـ: **بني مرين** غداة كرَّتهم الثانية على **بني زيان** في عاصِمتهِم **تلمسان**، بعد أَن فشلوا في فتحِها بعد حصارٍ دام ثمانية سنين، وبِنائهِم مدينة **المنصورة** لمواصلتِه وتَشديده.

كان فتح **تلمسان** على يد **أبي الحسن المريني** سنة 1377م، ولسببِ نُصرتهِم لـ: **المرينيِّين** يرى بعضُ المؤرِّخين وَجهَين:

الأول: هو أنَّ أم **أبي الحسن** مِن **بطيوة**، فيكونون أخواله.

و**الآخر**: هو أنَّهم يقطنون أرضًا مِن بلاد **الرِّيف**، جبلية جرداء، يعاني أهلُها مِن الفقر، ما يجعلهم يتُوقون إلى كلِّ ما مِن شأنِه أَن يُمكِّنهم مِن تَبديلِ عُسرهم بيُسر، وكان الجيشُ المريني واصلَ زحفَه نحو الشَّرق، وملوك **الحفصيِّين** الذين تعرَّضوا له وهَزموه في **مازونة** التي كانت تحت إِمرة حلفائهِم **مغراوة**، فقَفلوا راجِعين إلى أَهليهم ما عدا **البطيويِّين** الذي استقرُّوا في أرضِ **النويصي** بجِوار **مستغانم**، وهي أرضٌ ذات خصوبة، ومياهٍ وافِرة، وأشجار مثمِرة، وكانوا رجالا ونساء، عامِلين أقوياء، متعوِّدين على الاِجتهادِ والتَّحمُّل لكسبِ قوتِ أَهلهم.

ثمَّ إنَّهم بعدَ أكثر مِن أَربعة قرون، وبعد فتح **وهران** وإِجلاء **الأسبان** مِن البلادِ على يد الباي **محمد الكبير**، أُجبِروا على تركِ دِيارهم وأراضيهم الثَّرية لقومٍ آخرين، ذلك أنَّ جمعًا مِن أهلِ **برج معسكر** كانوا يَستغلُّون **سَبخة أرزيو** التي تُنتج مِلحًا شائعَ الجودة إلى الآن، ولسببٍ ما أمرَهم **الباي** مِن الخروج مِن **السَّبخة**، ونقلهم إلى أرضٍ تركَ لهم اختيارها، فاختاروا أَرض **بطيوة في النويصي**، حيث ما زالوا لحدِّ الآن يُعرفون بـ: **البرجية**.

أمَّا **بطيوة** فإن **الباي** خيَّرهم بِدَورهم ما يريدون مِن البلادِ الشَّاغرة، فَوجدوا مَوقعَ الآثار الرُّومانية (portus Magnus) التي هجَرها السكَّانُ الأوَّلون للنَّاحية نفُورا مِن الأَطلالِ ومجاورة البحر كما رأَينا، لكنَّهم لم يكن هذا الجوار الجديد ليروقَهم، لأنَّ الذي سلِّم إلى أهلِ **بطيوة** هو موقع المدينة الرُّومانية وما حولَه مِن الأَراضي، على مِساحة تَبلغُ قرابةَ الثَّلاثين كيلومتر مربَّع، مِنها أراضٍ فلاحية مُعتبرة، ومَراع للدَّواب، وغابات، وآبار مياه صالحة، والتي حدَّدها قرار الباي مكافأة وجزاء على قبولِهم التَّخلِّي عَن أَرضهِم الغنيَّة لـ: **البرجية**، الذي **الباي** كان حَريصًا على إِبعادِهم مِن **أرزيو** وما جاورها، لأَسبابٍ يعلمُها الله وهو.

وبما قيل عنها أنَّه وقعَ في علمِ **الباي** أنَّ **البرجية** كانوا ينقبون عَن كنز **بني زيان** في الغاباتِ المجاورة للسَّبخة، ومِن المعروفِ أنَّ **بني زيان** بعدَ فِرارهم مِن **تلمسان** **بعد** هَزيمتهِم على يد **أبي الحسن المريني** لاذوا إلى نَواحي **سيق**، حيث كان يقطنُ الكثير مِن **الزيانيِّين** الذين سكنوا النَّاحية مِن عهدِ **يغموراسن**، وإنَّ **سيق** و**أرزيو** و**وهران** ظلَّت دائما تابعة لمملكة **تلمسان**.

ومعلومٌ كذلك أنَّ **مملكة بني زيان** كانت تتوفَّر على كنوز باهظة، وقد مات المتمسِّك بها دون أن يعلم أحد أين كان مخبَّئا لها.

وقد ظلَّت الخِلافات والضَّغائن مُستمِرَّة بين **بطيوة** و**قُرى حميان** المحيطة بها، لأسبابٍ مُعظمُها راجعٌ إلى قَضايا حدود فِلاحية ومَراع، وسياسية فيما بعد، فكان الأَتراكُ مؤيِّدين لـ: **بطيوة** ومعتَنين بالقَرية وبناءِ مَسجِدها العتيق، والسَّهر على حِفظ الأَمنِ وضَمانِ القضاء، وكان البلدُ يحكمُها القاضي نيابةً عنهم.

وجد الاحتلالُ الفرنسي **وهران** و**أرزيو** على الحالِ التي تَركها الأتراك، وبدأ **الجهاد**، فَوقعت مبايعة **الأمير عبد القادر** (شعبان 1248م/ فيفري 1833)، واستمرَّت المعارك بين جيشِ **الأمير** والجيش الفرنسي.

وفي شهر فيفري مِن سنة 1832م أوقَفت دورية من جيش **الأمير** قافلة مِن أَهلِ **بطيوة** متَّجِهة إِلىٰ **وهران** تحمل مواد تموين وأَبقارا وخيولا للجنرال الفرنسي **بوايي** (Boyer)،فأُسِر أَعضاؤها الأَربعون، وقُتل قائدُها ـ وهو صهر القاضي **أحمد بن الطاهر** الذي طلبَ العونَ مِن الجيشِ الفرنسي للانتِقامِ مِن رجالِ **الأمير**، فهاجَمه **الأَمير** وقبضَ علَيه، وهو يقول في (**مذكِّراته**) التي كتب بعضها وأملىٰ البعضَ علىٰ صِهره ورَفيقه **مصطفى بن التهامي**، ومما جاء فيها: « ثمَّ انتقلَ إلىٰ **مرفأ أرزيو** فقَبضَ علىٰ قاضيها سيِّدي **أحمد بن الطاهر**، لأَنَّه أوَّل مَن بدأَ الإِفسادَ بِنقض البَيعة، وأَوصلَه بـ: **أمّعسكر**، وسجنَه بِدار سُكناه، وجعلَ البوَّاب ناظِرا عليه، فجاءَ ذاتَ يومٍ فَوجدَه فارًّا طالِعا إِلىٰ كوَّةٍ ليَهربَ منها، فقبضَ عليه، ورفعَ أمرَه، فأَفتىٰ الجماعةُ بِقتلِه.

تَواصلَت المعاركُ بين الجيشَين، الجزائري والفرنسي، إِلىٰ أَن اتَّفقَ الجانبانِ علىٰ وَقفِ القِتال، وأَمضىٰ الجنرال **دي ميشال** مع **الأمير** بتفويضٍ مِن الملِك الفرنسي وإمضائِه معاهدةً تضعُ نشاطَ **مرسى أرزيو** التِّجاري تحتَ سُلطةِ **الأمير** وحده.

هذه المعاهدةُ كمِثلها مِن مُعاهدات وَقفِ القتال، هي في الحقيقة فَترات ومَراحل في الحروبِ يُراد بها التَّريُّث، وفُرصٌ تُنتهَز للاستِعدادِ لاستِئنافِ القتال، وهو الذي وقعَ معَ الجانبِ الفرنسي.

ذلك لأنَّ صادرات النَّاحية المغربية المتنوِّعة، مِن الحبوب، والدَّواب، والملح، والعسل، والأَصواف، وما يأتي علىٰ طريقِ **تلمسانَ** مِن الجنوب كـ: ريشِ النَّعام، والجلود المدبوغة، والعاج، وأَواني الطِّين.

وما مرَّ إلا قليل مِن الأَيام حتىٰ تفطَّن الجانب الفرنسي إِلىٰ أَنَّه أَصبحَ مُضطرًّا إِلىٰ التَّموُّنِ مِن **أرزيو** بالأَسعار التي تُعيِّنُها إِدارة **الأمير**، ما جعلَ مدير المالية الفرنسية يخاطِبُ الوالي العام (24/ 11/ 1834): « إنَّ السِّلعَ الدَّاخلة إِلىٰ مختلفِ مَناطق الإِيالة تَقضي علىٰ أَحد أثمنِ الغنائم التي يجِبُ أَن نَسعَىٰ إِلىٰ كَسبِها في **إفريقيا**، وهي بَيع مَنتوجاتِنا ».

وبدأَ فِكرُ نَقضِ **معاهدة دي ميشال** ينمو في نَوايا الفرنسيِّين، ومن ذلك رسالة الوالي العام إلىٰ وزير الحربِ (26/ 12/ 1834): « قَد أَصبحَ **عبد القادر** يتمتَّع بِقوَّة مُفرطة، ومِن واجبِنا أَن نَمنعَه مِن أَن يكونَ أَقوىٰ ... وأَخيرا فإِنِّي مُضطرٌّ معَ الأَسفِ إلىٰ مُصارَحتِكم بأَنِّي لن أَستطيعَ أَن أَضعَ ثِقَتي في الجنرال **دي ميشال**، وإِنِّي أَطلبُ تَعويضَه بالجنرال **تريزال** (قائد ديواني) ».

وتمَّ ذلك، وجاء **تريزال** هذا بإِرادةِ نقضِ المعاهدة، وبعدَ أيامٍ توجَّه بِجيشه الذي أعدَّه لمهاجمةِ **الأمير** بكلِّ ما لدَيه مِن جنودٍ وأَسلِحة ومؤَن وذَخيرة لعَشرة أيامٍ كانَ يَراها كافيةً لبلوغ **معسكر** (عاصمة الأمير) والقضاءِ عليه نهائيا.

ولم يُبالِ بِخَرقه للمعاهدةِ المُمضاةِ مِن ملكِ بلدِه، فخَرج مِن **وهران** بجيشٍ قوامُه ألفان وخمسون وأربعة وأربعون مِن الجنود والضباط مدجَّجين بِالأَسلِحة والمدافع والمؤن، مُتوغِّلا في الأَراضي التَّابعة لـ: **الأمير**، حتىٰ وصلَ إلىٰ **وادي تليلات**، حيثُ تعرَّضَ له بعض جيش **الأمير** ـ نحو ستمائة رجل ـ في المكانِ المعروفِ بـ: **غابة وادي الزبوج**، ودارَت معركة طاحِنة تكبَّد فيها الجيشان خسائر كبيرة، المئات بين قتلىٰ وجَرحىٰ، ثمَّ تَسابقَ القائِدانِ لبلوغ **سيق**، فوَصل **الأَميرُ** بِجَيشه قَبل عدوِّه، فَنزلَ بأَعلىٰ **الوادي** وأناخ **عسكر تريزال** بأَسفلِه بعدَ أَن واجَهه الباقي مِن جيشِ الأَمير وهو في طَريقه إلىٰ الالتِحاقِ بالرَّعيلِ الأوَّلِ الذي التَحمَ معَ العدوِّ في **وادي الزبوج**، مما جعلَ خَسائر الجيشِ الفرنسي ترتفعُ إلىٰ ثمانين قتيلا، وما يُقارب مائة وثمانون جَريحا، وقَد وقَعت المعركة الثانية في **غابة مولاي إسماعيل** ـ غير بعيد عَن مدينة **سيق** ـ.

وبعدَ مَبيتهما مُتقابلين بِجانبي **وادي سيق**، ونظرًا للخسائر التي مُني بها الجيشُ الفرنسي، وخُصوصا مع وُجود المائة جَريح في صفوفه، وضياع الكثير مِن المؤَنِ والذَّخيرة، فإِنَّ **تريزال** أصبحَ مُضطرًّا لإِعادةِ النَّظر فيما كان يَقصده مِن الاِتِّجاه إلىٰ **معسكر**، والذي مِن أَجلِه لم يتردَّد في دوسِ **معاهدة دي ميشال** بقدمِه، فلم يبقَىٰ أمامَه

إِلَّا الرُّجوع إِلىٰ **وهران** لكن ليس علىٰ الطَّرِيقِ الذي أتىٰ علَيه، والذي تكبَّد فيه خسائر كبيرة، فرأىٰ مِن الأَصوَب أن يقصد بلد **أرزيو** ـ **الحليف المتعامِل** ـ غير أنَّ الطريقَ إليه يمرُّ بـ: **غابة شعبة الآخِرة**، ومَسلكِها المتصاعِدِ الوَعر، فاختار مسلكًا ثالثا، وهو **وادي المقطع** لقُربه مِن البحر الذي يسهلُ معه الوصول إِلىٰ **أرزيو**، ولذلك تَفاجأ قادةُ جيش **الأمير** عِندما رأَوا القوىٰ الفرنسية سائرة عبرَ سهلِ **سيرات** البعيد المدَىٰ (نحو خمسة وعشرين كيلو مترا) وهي تتَّجِه إِلىٰ **وادي المقطع**.

ويذكُر المؤرِّخون وشهودُ المعركةِ أنَّ **الأمير عبد القادر** كان ذلك اليوم غائبا عن **سيق** لأَسباب، منها أنَّ الجميع في جيشِه أصبحوا علىٰ يقينٍ مِن أن **تريزال** لا محالةَ أصبحَ عاجِزا عَن مُواصلة زَحفِه، بِسببِ ما أَصابه مِن خَسائر في العتادِ والأَرواح، وبالأخصِّ مِن كثرةِ جَرحاه الذين يُقاربُ عَددهم المائة والثَّمانين، وبما أنَّ الكثيرَ مِن جنودِ **الأمير** كانوا مِن المسبَّلين الذين يُشاركون في المعارك معَ بقائِهم في عائِلاتهم وديارِهم، وبما أنَّ أيامَ هذه الأَحداث: 26 و27 جوان، هي أيام حصادِ الحبوب، وجمعُ المحاصيل الفِلاحية لا تقبلُ تأخيرا، فإنَّ عَددا كبيرا مِن المجاهدين غادَروا الجيشَ ظنًّا منهم أنَّ المعركةَ لن تستَمِرّ.

فكان أن القائد **خليفة ولد محمود** الذي كان قائِدا عسكريا في الجيش التُّركي، وأصبحَ مِن المساعدين المقرَّبين مِن **الأمير**، وممثِّله في **مرسى أرزيو** وفقًا لـ: **معاهدة ديميشال**، لما رأىٰ تحرُّك الجيش الفرنسي نحو **وادي المقطع** أدركَ أنَّه سيمرُّ علىٰ ممرٍّ ضيِّقٍ بين مرتَفعاتٍ معشَوشبة صعبة، ومستنقع المرجة، فكان ذلك في نظرِه فُرصة لا يجوز تَفويتها، وتهيَّأ لانتِهازها، فجمعَ ألفَ فارس، كلُّ واحدٍ يُرادِفه علىٰ فرسِه جندي بسلاحِه، وسلكَ بهم أعلىٰ الغابات المشرفة علىٰ السَّهل، يَراهم ولا يرَونَه، وسبقَهم إِلىٰ **المقطع** لِسُرعة خُيولِه وثِقل سَير العدوِّ بآلاتِه ومَراكبِه ومدفعيَّته ومجَاريحه.

ويقول في ذلك **الأمير عبد القادر** في (**مذكِّرات أمبواز**): « وسبقَ المهاجر قائد

الغرَّابة **خليفة ولد محمود** بالعَسكر فرتَّبه في مواضع مخندقة إلىٰ أن وصلوا، فتكلَّم البارود مِن قدَّام، فوقع ما وقع ».

الذي وقع هو أن محلَّة **تريزال** لما وصلَت الممرَّ الضيِّق بين المرتفعاتِ والمستنقع، وتقدَّمت حتىٰ دَخلت بِكامِلها، وانطلقَ الضَّرب مِن الأمام، وحاولَ بعض الجنود التَّراجع إلىٰ الوراء، فتعذَّر عليهم ذلك، لانشغالِ المكان بالمركَّبات والمدفعية المقطورة ومَراكب الجرحىٰ، و[إذا] حاولوا الصُّعود علىٰ اليسار فيُقابِلُهم الضَّربُ فَيندفعون نحو المستنقع، فتُمسِكهم أَوحالها الطِّينية، وتكبِّل أَرجلَهم فلا يَستطيعون دِفاعا ولا حراكا.

وكان يومًا شديد الحرارة، يذكره الكاتب **الشقراني أحمد بن عبد الرحمن المداحي البوشيخي** ـ وكان حاضِرا في الواقعة ـ فقال: « تتابعت مناوشات متكرِّرة طوال الطريق»، إلىٰ أن قال: « والله إنِّي رأيتُ الحجلةَ تَطير يَمينا وشِمالا ولا تجِد منفذا ولا مسلكا، حتىٰ تنزل في حِجر الرَّاكبِ أَو علىٰ رأسِه ».

واشتدَّ الضَّربُ علىٰ الفرنسيِّين، وضاعَ منهم الكثير مِن مَدافعِهم، ودارَت عليهم الدَّائرة، وفي خضمِّ هذا القتال استشهدَ القائدُ **محمود ولد خليفة**، مما تسبَّب في البلبلة والإِضطراب في صفِّ جيشِ **الأمير**، و[في] تسيِير المعركة، واشتغَل كثيرٌ مِن المقاتلين في السَّبي وجمع الغنائم والأَسلحة، وهو ما سمحَ لـ: **تريزال** في تنظيمِ جنوده، وإحكامِ خطَّة دفاعه، وإحراز بعد التقدُّم نحو البحر.

وفي ذلك يقول **المازري** في كتابه (**سعد السعود**): « ومات في ذلك اليوم البطل المفقود الشُّجاع القائد **خليفة ولد محمود** »، إلىٰ أن يقول عن **الأمير**: « وصلَ وقتَ الغروبِ إلىٰ محلِّ المعركة، ولم يرَ لحوقهم، ولو لحقهم لفعل الله بهم ما أراده في غيبه، وأما الجنرال والأعيان وباقي العسكر ركبوا البابور مِن **مرسى أرزيو** لـ: **وهران**، ولما بلغَ الخبرُ لـ: **وهران** أتىٰ الدَّوائر والزمالة وقَصدوا إلىٰ **أرزيو** مع السَّاحل، فرجَعوا في يوم 30 جوان بالخيالة وأهل المدافع والقراريط الذين وجدوهم في **المرسى** » اهـ.

وكتبَ **تريزل** إثر ذلك إلىٰ الوالي العام (29/ 6/ 1835): « لقد خُضنا أمس حول نصب **المقطع** معركةً كانت نَتائجها وخيمة، بلغت خسائرنا (262) مِن الأموات، و(308) جرحىٰ، لكنَّ العدوَّ قد استولىٰ علىٰ قافلة المجاريح والمؤن، لقَد وصلتُ بالجند **أرزيو**، لكنَّهم ما زالوا مُندهِشين إلىٰ حدٍّ جعلَ قادة الوَحدات يرَون أَن أتجنَّب الرُّجوعَ بهم إلىٰ **وهران** برًّا، وعليه فإنَّني أكتبُ إلىٰ قائد محطَّة **مرسى الكبير** ليرسلَ إليَّ جميعَ مَراكب الدَّولة، والبَواخر التِّجارية الموجودة، لحملِ الجيشِ إلىٰ **وهران** ...إنِّي أَتنازل عَن القيادة التي أُنيطت لي، وأطلبُ تَفويضَه فيها » اهـ.

وجاء في تقرير قدَّمه الوالي العام إلىٰ وزير الحرب يوم: 12/ 7/ 1835م، بعد تعريفه بالحدَث: « لولا أنَّ العربَ توقَّفوا عَن مُلاحقتِه، لآل بِه الأمرُ لا محالةَ إلىٰ وَضع السِّلاح أَرضا واستِسلامِه ».

وعن هذه المعركة يقول الكولونيل الإنكليزي **تشارتشيل**: « إنَّها أقدم هَزيمة تكبَّدها الجيشُ الفرنسي بعدَ هزيمة **واترلو** (Waterloo)، وقَد حاولَت القيادةُ العسكرية الفرنسية أن تَنفي هروبَ **تريزال** عَن طريقِ البحر للتَّهوينِ مِن الفضيحة، إلَّا أنَّ الواقعَ أَثبتَها ».

ومِن الإثبات قول **المازري** في **(سعد السعود)**: « وأمَّا الجنرال والأعيان وباقي العسكر ركبوا البابور مِن **مرسى أرزيو** لـ: **وهران** » اهـ.

لعلَّ تلك الرَّصاصة التي أَزهقَت روحَ القائد **محمود ولد خليفة** قَد كانَت سببًا في تَغيير مجرىٰ التاريخ فيما يتعلَّق بِحَربِ الدَّولة الفرنسية علىٰ **الجزائر**، لأنَّها كانَت الفُرصة التي اغتنَمها الضُّبَّاط الفرنسيِّين لِاستِرجاع سَيطرتِهِم علىٰ جنُودهِم، والتَّمكُّن مِن تَنظيمِ انسِحابِهِم مِن الميدان.

ولنا أَن نَتساءلَ عما كان يستجدُّ في الرَّأيِ العام الفرنسي، ومَواقف حكومتِه، لو أسر الجيش الفرنسي وقائده، وهما جيش وضباط وجنرال **نابليون**.

أمَّا عَن ركونِ **الأمير عبد القادر** إلىٰ تَوقيفِ المعركة، فإنَّه شاهدَ عِند وُصوله مَشهدًا رَهيبا مِن مِئات القتلىٰ والجرحَىٰ، وفَرائس الخيول، وعددَ الضَّحايا والمصابين مِن رجالِه، وزَحفَ الظَّلامُ علىٰ الميدان، فرأَىٰ أن يجعلَ حدًّا للمعركة رَحمةً وشفقةً علىٰ جَيشه في هذا البلدِ الذي جعلَه المقدورُ ملتقىٰ لأَحداثٍ عُظمىٰ في تاريخ الجزائر.

ولد **المهدي البوعبدلي** يوم 30 جانفي 1907م، وتعلَّم القرآنَ في مسجدِ والدِه، فحفظه، كما درسَ مبادئَ اللغة والفِقه، ودرسَ اللغةَ الفرنسيةَ في مدرسة بلدِه الرَّسمية إلىٰ نهاية السِّلك الابتدائي، ثمَّ سافَر إلىٰ **مازونة** التي ظلَّت منذ قرونٍ عاصمةَ دِراسة الفِقه المالكي غربِ البلاد، وحتىٰ في النَّواحي الغربية مِن **ريف** المغرب، حيث كانت شهادة **مدرسة مازونة** تُشترط للحصولِ علىٰ منصبِ القضاء، وبعد سنتَين مِن الإِقامة في **مازونة** قصدَ **تونس** و**جامعة الزيتونة**، حيثُ درسَ إلىٰ أن تخرَّج منها بـ: **شهادة التَّطوُّع**.

وهذا أَحدُ رفقائِه في الدِّراسة، وهو الشَّيخ **الزَّاهري زهير أبو زاهر** يخبِرُنا عنه بقوله: « لقد عرفتُه بـ: **تونس** بـ: **جامع الزيتونة**، حيثُ كنَّا نَدرسُ معًا (**الموطأ**) علىٰ الشَّيخ **البشير النيفر**، فكان مِثال الِاجتهادِ في طلبِ العلم، ولقَد اختارَه الطَّلبةُ لرئاسة (لجنة الطلبة الجزائريين) سنة 1933م، ثِقةً فيه ـ نشير إلىٰ أنَّها كانت أوَّل جمعية للطلبة الجزائريِّين في **الزَّيتونة** ـ ومِن نشاطِه أنه طالبَ حكومةَ **الجزائر** بتَخفيضِ تعريفة الركوب بالقِطار للطَّلبة، كالفرنسيِّين، ولكنَّ الإدارةَ بـ: **الجزائر** ردَّت عليه بأنَّ العربيةَ لغة غَير رسمية، ورفَضت الطَّلب » انتهىٰ كلام الشَّيخ **الزَّاهري**، الذي ذكَر في نفسِ المقالِ تَصريحا في نوفمبر 1956م أمضاه الشَّيخُ **المهدي** معَ جماعةٍ مِن المفاتي والنوابِ الجزائريِّين، يُطالبون فيه بالتَّفاوضِ مع **جبهة التحرير الوطني** علىٰ حقِّ تَقرير المصير.

وبعدَ رجوعِه مِن **تونس** تقدَّم لامتِحانِ الوَظيفِ الدِّيني، فعيِّن إِماما بـ: **مسجد وهران العتيق**، ثمَّ بـ: **مسجد بجاية**، ثمَّ مُفتيا بها بعدَ انتقالِ مُفتيها الشَّيخ **أبو الحبال** إلىٰ

وهران مفتيا، حيثُ توفي ودفِن بِجوار الشَّيخ **الهواري** في مَزاره.

وكانت إقامة الشَّيخ **المهدي** بـ: **بجاية** حافلة بالنَّشاط العِلمي والثَّقافي، فكان مِن مُسيِّري ناديها الثَّقافي، ورَئيسا شَرفيًّا لفوج **الكشَّافة الإسلامية الجزائرية**، ومنشِّطا لهيئةٍ محلِّية تتكفَّل بالإِنفاقِ علىٰ الطَّلبة الفقراءِ المزاولين دِراستهم في **تونس** وغيرها مِن المدُنِ البعيدةِ عَن بلَدهِم وأَهليهِم.

وقَد بدأَ هناك دِراساته للتَّاريخ العِلمي والثَّقافي بِوَجهٍ خاصٍّ، مع الاهتمامِ والحِرصِ الدَّائبَين علىٰ اقتِناءِ المخطوطات مِن مؤَلَّفاتِ العلماءِ والكتَّابِ المحلِّيِّين، حتىٰ كان في أيامِ عُطلتِه يتَّصِل بأَهلِ الخِزاناتِ الخاصَّة، فَينقل كل ما يعثُر فيها مِن وَثائق، حتىٰ بِاللغة العامية والشِّعر الملحون، فكان يَستعينُ بِبعضِ الطَّلبة لِنقل ما يَستعيره مِن كتبٍ ليرجِعَه إِلىٰ أَهلِه، وكان متشدِّدا في إِرجاع الكتُبِ إِلىٰ أربابِها بِلا تَواني، وكنتُ أنقله بِسيارتي إِلىٰ بعضِ القُرىٰ والبَوادي للاطِّلاع علىٰ ما عِندَهم مِن الوثائق، كثيرا ما تكونُ في بيوتٍ مَهجورة مُظلمة، لا يتَناولُ مِنها شيء حتىٰ يتَطاير منه الغُبار أَو الحشرات، وظَلَّ علىٰ هذِه العادة طِوال حياتِه إِلىٰ أَن أَقعدَه المرض.

وكان منظِّما لأَوقاته حتىٰ لا يضيع منها شيء، كان ينام باكِرا فَيقومُ باللَّيل في مُنتصفِه للكتابة، ويخرجُ عِند طلوع الشَّمس يقتَني ما يحتاجُ إِليه، فيطَّلع علىٰ ما يأتي به مِن جرائد ومجلَّات، ثمَّ يقضي نهارَه في المطالَعة وتَقييد ما يهمُّه فيها، ويخرجُ للمسجدِ فَيجتمع فيه مع بعضِ جِيرانه ورفاقِه إِلىٰ أن يُصلِّي معهم العشاء، ثمَّ يَرجع إِلىٰ بَيته.

لعلَّ هذِه العِناية الدَّائمة بالتَّنقيبِ واستِظهار الكتبِ القديمة، والتي كانت تأخذُ كثيرا مِن وَقتِه، والتي كانت له عائِقًا عَن الكتابة أكثر مما أَنجز، كانَت في المقابل ذات إِفادة عُظمىٰ، إذ سمَحت بإِنقاذِ كنوزٍ تاريخية وثقافية كانت صائرة لا محالةَ إِلىٰ الضَّياع والاِختِفاء إِلىٰ الأَبد، ولذلك نأملُ أَن تَتضافر الجهود للتَّصدي لهذا الخطر بِاليقَظة والتَّوجيه وبَذلِ النَّصائح، لأنَّ تُراثَ الأمة كلَّما يضيعُ منه شيء، يَضيعُ معَه طرفٌ مِن

تاريخ الأمة وضَميرها.

ونختمُ هذا الحديث بكلماتٍ كتَبها مدير **(مجلَّة الأكاديمية المغربية)** في أحدِ أعدادِها: « إنها ثمرة مِن ثمراتِ مجهودٍ مَوصول لتقويم الرأي وتصويب الفكر في مجلاتٍ مختلفة للتاريخ المغاربي، حاولَ الشَّيخُ **البوعبدلي** أن يردَّها إلى مصادِرها الأَصلية، جدَّ لذلك في طلبِ النُّصوصِ والرُّسومِ والمخطوطات، مُستَقصيا ومحقِّقا ومنقِّبا ومدقِّقا، فسهل له فيما كان مستعصيا على غيره مِن أصول مستحكمة، وقرائن صحيحة واضِحة، وسلَّط على بعضِ الأَحداثِ أنوارا جديدة، كسَت البحوثَ التَّاريخية حظًّا وافِرا مِن العلمِ الصَّائب، والمنطق الخصب ... ساهمَ الشَّيخُ **البوعبدلي** في الحدِّ مِن الَّلغوِ التَّاريخي، ومِن حسنِ الظَّنِّ بالكلامِ المجامل، والحديث المعادِ بِدون تثبُّتٍ ولا نَظر ».

(1)

نزولا عند رغبة الأستاذ عبد الرحمن دويب صاحب الدراسة
الضافية الشاملة للشيخ المهدي البوعبدلي لتقديم معلومات
شخصية تمكن قارئ الكتاب من توسيع مجال الاطلاع
إلى ما قد يحيط بالموضوع من ظروف وخصوصيات وأحداث
تجعله أكثر إلماما به
ولهذا الغرض رأيت أن أذكر تاريخ العائلة التي ينحدر منها
الشيخ المهدي البوعبدلي من موطنها الأصلي بلاد الونشريس
إلى مسقط رأسه ووفاته ببطيوة، والتعريف بهذا البلد وما امتاز به من أحداث
ولد الشيخ المهدي يوم 30 جانفي 1907 في البيت الذي توفي به
في شهر جوان 1992 وينحدر نسبه من قبيلة مغراوة الونشريس
وقد اشتهر الكثير من أسلافه بالعلم والصلاح وتوارثوا مقامات
الرياسة في التدريس والمشيخة الروحية. وقد ترجم المؤرخ
محمد أبو راس الناصري في كتابه "الخبر المعرب" لأحدهم وهو
الشيخ واضح جد أبي عبد الله الغوفل فقال: "ومنهم الشيخ
واضح بن محمد بن عيسى بن فكرون توفي سنة 865هـ. قرأ
أبوه على شيخه الشيخ واضح بن عاصم المكناسي دفين فنتا
أرهيو" وذكر الشيخ أحمد بابا التنبكتي في
"ذيل الديباج" ما نصه: "واضح بن عثمان بن محمد بن عيسى بن
فكرون المغراوي أبو البيان الفقيه القاضي
الأعدل الصالح خال أحمد بن يحيى الونشريسي صاحب المعيار
في وفياته من بعده وهو [illegible] بلدنا وقريبنا توفي
سنة ست وخمسين وثمانمائة للهجرة (856هـ) انتهى كلام الشيخ أحمد
بابا

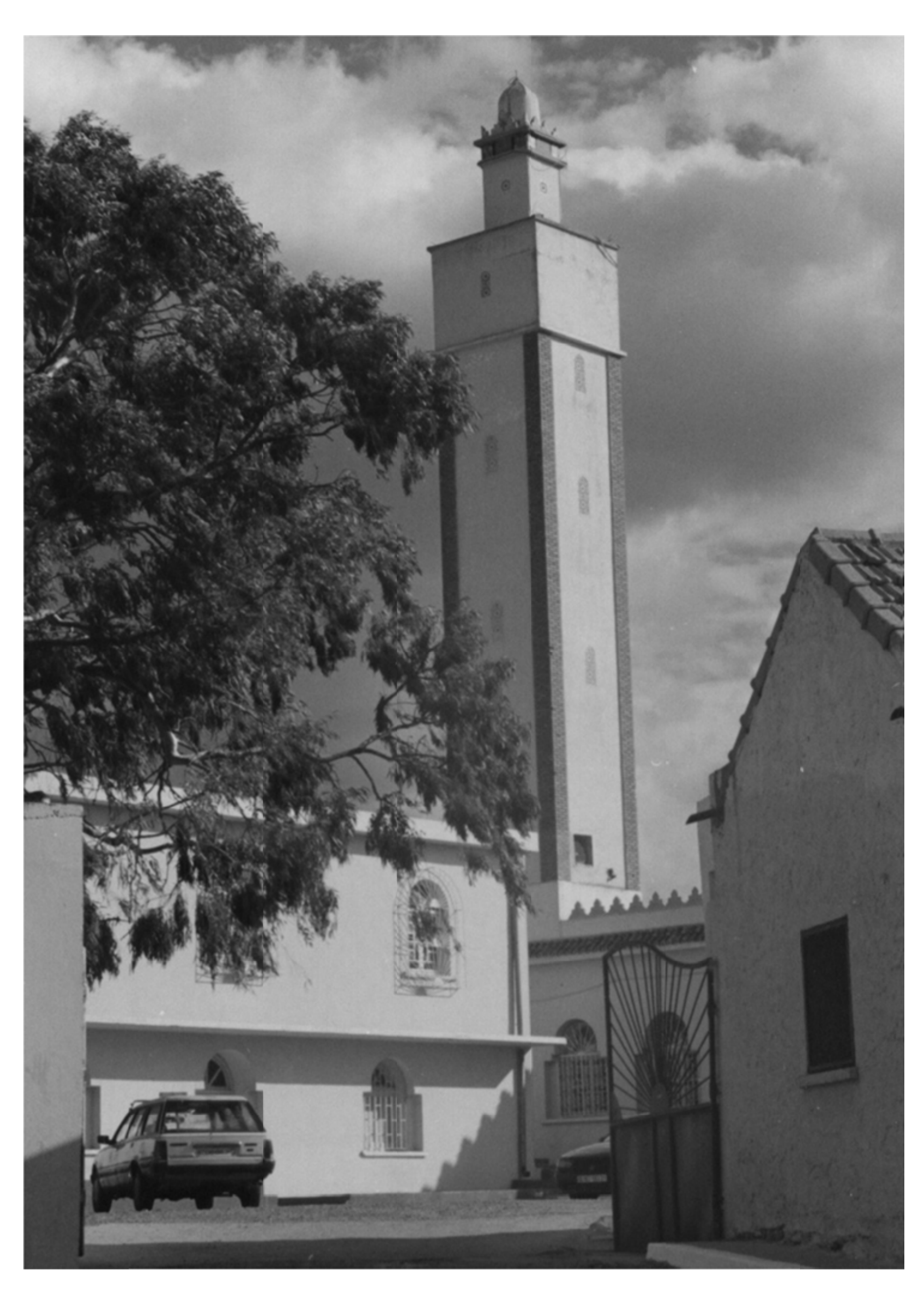
صورة عن الصَّفحة الأولى مِن مقدِّمة الشَّيخ عياض (حفظه الله تعالى)

19

ولعل هذه العناية الدائمة بالتنقيب واستظهار الكتب القديمة
والتي كانت تأخذ كثيرا من وقته والتي كانت له حاجة منها من الكتابة
أكثر مما أنجز كانت في المقابل ذات إفادة عظيمة إذ سمحت بإنقاذ
كنوز تاريخية وثقافية كانت سائرة لا محالة إلى الضياع والاختفاء إلى
الأبد ولذلك نأمل أن تتظافر الجهود للتصدي لهذا الخطر باليقظة والتوجيه
وبذل النصائح لأن تراث الأمة كلما يضيع منه شيء يضيع معه طرف من
تاريخ الأمة وضميرها

ونختم هذا الحديث بكلمات كتبها مدير مجلة "الأكاديمية المغربية
في أحد أعدادها" إنها ثمرة من ثمرات مجهود موصول لتقويم الرأي
وتصويب الفكر في مجالات مختلفة للتاريخ المغاربي حاول الشيخ البوعبدلي
أن يردها إلى مصادرها الأصلية جد لذلك في طلب النصوص والرسوم
والمخطوطات مستقصيا ومحققا ومنقبا ومدققا فسهل له فيما
كان مستعصيا على غيره من أصول مستحكمة وقرائن صحيحة واضحة
وسلط على بعض الأحداث أنوارا جديدة كست البحوث التاريخية حظا
وافرا من العلم الصائب والمنطق الخصب ..... ساهم الشيخ البوعبدلي
في الحد من اللغو التاريخي ومن حسن الظن بالكلام المجامل والحديث
المعاد بدون تثبت ولا نظر"

صورة عن الصَّفحة الأخيرة مِن مقدِّمة الشَّيخ عياض (حفظه الله تعالىٰ)



الزاوية البوعبدلية (بطيوة)

مقدمة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسَّلام علىٰ رسول الله، وبعد:

قال ابن **عبد البر** (رحمه الله): «ولو أغفلَ العلماءُ جمع الأَخبار، وتمييز الآثار، وتَركوا ضمَّ كلِّ نَوع إلىٰ بابه، وكلِّ شكلٍ مِن العلمِ إلىٰ شكلِه لبطلت الحِكمة، وضاعَ العلمُ ودرس، وإن كان لعَمري قَد درسَ منه الكثير بِعدمِ العِناية، وقلَّة الوعاية، والاشتِغالِ بالدُّنيا والكَلَبِ عليها، ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ يُبقي لهذا العلمِ قوماً ـ وإن قلُّوا ـ يحفظونَ علىٰ الأمة أصولَه، ويميزون فروعَه، فضلاً مِن الله ونعمة، ولا يزالُ النَّاسُ بِخَير ما بقيَ الأولُ حتىٰ يتَعلَّم مِنه الآخِر» اهـ.

إِذا كانت الأيام تَطوي صفحاتِها علىٰ كثير مِن الأموات، فلا تُخلِّد لهم ذكرًا، فلأنَّ صروفَها لا تُحابي، ولا تشفع فيمن لم يُسجِّل اسمه باستحقاق في قائمة المُخلَّدين، فمَن رمىٰ بنفسه في وهاد الخمول، ورضيَ لها بالقعود مع الخوالف، فلا يطمع أن ينال حظًّا من الذِّكر الجميل وهو في رمسه، أو أنْ يكون له لسان ذكرٍ يتلو محاسنه ويتغنَّىٰ بإنشادِ قصائدِ أيَّامه وأخباره، ذلك أنَّ التاريخ لا يحمِلُ أعباء مَن لم يصنع الأحداث، وأنَّ مَن لم يتَّصِل بأسباب العِزِّ ومناهج الشَّرف، فسينقطع حديثه وتُطوىٰ سيرته في طي النسيان والإهمال، ويتقلَّص ظلُّ ذكرِه بمجرَّد حلوله قبره، فيذهب غير مأسوفٍ عليه.

أمَّا عظماء الرِّجال، فإنَّ سيرتهم علىٰ صفحات الخُلد، سطَّرتْها أعمالهم الجليلة، ودبَّجتها إنجازاتهم العظيمة، ولهذا لم يكُنْ مِنْ خالِص حقِّهم علىٰ أقوامهم أن يخفِضوا

لهم جناح الذُّلِّ من الرحمة فقط، وإنما واجب العدل وكرم الفضل يُملي على عقلاء الأحياء أن يرفعوا لهم أيضًا، ذِكرًا في المحافل والملتقيات، والكُتُب والمجلات.

والكلامُ عن الشيخ **المهدي** وعن أعماله وإنجازاته، هو جزء من هذا الوفاء المُشار إليه، والحديثُ عنه بهذا الاعتبار يتبوَّأ مركزًا تتعانق في فضائه لغة السُّموِّ في الحياة العلمية، ومعاني البَساطة في البحث النَّزيه، كلُّ ذلك في جوٍّ من نظافة الروح، ونشوة الإيمان وطهارة النفس.

فالشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى)، زيادةً على أنه مِن جملة كبار العلماء والمصلحين الذين عملوا على إصلاح أوطانهم والنهوض بها، وتَوجيه أبنائها وتخليصهم مِن رواسبِ التَّحجُّر والتخلُّف، فهو كذلك مِن القلائل الذين أَخذوا على عاتقِهم أمانة خدمة التاريخ، فأحيَوهُ بعد ذهابِ ريحه، وذلك بردِّ تحريفات المغرِضين، وكشفِ كَيْد المتحامِلين، فصحَّحوا بذلك المسار، وأَزاحوا عَن مخطوطاته الغبار، كلُّ ذلك لِتترسَّخَ في نفوس أبناءِ الأجيال القادِمة معاني قِيَمه،وتتربَّع مشاعر الوعي بالهوية العربية والإسلامية على مقاعد تصوُّراتهم، ليتمكَّنوا من حملِ رسالتِهم الدِّينيَّة والأَخلاقيَّة والحضاريَّة، ولِيُساهِموا بعدَ ذلك في مَسيرة العلمِ والإِبداع والمعرِفة.

ويمثِّل هذا الكتاب إرثا عِلميًّا يناقش قضايا التراث، ويضمُّ معلومات ثريَّة عن شخصيات علمية وثقافية، كما يتعرَّض لبعض المواقف والأحداث التاريخية، تقضي في جملتها لصاحبِه بالشكر والعرفان، وتخلِّد ذكره في سِجلِّ بُناة الذَّاكرة التاريخية الجزائريَّة، ذلك أنَّه كما يقول عنه شيخ المؤرِّخين الدكتور **أبو القاسم سعد الله**: «الشيخ **البوعبدلي** ليس مثقَّفًا تراثيا عاديا».

عبد الرّحمن دويب

محتوى الكتاب:

اقتضَىٰ البحث أن نوزِّع مادَّة هذا الكتاب إلىٰ ثلاثة أقسام.

القسم الأول: في تعريف الشَّيخ **المهدي البوعبدلي**(رحمه الله تعالىٰ).

القسم الثَّاني: آثاره.

القسم الثالث: تحقيقاته.

والمجموع ـ بفضل الله ـ بلغ عدد صفحاتِه: 4000 صفحة، ويقع ـ إن شاء الله ـ في ثمان (8) مجلَّدات، كلُّ مجلَّد في حوالي 500 ص.

ودون القارئ الكريم مجمل ما يحتوي عليه كلُّ قسمٍ مِن هذه الأقسامِ الثَّلاثة:

القسم الأول:

تناولنا فيه التَّعريف بصاحبِ هذه الآثار وذلك بشكلٍ مجمَلٍ، آملين في المستقبل القريب ـ إن شاء الله ـ إفراد ترجمته في كتابٍ مستقلٍّ نتعرَّض فيه لجوانب كثيرة من مراحل حياته الثريَّة بالأخبار والأحداث، معتمدين في سَرد حقائقها علىٰ مجموعة من الوثائق التي وقَفنا عليها.

كما يشتمِل هذا **القسم** أيضا علىٰ ملحقَين:

أما **الملحق الأول** فهو عبارة عَن محاضرة للدكتور **يحيى بوعزيز** (رحمه الله) بعنوان: **الشَّيخ المهدي البوعبدلي العالم والباحث**، تعرَّض فيها لجوانب مهمَّة من حياة الشَّيخ **المترجَم** له، وهذه المحاضرة أغفلها جامعو آثاره، فلم تنشر ضِمن موسوعة آثاره الموسومة بـ: **آثار الدكتور يحيى بوعزيز**، وهذا ما دفعنا إلىٰ إلحاقها بهذا القسم، ولتكون مصدرا يعتمد ه الباحثون.

وأمَّا **الملحق الثاني** فهو عبارة عن ترجمة ذاتية مختصرة، أصلها رسالة بعث بها الشيخ

المهدي البوعبدلي إلى وزير الأوقاف في شهر أكتوبر سنة 1962، مع ملفٍّ للانخراط في سلكِ الموظَّفين بعد استقلال الجزائر، ولما كانت تضمُّ معلومات مهمَّة عن بعض جوانب حياته أردنا أن نبقي على أصلها، ونلحقها بهذا القسم كاملة من غير أن نتصرَّف في عرضها.

القسم الثاني:

خصَّصناه لآثاره، وقسَّمنا مادَّتَه إلى ثمانية فصول:

الفصل الأول: التراجم، **الفصل الثاني**: تاريخ المدن، **الفصل الثالث**: الحياة الثقافية، **الفصل الرابع**: مؤلَّفاته، **الفصل الخامس**: التعريف بالكتب، **الفصل السادس**: الرحلات، **الفصل السابع**: المراسلات، **الفصل الثامن**: متفرِّقات.

القسم الثالث:

أورَدنا فيه ما وصلنا مِن نصوصٍ تراثية حقَّقها الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى)، وهي عبارة عن كتابَين لعالِمَين جزائريَين في تاريخ مدينة **وهران**، وهما:

1) **الثَّغر الجُماني في ابتسام الثغر الوهراني**: للشيخ محمد بن سحنون الراشدي.

2) **دليل الحيران وأنيس السَّهران في أخبار مدينة وهران**: للشيخ القاضي محمد بن يوسف الزياني.

وأما عن موارد هذا الكتاب، وخاصَّة **القسم الثاني** منه المتعلِّق بآثاره، فإننا تتبَّعنا مظانَّه مِن المجلاَّت والمجاميع التي كانت تُعنى بنشر محاضراته ومقالاته، كـ: مجلة **الأصالة**، ومجلة **الثقافة**، ومجلة **التاريخ**، وغيرها مما هو مذكور بهامش كلِّ مقالٍ في هذا الكتاب، وسيقف القارئ على مقالات كثيرة جديدة لم يسبق نشرها من قبل، وهي في جملتها عبارة عن محاضرات له وقفنا على أغلبها بالمركز الثقافي الإسلامي بالعاصمة، وعلى جملة منها بالمكتبة البوعبدلية، وهي كلُّها بخطِّ يده.

وسَيقف القارئ في ثنايا هذه **الأقسام** كلِّها على مجموعة مِن المعلومات التاريخية والفِكرية تُساعده على فهم كثير مِن الحقائق، وعلى تصحيح جملة مِن المفاهيم.

القسم الأوّل

في تعريف الشّيخ المهدي البوعبدلي

القسم الأول
في تعريف الشَّيخ المهدي البوعبدلي(1)

[1] جرُّ نسبه الشَّريف:

هو محمَّد المهدي بن أبي عبد الله بن عبد القادر بن محمد المغوفل ـ المعروف بـ : سيدي بوعبد الله ـ بن محمد بن واضح بن عثمان بن الحاج عيسى بن محمد ـ المدعو: فكرون ـ بن القاسم بن عبد الكريم بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الواحد بن محمد بن عبد السلام بن مشيش بن أبي بكر بن علي حيدرة بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن بن الإمام الحسن السبط بن علي بن أبي طالب (كرَّم الله وجهه) وفاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ.

فهو بهذا النَّسب ينتمي إلى أصول شريفة، وقد نوَّه جماعة من المؤلِّفين بانتماء العائلة البوعبدلية إلى الشجرة النبويَّة الكريمة، منهم صاحب **(مجموع الحسب والنَّسب)**، والشيخ **ابن عبد الحكم** في **(مرآته)**، والقاضي **حشلاف** في **(شجرة الأصول)**، وغيرهم.

و**البوعبدلي** نسبةً إلى جدِّهم الأعلى الذي كانت له شهرة واسعة في منطقة **شلف** كلِّها، وهو الولي الصالح **أبو عبد الله**، الملقب بـ: المغوفل، صاحب المنظومة الموسومة

(1) انظر ترجمته في: **المرآة الجلية** (ص: 324) لابن عبد الحكم العطافي، **مستغانم وأحوازها عبر العصور** (ص: 90) للأستاذ عبد القادر بن عيسى المستغانمي، ومقدِّمة الدكتور **أبو القاسم سعد الله**لكتابه: **رسائل في التراث والثقافة، مراسلات الشيخ المهدي البوعبدلي**، ومقال: **الشيخ المهدي البوعبدلي** (1907 ـ 1992م) للأستاذ **حسني بليل**، وكتابنا: **الشَّيخ المهدي البوعبدلي: شهادات ووثائق**، منشورات المكتبة الوطنية الجزائرية، 1429هـ/ 2008م.

بـ: (**الفلك الكواكب وسلَّم الرَّاقي إلى المراتب**)[1]، والقصيدة المهملة الشهيرة،وهو مدفون بشرق مدينة **وادي ارهيو** بولاية **شلف** حاليا.

[2] مولده:

ولد الشيخ **المهدي البوعبدلي** ليلة الخميس عاشر ذي الحجة ـ أي: في يوم النَّحر ـ سنة 1324هـ الموافق لـ: 25 جانفي 1907م، واشتهر عند بعضهم خلاف ما ذكرناه، وقال الأستاذ **بليل حسني**: « وهو الولدُ الرابع لأَبيه بعد بِنتَين وولد، وتلاه من الإخوة ثلاثة، آخرهم مولدا ووجودا على قيد الحياة الشيخ **عياض** » [2]، والصواب أنه المولود الثاني لوالده حسبما هو مرسوم في وثيقة وقَفنا عليها بمكتبة الزاوية، وهي بخطِّ والده الشَّيخ **أبي عبد الله** يذكر فيها بالتَّفصيل تاريخَ ولادة مجموعة من أولاده مع ذكر تاريخ وفاة بعضِهم، والظاهر أنَّ هذه الوثيقة كتبت قبل سنة 1920م،وهي السنة التي ولد فيها ابنه الشَّيخ **عبد البرِّ**(رحمه الله تعالى)، فإنَّه لم يورد فيها اسمه ولا اسم الشَّيخ **عياض** المولود سنة 1922م، ولا بأسَ بعرضِها في هذا الفصل، وهذا نصُّها: «**تاريخ ولادة بعض أولادي** ـ عبد ربِّه **أبو عبد الله بن عبد القادر البوعبدلي** ـ :

1) ولدَ لي: **محمَّد**، الملقَّب بـ:**حَرشاوْ**[3]، بقرية **بطيوة**، بالبيت القبلية مِن دار بالحاج بن الحاج محمد الزعومي، وكانت ولادته بين فجر وإسفار يومِ الأربعاء خامس الشَّهر المشرَّف ربيع الأول مُطابق عاشر شهر ماي الفرنجي، عام 1323 ثلاث

---

(1) وقَفنا على نسختَين منها، وهي الآن قَيد التحقيق، يسَّر الله نشرها.

(2) مِن مقال أرسله إليَّ الأستاذ **بليل**، بعنوان: **الشيخ المهدي البوعبدلي** (1907م ـ 1992م)، ذكر في أحد هوامش هذا المقال أنه استفاد هذِه المعلومات مِن لقاء مسجَّل (سمعي بصري) أجراه مع الشَّيخ **عياض البوعبدلي** في **زاوية بطيوة** في صائِفة 2001م، كما اعتمد أيضا في إثبات تلك المعلومات على وثيقة مخطوطة مصوَّرة تَتناول شجرة الشَّيخ **المهدي البوعبدلي** وأُصوله.

(3) **حرشاو**: ربما نسبةً إلى شَيخ والدِه الشَّيخ **الحرشاوي** (رحمه الله تعالى).

وعشرين وثلاثمائة وألف هجرية، 1905 [1].

2) ووُلِدَ لي: **محمد**، الملقَّب بـ : **المهدي**، تبرُّكًا بدار ابن داود المملوكة الآن لورثة المختار ابن الدقاوي، المجاوِرة للمسجد الأعظم مِن مسجدَي **بطيوة** (أرزيو)، وكانت ولادتُه بعد مُضَي نِصف الَّليل مِن ليلة الخميس ساعة: (12،40)، عاشر ذي الحجة ـ أي: ليلة عيد النَّحر ـ مطابق الخامس والعشرين جانفي إفرنجي، عام 1324 أربعة وعشرين وثلاثمائة وألف هجرية، 1907.

3) ووُلِدَت لي: **حفصة**، شقيقة الأَخوَين قَبلهما بعد مضيِّ ثلثي الليل ساعة: 2، مِن ليلة السبت، العاشر مِن شهر رجب، المطابق الثامن مِن شهر أوت، بالدَّار المولود بها **المهدي** وأخوها، عام 1326 ستَّة وعشرين وثلاثمائة وألف هجرية، 1908 [2].

4) وُلِدَت لي: **سِتِّي**، شقيقة الثَّلاثة المتقدِّمين بسُدس آخر ليلة الاثنَين، ساعة: (4،50)، وافقَ وضعُها ـ أي: تمامه ـ وخلوصها خلوصَ طلوع القمر، وذلك ليلة يوم الاثنين الخامس والعشرين ذا القعدة، بالدَّار المولود بها أخواها **المهدي** و**حفصة**، وبعد ملكي إيَّاها اشتراءً، مطابق الثامن والعشرين نوفانبر عام 1328هجري، 1910 [3].

5) ولِدَ لي: **عياض**، ضحىٰ يوم الثلاثاء السَّادس 6 مِن صفَر، مطابق رابع عشر 14جانفي المسيحي ـ أي: يوم دخول ينَّير عام 1331 هجري، 1913 مسيحي، بداري

---

(1) وفي وثيقة أخرىٰ بخطِّ الشَّيخ **أبي عبد الله**، قال: « الحمد لله، وصلَّىٰ الله علىٰ سيِّدنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبِه وسلَّم، مات ابني محمَّد (رحمه الله) قبلَ صلاةِ العَصر يومَ السَّبت أوَّل يومٍ مِن صفَر عام 1362 اثنين وستِّين وثلاثمائة وألف، جانفي (كذا) بل 6 فبراير عام 1943 »، قلت: توفي كما أخبرني ابنه السيد **أحمد** في مرض التيفيس الذي اجتاح البلد آنذاك، وهو متخرِّج مِن جامعة **القرويِّين** بفاس، وقد حزن عليه والدُه حزنا بالغًا، وتكفَّل برعاية ولده السَّيد **أحمد** بعده،وقد تيسَّرت لي زيارته في بيته الموجود بجنب الزَّاوية، وأفادني ببعض الوثائق النَّفيسة.

(2) توفيت (رحمها الله)سنة 1983م.

(3) توفيت (رحمها الله)سنة 1985م، أو سنة 1986مبمدينة وهران.

المولود بها أشقَّاؤه ـ أي: **المهدي**، و**حفصة**، و**ستِّي** ـ ارتكبتُ ما في تسميته قبلَ سابع الولادة للأمر الدولي القاضي بِتسمية الولَد يوم الولادة، مات هذا المولود ـ أي: **عياض** ـ بعد فجر يوم الأحد 11 صفَر 1331، جانفي 1913.

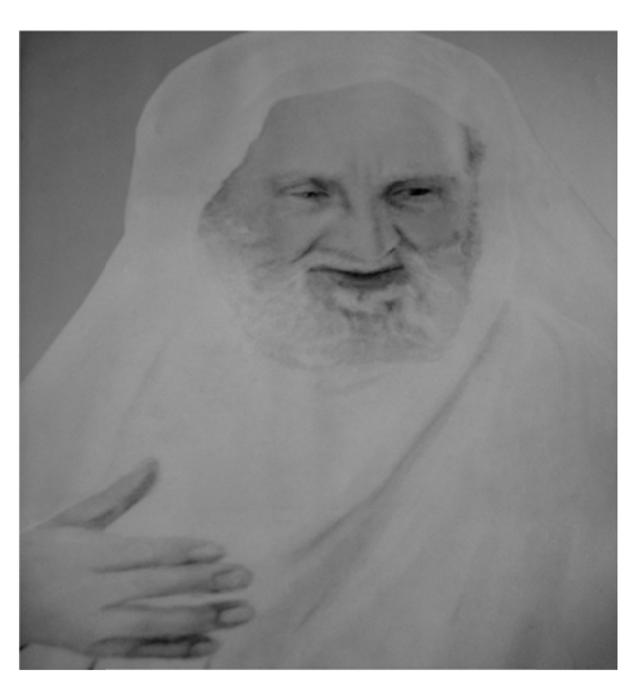
6) أختُهم ولِدَت ليلة النَّحر ...[1] 15 نوفانبر عام 1331/ 1913، وماتَت ثالث يوم مِن ولادتِها »، انتهى ما نقلناه من وثيقة والده.

7) وولد له أيضا: السيد **عبد البر** سنة 1920م، درس عند والده بالزاوية وتخرَّج عليه، ثم خلفه في تسيير الزَّاوية بعد وفاتِه، فكان يدرِّس بها ويتولَّى شؤونَ طلبتها إلى غاية وفاتِه سنة1979م.

8) وولد له أيضا: السَّيد **عياض** 1922م، درس بـ : **مازونة**، ثم بمدينة **تلمسان** في **المدرسة الفرنسية الإسلامية**.

---

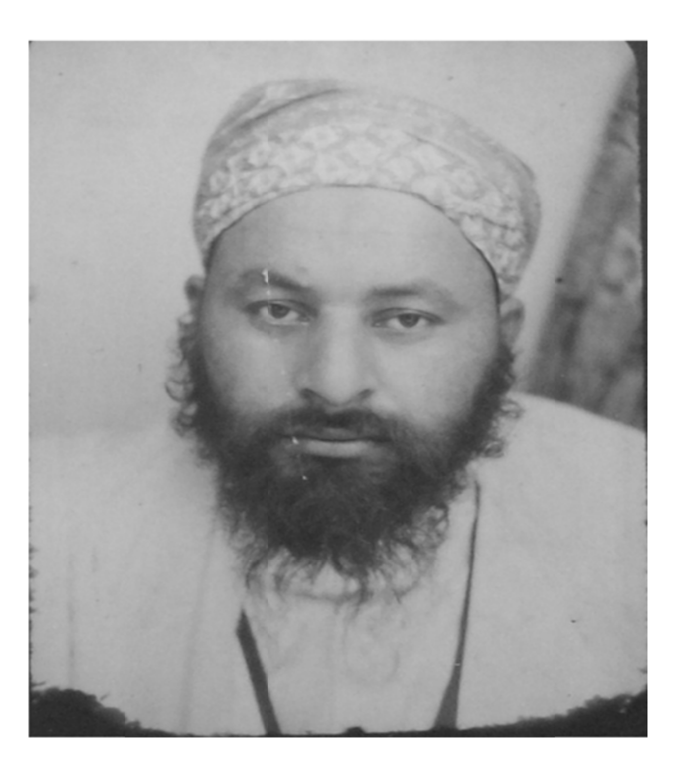
(1) مقدار كلمة لم نتمكَّن مِن قراءتها، والظاهر أنَّ والدها لم يذكر اسمها لأنها توفِّيت قبل سابع ولادتها، والله أعلم.



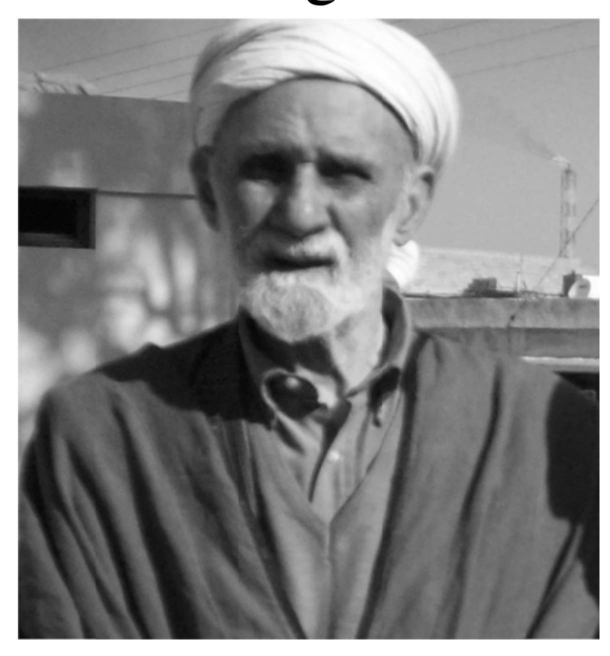
صورة والده الشيخ أبي عبد الله البوعبدلي (رحمه الله تعالى)



صورة شقيقه الشيخ محمد (رحمه الله)



صورة شقيقه الشيخ عبد البر (رحمه الله)



صورة شقيقه الشيخ عياض (حفظه الله)

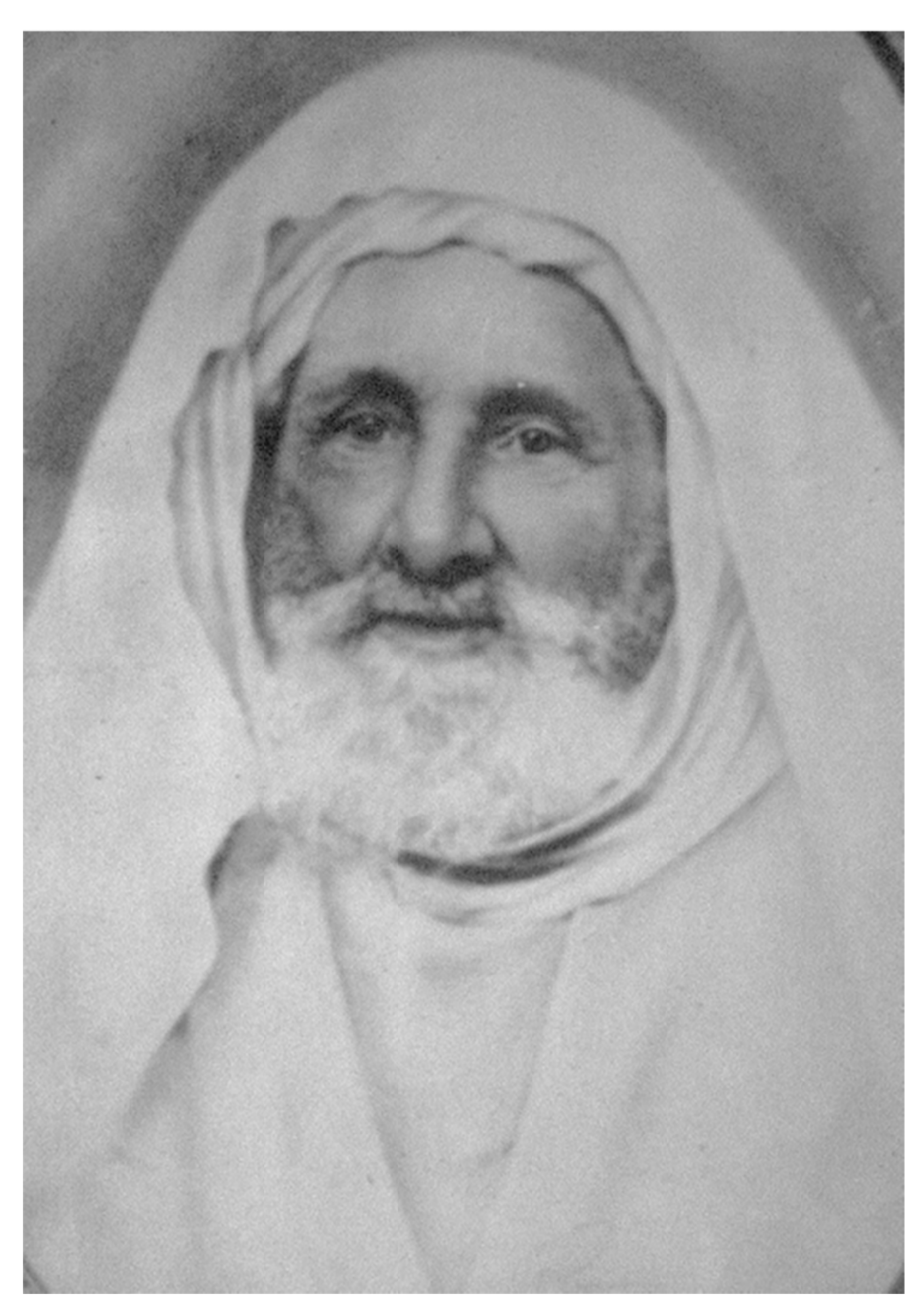
صورة عن الوثيقة المعتمدة

[3] **بداية نشأته العِلمية:**

نشأَ الشيخ **المهدي** بمسقط رأسه **بطيوة** في أَحضانِ عائلة عِلمية محافظة على التقاليد والأصول، ومُتحلِّية بالآداب والأخلاق، فتعاهدَه والدُه بالتربية والتعليم، وأرشده منذ نعومة أظفاره إلى حفظ القرآن، فزكا منبتُه، وصفت ألمعيتُه، بحفظ جزءٍ كبير منه على يديه برواية ورش عن نافع، وأتمَّ الباقي بزاوية والده أيضا على يدي الشيخ **عبد القادر بن طويس** المتخرِّج مِن **القرويِّين** بـ: فاس، وكان هذا الأخير قَد رأى منامًا يأمرُه فيه شيخٌ مِن المشايخ بالذَّهابِ إلى الشيخ **أبي عبد الله** ـ والد **المهدي** ـ ليُسرِّحه مِن قيده، فذهبَ إليه فوجَده يدرِّس في زاويته فنَّ القراءات، فلما أنهى الشيخُ درسَه قصدَه وطلبَ منه أن يسمحَ له بالتلمذة عليه، فقال له الشيخ: لا أستطيع، لأنَّ مؤنة الطلبة قليلة، فقال له: يا شيخ، تريد الحقيقة، أنا أعلمُ منك في علمِ القراءات، غير أنِّي رأيت رؤيا ...وقصَّها عليه، فاختبَره الشيخ، فوجدَه كما قال، ثم قال له: سَراحُك هو أن تحفِّظَ ابني هذا ـ وأشار إلى **المهدي** ـ القرآن، فأتمَّ حفظَه عليه.

ثمَّ إنِّي وقفتُ في شبكة الأنترنت في **موقع أهل الحديث** على فائدة نقلَها الأستاذ **جمال بن عمار الأحمر**، قال: « في سنَتي الأولى مِن التعليم الثانوي درستُ بـ : **(ثانوية محمود بن محمود)** بمدينة **قالمة**، وكان أستاذنا الخاصّ باللغة العربية آنذاك هو الأستاذ البرلماني **مصطفى سرايدي**، حدَّثنا يوما فقال: حفظتُ القرآنَ الكريم وعُمري سبع (7) سنوات، لكن شيخي الشَّيخ **المهدي البوعبدلي** حفِظَه وعمره خمس (5) سنوات ».

وبعد حفظه للقرآن الكريم التزمَ مجالس العلم التي كان والده يعقِدها بزاويتهم، فأخذ عنه مبادئ العلوم، وقرأ عليه حوالي النِّصف الأوَّل مِن **(ألفية) ابن مالك** في النحو.



صورة أخرى لوالده (رحمه الله تعالى)

[4] رحلته في طلب العلم:

بعد حفظه القرآن الكريم في مسجد زاويتهم، ثمَّ تلقِّيه المبادئ الأولية في الفقه والنَّحو والصَّرف وغيرها مِن العلوم الأساسية، تاقَت نفسُه إلى الكمال، فشدَّ الرِّحال إلى **مدرسة مازونة** المشهورة، فتلقَّى فيها بعناية فائقة (**مختصر خليل**) في الفقه المالكي، وغيرها من الكتب الفقهية التي كانت مقرَّرة في ذلك المعهد العلمي، حيث قضى فيه حوالي سنتَين أو أكثر.



الشيخ المهدي البوعبدلي

(حوالي سنة 1924م)

[5] كلمة مختصرة عن مدرسة مازونة:

ذكر الشيخ محمد المهدي بن علي شغيب في مقال له بِعنوان: **مدرسة مازونة** [1]، بقلم الشيخ **محمد المهدي بن علي**، ذكر فيه كاتبه أنه التقى بالشَّيخ **محمَّد الصغير بو راس** (مفتي مازونة ومدير مدرستها) فاستفسَره « عن المدرسة ونظامها الدَّاخلي مِن جهة لوازم الطَّلبة وكيفية التَّعليم، ولِمَ امتازت هذه المدرسة بِدراسة (**المختصَر**) دون أن تُضيفَ إليه شيئا مِن علوم الآلة التي ربما كان خلو التلميذ منها داعية الحرمان من نَيل الأماني، وخلوُّها من ذلك يعتبَر ثلمة في هَيكَلِ التَّعليم »، ثمَّ دعَّم وجه استغرابه بقوله « وإضافةُ بعضِ المبادئ العربيَّة إلى المدرسة مع (**المختصَر**) لا تشقُّ على التَّلاميذ ولا على الأشياخ، ونفعُها أَوضحُ مِن كلِّ واضح ».

فأجابه الشَّيخ قائلا: «إنَّ أربابَ النَّظر الموكولِ إليهم أمرَ المدرسة فعلوا ذلك اقتِداءً بِأَسلافِهِم الذين أسَّسوها، فإنَّهم كانوا لا يعلِّمون فيها إلَّا (**مختصَر**) **أبي الضِّياء** سيدي **خليل**، وعزَّ عليهم أن يسنُّوا غيرَ ما سنَّه لهم آباؤهم الأَقدَمون».

أما عَن لوازم الطَّلبة (الأكل والطَّبخ) وما أَشبه ذلك، فيقول الشَّيخ بأنَّ « أهل المدينة يقومون بها، ويتنافسون في القيامِ بمهمَّات الطَّلبة، ولو بلغَ عددهم حدًّا يضيقُ عنه نِطاق الحصر، وعددُ الطَّلبة الموجودين الآن بالمدرسة لا يتجاوز الأربعين تلميذا ».

أما عن نشأة المدرسة فيقول: « هي قديمة العهد، ويظهر أنَّ حدوثها كان في القرنِ الحادي عشر مِن الهجرة حسبما يُستفادُ ذلك مِن مكتوبٍ بعثَ به والدي ـ أبي والد الشَّيخ المفتي الحالي ـ (رحمه الله) إلى حاكم دائرة (**رنو**) عندما طلبَ منه ذلك سنة 1904م».

ثمَّ ساق صاحبُ المقال نصَّ تلك الوثيقة [2] لاشتمالها على تاريخ المدرسة وأساتذتها مِن أوَّلِ نشأتِها، وهذا نصُّها: «في 18 أفريل 1904م، الحمد لله وحده،

---

(1) **جريدة البلاغ**: الجمعة 8 محرَّم 1346هـ/ 8 جويلية 1927م، العدد: 27، السَّنة الأولى، ص: 2.

(2) وقد وقف على هذه الوثيقة الشَّيخ **المهدي** ونقلَها كاملة بخطِّه (رحمه الله تعالى).

المعظم الأرفع السيد الحاكم المتصرِّف بدائرة (**رنو**)، السلام عليك، وبعد، فإجابةً عمَّا كلَّفتنا به مِن التَّعريف بأحوالِنا، وبيانِ كلِّ واحدٍ مِن أَسلافِنا المدرِّسين باسمِه، وذلك حين قدومِك للجامع الأَعظم بـ (**مازونة**) في تاريخ 15 أفريل 1904م.

فأولُ مَن شَرعَ في التَّدريس مِن أَجدادنا في فنِّ الفقه وغيره بالجامع المذكور الشَّيخ السيد **مَحمد** ـ بِفتح أوَّلِه ـ المعروف بـ : **ابن الشَّارف ـ بن أَحمد بن علي بن عبد العزيز**، الذي كان بوَطنِ **مجاهر**، ومات به، وقبرُه معلومٌ هناك وعليه قبَّة بِقُربِ **شلف**، وتركَ أَملاكًا كثيرة، مِن أَرض حِراثة وبَساتين أخذَ البايلك جميعها.

والزَّمن الذي ابتدأَ فيه التَّدريس السيد [مَحَمَّد] المذكور أوَّل القَرن الحادي عشر مِن الهجرة، وأسَّس المسجد المذكور وبناه وأَقامه مِن مالِه، وبقيَ مدرِّسًا فيه مدَّةَ 64 سنة، وتوفي سنة 1164هـ.

وتولَّى التَّدريسَ بعدَه ولدُه السيد **عبد الرَّحمن**، ولَّما توفي السيد **عبد الرَّحمن** تولَّى بعدَه ولده السَّيد **علي**، ثمَّ توفي السَّيد **علي** سنة 1189هـ [1]، وتولَّى التَّدريسَ بعدَه ولده السَّيد **محمَّد** ـ المعروف بالشَّيخ **أبي طالب** ـ الذي عمَّ نفعه العبادَ مِن حاضِرٍ وباد، وله بركة كثيرة وشأنٌ عظيم وعلمٌ غزير، وحُرمةٌ كبيرةٌ عندَ النَّاسِ وعند حكَّامِ وَقتِه، وبنَت له الدَّولةُ التُّركية الجامعَ وبيوتَ المدرسة، واستمرَّ ذلك البِناء إلى أن هَدمته الدَّولة الفرنسوية حينَ بِنائها البِناء الموجود الآن سنة 1852م، وبقيَ مدرِّسًا مدَّةَ 44 سنة، وتوفي سنة 1232هـ [2].

وتولَّى التَّدريسَ بعدَه ولدُ ابنِه السَّيد **أحمد بن سيدي هنِّي**، وفي مدَّة تدريس السيد **أحمد هنِّي** (المذكور) تكرَّمت سيادة الدَّولة الفرنسوية [سنة 1852] بِبناءِ المسجِد

---

(1) وقد وقف الشَّيخ **المهدي** على وثيقة حبس على نُسخة مِن **حاشية** الشَّيخ **مصطفى الرماصي** على **التتائي**، حبسها حفيد الشَّيخ **محمد بن الشَّارف**، وهي مؤرَّخة سنة 1177هـ.

(2) في نسخة الشَّيخ **المهدي**: « إلى أن توفي سنة 1233هـ ».

وبيوتِ المدرسة الموجودَينِ الآنَ بعدَ هدمها بِناءَ التُّرْكِ جميعا سِوىٰ قبَّة السيد **محمد بن الشَّارف** (المذكور أوَّلا)، فهي باقية علىٰ بِناءِ التُّرْكِ إلىٰ يومِنا هذا.

ولَمَّا تمَّت الدَّولةُ الفرنسوية البِناءَ المذكور سلَّمت البيوتَ لِسكنَىٰ الطَّلبة كما كانت علىٰ العهدِ القديم، وبقيَ السيد **أحمد بن هنِّي** (المذكور) مدرِّسا نحو الثَّمان وثلاثين سنة، وتوفي سنة 1371هـ.

وتولَّىٰ التَّدريسَ بعدَه ولده السيد الحاج **محمد** ـ المعروف بـ : **ابن هنِّي** ـ وهو والِدي، وبقيَ مدرِّسا مدَّة ثمانية أعوام، وتوفي في مكَّة المكرَّمة حين ذهابِه للحجِّ سنة 1379هـ.

ثمَّ تولَّيتُ التَّدريسَ أنا عبدُ ربِّه **هنِّي بو راس** ولدُ الحاج **محمد** بعدَ وفاةِ أبي، وبقيتُ مدرِّسا إلىٰ الآن، فهذه مدَّة 43 سنة وأنا مدرِّس[1].

وقَد أحرزَ كثيرٌ مِن تلامذتنا علىٰ وظائف دينيَّة كثيرة مِن الحكومة، كـ : القضاء، والإفتاء، والعدالة، في سائر أنحاءِ الإيالة الوهرانية وغيرها » اهـ المكتوب باختِصار.

ثمَّ قال صاحب المقال: « ثمَّ إنَّ السيد **هني بو راس ولد الحاج محمد** لَمَّا أدركَه الكبر بدا له أن يتنازلَ عن منصبِه لابنِه، فتولَّىٰ بعدَه ابنُه العلَّامة الشَّيخ **محمد الصغير بو راس**، وذلك في 9 سبطانبر سنة 1965م ».

وقد حضرَ تنصيبه مِن مدينة **مستغانم** كلٌّ مِن الشَّيخ **محمد الحراق بن الكريتلي**، والشَّيخ **عبد القادر بن قاري مصطفى** (مفتي مستغانم)، والشَّيخ **عبد القادر بن الموفق** (قاضي مستغانم)، ومكَّنوه من التَّسمية خلَفا عن والده بمحضر الوالد.

في هذا الجوِّ العلمي، وفي هذه الظروف الاجتماعية والسياسية، كان يُزاول الشيخ المهدي دراسته في هذه المدرسة.

---

(1) إلىٰ هنا ينتهي نصُّ الوثيقة، قال الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالىٰ): « نقلتُ هذه الوثيقة بنصِّها كما وجدتُها بخزانة الشَّيخ **محمد الصغير** (المفتي الحالي بمازونة) ».

[6] انتقاله إلى جامع الزَّيتونة:

في سنة 1346هـ/ 1927م ـ أي: قبل ذهاب الشيخ **المهدي** إلى **تونس** بسنتين ـ نشر الشَّيخ **مصطفى بن شعبان** مقالا بعنوان: **الكليَّة الزَّيتونية والطرقيُّون** [1]، تناول فيه عرضَ أباطيل بعض الطُّرقيِّين الذين استولى عليهم الخوف مِمَّن يقصد الزيتونة للدراسة بها، خاصَّة وقد علِموا بأنَّ جلَّ المصلحين إنما أشرِبوا فكرة الإصلاح من **الجامع الزَّيتوني**، ولما أعجزهم تشويه صورة **الجامع الزَّيتوني** راحوا يشوِّهون صورةَ **تونس** ».

وعلَّقت **مجلَّة الشِّهاب** على مقاله: « هكذا يُحاربُ رؤوس الزَّوايا قِراءةَ العلم، ولا يغرَّنَّك ما يجعله بعضهم مِن دروسٍ في زواياهم، فإِنَّهم لا يَختارونَ للتَّعليم فيها إلَّا مَن يسكتُ عنهم ولا يجاوز في قِراءتِه المبادئ ولا يَحومُ ولا يدري كيف يحومُ حولَ ما يفتق الأذهانَ وينبِّه الأفكار، ومَن كان على غير هذه الصِّفة فهو مغمورٌ بالأَكثريَّة الظاهرة ».

هكذا كانت ترسم صورة الزيتونة في أذهان مَن سقطوا في شِراك الطرقية المذمومة، ولم يكن الشيخ ولا والده الجليل ليُخدعَا بهذا التضليل والتشويه.

ولما كانت نفوس المهيَّئين للمعالي تتوق دائما إلى السموِّ، ولا تخلد أبدا إلى الراحة والكسل، كما قال **يحيى بن أبي كثير**: « لا ينال العلم براحة الجِسم »، فإنَّ نفس الشاب المهدي لم ترضَ بهذا القدر مِن التحصيل، فشمَّرت عن ساعد الجدِّ، ورحلت به إلى حيث المعين الصافي، والمورد العذب، فقصد مدينة تونس لينخرط في سِلك طلبة **الجامع الزيتوني**، أين تعرَّف على شيوخ أجلَّة وطلبة كرام، فكثرت معارفه، وتوسَّعت دائرة اتِّصالاته ونشاطاته، واشتهر فضله وظهرت مواهبه، وهناك عيِّن عند تأسيس **جمعية التلامذة الجزائريِّين الزيتونيِّين**، أول رئيس لمجلسها الإداري.

---

(1) **جريدة الشِّهاب**: الخميس 16 ربيع الثَّاني 1346هـ/ 13 أكتوبر 1927م، العدد: 117، السَّنة الثالثة، ص: 7 ـ 9.

قال الشيخ **زهير الزاهري** عن الشيخ **المهدي**: «ولقد اختاره الطلبة لرئاسة لجنة الطلبة الجزائريين سنة 1933م، ثقة فيه »[1].

ومكث بـ: **تونس** ينهل مِن معين علمائها إلى غاية سنة 1938م، وعليه فقد فيكون قد « استغرق في دراسته اعتبارا مِن المرحلة الابتدائية إلى أن تخرَّج مِن الزيتونة ما يقارب 25 سنة، ولم ينقطع عن الدراسة إلا في الظروف المرضية الطارئة » [2].

وبعد تخرُّجه مِن **الزيتونة**، وحصوله على شهادة التحصيل، عاد إلى وطنه بنيَّة الإفادة، غير أنَّه اصطدم بواقع لا نقول كان يجهله، وإنما كان ـ بحكم مرحلة التحصيل التي لا ترتبِط غالبا بتكاليف الحياة ـ بعيدا عنه، غير ملِمٍّ برزاياه وبلاياه، ذلك أنَّ الإدارة الفرنسية كانت تنظر إلى المتخرِّجين من هذا المعهد نظرة سيِّئة، فأغلقت دونهم جميع أبواب التوظيف، قال الشَّيخ **عبد اللطيف القنطري** (رحمه الله تعالى) في وصفِ حالة المتخرِّج من **جامع الزَّيتونة** بعد تحصيله على شهادة التَّطويع: « نجِد التلميذَ يقضي على الأقلّ سبع سنواتٍ في التَّعليمِ القانوني، وإذا أخذَ **شهادة التطويع** نجِده حائر البال، يفكِّر في أمر مستقبلِه، فيذهَب إلى الوظائف التونسية التي تخوِّله له شهادته فيجِدُ الأبوابَ مُغلَقة في وَجهِه بِدَعوى أنَّه جزائري، وأنَّ هناك قرارا وزاريا يقضي بِمَنع الجزائري مِن الوظائف الشَّرعيَّة، فيذهب بعد إلى **الجزائر** ـ وطنه ومسقط رأسِه ـ فيجِد مثل ذلك أو أشدّ، بدَعوَى أنَّ الوظائفَ الشَّرعيَّةَ لها مدارس حكومية تقرأ فيها، وأنتَ لم تقرأ بِتلك المدارس، فيرجع بِيَدٍ فارغةٍ وأخرى لا شيءَ فيها »[3].

لهذا نجده في ختام مقاله يستحثُّ أصحاب الكلمة المسموعة مِن النواب والصَّحافيِّين أن يعيروا هذه القضية جانبا مِن الاهتمام.

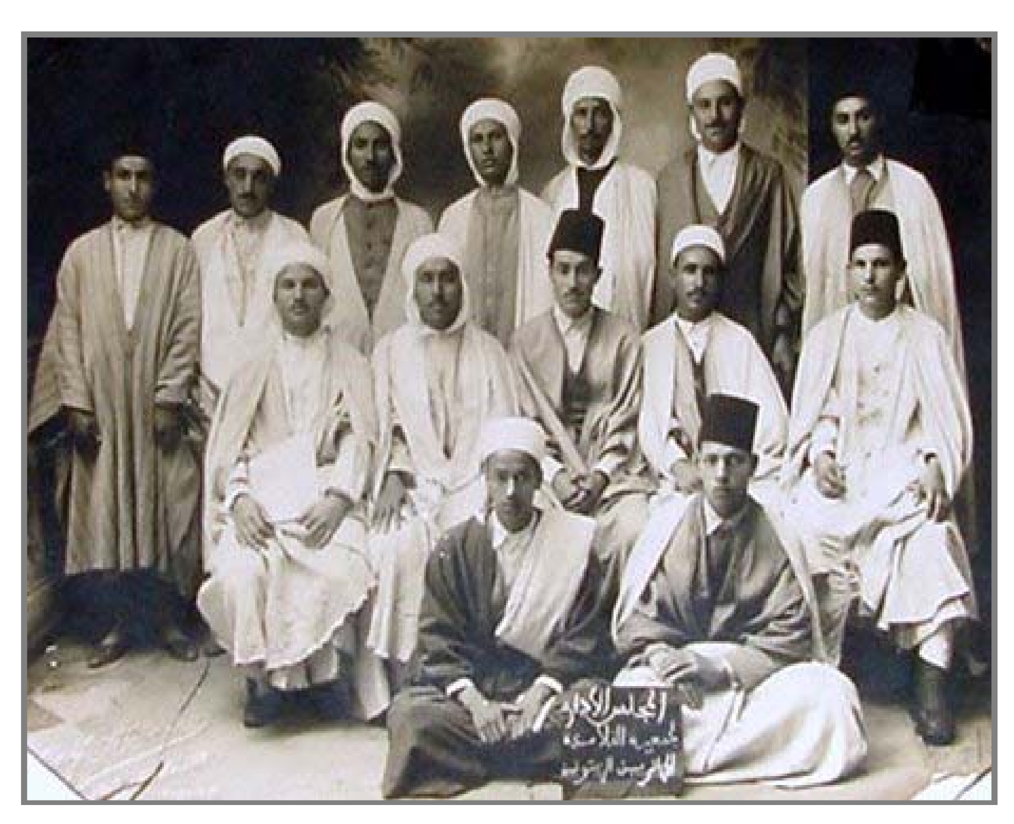
---

(1) انظر: **الشيخ المهدي البوعبدلي: نصوص ووثائق** (ص: 33).

(2) **الشيخ المهدي البوعبدلي** (1907مـ 1992م)، مقال للأستاذ **حسني بليل**.

(3) **جريدة الشِّهاب**: الخميس 30 ربيع الثَّاني 1346هـ/ 27 أكتوبر 1927م، العدد: 119، السَّنة الثالثة، ص: 11 ـ 12، ما هكذا يا سعد توردُ الإبل، عبد اللطيف سلطاني القنطري.

وهذه الحالة التي كان يشكو مَرارتها الشَّيخ **القنطري** ظاهرها فيه العذاب، وباطنها عاد على الأمَّة بخير كبير، إذ لو التحقَ المتخرِّجون بالوظيف لدُجِّن أغلبهم، ولما قامت للجزائر قائمة الإصلاح.



صورة نادرة لأعضاء(المجلس الإداري الأول)

لـ:جمعية التلامذة الجزائريِّين الزيتونيِّين

الرئيس: أبو رنان الميلي عيسى التبسي، نائبه: المهدي البوعبدلي، الكاتب العام: الحفناوي هالي، نائبه: علي المغربي، أمين المال: أبو بكر الأغواطي، نائبه: عبد المجيد حيرش، والبقيَّة: (أعضاء إداريُّون)

[7] ثبت شيوخه:

استغرق في دراسته اعتبارا مِن بداية الطلب إلى أن تخرَّج من **الزيتونة** ما يقارب 25 سنة، ومن أبرز الشيوخ الذين درسَ عليهم[1]:

1) والده الشيخ **أبو عبد الله البوعبدلي**: أخذ عنه القرآن الكريم برواية ورش عن نافع، وقرأ عليه حوالي النصف الأول مِن ألفية ابن مالك في النَّحو.

2) **الشيخ محمد بن زقنون**: وهو معلم الصبيان بزاويتهم.

3) **عبد القادر بن طويس**: أتمَّ على يديه حفظ القرآن الكريم[2].

4) الشيخ الفقيه **أحمد الكفيف المازوني** (ت: 1956م): وهو نجل الشيخ **أبي راس المازوني** حفيد **أبي راس المعسكري**.

5) الشيخ الفقيه **محمد بن عبد الرَّحمن المازوني** (الصغير).

6) العالم الجليل التونسي **محمد عبد العزيز جعيط** صاحب المجالس العلمية.

7) العالم الفقيه الأصولي المفسِّر الشيخ **الطاهر بن عاشور**: وكان الشيخ **المهدي** يحضر دروسَه في التفسير.

8) الشيخ **محمد اللقاني بن سايح**: الجزائري الأصل، التونسي المستقَر.

9) الشيخ الحاج **أحمد العياري**: أحد أكابر علماء جامع الزيتونة، قال الشيخ المهدي يصف درسه: «تحضره أكثر من خمسة مائة نفرا، من طلبة وتجار، وحتى بعض الأساتذة، وذلك لما أوتيه السيد هذا مِن غزارة في البيان» [3].

10) الشيخ **عبد السلام التونسي**: وله معه مراسلات.

---

(1) أفادنا بمعرفة شيوخه الشيخ **عبد القادر شراك** إمام بـ: **مسجد الشريفية** بمدينة **وهران**، كما استفدنا أيضا مِن مقال **الأستاذ بليل**.

(2) مِن إفادة الشيخ **عبد القادر شراك**.

(3) انظر: **الشيخ المهدي البوعبدلي شهادات ووثائق** (ص: 212 ـ 213).

11) العلامة **محمد البشير بن أحمد النيفر**: قرأ عليه (الموطأ) مع رفيقه الشيخ **زهير الزاهري**، قال الشَّيخ **زهير الزاهري** عن الشيخ **المهدي**: « لقد عرفتُه بتونس بـ: (**جامع الزيتونة**)، حيثُ كنَّا ندرس معًا (**الموطأ**) على الشَّيخ **البشير النيفَر**، فكان مثال الاجتهاد في طلب العلم »[1].

12) الشيخ **الفاضل ابن عاشور**.

13) الشيخ **محمود سكيس**: درس عليه (**مختصر السَّعد**) في البلاغة، وشرح **التاودي** على (**العاصمية**)، و(**تنقيح الفصول**) للقرافي.

14) الشيخ **محمَّد الصادق** الشطي: المتوفَّى سنة 1945م.

15) الشيخ **عبد الرحمن يوسف**: درس عليه التاريخ والإنشاء وشرح البُردة.

16) الشيخ **إبراهيم النيفر**: المتوفَّى سنة 1967م.

17) الشيخ **معاوية التميمي**: مدرِّس **الأشموني** في النحو، توفي سنة 1944م، كان **الشيخ الزَّاهري** يلازمُه ويقول عنه: « ما وجدتُ أوسع خبرة منه بكلام العرب، ولا أبصر منه بمواقع النقد، ولا أصحَّ منه ذوقاً، ولا أحزم منه في تمحيص الحقِّ من الباطل في كلِّ مشكلة تنزل ... وكثيراً ما أعرض عليه القصيد فيعيب عليَّ منه أشياء، فما زلتُ كذلك حتَّى أصبحتُ إذا قلتُ قصيداً أعرفُ ما سَيعيبُه عليَّ مِن الأَشياء مِن قَبلِ أَن أَعرضَه، لأَنَّه إِذا عابَ شيئاً بيَّن وَجهَ العَيب، فأَتنحَّى عنه»[2].

18) **الشيخ محمَّد بن حميدة بن الشاذلي العنابي**: المتوفَّى سنة 1956م.

وله شيوخ عدَّة تلقَّى عنهم مختلف العلوم والفنون، خاصة بـ: **تونس**، أين قضى سنوات كثيرة ينهل فيها مِن معين علمائها العذب.

---

(1) **نفسه** (ص: 33).

(2) **شعراء من الجزائر** (ص: 76) صالح الخرفي.

[8] زواجه وأولاده:

قبل رجوعه واستقراره نهائيا بالجزائر زوَّجه والده كما العادة بكريمة الأصل والحسب أمّ أولادِه السَّيدة الفاضِلة **قاسمي ماما**،وهي مِن قبيلة **هُنين** المشهورة، ومِن ذرية **عبد المؤمن بن علي** أمير المؤمنين في عهد الدولة **الموحِّدية** العريقة [1]، توفيت (رحمها الله تعالى) سنة 2002م، أنجبت معه خمسة أطفال:

1) السيدة **نظيفة**: ولدت سنة 1932م.

2) السيد **عبد الغني**: ولد سنة 1936م.

3) السيد **محمد**: ولد سنة 1938م.

4) السيد **حسان**: ولد سنة 1943م.

5) السيد **جميل**: ولد سنة 1946م.

أما زواجه الثَّاني فكان بالسَّيدة الكريمة **خيرة هنان**، وهي من مدينة بطيوة، تزوَّجها الشيخ سنة 1948م بسبب مريضٍ أصاب زوجته الأولى فأقعدها عن خدمته، ولم يُنجب منها الشيخ أولادًا، توفيت (رحمها الله تعالى) سنة1997م عَن عمر يناهِز 70سنة.

كما تكفَّل الشيخ بحضانة طفلة صغيرة بنت ستة أشهر، أطلق عليها الشيخ اسم: **حورية**، تيمُّنا بالاستِقلال، وكانت هذه البنت قد توفي والدها شهيدًا ـ إن شاء الله تعالى ـ فجاءت بها امرأة مرسلة مِن طرف المجاهدين وقدَّمتها للشيخ سنة 1960م، وبقيت

(1) كان والدها وأربعة مِن أولاده قد قتلهم العدو الفرنسي سنة 1957م في **هُنين**، وذلك أن العدو قد سمع بتحركات للمجاهدين بالمنطقة، فحذر أهلها من مغبة ذلك، وبعدها بيوم فقط أحرق المجاهدون في كمين عربة عسكرية للعدو، وقتل مَن فيها من عساكر الظلم والاعتساف، فانتقم الحاكم العسكري لجنوده، فقتل 17 رجلاً من أهالي القرية.

تحت رعايته الكريمة إلىٰ غاية وفاتها بسببِ مرضٍ أصابها سنة 1966 أو 1967م، وقبرها علىٰ يمين قبر والده الشيخ **أبي عبد الله** (رحم الله لجميع).

[9] وظائفه ومناصبه.

بعد استكماله لمراحل التحصيل، وتمكُّنه مِن أدوات التوجيه ووسائل الإرشاد، التي توجب علىٰ مثله تحمُّل أعباء الرِّسالة المنوطة بهم لتبليغها وأدائها علىٰ أحسن وجه، وبعد رجوعه إلىٰ وطنه، واستقراره ببلده، صار لزاما عليه أن يفكِّر في إيجاد وظيف يخدم به دينه ووطنه، ويستجدي منه قوته ورزقه، فعُرِضَ عليه ابتداءً منصب محرِّر في جريدة الرَّشاد، ثمَّ منصب الإمامة، وختم مطافه في منصب الإفتاء، هذا في عهد الاحتلال، أما بعد استقلال الجزائر فقد عيِّن عضوا في المجلس الإسلامي الأعلىٰ، وشغل منصب مكلَّف بمهمَّة لدىٰ وزارة الشؤون الدِّينية، كما تولَّىٰ بعض الأعمال سنشير إلىٰ بعضها في هذا الفصل.

1) منصب التحرير في جريدة الإرشاد:

أوَّل منصبٍ رشِّح لتقليده بعد تخرُّجه من الزَّيتونة سنة 1938 هو منصب محرِّر في **جريدة الرشاد**[1] التي كانت تشرف عليها **جمعية اتِّحاد الزوايا والطرق الصوفية** برئاسة الشيخ **مصطفى القاسمي**، وبقي يعمل في الجريدة مدَّة سنة أو ما يُقاربها، ثمَّ تركها لرغبته في منصب يكون فيه بعيدًا عن المعارك الفكرية التي كانت تخوضها هذه الجريدة مع جماعة المصلحين.

2) منصب الإمامة:

وفي سنة 1940عيِّن إماما **بمسجد الباشا ـ جامع الترك** ـبمدينة **وهران**، ولكنه سُرعان ما تركه ليستقِرَّ في نفس المنصب بجامع سيدي الصوفي بمدينة بجاية، هذه

---

(1) جريدة أسبوعية كان يُشرف علىٰ تحريرها الشَّيخ **محمَّد العاصمي**، وهي لسان حال (**اتِّحاد الزَّوايا والطُّرق الصُّوفية**)، التي كان يرأسها الشَّيخ **مصطفى القاسمي**، شيخ (**زاوية الهامل**)، انظر: **تاريخ الجزائر الثَّقافي** (5/ 262).

المدينة التي تعلَّق بها الشيخ المهدي تعلُّقا كبيرا، وكانت سببا في وقوفه على كنوز نفيسة من المخطوطات، وتعرَّف بها على شخصيات بارزة كانت سندا له في مسيرته العلمية والعمليَّة، ومن أبرز مَن كانت تجمعهم به رابطة العلم والأخوة والدين، الأستاذ **محمود بوزوزو**، والأستاذ **الهادي الزروقي**، والأستاذ **مولود طياب**، وغيرهم من أعيان المدينة، وفي بعض مراسلاته مع الأستاذ **بوزوزو** وقفنا على قصيدة لهذا الأخير يمدح فيها الشيخ المهدي ويهنِّئه بتولِّيه لهذا المنصب، قال:

مَــا رَأَيْنَــا مِــنَ الأَئِمَّــةِ إِلاَّ ... خُشُــبا تَحْــتَ جُبَّــةٍ أوعِمَامَــهْ
إِنَّــما مَنْصِــبُ الإِمَامَــةِ أَوْلَىٰ ... أَنْ يُــوَلاَّهُ عَــالِمٌ ذُو إِمَامَــهْ
لَــئِن اُخْــتِرْتَ لِلإِمَامَــةِ فَــاعْلَمْ ... أَنَّهُــمْ صَــادَفُوكَ أَهْــلَ الإِمَامَــهْ
وَقَدِيمًا أَسْــمَوْكَ فِي الهَــدْيِ مَهْدِيـ ... ـيًّا والاِسْــمُ عَــلَىٰ المُسَــمَّىٰ عَلاَمَــهْ
عِزَّةَ النَّفْسِ صُنْهَا مَا عِشْتَ وَاعْلَم ... أَنَّ زينَ الوَظِيـفِ حِفْـظُ الكَرَامَـهْ



مسجد سيدي الصوفي (بجاية)

3) **منصب الإفتاء:**

وفي نفس وبعد انتقال الشيخ **حسن بولحبال** (مفتي بجاية) من مدينة **بجاية** إلى مدينة **وهران**، وشغور منصب الإفتاء في **بجاية**، تقدَّم بطلب للإدارة المكلَّفة بتعيين وتنصيب المفاتي، وبعد نجاحه في امتحان الترشيح، عُيِّن مفتيا بهذه المدينة، وسعِد به أهلُها الذين وجد فيهم خير مُساعِد في أداءِ رسالته، وتلقى مجوعة من الرسائل بهذه المناسبة تهنِّئه بتولِّيه لهذا المنصب، انظرها في فصل مراسلاته.

يبقى أن نذكِّر بأمرٍ مهمٍّ رأينا كثيرا مِن الناس يخوضون فيه خوضَ مَن يأخذ الأمور رماية في عماية، فأردنا أن نرفع اللبسَ عنه، ونحلِّيه بثوب الإنصاف، وهذا الأمر متعلِّق بمَن كان يتولَّى وظيفة الإمامة أو الإفتاء أو القضاء في الحقبة الاستعمارية، فبعض المعاصرين ينظرون إلى هذا الصِّنف مِن العلماء بعين السخط، ذلك أن أغلب مَن كان يرشَّح لتلك المناصب كان يقدِّم بين يدَي تعيينه قرابين الولاء وشواهد الإخلاص للإدارة الفرنسية، وعلى هذا الأساس حكمَ طائفةٌ مِن المعاصرين على هذا الصِّنف مِن الموظَّفين بأنهم كانوا جُنَّة للإدارة الفرنسية يستجِنُّ بهم مِن ضربات الأحرار مِن بني جنسهم،وأنهم كانوا له عيونا وأبواقا في ترسيخ أمنه وتوطيد استقراره، وتخدير أذهان الجزائريِّين وتدجين نفوسهم، وكانت له فيهم مآرب أخرى.

وهو مسلكٌ وعرٌ يقضي على سالكه بأن يتنازل في كثيرٍ مِن المواطن عما كان يعتقده مما لا يصِل إلى درجة الثوابت، وهو أيضا مهيع صعب قلَّة قليلة من دخلته وخرجت منه سالمة في دينها وعرضها، لهذا كان يحذِّر العلماء منه.

هذه حقيقة، لكن يجب أن تقف بجنبها حقيقة أخرى، وهي أنه لا ينبغي أن نعمَّم هذا الحكم على جميع مَن تولَّى هذه الوظائف في تلك الحقبة مِن الزمن، أولا لأننا وجدنا كثيرا ممَّن لا يساورنا أدنى شكٍّ في إثبات عدالتهم ونزاهتهم، وإخلاصهم لدينهم ولوطنهم قد تولَّى الوظيف في تلك المرحلة، ثمَّ إنَّ الأنظار والأفهام متفاوتة في الحكم

علىٰ الأشياء التي تتحقَّق بها المصلحة العامة، فلا لومَ علىٰ مَن استقرَّ رأيه وكان مبلغ علمه أنه بسلوكه سبيل التوظُّف في هذا السِّلك أنه سيخدم به دينه ووطنه وقومه.

ونحن لا نشكُّ في إخلاصِ الشيخ **المهدي**، ونعتقِد اعتقاد مَن يشهد ويحكم علىٰ الأشياء بظواهرها بأنه كان مِثالا في دينه وإخلاصه لوطنه في كل مراحل حياته، ولا أدلَّ علىٰ ذلك أنه حينما حمي الوطيس، وركنَ كلُّ جنسٍ إلىٰ جنسه، واختارت كل نفسٍ فئتها، وجدنا الشيخ المهدي مع فئة الحقِّ في ثورة الجزائر وجهادها، ومَن كانت بدايته مشرِقة كانت نهايته أكثر إشراقا، والعِبرة بالخواتيم.

عود علىٰ بدء ـ والعود أحمد ـ بقي الشيخ **المهدي** في مدينة **بجاية** يؤدِّي عمله ورسالته إلىٰ غاية سنة 1944م، حيث غادر بجاية ليتولىٰ نفس المنصب بمدينة الأصنام (الشلف حاليا) لا زهدا في بجاية وأهلها، ولكن ليكون قريبا من أهله وذويه.

وعندما فارقَ **بجاية** منتقِلا إلىٰ مدينة **الأصنام** أقام له الأصدقاء مِن أعيانِها حفلةَ وداع بـ: **المدرسة الخلدونية** في ربيع الأول مِن سنة 1368، وكان مِن جملة الخطباء الأخ الأستاذ **المولود طياب** (المدرِّس بالمدرسة الخلدونية)، فختم خِطابه القيِّم بهذه الأبيات:

رعَىٰ الله أيامًا قَضيناها رفقة — وزيَّن أياما ستُطوىٰ علىٰ بُعدِ
عَرفناكم ممن يشيد المكارما — ويسعدُ محزونا ومنتكسَ الجدِّ
وما كنتم فينا سِوىٰ النُّبل والنَّدىٰ — وإلا حليف الحزم في حلَّة الرُّشدِ
لئن كان ماضينا أشاد بإشبيلي نهنِّيكم — فسوف يشيد العطر بالمفتي **المهدي**
والعين تذرف أدمعا — علىٰ سفرٍ قاسٍ علىٰ كلِّ ذي وُدِّ
وإنَّ وداعًا عن **بجاية** والرُّبىٰ — تقدم مَرفوقا بأُمنية العَودِ
ولو طاعت الأشعار طوَّقت جِيدكم — بِباقاتِ مدح مخجلات شَذا الورد

4) منصب مكلَّف بمهمَّة لدى وزرة الشؤون الدينية:

بعد الاستقلال بقي الشيخ في مدينة **شلف** يتابع مهمَّته في منصب مفتي المدينة، غير

أنَّ تراتيب الوزارة بعد الاستقلال تغيَّرت، وألغي منصب المفتي، فتولَّى الشيخ منصبا بالوزارة غير محدَّد المهام، لهذا كان في مقالاته يضيف بعد ذكر اسمه: مكلَّف بمهمَّة **لدى وزرة الشؤون الدينية**،فهو تحت تصرُّفها، فكان يحاضر في مختلف المناسبات، ويمثِّل الجزائر في مختلف التظاهرات الوطنية والدولية، ويعقد الدروس في المساجد، ويستقبلُ الوفود، ويقوم بمهامٍ أخرىٰ أيضا.

كما كلِّف الشيخ مِن قِبَل **نظارة الشؤون الدينية** بالتَّدريس، فقام بما أنيط به أحسن قيام، فكان في كلِّ أسبوع يتَّجِه إلىٰ الجزائر العاصمة، تارة مِن مقرِّ زاويتهم في بطيوة، وتارة أخرىٰ مِن منصب عمله في الأصنام (شلف حاليا)،ليلقي دروسا علىٰ الأئمة الخطباء الذين يزاولون فترات تدريبية بـ: **مدرسة مفتاح**، ومن جملة مَن درسوا عليه شيخ **مدرسة كاسان** ـ ولاية مستغانم ـ الشيخ **البارودي**، وجماعة ممَّن هم الآن أئمة في المساجد[1].

ومن بين المهام التي تقلَّدها الشيخ **المهدي**:وكلِّف بها:

1) **عمِل عضوا بالمجلس الإسلامي الأعلى**: وذلك منذ تأسيسه سنة 1963م.

2) **انتُدِبَ لوزارة الثقافة (دائرة المعالم الأثرية)** مِن قِبَل **وزارة الشؤون الدينية** ليقوم بإنجاز أبحاث تاريخية.

3) عمِلَ **عضوا في المكتب الوطني للدراسات التاريخية**، وله مجموعة بحوث في مجلَّة الدراسات التاريخية[2].

(1) عن مقالالأستاذ **بليل حسني**.

(2) المصدر السابق.



الشيخ المهدي البوعبدلي يُلقي محاضرة

بالمركز الثقافي الإسلامي بالعاصمة

5) منصب شيخ الزاوية البوعبدلية:

بعد وفاة شقيقه الشيخ **عبد البر** سنة 1979م، خلفه في منصبه وتولَّىٰ تسيير شؤون الزاوية البوعبدلية، فكان يلقي بعض الدروس، ويوجِّه ويرشِد مَن يَستفسِر عن أمور دينه، ويؤمُّ الناس في الصلاة، إلىٰ أن وفاه الأجل.

[10] آثاره:

قال العلاَّمة **محمد ابن مرزوق التلمساني** (رحمه الله): « إنَّ الله تعالىٰ قَد أجرىٰ عادتَه في علماء الإسلامِ أن يُبارِكَ لأَحدهِم في قِراءته، ولآخَر في إلقائه وتَفهيمه، ولآخَر في نسخِه وجمعِه وعِبادتِه » اهـ[1].

مِن خِلال تتبُّعِنا لآثار الشيخ **المهدي** بدا لنا أن اهتمامه بالكتابة بدأ مبكرا، فقد وقفنا له علىٰ مقالٍ في جريدة (**النجاح**) أنشأه في مرحلة تحصيله، أي: حينما كان تلميذا في **الجامع الزيتوني**، تعرَّض فيه للحديث عن **مدينة مازونة** التي قضىٰ في مدرستها الشَّهيرة سنوات قبل أن يغادِرها إلىٰ **تونس**، كما وقفنا له علىٰ خطابٍ أرسله إلىٰ جريدة **الشهاب**، وحالت دون نشره موانع نجهلُ تفاصيلها.

وهذا الاهتمام المبكر سريعا ما انطفأت شعلته وخبت جذوته، ولم نقف للشيخ **المهدي** علىٰ أثر منشور في الجرائد أو المجلاَّت إلىٰ غاية سنة 1952م، حيث نشرت له **المجلَّة الإفريقية** (La revue africaine) مقالا بالفرنسية في التَّعريف بالشيخ **محمَّد بن علي الخروبي**[2].

هكذا كانت بدايته في الكتابة حسبما اطلعنا عليه من خلال تتبُّعنا لآثاره، فقد كانت مشاركته في تحرير المقالات محتشمة، وبعد الانقطاع المشار إليه عادت حركة الكتابة

---

(1) **روضة النسرين** (ص: 220) لابن صعد التلمساني، تحقيق: د. يحيىٰ بوعزيز.

(2) وقد ذكر لي الشيخ **عياض** (حفظه الله) أنه كان كثيرًا ما يتَرجِم للشيخ **المهدي** بعض كتابته وكذا المحاضرات التي كان يلقيها في **الإذاعة الفرنسية الجزائرية**، ومن المقالات التي ترجمها له: دراسته المنشورة في **المجلَّة الإفريقية** (La revue africaine) سنة 1952م.

لتنتعِش عنده، وذلك بفضل مشاركاته في ملتقيات الفكر الإسلامي منذ سنة 1970م، وانتدابه لإلقاء محاضرات في التاريخ عبر مختلف مدن الوطن، فكانت هذه المرحلة التي دامت حوالي عقدَين من الزمن هي أثرىٰ المراحل في عطائه الفكري من ناحية التدوين والنشر، إذ وبحسب استقرائنا لمراحل حياته فإن معينَ عطائه لم ينقطع منذ تخرُّجه من **المعهد الزيتوني**، فإنه كما سبق في فصلِ وظائفه كان يعمل محرِّرا في **جريدة الرشاد**،وقد تتبَّعنا أعددا كثيرة من هذه الجريدة ولم نحصل علىٰ مقالٍ معزوٍّ له أو أمضاه باسمه الصريح، كما سبق وأن أشرنا إلىٰ انتدابِه لإلقاء محاضرات بـ: **الإذاعة الجزائرية الفرنسية**، في بداية الخمسينيات، فكان الشيخ يُذيعها عبر أثير هذه الإذاعة، وخصَّصها للتعريف بالحواضر العِلمية والعواصم الثَّقافية بالقطر الجزائري،وقد وقفنا له علىٰ محاضرة بعنوان: (**تنس**).

كما شارك في مجال الكتابة بتأليف كتابَين في التاريخ، وتحقيق مخطوطين في تاريخ مدينة وهران.

ويمكن حصر كتاباته فيما يلي:

1) مقالاته ومحاضراته:

إذ لا يمكن الفصل بينهما، وقد سبق أن ذكرنا في مقدِّمة هذا الكتاب أنَّجلَّ آثاره هي عبارة عن مقالات أو محاضرات كانت يشارك الشيخ **المهدي** ويحاضر بها في مختلف المناسبات، ثمَّ يعمل علىٰ نشرها في مختلف المجلَّات، و**القسم الثاني** مِن كتابنا هذا يشتمل علىٰ جلِّ هذه المقالات المنشورة والمنثورة في بطون المجلات والمجاميع، وله أيضا مجموعة مِن المقالات المخطوطة التي حاضَر بها أو أنشأها لتكون مقدِّمة لكتابٍ أراد تحقيقه ولم يتمكَّن مِن نشره.

فائدة:

في مداخلة للشيخ **أحمد الشَّريف الأطرش السنوسي** (رحمه الله تعالىٰ) ألقيتْ علىٰ هامش ملتقىٰ الاحتفال بشخصية الشَّيخ **المهدي البوعبدلي** بـ **(أرزيو)**، قال في ختامها: « أيها السَّادة الأعزَّاء، ليكن بعض ما عثرتُ عليه من آثار الشَّيخ **المهدي** في دنيا البحث العلمي، ما كتبه هو بنفسه في جريدة **(النَّجاح)** في عددها الصَّادر يوم الثَّامن أوت عام إحدىٰ وخمسين وتسعمائة وألف[1]، قال عن **المكتبة الوطنية** بـ **(فرنسا)**: وقد أتاح لي الحظ الموفِّق أن أعرف هذه المكتبة وألازمها صباح مساء، نحو سبعة أشهر كاملة، إثر زيارتي إلىٰ **(باريز)** في خريف 1937م، وأهم ما انصرفت إليه عنايتي يومئذ هو التَّفتيش علىٰ الكتب العربية المخطوطة»، ثمَّ نقل جزءًا كبيراً من ذلك المقال، وختم كلامه قائلا: « هذا ملخَّص ما ذكره الشَّيخ **المهدي البوعبدلي** عمَّا عثر عليه في مكتبة **(باريز)**، وختم كلامه بإشارة: (يُتبع)، ومع الأسف انقطعت بنا السَّابلة، فلم نعثر علىٰ العدد اللاحق»[2].

وقد يسَّر الله لنا الوقوف علىٰ ما لم تطله يد الشَّيخ **السنوسي** من أعداد **(النَّجاح)**، وتتبَّعنا مقالات الشَّيخ **محمَّد المهدي**، وتوصَّلنا إلىٰ أنَّ الشَّيخ **السنوسي** (رحمه الله) اشتبه عليه الأَمر للتوافق الموجود بين الشَّخصيتَين في الاسم، وكذا في الاهتمام المشتَرك بالتراث والمخطوطات، وهناك أدلة كثيرة تشرح هذا الالتباس، وترفع عنه السِّتار، منها ما ذكره الأستاذ **محمَّد المهدي** في مقالٍ له من سلسلةِ مقالاتٍ في الحديث عن النَّخل وجماله، قال في سياق الحديث عن نفسِه: « ثمَّ شاءت الأقدار أن أشغل منصب العدالة الشَّرعية في محكمة **(جلفة)** أيامًا معدودات من خريف عام 1945م، وفي هذه المرَّة

---

(1) **جريدة النَّجاح**، عدد: 3926، ص: 1، الأربعاء 5 ذو القعدة 1370هـ/ 8 أوت 1951م، أبحاث أدبية وعلمية، من ذكريات باريس، بإمضاء: محمَّد المهدي.

(2) **مقتطفات من مقالات ومداخلات الشَّيخ أحمد الشَّريف الأطرش السنوسي، مفتي الدِّيار الوهرانية** (ص: 34 ـ 35)، جمع وتقديم: حمدادو بن عمر، وبوعمامة العربي، دار الأديب للنَّشر والتَّوزيع 2006م.

عرفتُ ناحية **(وادي ريغ)** بـ **(الزيبان)** بالتَّفصيل »، والشَّيخ **المهدي** لم يشغل هذا المنصب، وكان في تلك الحقبة بمدينة **(بجاية)** بلا ريب ولا شك، وبعد البحث تبيَّن لنا أن صاحب تلك المقالات هو الشيخ **محمد المهد بن علي شغيب**، صاحب كتاب: **أم الحواضر في الماضي والحاضر** (تاريخ قسنطينة)، والله أعلم.

2) مؤلَّفاته:

أما مؤلَّفاته فهي وإن كانت قليلة مقارنة مع ما بذله من جهدٍ في سبيل إحياء التراث وتحرير المقالات وعقد المحاضرات العلمية في التاريخ والثقافة، إلا أنها نفيسة ومهمَّة، وكلُّها متعلِّق بتاريخ الجزائر الثقافي والفكري، وهي ثلاثة مؤلَّفات:

[1] جوانب من الحياة الثقافية بالجزائر في العهد العثماني (من القرن العاشر الهجري إلى القرن الثالث عشر):

نشرت ضمن كتاب: الجزائر في التاريخ، الجزء الرابع، العهد العثماني، بالاشتراك مع الدكتور **ناصر الدين سعيدوني**، نشره متصرِّفا في نصوصه الأستاذ **شهاب الدين يلس**، وهذا بتكليفه مِن قِبَل اللجنة العلمية للكتاب التي أشرفت على نشره، وبموافقة أيضا مِن الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى) كما في مقدِّمته، وطبع سنة 1984م بالمؤسَّسة الوطنية للكتاب، تحت إشراف (وزارة الثقافة والسياحة)، ونحن في هذا الكتاب أعدنا نشره معتمدين على نسخة مخطوطة بيد الشيخ **المهدي** تقع في كراستَين، وأَبقينا النصَّ كما وجدناه في هذا الأصل.

[2] ثورة الشريف بوبغلة (بطل ثورة بلاد القبائل سنة 1851م):

وهو عبارة عن رسالة مختصرة نشَرتها **مديريَّة الدِّراسات التَّاريخيَّة وإحياء التُّراث** التابعة لـ: **وزارة الثَّقافة والسِّياحة** ضِمن **(الموسوعة التاريخية للشباب)**، طبعت بالمؤسَّسة الوطنية للفنون والطِّباعة **(الرغاية)** سنة 1985م، وعدد صفحاتها: 45

صفحة،وهي تهدِف كما هو مرقومٌ بظهر غِلافها بقلم الدكتور **محمد الطاهر العدواني**: « إلى تعميم الثَّقافة التَّاريخية الوطنية في أوساطِ الشَّباب الذي يبدو اليوم أكثر تعطُّشًا للمعرفة عامة، وللتاريخ خاصَّة »، ووافق صدور هذه الموسوعة احتفال **الجزائر** بذِكرىٰ مرور ثلاثين سنة مِن اندلاع ثورتها المباركة، وقَد اعتمدنا لإِعادة نشر هذه الرِّسالة زيادة علىٰ النسخة المطبوعة علىٰ نسخة خطية غير كاملة تقع في (10) صفحات، وهي بخطِّ الشَّيخ **المهدي البوعبدلي** (رحمه الله تعالىٰ).

[3] طبقات علماء الجزائر في العهد العثماني وما قاربه (مخطوط):

وهو عبارة عن موسوعة تراثية عقد فيها تراجم مجموعة كبيرة من علماء الجزائر، ويقع الكتاب في (16) كرَّاسة، كما ضمَّنه أيضا مجموعة كبيرة من تراجم علماء أدركوا عصر الاحتلال، وقد نوَّه به كثيرا في مراسلاته مع أصدقائه، بل إنه ذكر في بعض هذه المراسلات أنه قدَّمه للطبع وتلاعبت بها أيدي «العوام وأشباههم» كما صرَّح بذلك في بعض (مراسلاته) [1].

3) تحقيقاته:

قال الشيخ **المهدي** (رحمه الله تعالىٰ): « إنَّ أوائلنا بذلوا النفس والنفيس في نشر العلم، وواجبُنا أن لا نبخل بما تركوه، خصوصا في مثلِ هذه الأزمنة التي نعيشها، وهذه أمنيتي في الحياة، فإن فسحَ الله في الأجل، فإنَّني سأَسعىٰ بجميع الوسائل لنَشرِ ما وصَلني مِن هذا التُّراث ... ».

ومما قاله أيضا في مراسلة بينه وبين الشيخ **محمودي** في معرض حديثه عن فائدة جمع

---

(1) انظر: **الشيخ المهدي البوعبدلي: نصوص ووثائق** (ص: 108 ـ 122)، وهذا الكتاب نفيس، ويحتوي علىٰ معلومات مهمَّة، وقد يسَّر الله لنا الوقوف علىٰ جميع أجزائه، ونعمل حثيثا علىٰ تحقيق نصوصه وتقديمه للنشر في أقرب وقت ـ إن شاء الله ـ، وكانت الأمنية أن يضمَّ هذا الكتاب إلىٰ هذه الآثار.

التراث، ما يلي:« ... فإن هؤلاء العلماء والفقهاء والصالحين الذين غرسوا الدِّين ونشروه بسيرهم وإنتاجهم، حرام على الخلف أن يحتفظوا بتراثهم ويتركوه للأرضة والفأر، ويحرموا الخلف من الاطلاع على آثارهم، وكانت ـ بحمد الله ـ هذه هي أمنيتي منذ اشتغلت بهذه المهمة، وأخشى دائما أن تحول بيني وبين هذه الأمنية عوادي الزمان، لهذا بادرت بجمع ما تيسَّر، وعندما يطبع ـ ولو من نقص ـ فتكون له فائدة، وهي ضمان خلوده، ولا يحرم ـ إن شاء الله ـ من رجال يتمِّمون ما نقص » [1].

لم تقتصر اهتماماته على التَّأليفِ وكِتابة المقالات وإلقاء الدروس والمحاضرات، وإنَّما كان معتنِياً أيضا بالتنقيب والتَّحقيق، وقد بذل ما في وسعه (رحمه الله تعالى) في هذا الجانب، وحقَّق الله له جزءا مِن أمنيته، إذ انكبَّ منذ بداية اهتمامه بالنشر على تحقيق مجموعة كبيرة من الكتب والمخطوطات، بعضها رأى النور، وبقيت أخرى مجهولة المصير، فأما الذي أخرجه لنا مِن عالم الطيِّ والنسيان إلى عالم النور والنشر، كتابَين من التراث الثقافي المخطوط المتعلِّق بتاريخ مدينة **وهران**، وهما:

1) **دليل الحيران وأنيس السَّهران في أخبار مدينة وهران**: للشيخ محمد بن يوسف الزياني.

نُشِر ضمن إصدارات **المكتبة الوطنية الجزائرية** سنة 1399هـ/ 1979م، بالشركة الوطنية للنشر والتوزيع (الجزائر)، والقسم المنشور مِن الكتاب لا يتجاوز نصف أصله المخطوط الموجود بقسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت (رقم: 3324، 3325)، فقد قام الشيخ باختصار فصول منه، أشار إلى بعضها دون بعض، كما تصرَّف بحذف فقرات كثيرة، وعليه فكان الأولى أن يعنوَن لَه: بـ: (**مختصر دليل الحيران**) أو (**تهذيب دليل الحيران**) أو ما شابَه ذلك.

---

(1) **المهدي البوعبدلي**، رسالة خطية مؤرخة بتاريخ 4 رمضان 1391، نسخة منها مصورة عند الأستاذ بليل حسني.

2) **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**: للشيخ أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي.

وقَد حظِيَ هذا الكتاب بالنشر لأوَّل مرَّة سنة 1973م، بمطبعة البعث بقسنطينة **(الجزائر)** ضِمن **سلسلة التراث** التي نشرتها **وزارة التعليم الأَصلي والشؤون** الدينية بالجزائر، بتحقيق وتقديم الشَّيخ المهدي البوعبدلي (رحمه الله تعالى).

وهو كما وصفه الوزير السابق الأستاذ **مولود قاسم** (رحمه الله) عبارة عن صفحات ذهبية في تاريخ مقاومة هذا البلد الأمين، وورقات من صمود هذا الشعب الذي كان شِعاره دائما: **الانكسار ولا الانحناء**.

[11] أسلوبه في الإلقاء والكتابة:

أما عن أسلوبه في الكتابة أو في الإلقاء فلم يكن يلتزم فيهما بمنهج أكاديمي، وإنما امتاز أسلوبه بكثرة الاستطراد، وهذا الأسلوب كما ذكرنا اتَّسمت به غالبا أحاديثه، فهو « إذا أخذ في الحديث عَن مسألة عِلمية فإنَّه لا يكاد يتوقَّف، فهو كما يقول القدماء: بحرٌ لا ساحِلَ له، يتدفَّق بالمعلومات ... يتتبَّع مراحِلَها وفروعَها، ثمَّ يرجع ـ إذا لم يُرجِعه غيره ـ إلى نقطة الانطلاق، وخلال ذلك يحصلُ للمستمع إليه على فوائد غزيرة رغم أنَّها مشتَّتة»(1).

هذا إذا تحدَّث كما يقول الدكتور أبو القاسم،« أما إذا كتب فحدوده هي الورقة أو الأوراق التي أعدَّها للإجابة، فإذا نفدت الأوراق توقَّفت فكرته أو معلوماته عنها، ذلك أن الشيخ يسترسِلُ في الإجابة بدون نقطة أو فاصلة أو عودة إلى السطر »(2).

أما أسلوبه الاستطرادي الذي يصوغ به معلوماته في كتابة المقالات والبحوث فهو

---

(1) **رسائل في التراث والثقافة**(ص: 9 ـ 10)، ط/ الثانية.

(2) **نفسه** (ص: 10).

كما قال عنه الدكتور **أبو القاسم سعد الله**: « يمكن وصفُه بالنهر المتدفق الذي يصعب وقفه إلا عند مصبِّه الأصيل»[1].

ومن الميزات التي سيقف عليها القارئ بغير عناء في كتاباته سمة التكرار، فهو كثيرا ما يكرِّر سرد معلوماته العلمية والتاريخية، وهذا راجع ربما لكثرة محاضراته وتنقلاته عبر مختلف مدن الوطن، إذ جلُّ هذه المقالات هي عبارة عن محاضرات كان يلقيها الشيخ في مناسبات مختلفة، فكان لا يجِد ما يعوقه عن تكرار سرد معلومات سبق له ذكرها في محاضرة ما، وهذا أمرٌ مألوف عند مَن سلك سبيل إلقاء الدروس والمحاضرات.

[12] مشاركته في الثورة:

قد يَستغرب بعض الناس مشاركة الشيخ **المهدي** في الثورة الجزائرية، ذلك أنَّ الوظيف الذي كان يتولَّاه يمنع أمثاله في الغالب عن الخوضِ في القضايا السياسية، فضلا عن المشاركة في ثورة مسلَّحة، لأنَّ أغلب الموظَّفين في سِلك الإدارة الفرنسية في عهد الاستعمار التزموا خِلال سنوات الثورة سلوك طريق الصَّمتِ وأخذ الحذر، وهذا أمرٌ لا غرابة فيه، ولكن ما يستغرب هو أن نجدَ في جملة هؤلاء الموظَّفين مَن يعمل لصالح الثورة ويخفي انتماءه لها، وهذا الصِّنف مِن الناس كانت مخاطرته بنفسه أشد مِن مخاطرة الجندي الذي يحمل السِّلاح ويجوب به السهول والجبال.

وما ذكره الدكتور **أبو القاسم** بأن الشَّيخ **المهدي** ربما كان يشعُر بعد الاستقلال أنه مِن جملة المضغوط عليهم مِن طرف علماء السُّلطة بِحكمِ تولِّيه الفتوىٰ زمَن الاستعمار، قد يستشِفُّ القارئ من كلامه هذا أنَّ الشيخ **المهدي** كان في مرحلة الثورة ملتزما الحياد، أو أنه لم يشارك إخوانه في تحرير البلاد، وسنعرض نماذج عن بعض الوثائق والشَّهادات تُثبِت مشاركة الشَّيخ **المهدي** في الثورة المباركة، وإبلاءه فيها البلاء الحسن، منها:

---

(1) **نفسه** (ص: 6).

1) شهادة صادرة عن **جبهة التحرير الوطني** (فرع الأصنام) [انظر الوثيقة رقم: 1]، مؤرَّخة في 5 أفريل 1965م، ورد فيها ذكر تاريخ انتمائه لـ: **جبهة التحرير الوطني**، وهو سنة 1956م، مع ذكر الأعمال التي كان مكلَّفا بها، وهي أنَّه كان عضوا مكلَّفا بالاتصال المباشر مع الولاية الرابعة والولاية الخامسة، وكذا الاتصال المباشر بمركز القيادة الموجود بالمغرب الأقصىٰ المكلَّف بإرسال السِّلاح إلىٰ المجاهدين بالجزائر، وجمع الأموال لصالح الثورة.

2) نماذج عن بعض المراسلات التي كان يتبادلها مع بعض قادة جيش **جبهة التحرير الوطني**، يعلِّق علىٰ هامش بعضها [انظر الوثيقة رقم: 2]، فيكتب: « هذه رسالة من الرسائل التي كنتُ أتبادلها في أيام حرب جبهة التحرير مع الولاية الخامسة بـ: **وجدة**، مع العقيد المرحوم **عثمان** عن طريق كاتبه السيد **محمد عبد الوهاب المازوني** »، ويعلِّق أيضا علىٰ رسالة أخرىٰ[انظر الوثيقة رقم: 3] مؤرَّخة في 20 ماي 1961م، فيقول: « هذه رسالة مِن الإخوة **مجاهد** و**الجبلي** اللذَين كانا في رفقة الملازم **مصدَّق الجيلاني بن غلام**، أصله مِن **صبيح**، كان عيِّن رئيسا لمنطقة وهران التي استبدلت بـ: **المحمدية**، وقد استشهد الملازم **مصدّق** بـ: **وهران** قبل الاستقلال بسنة، وعيِّن مكانه **مجاهد** الذي كان رئيسا لقدماء المجاهدين بـ: **سيدي بلعباس** ثمَّ بـ: **وهران**، و**مصدَّق** هو الذي أُطلق اسمُه علىٰ حيٍّ مِن أحياء وهران ».

3) ومن الوثائق المهمَّة التي أغفلَها المؤرِّخون لتاريخ الثورة الجزائرية، عريضة تقدَّم بها الشيخ **المهدي البوعبدلي** (مفتي الأصنام)في أكتوبر سنة 1956م، شاركه في تحريرها وإمضائها مجموعة مِن المفتين، وأيضا الكردينال **دوفال**، يُطالِبون فيها الإدارة الفرنسية بالتفاوض مع **جبهة التحرير الوطني** علىٰ حقِّ تقرير المصير، وهي عبارة عن **(كتاب مفتوح إلى رئيس الوزارة الفرنسية وإلى الوزير المقيم بالجزائر وسائر الوزراء والنواب)**، وقد ذكر الشيخ **المهدي** ظروف كتابة هذه العريضة، فقال: « عندما اشتدَّت الأزمة، وانتُهِكت الحرُمات، وأُهرِقَت الدِّماء، طلبَ مِنِّي الأخ المذكور ـ أي: السيد

عبان رمضان (رحمه الله) ـ تَحرير وثيقة مع مَن أَثِقُ فيهم مِن الزُّملاء، نُعلِنُ فيها الأَعمالَ الإِجرامية التي يَقوم بها الجيشُ الفرنسي والتَّعرُّض لها بِتفصيل، ثمَّ الإِعلان بأنَّ **جبهة التحرير الوطني** هي الممثِّل الوحيد للشَّعب الجزائري للتَّفاوض معها في حلِّ القضية، وقد حرَّرنا ذلك مع بعضِ الزُّملاء، ونُشِر موجز ذلك البيان في بعضِ الصُّحفِ الفرنسية، ونشِر بِتمامِه في صحُفِ المغرب »، والمضمون علىٰ هذه العريضة هم: الشيخ **بابا عمر** (مفتي المالكية بالعاصمة)، الشيخ **بن جيكو** (مفتي الحنفية)، الشيخ **اسكندر** (مفتي الحنفية بالمدِيَّة)، الشيخ **فخار** (مفتي المالكية)، الشيخ **التلمساني** (المدرس بالعاصمة)، والكردينال **دوفال** (عميد المسيحية بالجزائر)، وهذا نصُّها:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كتابٌ مفتوح

إلىٰ رئيس الوزارة الفرنسية وإلىٰ الوزير المقيم بالجزائر

وسائر الوزراء والنواب

مِن أَعضاء الدِّيانة الإِسلامية بِعَمالة الجزائر، وهم: هيأة الإفتاء والإمامة وتدريس العلوم الإسلامية العُليا بالجامع الأَعظم بالجزائر والمساجد التَّابِعة له، نقدِّم إِلىٰ سِيادتِكم ما يلي:

نظرًا إِلىٰ كثرة التَّشكِّي الواردِ علَينا مِن نَواحي العَمالة علَىٰ لِسانِ قصَّاد هذِه المساجِد لأَداءِ الشَّعائر الدِّينية وتلقِّي العلومِ الإِسلامية بها، وإنه تكرَّر هذا التَّشكِّي لكلِّ فَردٍ مِنَّا ممَّا يُرتكَب مِن الفظائع المنكَرة، والمعاملاتِ السيِّئة التي لا تُطاق، وهي صادِرة مِن كثيرٍ مِن الجنودِ وأَعوانِهم علَىٰ البُرآء والعَجزة والنِّساء والصِّبيان، والتَّعدِّي علَىٰ شَرفِ البيوتات، ومن الإِفسادِ في المساكن والحيوان والأَموالِ وسائر المكتَسبات.

ونَظرا للمآسي الدَّامية والفَظائع الكَثيرة التي تَجري بِالبلادِ الجزائرية منذُ سِنين، التي يأباها ضَمير الإِنسان، ويَرفضُها الحَقُّ، ويَندىٰ لها جَبينُ الإنسانيةِ والتَّمدُّنِ والعَقلِ السَّليم، ويُنكِرها كلُّ دِين.

ونظرا لتَراكُمِ الأَوصابِ والمِحن علىٰ هاتِه الأُمةِ المنكورة الحظِّ مِن طرفِ الحكومة المركزيَّة، والإِدارة المحلِّية، والجيشِ الفرنسي، والبوليس معا بِجَميع أَنواعه، بما يتخلَّل ذلك مِن عَنتٍ وضيق، وإِزهاقِ نفوسٍ بَريئة، وإِضاعةِ أَموال، وتَعذيبٍ وتَنكيل، وسِجنٍ ونَفي، وتَلويثِ أَعراض، وغير ذلك.

ونظرا لِاستِنكار كثير مِن الأُدباءِ الفرنسيِّين، والمفكِّرين، والمنصِفين، والكتَّاب، لهذه الحالة، ونخصُّ بالذِّكر منهم: رجال الكنيسة الفرنسية، وعلىٰ مقدِّمتهِم **رئيس الأَساقفة** بالجزائر.

ونظرا لحرمةِ النَّفسِ التي حرَّم الله قَتلَها إلَّا بِالحقِّ في كلِّ شَريعة، ووُجوبِ تَوفير كَرامتِها وحُقوقها في الحياة علىٰ السَّويَّة بين النَّاس.

ونظرا لاستِفظاع مبدأ: « **غلبة القوَّة على الحقِّ** »، كما نطقَ به **غليوم الثاني** (إمبراطور ألمانيا) السَّابق، الذي جرَّ علىٰ العالمِ جَريرةَ الحربِ العالمية الأولىٰ، التي هي وَليدة كبريائِه وعَجرفَتِه.

ونَظرا لقوَّة الضَّعيفِ عندَ الحقِّ، كما عبَّر عنه **عمر بن الخطاب** (الخليفة الثَّاني) لـ: **محمَّد** ﷺ، حيث يقول: «متَىٰ استَعبدتُم النَّاسَ وقَد ولَدتهُم أُمَّهاتهم أَحرارا ...».

ونَظرا لمسؤولياتِنا عِند الله، وعِند النَّاس، في إِظهارِ الحقِّ، والأَمر بالمعروفِ والنَّهيِ عَن المنكر.

فإِنَّنا نَرفعُ صَوتَنا جِهارا أَمامَ الله والعالمِ أَجمَع:

1) أنَّنا نَستفظِعُ ونَستنكِر كلَّ الِاستِنكار قَتلَ النَّفسِ المظلومة مُطلقًا.

2) بِأَنَّنا نُنكِر الاِعتِداء علَىٰ المنازل والأَموال، كما يُنكِرها كلُّ دين، وكلُّ قانونٍ وضعي، وخُصوصًا القانون الفرنسي الذي أسِّس علىٰ الحريَّة والعدل.

3) وبأنَّنا نَضيقُ صَدرًا بِكثرة الاِعتِقالات، وإِملاءِ المحتَشدات مِن أُناسٍ لم تكُن لهم أيَّة مُباشرة في جَريمة، وإِلقاءِ عائِلاتٍ كثيرة في هوَّةِ البؤسِ والشَّقاء، وتَشتيتها شذَر مذَر، بحيثُ لا يجتَمع لها شملٌ في المستقبلِ مُطلقًا.

4) بأنَّنا نَعتبِر السِّيرةَ السِّياسيةَ التي تَسلكُها الأمة الفرنسية نحو الأُمةِ الجزائرية جَمعاء، وهي تَسميتُها: **سياسة التَّهدئة**، حَربا عوادا علىٰ الأُمة الضَّعيفة، وبالخصوصِ علىٰ المدنيِّين البُسطاء، الذين ينكَّل بهم ولا يَفهمون لِذلك مَعنىٰ.

5) بأنَّ الله لا يَرضى بِقَهر الأَقوياءِ للضُّعفاء، قهرا لا يدعمُه الحق، ولا تَرضى بِه الإِنسانيةُ المتمدِّنة، في زمانٍ أَشرقت فيه شمسُ الحرِّياتِ الوَطنية علىٰ كثيرٍ مِن البِلاد.

6) بأَنَّنا نَهيبُ بِمَن في أَيديهِم الحل والعقد أَن يتركوا سياسةَ الاِستعمار التي مجَّها البشَر في جميع البِقاع، وأَن يُعطوا النَّاسَ حقوقَهم البشَريَّة، ويلبُّوا علَىٰ الخصوصِ رَغائبهم في تقرير مَصيرهم ومَطالبهم الوَطنية.

7) بأنَّه مِن الواجبِ السَّهلِ في سَبيلِ حقنِ الدِّماء، ووَضع حدٍّ لهذِه المآسي، أَن تُبادِر الحكومة الفرنسية بِفَتح بابِ المفاوضاتِ الصَّالحة لِتوطيدِ السَّلامِ والاِطمِئنانِ بينَ جميع سكَّانِ هذِه البلاد، مع الذين في إِمكانِهم وَقف القتال، وإِنهاء كلِّ اصطِدامٍ بالسِّلاح.

ويَظهر لنا جليًّا أنَّ هذِه رَغبة الأُمة جمعاء التي نحن جزءٌ منها لا يتَجزَّأ.

ونَعتبر تَسويفَ حلِّ المشكلِ الجزائري مِن عَدمِ المبالاة بقتلِ النُّفوسِ البريئة، وإِضاعةِ الأَموال، وتَطويلِ المآسي علىٰ الذين يُعانونَ العذابَ منذ سنتَين.

8) إنَّنا نأملُ أَنَّ الدَّولةَ التي عُرِف تاريخها بالدِّيمقراطية، والثَّوراتِ علىٰ الباطل، وجعلَت شِعارَها: **الحرية، والأخوَّة، والعدل،** وأَنجَبت أمثال ... لا تَتوانَ بعد هذِه

المذكِّرة في إِجابة رَغائب الجزائريِّين.

هذه الوثائق وغيرها مما لم ننشره في هذا **الملخَّص** مِن ترجمة الشيخ **المهدي** ترفع السِّتار عن جوانب مهمَّة كانت مستورة وغير معلومة عند مَن تناوله بالبحث والترجمة، وهي جديرة بالذكر والنشر، إذ تُساهم في إعادة النظر في كتابة التاريخ، وخاصة فيما يتعلَّق بطائفة الموظَّفين في سِلك الإدارة الفرنسية في عهد الاحتلال، فلا يجوز تعميم الحكم عليهم بأنهم كانوا جميعا أبواقا للإدارة الاستعمارية يوالون مَن توالي ويحاربون مَن تحارب، فهذا الحكم وإن كان يغلب على أكثرهم، فإن الإنصاف يقضي على الباحثين أن لا يعمِّموا هذا الحكم على جميع هذا الصِّنف مِن الموظَّفين، فإن في الزوايا خبايا، والناس أشكال وأنواع، وسيرة الشيخ **المهدي** خير مِثالٍ على ذلك، لأنَّ الوظيف الذي كان يتولَّاه قبل أن يخدم به نفسه خدم به أمَّته ووطنه.

(٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب مفتوح الى رئيس الوزارة الفرنسية
والى الوزير المقيم بالجزائر وسائر الوزراء والنواب

من اعضاء الديانة الاسلامية بعمالة الجزائر وهم هيئة الافتاء والامامة
وتدريس العلوم الاسلامية العليا بالجامع الاعظم بالجزائر والمساجد التابعة
له نقدم الى سيادتكم ما يلي -
نظرا الى كثرة التشكي الوارد علينا من نواحي العمالة على لسان قصاد
هذه المساجد لاداء الشعائر الدينية وتلقي العلوم الاسلامية بها وانه تكرر
هذا التشكي بكل مرة مما يرتكب من الفضائع المنكرة والمعاملات السيئة
التي لا تطاق وهي صادرة من كثير من الجنود واعوانهم على الابرياء والعجزة والنساء
والصبيان والتعدي على شرف البيوتات ومن الافساد في المساكن والحيوان
والاموال وسائر المكتسبات -
ونظرا للمآسي الدامية والفضائع الكثيرة التي تجري بالبلاد
الجزائرية منذ سنتين التي يأباها ضمير الانسان ويرفضها الحق ويندى لها
جبين الانسانية والتمدن والعقل السليم وينكرها كل دين -
ونظرا لتراكم الاوصاب والمحن على هذه الامة المنكودة الحظ
من طرف الحكومة المركزية والادارة المحلية والجيش الفرنسي والبوليس مع
جميع انواع ما يتخلل ذلك من عنف وضيق وازهاق نفوس بريئة واتلاف
اموال وتعذيب وتنكيل وسجن ونفي وتلويث اعراض وغير ذلك -
ونظرا لاستنكار كثير من الادباء الفرنسيين والمفكرين
والمنصفين والكتاب لهذه الحالة ونخص بالذكر منهم رجال الكنيسة
الفرنسية وعلى مقدمتهم رئيس
الاسقفية بالجزائر -
ونظرا لحرمة النفس التي حرم الله قتلها الا بالحق في كل شريعة
ووجوب توفير كرامتها وحقوقها في الحياة على السوية بين الناس -
ونظرا لاستيضاع مبدا : غلبة القوة على الحق ؛
كما نطق به مفهوم الشأن اثر اطوار الانسان السابق الذي جر على العالم
جريرة الحروب العالمية الاولى التي هي وليدة كبريائه وتجبره -

صورة عن الصفحة الأولى من العريضة

ونظرا لقوة الضعيف بمقدار الحق كما عبر عنه عمر بن الخطاب الخليفة الثاني لمحمد صلى الله عليه وسلم حيث يقول: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا..؟"

ونظرا لمسؤوليتنا عند الله وعند الناس في إظهار الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فإننا نرفع صوتنا جهارا أمام الله والعالم أجمع.

١ إننا نستفظع ونستنكر كل الاستنكار قتل النفوس المظلومة من الضعفاء.

٢ وإننا ننكر الاعتداء على المنازل والأموال كما ينكرها كل دين وكل قانون وخصوصا القانون الفرنسي الذي أسس على الحرية والعدل.

٣ وإننا نضيق صدرا بكثرة الاعتقالات وامتلاء المعتقلات من أناس لم تكن لهم أية مباشرة في جريمة. والقضاء على عائلات كثيرة في هوة البؤس والشقاء وتشتيتهم شذر مذر بحيث لا شمل لها في المستقبل [illegible]

٤ وإننا نعتبر السيرة والسياسة التي تسلكها الأمة الفرنسية نحو الأمة الجزائرية جمعاء وهي تسميها "سياسة التهدئة" حربا عدوانا ضد الأمة الضعيفة وبالخصوص على المدنيين البسطاء الذين يقتل بعضهم ولا يفهمون لذلك معنى.

٥ وإن الله لا يرضى بقهر الأقوياء للضعفاء فهو الذي يعمد الحق ولا ترضى به الإنسانية المتمدنة في زمان أشرقت فيه شمس الحريات الوطنية في كثير من البلاد.

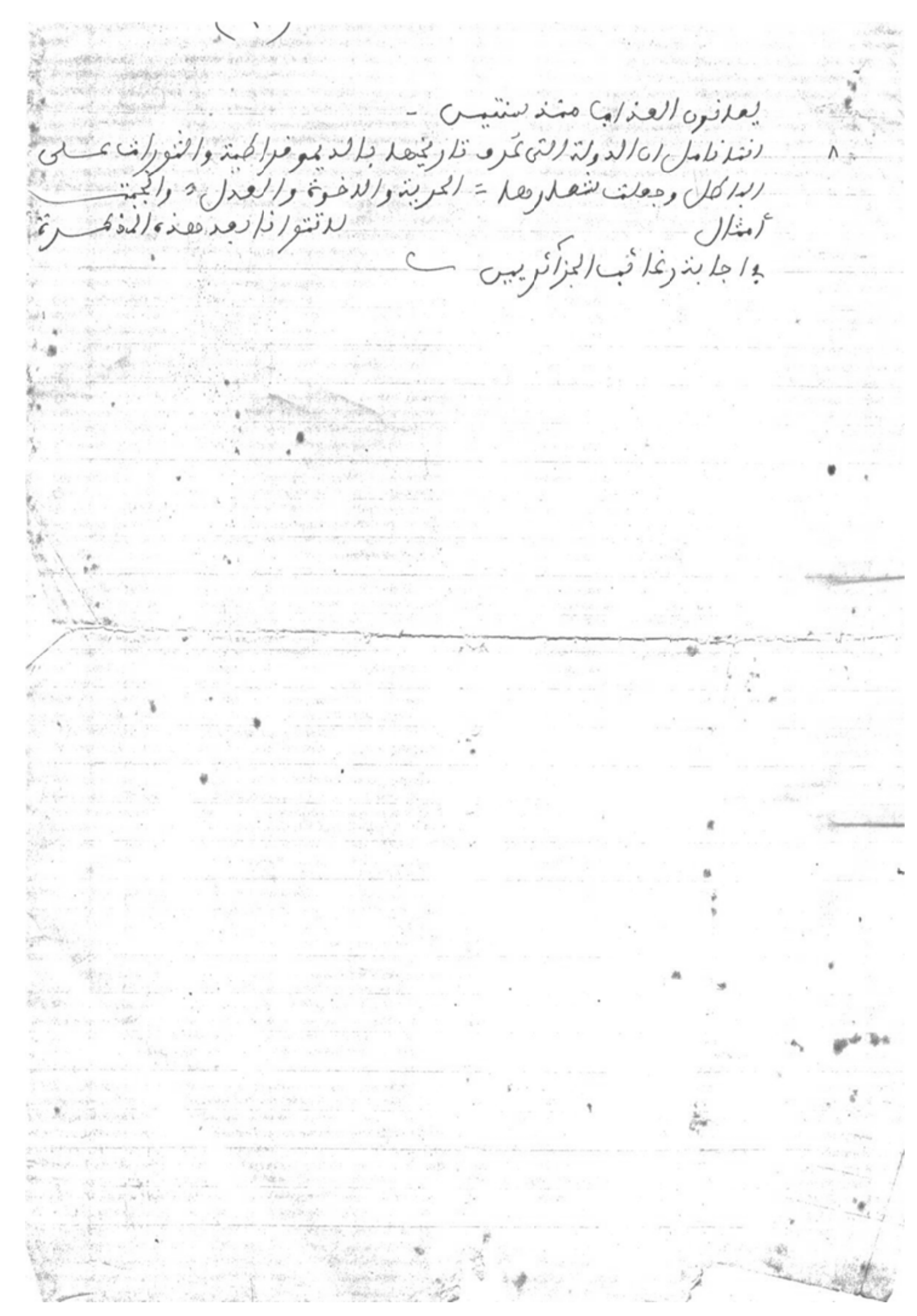
٦ وإننا نطلب ممن في أيديهم الحل والعقد أن يتركوا سياسة الاستعمار التي مجها البشر في جميع البقاع. وأن يعطوا الناس حقوقهم البشرية ويلبوا على الخصوص رغائبهم في تقرير مصيرهم ومطالبهم الوطنية.

٧ وإنه من الواجب التدخل في سبيل حقن الدماء ووضع حد لهذه المآسي أن تبادر الحكومة الفرنسية بفتح باب المفاوضات الصالحة لتوطيد السلام والاطمئنان بين جميع سكان هذه البلاد مع الذين في إمكانهم وقف القتال وإنهاء كل الأحداث بالسلاح.

ويظهر لنا جليا أن هذه رغبة الأمة جمعاء والتي هي جزء متصل لا يتجزأ.

ونعتبر تسويف حل المشكل الجزائري من عدم المبالاة بقيمة النفوس البشرية وإضاعة الأموال وتطويل المآسي على الذين

صورة عن الصفحة الثانية من العريضة



يعانون العذاب منذ سنتين -

٨ - اننا نامل ان الدولة التي تعرف تاريخها بالديموقراطية والثورات تملي البلاد كل وجعلت شعارها = الحرية والاخوة والعدل = والجمهورية

لا تتوانا بعد هذه المدة بسرعة

أمثال

باجابة رغائب الجزائريين -

صورة عن الصفحة الأخيرة من العريضة

FRONT DE LIBERATION
NATIONALE
FEDERATION D'AL-ASNAM

BUREAU POLITIQUE

FICHE DE R[illegible]MENTS

NOM : Bouabdelli	[PR]ENOM : El-Mahdi
FILS DE : Boubbdellah	[ET] DE : Tamassaoud Khedidja
NE LE : 30 Janvier 1907	A : Bathioua (Oran)
ADRESSE ACTUELLE : Mosquée d'Al-Asnam
DEGRE D'INSTRUCTION : 	PROFESSION : Mufti
DATE D'ADHESION AU F.L.N. : 1956
RESPONSABILITEES EXERCEES DURANT [L]A [R]EVOLUTION : Aprés enquete du Parti, il en résulte que le Bouabdelli [a] été : Tissal avec la Willaya IV. et V. ainsi qu'avec le P.C du Mar[oc] -Liaison direct avec les Responsables et le chefs de groupe Merkez de [t]out armement provenant du Maroc.
[illegible] : Collecteur [d]e fonds.
COMPORTEMENT PENDANT LA DETENTION : /
DATE DE LIBERATION : /
COMPORTEMENT APRES LA LIBERATION : /

RESULTATS APRES ENQUETE DU BARTI -

MORALITE : Bonne
CONDUITE : Bonne
MILITANTISME :

MILITANT, ~~[illegible]~~, ~~[illegible]~~
(Rayer la mention inutile)

FAIT A AL-ASNAM, LE 5 Avril 1965
P/ [L]E COMITE FEDERAL F.L.N. D'AL-ASNAM
[L]E RESPONSABLE DELEGUE,

FRONT DE LIBERATION NATIONALE
FEDERATION d'O[RL]E[A]NSVILLE
Daira d'ORLEANSVILLE

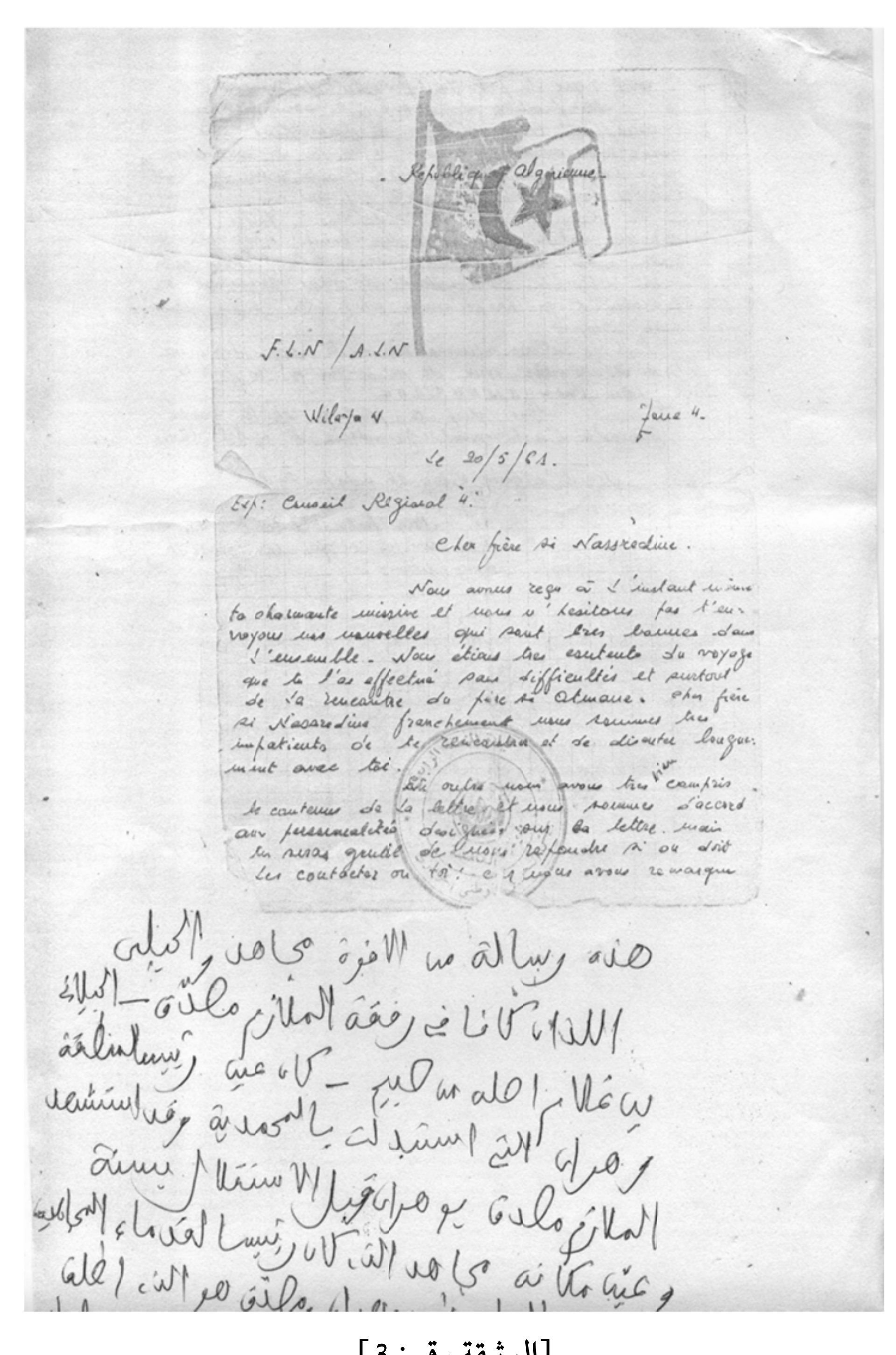
[الوثيقة رقم: 1]

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم

حضرة الفاضل تحية طيبة وبعد قد جاءنا جوابك وتأخرنا عن الكتابة
لأسباب شتى منعتنا واليوم ها أنا أكتب إليك وأخبرك عن أحوالنا نحن بخير
وشيخ الزاوية بخير وهو يدعو لك بالتوفيق وهو يوصيك بالواجب
الدين كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر
وتؤمنون بالله ونحن مرتبطون بالرابطة الدينية قل الله ثم ذرهم في خوضهم
يلعبون وأوصيك بالطلبة دائما وتبلغ سلامنا إلى الشيخ الهواري والفقراء
طائفة وإلى الشيخ المجذوب وإلى الشيخ ~~الهواري~~ الدرويش والسيد الخوني
ولا يخفى عليك سيدي فإن الدين يطالب به العلماء لأنهم أهل الدين
فلا يغرنكم الوقت وأهله فإن أهل الوقت يبعدون عن الدين فذروهم
في دنياهم ونقول لهم ما قال سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام
فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم وتبلغ سلام
إلى صاحب محمد سيدي الهواري وقل له يأتيك رجل ضرير من عينيه ليفهمك
على عدة أشياء والكائنة عندك أمانة فاجعلها عندك والضرير
يحملها وتسلم منا على المقدم بن بومنديل وتخبرنا عن حاله
وترد إلينا الجواب في أقرب وقت ممكن ويسلم عليك الشيخ وجميع الفقراء
ودمتم محفوظين والعاقبة للمتقين السيد محمد بالأخضر إمام المسجد الأعظم
والسلام

هذه رسالة من الرسائل التي كنت
أتبادلها مع أيام حرب جبهة التحرير
مع الولاية الخامسة بولمدة مع العقيد المرحوم
عثمان على طريق كاتبه السيد محمد عبد ال...
المازوني

[الوثيقة رقم: 2]



République Algérienne

F.L.N / A.L.N

Wilaya 4 Zone 4.

Le 20/5/61.

Exp: Conseil Régional 4.

Cher frère si Nassredine.

Nous avons reçu à l'instant même ta charmante missive et nous n'hésitons pas t'envoyer nos nouvelles qui sont très bonnes dans l'ensemble. Nous étions très contents du voyage que tu l'as effectué sans difficultés et surtout de la rencontre du frère si Atmane. Cher frère si Nasredine franchement nous sommes très impatients de te rencontrer et de discuter longuement avec toi.

En outre nous avons très bien compris le contenu de la lettre et nous sommes d'accord aux personnalités désignées sur la lettre. mais tu seras gentil de nous répondre si on doit les contacter ou toi ! ... nous avons remarqué

هذه رسالة من الاخوة مجاهد الكيلي ملاق الكيلاني
اللذان كانا في رفقة الملازم ... رئيس المنطقة
... من حكيم - كان عين
وهران التي استشهدت بالمحمدية وقد استشهد
الملازم ملاق بوهران قبيل الاستقلال بسنة
وعين مكانه مجاهد الذي كان رئيسا ... ملاق هو الذي ...

[الوثيقة رقم: 3]



الشيخ المهدي رفقة مجموعة من المجاهدين في ساحة زاويتهم بـ: بطيوة



الشيخ عبد البر رفقة مجموعة من المجاهدين في ساحة زاويتهم بـ: بطيوة

[13] حقيقة انتمائه للطرق الصوفية:

قال عنه الدكتور **أبو القاسم سعد الله**: « وكان ينتمي إلى الطريقة الدرقاوية »[1]، هذا بالنظر إلى انتماء أصوله إلى هذه الطريقة، أما هو فإنَّني لم أقف له على ما يشير ـ لا مِن قريب ولا من بعيد ـ إلى انتمائه لطريقة مِن الطرق الصوفية، وإنما كان يقول للذي يطلب منه الورد أو سند الطريقة: « لم أقبض، ولن أعطي »[2].

أما عن اتِّصالاته الكثيرة بشيوخ الطرق الصوفية وعمله محرِّرا في جريدة (الرشاد) ذات الطابع الطرقي، فهذا لا يلزم منه أنه كان منتميا أو سالكا لطريق مِن الطرق، وإنما هي علاقات أخوية، وارتباطات دينية، كانت تجمعه مع مختلف الأطياف والمشارب، وإذا كان لا بدَّ وأن نصنِّفه مِن خلال علاقاته أو كتاباته ضِمن إطار أو مشربٍ فكري، فإننا لا نستطيع من خلال كثرة علاقاته بالأشخاص والهيئات تصنيف مذهبه أو تحديد انتمائه، أما كتاباته فهي ترشَح بما لا مزيد عليه برسم مذهبه وبيان تحرُّره وانزوائه إلى طائفة المصلحين، مع تحفُّظه في بعضِ القضايا التي تمسُّ جوهر التَّصوُّف النقيّ.

---

(1) **رسائل في التراث والثقافة** (ص: 16).

(2) من إفادة ابن أخيه السيد **أحمد بن محمد البوعبدلي**، المدعو: **سيد أحمد**، في لقاء معه ببيته بـ: بطيوة سنة 2008م.



الشَّيخ المهدي البوعبدلي مع جماعة مِن شيوخ الطرق الصوفية



الشَّيخ المهدي البوعبدلي مع جماعة مِن شيوخ الطرق الصوفية بمسجد سيدي مْحمد بالجزائر العاصمة سنة 1938م

[14] بعض صفاته الخِلقية والخُلقية:

قال الدكتور **أبو القاسم سعد الله**: « مَن عرف الشَّيخ **المهدي** دون أن يختلط به يحسبه شخصا بعيدا لا يمكن الاقتراب منه، فله هيبة ظاهرية تجعل الكثيرين يتَفادونه بالحديث والسؤال، وله هيئة جمعت إلى الطول الفاره والهامة العظيمة والعينين النافذتين والضخامة البدنية واللباس التقليدي المتمثِّل في القندورة والعمامة في شكلِ شاش يتدلَّى ذنبه على أجزاء من الرَّقبة والأذنين، كلُّ هذا المظهر يجعلُ من الشيخ **المهدي البوعبدلي** إنسانا بعيدَ الغَور، يقِفُ على مسافة ممتدَّة مِمَّن لم يُخالطه، ولكن إذا أخذ في الحديث عَن مسألة عِلمية فإنَّه لا يكاد يتوقَّف، فهو كما يقول القدماء: بحرٌ لا ساحِلَ له، يتدفَّق بالمعلومات».

وكان قد سعِد بصحبة الشَّيخ **عبد الحميد ابن باديس** في رحلته التي خصَّصها لزيارة الغرب الجزائري، وقد شهد له الإمام (رحمه الله) بالعلم والاستقامة، ومما قال: « وجَدنا بـ: **غليزان** السيد **مهدي ابن** الشيخ **بوعبد الله آل بوعبد الله** في انتِظارنا، وهو شابٌّ نجيب، تلميذٌ بـ: **جامع الزيتونة**، فَرافقَنا إلى تمامِ الرِّحلة بـ: **وهران**، ورأَينا منه آدابا وأخلاقا شَريفة »[1]، كما شهد له غيره بدماثة الخلق وحسن المعاشرة والتودُّد لكل مَن يعرفهم، حتى إنه لقِّب بـ : **(صديق الجميع)**، وذلك ما يتَّفِق مع منتماه العائلي، إذ هو سليل عائلة موصوفة بالعلم والدين، تبوَّأت مكانةً مرموقة بالغَرب الجزائري[2].

ومِن طريف ما يُذكر عنه (رحمه الله تعالى) أنه دخل يومًا إلى دكان للمواد الغذائية ليشتري بعض ما يحتاجه، فصادف أن دخلت بعده امرأة فرنسية، فطلبت من صاحب

---

(1) انظر: **آثار الشيخ ابن باديس** (4/ 246).

(2) من كلمة ألقاها الشَّيخ **عبد الرَّحمن شيبان** بمناسبة **انعقاد ملتقى الشَّيخ المهدي البوعبدلي** بالمكتبة الوطنية الجزائرية سنة 1429هـ/ 2008م.

الدكان أن يحضر لها ما تحتاجه، فلما انتهت من شراء ما تحتاجه، وأرادت الذهاب التفتت إلى صاحب الدكان وقالت له: « J’espère que je n’est rien oublié ».

فقال لها الشيخ **المهدي** ـ بالفرنسية ـ: « Si madame, la politesse »[1].

[15] التعريف بمكتبته:

استطاع الشيخ **المهدي** مِن خلال كثرة تنقُّلاته، ووفرة اتِّصالاته، أن يكوِّن لنفسه مكتبة غنيَّة بالكتب المطبوعة والمخطوطة، فكان يتحسَّس أخبار المكتبات العريقة، ويتتبَّع أنباءها، فإذا بلغ سمعه خبر يفيد بأن مكتبة من المكتبات معروضة كتبها للبيع، أسرع لاقتناء نفائسها، وشراء ما تضمُّه وتحويه مِن درر، وكان أيضا يقصد الأسواق التي تُعرض فيها الكتب القديمة والمخطوطات للبيع، بل كان يسافر إلى القُرى النائية مِن أجل الحصول على ورقة مخطوطة تشبع نهمه وتخدم مشروعه المعرفي، وقد ساعده منصبه في كثير مِن الأحيان على جمع هذه النفائس من المخطوطات، وكان أيضا إذا وقفَ على مخطوط نفيس غير معروضٍ للبيع نسخه بيده، وقد رأيتُ في مكتبته الكثير من هذا الصِّنف، وكان أيضا كثيرا ما يستعين بمَن يثقُ في كفاءاتهم ويكلِّفهم بنسخ ما يراه مفيدا مِن الكتبِ القديمة.

كلُّ هذه العوامل ساعدت الشيخ المهدي على تكوين مكتبة صارت مواردها إحدى العوامل المهمَّة في تكوين شخصيته العلميَّة، ومادَّة ثريَّة يستعين بها في صِناعة إنتاجه الفكري والثقافي، بل صيَّرته رُحلة يقصده العلماء والباحثون من كلِّ مكان للاستفادة منه ومِن كنوز مكتبته.

ولما بلغه سعي بعض الجِهات الرسمية في مرحلة مِن المراحل لمصادرة هذه المكتبة وتأميمها، وضمِّ كنوزها إلى رصيد **المكتبة الوطنية**، قال: « لو يحدُثُ أن تُقدِم هذه الجهة

---

(1) أفادنا بهذه القصة الأستاذ **علي** مسؤول المكتبة البلدية المسماة: **مكتبة الشيخ المهدي البوعبدلي**، بمدينة بطيوة.

علىٰ هذا الفعل، فسأحرِقها، إذ كيف يصِحُّ أن أتعبَ علىٰ شيء وأبذُلَ فيه مالي وصِحَّتي وأوقاتي الثمينة، ثمَّ تأتي جهة ما لِتُؤَمِّمَها، وتُصادِرَها منِّي »، وعلَّق الدكتور **يحيى بوعزيز** علىٰ كلام الشيخ المهدي قائلا: « وهو علىٰ حقٍّ في ذلك مِن كلِّ الوجوه ».

مِن الإشاعات التي انتشرت عند بعض مَن لا يلتزم سبر الأخبار وتمييز صحيحها مِن سَقيمها حول ما تحتويه مكتبته من نفائس، أن الشيخ **المهدي** (رحمه الله تعالىٰ) كان يستعير المخطوطات مِن أصحابها بقصد الانتفاع بها مستغِلاًّ منصبه في ذلك، ثمَّ لا يردُّها إلىٰ ذويها، والظاهر أنَّ الشَّيخ **المهدي** قد وصل سمعَه بعضُ هذه الإشاعات، وتأذَّىٰ بها كثيرا، لهذا نجِده في وصيَّته المؤرَّخة سنة 1407هـ/ 1986م يشهد الله علىٰ نفسه فيقول: « إنِّي عبد ربِّه **المهدي بن أبي عبد الله البوعبدلي**: أشهدُ علىٰ نفسي بأنَّ خزانة كتُبي الخاصَّة، المطبوع منها والمخطوط، اشتريتُها بمالي الخاصِّ، وهي تتكوَّنُ مِن خَزائن مَشهورة »، ثمَّ يذكر بعض هذه الخزائن التي اشترىٰ بالشراء الصحيح معظم ما تحويه مِن نفائس، ثمَّ يقول: « ومجموعات كتب أخرىٰ اشتريتُها مِن أسواق وبلدان مختلفة ببلاد **الجزائر** و**المغرب** و**تونس**».

ويختم هذه الوصية بـ: **إلحاقة**، يقول فيها: « إنَّني ذكرتُ في هذه الوثيقة أنَّ خِزانتي هذه كوَّنتُها مِن مالي الخاصِّ، دفعًا لما تعوَّدَ بعض مَن يدَّعون أنَّ معظم هذه الكتب منهوبة أو مُستعارة، وإنَّني قد ذكرتُ في فهارسِها مَصادر شرائها »، قلت: قد وقفت علىٰ هذه الفهارس بمكتبة الزاوية، وهي بخط الشيخ **المهدي** (رحمه الله تعالىٰ).

184

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه وسلم

فهرسة الكتب المخطوطة التي اشتريت معظمها من تركة المرحوم السيد المرتضى القلي البجائي وذلك في بجاية سنة ١٣٦٦

(١) تفسير القرآن للجلالين في مجلد واحد
كتبه السيد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن قاسم البوني(١)
سنة ١١٩٨ نقله من نسخة بخط المرحوم جلال الدين السيوطي
كتبت سنة ٨٧١ — خط مغربي حسن —

٢ الجزء الأول من الجواهر الحسان للثعالبي
كتبه محمد بن موسى بن علي اليتوجي الوطاسي لم يذكر التاريخ
— خط مغربي متوسط —

٣ صحيح البخاري في مجلد واحد
كتبه أحمد بن أحمد بن ~~محمد~~ بن القاسم البويعقوبي
الحسني المراكشي يوم الاثنين ١٨ رجب خمسين ومائة وألف ١١٥٠
— خط مغربي بديع جدا — كانت هذه النسخة عند الأمير المرحوم
عبد القادر بن محي الدين الجزائري وكتب في آخرها بخطه عدد الختمات
التي ختمها بها وهي أربع وشرع في الخامسة وهو ما حرر بلفظه
بتاريخ ذي الحجة ١٩ ذي الحجة ١٢٥١

٤ جمع النهاية في بدء الخير والغاية
في مجلد واحد تأليف الشيخ سيدي عبد الله بن أبي جمرة الأزدي
كتبه الشيخ محمد بن علي بن يحيى حسين القلي سنة ١٢٦٧
— خط مغربي متوسط —

(١) أبو العباس أحمد بن قاسم ابن أبي عبد الله محمد ساسي التميمي البوني المولود ببونة سنة ١٠٦٣ والمتوفى سنة ١١٣٩ ترجمه الأديب أبو زيد عبد الرحمن الجامعي الفاسي في رحلته المسماة "نظم الدرر المدحية في محاسن الدولة الحسنية" و"التاج المشرق الجامع لياقوت المغرب والمشرق"

صورة عن الصفحة الأولى من فهرسة الكتب التي اشترى معظمها من تركة السيد المرتضى القلي البجائي، وذلك سنة 1366هـ

[16] رحلاته:

كان الشيخ المهدي كثير التنقُّل والأسفار، داخل الوطن عبر مختلف مدنه وقُراه وخارجه، ومِن كثرة أسفاره أنه كان في بعض الأحيان لا يجد متَّسعا مِن الوقت للبقاء مع أهله وللوقوف على جملة مصالحهم.

فكانت جلّ أسفاره داخل الوطن للبحث عن المخطوطات النفيسة، وللمشاركة في مختلف التظاهرات التي كانت تنظِّمها مؤسَّسات الدَّولة،وقد زار في رحلاته المتكررة معظم الخزائن التي تحتوي على المخطوطات،مثل خزانة الحاج حمو بمدينة معسكر،والتي آلت إلى ولده الفاضل السيد محمد البِدوي القاضي بمدينة تندوف، وخزانة المرحوم السيد ابن عبد الله بن حسن القاضي السَّابق بمدينة عين تموشنت، وخزائن تندوف، وخزائن معسكر، وخزائن القلعة، وخزائن بجاية، وأدرار، وتمنغست، وشلف، وغيرها من الخزائن، وكان يستفيد من هذه الخزائن إما عن طريق الإعارة أو عن طريق الشراء، أو عن طريق التبادل، أو عن طريق النسخ.

أمَّا خارج الوطن فقد زار بلدانا كثيرة، منها: ليبيا، وروسيا ،وفرنسا، والمملكة العربية السعودية، وألمانيا، وباكستان، والهند، وهذا كلُّه إما في مهمة رسمية أو استجابة لدعوة بقصد المشاركة في النَّدوات والمؤتمرات، وقد تعرف إلى الكثير من العلماء وكانت بينه وبينهم مراسلات[1].

[17] شهاداته العلمية:

من الشهادات التي تحصل عليها الشيخ المهدي في مِشواره العلمي:

1) شهادة التحصيل من جامع الزيتونة سنة 1354هـ/ 1936.

2) ثم شهادة الدكتوراه الشرفية من معهد الحضارة الإسلامية جامعة وهران سنة 1991م.

---

(1) من مقال الأستاذ **حسني بليل**.


جامعة وهران

شهادة الدكتوراه الشرفية

تقديرا للمجهودات التي بذلها

السيد مهدي بوعبدلي

في سبيل العلم وتوسيع مجال معرفة التاريخ الثقافي

والاجتماعي والسياسي للجزائر تمنح له جامعة وهران رتبة

الدكتوراه الشرفية

يوم 15 جماد الثاني ١٤٩١هـ.

عميد جامعة وهران

صورة عن شهادة الدكتوراه الشرفية

[18] وصاياه:

قبل وفاته بسنوات كتب الشيخ المهدي مجموعة من الوصايا، جلُّها متعلِّق بتسيير مكتبته بعد وفاته، وهذا نصُّ واحدة من هذه الوصايا:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنِّي عبد ربِّه **المهدي بن أبي عبد الله البوعبدلي**: أشهدُ على نفسي بأنَّ خزانة كتُبي الخاصَّة، المطبوع منها والمخطوط، اشتريتُها بمالي الخاصِّ، وهي تتكوَّنُ مِن خَزائن مَشهورة، منها: خِزانة المرحوم الشَّيخ الحاج **بالقاسم بن كابو** بـ: **وهران**، باع جلّها المرحوم الشَّيخ **الهبري بن كابو**، وذلك على طريق الأخ **محمَّد بن داود** إمام **الزَّاوية البوعبدليَّة** بـ: **وهران**، وخزانة أولاد سيدي ... بواسطة الشَّيخ **محمَّد بن داود** المذكور، وخزانة المرحوم الشَّيخ **حسني المرتضى القلِّي**، الذي باعها أخوه بعدَ وفاته بواسطة

المرحوم السيد الصديق **تالنطقيت** (كذا) المسفِّر بـ: **بجاية** في حياته، ومجموعات كتب أخرىٰ اشتريتُها مِن أسواق وبلدان مختلفة ببلاد **الجزائر** و**المغرب** و**تونس**.

وإنّني حبَّستُ جميعَ هذه الكتب الموجودة بمحلِّي الخاص مع فهارسها حبسا شاملا علىٰ مَن فيه الأهليَّة مِن أبناء الأولاد، وأبناء الأخ المرحوم **عبد البر**، والأخ المرحوم **محمد**، وكلَّفتُ الأخ **عياض** وولدي الأخ المرحوم عبد البر، وهما: الطبيب السيد محمد وأخوه السيد نافع نظَّارا علىٰ الخزانة جماعة، بحيث لا يستقِلُّ أحدٌ منهم بالتَّصرُّف، كما أوصَيتُ بأن لا تُعطىٰ مفاتيح الخزانة ولا يمكَّنَ من الدُّخول في أقسامِها إلا بعد أن تجدَّد لها الفهارس، وتُجعلَ لها أقفال، وتكون الفهارس تحت نظر وتصرُّف الأخ **عياض** وولدَي الأخ المرحوم **عبد البر**، وهما: **محمد** و**نافع**.

حرِّر بـ: بطيوة يوم الأحد 19 ربيع الثاني الموافق لـ: 21 ديسمبر 1986

عبد ربِّه المهدي البوعبدلي(لطفَ الله به)

تنبيه: وقع خطأ في التاريخ، فذكرت 1989 بدَلا مِن 1986، وأصلحتُ الخطأ.

إلحاقة: إنَّني ذكرتُ في هذه الوثيقة أنَّ خِزانتي هذه كوَّنتُها مِن مالي الخاصّ دفعًا لما تعوَّدَ بعض مَن يدَّعون أنَّ معظم هذه الكتب منهوبة أو مُستعارة، وإنَّني قد ذكرتُ في فهارسِها مَصادر شرائها.

بسم الله الرحمن الرحيم

انا عبد ربه المصطفى بن عبد الله البوعبدلي
اشهد على نفسي بان خزانة كتبي الخاصة
المطبوع منها والمخطوط اشتريتها بمالي
الخاص وهي تتكون من خزائن مشهورة منها
خزانة المرحوم الشيخ الحاج بن القاسم بن كابو
بوهران بعد ما ملكها المرحوم الشيخ الطيب بن
كابو وذلك على طريق الأخ الشيخ محمد بن اوحه ابن
الناصرية البومعدانية بوهران وخزانة اولاد سيدي
بواسطة الشيخ محمد بن اوحه المذكور وخزانة
المرحوم الشيخ حسني المزلي العلمي الذي باع
اخوه بعد وفاته بواسطة المرحوم السيد الهادي
بن النطقي المسفر بجاية في حياته ومجموعات
كتب اخرى اشتريتها من اسواق وبلدان مختلفة
منها الجزائر والمغرب وتونس واني حبست
جميع هذه الكتب الموجودة بمحل الخال
مع عمار نسبها حبسا شاملا على من بعدي الاهلية

من ابناء الاولاد وابناء الاخ المرحوم عبد البر
الاخ المرحوم محمد وكذلك الاخ عياض ومولدي
الاخ المرحوم عبد البر وهما الطيب السيد محمد واخوه
السيد شافع نظارا على الخزانة جماعة بحيث لا
يستقل احد منهم بالتصرف لما اوصيت به ولا
تعطى مفاتيح الخزانة ولا يمكن من الدخول
في اقسامها الا بعد ان تجدد لها الفهارس
وتجعل لها اقفال وتكون الفهارس تحت نظر
وتكون الاخ عياض ومولدي الاخ المرحوم عبد البر
وهما محمد وشافع

حرر ببطيوة يوم الاحد 19 ربيع الثاني 1986 الموافق لـ 21 دسمبر 1985

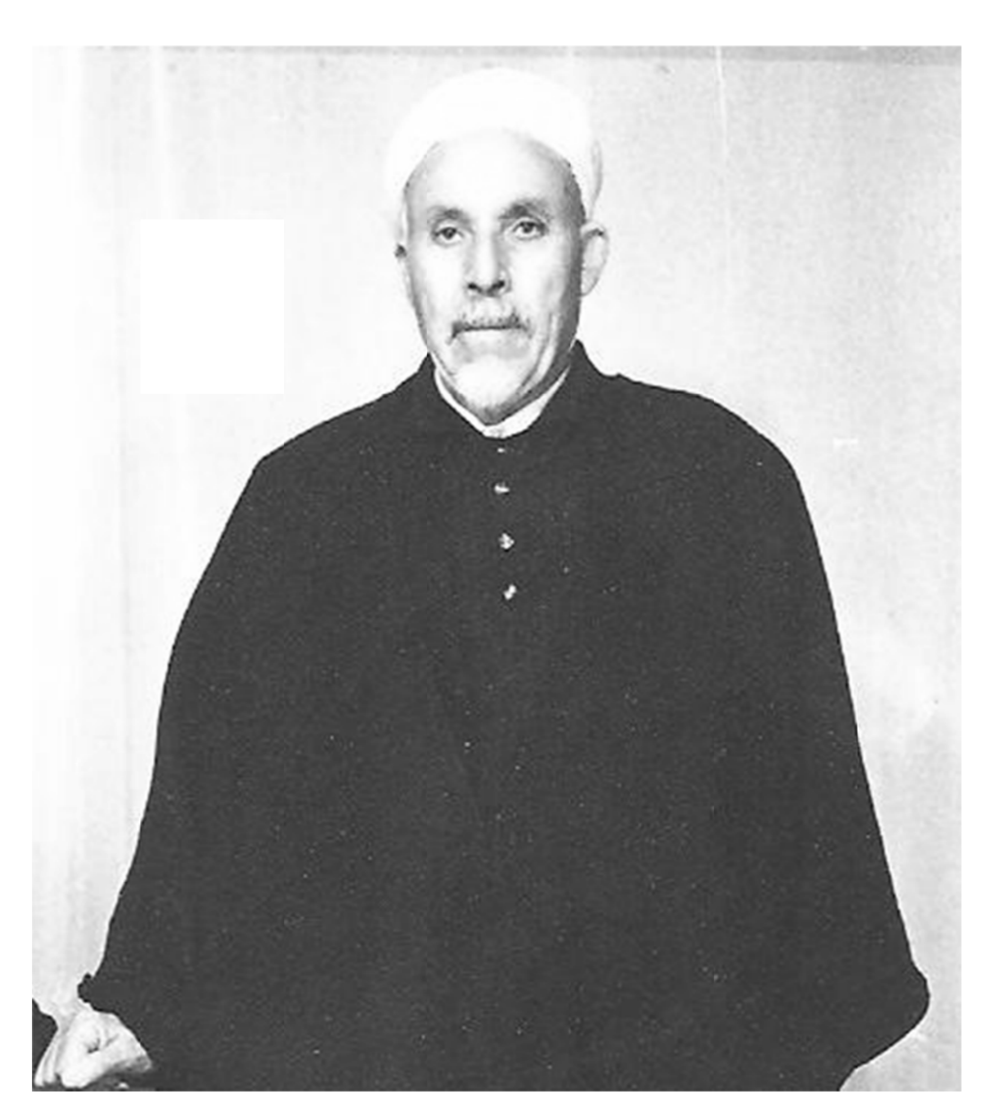
تنبيه وقع نقلها من التاريخ فذكرت 1986 بدلا من 1985 وهو ما كانت خطأ

عبد ربه المهدي البوعبدلي
لطف الله به

الحاقة: انني ذكرت في هذه الوثيقة ان خزانتي هذه كونتها من مالي الخاص اخفا لما تعرضت له من
بيد بعض اصحاب هذه الكتب منهوبة او مستعارة
وانني قد ذكرت في فهارسها مصادر شرائها

[19] وفاته وتأبينه:

توفي رحمه الله تعالى بعد معاناة دامت حوالي أربع سنواتٍ إثر إصابته بمرضٍ السكري، وذلك يوم السبت الخامس مِن ذي الحجة سنة 1412هـ الموافق لـ: 6 يونيو 1992م، ودفن يوم الأحد بمقرِّ زاويتهم، خارج المسجد كما أوصى بذلك، وألقى كلمة التأبين الشيخ **عبد القادر الزير**، وهذا بحضرة المشايخ والعلماء، والجمع الغفير، وصلى عليه إمامًا الشيخ **عبد الله النَّجاري** تلميذ والده الشيخ **أبي عبد الله (رحم الله الجميع)**.



الشيخ المهدي البوعبدلي



الشيخ المهدي رفقة الشيخ عبد الرحمن بن بيبي عن شماله، ثم الشاب محمد الصادق بن بيبي، والطفل الصغير هو أحمد رضا ابن الشيخ عبد الرحمن بن بيبي، وأما الواقفان فهما: السيد رابح المجاني والسيد الطيب (تلميذان بجامع الزيتونة)

(تونس حوالي سنة 1934م)



الشيخ المهدي البوعبدلي حوالي سنة 1924م بمدينة وهران



الشيخ عبد السلام التونسي يتوسَّط الشيخ المهدي عن شماله والشيخ عبد الرحمن بن بيبي عن يمينه، والواقفان: الشيخ عياض والأستاذ محمود بوزوزو



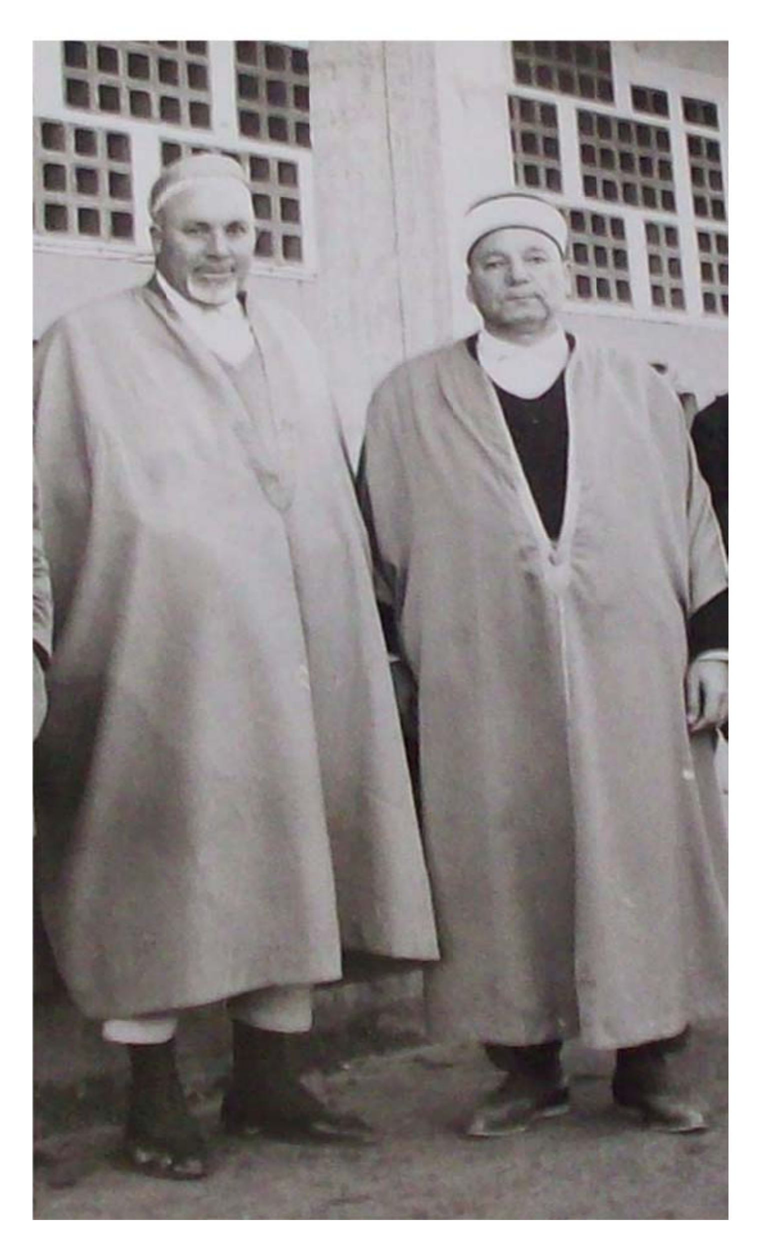


جامعة وهران
شهادة الدكتوراه الشرفية
السيد مهدي بوعبدلي
الدكتوراه الشرفية

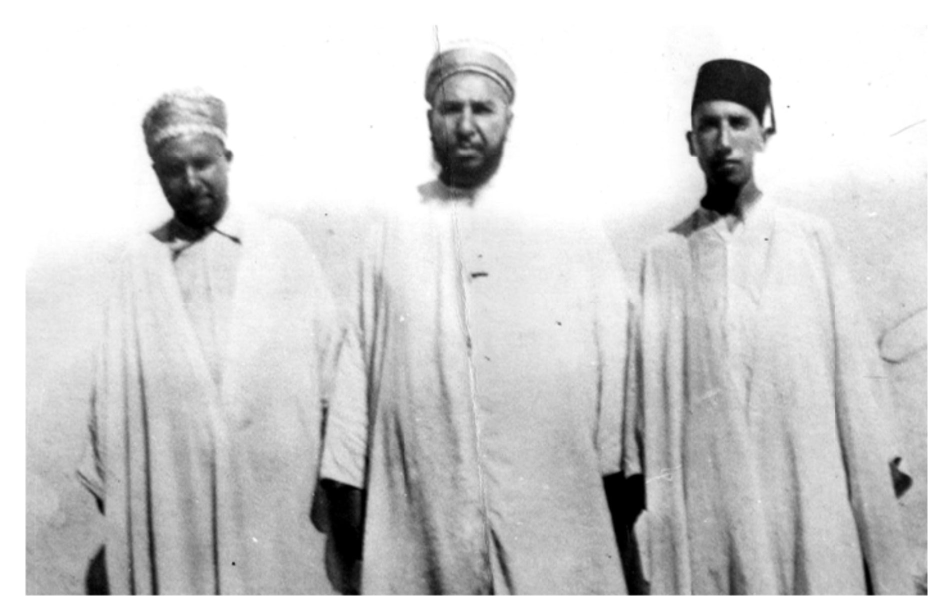
صورة عن شهادة الدكتوراه الشَّرفية من (جامعة وهران)



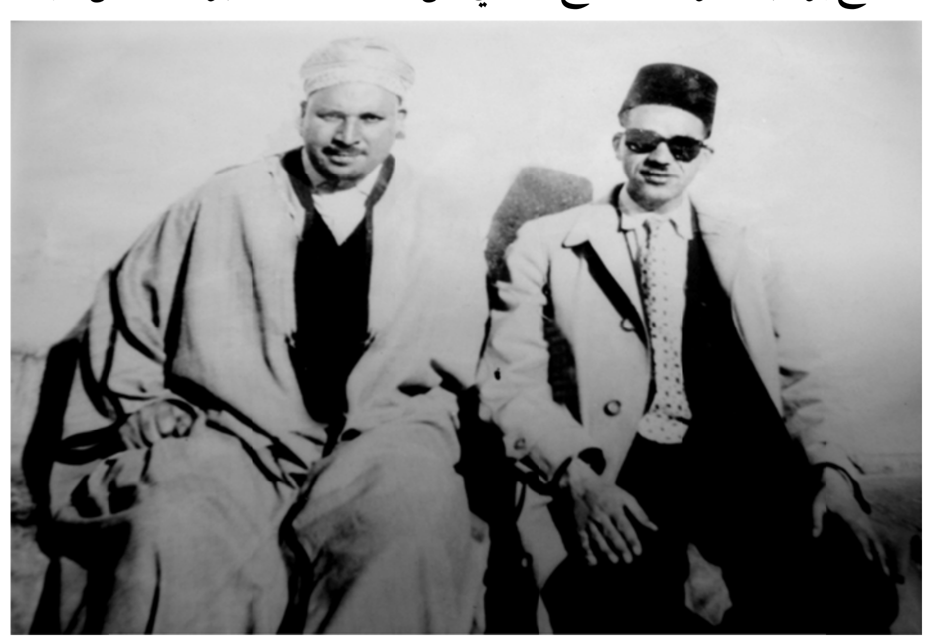
صورة للشيخ المهدي قبل وفاته مع رئيس الجزائر الأسبق السيد أحمد بن بلا



الشيخ المهدي البوعبدلي رفقة الشيخ الجيلالي الفارسي



الشيخ بولحبال يتوسَّط الشيخ المهدي عن يمينه والأستاذ بوزوزو عن شماله



الشيخ المهدي رفقة الأستاذ الهادي الزروقي



الشيخ المهدي رفقة مجموعة من أصدقائه



الشيخ المهدي رفقة الشيخ عبد الرَّحمن الجيلالي والشيخ علي شنتير وصحافية

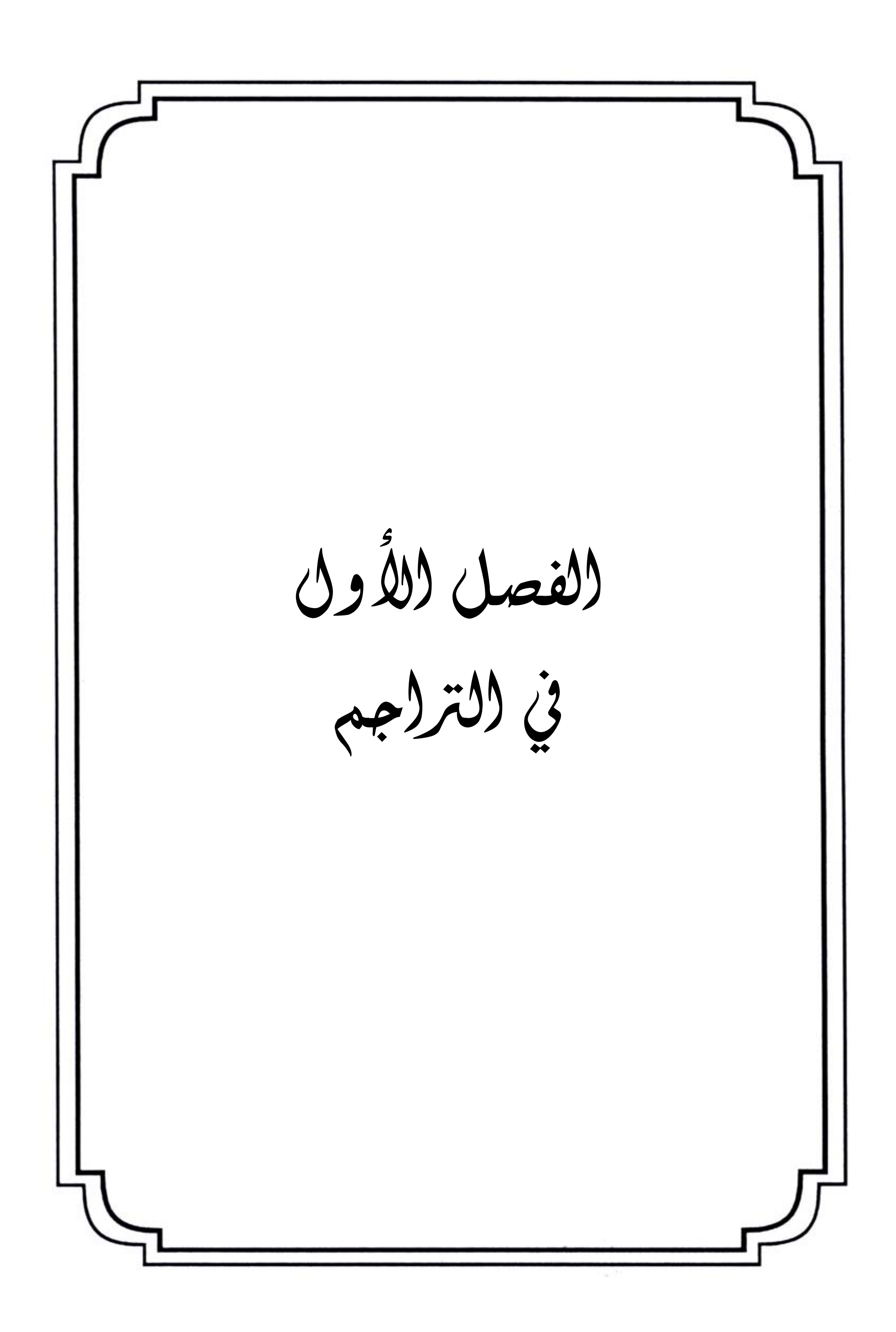
فهرس الموضوعات

آثاره

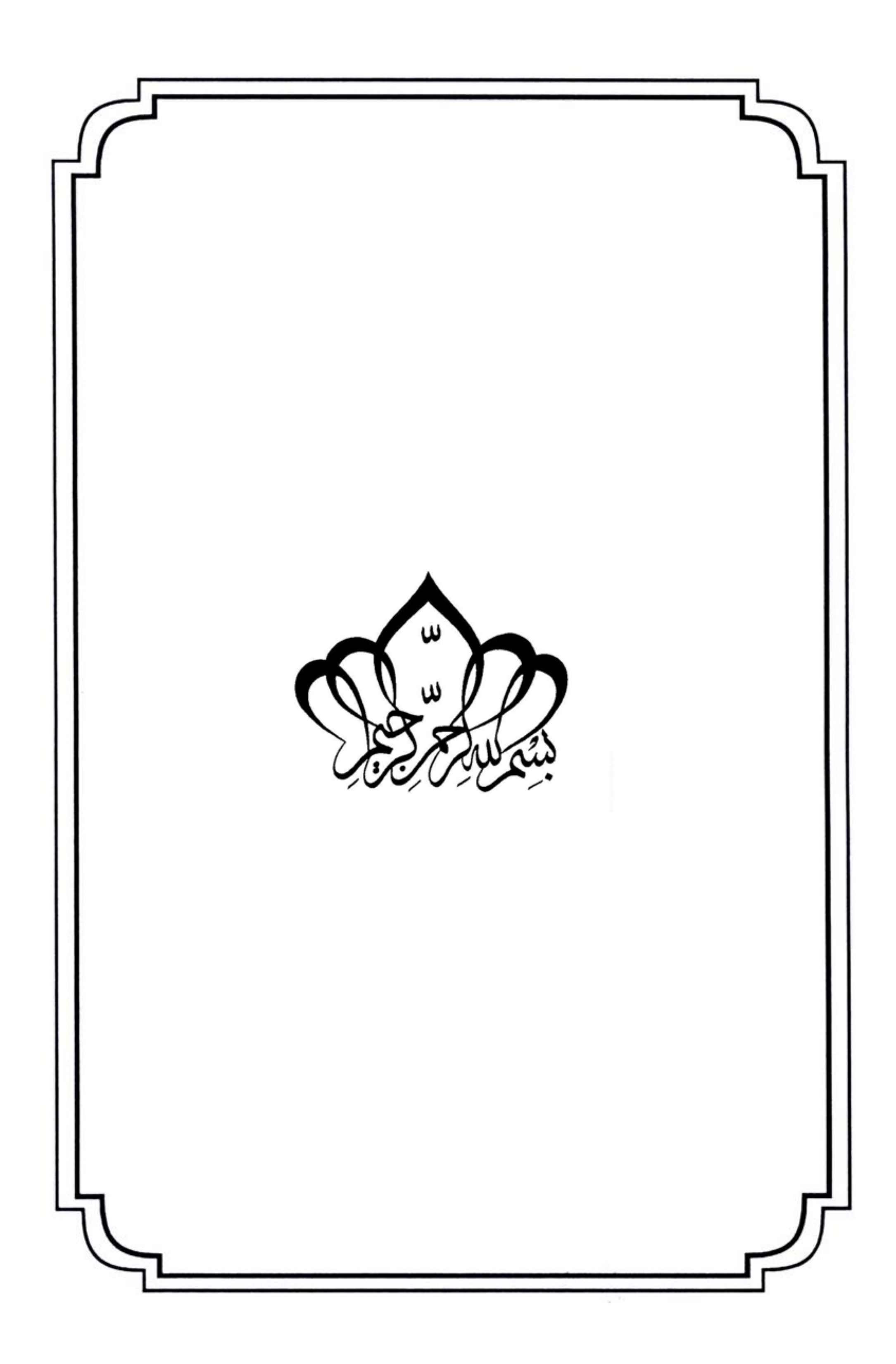
قال العلاَّمة **محمد ابن مرزوق التلمسانی** (رحمه الله):

«إنَّ الله تعالىٰ قَد أجرىٰ عادتَه في علماء الإسلامِ أن يُباركَ لأَحدهِم في قِراءته، ولآخَر في إلقائه وتَفهيمه، ولآخَر في نسخِه وجمعِه وعِبادتِه»

روضة النسرين (ص: 220) لابن صعد التلمساني



الفصل الأول
في التراجم



بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشَّيخُ **المهدي البوعبدلي** (رحمه الله تعالى):

«إنَّ الاهتمام بإِحياء مجدِ الأَسلاف، واستعراضِ مآثرهم، هو مِن أَوكَدِ الواجباتِ على جِيلنا، وذلك ليتصوَّر الجيلُ الصَّاعدُ تاريخَ بلادِه على حَقيقتها».

يحتوي هذا (**الفصل**) على ما يلي:

1) صالح ابن مهنا القسنطيني ناشر السلفية في الجزائر ومحنته.

2) أبو عبد الله محمد بن خميس التِّلمساني (650 – 708هـ/ 1253 – 1309م).

3) الفقيه الحافظ مصطفى الرَّمَّاصي الرَّاشدي الجزائري.

4) علي ابن الحفَّاف المفتي المالكي والأَدوار التي قام بها خلال النصف الثاني من القرن الماضي الهِجري.

5) عبد الرَّحمٰن الأَخضري وأطوار السَّلفية في الجزائر.

6) الشَّاعر الشَّعبي الشَّيخ ابن السويكت السّويدي.

7) أبو القاسم القالمي: كاتب دولة الموحِّدين.

8) ترجمة الشيخ أبي مهدي عيسى بن موسى التوجيني.

9) مصطفى بن أحمد التهامي الغريسي.

10) طاهر الجزائري.

11) الشَّيخ محمَّد أمزيان بن حدَّاد وقضيَّة الحجِّ.

12) عبد المؤمن بن علي الكومي ومَسقط رأسه هنين.

13) عبد الكريم بن الفقون القسنطيني (988 ـ 1073هـ) والتَّعريف بتأليفه: (منشور الهداية في كشف حال من ادَّعى العلم والولاية).

14) تأثير الثَّقافة والبيئة الجزائريتَين في شخصيَّة ابن خلدون.

15) وثائق أصيلة تلقي أضواء على حياة الأمير عبد القادر.

16) الذِّكرى الثَّمانون لوفاة جمال الدِّين الأفغاني دور جمال الدِّين الأفغاني في يقظة الشَّرق ونهضة المسلمين.

17) تراجم بعض أبطال المقاومة المسلحة بالهقار وفي طليعتهم السلطان أحمود (المشهور بأمود).

18) تراجم بعض مشاهير علماء زواوة القبائل الصُّغرى.

19) الجوانب المجهولة من حياة الأمير عبد القادر الثَّقافية.

20) لقطات من ملتقى الكوليج دو فرانس بباريس.

21) جوانب مجهولة من تاريخ حياة الشيخ بوعمامة (بطل ثورة 1881م).

22) الجوانب المجهولة من ترجمة حياة الإمام أحمد بن يحي الونشريسي.

23) جوانب مجهولة مِن آثار زيارة محمد عبده للجزائرعام (1903م ـ 1322ه).

24) صفحات من ترجمة الشَّيخ عبد القادر بن محمَّد عميد أسرة أولاد سِيدي الشِّيخ.

25) أضواء على تاريخ حياة الأمير عبد القادر قبل توليته من خلال مذكِّراته التي سجَّلها في قصر أَمبواز.

26) التَّعريف بمحمَّد بن إبراهيم (دفين كيف الملح) بِنواحي مدينة سعيدة.

27) حياة الأمير عبد القادر الثقافي (بالفرنسية).

28) سيدي عابد (بالفرنسية).

29) ابن خميس (بالفرنسية).

30) محمد بن علي الخروبي (بالفرنسية).

31) نبذة عن منطقة سيدي عابد ـ وليّ منطقة عين كرمان ـ: (باللغة الفرنسية).

صالح بن مهنا القسنطيني
ناشر السلفية في الجزائر ومحنته[1]

إنَّني سأتناولُ في هذه **المحاضرة** ترجمة حياة علَمٍ مِن أَعلام هذه البلدة سجَّل له التاريخُ مواقفَ جعلَته في مصافِّ الأئِمة الذين خدموا الإسلامَ ونشروا تعاليمه خلفا عن سلف، رغم ما لقوه في طريقهم من مقاومة وتعنُّت بعض مواطنيهم.

لما كان ميدان نشاطات مترجمنا هو إحياء السَّلفية وفي سبيل ذبِّه على تعاليمها، حيكت له بعض الدسائس، ولقِيَ في سبيل نشرها ما لقي، فلم تُثنِه عن عزيمته إلى أن لقيَ الله صابرا مثابرا، وقبل أن أواصل الحديث عن ترجمته، أتعرَّضُ بإيجاز لبعض الأدوار التي قامت بها السلفية في الجزائر وأُركِّزُ على تاريخ السّلفية عندنا بعد ظهورها بصفة جلِيَّة في المشرق والمغرب ابتداءً من القرن السابع الهجري.

خصَّص كثير من الباحثين مُسلمينَ وأجانب تآليف قيِّمة للسلفية بعد امتحان أحد أئِمَّتها البارزين الذين خلَّدهم التاريخ، كما كُتِب لتعاليمهم الانتشار في البلاد الإسلامية، كانت جُلُّ هذه البحوث مقتصرة على بلاد المشرق إلى العهد الأخير الذي تطوَّرت فيه وسائل الإعلام فتسرّبت هذه البحوث من المشرق والمغرب، خصوصا بعد ظهور كثير من أنصارها ودعاتها أمثال الإمام **محمد بن عبد الوهاب** ناشر الدعوة الوهَّابية بالحجاز والإمام **جمال الدين الأفغاني** وتلميذه الشيخ **محمد عبده** وغيرهم من الأعلام.

---

(1) اعتمدنا في إدراج هذه المقالة على نسخة أصلية خطية، بقلم الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى)، تقع في (50) صفحة. (ع)

حصر جُلُّ هؤلاء الباحثين الذين تناولوا بالبحث السَّلفية التي عُرِفتْ في زماننا الأخير بالدَّعوة الإصلاحية، وجعلوا منبعها في المشرق ـ أي: بعد امتحان الإمام **أحمد بن تيمية** ـ وتناسى هؤلاء الباحثون أو غفلوا عن دور السلفية ـ أي: تاريخ ظهورها ببلاد المغرب العربي بصفة عامة، وفي **الجزائر** بصفة خاصة ـ وسنرى أن السلفية ظهرت ببلاد المغرب العربي في نفس الوقت الذي ظهرت فيه بالمشرق، وكان دعاتها علماءَ مغاربة، مع الفرق الوحيد أنَّها لم تُحدِث الضَّجَة التي أحدثتها بالمشرق في عهد الإمام **ابن تيمية**، وذلك أنها بقيت في بلاد المغرب في إطارها العقائدي، وهذه النقاط التي تعهدَّت ببحثها، ولضيق مجال هذا البحث المحدود، فإِنَّني أقتصر على القول المأثور وهو: «ما لا يُدرك كُلُّه لا يُترك جُلُّه».

إنَّ كثيرًا من الباحثين عن تاريخ ظهور السَّلفية يرون أنَّ تعاليمها نابعة من تعاليم الإسلام ـ أي: من دعائم تعاليمه ـ وهي الكتاب والسنة، تلك التعاليم التي اشتهر بها علماء الحديث اِتباعا لما تضمَّنَته خُطبة النَّبي ﷺ المَنهجِية في حَجَّة الوداع، والتي قال فيها: «إنِّي تركت فيكم ما إن استعصمتم به لن تضلُّوا بعدي أبدا: كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ»، أو كما قال، وبعد تطوُّر أحوال الخلافة الإسلامية، وتوسيع الفتوحات، ونقل كثيرٍ من العلوم الأجنبية، خصوصا علوم الفلسفة، ظهر دعاة علم التصوُّف وأئمته ابتداءً مِن القرن الثالث، أمثال: **معروف الكرخي**، و**أبي الحسن السّري السقطي**، و**أبي يزيد البسطامي**، و**الجُنيد**، وكان لكثير من هؤلاء الأئمة طُرق صوفية منسوبة إليهم، ثم ظهرت طبقات أخرى أسرف بعضها وتغالوا حتى دعوا إلى التَحرُّر من التقاليد، وأسقطوا التَّكاليف، وكثر أتباع هذه الطبقة من العوام فاختلط الحابلُ بالنَّابل، وكان من أبرز أفراد هذه الطبقة **الحسين بن منصور الحلاَّج** (المُتوفىَّ حوالي 309هـ) المشهور بالدعوة إلى مذهب الحلول، فانتشرت الفوضى في صفوف العوام الذين لم يستسيغوا مذهب الحلول، حيث كانت تعاليمه تنافي تعاليم الشريعة

الإسلامية، فلهذا تصدَّى لإنكاره الفقهاء الذين أيَّدهم علماء الحديث، وأثبتوا أن مذهب الحلول وكثيرا من مذاهب التَّصوُّف استمدَّت تعاليمها من مذاهب غير إسلامية.

إنَّ هذا الموضوع ـ أي: الصِّراع بين علماء التصوُّف مِن جهة، وعلماء الحديث والفقه مِن جهة أخرى ـ قُتل بحثا، وخُصِّصت له التَّآليف التي لا زال مَعِينُها لم يَنْضَبْ إلى عهدِنا هذا، وإنَّني أكرِّر ما سبق لي ذكره، وهو أنَّ مجال هذه المحاضرة الضَيِّق لا يسمح لي بالتَّعرُّض حتى إلى الخطوط العريضة مِن هذا الصراع، وإنما أتيت بهذه الفقرات كتمهيد ومدخل لموضوع المحاضرة التي هي: دراسة ترجمة الشيخ **صالح ابن** مهنا **القسنطيني**، الذي كان مِن دعاة السلفية الذين حاولوا أن يُحيوا تعاليمها في هذه البلاد رغم تنكُّر الوسط لهذه التَّعاليم، وتألُّب خصومه عليه، واستعانتهم على محاربته بعناصر خارجة عن الإطار العقائدي الدِّيني، إذ هدَّدُوه في معاشِه وحُرِّيَّته وعِرضِه، إلا أنَّه ثبت ثَبات المؤمنين الصَّادقين إلى أن لَقِيَ الله مؤمنا بقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾ (الفجر: 27-30).

اشتهرت أسرة مترجمنا وذَكَر بعض أفرادها الشيخ **الحسين الورثيلاني** في (**رحلته**) التي علَّق عليها وحقَّقها المُترجَم **صالح بن مهنَّا**، إذ قال **الحسين الورثيلاني** في (**رحلته**): «إنَّه اجتمع ذات ليلة بالسيد **أحمد بن الطيب الزواوي** والسيد **أحمد بن حمودي** والسيد **مهنا**، وكُلُّهم ذوو فضل وعلم وصلاح» اهـ.

فعلَّق الشيخ **صالح** ـ مُترجَمُنا ـ على هذه الفقرة بقوله: «قوله: (مهنا) هو مِن أسلافنا، ولنا أسلاف بالمشرق وبالمدينة المنوَّرة: أشراف وأُمراء على المدينة، ذكرهم **ابن**

خلدون في (**تاريخه**)، ولنا أسلاف أيضا بالشَّام ذكرهم **أبو الفداء**»[1]، وقد نقل هذا التعليق المختصر الشيخ **عبد الله البرباشي** المُتَوَفَّى بـ: **سطيف** منذ سنوات قليلة، قال مُعلِّقا عليه: «نقله فقير ربه الحنَّان **عبد الله بن السعيد بن زيان المشيشي الحسني** تاب الله عليه للمحترمين الأشراف، أولاد **مهنا**، المُلقَّبين الآن بـ: **أولاد أورابح**، لكون الشيخ **مهنا** المذكور هو جدُّهم الذي اجتمع به الشَّيخ **الورثيلاني** (رضي الله عنه)» اهـ.

اشتهر الشيخ **صالح بن مهنا** في **قسنطينة** التي أقام بها بعد رحلة علمية إلى **القاهرة**، وتخَرُّجِه من **الجامع الأزهر**، وقد كان على عادة معاصريه مُتطوِّعا بالتَّدريس في بعض مساجدها، ثم تولَّى الإمامة، كما اشتهر بالتقديم في **الطريقة الحنصلية**، وهذه الخطط لم تمنعه مِن الانتصار للسلفية ومحاربة البدع، وموقفُه هذا في مجال السَّلفية هو الذي لفت إليه الأنظار، خصوصا بعد ما تداخل في الكمين الذي نصبه له خصومه الذين كانت تُؤيِّدهم السلطات الحاكمة، وأمكنهم أن يستَنجِدوا بالعالم المغربي الذائع الصيت الشيخ **المهدي الوزَّاني** شيخ الإسلام في عهده، وصاحب التَّآليف الشهيرة الذي شدَّ الرِّحال إلى **قسنطينة** وألَّف تأليفه الشهير الذي سمَّاه: (**السيف المسلول باليد اليمنى لقطع رأس ابن مهنا**)، وقد بيَّن **المهدي الوزَّاني** في تقديم تأليفه المذكور الدَّاعِي إلى تأليفه، إذ ذكر أنه زار **قسنطينة** عام ثلاث وعشرين وثلاث مائة وألف (1323هـ) ومرَّ على **تلمسان** ثم العاصمة (**الجزائر**)، فـ: **قسنطينة**، وفي هذا قال **الوزَّاني**: «ولمَّا وصلت إلى **قسنطينة** اجتمع بي جماعةٌ من علمائها وفضلائها، ووجوهٌ كثيرة من أهلها وأعيانها، وأخبروني أنَّ عندهم رجلا من أهلها يقال له: **ابن مهنا**، كان يتعلَّم العلم بـ: **مصر** أزيد مِن عشرة أعوام، ولمَّا رجع لبلده **قسنطينة** رجع بزَيِّ الفقر زاعما أنَّه من أهل التصوف، ويُنكر أمورا ضرورية، ويسبُّ الأخيار ويُنقِصُهُم، ويُبالغ في شتمهِم، خصوصا أهل المغرب،

---

(1) **رحلة الورتيلاني**: طبع تونس 1321 هـ/ 1983م تحقيق صالح بن مهنا.

فإنه يذُمُّ علماءهم وصلحاءهم، بل ويسُبُّ جميع أهل المغرب، وله مقالات تدُلُّ على قلَّة أدبه مع أهل البيت، وسألوني عن حكمِ الله فيه، فقلت لهم: هل ثبت هذا عليه ببيِّنة، أو بخطِّ يدٍ، أو بغير ذلك مما يثبت به شرعا، فقالوا لي: ثبت ذلك في كتابٍ أَلَّفَه بيده، وطُبع في **تونس** على ذِمَّتِه، فطلبتُ منهم إحضار هذا الكتاب، فأتوني بنسخة منه، وإذا هو **رحلة الشيخ الإمام سيدي الحسين الورثيلاني**، وبهامشه ما كتبه الرجل المذكور كالحاشية عليه، فوجدته كما قالوا، فأردتُ أن أذكر هنا بعض مقالاته في أهل المغرب وأهل البيت، ونجيبه عنها باختصار» اهـ. وعندما يذكر الشيخ **الوزَّاني** المغرب فإنَّه يقصد **المغرب الأقصى**.

ثم تعرَّض **الوزَّاني** إلى بعض ما كتبه **صالح ابن مهنا** في شرحه أو تعليقه على (**الرِّحلة**) في المقالة الثالثة في انتقاد علماء المغرب، فتصدَّى للردِّ عليه في عدَّة فصول، لا يسعنا مجال هذه الدراسة لتتبُّعِها، وإنَّما نقتصر على ذكر فقراتٍ منها يتوقَّفُ عليها سياق الحديث، قال ما يلي: «قوله ـ أي: **صالح ابن مهنا** ـ ولقد صدق الشَّيخ ـ أي: **الورثيلاني** ـ في جميع ما ذكره، فصار المغربيُّ منسوبا عند المصريِّين إلى الدَّجل والشَّعوذة والسِّحر، حتَّى قال بعض العلماء: جميع ما أَلَّفه المغاربة من الكتب، يفوقُه ما أَلَّفه عالم واحد مصري، وهو الإمام **جلال الدِّين السُّيوطي**، ما عدا كتب السحر والشَّعوذة، فإنَّهم أَلَّفوا منها كثيرا، وملؤوا بها الأرض، كـ: ابن الحاج الكبير وغيره، وجلبوا بها أموال الناس، وأظنُّهم توارثوها عَن أسلافهم ... الخ.

قلت: ـ أي: **الوزَّاني** ـ ما نسبه هذا الخبيث للمغاربة مِن السحر هم بريئون منه كبراءة الذئب مِن أكل **يوسف** (عليه السلام)، فو الله ما نعرف بالمغرب ساحرا واحدا، فضلا عن اثنين، فضلا عن جماعة».

ثم قال **الوزَّاني**: «وأمَّا قوله: قال بعض العلماء... الخ، فلعلَّه مِن بقية القِبط

الأقدَمين بـ: **مصر**، فلا يُعتدُّ به، وحاشا العلماء بـ: **مصر** أن يقولوا ذلك، أو لعلَّه تقوَّلَه عليه كعادته»، ثمَّ تعرَّض إلى كلام **صالح بن مهنا** الذي أثار عليه موجةَ الغضب في الأوساط العلمية بـ: **قسنطينة**، وكان ذلك منطلق الحملة التي وصلت شظاياها إلى **بلاد المغرب الأقصى**، وكان مِن نتائجها شد رحال **المهدي الوزَّاني** إلى **قسنطينة** وإبراز تأليفه: **(السيف المسلول باليد اليمنى لقطع رأس ابن مهنا)** السَّابق الذِّكر، وهنا ـ بين قوسَين ـ نذكر أن هذه القضية ـ أي: التي أثارت على **ابن مهنا** موجةَ الغضب بـ: **قسنطينة**، وأشار إليها **المهدي الوزَّاني** في تقديمِ كتابه الذي ردَّ فيه على **ابن مهنا** ـ وكان مِن جملة المسائل التي ردَّ عليه فيها ما قاله عنه ـ أي: إنَّ ابن مهنا ـ: «يسبُّ الأخيار ويُنقِصُهم، ويبالغ في شتمهم، خصوصا أهل المغرب، فإنه يذمُّ علماءَهم وصلحاءَهم، بل ويسبُّ جميعَ أهل المغرب »، إلى أن قال: «وله مقالات تدلُّ على قِلَّة أدبه مع أهل البيت... الخ».

قال **الوزَّاني** في ذلك ما يلي: «وقال أيضا ـ أي: **الورثيلاني** ـ إنَّ الأشراف ثلاثة أقسام: طائعون، ومستورون، ومتجاهرون، والتعظيم للقِسمَين الأوَّلين دون الثالث...»، فقال **ابن مهنا** معلِّقا على قول صاحب **(الرِّحلة)**: «فهذه الفِرقة ـ أي: العاصية مِن الأشراف ـ غير مُعتبرة عندنا ... » إلى آخره، ثمَّ قال: «**قلت** ـ أي: ابن مهنا ـ: دلَّ كلامه على أنَّ مَن خالف السُنَة والشرع غيرُ مُعتبر ولو كان مُدَّعِيا للصّلاح أو الشّرف أو العلم وهذه الفرقة التي أنكر عليها الشيخ مِن الشُّرفاء، وقد كنت قلت مثل هذه المقالة التي قالها فيها وهي أنّ الشريف الفاسق لا يُعتبر فأنكرها بعض الأرذالِ ممَّن قرأ مسألتين وتعلَّم باب المسح على الخُفَّين ...»، إلى أن قال: «وقد صرَّح به الإمام **الشعراني** في كتابه **(المنن)** فقال: قال بعض العلماء: ولا ينبغي تعظيم الشَّريف إذا تعاطى المحرَّمات. اهـ، وكذا الشيخ مؤلِّف **(الرِّحلة)** لأنه صرَّح بشرف هذه الفرقة المذكورة، ثم قال: «فهذه الفرقة غير مُعتَبَرة عندنا، وناهيك به علما وديانة وصلاحا وولاية، فأين هو مِن أولئك الحمير ... الخ».

فعلَّق **الوزَّاني** في ردِّه على **ابن مهنا** بقوله: «**قلت**: لا حجَّة فيما نقله عن **الشعراني** إن كان هو لفظَه، لأنَّ بعض الفقهاء مجهول، والمجهول لا تقوم به حُجَّة ...»، إلى أن قال: «وهذه سفسطة منه يُتحاشى على تسويد الأوراق بمثلها، إذ المُقرَّرُ في الشريعة، هو ثبوت الشَّفاعة في العُصاة مطلقا، إمَّا ابتداءً أو بعد المؤاخذة... الخ».

ثمَّ قال **الوزَّاني** في تذييله وردِّه على **ابن مهنا في المقالة الحادية** عشر مِن **(الرِّحلة)** قال: «قد اتَّضح ممَّا قرَّرناه في هذا التَّأليف أنَّ **ابن مهنا** اجتمعت فيه أوصاف ذميمة، منها: الجهل، والكذب، والبُغض لآل البيت... الخ »، وعلى كلٍّ كان هذا التأليف سببا في تألُّب خصوم **ابن مهنا** ومحاربته محاربةً لا هَوادَة فيها، ومن جمُلة مَن امتازوا في هذه الحرب العالم الشَّيخ **عاشور الخنقي**، الذي خصَّص تأليفا جمع فيه مثالب المُترجَم، وسمَّاه: **(كتاب منار الإشراف على فضل عُصاة الأشراف ومواليهم من الأطراف)**، طُبع في **الجزائر** سنة 1332هـ/ 1914م، والشيخ **عاشور** مِن أفذاذ العلماء الممتازين، وعلاوة على تذليله لجميع فروع العلوم الدِّينية مِن حديث وتفسير وفقه، فهو إمامٌ من أئمة اللُّغة، ضَلِيعٌ في علومها، إلا أنَّه سريع التأثُّر والانفعال، سليط اللِّسان، مجبولا على إذاية النَّاس بلسانه وقلمه، ومع هذا فهو كثير التَّقلُّب، يشكر ويذُمُّ لأدنى سبب أو شكٍّ، وسنتحدَّث عن مواقفه مع الشيخ **صالح ابن مهنا** بعد أن نُنهي حديثَنا عن الشيخ **المهدي الوزَّاني** وتأليفه: **(السَّيف المسلُول)** الذي لم يتضمَّن ردَّ مؤلِّفه على **ابن مهنا** فحسب، بل جمع فيه انطباعات جُلِّ علماء المغرب الذين قرَّظُوه نظما ونثرا، وكان في طليعة المُقرِّظين الذين تبَنَّوا آراء الشيخ **المهدي الوزَّاني** نقيب الأشراف العلويِّين الشيخ **عبد الرحمٰن بن زيدان**، ولا غرابةَ في ذلك، فالشيخ **المهدي الوزَّاني** كان يُمثِّل الرَّأي العام المغربي الرَّسمي فهو بحكم منصبه السَّامي شيخ الإسلام له مكانة في الأوساط العِلمية.

قال نقيب الأشراف في تقريظه:

الجهل فيه فضيحة الإنسان	ويقوده لمواطن الكفران
وتجُرُّه أسبابه لمهامه	وَعْرَاء يسلكها ذوو الخسران
مثل ابن مهنا الجاهل الغمرِ الذي	قد قام يرمي الغرب بالبُهتان
فمن اسمه صار الهوان لنفسه	تعسا له من مارق فتَّان
تبًّا له تبًّا له تبًّا له	طردا له في سائر الأوطان
سُحقا له سُحقا له سُحقا له	ويلٌ له من فاسقٍ شيطان
ويلٌ له من فاجر متجاهر	بالإفك والبغضاء والعدوان
فلقد دعاه هواه أن ذمَّ الرَّسول	بذمِّه لذويه بالهذيان
وغدا يسُبُّ ذوِي العُلا مُتأزِّرا	بالزُّور والفحشاء والعصيان
فلذا غدا الشيخ الإمام المرتضى	بحر العلوم العالم الرَّبَّاني
أستاذنا أعني أبا عيسى الهُما	م المتقي الأتقى الوزاني
يسقيه أكواب الرَّدَى ويُذيقه	غُصَصَ المرائر في كؤوس هوان
وبسيفه المسلول يقطع رأسه	بين الأحبة والعَدُوِّ الشَّاني

كما قرَّض هذا التأليف ـ أي: تأليف **المهدي الوزَّاني** ـ كثير من علماء المغرب وأُدبائه، فلم يملكوا أعصابهم فأقذعوا في تقاريظهم، وحيث لا يمكننا تَتَبُّعها، فقد ذكرنا منظومة نقيب الأشراف العلويِّين الذي له مكانة في بلاد المغرب العربي بتآليفه القيِّمة، وبخزانة كتبه النَّادرة المثال، كما اشتهر ببحوثه العلمية في المؤتمرات العالمية، لهذا فإننا نقتصر عليها، وزدنا عليها بعض أبيات مِن قصيدة أخرى تبلغ أبياتها ثمانين، قيلت أيضا في تقريض كتاب: **(السيف المسلول)** المذكور، وهي التي أقذع فيها صاحبها وجاوز حدود الأدب واللَّبَاقة، و لم يقتصر على ذمِّ **صالح بن مهنا**، بل جاوزه إلى سبِّ

والده ـ و هو ميِّت ـ الذي تَركه يافعا، قال المُقَرِّظ:

تبًّـا لمهنـا وابنـه الكلـب الـذي	يعـوي ويلهـث سـائر الأحيـان
تعسًـا لـه مـن فاسـق متجـاهر	بفجـوره يبغـي رضـا الشـيطان
متسـربلا بـرداء أفحـش نازعـا	ثوب الحياء عن وجهه السرحاني
سل عنه مصر ترى لها مـن فُحشـه	شـكوى بقلـة دينـه بعيـان
سـل عنـه بلدتـه تُريـكَ خصـاله	حتـى لقـد منحـوه بـالهُجران
قـد قـام فـيهم يـدَّعي في زعمـه	نيل الصـلاح لكـي يـرى متـداني
ولقـد تفطَّـن قومـه لدهائـه	فتجنَّبـوه فصـار كاللَّهفـان

أمَّا التَّآليف التي ضَمَّنَها أصحابها ردودهم على **صالح بن مهنا** فهي كثيرة، وإن تعهَّدتُ بوقفة قصيرة مع كتاب: **(منار الإشراف على فضل عصاة الأشراف ومواليهم من الأطراف)** للشيخ **عاشور الخنقي** الجزائري، إذ هو الذي حمل راية الردِّ على **صالح بن مهنا** بالجزائر، وضمَّن تأليفه هذا الشَّتائم والإقذاع والتَّكفير، ولم يكتف بما كتَبه عنه، بل قيل إنَّه لولا تدخُّل بعض الفضلاء لأودى بحياته لِخِبرٍ يطول، أمَّا بقية التَّآليف التي أشرنا إليها، فإنني أكتفي بذكر عناوينها وأسماء مؤلِّفيها، ومن هذه التَّآليف كتاب: **(الكَيّ بمحاور البغال وقتل العقرب بالنِّعال، في ردِّ ما فاه به بعض الأنذال الذي جهل أنَّه من أهل الضلال)**، وهو لعالم جزائري **محمد بن مصطفى المشرفي الغريسي**، هاجرت أسرته بعد الاحتلال الفرنسي إلى المغرب، وكان هو يحترف التِّجارةَ ويتردَّد على **الجزائر**، حيث فتح محلاًّ تجاريا بغرب **الجزائر**، وبالضَّبط في مدينة **غيليزان**، ولا نستغرب من عنوان هذا التَّأليف، فإنَّ صاحبه اشتهر في الأوساط العِلمية سواء في ذلك بـ: **الجزائر** أو بـ: **المغرب الأقصى** بما اشتهر به زميله الشيخ **عاشور الخنقي**، وقد سبق له أن خاض معركة وهو بـ: **الجزائر** مع الشيخ العالم **علي بن الحفاف** (المفتي المالكي) في عهده ـ أي

في أواخر القرن المُنصرم ـ على قضية ثُبوت الهلال، وتبادلا فيها التَّآليف، وكال في هذه التَّآليف التي لم تقتصر على الخصمين بل انضَمَّ إليهما القاضي السيد **أحمد بن محمد أبو طالب** المشهور بـ: **الـقـلِّيل** (تلميذ **علي ابن الحفاف**)، وهو مِن أسرة **الأمير عبد القادر**، وسبق لوالده أن تولىَّ القضاء بمدينة **قسنطينة**، وإنَّ لهذه التَّآليف فضلا رغم نواحيها السلبية، حيث سجَّلت لنا أحداثا تتعلَّق بتُراث بلادنا العلمي، التي لولا هذه الخلافات لما فكَّر أحدٌ في تسجيلها، وأقلُّ ما أفادتنا هي قِيَم علماء ذلك العهد، فإنَّ هذه الكتب ولو كانت تحمل في طَيَّاتِها ما كاله أصحابها لبعضهم بعضا مِن الشَّتائم والقذع، فإنَّها كشفت الغطاء عن قِيَمِهِم العلمية، كما أظهَرَت لنا رأيا عامًّا يَقِظًا غيورا على تعاليم الدِّين والذَبِّ عنه، ولو بتحامل ومبالغة.

ولنرجع إلى ذكر عناوين الكتب التي تمالأ أصحابُها مع شيخ الإسلام **المهدي الوزَّاني** في حملتِه على **صالح بن مهنا** ـ موضوع دراستنا ـ فمِنها كتاب: (**سنان اليراع وبنادق القرطاس في نحر من جازف وشتم الناس**)، وصاحبه هو الشيخ **محمد العابد بن سودة الفاسي**.

نكتفي بما ذكرناه ولنرجع إلى الوقفة التي تَعَهَّدتُ بوُقُوفِها مع كتاب الشيخ **عاشور** الذي تزَعَّم الحملة التي أُثيرت على **صالح بن مهنا**، وقبل الاستدلال ببعض نماذج كتاب (**منار الإشراف**) نذكر ما تتطَلَّبُه الأمانة العلميَّة في هذا المقام، وهو أنَّ موقف كثير من علماء **قسنطينة** الذين كانوا ينتصرون لـ: **صالح ابن مهنا**، ويُقِرُّونه على تعليقه الذي علَّقه على (**رحلة الورثيلاني**)، ولولا كتاب (**منار الإشراف**) لما كُنَّا نعلم عنهم شيئا، وإلى هذا الموقف أشار الشيخ **عاشور** في تقديمه الذي قال فيه: «وإن تعجب فعجبٌ قولُ بعض جُهَّال الطَّلبة، وبعض العلماء بالغلبة، حاشا فوارس الحلبة، إنَّ ما تضمَّنه هذا **المجموع** ـ أي تعليق **ابن مهنا** على **الرِّحلة** ـ كلام هائل، ما رأينا مثله في

كتب الأوائل، فلا يُظَنُّ أن يكون له طائل، وجوابه: ما هذا إلا كلام مُخَلِّط جاهل، يستحِقُّ صاحبُه أن يُسجَّل في ديوان الحيوان النَّاهق أو الصَّاهل».

فقد بيَّن لنا أنه وُجِد صِنف من علماء البلاد جَاهروا بتأييدهم لرأي **ابن مهنا** في المجال العقائدي، وإنما لما اصطبَغَت الحملة بالصِّبغة السياسيَّة، إذ لولاها لما شدَّ الرِّحال إلى **قسنطينة** عالِمٍ مِن عُلماء المغرب، ولما أثار هذه الضجَّة التي سُخِّرَت لها الأقلام ووسائل الإعلام، ولَمَاَ أمكن أيضا للشيخ **عاشور** أن يطبع كتابه (**منار الإشراف**)، وهو الذي قضى جلَّ أيام حياته في ضيق وفقر، ولماَّ ظهر كتاب (**منار الإشراف**) لم يؤثِّر في الأوساط العلميَّة التَّأثير المرجو منه، فالجزائريون يعرفون تمامَ المعرفة صاحب التَّأليف، ويعرفون طبعَه القلق، وعصبيَّة مِزاجه، وتحامله على جلِّ معاصريه، وأنَّ هَجْوَه لِمعاصريه المحفوظ على ألسنة الناس يملأ الدَّواوين، وإن كانت هذه الأوصاف لا تمنع من الاعتراف بأنَّه سجَّل لنا في كتابه ـ أي: (**منار الإشراف**) ـ صفحاتٍ من تاريخ بلادنا الثَّقافي، عَرَّفتنا بقيمة المُؤلِّف الذي كان عالِما أديباً ذلَّل اللُّغة العربية نظما ونثرا، ورزقه الله ذاكرة قويَّة يُعَدُّ بحقٍّ في طليعة أُدباء عصره وحُفَّاظه، وقد عاش طيلةَ حياته محروما، وإن صوَّر لنا حياته زمان الطلب، وشكا مِن قساوة الدَّهر عليه، فقَد لازمه ذلك الحِرمان طيلةَ حياته، ولما كان الغرضُ من هذه المحاضرة إحياء التُّراث الثقافي ببلادنا، فقد جَرَّنا الحديث إلى هذا العالِمِ الذي تشعَّبَت آراء معاصريه فيه، بين مادح وقادح، ولم يَنْجُ مِن سهامه حتى أَقرب الناس إليه في الحياة، ومن ذلك أنَّ الدَّاعي إلى تأليفه هذا ـ أي: (**المنار**) ـ هو الذَّبُّ والانتصار للشَّرف، إلا أنَّه لم يُفارق الحياة حتَّى هجا نقيب الأشراف بالجزائر هجوا مُرًّا.

كان **عاشور** يشكو من قَساوة الدَّهر عليه، إذ يُصوِّر لنا حياته الأولى في طلب العلم فيقول: «إنَّه كان لا يألو جهدا في الطَّلب، ولا يُبالي بشدَّة الحاجة والفاقة والجوع

والعُري والسَّهر والنَّصب، ولا بإذاية الطَّلبة ومُكابَدَة التَّعب، ولا يكاد يتغذَّى بالنَّهار ولا يستريح، ولا ينام من اللَّيل إلا النَّزْرَ الذي لا يُريح» اهـ.

وقد عَرَفْنا أنَّ الشيخ **عاشور** كان يتردَّد كثيرا على بيوتات العلم والزَّوايا والنُوَّاب، بل حتَّى على أبواب الإدارة الذين كان كثيرٌ من المُسْتَعْرِبين مِن رجالها يسعون في التَّعرُّف به، إلا أنَّ عِزَّة نفسه وعُلوَّ هِمَّتِه وصراحته البديهيَّة جعلته يثور، وتلك الثَّوَرات هي التي كانت سببا في قضائه حياةً لم يهنأ له فيها بال، ولم يستقرَّ له قرار، فبعد أن حاول بعد انتهائِه من أيَّام الدِّراسة التَّطوُّع بالتَّدريس في بعض مساجد **قسنطينة**، لَقِيَ خصومَه له بالمرصاد، وكانوا مع الأسف كثِيرين، فمن ذلك ما قاله معتذراً على عدم تصحيحه لتأليفه قبل طبعه، إذ قال: «كنتُ في حال الوضع، وعند كمال الإنشاء والجمع، على غاية الحزم، ونهاية العزم، على معاودة النظر فيه بالتَّهْذِيب والتَّنْقِيح، والتَّحرير والتصحيح، حتى يكمل بعون الله على الوجه الصحيح، فاستعجلتني على ذلك مصيبة النَّفي والتَّغريب، واسْتَرْهَقَتْني عليه مَشِيئَةُ السّجن والتَّعذيب، مُدَّة سبعة عشر عاما، أو تزيد أشهُرا وأيَّاما، بمُوجِبِ هذا المجموع الشَّريف، وشِدَّة الذَّبِّ عن حَرَم أهله المُنِيف بإغراء ذلك الدَّجَّال الضَّال، وأشياعِه على ذلك الضَّلال، ولاة الأمر اليوم من أهل دولة الفرنسيس بما افْتَرَوْهُ عليَّ وأضافوه إليَّ من أراجيف التَّدليس، على وجه التَّغليط والتَّلبيس، ومن ذلك العهد لم تزل طوائح الدَّهر، تُطَوِّحُ بي من وطنٍ إلى وطن على سبيل القهر، تارة في شرِّ قرية على أشدِّ رَزِيَّة، لا يراني وعلمي أهلها إلاَّ على أعظم فِرْية، من غير شكٍّ عندهم في ذلك ولا مِرْية، يستبيحون بمشايخهم وعلمائهم وعوامِّهم ورؤسائهم جميع أنواع الرِّبا، وبعضهم ينزو على بعضٍ بمختلفات المناكر نزو الدّبى، كُلَّما وعَظْتُهُم بآيةٍ أو حديثٍ أو نصٍّ شرعيٍّ سدِيد، يقولون لي: يا هذا لقد جئتنا بمذهبٍ جديد، وبآخرة الأمر تصدَّيتُ إلى التَّدريس لهم وتعليم العلم، باللَّيل والنَّهار

على غاية اللُّطف والحِلْم، عسى أن يَكُفُّوا أو يعفُّوا عن مثل ذلك الظُّلم، فما زادهم والله ذلك إليَّ إلاَّ شِدَّةً في أذاهم، وقُوَّة عليَّ في بذَاهم، وما وجدتُ سبيلا إلى التَّرحال، لجبر الولاة لي على الإقامة بين أظهُرِهم على كلِّ حال».

ثم يقول: «فبينما أنا على تلك الشُّجون، إذ حُمِلت إليَّ مختلفات السُّجون، لكن بعد غاية العَرْك ونهاية الدَّرْك، فمرَّة في سجن ظلماتٍ بعضها فوق بعض، على غاية كراهية وُلاته لي فيه ونهاية البُغْض، تكاد ظلمته تذهب بالأبصار، سواءٌ عليَّ ليلُه والنَّهار، مُنْفَرِدا لا أُحِسُّ فيه إلاَّ بدبيب الفأر، على أنَّه بئس الجار، وكرَّةً في شرِّ السُّجون الذي يُسَمُّونه: (**تَعَظْمِيتْ**) بين مساجينَ مِن أشرار الأجلاف، من أخلاط البوادِي والأحلاف، لا يحُوم حولهم حياءٌ ولا خجل، ولا يعتريهم خوفٌ ولا وَجل، عبادتهم هِرَاشٌ وسِبابٌ و زَجَل».

ثم يَصِفُ مُدَّةَ إقامته بـ: **قسنطينة** حيث تَأَلَّبَ عليه خُصومُه ومنعوه من التَّدريس في مساجدها حتى أخرجوه مِن جميع المساجد، وبقي يتقلَّب من زاوية إلى زاوية، كأنَّما **قسنطينة** أصبحت على عروشه خاوية، وربَّما تعرَّضوا له بالقتل في بعض طرق الوُرُود والصُّدُور وبقي كاسف البال هائج البلبال، على غاية الحاجة والفاقَّة وسوء الحال، ونهاية المعيشة الضَّنْك، لا يكاد يملك في الشَّهر الفِلْس فضلا عن الفَرَنْك، يَرْثِي له العدوُّ الكاشح، ويرِقُّ له القلب الكاسِحُ».

إنَّنا نقلنا هذه الفقرات من ترجمة الشيخ **عاشور** التي خطَّها بقلمه، لنُبَيِّن أنَّ علماء السَّلف النِّسبي ـ أي: الذين عاشوا في القرن الماضي وأوائل الجاري ،وبعبارةٍ أَصَح في فترة ما بين ثورة 1871م والحرب العالميَّة الأولى ـ ضَحَّوْا في سبيل أفكارهم، وتحمَّلوا ما تَنُوءُ من حملِه الجبال، ولكنَّهم ابْتُلُوا بخَلَفٍ لم يُنصِفْهُم، بل الكثير من كُتَّابِ الخَلَف يَرمُون الجميع بأنَّهم كانوا فقهاء جامدين، يعيشون في أكناف الدولة وأعوانها، إمَّا

موظَّفِين أو مُقَدَّمين لمختلف الطرق الصوفية، وهذا افتراءٌ على التاريخ، وجهلٌ وتعمُّدٌ لتزييف الواقع، كما أنَّ كثيراً من الباحثين يتناسون ذِكر القوانين الاستثنائية الجائرة التي كانت تخضعُ لها البلاد قبل الحرب العالمية الأولى، والتي كانت تُخَوِّلُ لأيِّ رئيس مجلسٍ بلدي فرنسي أن يحكم بالسِّجن والإبعاد على مَن شاء مِن المسلمين، ففي هذه الثورة وُجِد رجالٌ جابهوا الظلم والجَوْرَ في سبيل إعلاء كلمة الحقِّ بثبات وشجاعة، ومَن نجده من الخلف في زمنِ الحرية والشَّجاعة يُمكنه أن يجاري الشيخ **عاشور** عند قوله: «فاستَعجلتني على ذلك مصيبة النَّفي والتَّغريب، واسترهقتني عليه مَشِيبَةُ السجن والتَّعذيب، مُدَّة سبعة عشر عاما، تقِلُّ أو تزيد أشهرًا وأيَّامًا ... الخ».

فليتَّقِ اللهَ بعض كُتَّابِنا الذين يُصَوِّرُون لنا ماضينا على حسب ما يتصوَّرُونَه، أو تصوَّره غيرُهم مِن الذين يُحِبُّون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا على حِساب التَّاريخ.

توسَّعتُ نوعاً ما في ترجمة الشيخ **ابن عاشور** الخَصْم اللَّدود لـ: **صالح ابن مهنا،** وقد ذَكرتُ أنَّه بالغ في حَمْلتِه على **صالح بن مهنا**، ومن ذلك قولُه:

تجـاوز إبلـيسَ اللَّعـين وصِـنْفَهُ ... وجاوزَ أَجْـوَانَ الخـدوع ووصـفَه

بِـمَا عَرَّفينـا أرغـم الله أنفـه ... عَجِبـتُ لِأقـوامٍ يُصَـلُّونَ خَلْفَـه

وَسَائِرُ مَا صَلَّوا اقْتِدَاءً به بَطَل

لَقَـدْ بَـانَ زِنْـدِيقاً تُبَـاحُ دِمَـاؤُهُ ... عَلَى كُلِّ رَأْيٍ لاَ يَصِحُّ اقْتِـدَاؤهُ

فَمَنْ أَمَّهُـمْ دَهْـراً يَطُـولُ أَدَاؤهُ ... عَلَيهِمْ بِإِجْمَـاعِ الْعُلُـومِ قَضَـاؤهُ

كَمَا أنَّ أَجْوانُ الْخَبيث الذي دَغَلْ

عَلَى خِدْمَـةِ النَّـاموسِ في حَرَكَاتِـه ... فغـرَّ أُناسـاً فاقْتَـدَوْا بِصَـلَاتِهِ

ولَكِـن هـذَا زَادَ فـوقَ صِـفَاتِهِ ... خُصُوصاً وقَدْ حَاطَ الْجُذَامُ بِذَاتِـهِ

وَشَعْشَعَ رِيحُ القَيحِ مِنْهُ حَتى أطل

حَوَى جِسْمُهُ صَدْرًا وظَهْرًا وشيَّناَ ذِرَاعــاً وسَــاقاً مِنْــهُ حَتَّــى تَلَوَّنَــا
عَلَى زرقة مِنْ جِيفَـةِ الْكَلْـبِ أَنْتَنَـا حَكَـى لِي ثِقَـات إِنَّــه إِنْ يَجُـز بِنَـا

عَلَى الصَّفِّ آذَانَا بِأَخْبَث مِنْ بَصَلْ

ولْنَرجع إلى الحديث عن بقيَّة ترجمة الشيخ **صالح ابن مهنا**، فإنه علاوة على تعليقه على **رحلة الحسين الورثيلاني** المطبوعة في **تونس**، فله مؤلَّفات أخرى، منها: (**فتح الرَّحيم الرَّحمـٰن شرح نصيحة الإخوان**)، قال في تقديمه ما يلي: «فيقول الفقير إلى ربِّه ذي المِنَّة، عبيد الله صالح بن محمد بن مهنة، القسنطيني الأزهري ... وقد كنتُ اطَّلعتُ على **النصيحة** المنسوبة للعالِمِ الإمام القدوة الهُمام الشيخ سيدي الحاج **أحمد المبارك القسنطيني الحنصالي** شيخ الطريقة الحنصالية، فوجدتُها قد احتوت مع صِغر حجمها على علوم غزيرة، وتكفَّلَت مع لطافة جرمها بآدابٍ كثيرة، فخطر ببالي أن أضع عليها شرحاً، وسمَّيتُه بـ: (**فتح الرَّحيم الرَّحمـٰن شرح نصيحة الإخوان**) »، إلى أن يقول في ختامه: «و وافق الفراغ مِن تبييضه، ليلة خَتْم تدريسه، في غُرَّة ذي القعدة الحرام، سنة ألف ومائتين وخمسة وتسعين، وقد جمعتُه مِن كتبٍ كثيرة، التَّفاسير: **البيضاوي**، **والخازن**، **والنَّسَفِي**، **والجواهر الحِسان**، كتب الحديث: **البخاري**، ومسلم، **الجامع الصغير**، **الشِّفاء**، **الشَّمائل**، **التَّرغيب والتَّرهيب**، **ابن أبي جمرة**، **الأربعون حديثا**، **السَّمرقندي**، كُتب التَّوحيد: **الصُّغرى**، **والجوهرة** وشرحها، كُتب التَّصَوُّف: **الإحياء**، **القشيري**، **السهروردي**، **الحِكم**، **ابن عبَّاد**، **المدخل**، وغير ذلك»، وقد طُبع هذا الكتاب بالمطبعة البارونية سنة 1312م.

إِنَّني أختِم هذه الترجمة بما نَشَرَتهُ (**مجلة المُلتقى**) التِّي يُصْدِرُها المركز الثقافي بأكاديمية **قسنطينة** بعددها السابع (1391هـ/ 1971م) بقلم صديقِنا الأستاذ **سليمان الصَّيد**

المحامي الذي له الفضل في اهتمامه بدِراسة ترجمة هذا العالم العبقري الذي أهمله قومُه، وعلى ذِكر هذه الدِّراسة، أَذكُرُ أنَّنِي عند زيارتي في السنة الماضية إلى مدينة **قسنطينة**، حيثُ أَلقَيتُ مُحاضَرتَين بـ(الجامعة الشعبيَّة) تعهَّدتُ بإِلقاء محاضرة في ترجمة **صالح ابن مهنا**، وبعد اجتماعي بالأخ الأستاذ **سليمان الصَّيد** واطِّلاعي على ما بذَله من جهود في دراسة حياة هذا الرَّجل العظيم الذي ضمَّن دراسته أطروحته لنيل الدكتوراه، اقترَحْتُ عليه أن يتولَّى هو هذه المحاضرة، فقَبِلَ إلَّا أنه عند عودَتِه اعتذر للمشرفين على محاضرات الجامعة الشعبية، فاقترحوا عليَّ إِنجاز ما كنتُ وعدتُهم به سابقا، ففَعَلْتُ، وإنِّي أتمنَّى أن تُنشر دراسة الأستاذ **سليمان الصيد** لإِفادتنا بترجمة حياة عالم من أكابِر ومفكِّري علماء عهده، لاقى في سبيل آرائه ما لاقاه، ولكن نَشْرُ هذه الدِّراسة التِّي اتَّخذَها موضوعَ أطروحةٍ علميَّةٍ هي مثلٌ أعلى لُمثقِّفِينا من الجِيل الصَّاعد حتى يجعلوا هدَفهم إحياء تُراث بلدهم الُمهْمَل، إذ كثيرًا ما يشتغل بعض شبابنا بشخصيات أجنبية هي في غِنىً عنهم، إذ مُواطِنُوهم يُعَدُّونَ بالملايين، وهم أولى منهم بمثل هذه الدِّراسات، ويصدق على هؤلاء الُمتطفِّلين، المثل العامِّي عندنا الذِّي يقول: «تَرَكَتْ زَوْجها ممدُود، وذهبت تعزِّي في محمود».

وَلنخْتِم هذه الدِّراسة بما نَشَرَتْهُ (**مجلة الملتقى**) القسنطينية المذكورة بقلم الأستاذ **سليمان الصيد** الذي استوعبَ ترجمةَ حياة الُمتَرْجَم **صالح ابن مهنا**، فقال: «إنَّه من مواليد قرية **العشرة** كركرة، نواحي القُل، وذلك سنة 1854م، وتوفي بـ: **قسنطينة** سنة 1910م »، ثمَّ ذكر أن تاريخ الولادة المذكور ـ أي: 1854م ـ غير صحيح، وأرجع ذلك إلى سنة 1840م، ومن الأدلَّة التي رجَّحَ بها تاريخ سنة 1840م، هوأنَّ الُمتَرْجَم التحقَ بـ: **جامع الزيتونة** سنة 1277هـ، كما أنَّه التحق بـ: **الأزهر** وأخذ عن الشَّيخ **حسين المرصفي** سنة 1280هـ، وأنَّ الُمتَرْجَم هو الذي سجَّل تاريخ وِلادته بسِجِلِّ بلدية **قسنطينة** سنة 1889م، وذكر أنَّه مِن مواليد 1854م، وقد نقص من تاريخ ولادته

لأسبابٍ دَعَتْهُ إليها التَّراتيب الإدارية، مِن أهمِّها تَولِيَتِهِ وظيفة الإمامة، كما تعرَّض الأستاذ **سليمان الصيد** لذكر شاهد قبره الذي كُتِب عليه ما يلي: «هذا قبر صالح بن مهنا المتوفَّى في ربيع الثاني 1328هـ».

ثم قال الأستاذ **الصيد**: «مِن غريب الصُّدف أن ضريح خصمِه **عاشور** الذي تُوُفِّيَ سنة 1929 هـ يبْعُدُ عنه بنحو خمسة أمتار».

هذه صفحات ذكرناها من تاريخ رجل يُعَدُّ في طليعة رجال الفِكر، خاض معركةً تألَّب عليه فيها خصومٌ أقوياء، وكان سلاحه الوحيد هو إيمانه بالله، وبأنَّه انتصر لِما كان يعتقده أنَّه هو طريق الحق .

قد وصَلَنَا أيضا بعضُ تآليف تبادلها **صالح بن مهنا** مع مُعاصِرِيه، ولم ندر هل سَبَقَتْ المعارك التي تحدَّثنا عنها أم تأخَّرت عنها، نقتصر على ذكر واحدةٍ منها، وهي أنَّ العالم الشيخ الحاج **أحمد ابن دادا** المشهور بـ: **أبي الهدى،** أصلُه مِن بلدة **العلمة** نواحي **سطيف،** تخَرَّج من **القرويين** بـ: **فاس** وانتصبَ إثر رجوعه إلى البلاد بـ: **معهد آل الشيخ حمُّودي** بـ: **بني ورثيلان،** ألَّف الشيخ **أبو الهدى** رسالةً في مدح الأشراف، سمَّاها: **(ضوء الشمس)**، وقد ردَّ عليه الشيخ **صالح بن مهنا** بتأليفٍ سمَّاه: **(تنبيه المغترِّين في الردِّ على إخوان الشياطين)**، والغالب أنَّ تبادل هذَين التَّأليفَين كان قبل الحملة على تعليق المُتَرْجَم الذي علَّق فيه على **(الرِّحلة الورثيلانية)**.

إلى هنا ننتهي مِن ترجمة حياة رجل عبقري تألَّب عليه معاصروه وأرادوا أن يُقَوِّلُوهُ ما لم يقُله، ولا نتتبَّع الضَجَّة التي أحدثَها كتاب شيخ الإسلام **المهدي الوزَّاني الفاسي،** ويكفينا دليلاً على سوء نَوايا بعض الرُّدود التي قرَّض بها أصحابها تأليف **الوزَّاني** أنَّ كثيرا منها وجَّهَ كُتَّابُها شتائِمَهُم لوالد المُتَرجَم الذي كان عندما ظهر الخلاف مِن الموتى، ولم يعرفوا عنه شيئا، ولم يكن مِن رجال العلم ولا الرَّأي، كما أنَّ الشيخ **عاشور** نفسَه

الذي تبنَّى المعركة بالجزائر وأَظهر أنَّ الداعي لذلك غيرتُه على الشَّرف الذي داسَه خصمُه بِزَعمِه، إذ لم يفارق الشيخ **عاشور** الحياة حتَّى هجا على عادته ـ هجوا مُرًّا ـ نقيب الأشراف بالجزائر في عهده، وهو الشيخ **قدُّور** نجل العلاَّمة المُحَدِّث الشَّيخ **أحمد الشَّريف الزَّهار** المشهور بمَواقفِه السِّياسِية، إذ تولىَّ الكتابة عِند **الأمير عبد القادر،** والحاج **أحمد باي قسنطينة،** كما اشتهر بتأليفه الذي ضمَّنه **(مذكِّراته)** التِّي حقَّقها ونشَرها الأستاذ **أحمد توفيق المدني** أخيرًا، وكان **آل الزَهَّار** يتوارثون نَقابة الأشرافِ بعاصمة **الجزائر** طيلةَ العهدِ التُّركي ـ أي: مدَّة ثلاثة قرون ـ.

وإنَّنا وإن لم نطَّلِع على هجو الشيخ **عاشور** لنقيب الأشراف بالجزائر فقَد اطَّلعنا على ردِّ العلاَّمة الشيخ **عبد الحليم بن سماية،** الأستاذ بالمدرسة الثَّعالبية بالجزائر في عهده عليه، وهذه أبيات مِن منظومة **عبد الحليم بن سماية،** قال فيها:

أعاشور عاشر الشَّر ما دُمْتَ في الورى	فإنَّـــك بـــذَّاء غبـــيٌّ مغفَّــــلُ
تظـــنُّ بـــأنَّ الشــرَّ أنـــت وكيلُـــه	وللشــــرِّ أقـــوام بهـــا يتمثَّــــلُ
لـــئن كنـــتَ في قـــوم أروك مذلَّـــةً	فســوف تــرى ذُلًّا هنــا منــه أَكمــل
ألافاتَّئِـــد عاشـــور إنَّـــك نـــابح	بـــآل النَّبـــي أصــــله متأصِّـــــل

كان الشيخ **عاشور** هجَّاءً، لم ينجُ مِن شظاياه إلاَّ القليل مِن مُعاصريه، ومن جملة مَن هجاهم الشيخ **المولود بن الموهوب** (مفتي قسنطينة) الذي كان يتَّهِمُه بأنه تعرَّض له ومنَعه مِن التَّدريس في مساجد البلدة، وكان ردُّ الفعل أن نَظَمَ الشيخ **المولود** بيتَين ونشرَهُما بجريدة **(كوكب إفريقيا)** ـ فيما أظنُّ ـ التي كان يُديرها بالعاصمة الشيخ **محمود كحُّول القسنطيني،** قال فيهما:

قـال لي خـلِّي وقـد كنَّـا مررنـا	بكلـــب نـــابح بـــدر السَّـــما
ذا عجيب قلت: ذا أعجب مِن	حاســـد لم يُرْضِـــهِ مـــا قُسِّـــمَا

فردَّ عليه **عاشور** وحشر معه بعض أصدقائه، فقال:

شرح بيتـــين بتخميســـهما   بعـد إعلانـات تشـطيرهما
يـتجلَّى مـنهما خبـث كـما   يـــتجلَّى فســـار بهـــما

اللَّئيم بنُ اللَّئِيم اللُّؤما

الدَّعِيُّ المُدَّعِي وصفَ الشَّرف   مـا لـه والله في العـرب طـرف

فتقفَّاه ابنه فيها خرف

كان في محكمـة الشَّرع (الوجيـه)   قتـل الكلـب أبـو هـذا السـفيه
حاشى من لم يدر مقصود الشَّقي   أنـــه حمـــدان مثـــل الطـــولقى
يـا عـلي بـن أبي الأحبـال في   ظهـر ضـبي لـك ضرب البنـدق
خـوف أن يعجـف حتـى هرمـا   لـو كـلاب فوقـه قـد سـلحت
وقـرود عنـده قـد شـطحت   وخصوصـا قـرد ذلـك الأشـأما

وهذا لا يمنعنا من الاعتراف للعبقري الفذِّ الشيخ **عاشور** بقيمته وقيمة آثاره، سواء التي مدحَ فيها أو ذَمَّ، فإنَّ هناك دواعٍ كانت تُبَرِّرُ له ذلك، إلاَّ أنَّ مُعاصِرينا أهملوا هذا التُّراث الذِّي لا يقِلُّ عن التُّراث العالمي، وقد رأينا أنَّ في الوقت الذي بَلَغَ فيه التَّعصُّب المذهبي أشُدَّه، وأفتى بعض العلماء بحرق كتب المُخالفين لهم في الرَّأي، احتفظ لنا التاريخ بآثار **ابن قزمان** و**الفتح ابن خاقان** وغيرِهما مِن أئمَّة الأدب، الذين لم ينج من انتقادهم وسُخريَّتهم اللاَّذعة كبار العلماء والفقهاء والمُحَدِّثِين، وحتَّى الملوك والسَّلاطين.

وإهمال التُّراث لا يُشَرِّفُ البلاد، وما لنا نتحدَّثُ عن التُّراث في الوقتِ الذي شعرنا بعد استقلال البلاد المُظَفَّر الذي أعقب احتلالاً دام قُرونا، إذ لا ينبغي أن نطرحَ مِن

حسابنا حوالي ثلاثة قرون سبقَت الإحتلال الفرنسي، كان الإِسبان يحرِقُون فيها ما عثروا عليه مِن الكتب، حتَّى إنَّهُم حرَّقوا خزائن **جامع الزَّيتونة** بِمَحْضَر ومشهد مَلِك البلاد **الحسن الحفصي**، الذي استنجدَ بهم ليُخرجوا **خير الدِّين** كما هو مشهورٌ في كتُبِ التاريخ، وقد اشتهرت **قسنطينة** بخزائن الكتب التي قلَّ أن يُوجدَ نظِيرُها في بلادِ المغربِ العربي، وتوارثَ علماؤُها وأبناءُ أُسَرِها تلك الخزائن، وأين هي الآن ؟ وماذا استفادَ مِنها أربابها أو استفادَته البلادُ مِن ذلك التُّراث، اللَّهُمَّ إلاَّ ما يُعْثَر عليه في بعضِ أسواقِ الخردَة، وما لنا نذهبُ بعيدا، وقد اطَّلَعتُ بنفسي على بعضِ كُتُب خزائن المرحوم الشَّيخ **عبد الحميد ابن باديس** عليها خَطُّهُ وخاتَمه بِيعَت بِدَورها في أَسواقِ الخردَة والبلادُ تتنعَّمُ بحُرِّيَتِها واستِقلالها **!**

أبو عبد الله محمد بن خميس التِّلمساني
(650- 708هـ/1253- 1309م)[1]

هو الشَّاعر الفيلسوف أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن خميس الحجري، حجر ذي رعين الحميري التلمساني، اعتنى بترجمته كبار المفكِّرين والباحثين مِن معاصريه ومَن أتى بعدهم، ولا زال معين البحث عنه لم ينضب بعد، ومن ذلك أن بعض المعاصرين حاولوا مواصلة دراسة آثاره إلا أنهم لم يصلوا إلى أهدافهم، وبقيت الجوانب المجهولة من حياته لغزا، ترجم **ابنَ خميس** مِن القُدامى **لسانُ الدين ابن الخطيب السَّلماني**، في تأليفه: **(الإحاطة في أخبار غرناطة)**، و**(عائد الصلة)**، ونشر أهم أثر مِن آثاره، وهي رسالته المفتتحة بقوله:

عجبـا لهـا أيـذوق طعـم وصـالها   مَـن لـيس يأمـل أن يمـرَّ ببالهـا

وأنـــا الفقـــير إلى تعلَّـــة ســـاعة   منهـــا وتمنعنـــي زكـــاة جمالهـــا

وقد اقتصر **ابن الخطيب** على نشر هذه الرسالة مِن دون أن يتعرَّض للتعريف بها، وعلى الأقل ذكرِ مخاطب **ابن خميس**، أو الظروفِ التي كتبها فيها، وقد لفت الأنظار إلى هذه الرسالة **أحمد المقري التلمساني** في تأليفه: **(أزهار الرِّياض في أخبار القاضي عياض)**، بعدما ذكر له ترجمة وافية، كما ترجمه في: **(نفح الطيب)** ونشر له عدَّة قصائد، إلا أنه لم يذكر عن الرِّسالة شيئا، رغم أنه كاد أن يستوعب جميع ما نشره عنه مترجموه،

---

(1) **الأَصالة**: العدد: 49/ 50، رمضان ـ شوال 1397هـ/ سبتمبر ـ أكتوبر 1977م، السنة: السادسة، ص: 2 ـ 12. (ع)

ومن الباحثين القدامى الذين كانوا في طليعة مترجمي **ابن خميس أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الحيحي** في **(رحلته المغربية)**، وقد تعرَّف به عند مروره على **تلمسان** في ابتداء رحلته سنة 688هـ، وفي ذلك قال: «وما رأيت بمدينة تلمسان من ينتمي إلى العلم، ولا من يتعلق به بسبب سوى صاحبنا أبي عبد الله محمد بن محمد بن خميس، وهو فتى السن، مولده عام خمسين، وله عناية بالعلم مع قلة الراغب فيه، والمعين عليه، وحظ وافر من الأدب، وطبع فاضل في قرض الشعر....»، إلى أن قال: «...وكنت حين وردتها قد أقمت بها منتظرا للركب، فكنت آنس بابن خميس، وأكثر مجالسته ومفاوضته، وأعجبني ذهنه وحاله، فإني وجدته على حال انزواء وتقلل من الدنيا » اهـ.

كان **العبدري** كما ذكرنا هو الكاتب الأول الذي نوَّه بشأن **ابن خميس** الذي كان مجهولا عند طبقات المثقَّفين ببلاده، رغم أنَّ بعض آثاره ومنها رسالته المفتتَحة بقوله:

عجبا لها أيذوق طعم وصالها   مَن ليس يأمل أن يمر ببالها

بلغ صداها إلى مصر، حيث حكى ذلك **العبدري** في **(رحلته)**، والذي اهتمَّ بترجمة **ابن خميس** مِن القدامى واستوعب جلَّ ما كتب عنه **أحمد المقري التلمساني**، الذي أفادنا بما كتبه عنه **ابن خاتمة الأندلسي** في كتابه: **(مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية)**، كما أفادنا أن **أبا عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمي** جمع ديوان شعره في مجموع سماه: **(الدُّر النفيس في شعر ابن خميس)**.

هذا في الجملة ما وصلنا مِن مترَجمي **ابن خميس** القُدامى، أما المتأخِّرون فقد ترجمه الأستاذ **محمد بن أبي شنب الجزائري**، والأستاذ **عبد السَّلام بن مزيان التلمساني**، فالأستاذ **عبد الوهاب ابن منصور** (مؤرِّخ الدولة المغربية) في دراسة قيِّمة سماها: **(المنتخب النفيس من شعر ابن خميس)**، وقد ركَّزها على شرح رسالته المنشورة في: **(الإحاطة)** لـ: **لسان الذين بن الخطيب التلمساني** المتحدَّث عنها، ودعَّمها بكثير مِن

قصائده، إلا أنَّ محاولته لتحليل الرِّسالة وشرحها ارتطمت بالغموض الذي اكتنفها، حيث اقتصر ناشروها ابتداء مِن **لسان الدين بن الخطيب** بذكرها مِن دون أن يتعرَّضوا لها ولَو بِكلمة كما تقدَّم لنا ذلك، وقد قدَّم الأستاذ **عبد الوهاب بن منصور** اعتذاراته لقرَّاء دراسته، وبيَّن أنَّ محاولةَ شرحه لا تعتمد على مَصدَرٍ موثوق وإِنَّما هي مجرَّد افتراضات وتصوُّرات، بِخلاف الأُستاذ **عبد السلام بن مزيان** الذي قدَّم دِراستَه عنه في **(مؤتمر المستشرقين)** المنعقد في **تلمسان** سنة 1936م، وقدَّم افتراضات كحقائق مِن دون أن ينبِّه قرَّاءَ دراستِه مِن أنَّ شرحَه هو مجرَّد اختيارات لا تَعتمِد على رواية، ولما ظهر كتاب: **(تاريخ قضاة الأندلس)** لـ:**أَبي الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي** الذي حقَّقه ونشره المستَشرِق الفرنسي **ليفي بروفنصال** (مدير معهد الدراسات الإسلامية بجامعة باريس) ـ طبع دار الكتاب المصري بالقاهرة سنة 1948م ـ وكان ضِمن القضاة المتَرجَمين قاضي **تلمسان** محمد بن منصور **ابن هدية القرشي**، وذكر أنَّ مِن جملة مآثره: شرح رسالة **ابن خميس**، وفي ذلك قال: «... كبير قطره في عصره نباهةً ووَجاهَة، وقوَّةً في الحقِّ وصَرامة، وكان أَثيرا لدى سلطانه، قلَّده مع قضائِه كِتابةَ سرِّه، وأَنزلَه مِن خَواصِّه فَوقَ منزلة وُزارئه، فصار يُشاوِرُه في تدبير مُلكِه، فقلَّما كان يُجري شيئاً مِن أُمورِ السُّلطنة إِلَّا عَن مَشورته، وبعد استِطلاع نَظره، وكان أَصيلَ الرَّأي، مُصيبَ العقل، مذكِّراً سلطانَه بالخير، مُعينا عليه، كاتباً بليغا ينشئُ الرَّسائل المطوَّلة في المعاني الشَّاردة، ذا حظٍّ وافر مِن علمِ العربية واللغة والتَّاريخ، شرحَ رسالةَ **محمد بن عمر بن خميس الحجري**، استفتح أولها بقوله:

عجبـا لهـا أيـذوق طعـم وصـالها ... مَـن لـيس يأمـل أن يمـرَّ بِبالهـا

وأنـا الفقـير إلى تعلَّـة سـاعة ... منهـا وتمنعنـي زكـاة جمالهـا

إلى آخر الرِّسالة مِن نظمٍ ونَثر، شرحاً حسنا أَتى فيه بفنون العلم، وضروبِ الأَدب

بما دلَّ على بَراعتِه، وكان جميلَ الأَخلاق، جمَّ المشاركة، مفيد المجالسة... الخ» اه.

ومما لاشكَّ فيه أنَّ هذا الشَّرح كان معروفا عند مترجمي **ابن خميس** الأَوائل، الذين مِن بينهم **لسان الدين بن الخطيب**، إذ هو مِن تلامذة **ابن هدية القرشي**، ولكن جلَّ ما وصلنا مِن مُترجِمي **ابن خميس** لم نجِد فيهم مَن ذكر هذا الشَّرح، رغم ذِكرهم وترجمتِهم لصاحبه، ومِن هؤلاء **أحمد المقري** الذي تَرجمَ ابن هدية القرشي ضِمن أساتذة جدِّه **محمد المقري** (قاضي تلمسان وفاس في عهده)، ولهذا لا نَستَغرِب إن عدَّ **شرح ابن هدية** في قائمة الكتب المفقودة، ولم نجِد له أثرا في المخطوطات التي تزخَر بفهارسها التآليف المخصَّصة لها، ومِن حسنِ الحظِّ أن ختَم المطاف بِنُسخة مِن هذا الشَّرح بإِحدى خزائن بيُوتاتِ العلم بوادي بجاية، وأَظهرَه صاحبه منذُ سنوات قليلة، فأَمكننا الإِطِّلاع عليه والإِستفادة منه، وهذا المخطوط نادر رغمَ نقصِ بعضِ الأَوراق منه، ورغمَ أنَّ مؤلِّفه صرَّح بأنه أَلَّفه مكرَها ومرغما، ولذا تعهَّد باقتِصاره على شرح وتحليلِ الجانبِ اللغوي، فإنه شرحٌ مفيد أنار لنا الجوانب الغامِضة مِن حياةِ ابن خميس.

وهذه فقرات مِن تقديم ابن هدية في شرحه بيَّن فيها الظُّروف التي أَقدم فيها على تأليفه، مع مِنهاجه فيه، قال: «أما بعد، فإِنَّ مَن ألزمنا الله تعالى للأَمر طاعته، وفرضَ على كلِّ أمره مؤتمر له منها استطاعته، أضفى الله علينا وارف ظِلِّه، وأضفى له عَوارف فضلِه، وطلب طلبته مثله أمر ممتثل، ثم أمر وأمر، وأمرُ الأَمير حكمٌ مُحكم، وعملٌ صالحٌ عِندَ أَهلِ العلم مُعتَمل، أن أتضمن له بتبيين معاني الألفاظ اللغوية، وتعيين ما يعنُّ مِن إِشارات الأغراض التاريخية، مِن رسالة الشَّيخ الأُستاذ الأديب **أبي عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن خميس الحجري** ـ حجر ذي رعين ـ الحميري، التي كتب بها إِلى مشرف مدينة **فاس** ـ أي: **أبو الفضل محمد بن يحيى بن عتيق العبدري** ـ شاكرا له، ومُثنيا عليه، وشاكيا له عصابةً أساءوا ـ تعصُّبا ـ بزعمه إِليه،

ضمَّنها منظوما ومنثورا، وأَودَعها مثورا ومأثورا، صعَّد في ذلك وصوَّب، وخطَّأَ وصوَّب، وعلا وسفل...الخ» اهـ.

وكان الملك الذي أرغَمه على هذا الشَّرح [هو] الملك أبو تاشفين الأول، من ملوك بني زيان، وهذا الملك هو الذي بنى منارة الجامع الأعظم المالكي بعاصمة **الجزائر**، وفي عهده احتلَّ الملك **أبو الحسن المريني** مدينة **تلمسان** بعد حِصار طويل، ورغم هذا الحصار والقوَّة التي أمكن جمعها طيلة أيام الحِصار، رفضَ الملك **أبو تاشفين** الاستِسلام وقاوَم إلى أَن قُتِل في المعركة كبقيَّة أفرادِ جيشِه.

مِن هذا الفقرات أَفادنا الشَّارح اسم المخاطَب في الرِّسالة، وهو مشرف مدينة **فاس** **أَبو الفضل محمد بن يحيى بن عتيق العبدري** الذي تركَ بعضَ مَن حاولَ شَرح هذِه الرِّسالة في متاهاتِ الافتراضات والاستِنباطات، والتي بينها وبين الحقيقة بُعدٌ شاسع، فالأُستاذُ **عبد السَّلام ابن مزيان** عِند شَرحه لبيت **ابن خميس** التي قال فيها:

اعلم أَبا الفضل بن يحيى أَنَّني　　　من بعدها أجرى على آسالها

قال: «إِنَّ الفضل هذا هو ملك مِن ملوك بني زيان »، وقَد استَبعد عبد الوهاب ابن منصور في: (**المنتخب النفيس**) هذا الافتراض ونبَّه عليه، وقد وقعَ هو أيضا في نفس الغلطة عِندما قال في شرحه للبيت الذي قال فيه **ابن خميس**:

وأنل أبا البركات من بركاتها　　　وادفع محال شكوكه بمحالها

بعد أن قال:

خذها أبا الفضل بن يحيى تحفة　　　جاءتك لم ينسج على منوالها

ما جال في مضمارها شعر ولا　　　سمحت قريحة شاعر بمثالها

وأنل أبا البركات ...

فظنَّ أنَّ أبا البركات هذا هو: «**أبو البركات ابن عيشون البلفيقي** ـ تلميذ **ابن خميس** ـ »، والفرقُ بينَهما أنَّ الأستاذَ عبد الوهاب بن منصور قدَّم اعتِذارَه لقرَّائه، لافِتاً انتباهَهم إلى أنَّ تعاليقَه مجرَّد استِنباطاتٍ وافتراضات، ما دامت تَعوزه المصادر الموثوقة.

أزاحَ شرحُ **ابن هدية** الغموضَ الذي اكتنفَ حياةَ **ابن خميس**، وترك بعضَ مترجميه ينسبه إلى السِّحر والشَّعوذة، والبعضَ الآخر ينسبه إلى الزُّهدِ والتصوُّف، رغم أنَّ ترجمتَي **لسان الدِّين بن الخطيب** و**العبدري** جَليَّتان في الإشادة بقيمته ومكانته، وقد تقدَّم لنا ما قاله عنه **العبدري**، أما **لسان الدين بن الخطيب** فإنه ترجمه في: **(عائد الصِّلة)** وقال: «كان (رحمه الله) نسيج وحده، زُهداً وانقباضا، وأدباً وهِمَّة، حسن الشَّيبة جميل الهيئة، سليم الصَّدر قليل التَّصنُّع، بعيدا عن الرِّياء، عاملا على السياحة والعزلة، عارفا بالمعارف القديمة، مضطلعا بتفاريق النّحل، قائما على العربية والأَصلَين، طبقة الوقت في الشِّعر، وفحل الأوان في المطوَّل، أَقدر النَّاس على اجتِلاب الغريب... الخ».

ظهر مِن خلال شرح **ابن هدية** أنَّ **ابن خميس** كان ينتصِر للفلاسفة ويشيد بأئِمَّتها، والفقهاء إذ ذاك ـ وفي مقدِّمتهم **ابن هدية** ـ كانوا يحكمون على الفلاسفة بالزَّندقة والكفر، وهذه التُّهمة التي أُلصِقَت بـ: **ابن خميس** هي مِن الأسباب التي جعلته يعيشُ في بلادِه منزَوِياً منعزلا مجهولا في الأَوساط العِلمية، مما جعل **العبدري** يقول في **(رحلته)** عنه: «وجدتُه على حالِ انزواءٍ وتقلُّلٍ مِن الدُّنيا »، إذ كان **ابن خميس** قريب عهدٍ بالِامتحان الذي أصابه بمدينة فاس، حيث نصب له فقهاؤها كمينا مثل فيه أمامَ محكمتهِم، فحكموا عليه بالكفر والزَّندقة، إذ لما حمي وطيس المحاكمة دافع **ابنُ خميس** عَن أرائه بِشَجاعة وثَبات، ممَّا أدى محاكموه أن يسجِّلوه في دفتَر الزَّنادقة، وتسجيلُ المحكومِ عليه في هذا الدَّفتر، عبارة عَن إباحة هدر دمِه، ولم يُنجِ **ابن خميس** مِن تَنفيذ حكم الإِعدام عليه إلَّا مغادرته مدينة **فاس** تحت جناح الظَّلام كما سنبيِّن ذلك، وبعدَ

وصوله إلى **تلمسان** وجدَ الحاكمَ بأَمره فيها القاضي **ابن هدية القرشي** الذي قال **النَّباهي** في ترجمته: «...وكان أَثيرا لدى سلطانه، قلَّده مع قضائه كتابة سرِّه، وأنزله مِن خواصِّه فوق وزرائه، فصار يشاوره في تدبير مُلكه، فقلَّما كان يجري شيئا مِن أمور السُّلطنة إلا عن مَشورته وبعد استِطلاع نظره» اهـ.

ولم تكن منزلة ابن هدية ـ الخصم الَّلدود لـ: **ابن خميس** ـ مكانته السِّياسية فقط، بل هو علاوة على ذلك [فهو] سليل الفاتح الشَّهير **عقبة ابن نافع الفِهري**، والرأي العام يقدِّس عقبة وبنيه، ومِن سوء حظِّ **ابن خميس** أنَّه كان مطَّلعا على محاكمتِه بفاس، ولنترك لـ: **ابن هدية القرشي** الكلمة حيث قال عند شَرحه لبيت **ابن خميس** في رسالته:

وأَنـل أبـا البركـات مِـن بركاتهـا   وادفـع محـال شـكوكه بمحالهـا

قال: «أبا البركات ـ يعني الشَّريف أبا البركات ـ **محمد بن علي الحسني** المعروف ببلده فاس بـ: **الشواذكي**، وكان له بحثٌ في علم الكلام، نعم وكان له بعلم الِّلسان بعض الاعتِناء والاهتمام، وبسبَبِه وقعَت مخاطبةُ **أَبي عبد الله ابن خميس أَبا الفضل ابن عتيق** بهذه الرِّسالة، إذ كان أبو البركات هذا هو متولِّي مناظرته حال حلوله بمدينة فاس واجتيازه بها، وأحسبُ ذلك ما بين الثَّمانين والتِّسعين وستمائة أو قَبلها بِسنين، والله أعلم، وبمدينة **فاس** التي كنت قاطنا بها إذ ذاك مع والدي (رحمهما الله تعالى) لسبب أوجبَ مفارقةَ الوطن يطولُ ذكره، وكانت المناظرة في عِلمَي الكلام واللسان، انقطع فيها **أبو عبد الله ابن خميس** حينئذٍ انقطاعَ مَن عزَّه الدليل وأعوزَه البرهان، فرسمه الشَّريف أبو البركات عند ذلك في ديوان الضَّلال والكفر، ووسَمَه مع ما وسمه الله به من التَّفلسف بانتحال الشِّعر، ولذلك ما أشار **ابن خميس** إليه في النظم من هذه الرسالة والنثر».

أما رأي الشَّارح ابن هدية في الفلسفة ومعتنقي مذاهبها فقد أَظهره عند شرحه لقول

ابن خميس: «وجأجأ بها من قدماء الحكماء كل أوحدي الأحوذية، فباتت تخب إليه وتوضع... الخ »، فقال: «والإشارة هنا بالحكماء القدماء إلى مثل مَن ذكره من متقدِّمي الفلاسفة الرؤساء **لعنهم الله ولعن الاهتداء بهديهم والاقتداء... »**، ثمَّ عقد ابن هدية فصلا بسط فيه القول عن الفلاسفة الإسلاميِّين وغيرهم عند شرحه لقول **ابن خميس** في رسالة: «وتحت هذه الأستار مخدرات أسرار أضربها الإسرار وطالما تكر معارفها الإنكار، ونقلت من صدور أولئك الصدور، إلى بطون هذه الأوراق في ظهور رقوق دفاتر فلسفيات معاني علومهم الرقاق» شرح **ابن هدية** هذه الفقرة بقوله: «والفلسفيات منسوبة إلى الفلسفة، وقال **ابن سيده**: الفلسفة الحكمة، وهو الفيلسوف وقد تفلسف، والفلسفة عند أهل السنة وكافة الأشعرية عبارة عن الزَّندقة البحتة والضلالة المحضة والكفر الواضح الناشئ عن مطلق الخلاف الواضح، وعلومها تنقسم إلى الغرض المطلوب منها، ستَّة أقسام: رياضية، ومنطقية، وطبيعية، وإلهية، وسياسية، وخلقية، بيَّنها الإمام **أبو حامد** (رحمه الله) في بعض تصانيفه، وبيَّن آفاتها، فأغنى ذلك عن تبيينها هنا، إذ فيه خروج عن الغرض المشتَرط، وكذلك ينقسم أصناف أربابها على كثرة فرقهم واختلاف مذاهبهم وتشعُّب طرقهم ثلاثة أقسام: الدَّهريُّون، والطبيعيون، والإلهيون، وكلهم زنادقة كفار، لعائن الله تترى عليهم».

وبعد أن بيَّن **ابن هدية** المنتسبين لهذه الأقسام الثلاثة وردِّ بعضهم على بعض، ختم فصلَه بقوله: «فوجب تكفيرهم وتكفير شعثهم من المتفلسفة الإسلاميِّين، كـ: **ابن سينا**، و**الفارابي**، وغيرهما من المهتدين بهديهم المقتدين برأيهم، عليهم لعنة الله أَجمعين» اهـ.

هذه فقرات مختصرة نقلناها من شرح **ابن هدية القرشي** للاستدلال بها على رأيه في الفلاسفة ومذاهبهم، نقتصر عليها ثمَّ ننتِقل إلى رواية **ابن هدية** عَن محاكمة **ابن خميس** في مدينة **فاس**، وقَد أفادنا عن هذا النَّوع من المحاكم التي سيق إليها **ابن خميس**، وقد

كان لروايته وزنها حيث إنه كان ساكنا بمدينة **فاس**، وقد أورد في روايته ما يثبت أنَّ **ابن خميس** جادل محاكميه حتى لم يبق منهم إلَّا رئيس الجلسة **أبو البركات**.

كان **ابن هدية** علاوة على رأيه في الفلسفة والفلاسفة الذين يحكم عليهم جزافا بالكفر والزَّندقة، يحتقر **ابن خميس** ويهنيه، ومن ذلك ردّه عليه عند شرحه لبيته الذي قال فيه:

وإذا انتسبت فإِنَّني من دوحة   تتقيل الأنساب فرد ضلالها

قال **ابن هدية** في شرحه: «... وهذا غلوٌّ مفرط وكذبٌ مورط، وكذا لعمري كل ما تقدَّم مِن قوله جرى هذا المجرى... الخ»، إلى أن قال عند شرحه للقسم النَّثري من الرِّسالة: «... ماجدا يملأ الدَّلو إلى عقد الكرب »، قال: «ومرادُ **ابن خميس** بهذا الكلام **الفضل ابن عباس بن عتبة ابن أَبي لهب** حيث قال:

مَن يُساجِلني يُساجِل ماجدا   يملأ الدلو إلى عقد الكرب

ثمَّ استرسل **ابن هدية** في حديثه فقال: «فأنتَ ترى ما في كلام ابن خميس هذا مِن القحَّة والجرأة على معاطاة الرِّفعة التي ناطته بمناط الخمول والضّعة، على أنه لم يقف هنا ولا جعله حدَّه، بل أضربَ عنه وقال بعده: لو لوحِظَت بقبائها الحجري رحلها، وساجلت بوفاء جدِّها ذي رعين إلا استوفت سجلها، فأَقول: ليت شِعري بِمَ يُهيمِن، وبحقوقِ مَن اعتصَم حين صرَّح بِخُبثِ خلقه، ونطق بسجية خَرقه، فلقد أَمر أمره، وطال وعرض فخره، فوا عجباً كيف ركب ذلك اللكع الهلباجة، في تلك الأَساليب هجاجه، ماشيا فيها رويدا، آمنا من أن يصادف في مضلَّات سباسبها كيدا، مع ما يعرف مِن أنَّه في معاناة معاني معارف الزَّندقة قطع ألسن، وأنَّ أديمه في الهجر استشن، إنا الله عز وجل الوازع، وقل الجازع، على أن فيما تقدَّم من السقط، ما يعد من هذا النمط، إذ كل ما أسس من رسالته وبنى، فإنما هذا المعنى إن تأمَّلته عنى، الَّلهمَّ إِنَّه خبط خبط عشواء، إذ ركب عمياء، ولو كان له بصر يؤدِّيه، وبصيرة تهديه، لما أبدى مثل هذا البيت

الذي أرداه وأفضى به إلى المقت... »، إلى أن قال مخاطبا **ابن خميس**: «وأما الفقه الشَّرعي فمعلوم أنك منه صفر الرَّاحة، بريء السَّاحة، لم تزل قاصرا على اجتناب أسبابه، قاصدا لاجتنابِ أربابه، معاداة له ومناوأة لمن حمله:

فلست منهم لـدى خـبر ولا خـبر ولست منـه لـدى ورد ولا صـدر

ولولا أنَّ الأَليقَ إِيثار الإِعراض من استتار مقاصدك السيئة والأعراض، لأَومأتُ من ذلك إلى ما يوجِعك منه عضّ الثِّقاف، ويرميك بثالثة الأَثافي، فإِنك مِن تَناولك هذا السِّجال، وتجاوُزِك في ذلك المجال، بين جهلٍ فاضح، أو كفر واضح، فاختَرَ وما فيهما حظٌّ لمختار... الخ» اهـ.

نكتفي بهذا القَدر مِن بيان بعض الجوانب المجهولة مِن صفحاتِ تاريخ حياة عبقريٍّ عاش في بلادِه مدَّةً طويلةً منزويا خائِفا يترقَّب مرور الأَخطار التي كانت تهدِّده إثر اتِّهام خصومه إِياه بالكفر والزَّندقة، والحكم عليه بالإِعدام، كان **ابنُ خميس** مِن قادة الفكر الممتازين بالشَّجاعة الأَدبية، وقَد ضربَ لنا أروعَ مثلٍ لذلك، حيثُ دافع عن رأيِه أثناءَ محاكمتِه بمدينة **فاس**، وأَفحمَ خصومَه حيث توارَى مُعظمُهم، ولم يبقَ في الميدان إلا رئيس المحكمة باعترافِ خصمِه الَّلدود **ابن هدية**.

وهكذا نرى **ابن خميس** الذي عاش مدَّة في ابتداء حياته موظَّفا بقصور ملوك بني زيان، ككاتب في ديوان الإنشاء، وكان في إِمكانه أن يرقى بسهولة إلى أعلى المناصب، أَبَت هِمَّته إِلَّا أَن يختار حياةَ التقشُّف والزُّهد بدلا مِن حياة القصور التي ضاق بها ذرعا، وحالت بينَه وبين ما كان يصبو إليه من حرية الفِكر، ولم يُبالغ معاصره **عبد المهيمن الحضرمي** الذي صوَّر حياةَ القصر بِقوله:

أَبَـت هِمَّتـي أن يـراني امـرؤ مـدى الـدَّهر يومـا لـه ذا خنـوع
ومـا ذاك إلَّا لأني اتقيـت بعـز القناعـة ذل الخضـوع

اختار **ابن خميس** عيشة الزهد والتقشف والعزلة بتلمسان، إلى أن واتته الظروف فغادرها تحت جناح الظلام، ثم ختم به المطاف بغرناطة ولم تنسه حياة البذخ والترف التي لاقاها بغرناطة **تلمسان** التي كان كلما ذكرها إلا وبكاها في قصائده التي أودعها نبضات قلبه وخلجات فوائده وقد استفاد التاريخ الثقافي التلمساني من هذه القصائد، قصيدة ضمنها معالم **تلمسان** فريدة في نوعها.

هذه هي الخطوط العريضة من ترجمة حياة **ابن خميس** التي وصلتنا، ولا شكَّ أن ما تبقى منها ـ وهو في حكم المفقود ـ مثل تراجم **ابن خاتمة** الأندلسي صاحب كتاب: **(مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية)**، وما كتبه عنه مواطنه أبو عبد الله محمد الحضرمي صاحب **(ثلاثيات البخاري)** الذي جمع ديوان شعره المسمَّى: **(الدر النفيس في شعر ابن خميس)**، وكلاهما مِن أعرف النَّاس به، إذ عاصراه ورافقاه في مدينة **المرية**.

كان أكثر الباحثين في تاريخ الأدب العربي وبالخصوص المهتمين بدراسة ابن خميس، يتطلَّعون إلى هذَين الأَثَرين، وقد أشيع بأن: **(الدُّر النفيس في شعر ابن خميس)** اكتشف، وقد هيَّأه مكتشفه للطَّبع، إلا أنها مجرَّد إشاعة، والذي اكتشف حقيقةً من آثار **ابن خميس** رسالة ثانية عزَّز بها رسالته الأولى ـ موضوع حديثنا ـ وبقيت هذه الرِّسالة مجهولة تماما، إلى أن اكتشفت منذ سنوات قليلة وهي بخطِّ **ابن خميس**، إذ كتبها قبل وفاتِه بست وعشرين سنة، فتاريخ إِرسالها من **تلمسان** كان سنة 682هـ، أرسل ابن خميس هذه الرِّسالة في وقت واحد مع رسالته الأولى التي أرسلها إلى مشرف مدينة فاس **أبو الفضل محمد بن يحيى بن عتيق العبدري**، والثانية ـ القريبة العهد بالاكتشاف ـ أرسلها إلى قاضي مدينة **فاس أبو غالب المغيلي**، ويظهر أنها بقيت في خزانة أبي غالب المغيلي حيث كتب ولده في ختامها: «إن هذه الرسالة أرسلها **أبو عبد الله ابن خميس** من **تلمسان** إلى والدي سنة 682هـ بعد رجوعه من **فاس** ».

والغالب أنَّ قاضي **فاس** ـ الذي كان مِن أصدقاء **ابن خميس** ـ احتفظَ بها خشية أن تجرَّ له التُّهمة، والرِّسالة الثَّانية في نفس موضوع الأولى، وأهم ما فيها الإِشادة بالفلسفة وأساطينها الذين كان يراهم المثل العليا لحرية الفكر، وهي كسابقتها في حاجة إلى دراسة معمَّقة، إذ الرِّسالة الأولى كما رأينا اقتصر فيها شارحها على الاهتمام بالناحية اللغوية، وإن فلتَت منه استطرادات، فهي لا تجاوزُ الهجوم على صاحبِها، ومحاولة نقض آرائه وتكفيره... الخ.

ولهذا فهي في حاجة إلى دراسة فنية، ولا يفوتنا في هذا المقال أن نختمه بما ختم به ابن خميس رسالتيه الأولى والثانية، صور في ختامهما انطباعاته عَن فقهاء فاس الذين نصبوا له كمينا وحكموا عليه بما هو معروف، قال: «أَقسمَ **أبو الفَضل** بما له على أَبي البركات مِن الفضل ذلك العراقي الأرومة، لا هذا الفاسي الجرثومة، وإن يك ذاك إسرائيلي الأصل، وهذا إِسماعيلي الجنس، أنَّ موطئ قدم أَبي غالبنا المذكور مِن فاسه الغرَّاء، لأَرفع وأَسنى مِن مَقعد رقوطيهم المشهور مِن **غرناطة** الحمراء، ومِن متبوَّء أبي أميتهم المرحوم من جنة جزيرة الخضراء، فبما لكت أبا الفضل من هذه العجرفة وألوك، أرأيت في عمرك مثل هذا الصعلوك، لا والله ما على ظهر هذه الغبراء من يتظاهر بمثل هذه المعرفة في بني غبراء، فأي شيء هذا المنزع إيش، لا حال لنا معك ولا عيش، من يصحبك على هذا الطيش، ما هذا الخبل، أخمار بك أم ثمل، ارجع إلى ما كنت بصدده وقيت الزَّلل، خذ في الجدِّ فما يليق بك الهزل، رقَّ غزلك فحك لنا منه أرق غزل، ماذا أقول؟ وأي عقل يطابقني على هذا المعقول، أفحَمَتني ـ والله ـ عَن مكالمتِكم هذه المِحن، ومنعني مِن طلبِ مسالمتكم ما لكم عليَّ في دنياكم هذِه من الإِحَن، إن تكلَّمتُ كلِمت، وإن استَعجَمتُ عجمت، أَمَا لهذه العِلَّة آس، أمَا لهذه الغيلة مُواس، ما حيلتي في طبع بلدكم الجاس، أَمَا يلينُ لِضَعفي قلبُ زمانِكم القاس، ما لهِذه الدمن، يا بني

خضروات الدمن، أظهرتم المجن فقلب لكم ظهر المجن، إن مربكم الولي حمقتموه، فإن زجركم العالم فجرتم عليه ففسقتموه، وإذا نجم فيكم الحكيم غصصتم به فكفرتموه وزندقتموه، كونوا فوضى فما لكم اليوم من سراة، واذهبوا من مراعيكم المستوبلة حيث ما شئتم فقد أهملكم الرُّعاة، ضيعتم السنن والشرائع وأظهرتم في بدعكم العجائب والبدائع نفقتم النفاق، وأقمتم سوق الفسوق على ساق، استصغرتم الكبائر، وأبحتم الصغائر، أين غنيكم الشاكر، يتفقَّد فقيركم الصابر؟ أين عالمكم الماهر، يرشد متعلِّمكم الجائر، مات العلم بموت العلماء، وحكم الجهل بقطع دابر الحكماء، جدِّد لنا شريعتك يا أفضل الشَّارعين، قم فينا بموعظتك يا أفصح التابعين، لا ـ والله ـ ما يوقظكم من هذا الوسن وعظُ الحسن، ولا ينقِذكم مِن فتن هذا الزَّمن إلا سيف صاحبه أبي الحسن، والسَّلام» اهـ.

الفقيه الحافظ
مصطفى الرَّمَّاصي الرَّاشدي الجزائري[1]

هو محمَّد بن عبد الله بن مومن الرَّمَّاصي المشهور بمصطفى الرَّمَّاصي، فقيه حافظ اشتهر في الأوساط الفقهية شرقا وغربا، ولا زالت إلى الآن آراؤه حجَّة عند فقهاء الجامعات والمعاهد الإسلامية.

اعتمد (**حاشيته الفقهيَّة**) الشَّيخ **الدَّردير** المصري، واتَّخذها مصدرا لشرحه على (**مختصر خليل**)، كما اعتمد الشَّيخ **البناني الفاسي** في (**حاشيته**) على **عبد الباقي الزَّرقاني**، ولا يخلو شرحٌ من شروح (**مختصر خليل**)، أو حاشية من حواشيه للمتأخِّرين، من النَّقل عنه وتدعيم حججه بأقواله.

كما امتاز مترجمنا **الرَّمَّاصي** بمناقشه آراء بعض فقهاء مصر، كالشَّيخ **عبد الباقي الزَّرقاني** المذكور، وشيخ الإسلام **محمَّد الخرشي**، فناقشهما الحساب، وأدَّته تلك المناقشة إلى وضع تأليف أحصى فيه غلطات **الخرشي** في شرحه على (**المختصر**)، ثمَّ صرَّح في بعض أجوبته برأيه فيهما فقال: «وأراك أيُّها السائل تحتفل بكلام **عبد الباقي**، وذلك بمعزل عن التَّحقيق، لأنَّ شرحه و**شرح الخرشي** لا نكترث بهما في بلادنا الرَّاشديَّة لعدم تحقيقهما، وعمدتهما كلام الأجهوري وهو كثير الخطأ» اهـ.

وهذا دليل على أنَّ كثيرا من فقهاء بلادنا كانوا مستقلِّي الرَّأي، فلم يكونوا عالة أو

---

(1) اعتمدنا في إدراج هذه المقالة على نسخة أصلية خطية، بقلم الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى)، تقع في (51) صفحة. (ع)

أبواقا يردِّدون ما وصلهم مِن فقهاء المشرق من دون نقد أو تمحيص، كما وصمهم بذلك بعض المعاصرين، وسنعرض لذلك بمزيد مِن البيان والتَّفصيل في آخر هذه الدراسة.

إنَّ مترجمنا **مصطفى الرَّمَّاصي**، رغم المكانة التي بلغها في حياته ببلاده، ورغم سمعته ببلاد المغرب العربي والمشرق، حتَّى إنَّه كانت ترد عليه في حياته الاستفتاءات من مختلف الأقطار، وكانت تآليفه من أثمن المصادر بعد وفاته عند أئمَّة (الأزهر) وغيرهم، ومع هذا فقد أسدل على آثاره ببلاده ستائر الإهمال والنِّسيان، ومن ذلك ما قاله الشَّيخ **أبو القاسم الحفناوي** في **(تعريف الخلف برجال السَّلف)** عندما أعوزته المصادر لترجمته وترجمة **عبد الرَّحمـٰن الأخضري** الذي لا يقلُّ عنه مكانة وسمعة وإنتاجا.

قال: «ولم أعثر على غير هذه الجملة من كتب التَّاريخ بعد البحث الطَّويل في مظانِّه، ومحاولة مساجن المؤلَّفات بكل حيلة و وسيلة لأنَّ المستحوذين عليها يفضِّلون بقاءها ذخيرة للأرضة على إفادة طالبيها بها واستفادتهم منها، ولا يبالون بما وراء ذلك، زاعمين أنهم باستعارتها فقدوا منها كتبا نفيسة المواضيع عزيزة الوجود، نسأل الله توفيقنا وإياهم لما فيه رضاه ».

ثم ختم **الحفناوي** فصله هذا بقوله: «لهذا السبب لم أقف على تراجم علماء مشاهير كالرَّمَّاصي والأخضري وغيرهما».

وقد حكى لي بهذه المناسبة الأستاذ محمَّد السَّعيدي المجاجي، مدير ثانوية السلام بالأصنام أنه عند نشوب ثورة التحرير صادفه الحال مديرا لمدرسة معسكر، حيث زاره المرحوم الشيخ **العربي بالقاسم التبسي**، وعند عودة الشيخ إلى **الجزائر** رافقه **المجاجي** وكان مرورهما على قرية **رماصة**، حيث يوجد ضريح **مصطفى الرماصي**، ولما علم بذلك الشيخ **العربي** دعا له بالرحمة، وذكر لرفيقه أن الرماصي له مكانة وشهرة في

الأوساط الأزهرية لم تنل منها الأيام، وتأسَّف على اندثار آثاره بالجزائر، فأجابه المجاجي بأن تأليفه الفقهي لا زال موجودا، فبهت الشيخ مستفسرا، فأخبره **المجاجي** بأنه يملكه، فتهلَّلت أسارير وجه الشيخ عند سماعه لهذه البشرى، وطلب منه المبادرة بإعارته إياه، فوعده **المجاجي** بإرساله إليه، إلا أن ظروف الثورة حالت بينهما، وقد أعاره لي الأخ **المجاجي** بعد الاستقلال فبقي عندي مدة أمكنني فيها الاستفادة منه والاطلاع على ناسخه الذي كان من علماء ضواحي مدينة الأصنام الأفذاذ، حيث نسخ عشرات أمهات الكتب، وقد تولى الناسخ المذكور وهو الشيخ **عبد القادر المقراني** ولاية الناحية في عهد الأمير عبد القادر، وأسرة **المقراني** من الأسر التي توارث أفرادها العلم قرونا، ولا زالت بقاياها بمدينة الأصنام، وعميدها الآن الشيخ **عمر المقراني** حفيد الناسخ وهو من الشعراء الشعبيين المشهورين.

من هذا كله سأتناول بالبحث حياة هذا العالم أي مصطفى الرماصي بتفصيل، إذ أمكنني التحصل على وثائق متعددة، كانت مفقودة أوفي حكم المفقود، واغتنمت هذه الفرصة لإذاعتها. حتى تعم فائدتها وإني سأتعرض من خلال ترجمته لدراسة عصره، إذ من بين الوثائق التي عثرت عليها بعض الإجازات التي أجاز بها تلامذته، وكذلك مرثية رثى بها أحد أساتذته، وبعض الرسائل تبادلها مع معاصريه، وتوصية من باشا الجزائر أوصى فيها برعاية جنابه وحسن معاملته وغيرها من الوثائق التي هي من أهم سجلات تاريخ البلاد الثقافي السياسي.

ولادته ونشأته:

ولد مترجمنا **مصطفى الرماصي** بقرية **رماصة،** قرب قلعة هوارة شمال مدينة معسكر، في أوائل القرن الحادي عشر وقد ضبط تاريخ وفاته في سنة 1137هـ عن سن عالية، أخذ عن والده الذكاء الذي كان أبرز فقهاء عهده. حيث كانت فتاويه معتمدة عند

أصحاب النوازل الفقهية، ثم التحق بمعاهد قلعة هوارة فمازونة وتيارت، وختم رحلته في طلب العلم بفاس ثم القاهرة، وبعد انتهاء رحلته في طلب العلم، انتصب للتدريس بمعهد والده في مسقط رأسه، على سنة كثير من علماء عهده، الذين كانوا يفضلون التفرغ للتدريس والتأليف بمعاهد أسرهم أو أساتذتهم أو المعاهد التي أسسوها لهذه الغاية، بدلا من الوظيف والحياة بالمدن وقصور الولاة، فمن جملة الإجازات التي وصلتنا للمترجم، إجازته لتلميذه محمد بن علي الشريف الجعدي، من سكان ضواحي مدينة الجزائر قال فيها: «أجزته في جميع مروياتي وفي ما أجازني فيه أشياخي منهم باللسان ومنهم بالبنان، من توحيد وفقه ولغة وبيان ومعان ومنطق وقراءات» اهـ.

ثم قال المجيز مفصلا ما أجمله في القسم الأول من إجازته، على عادة الأساتذة المجيزين إذ ذاك: «وأكثر قراءاتي في العقائد السنوسية على الشيخ المحقِّق الولي الصالح سيدي **محمد بن علي بن الخروبي القلعي**، وأما البخاري فأخذته عن سيدي **محمد بن الشارف المازوني**، وبعضه عن سيدي **عبد الرحمٰن أبي زيد الراشدي** » اهـ.

وقال في إجازة ثانية للمجاز المذكور **الجعدي**: «... وبعد، فيقول عبيد الله سبحانه وتعالى محمد بن عبد الله بن مومن الرماصي، قد طلب مني ولدي سيدي محمد بن علي الدخول في سلسلتنا في العبادة، وأخذ الخرقة، فأسعفته لذلك، وإن كنت لست أهلا هنالك، إسعافا لرغبته، وباب الله مفتوح لجميع خلقه وإن كان لا يقرع بابه إلا من كان أهلا له، فمن يُرجى سواه وحاشاه أن يحرم راجيه أو يخيب وافيه، وقد أخذت هذه الطريقة عن الشيخ القطب الرباني سيدي **محمد الصحراوي**، نزيل قلعة مامون ببلاد منداس اهـ.

وكان تاريخ هذه الإجازة سنة 1116هـ. وقد عرف التلميذ المجاز بنفسه فقال في آخر

الإجازة المذكورة: «يقول كاتبه **محمد بن علي بن أحمد بن عبد الرحمـٰن** الشريف نسبا، الجعدي وطنا، من عمالة الجزائر حرسها الله...» اهـ.

وبنو جعد المنسوب إليهم المجاز من بقايا قبائل صنهاجة الذين حكموا هذه المنطقة قبل تأسيس بلقين بن زيري بن مناد مدينة الجزائر، وهم إخوة لبني مزغنا الذين عرفت بهم الجزائر.

كان **محمد بن علي الجعدي** هذا من أكابر علماء مدينة الجزائر وقد اشتهر من بين أساتذته محمد بن عبد الرحمـٰن بن عبد القادر الفاسي الشهير، وقد ذكر **الجعدي** أن شيخه الفاسي ناوله فهرسته **(المنح البادية)** وأجازه فيها كما أجازه في الصِّحاح السِّتَّة وغيرها، وكان ذلك بفاس سنة 1133هـ.

ولنرجع إلى التعريف بمشايخ مترجمنا **مصطفى الرمَّاصي** المذكور في إجازتيه للجعدي:

فالأول منهم **محمد بن علي الخروبي القلعي**، المنسوب إلى قلعته هوارة التي صارت تعرف بقلعة بني راشد، وأسرة الخروبي كانت بقلعة بني راشد من الأسر التي توارثت العلم قرونا، وقد تولى الكثير من أفرادها القضاء في العهد التركي وفي عهد الأمير عبد القادر، ونسبهم يتصل بعالم الجزائر الشهير **محمد بن علي الخروبي الطرابلسي** دفين الجزائر صاحب التآليف المشهورة .

أما ثاني الأساتذة المذكورين، فهو **محمَّد بن الشّارف المازوني** الذي روى عنه **الرماصي صحيح البخاري**، فهو المؤسِّس للمعهد الفقهي بـ (مازونة) الذي انتصب فيه للتدريس ابتداءً من السَّنة المتممة لألف من الهجرة إلى نهاية سنة أربعين وستين بعد الألف (1064هـ)، وهذا المعهد هو الذي كتب له الخلود من بين معاهد **مازونة**، حيث استحال إلى المدرسة الفقهية التي شارك طلبتها في رباط وهران الذي مهَّد احتلالها سنة

1206هـ، وقد التحقَ بالجيش المرابط العالم الفقيه **محمد بن علي أبو طالب المازوني** حفيد الشيخ **محمد بن الشارف** المذكور.

شارك **أبو طالب** (وعمره يتجاوز الثمانين سنة) على رأس مائتي طالب، وولديه الذين استشهدا منهما في ساحة الوغى أكبرهما السيد هني الذي اشتهرت الأسرة باسمه إلى زماننا هذا، وقد جدد باي وهران هذه المدرسة بعد احتلال وهران وحبَّس عليها الأملاك والكتب التي لازلت الأسرة تحتفظ ببعضها إلى زماننا هذا، وإن كانت المدرسة تعطلت ولفظت أنفاسها عند نشوب الحرب العالمية الثانية، حيث ضيقت السلطات على طلبتها الذين كانوا يتابعون دروسهم فيها وجلهم من شرقي المغرب الأقصى وكانت السلطات بالمغرب الأقصى تقدر هذه الشهادة الفقهية، وتولي حامليها خطط العدالة والقضاء، ولا زال كثير من متخرِّجي مدرسة مازونة، وتلامذتهم بشرقي المغرب، كـ: **بني يزناس**، و**الريف**.

أما الأستاذ الثالث للمترجم المذكور في الإجازة فهو الشيخ **عبد الرحمن أبو زيد التوجيني** الذي يعد من أكابر علماء عهده، وله تآليف عديدة، أشهرها كتاب:(**عقد الجمان النفيس، في بيان علماء وأشراف غريس**)، الذي خصصه لتراجم نخبة من معاصريه من العلماء وركَّزه على ترجمة أستاذه الشيخ **عبد الرحمن ابن زرفة** المشهور بسيدي دحّو، دفين وادي الذهب ضواحي مدينة **معسكر**.

والأستاذ الرابع والأخير الشيخ **محمد الصحراوي** (دفين قلعة مأمون) الذي لا زال ضريحه بمقبرة سفح جبل جزول شمال الطريق الرابط بين مدينتي الرحوية وتيارت، ولم نطلع على ترجمة الشيخ محمد الصحراوي. وكل ما نعرفه عنه، أنه لا زالت أسر كثيرة في الناحية، تنتسب إليه، وتحيي ذكراه سنويا على عادة البلاد.

وقد استفدنا من إجازة المترجم بالشيخ **محمد الصحراوي**، زيادة على السند العلمي

الموقع الجغرافي، إذ لولاها لما كنا نعرف موقع قلعة مامون، ولا امتداد بلاد منداس التي كانت إمارة مشهورة في عهد حروب بني مرين وبني زيان في القرن الثامن الهجري ولم يبق من تلك الإمارة إلا اسمها الذي يطلق على قرية بين مدينتي **تيارت** و**غليزان**.

أما المرثية التي رثى بها مترجمنا شيخه **عمر التراري المشرفي** فإنها كذلك مفيدة جدا إذ زيادة على ما أفادتنا من السند العلمي فإن المترجم تعرض فيها لإعطاء نظرة مجملة على الحياة الثقافية والاجتماعية في عهد أستاذه وعلى إبداء التدهور، عندما قارن بين أستاذه وبعض معاصريه الذين كان المترجم يضيق بهم ذرعا، وأستاذه هذا من أسرة **المشرفي** الشهيرة بالعلم، وقد توارث أفرادها العلم قرونا، وكان مقر الأسرة ومعهدها العلمي بمدينة **الكرط** ـ قرب مدينة **معسكر** ـ وقد هاجر بعض أفراد أسرة المشرفي إلى المغرب الأقصى بعد الاحتلال الفرنسي وساروا هناك على سنن أسلافهم، ولا زال كثير منهم متولين الخطط العلمية، وإلى هؤلاء المهاجرين إلى المغرب، يرجع الفضل في الاحتفاظ على تراث الأسلاف الذي من ضمنه هذه المرثية كما أشرنا إلى ذلك من محاضرتنا السابقة من هذه السلسلة عند حديثنا على الشيخ **علي بن الحفَّاف الجزائري** وخلافه مع الشيخ **أبي عبد الله المشرفي** الساكن بـ: **فاس**، والمتوفي بها .

افتتح **الرماصي** مرثيته بقوله:

خليلي عوجا بي على طلل عفا — معالمه قد غيرت ومعلم هدّه

وأسفت عليه السافيات بعيدنا — دقاق الحصانا نحط منها أجالده

فعاد أنواء بعد أن كان غبطة — وصار مقر الوحش فيه أوابده

كأن لم يكن للناس مغنى ومألفا — تلاعب فيه خوده وخرائده

كأن لم يكن للوافدين منارة — ملاعب معمورة ومصائده

إلى أن قال:

فأعيا جوابا بعدما قد نشدته وكيف يجيب فائه وجلامده
فأعرضت عنه والدموع سواجم كئيبا حزينا هالك القلب سانده
على فقد إخوان كرام أجلة عيون الزمان لبه وفرائده
شموس بدور النجم قد تكبّدت سماء العلام العلم زهو نوافذه
تضوع مسكا دهرهم بوجودهم وحلى بهم تيجانه وقلائده
مناهل للوارد ملجأ سائل بهم يهتدى للقصد من هوحائده
أذاعوا فنون العلم في كل موطن بهم أثبتت أركانه ووصائده
بهم طار صيتا في المدائن والقرى وجاوز إنتاج البحار فوائده

وبعدما أشاد **الرماصي** بطبقة العلماء التي كان يمثلها أستاذه، قارن بينهم وبين خلفهم ـ على عادة معاصريه ـ ذلك الخلف الذي كان يتهمه بالادعاء والتطاول إذ كانوا يعتزون بالعصبية، والوظيف وما إلى ذلك، وإلى ذلك أشار بقوله:

فعاد خميل الذكر من بعد فقدهم ينادى عليه باخس السوم كاسده
مطاع طريح في فنا الهجر واللقا تعاطاه من قد ظل عنه راشده
تعاطاه من لا يستطيع سباحة فسيان عنده الصّحيح وفاسده

ثم يرجع إلى أستاذه فينوه بشأنه وبالدعوة العليا التي بلغها في المعارف فيقول:

ولا سيما الجهبذ والشهم عمرهم أقرّ له بالسبق في العلم حاسده
أقرّ له بالفضل والدين والتقى ونيل المعالي كل من هوناكده
له همة فوق السماكين والسّهى تقاصر عنها كل من جا يعانده
عني بتحقيق العلوم وضبطها فمعترف بالعجز من جا يجالده
لسانه سيف صارم ويراعه على طرسه بحر عيان نشاهده

فريد وحيد الدهر واسط عقده وخاتمة التحقيق قطعا ورائده
وتحريره قد امتطى ذروة العلا وحلت بأعلى الفرقدين قواعده
صبور على لأوى الزمان تبيته بصدر رحيب لم ترعه شدائده

ثم يستعرض الفنون التي كان يدرسها الفقيد فيقول:

فمن الخليل بعده وفروعه به مولع مذ شب واشتد ساعده
فكم من مشكل قد حل من مقفلاته وكم من خبيء باق تجنى عوائده

إلى أن يقول:

ومن للشروح إن تعارض نقلها فيعرف منها غشها فيجاوده
ومن لخلاصة الإمام ابن مالك وشرح المرادي دائما متعاهده
لبيك نجل حاجب به مغرَم تغرب فيه لم تعقه ولائده
بشارحه التوضيح قد كان معنيا في انقاله مفكر الذهن صارده
له خوضة في السبع بل وفي عشرها والأصلين مع علم المعاني يراوده

وبعد أن ذكر جل الفنون التي كان يدرسها الفقيد انتقل إلى نشاطاته في المجال الاجتماعي وذلك أنَّ الفقيد كان على سنن فقهاء عهده، الذين كانوا ينتصبون في الأسواق للقضاء بين المتخاصمين وللفتوى تلقائيا، ومجانا، إذ لم تكن لهم خطة رسمية تلزمهم بذلك، وإنما يقومون بهذه الواجبات التي يرونها من أهم مأمورياتهم، وهي من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الملقاة على عواتق كل مسلم، وميزة هذه الطبقة من الفقهاء، أنهم كانوا يتمتعون بثقة الجماهير لإخلاصهم ونزاهتهم وتفقههم في الدين، وقد بقي لهذه العادة امتداد إلى العهد الأخير.

فقضت عليها السلطات الفرنسية، وقضاة المحاكم الرسمية، وسهل عليهم مهمتهم،

تسرب بعض العناصر من الذين انحرفوا عن الطريق السوي، واحترفوا التزوير والرشى، ومع هذا كله، بقيت بقية من هؤلاء الفقهاء، لا زالت إلى الآن، محل ثقة الجماهير، فيقصدونهم ليتحاكموا عندهم، ويرضون بأحكامهم المستمدة من الشريعة الإسلامية، وإلى هذه الأوصاف أشار **الرماصي** في مرتبة أستاذه بقوله:

ليبــك ســوق أم عســكر دائــما	بـه قـد أذاع الحـق لا مـن يناجـده
فيحكم بين الخصم بالفصل حازمـا	فســيان عنــده القريــب وباعــده
وسـيان عنـده الحقـير ومـن سـطى	فلــم يخشــه ولم ترعــه مكائــده
ولا يســتميله الغنــي برشــوة	فيجري مـع المنهـاج لا مـن ينـادده

ثم يتعرض إلى الفراغ الذي تركه أستاذه بمعهد أسرته فيقول:

لتبـك عليـه قريـة الكـرط سرمـدا	وسـوحها فيهـا رسـمه ومسـاجده
أضــاءت بــه أحلاكهــا وتفتقــت	بعــذب فــرات لا يغيضــه وارده
وسالت بأنهار من الكـاسي طرفهـا	مصــفى لذيــذ يسـتلذه لا ســده
وضـاعت فجاجهـا عبـيرا ومنـدلا	بطلعتــه تزهــو لمــن هــو واكــده

ولما كانت هذه الناحية قطعة من بلاد الرَّاشدية إلى عهد الاحتلال الفرنسي، حيث استبدل اسم الرَّاشدية باسم عزيسر الذي لازلت تعرف به إلى الآن، قال في ذلك:

عــلى أنّ كــل الرَّاشــدية أيمــت	بموت وحيد الدهر لا يـاتي واحـده

نكتفي بهذا القدر ـ وإن أطلت ـ إذ لا ينبغي أن يستهان بهذا النوع من الوثائق التي كما ذكرنا، لم نقصد من ذكرها الاستدلال على قيمتها الأدبية الخاصة، حيث إن كثيرا من هذه المراثي نجد لغتها مهلهلة وكذلك بعض الإجازات التي يبالغ أصحابها في خلع الألقاب عن مشايخهم المجيزين لهم، إلا أن محتواها له وزنه، كاستعراض الفنون التي

كانت تدرس، وسند المشايخ الواصل بين علماء مختلف الجهات والأقطار، وكذلك أمكنة المعاهد المنتشرة في القرى وقمم الجبال خصوصا في عهد المترجم الذي انتقلت فيه مراكز الثّقافة من المدن إلى القرى، ومن ذلك معهد مترجمنا الذي زاره كثير من كبار العلماء، والرحالين ووصفوه لنا، ومن بينهم أبوزيد عبد الرحمٰن الجامعي الفاسي صاحب الرحلة المساة: (**التاج المشرق لمواقيت المغرب والمشرق**)، فقد ذكر في تأليفه الذي شرح به **أرجوزة الحلفاوي** في تاريخ مدينة وهران، قال عن زيارته لمعهد **مصطفى الرماصي** حوالي سنة 1119هـ: «كنت وفدت على العالم العلامة، منهل العلم الأصفى، **أبي عبد الله** سيدي **محمد المصطفى الرماصي**، فوجدته يسكن بأهله بيوت الشعر قرب غابة في رأس الجبال يأوي إليهم ليلا ويظلّ بالنهار في داره، ومسجده يطالع كتبه ويقرئ طلبته»، فسألته عن ذلك فقال: «كنا على هذه الحالة على عهد الإسبانيين خوفا منهم، فإننا كنا لا نأمن في الدور من أن يصكونا ليلا، فخرجنا لبيوت الشعر، ليسهل علينا الفرار لغابة الجبل » اهـ.

وقد حكي عنه أيضا أنه كان بصدد تحرير بعض تآليفه في معهده المذكور وتساقط المطر عليه من سقف البيت، فاستعان على الوقاية من قطراته، ببرنسه الأسود المعروف بالزغداني، فأمثال هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين نشروا العلم، وواصلوا نشاطهم رغم ما أصاب البلاد من تجديد الحروب الصليبية، وشن الغارات على مختلف الجهات النائية، ليختطفوا سكانها ويبيعوهم في أسواق الرق ببلاد أوروبا، ومع هذا يواظب الأستاذ على التدريس، والتأليف والفتوى، وقد رأينا نماذج من هذه التآليف التي كان يتسابق إلى اقتنائها علماء الأمصار ويتخذونها مصادر كما اشتهر علماء هذه النواحي طيلة حكم الأسبان بوهران، الذي دام حوالي 3 قرون، اشتهروا بمشاركتهم في حربهم معهم، وحصارهم لمدينة وهران، وأنَّ قائمة شهدائهم تعد بالمئات، حسبا تدل عليه تاريخ

وفياتهم، ومع هذا كله، نجدهم ابتلوا بخلف جهلوهم، أو تجاهلوا تاريخهم، وصار الكثير ممن يتصدى للحديث عنهم، إلا ويرميهم بالجمود، والخمول وخدمة ركاب الحكام، وإلى ذلك من الافتراءات الدالة على الجهل والجحود واللؤم.

ولنرجع إلى الحديث عن مترجمنا فإنه اشتهر بحدة المزاج، والتشدد، قال **الحفناوي**: «كان رحمه الله ممن اشتهر بالتحقيق والتحرير والمتانة في الدين، وسمع الكلمة عند السوقة والأمير، مع لين جانب وتوؤدة تسليم، وسريرة صافية وقلب سليم، ومع ذلك ربما يقول في بعض فتاويه لمن يتخيل منه إباية أو تساهلا فيما يلقى عليه: فإن امتثلتَ وإلا فسِهامُ الشَّريعة صائبة مسمومة، وعادة الله بهتك مَن أَعرضَ عنها واضِحة معلومة » اهـ.

وقد حمل على كثير من معاصريه، من جملتهم قاضي مدينة قلعة بني راشد، السيد أبو العباس الذي بلغه عنه أنه أصدر فتوى خالف بها الجمهور فقال في هجوه:

ألا قـل للـذي أبـاح جمعـا	مـابين خالـة وبنـت أخـت
دعاك الوهم واستحسنت صـنعا	كـما صـنعت يهـود يـوم سـبت
فخانوا العهد واستعصـوه شرعـا	وبـاعوا اللحـم محمـولا بسـحت
فأنـت اليـوم قـد أبـدعت بـدعا	وبـؤت بعـد شـيبك بالتفـت
منعت الأصل واستحسنت فرعـا	وقـال بالحـل في سـبع وسـت
أمـا علمـت لووفقـت ردعـا	سيسأل الله عن ثلاث كـل مفـت

كما يتجلى هذا التشدد في رسالة خاصة أرسلها إلى أحد تلامذته اشتهر بمكانته ومكانة أسرته، وكان هذا التلميذ ينحدر من الأسر الأندلسية اللاجئة إلى الجزائر، وأننا نثبت هذه الرسالة، لأنها زيادة على محتواها ـ موضوع حديثنا ـ فإن أسلوبها البليغ يدلنا على مستوى النثر الأدبي عند بعض الفقهاء، فقد كان أسلوبا راقيا إن لم نقل رائعا،

بخلاف من عمموا أحكامهم عليه بأنه كان منحطا متدهورا، وفي الحقيقة كانت الكتابة إذ ذاك في غالب البلاد الإسلامية أدركتها الشيخوخة والتدهور، إلا أن تخصيص كتابة جزائرية وبالخصوص فقهائها، وتعميم الحكم عليهم غير صحيح، وهذه رسالة الفقيه الرماصّي تتحدى كل من تساهل في الحكم المذكور، قال الرُّماصي بعد الحمدلة والتَّصلية: «أما بعد فكثيرا ما يرد عليك كتابنا فتضرب عليه صفحا، وتطوي عنه كشحا، وسامحناك مرارا، ولم نهتك لك ضرارا، مع علمنا أن المسامحة في الحق مداهنة ارتكبناها ولم ينبغي لنا ذلك، سهل ذلك إبقاء مودة الائتلاف، وحسما لمادة الشقاق والاختلاف، وجمعا للشتات وخوف من كلام الوشاة، ورجاء أن تفيق من سكرتك، وتهب من رقدتك، فأبيت إلى التمادي على ذلك، حتى وقفت على كتابك تقول فيه بعد وقوفك على ما كتبناه وعلمك بما سطرناه وعزوناه لأَبي الحسن والقلشاني وصاحب **(الدُّرر)**، وما سوى هذا جور وفجور، فإن عنيت بذلك الخصم فهو لم يقل شيئا ينسب فيه للجور والفجور، وإنما أدلى بما كتبناه، وإن عنيتنا بالجور والفجور فنحن محله، ونسأل الله العصمة على أنَّا لم نقل من عندنا شيئا، وإنَّما قلنا كلام من تقدم، والناقل بمنجاة، وقد قال مالك: «أدِّ ما سمعتَ وحسبُك، وإن كذّبتنا فيما قلناه، فالكتب موجودة بأيدينا تشهد لنا وتنفي عنا وصم الكذب...».

وبعد أن ذكر الرَّماصي موضوع الخلاف بينه وبين مخاطبه استرسل في كتابه فقال: «فلو اتَّصفت بالإنصاف، وجانبت التعسف والاِعتساف لوقفت عند تخليط الأمر عليك، وقفة حيران، متأدبا مع أئمة الأمة تأدب الهدهد مع سليمان، سائلا سؤال لهفان من يريد التحقيق فيهديك سواء الطريق، فيفهمك كلام الأئمة، وينزل لك في محله ويذهب عنك التعارض والاختلاف، وينقشع عن بصيرتك غشاها، وعن بصارتك غثاها ولكن استغنيت بنفسك، واستقللت بفهمك على عادتك، إذ أنت قد أحللت نفسك للفتوى، لم تسألني عن مسألة، ولم تباحثني في قضية، والأئمة ترد علي أسئلتهم

من تلمسان ومن المغرب الأقصى ومن الجزائر، والإخوان عن يمينك وشمالك تباحثني مكاتبة ومشافهة وكتابة بجودة الأبحاث، لتفتح أقفال المشكلات وتلك طريقة أهل العلم، قال سحنون أنا عند ابن القاسم وأجوبة مالك ترد علينا، وأنت لم تلمم بنا أدنى إلمام ـ وسارعت للنضال بغير سنام، ألم تعلم أنَّ من استقل بنفسه فقد زل ويوشك أن يضل، وفي العلم مهامه تقصر فيها الخطا وتحار فيها القطا، لا يهتدي فيها إلا من حقَّقَ النظر، وباحث أهل التحقيق واعتبر» اهـ.

فمن هذه الرسالة استفدنا بعض ما ناله المترجم من شهرة، رغم انزوائه بمعهده النائي عن العمران، ومع هذا كانت ترد عليه الأسئلة من علماء الجزائر وتلمسان والمغرب وفاس، وقد زادت شهرته عندما أذاع تآليفه، فاستحكمت هذه الشهرة وبقيت إلى عهد الاحتلال الفرنسي، حيث نجد الأمير عبد القادر يعدُّه في طليعة علماء الرَّاشدية، بل والغرب والجزائر في **مذكِّراته** التي أشرف على كِتابتها في **قصر أمبواز** صحبة ابن عمَّتِه وخليفته **مصطفى بن التهامي**، فإنه بعد ما ذكر نشأته واستعرض الحياة الثقافية بالرَّاشدية التي تلقى فيها معلوماته، ختمها بقوله: «وناهيك بوطن خرج منه العلامة شيخ الأسلاف **محمد المصطفى الرماصي** ومن حاكاه من تلامذته، كالسيد أحمد بومعزة الذي يسميه أهل الوطن بشرع الواسطة... الخ»، وقد سبق الأمير عبد القادر كثير من علماء الجزائر أشادوا بمصطفى الرماصي، من بينهم العالم الشهير الشَّيخ **محمد بن حواء** (دفين مستغانم) صاحب: (**سبيكة العقيان فيمن حلَّ بمستغانم وأحوازها من الأعيان**) التي خصَّصها لذكر علماء مستغانم وضواحيها حيث قال:

قلت وقد أدركت بذا الوادي	وغيرها من حوز هذا الوادي
مشـــايخا أئمـــة حفَّاظـــا	متـــابعين علمهـــم أيقاظـــا
أولهـــم شـــيخ شـــيوخ العصـــر	غـــرة جمـــع علـــماء القطـــر

خاتمـــة الحفـــاظ والنقـــاد شمس بـدور الأقويـا الأفـراد

فـاتح قفـل مشـكلات الوصــم سراج غـبش الظلـمات الـدهم

رئـيس جمـع الأقويـاء الغـواص المصـــطفى محمـــد الرمـــاصي

نكتفي بهذا القدر للتعريف بمترجمنا، وننتقل إلى ذكر ما وصلنا إليه من بعض آثاره، فعلاوة على فتاويه، ومراسلاته لمعاصريه، وإجازاته، فقد وصلنا من آثاره تأليفان قيّمان، الأول حاشيته على عقيدة الإمام محمد بن يوسف السنوسي (دفين تلمسان) المعروفة بـ: **(الصغرى)** في علم التوحيد، وقد ناقش فيها آراء العالم المراكشي أبي مهدي عيسى السكتاني في حاشيته على نفس التأليف .

ختم **الرماصي** تأليفه المذكور بقوله: «قال مؤلف هذه الأوراق **محمد بن عبد الله الرماصي**: هذا آخر ما يسر الله جمعه على عقيدة الشيخ العارف بالله السنوسي نفعنا الله به آمين، والسلام منِّي على كل من وقف عليه، طالبا منه إخلاص الدعاء، والإغضاء عما وقع فيه من الخلل، فأنا لست أهلا لذلك، ولكن حملني عليه بعض الإخوان، ممن له رغبة فأسعفته لذلك وأضرع إلى الله أن يجعله خالصا لوجهه وأن لا يكون حجة علينا بمنه، وكان فراغنا منه يوم الجمعة بعد صلاة العصر يوم عاشوراء مفتتح عام 1107هـ، وبالله التوفيق» اهـ.

أما أثره الثاني فهو حاشيته على شرح **شمس الدِّين التَّتائي** على **(مختصر الخليل)** التي افتتحها بقوله: «لما كان علم الفقه أفضل العلوم بعد كتاب الله وسنة رسول الله، الذي به تعرف الأحكام ويتميز الحلال من الحرام، قد صنف فيه الأئمة الأعلام دواوين لا تحصى، وأحسن ما صنف في ذلك **(مختصر الخليل)**، إذ أقبلت عليه الطلبة غربا وشرقا، وله شروح كثيرة، أحسنها شرح العلامة **شمس الدين التتائي** (رحمه الله)، لما اشتمل عليه من الاختصار، وحسن العبارة وجمعه للفوائد، لأنه رجل أديب، لكنه مات قبل أن

يصلحه فلذا وُجد فيه التَّصحيف في مواضع وزاده الطلبة بإقبالهم عليه تغييرا، رغب مني بعض الإخوان أن أضع عليه حاشية تبين مُشكله وتحل مُقْفَلَه، فأجبته لذلك بعد الاستخارة، وربَّما تكلَّمت مع غيره من شراح هذا الكتاب، ومع المؤلف، وقصدي بذلك إيضاح الحق لا إذاعة النطق... الخ».

وهذا التأليف الثاني، أي الحاشية المذكورة هو الذي نال الشهرة والتقدير، شرقا وغربا، وتسابق العلماء إلى اقتنائه واعتماده، قال الشيخ عبد القادر بن المختار الخطابي المجاهري الجزائري الأزهري في تأليفه:(**الكوكب الثاقب في أسانيد الشيخ أبي طالب**) الذي خصَّصه لشيخ مشايخه محمد بن علي أبو طالب ـ شيخ مدرسة مازونة الفقهية ـ الذي تحدّثنا عنه في هذه المحاضرة، قال المؤلف المذكور متحدِّثا عن الشيخ محمد بن علي السنوسي دفين ليبيا تلميذ أبي طالب المذكور قال: «أخبرنا شيخنا محمد بن القندوز المستغانمي فقال: كنت أحضر القطب الدَّردير حين كتابته لشرحه على خليل، فأراه جاعلا أَمَامَه مرفعتين، إحداهما عليها المحل المقصود من حاشية الرماصي، والثانية عليها مثله من حاشية البناني، وفي يده كراسة من المحل المقصود من شرح **الزرقاني**، فيخلص منها ما يريد كَتْبَه من المحل المراد له، بعد مطالعة الحاشيتَين في ذلك المحل، ويكتب ما لخصه على طبق ما حرَّرَاه، ومشياً عليه، وإني سألته عن ذلك، فقال إنهما أغنياني عن مطالعة كتب كثيرة من أمهات المذهب إذ هما محرِّراه، فليس في هذا الشرح اعتماد على غيرهما، فكان يسميه ـ أي: **الرماصي** ـ محرر المذهب لذلك» اهـ.

وقال الفقيه **محمد الحجوي الثعالبي** في نفس الموضوع ـ أي: تأليف الرّماصي ـ في تأليفه: (**الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**) عند ترجمته للشيخ **خليل** صاحب (**المختصر الفقهي**) فقال: «فمختصر خليل أكثر المؤلفات الفقهية صوابا، رغما عن كون مؤلفه إنما خرَّجه إلى النكاح كما سبق، وقد وقع للزرقاني أغلاط في النقل وغيره، فاعتنى

المغاربة بتصحيحه ووضعوا عليه حواشي مستمدة من حواشي الشيخ **مصطفى الرماصي** على **التَّتائي** وغيرها، منهم الشيخ محمد بن الحسن بناني» اهـ.

ألقى مترجمنا **الرَّماصي** عصا التسيار بمسقط رأسه، ووسط عشيرته، فتفرَّغ لخدمة العلم وقد رأينا أنه رغم صعوبة المواصلات، لاشتداد الأهوال، وتكرار المحن في المنطقة حيث كانت عاصمة الولاية الغربية محتلة ما يزيد عن القرنين، كان معهده مَحَطَّ رحال طلبة العلم، من مختلف جهات القطر، وكانت الاستفتاءات ترد عليه كذلك من علماء البلاد وخارجها كما أشار بذلك في رسالته التي أرسلها إلى تلميذه وقال له: «لم تسألني عن مسألة، ولم تباحثني في قضية، والأئمة ترد علي أسئلتهم من تلمسان ومن المغرب الأقصى ومن الجزائر » اهـ.

لم يتقلَّد مترجمنا أَيَّةَ خطة رسمية ومع هذا لفت أنظار ولاة الأتراك خصوصا باشا الجزائر الذي استوصى به خيرا، على عادة الولاة إذ ذاك، وهذه الوصية هي التي عرفت بالظهير الذي لا زال يطلق عليها بالمغرب الأقصى، وهذا نص توصية باشا الجزائر قال: «ليعلم من يقف على هذا الأمر الكريم والخطاب الواضح الجسيم النافذ أمره، العلي شأنه وقدره من المعظَّمين **البايلار** والقواد والعمال الخاص والعام وجميع المتصرفين في الأحوال بالناحية الغربية من عمالة الجزائر المحمية سدد الله الجميع، ووفّق الكل إلى صالح القول وحسن الصنيع، أما بعد فإن حامله المعظم الأجلُّ الزكيُّ الأفضل الأمجد الأنجد العالم العلامة الفخر الفَهَّامة، المحقق المدقّق الأتقى، الأنقى، الماجد الأبرّ الحاج المعتمر، النشأة الصالحة السيد **محمد المصطفى**، أنعمنا عليه إنعاما تاما مطلقا، شاملا عامّاً، وحرَّرناه من جميع المطالب المخزنية، والوظائف السلطانية قلت أوجلت، ولا لأحد عليه من سبيل بوجه من الوجوه ولا حال من الأحوال وأوصينا بحرمه واحترامه ورعيه وإكرامه، وحفظه السني لجنابه، بحيث لا تُهْتَكُ له حُرمة ولا يُهْضَمُ له جناب، ولا يصله أحد بإذايه ولا بمكروه، ولا يقاس بما يقاس به غيره، من غير

معارض له في ذلك ولا منازع ولا مناقش ولا مدافع، فحسب من يقف عليه أن يعمل بما فيه ولا يخالفه ولا يتعدَّاه، ومن يتعدى الحد فقد استوجب الحَدَّ، والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب، لا رب غيره، ولا معبود سواه، وهو حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وكتب عن المعظم الأرفع الدولاتلي السيد محمد داي لطف الله به بمنه وكرمه آمين، بتاريخ أواسط صفر الخير عام 1119هـ».

وقد توفي مترجمنا مصطفى الرماصي بمعهده سنة 1137 هـ، وترك أولادا ودفن بمعهده الذي لا زال يحتفظ بضريحه الذي جَدَّدَ بناءه الباي محمد بن عثمان الكبير فاتح وهران سنة 1206هـ، والباي محمد بن عثمان هذا كان أمثل ولاة الأتراك الذين راعوا الثقافة وشَجَّعوا أصحابها، وأما مصير أولاده ومعهده فقد عثرنا على وثيقة مؤرخة في السابع من ذي الحجة سنة 1271هـ يذكر فيها محررها أنَّ أولاد الشيخ اتهمتهم السلطات التركية وبالخصوص باي وهران **مصطفى منزالي**، بأنهم أيَّدوا الثورة الدَّرقاوية، فصادروا أموالهم، وحكموا على بعضهم بالقتل، كما وجدت وثيقة أخرى بخط المرحوم الشيخ **العربي بن عبد الله شنتوف المعسكري**، يذكر فيها أنه زار ضريح الشيخ **مصطفى الرَّماصي** سنة 1333هـ، وفي ذلك قال تحت عنوان: الشيخ **مصطفى الرماصي محمد مصطفى بن عبد الله بن أحمد** ولما زرت ضريحه الشريف، وجدت قبة في غاية الإتقان والظَّرافة، بناها الباي محمد الكبير ثم رمَّمها الصَّغير (أي الباي محمد الصغير ولد الأول) في وسطها قبور أولاده الثلاثة، أحدهم وهو أكبرهم مولانا قدور، الثاني المصطفى، والثالث اسمه محمد، أما الأوَّلان فلم يبق من نسلهما أثر وأما الثالث الذي هو محمد فهو الذي نسله باق، وهم الذين تلقوني بالقبول وليس فيهم من يطلب العلم، إنّما رأيت واحدا فقط واجتمعت به اسمه السيد البشير له إلمام بالفقه» اهـ.

هذه هي الخطوط العريضة من ترجمة هذا العالم الذي يعد طليعة علماء الجزائر بصفة

عامة وفي بلاد الراشدية بصفة خاصة، فالرَّاشدية اشتهرت طيلة ثلاثة قرون بأنّها من المراكز الممتازة للتوحيد والفقه، وكان كل من ألّف في التَّوحيد إلا ويفتخر بسنده المتصل بعلماء الرَّاشدية وقد صرَّح بذلك أحمد المقري التلمساني في حاشيته على الصُّغرى وأبي مهدي عيسى السكتاني المراكشي الذي قال: «هكذا تلقيناه من أشياخ علماء الرَّاشدية».

اشتهرت الرَّاشدية بالفقه ابتداءً من حلول مصطفى الرماصي مترجمنا وقد قال الأمير عبد القادر في (**مذكِّراته**) بعدما تحدث عن سند مشايخه بصفة خاصة وعلماء الرَّاشدية بصفة عامة قال: «ولا يذهب الوهم بمن وقف على هذه الأسانيد فيعتقد أننا لم نأخذ العلم إلا من بعيد بل وطننا الغريسي محط علم ومحل تعلم وتعليم فها هوالجوزي في (**عِقد الجمان**) لما تكلم على بعض من الأجداد قال: ومنهم أبومحمد السيد عبد القادر من أبناء عبد القوي المعروف بابن خدَّة مرضعته إلى أن قال: «... وتفقَّه عليه كثير من الناس، منهم: شيخنا السيد عبد الرحمٰن بن زرقة، وسيدي ومولاي علي الشريف... **قلت**:وقد كان الغدامسي يعظِّم نقله ويعبّر عنه بشيخ شيوخنا في غير ما مرة في شرحه على الصغرى، ولما صنف خطيب الجزائر ومفتيها سيد سعيد قدُّورة في التوحيد قال هذا جعلته كالتكميل لتقييد شيخنا السيد عبد القادر بن خدَّة فلابد من الجمع بينهما، على أنَّ **الجوزي** ذكر أن في **غريس** كان ما يزيد على مائة قرية، قال شيخنا السيد بن عبد الله بن الشيخ **المشرفي**: رأيت كتابا وقفت على تمامه، فوجدت الكاتب لما كتب اسمه قال: كتبته بقرية أولاد علي بن صناج وفي القرية ما يزيد على ثلاثمائة مؤلف والقرية اليوم هي خربة تسمى القواير وبقربها روضة سيدي عثمان بن عمر تحت أم عسكر عند انحدار واديه إلى الأرض المستوية البطاح... الخ» اهـ.

المهدي البوعبدلي

علي بن الحفَّاف المفتي المالكي والأدوار التي قام بها خلال النصف الثاني من القرن الماضي الهجري[1]

إنني في هذه السلسلة من المحاضرات التي ابتدئها في سمرنا الليلة، وموضوعها تراجم بعض أعلام الجزائر قدامى ومتأخرين، سأتناول بالبحث جوانب من تاريخ البلاد مرتبطة بتراجم حياتهم.

إن مترجمنا علي ابن الحفَّاف من أبرز الشخصيات الجزائرية التي كانوا حلقة وصل بين العهد التركي والاحتلال الفرنسي، وقد لعب أدوارا في المجالات السياسية والثقافية طيلة النصف الأخير من القرن الثالث عشر الهجري. وإنني في هذه الدراسة سأتحدث عن نبذة من ترجمة حياته ثم أتعرض لبعض الأدوار السياسية والثقافية التي قام بها وتركت صدى داخل البلاد وخارجها منها رسالته التي وجَّهها من معسكر الأمير عبد القادر بمليانة، حيث كان كاتبا خاصا للأمير، وجَّهها إلى علماء عاصمة الجزائر وبَّخهم فيها على إقامتهم بالجزائر بدلا من مغادرتها، والتحاقهم بصفوف المجاهدين الذين تولى قيادتهم الأمير عبد القادر، بعد مبايعته وإعلانه الجهاد، كان مترجمنا من نخبة علماء العاصمة الذين التحقوا بالأمير وقد عينه كاتبا خاصا بدائرته، وقد كال في رسالته هذه تهما شنيعة لزملائه، وحكم على كل من رضي بالمكث في الجزائر

(1) اعتمدنا في إدراج هذه المقالة على نسخة أصلية خطية، بقلم الشَّيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى)، تقع في (51) صفحة. (ع)

ولم يهاجر بالكفر، كان وقع هذا الحكم وهذه التهم أليما على العلماء الذين كان من بينهم العالم محمد بن الشاهد الصغير أستاذ علي بن الحفَّاف الذي تولى الرد، وإنني سأذكر في هذه الدراسة بعض النقاط التي أجاب عنها محمد ابن الشَّاهد واتَّهم بدوره تلميذه ابن الحفَّاف بالتحامل والافتراء، ثم بالغباوة والجهل.

ومن جملة الأدوار التي قام بها مترجمنا علي ابن الحفَّاف أيضا مناظرته للشيخ دحلان المفتي الشافعي بالديار المقدَّسة عندما اجتمع به في موسم الحج سنة 1286هـ.

وكان موضوع المناظرة قضية البسملة هل هي جزء من الفاتحة وما يترتب عن تارك قراءتها في الصلاة مما هو مشهور عند أئمة المذاهب وقد ألف رسالة بعد رجوعه من الحج سماها: (**الدقائق المفصلة في تحرير آية البسملة**) وذيلها برد آخر على الشيخ عليش المصري، في نفس الموضوع إذ كان الشيخ عليش من مؤيّدي الشيخ دحلان في وجهة نظره.

والدور الثالث والأخير الذي أتعرض له في هذه المحاضرة من نشاطاته الثقافية، يتعلق بقضية شائكة، أثارت الجدل بين علماء الجزائر من قديم، ولا زالت آثارها إلى يومنا هذا وهي قضية ثبوت الأهلة فقد كان مترجمنا كثيرا ما يقلد تونس في ثبوت الهلال، وبحكم منصبه يفرض رأيه على كثير من المفتين والقضاة خارج منطقة نفوذه فصادف مرة وجود العالم الفقيه الجريء الشيخ **أبي عبد الله محمد بن محمد بن المصطفى المشرفي** الجزائري الأصل والولادة، والفاسي النشأة والسكن، صادف هذا الخلاف بمدينة غليزان حيث كان يحترف التجارة وهاله أن كان الخلاف بين الرؤيتين ثلاث ليال، فتداخل في الموضوع وألف رسالة ردَّ فيها على مترجمنا ابن الحفَّاف، فحينئذ تداخل من جهة أخرى بعض تلامذة ابن الحفَّاف ورد على المشرفي ردا مقذعا، وهذا التلميذ هو أحمد أبو طالب قاضي مستغانم، وكيفما كانت آثار هذه الرسائل المتبادلة بين

المشرفي من جهة وبين علي ابن الحفَّاف وتلميذه أحمد من جهة أخرى فإنها سجلت لنا وقائع وأفادتنا بترجمة وافية لمترجمنا علي بن الحفَّاف وزميليه، ولولاها لبقيت صفحات هامة من تاريخ بلادنا الثقافي مجهولة، سنتعرض لهذه الأدوار الثلاثة التي قام بها مترجمنا علي بن الحفَّاف في هذه الرسالة بمزيد من البيان والتفصيل إذ هي كما ذكرنا من تاريخ فترة سادها الغموض وأسدل عليها ستار الإهمال، حتى صارت مجهولة تماما وافترى عليها كثير من الباحثين المعاصرين الذين تواطؤوا على الحكم الجائر عليها بأنها فترة ساد فيها الجمود والجهل وما إلى ذلك من المفتريات سواء في المجالات الدينية والثقافية والسياسية.

ترجمة الشيخ علي ابن الحفَّاف:

هو علي بن عبد الرحمـٰن بن محمد المدعو: الحفَّاف، كان جده محمد بن الحفَّاف إماما خطيبا بجامع سيدي رمضان، وهو الجامع العتيق، أي هو أقدم مساجد العاصمة، إذ كان علماء ذلك العهد لا يطلقون وصف العتيق، إلا على أقدم مسجد في البلدة، وقد ترجم محمد بن الحفَّاف هذا، المؤرخ أبو راس الناصري في رحلته، إذ كان من جملة العلماء الذين اجتمع بهم عند مروره على مدينة الجزائر سنة 1204هـ في طريقه إلى بلاد المشرق فقال عنه: «ولقيت بالجزائر فقيهها ومفتيها وخطيبها واسع الرحاب والأكتاف، محمد ابن الحفَّاف »، كما ترجمه معاصره محمّد العربي بن مصباح اليعلاوي في تأليفه القيّم: (**توشيح طراز الخياطة بشمائل شيخ شلَّاطة**)، فقال: «العالم العلامة البحر الفهامة ذي الخط الرائق والأدب الفائق، السيد محمد بن الحفَّاف الجزائري ».

وقد خلفه في خطة الإمامة بجامع سيدي رمضان بعد وفاته ولده عبد الرحمـٰن، فبقي بها نحو الثلاثين سنة إماما خطيبا، ولم نحظ بتاريخ ولادة مترجمنا علي ابن الحفَّاف إلا أنه عندما توفي سنة 1307 هـ سجل في دفتر الوفيات بأنه بلغ من العمر حين وفاته

تسعين سنة، وكان التسجيل إذ ذاك بالسنة الشمسية لا القمرية، تعرض لترجمة تلميذه القاضي أحمد المجاهد أبو طالب قاضي مستغانم نقلا عن الشيخ عبد القادر بن حمودة بصوم المدرس بالجامع الأعظم بالجزائر فقال: «هو الإمام العالم الخير الثقة الواعظ، المحدث المقرئ المتمسك، المشارك المتفنن، **أبو الحسن** السيد **علي بن** المرحوم السيد **عبد الرحمٰن بن** المرحوم السيد **محمد بن الحفَّاف**، وبه عرف، الحسني فهو شريف النسب، قرأ العلم عن مشايخ أجلة في عصره منهم أبو التقى القارئ الخطيب المفتي الحنفي الشيخ سيدي **أحمد ابن الكاهية** أخذ عنه علم القراءات في صغر سنه وأجازه في ذلك رواية ودراية وتمهر فيه وصار له الباع الطويل حتى أَلَّف فيه، وأخذ الفقه والنحو والمنطق والمعاني من الأستاذ الكبير محمد بن الشاهد الثاني، وأخذ الفقه أيضا على الشيخ المحقق رافع راية مذهب الإمام **مالك** في زمانه السيد **محمد بن عواد** (القاضي بالجزائر) أخذ الفقه والعروض وبعض الرسائل في المعقول، وأخذ الفقه والنحو وعلم الكلام عن الواعظ الشيخ **إبراهيم بن موسى**، وأخذ التوحيد مشافهة عن الشيخ المجود سيدي **عبد القادر البليدي**، وأخذ الفقه والنحو عن الخطيب المدرس السيد **عبد الرحمٰن بن الحفَّاف**، وأخذ الفقه والأصول ومصطلح الحديث عن الشيخ المفتي الأديب المحدث **مصطفى القبابطي**، وحضر مجلس الإمام العالم العلامة المفتي الشيخ سيدي **علي بن المنجلاتي**، وأخذ النحو والتصريف والفقه وشيئا من الحديث عن الفقيه محرر القضايا، قاضي الحاضرة **سيدي وعزيز** عن الإمام التقي النقي الزكي السيد **العربي**، وبالجملة فإنه ورع فقيه نحوي أديب صوفي، واعظ، فريد عصره في علم القراءات بقية السلف وعمدة الخلف، انتفع به الناس» اهـ. بعض ما ذكره القاضي **أحمد أبو طالب** في ترجمته.

ونلفت النظر إلى أنه يوجد من بين هؤلاء الأساتذة ـ أي: أساتذة المترجم **ابن الحفَّاف** ـ اثنان اشتهرا بمواقف ترتبط بتاريخ الجزائر إثر الاحتلال الفرنسي مباشرة،

ولا يخلو كتاب من كتب تاريخ تلك الفترة التي تعد بالمئات من التعرض لها ولأبعادها العميقة ولا زال معينها لم ينضب بعد، وهذان الأستاذان هما قاضي الحاضرة الشيخ وعزيز والمفتي المالكي **مصطفى القبابطي**، اللذين أدركهما الاحتلال الفرنسي بمناصبهما، وذلك أن مسلمة من سكان **حجوط** تنصرت، فبلغ الخبر القاضي الذي اتصل بالوالي العام الجنرال **قوارول** واحتج على تصرفات الساعين في ذلك التنصير، ثم أحضر المتهمة لمحاكمتها، فحينئذ اقتحم المحكمة الضابط الفرنسي (Pélissier) على رأس كوكبة من الفرسان فلم يسع القاضي **وعزيز** إلا رفع الجلسة صارخا في وجه الضابط (Pélissier)، الذي كان مديرا لديوان الوالي العام والحاكم بأمره في الشؤون الإسلامية بأنه أهان العدالة فاغتنمت المتهمة الفرصة، واحتمت بالجيش الفرنسي الذي قادها إلى الكنسية حيث أجريت عليها مراسم التنصير.

أما القاضي فإنه ذهب إلى المفتي **مصطفى القبابطي**، وأطلعه على ما جرى، واتفقا على إعلان إضراب المحاكم بالعاصمة، وكان عددها سبعة، وبالفعل أغلقت المحاكم إلا أن الجنرال قوارول لم يستسغ هذا التصرف، وأنذر القاضي والمفتي بأنهما إن لم يأذنا بفتح المحاكم سيعزلان ويعوضان بآخرين، فلم يلتفتا إلى تهديده ووعيده وبقيت المحاكم مغلقة، فحينئذ عيَّن الجنرال **قوارول** الشيخ **أحمد ابن جعدون** (قاضي بيت المال)، مكان المفتي **مصطفى القبابطي**، وقاضي البليدة السيد **عواد بن عبد القادر** قاضيا مالكيا، مكان القاضي المالكي وعزيز، ولما تأزمت الحالة، وظهر استياء الرأي العام الإسلامي، احتج الحاكم المدني على هذه التصرفات وتراجع الجنرال **قوارول** عن تنفيذ عزل المفتي مصطفى بن القبابطي، وتعيين **أحمد بن جعدون** في موضعه مدَّعيا أنه لا زال لم يبلغه إذن وزير الحرب، أما القاضي **وعزيز** فإنه أقيمت حفلة تنصيب لخلفه قاضي البليدة، ودعا جل أعيان البلدة المسلمين الذين كان أكثرهم من الموظفين وأعضاء المجلس البلدي، فتخلف عن الحضور أكثرهم، وكان هذا الحفل يوم 10 سبتمبر

1834م، ولأول مرة في تاريخ الجزائر بعد الاحتلال تداخل الشعب مظهرا لسخطه واستياءه من تصرف السلطات الفرنسية، كما أعلنوا سخطهم على قاضي البليدة الذي رضي بالتولية، وقام أحد المتظاهرين داخل المحكمة وجذبه من لحيته، والجذب من اللحية رمز بأن صاحبها منعدم الرجولة، وقد ألقت الشرطة القبض على بعض المتظاهرين وقادتهم إلى السجن، فكان رد الفعل أن تظاهر الشعب في الشوارع ولم يفترق إلا بعد إطلاق سراح المساجين، هذه القضية التي جرنا سياق موضوع المحاضرة التي ذكرها كانت لها أبعاد عميقة، وشغلت الرأي العام الجزائري والفرنسي مدة، إذ رغم ما وقع طيلة السنوات الأربع التي أعقبت الاحتلال خصوصا في عهد الجنرال كلوزيل الذي داس بنود المعاهدة واحدا واحدا، وصادر الأملاك، وحوَّل المساجد إلى ثكنات وكنائس، أو مخازن، أو اصطبلات، وهدم كثيرا منها بدعوى توسيع الشوارع، أو إحداث الساحات، كساحة الشهداء الحالية، الشيء الذي أدى أكثر السكان إلى مغادرة البلاد كاظمين غيظهم وبقى الآخرون في انتظار الفرج لتسهيل اللحاق بهم كما بين ذلك محمد بن الشاهد في رسالته التي أثار فيها قضية الهجرة، اللهم إلا النخبة التي التحقت بباريس واتصلت بالصحافة والساسة لتستعين بهم على فضح هذه الموبقات، وكان أمثلها إذ ذاك حمدان بن عثمان خوجة الذي يعد تأليفه: **(المرآة)** سجلا لهذه الأحداث بتمامها، أثبتت هذه المظاهرة الشَّعبية عند الساسة الفرنسيين المدنيين والعسكريين أنَّ الشعب الجزائري قوي الإيمان، وقد صبر وتحمَّل المظالم، إلا أنه عندما وصل الأمر إلى العقيدة الإسلامية انفجر، وكان لهذه الأحداث مفعولها، حيث إنَّ الجنرال قوارول أراد أن يحمل مسؤولية هذه المظاهرة لموقف الحاكم المدني الفرنسي الذي كان يناوئه وأمكنه فعلا أن يعزله من منصبه، إلَّا أنَّ وزير الحرب أدرك الحقيقة فعزل الجنرال قوارول، وأعطيت التعاليم السرية إلى رجال الكنسية بالكف عن الدعوة إلى التنصير، وقد بيَّن هذه الأسرار الجنرال **ديرلون** (D'erlon) في التقارير السرية التي

تبادلها في الموضوع مع وزير الحرب، لَمَّا عيّن مكان الجنرال قوارول، وكان من جملة أبعاد هذه القضية الاستدلال بها عند مؤرخي فشل التنصير على حصانة السكان المسلمين إذ ذاك، تلك الحصانة التي سماها بعضهم تعصُّبا، خصوصا عندما قارنوا بينها وبين مواقف بعض الأسر المصرية التي تسابقت إلى تزويج بناتهن بضباط جيش الاحتلال الفرنسي عند حملة نابوليون على مصر، وقبل أن نواصل حديثنا عن ترجمة علي بن الخفَّاف، نبين أن القاضي وعزيز هاجر بعد عزله من منصبه إلى المغرب الأقصى، أمَّا الشيخ مصطفى فإنه بقي في منصب الإفتاء المالكي إلى سنة 1259هـ الموافقة لسنة 1843م، حيث حاولت الحكومة التصرف في أحباس الجامع الأعظم المالكي، فامتنع، فألقي عليه القبض وعزل، فاختار اللحاق بزميله ومواطنه الشيخ محمد بن محمود بن العناني شيخ الإسلام الحنفي بالجزائر الذي عُزِلَ إثر الاحتلال الفرنسي للجزائر مباشرة، واختار الإقامة بالإسكندرية، حيث عيَّنته الحكومة المصرية مفتيا حنفيا إلى أن توفي بها، وقد خصَّه أبو القاسم سعد الله بدراسة قَيِّمَة، كما نشر كثيرا من مآثره التي منها بعض فهارسه د.عبد الكريم الزموري، إذ كثيرا ما اشتبه مصطفى القبابطي به، وحسبهما القراء وبعض الباحثين شخصا واحدا، إذ كان يطلق على كل منهما المفتي الجزائري وإن حظي محمد بن محمود الحنفي بدراسات قَيِّمَة، فإنَّ أمنيتنا أن يعتني بعض الباحثين بحياة مصطفى القبابطي الذي وإن لم يوظَّف رسميا بالإسكندرية، فإنه كان من خدمة العلم خصوصا رواية الحديث إلى أن أدركه المنون بها سنة 1268ه، وقد ذكر صاحب: (**إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**)، في ترجمة أحمد بن سودة الفاسي، أنه روى سنة 1267ه، بالإسكندرية عن الشيخ مصطفى بن محمد الكبابطي الجزائري المتوفى بالإسكندرية سنة 1268هـ».

كما نجد حفيده، أي ابن بنته الشيخ **علي ابن سماية**، والد العلامة الشيخ **عبد الحليم ابن سماية الجزائري**، التحق به وقرأ عنه وعن غيره، وقيل هو الذي حمله عند رجوعه إلى

الجزائر زجله المشهور، الذي لا زال محل اعتناء الفنانين بالجزائر، إذ يعدُّونه من الأغاني الأندلسية المختارة، إلا أنَّهم لم ينسبوه إلى صاحبه ولم ندر السبب في ذلك، هل خشية قلم المراقبة، أم العقوق للتراث غثه وسمينه ؟ والشيخ مصطفى بن الكبابطي كان ككثير من علماء زمانه بالجزائر فنانا، مبدعا، شاعرا، وملحنا، فقد نظم هذا الزجل في **الإسكندرية** يبث فيها نجواه ويعبر عن أساه وقد استهلَّه بقوله:

بلغ سلامي يا الورشان للجزائر

وهذه بعض الأبيات منه:

من يبات يراعي الأحباب آش هي	حالتو ودموعو على الخد شي غزاير
لاحنين ولا رحيم يعرف آش بي	حالتي حالة من لبد ايبات ساهر
يا حمام اعناني واعمل جميل في	بلغ سلامي يا الورشان للجزائر

إلى أن يقول:

آش حالة من جرع من الفراق كيسان	لو يجرع بحور من بعدهم يذيب
آش حالة من هو مكوي بصهد نيران	ينشد على الأحباب ودمعو سكيب
آش حالة من ظل وبات به سهران	طول عمرو يتمنى يراعي الحبيب

إلى أن يختمه بقوله:

كيف نصبر وانا مكوي بميات كية	وحشهم في قلبي حرقة بلا شراير
آه يا قلبي اصبر واستلزم الخفية	كـه لله فيما تلقى عبد صابر
يا احمام اعناني واعمل جميل في	بلغ سلامي يا الورشان للجزائر

ولنواصل حديثنا عن بقية مواقف مترجمنا **ابن الحفَّاف** فإنه لَمَّا التحق بجيش الأمير عبد القادر وعيّن كاتبا، أرسل رسالته التي ذكرناها إلى علماء العاصمة، فأثّرت فيهم

تأثيرا سيئا، وتولى جوابه عنها أستاذه محمد بن الشاهد الصغير، ومن بعض فقرات هذا الجواب التي نذكرها، يظهر لنا الجو المكفهر الذي كان يسود البلاد، كما نستفيد منها حقائق عاشتها العاصمة، واختلف مؤرّخوها بين محبذ ومنكر، ونسبوا الكثير منها إلى الصراع الذي كان بين العسكريين والمدنيين، حتى إنَّهم أنكروا محتوى (**المرآة**) لحمدان بن عثمان خوجة، وذهب الكثير منهم إلى أنه لم يحرره، بدعوى أنهم لم يجدوا له أصلا بالعربية، وحمدان لم يكن ضليعا باللغة الفرنسية حتى يتمكن له تحرير (**المرآة**) بها، وإنما كتب (**المرآة**) خصوم الجنرال كلوزيل، الذي كان في طليعتهم الحاكم المدني بالجزائر، فمن رد محمد بن الشاهد على الشيخ بن الحفَّاف، يثبت عندنا أن الحقائق الموجودة في (**المرآة**) هي التي عاشها سكان الجزائر ولو لم تكن لكان أول من نفاها الشيخ محمد بن الشاهد ليبرر بها رد اتهامات ابن الحفَّاف، إذ لم يمنعه موقفه من ردّ تهم أخرى ذكرها ابن الحفَّاف، وقال له أنه لا نصيب لها من الصحة، ولهذا يعد كتاب ابن الشاهد هذا من أهم الوثائق التاريخية وأصحها، حيث ألقى أضواء على فترة من التاريخ بلبلت أفكار المتأخرين، وتركتهم حيارى، حتى إنَّ كثيرا منهم ظهر لهم أنها على فرض صحتها، فهي لا تخلو من مبالغة، وهذه فقرات من كتاب ابن الشاهد إلى ابن الحفَّاف، افتتح **ابن الشاهد** كتابه بالحمدلة والتَّصلية على عادة علماء العَصر، ضمَّنهما موضوع الكتاب، فقال: «الحمد لله الذي طهَّر قلوبنا مِن أوساخ الأغراض، وألسِنَتنا مِن العتب والوقوع في الأعراض، وأزال عنا حبَّ الرِّياسة والظهور المؤذنِ بهما تزويق الألفاظ، خصوصا في هذه الحالة التي انصدَعت فيها القلوب وتزاحمت عليها أنواع الأمراض... »، إلى أن يقول: «... وبعد، فقد وَصلتنا رسالتكم التي أطنبتُم فيها وأَوجزتم، وأظهرتم علوَّكم علينا وأَضمرتم، ومِن سَبِّنا تَصريحا والتزاما أَكثرتُم، تحومون فيها حولَ تكفيرنا، بسببِ مكثِنا في هذه البلدةِ وعدمِ انتِقالنا، فَرشَقتمُونا بسهامٍ واهية، أَنشأَتها تخيُّلات أوهامٍ هي عن اتِّباع الحقِّ ساهية، وبارتكاب الدَّعوى ومتابعتها للهوَى لاهية، فأَنتجَت لكم أنكم

بِمَعزل عَن غرضِ الإِصابة، وأَنكم مِن العلمِ في غاية البُعدِ ومِن الجهلِ في غاية القَرابة، ولكن لما جرَت بحور الأغراضِ بأَفكاركم، وهاجَت بِقلوبكم أَمواج الحِقد والحسَد حتى ظَهرت مِن بين أظفاركم، عَمدتُم إلى تكفيرنا مِن غير استِنادٍ لدليل، تقومُ به الحجةُ ويشفى به غليلُ العليل، بل أَتيتُم بِدلائل تخيلتُم بتخيلاتكم الفاسدة، وأفهامكم الراكدة، وأذهانكم الجامدة، أنها تقوم علينا بها الحجة، وما هي إلا كسراج بيد من لا يدر أين يضع قدمه فأوقعه سوء فعله في بحار اللجة، وذلك لأن تلك الدلائل بعد التسليم إنما تدل على وجوب الهجرة على الإطلاق، إنما هي في حق من كان قادرا على الهجرة وتركها، وأما من كان عاجزا كأمثالنا، فلا تنهض عليه بها الحجة، والعجب منكم وأنتم من ذوي التحصيل، حيث ارتكبتم الإجمال في مقام التفصيل، والآية التي استدللتم بها على وجوب الهجرة، وهي قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧﴾ (النساء: 97)، إلى قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡ﴾ (النساء: 99) مفصّلة، لأنَّ صدرها تضمَّن الوعيد، وعجزها تضمَّن الوعدَ بالعفو، ولذلك قال:﴿ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ ﴾ (النساء: 98)، وكأنكم لم تعلموا أن حكم المستثنى يخالف حكم المستثنى منه، وهو معنى التفصيل الذي ادَّعيناه، ومن تمام العجب أنكم استدللتم على وجوب الهجرة، الذي هو مدعاكم بصدر الآية، ولم تعرجوا على عجزها الذي هو متمسكنا، ولم تحوموا حول حماه، كأنكم خشيتم أن يتفطَّن خصمكم لما تقوم به الحجة عليكم ويتم مناه، فيستضيء بأنوار العلم جبينه، وتسود بسواد الجهل منكم الجباه، ويفوت غرضكم الذي أنشأتم له هذه الرسالة، وهو تبكيت خصمكم، واتصافكم بغاية العلم، وانتسابه وحده إلى الجهالة، لله دركم ما أحسن صنيعكم واستنباطكم، خصوصا إن كنتم ممن يظهر الخشوع في الأسواق،

وترسل الدموع الساحة بعد الأخرى منكم الأحداق، فتكونون عند العامة من العلماء العاملين، وأنت في باطن الأمر، من الذين ظلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، ولا شيء، عليكم من ذلك لأن غرضكم متعلق بالأمور الدنيوية، والشهوات النفسانية،... إلى أن يقول:«... وكان من حقكم أن تسألوا عن سبب مكثنا في هذه البلدة، هل هو رضى بالكفر، ومحبة في معاشرة أهله، أو هو لغير ذلك، وكيف يتصور في أذهانكم، أننا نرضى بالكفر، ونحب معاشرة أهله، وقد غلت أسعارنا، وتعطلت صنائعنا، وانهدمت حوانيتنا، وتعسرت مكاسبنا، وحفرت مقابرنا، ونبشت ضرائح أوليائنا، وما حصلت هذه الأشياء إلا بسبب دخوله، فأي عزّ لنا في هذه الأشياء حتى نرضى بها كما ذكرتم، وقلتم إن النفوس اللئيمة إذا ألفت العز، فلا تحب مفارقته، أبهذه الأشياء عزّ لنا، والله الذي لا إله إلا هو، نحن إذا أصبحنا، لا نريد أن يمسي معنا، وإذا أمسينا لا نريد أن يصبح معنا»، ثم تعرض ابن الشاهد لوصف حالة السكان الذين هاجر الكثير منهم وهم من الطبقة المترفة، وبقي المستضعفون والملحقون بهم، من متوسطي الحال، خصوصا طبقات المثقفين، وحالتهم المادية، التي لا تفي بحاجات ما تتطلبه الهجرة، سواء داخل البلاد أو خارجها، وفي ذلك قال: «لأن الجل الكثير من ذوي الأموال ارتحل وسافر من هذه البلدة برا وبحرا، شرقا وغربا، كما هو مشاهد محسوس لكل واحد، وهذه البقية، اختلفت أسباب تأخرهم عن الارتحال، فمنهم من له عقارات يريد أن يبيعها، ولم يتيسر له ذلك إلى الآن، ومنهم من له ديون، لم تطب نفسه أن يسافر قبل قبضها، ومنهم من له عيالات كثيرة تعلقت برقبته، ينتظر الوقت الذي يحصل له تيسير الارتحال فيه، وهجرة أصحاب النبي ﷺ، لم تكن في يوم واحد ولا في شهر واحد، هاجر كل منهم في الوقت الذي تيسرت له الهجرة فيه، ونحن كذلك، فالناس قاطبة على نية الارتحال والخروج، لكن كل يتربص وينتظر الوقت الذي يحصل له فيه التيسير، هذا حاصل سبب مكثنا في هذه البلدة... الخ ».

ثم ختم رسالته بتأنيبه وتجهيله فقال: «وانظر على هذه المعاني الركيكة، التي تستنبطها حتى صارت الفتوى تنادي بلسان حالها فضحتني، فضحتني، ومن منابر العلماء وروضاتهم أنزلتني، وفي بحار الجهل وظلماته أغرقتني، وحق لها أن تنادي لأن هذا لعمري منك غاية الإقدام، حيث استسهلت ارتقاء المراقي، التي تزل فيها الأقدام مع عدم إتقانك للعلوم، وعدم تفريقك بين المنطوق والمفهوم، فكان الأحق والله أن تلزم زوايا الخمول، وتسلك طريق التخلي عن الجولان في مهامه الفضول، وأن لا تجوس خلال هذه الديار إلا إذا ركبت جواد السبق لذلك المضمار، كي تخلص نفسك من ارتكاب هذه البشاعة، ومن الوقوف بسوق النفائس، مع فراغ ذات اليد وقلة البضاعة... الخ».

نكتفي بهذا القدر من رسالة ابن الشاهد إلى تلميذه ابن الحفَّاف، مع لفت النظر إلى أن قضية الهجرة هي من القضايا الشائكة في البلاد الإسلامية عموما، من فجر التاريخ الإسلامي، وبالخصوص في بلاد المغرب العربي الذي كان يشمل بلاد الأندلس، تلك البلاد التي مرَّت عليها أهوال ومأساة، ألزمت جل سكانها هجرتها ابتداءً من القرن الخامس، بعد سقوط الخلافة الأموية وتمزيق ملوك الطوائف البلاد، ودامت هذه الهجرة إلى سقوط مملكة غرناطة، وفتح باب الهجرة على مصراعيه لجميع السكان المسلمين، وقد لاقى كثير منهم مسغبة في بلاد المغرب، فاختاروا الرجوع إلى الأندلس، فحينئذ وقع رد فعل من فقهاء المغرب وقد تعرض لذلك العالم الشهير أحمد بن يحي الونشريسي في رسالته القيمة: (**أسنى المتاجر فيمن أغارت عليه النصارى ولم يهاجر**)، وقد استعرض في تأليفه قضية الهجرة في عهد الصحابة إلى مأساة الأندلس وما تخلل ذلك من موقف المسلمين الذين تساكنوا مع المسيحيين في صقلية وغيرها من الجزر التابعة لها، كـ: جزيرتي **مالطا** و**سردينيا**، وقد بقي حكم **الونشريسي** الذي أفتى بوجوب الهجرة ساري المفعول إلى الاحتلال الفرنسي، ولذلك وجدنا زيادة على رسالة ابن

الحفَّاف، العالم الشهير أبو القاسم بن أحمد بن الهواري البزاغتي، كبير أهل الشورى في عهده، نقل بخطه رسالة الونشريسي وقال معلقا عليها بما يلي: «وكتبه العبد المذنب الحقير الفقير إلى رحمة المولى القدير، الرّاغب فيه المتوسّل إليه برسوله، أن يحفظ إليه إيمانه، وأن ينجّيه من أعدائه الكفرة الفجرة، وأن يعينه على الهجرة مع الأهل والذريّة... الخ »، في جمادى عام 1252هـ، وكان نفس مترجمنا علي بن الحفّاف الذي أثار هذه القضيّة، وهو أعلم النّاس بتغيير موقف الأمير عبد القادر، الذي لما وضعت الحرب أوزارها، أذنَ لكثير من أقاربه وحاشيته بالرُّجوع من الشَّام، لتولية وظائف شرعيّة، ومنهم ابن عمّه، الكاتب الشَّهير الطيّب بن المختار، الذي تولى القضاء بمدينة تيغنيف قرب أم عسكر، فإنّ عليّ بن الحفاف كان ينوي الهجرة، ومن ذلك ما حكاه بيرم الخامس في رحلته (**صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**)، أنَّه لَّما زار الجزائر اجتمع به وذكر انطباعاته عن هذا الاجتماع فقال: «ومن الأخيار الذين اجتمعت بهم، ومنحوني فضائل أخلاقهم، النحرير العالم الشيخ علي بن الحفَّاف، المفتي المالكي بقاعدة الجزائر، وهو من تلامذة الشيخ إبراهيم الرياحي، كما أخبرني بذلك عن نفسه، وله فضائل كاملة، وتقوى وسكينة واطلاع، وسعة في الفقه والحديث... الخ».

ثم ذكر أن المترجم استشاره في قضية الهجرة فقال: «... وذاكرني في الهجرة فذكّرته بأن مثله قليل الوجود في ذلك القطر، وأنا بقاءه فيه لتعليم الناس دينهم، أنفع للعامة وله عند الله، من خروجه برأسه وإبقاء تلك الأمة المسلمة خالية من مثله، بل وربما حمل خروج غيره، ممن هو على شاكلته على الخروج، فتبقى العامة بلا تعلم لديانتهم، وتضمحل منهم الديانة شيئا فشيئا والعياذ بالله، بخلاف ما إذا بقي هو وأمثاله فإنه تنتشر تعاليم العقائد والفقه، وتبقى الديانة إن شاء الله محفوظة في الأهالي، وذلك هو المنصوص عليه في كتب فقهنا» اهـ.

نكتفي بهذا القدر الذي نختم به الدور الأول من الأدوار الثلاثة التي قام بها مترجمنا، وننتقل إلى الدور الثاني، وهو المتعلق برحلته إلى المشرق، ومناظرته للشيخ دحلان المفتي الشافعي بالحجاز، ولنترك له الكلمة حيث قال في مقدمة رسالته التي سماها: (**الدقائق المفصلة في تحرير آية البسملة**)، قال: «الحمد لله الذي فتح أقفال قلوب العلماء بدقائق الأنظار، وادخر للأواخر منهم دقائق رقائق الأفكار، وأمد الجميع بنور منبع الأنوار، والصلاة والسلام على سيدنا محمد مهدى الأسرار، وعلى آله وأصحابه الطيبين الأخيار، وبعد فإنه لما من الله على العبد الحقير، بالوصول إلى الحرم الشريف، واتفق الاجتماع بالعلامة الشيخ سيدي دحلان ـ مفتي السادة الشافعية ـ انجر الكلام على البسملة، فذكرت نقل العلامة النِّحرير سيدي محمد البناني، محشي الشَّيخ الزَّرقاني على (**المختصر**)، وقلت ما ملخصه: إنَّ المقتدى به في البسملة القرَّاء، فقال: إن المجتهد لا يقلد، فلم يسعني البحث في ذلك الوقت لضيق فرصة الغريب، لاسيما في موسم الحج، ظهر لي أن أتعرف للمسألة لما تقتضيه القوانين الشرعية وبما يسعه الفكر والنظر، فجعلت رسالة سميتها: (**الدقائق المفصلة في تحرير آية البسملة**) قاصدا بذلك إظهار الحق، ابتغاء وجه الله، والله يعلم بأني لم أقصد اعتراضا ولا معارضة، لاسيما مع أئمة الدين المقتدى بهم في شريعة سيّد المرسلين، وإنما المقصود التنبيه على ما خفي عن بعض، إذ كانت العلوم منحا إلهية، ومواهب ربَّانية، فغير مستبعد أن يدخر للأواخر ما عسر على الأوائل» اهـ.

وكان تاريخ هذا الرسالة في 26 جمادى الثانية سنة 1286هـ، وذيَّلها برسالة أخرى ناقش فيها آراء الشيخ محمد عليش المصري الذي أيَّد الشيخ دحلان في القضية، فقال ابن الحفَّاف في التذييل: «وذيلت الدقائق المفصلة في تحرير آية البسملة»، بما ورد عن بعض فضلاء مصر، وهو العلامة الشيخ محمد عليش، الذي استدلَّ بكلام الشيخ

الأمير المنقول في تأليفه: (**ضوء الشموع على شرح المجموع**)، وكان هذا التذييل في 28 شوال 1297هـ» اهـ.

ولنواصل حديثنا عن الدور الثالث والأخير الذي قام به مترجمنا، وهو المتعلق بقضية الهلال، فقد انتقد موقفه الفقيه الرَّحالة محمد بن المصطفى المشرفي السابق الذكر، فعندئذ تصدى للرد عليه الشيخ أحمد أبو طالب قاضي مستغانم الذي كان من تلامذة علي ابن الحفَّاف، وسمى رسالته هذه: (**الإنصاف في نصرة نجل الحفَّاف ورد اعتراضات السَّفساف**)، فردَّ عليه المشرفي برسالة سمَّاها: (**السهام الصائبة في رد الدَّعاوى الكاذبة**)، ثم ردَّ عليه القاضي أبو طالب برسالة أخرى سماها: (**الحسام في تكسير السهام**)، ورغم ما في هذه الرسائل من إقذاع وخروج عن صميم موضوع الخلاف فإنها مفيدة جدا، إذ لولاها لما كنا نطَّلع على تراجم كثير من علماء ذلك العهد ـ وإن كان عهدا قريبا ـ كما أفادتنا هذه الرسائل وجود رأي عام في أوساط الفقهاء والشعب، لا كما يتصوره كثير من المعاصرين بأن قضية ثبوت الهلال كانت تفرضها سلطات الاحتلال على السكان بواسطة الفقهاء الجامدين، فيمتثلون للأوامر دون أن يحركوا ساكنا، وهكذا نرى كثيرا من المتأخرين استغلوا هذه الفترات من تاريخ البلاد فمسخوها وشوَّهوها .

ولنرجع إلى الحديث عن رسالة أبي طالب: (**الإنصاف في نصرة نجل الحفَّاف ورد اعتراضات السفساف**) وذلك أنه ثبت الهلال في تلك السنة بالعاصمة، ليلة الأربعاء، ولم يثبت في ولاية وهران إلا ليلة الجمعة، أي كان الفرق بين الرؤيتَين ثلاث ليال وبين قوسين (وهذا الأمر ليس بالغريب في بلادنا إذ يتجدَّد في كل سنة شرقا وغربا، ففي سنتنا هذه أفطر إخواننا بالمشرق يوم الجمعة، وأفطرت الجزائر يوم السبت، وأفطر المغرب الأقصى بيوم الأحد، وكنت حضرت في هذه السنة مؤتمر السِّيرة النبوية الذي

انعقد بالباكستان، وكانت بدايته فاتح ربيع الأول، ونهايته ليلة المولد النبوي، وكان الاحتفال بهذه الليلة رائعا بكراتشي، وحضره ممثلوا (70) دولة، وفي طليعتهم شيخ الجامع الأزهر وإمام الحرم المكي، الَّلذان أشرفا على أعمال **المؤتمر** من البداية إلى النهاية، إلا أن يوم المولد احتفل به يوم الجمعة بالحجاز أو العربية السعودية، ويوم السبت بالجزائر ويوم الأحد في باكستان)، ولنرجع إلى الحديث عن رد القاضي أبي طالب على المشرفي الذي لقبه بـ: «السَّفساف » وقال: «**قال السَّفساف:** وأما العادة فيبعد عنها كل البعد، بل يستحيل أن يرى الهلال أو يثبت بالكمال ليلة الأربعاء بالجزائر ولم ير بأرضنا تلك الليلة، ولا التي بعدها إلا ليلة الجمعة فيبدو صغيرا، وبيننا وبينهم نحو السبع مراحل، هذا ملخص اعتراضه اهـ.

أقول: لئن سلمنا أن العَّادة محكمة، فلا نسلم أنَّ أهل الجزائر لا يمكنهم أن يسبقوا برؤية الهلال ليلا يناقض مدَّعاه الليلة الذي نقله عن أبي الحسن الطرطوشي... »، ثم قال أبو طالب في فقرة أخرى: «**قال السَّفساف:** وقد صام المسلمون بسنتنا هذه بالجمعة، فمن تلمسان إلى البحر المحيط، وكذلك ما والانا من الجنوب، ولم يصم أحد بالأربعاء إلا هذا الغافل عن دينه، أومن اقتدى به، وأمره بذلك من الجهال، الذين لم يعلموا قدر ما يجب عليهم في الاقتداء بهذا وأضرابه.

أنـترك نصـا للرسـول ونقتـدي بشخص لقد أبدلت بالرشد الغيـا

ومن ثم لم يلتفت بعض المحققين إلى أخبارهم الواهية، واعتقاداتهم الفاسدة، هذا ملخص اعتراضه ».

وقبل أن نختم هذه الدراسة نذكر نبذة من ترجمتي القاضي أبي طالب وخصمه المشرفي.

فالقاضي أبو طالب هو أحمد المدعو المجاهد بن محمد بن عبد القادر بن علي أبو طالب، أخ السيد محيي الدين والد الأمير، وُلد أحمد هذا في القيطنة سنة 1252هـ، وهاجر أبوه محمد إلى فاس بعد انتهاء حرب الأمير، ثم واصل مسيرته إلى دمشق، فأخذ مترجمنا عن قريبه الأمير ثم رجع مع أبيه إلى الجزائر فتولى أبوه قضاء قسنطينة، وتولى هو مكانه بقضاء سطيف، ومنها انتقل إلى قضاء الأربعاء، فتعرف بالشيخ علي بن الحفَّاف وأخذ عنه، وهذا هو الداعي إلى انتصاره له، وقد ذكر في تقديمه لرسالة: (**الإنصاف في الرد على السَّفساف**) الظروف التي ألفها فيها فقال: «فاجأني بعض الأدباء بأوراق، قد زخرف ألفاظها بعض من ينتحل الفقه، ويزعم أنه من الحذاق، وعرف بإساءة الأدب فيها على مفتي الإسلام، وما كفاه عرضه النقي، حتى أضاف إليه عدة ذوات من أهل الجزائر الكرام من غير ذنب ولا سبب، وأورد اعتراضات ليس لها رأس ولا ذنب، فلما تأملت قوله: «... وبعد فهذه عدَّة سنين وأهل الجزائر ينفردون بصيام يوم أو يومين من شعبان، ويأكلون يوما أو يومين من رمضان، وبينهم وبين المسلمين في ذلك مخالفة، وكلام بالمكاتبة والمشافهة، ويأمرون من حولهم إلى وهران بالفطر والصيام، يعتقدون أنهم على سنة سيدنا محمد عليه السلام، إلى آخر ما افتراه من الكلام، الذي يستحقّ عليه الملام والإيلام إلى أن قال:«... وأنَّ هذا المخذول قد غلط غلطا فاحشا، وإنَّ سهمه الذي رمى به أولائك السَّادة قد جاء طائشا... فلذلك تمسكت بالإنصاف وتصديت لنصرة ابن الحفَّاف، على ذلك السَّفساف، والتزمت بأن لا أتعرض لنصوص الأحكام التي جلبها، ولا أناقض أو أعارض نصوص الحكم التي استلبها، لأنه أهملها ووضعها في غير محلها، ولأن موضوع مسألتنا هو الاعتناء بأمر الهلال أو عدم الاعتناء، فتغافل ذلك السَّفساف، عن هذه الجملة وأعرض، وصار يغالط العوام بالبحث عن طول البلدان والعرض،... وقد رتبت ما عنيت على مقدمة ومقصدين وخاتمة، وسميته: (**الإنصاف في الرد على اعتراضات السَّفساف**)».

أمَّا خصمه أبو عبد الله محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي فهو من بيت توارث أفراده العلم والمجد قرونا، وأشهرهم: الشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي المتوفى سنة 1112هـ بالكرط، وقد هاجر مترجمنا بعد الاحتلال الفرنسي إلى المشرق مع والده، ثم رجع بعد وفاة والده إلى فاس، حيث هاجر إليه بعض أقاربه، فأفاد بها واستفاد وقد ترجمه الشيخ عبد الحفيظ الفاسي في معجم شيوخه الذين روى عنهم الحديث فقال في (**رياض الجنة أو المدهش المطرب**): «الحاج بن مصطفى أبو عبد الله محمد بن محمد بن مصطفى المدعو السيد الحاج المشرفي الإغريسي الفاسي دارا ووفاة، العالم الفقيه الشاعر رحمه الله تعالى...» إلى أن قال: «... كان رحمه الله عالما ذا مشاركة حسنة في الفقه والعربية وغيرهما، وكان شاعرا، إلا أنه كان هجاء كشيخه وابن عمه، العالم الشاعر الهجاء الكبير أبي حامد العربي المشرفي الشهير، فقد مزقا أعراض الناس مما كان سببا لنفرة الناس منهما، وكان المترجم بعد طلبه العلم وتأهله بفاس اشتغل بالتجارة، وتردد في سبيلها بين فاس وغيلزان من وطن الجزائر دهرا طويلا إلى أن استقر بفاس حدود العشرة بعد الثلاثمائة، فولاه إذ ذاك قاضي الجماعة بفاس نيابة قضاء الحياينة، فلم يزل على ذلك، إلى أن توفي رحمه الله تعالى »، ثم ذكر صاحب المعجم أشهر مشايخه الذين أخذ عنهم بفاس ومؤلفاته، وختم ذلك بتاريخ وفاته فقال: «أجازني رحمه الله رواية عامة عام 23 (أي بعد 1300) وكانت وفاته في السنة التي بعدها، ودفن بروضة المهاجرين والغرباء، جوار الشيخ أبي الحسن بن حرزهم نفعنا الله تعالى به» اهـ.

وقد أثَّرت قضية الهلال في حياته ولربما من الأسباب التي فارق من أجلها وطنه، واستبداله الحياة الحرة في التجارة بين فاس وغيلزان، بحياة الوظيف المقيدة بأكوار مدينة فاس، وقد صوَّر ابن عمه الشيخ أبو حامد محمد العربي ذلك في القصيدة التي مدحه فيها عند رجوعه من غيلزان إلى فاس فقال وكأنه يريد تسليته:

قـدمت سـلما للزَّمـان الفاسـد دهـر اللئـام دهـر كـل فاسـد
دهـر التكـبر والتجـبر والخنـا ظهـرت فواحشـه لكـلّ ماجـد
دهـر الجنايـة والخيانـة والجفـا ظهـرت مسـاويه لكـلِّ عابـد
دهر التَّجَاسُرِ والتَّنَاصُرِ والعمـى ظهـرت عوائقـه لكـلِّ مشـاهد
دهـر التَّعَصُّـبِ مـن جهالـة أهلـه فتـألفوا وحـار كـلِّ مكابـد
دهـر بـه استأسـد كـلَّ ثعلـب وعـوت وعاوعـه بكـلِّ هامـد
دهـر الألى خـانوا عهـد الهمـم ببـيعهم فسـدت عقـود العاقـد
وتعـاملوا في خطَّـة أشـياعهم بربى النسا والفضل يا بـن الماجـد
فاحمـد إلهـك إذ رجعـت سـالما بـدينك المـبرور ديـن السـاجد
واشـكره شـكر ديانـة وأمانـة و اثـن الثنـاء بفضـائل ومحامـد
الكـد للعيـال فيـه راحـة يـا ابـن الكـرام ونخبـة الأماجـد
أمحمـد بـن محمـد المصـطفى يمحـو ذنـوب مـذنب ومجالـد
المشـرفي الصَّـلت كنـت مهنـدا لحـزم كـل مكـابر ومعانـد
لازلـت نسـرا للبغـاة تحطُّهـم مـن رتبـة الطـيران بـاز الصـائد
فأقـدم غـدا لتحيـي عهـدا سـالفا ففـي انتظـارك لا محالـة عائـد
وعليـك منـي تحيـة ميمونـة تحيـي أهلـك واحـدا في واحـد

ولنختم هذه المحاضرة بالرجوع إلى تتميم ترجمة علي بن الحفَّاف، الذي ذكرنا نبذة مختصرة من ترجمته أثبتها القاضي أحمد أبو طالب في رسالة: (**الإنصاف في اعتراضات السَّفساف**)، والتي ذكر فيها ظروف تعرفه به، قال: «وكنت ترددت على مجالسه التقية أيام ولايتي بمتيجة الغربية والشرقية، فما سمعت سوى مقتضيات السنة والكتاب، ولا رأيت إلا المتابعة للجماعة والأصحاب، ومن شك أو ارتاب فالأعراب بالباب، وكانت

لطمتني لطيمة ختامه، فحرَّكت مني ما كان ساكنا لوصف بعض أختامه:

ختم الحديث لـه الأكـوان تنفـتح ... لاسـيما مـا يبـدأ الـوحي مفتـتح
والخير والنفع والإقبال فـيما روى ... عن نافع مالك والصـدر منشـرح
والحســن كلــه فــيما قــال حــدَّثنا ... أو قــال أنبأنــا لا فــرق يتَّضــح

إلى أن قال:

فهذه روضة التحديث قد فتحـت ... عن زهري الختم فيه الفتح منشرح
فاسـمع سـماع قبـول عـن تفَهمِه ... مع فتية بعلي الخفَّـاف قـد منحـوا

ثم ذكر قائمة مؤلَّفاته القيمة التي من بينها:(**مِنَّة المتعال في تكميل الاستدلال**) في القراءات، حيث يعدُّ علي بن الخفَّاف خاتمة علماء القراءات بالجزائر، وعلم القراءات احتضنته الجزائر عدَّة قرون، وكانت له معاهد خاصة بوادي بجاية، ويرد عليها الطلَّاب من تونس وغيرها، وقد توفي رحمه الله بالجزائر كما أسلفنا سنة 1307هـ، وفي ذلك قال **أبو القاسم الحفناوي** في ترجمته بـ: (**تعريف الخلف**): «وكانت وفاة الإمام ابن الخفَّاف يوم السبت صباحا عام 1307هـ، وكنت في عشية يوم الجمعة قصدته، مع علامة المغربين الأدنى والأوسط، الشيخ **المكي بن مصطفى بن عزوز**، فزرناه وطلب منه الشيخ الإجازة في (**البخاري**) خصوصا، وفي غيره على ما أظن عموما، فأجازه، وفي الغد سمعنا بوفاته، فسبحان القدير على جمع من يشاء بمن شاء متى شاء» اهـ.

المهدي البوعبدلي

عبد الرَّحمـٰن الأَخضري
وأطوار السَّلفية في الجزائر(1)

قبل أن أتعرَّض لترجمة نبذة من حياة **عبد الرحمـٰن الأخضري** ونشاطه في مختلف ميادين الثقافة، نذكر بإيجاز دور علماء الجزائر البارز في السلفية، ومساهمتهم في المعارك التي أثارتها، منذ ظهورها بصفة جلية، في بلاد المشرق والمغرب، ابتداء من القرن السابع الهجري.

وإني سأتناول بالبحث الظروف التي ظهرت فيها السلفية، وطريق تسربها إلى الجزائر، وظهور أنصارها في الأوساط العلمية بالجزائر، إلى عهد عبد الرحمـٰن الأخضري، ثم مواصلة مسيرتها إلى أوائل القرن الجاري، من غير تعرض للتفاصيل .

كانت السلفية تتلخص فيما أوصى به النبي ﷺ في خطبته المنهجية في حجة الوداع التي قال فيها: «إني تركت فيكم ما أن استعصمتم به لن تضلوا أبدا، كتاب الله وسنة رسوله ﷺ » أو كما قال، وعندما انتشر الإسلام، وظهرت المذاهب لمختلف الملل والنحل، وكان من بينها مذهب التصوف، الذي أسرف بعض أئمته، وتغالوا في الدعوة إلى التحرر من التقاليد، وإسقاط التكاليف، وزاد الأمر تعكرا عندما ظهرت لكثير من أئمة التصوف طرق، أقبل عليها كثير من العوام، فعندئذ، ظهر رد فعل الفقهاء، الذين

---

(1) **الأَصالة**: العدد: 53، صفر 1398هـ/ جانفي 1978م، ص: 21 ـ 35، كما اعتمدنا على نسخة خطية بقلم الشَّيخ المهدي (رحمه الله تعالى) تقع في (44) صفحة، سقطت من بدايتها صفحتان . (ع)

ضاقوا ذرعا بهذه التعاليم، خصوصا بعد محاكمة الحسين بن منصور الحلاج، الذي كان من دعاة مذهب الحلول، كان رد فعل الفقهاء الذين انضم إليهم كثير من المحدثين، اتهام المتصوفة بالمروق من الدين، حيث اتهموا بأن تعاليمهم مستمدة من مذاهب غير إسلامية.

إن الموضوع قتل بحثا، وليس المقصود في هذه المحاضرة التعرض لبحث الخلافات المذهبية إذ ذاك، وإنما ذكرت ذلك كتوطئة، ومدخل لموضوع البحث.

اشتدت حملة الفقهاء والمحدثين على التصوف، حتى ظن أنه اختفى للأبد، إذ صار جل المنتسبين إليه يرمون بالزندقة، وفي القرن الخامس الهجري ظهر العالم الشهير، **أبو حامد الغزالي** الذي أمكنه أن يهذب علم التصوف، وحاول التوفيق بينه وبين علوم السنة، وبالفعل جعل منه علما إلى جانب ما فيه من العمل وجعل فيه بنوع خاص طريقا إلى المعرفة اليقينية.

وقد تلقى أهل السنة تعاليم **الغزالي** بالقبول الحسن وأسر الفقهاء على مواقفهم منه، خصوصا فقهاء المغرب العربي والأندلس مما هو مشهور، وقد شذ من بينهم فقيه جزائري له مكانته انتصر لـ: **الغزالي** وهو **أبو الفضل ابن النحوي** صاحب المنفرجة الشهير (دفين قلعة بني حماد)، وبعد ظهور دولة الموحدين، مر الخطر الذي كان يهدد تعاليم **الغزالي** خصوصا في المغرب العربي، أما في المشرق، فقد ظهرت حملة ضد تعاليمه أهمها تآليف **أبي الفرج عبد الرحمن الجوزي** البغدادي، المتوفى سنة 597هـ، ثم ظهر بعد **الغزالي،** أئمة آخرون، مثل **محيي الدين ابن عربي** و**ابن سبعين،** وتلميذه **الششتري،** فأثاروا المشاكل من جديد ولم ينجوا من الحكم بالإعدام إلا بمعجزة وقد تصدى لهم الإمام **ابن تيمية** في عهده فحكم على أكثرهم بالكفر، و ألحق بهم العلماء الذين أيدوهم، أو وقفوا مواقف سلبية، إزاء دعوتهم، كما تطرق ابن تيمية إلى إنكار التوسل وزيارة

القبور إلى أن اتهمه خصومه بأنه منع زيارة قبر الرسول ﷺ، وكانت هذه التهمة من جملة التهم التي جرت له الويلات وسجن إلى أن مات في سجنه، ترك ابن تيمية تآليف عديدة وتلاميذ لا يقلِّون عنه رتبة، فنشروا تعاليمه وتآليفه التي ركَّز عليها ابن عبد الوهاب (مذهب الوهابية فيما بعد).

ولنرجع إلى السلفية بالجزائر، فنجدها تسربت إليها على طريق عالم سلفي شهير هو أبو الحسن علي بن عبد الحق الزرويلي الشهير بالصُّغَير وبالصَّغِير قاضي مدينة فاس، في أوائل القرن الثامن إذ توفى عن سن عالية سنة 719هـ.

اشتهر أبو الحسن الصغير هذا في المغرب، بما اشتهر به معاصره ابن تيمية في المشرق والفرق بينهما، أن أبا الحسن كان فقيها مالكيا، وأهل المغرب كلهم مالكيون بخلاف ابن تيمية، فكان حنبليا، وفي المشرق علماء ينتمون إلى جميع المذاهب كما أن أبا الحسن الزرويلي كان نشاطه السلفي في إطار المذهب السني بخلاف ابن تيمية فإن خصومه اتهموه بأنه كان يصرح بأن المقصود من شد الرحال إلى المدينة المنورة هو الصلاة في مسجدها، لا زيارة قبر الرسول ﷺ وهذا لا يقول به فقيه سني .

انتصر لتعاليم أبي الحسن الصغير بعض علماء الجزائر، وفي مقدمتهم أعلم أهل عصره، الحافظ ابن مرزوق الحفيد الذي أشاد بالفقيه المذكور، ورد على زميله قاسم العقباني التلمساني الذي ألف رسالة انتصر فيها لمتصوفة زمانه، وقد سمى ابن مرزوق تأليفه: (**النُّصح الخالص في الرَّدِّ على مدَّعي رتبة الكامل النَّاقص**)، ثم ترجم لأبي الحسن الصغير فقال: «إنه شيخ الإسلام ما عاصره مثله ولا كان مثله فيما قارب عصره، وبمقامه في الفقه يضرب المثل، قد جمع بين العلم والعمل... الخ».

وقد كان من جملة أنصار قاسم العقباني بعض أكابر العلماء، مثل الشيخ عبد الرحمـٰن الثعالبي دفين الجزائر، الذي هو من تلامذة الإمام ابن مرزوق المذكور، كما

انتصر للعقباني الإمام أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي الشهير بتآليفه، في علم التوحيد وقد خص هذه المعركة بتأليف سماه: (**نصرة الفقير، في الرد على أبي الحسن الصغير**)[1]، وقد كان مسرح هذه المعارك كتب النوازل، كـ: (**الدُّرر المكنونة في نوازل مازونة**)، وفتاوى أحمد بن يحيى الونشريسي المجموعة في (**المعيار**)، وقد جمعت معظم هذه الفتاوى في تأليف خاص مفيد في موضعه، جمعت فيه فتاوى علماء الجزائر والأندلس، وقد كان واضع هذه القضية على بساط المناقشة أبا فارس عبد العزيز القيرواني تلميذ أبي الحسن الصغير، وشارك فيها بين محبذ ومنكر من الجزائريين عبد الرحمـٰن الوغليسي فقيه بجاية الشهير، وابن مرزوق الحفيد التلمساني، وسعيد العقباني التلمساني، وعيسى الغبريني البجائي ولد أحمد الغبريني صاحب (**عنوان الدراية**)، ومن غير الجزائريِّين **الشاطبي**، و**أبو سعيد ابن لب الأندلسي**، و**أبو بكر الطرطوشي**.

وقد كان تأليف الإمام **السنوسي** يختلف عن معظم الفتاوى المذكورة، إذ تعرض فيه صاحبه لنقض أفكار أبي الحسن الصغير جملة جملة، وقد ذكر في مفتتحه الأسباب الداعية إلى تأليفه، حيث قال: «لما لقيت الشاب الفقيه أبا العباس أحمد زروق، وسألته عنه ـ أي: عن أبي الحسن الصغير ـ لما قدم سنة 841 قاصدا الحج... الخ »، والمتأمل يشك في نسبة هذا التأليف للسنوسي، فهو زيادة على إهمال مترجمي السنوسي لذكره ضمن مؤلفاته فيه عبارات بذيئة يتنزَّه عنها السنوسي الذي اشتهر بالنزاهة والاعتدال، وهو على سنن أستاذه الثعالبي الذي نجده عندما تعرض لنفس الموضوع في بعض تآليفه قال: «وقد وقفت على كتاب (**تلبيس إبليس**) فذكر أنواعا من الكلام يقع في أكابر العلماء الذين جمعوا بين العلم الظاهر والباطن، المجمع على فضلهم، فوقع في **الغزالي**، وفي **المحاسبي**، و**أبي القاسم القشيري**، وبالجملة طعن على هؤلاء وضربائهم، المجمع

(1) أبي الحسن الصغير هو غير الأول ناشر مذهب السَّلفية بالمغرب.

على فضلهم في زماننا هذا، ولما وقف شيخنا أبو مهدي عيسى الغبريني خاتمة علماء إفريقيا على هذا الكتاب وتأمله، ألقاه من يده وقال له: عليك ـ والله ـ لبَّس إبليس يا مسكين، ورأيت هذا الكتاب هناك ـ أي: بتونس ـ مهجورا لا يلتفت إليه، وزعم كاتبه أن للجوزي، وليس هو إن شاء الله بالجوزي صاحب **(المورد)** الذي ألف كتبا عديدة في المواعظ وحكايات الصالحين، والكتاب هو من تأليف أبي الفرج البغدادي المتوفي سنة 597 الذي تقدَّم لنا الحديث عنه.

نقتصر على هذا القدر من مواقف بعض علماء الجزائر، وهم بين محبذ ومنكر، على قضية شائكة لفتت أنظار علماء الدين قرونا ولا زالت تحدث الهزات العنيفة، المرة بعد المرة، وتشغل الرأي العام العالمي، وتثير انتباهه، وانطباعاته، وكثيرا ما شارك فيها الأجانب، وتداخل فيها المستشرقون طورا.

ثم تبنت الجزائر طوراً آخر للسلفية في آخر عهدها، وكانت قرية تامقرة بنواحي بجاية هي منطلق المذهب الجديد، وهو الذي له ارتباط وصلة بموضوع هذه المحاضرة التي ركزناها على ترجمة عبد الرحمـٰن الأخضري، الذي كان له الفضل في تعميم المذهب الجديد.

ختم المطاف بالعالم أحمد زروق الفاسي الشهير الذي أقام بتامقره في معهد يحيى العبدلي وألف فيه معظم كتبه التي ضبط فيها علم التصوف اقتداء بـ: **الغزالي**، إذ شاهد زروق بعد إقامته الطويلة بين تلمسان والعاصمة وقسنطينة، شاهد الفوضى التي أدخلها العوام، وأشباههم على علم التصوف، خصوصا المحترفين، من مقترفي البدع، فكرس حياته وألف كتبه المشهورة كـ: **(قواعد التصوف)**، و**(أصول الطريقة)**، و**(كتاب البدع)**، هذه التآليف كتب لها الخلود، وصارت حجة عند المتصوفين الملتزمين، وعلماء الحديث والفقه في آن واحد، وأجمع مترجمو **زروق** بأنه خاتمة الجامعين

بين الحقيقة والشريعة وقد ساعده على أداء مهمته تضلعه في علوم الحديث والتفسير والفقه، ثم استقامته المثالية ونزاهته حتى صار حكما عند جل الطوائف، كان انتشار مذهبه، على طريق تلميذه محمد بن علي الخروبي دفين الجزائر وأيد تلميذه عبد الرحمٰن الأخضري، موضوع حديثنا، وإذا كان الخروبي اشتهر في الأوساط الخاصة، فإن الأخضري عمم نشر المذهب في الطبقات العامة حيث كان جل معاهد التعليم بالبلاد يلزمون طلبتهم بحفظ منظومته القدسية عن ظاهر قلب .

كان عبد الرحمٰن الأخضري من أسرة علمية، توارث أفرادها العلم قرونا، وهو من بنطيوس الزاب الجزائري، وامتاز هو من بين أفراد أسرته بالنبوغ، فقد نظم السراج في الفلك وهو ابن سبع عشرة سنة، كما نظم: (**أزهار المطالب في علم الاسطرلاب**)، وهو ابن عشرين سنة، أما تآليفه في بقية فروع المعرفة، وفنونها فهي تربو على الثلاثين، وقد وقع الإقبال عليها من جامعات العالم الإسلامي كالأزهر والزيتونة والقرويين إذ أدخلت في برامج التعليم منذ ظهورها، وتولى فطاحل علماء المشرق والمغرب شرحها والتعليق عليها ومنها منظومته القدسية، وإن لم يسعنا مجال هذه المحاضرة لتتبع مراحل حياته، فلا يفوتنا أن نذكر أن والده تتلمذ على الزروق، وأخذ الزروق بدوره عن بعض أفراد أسرته حيث نجد ذكر الأخضري ضمن مشايخه، وقد أجمع مترجمو الأخضري، أنه لم يعمر طويلا ومات حوالي سنة 953 هـ وهو من مواليد سنة 920 هـ وفي هذه السنوات الأخيرة اكتشف أحد أفاضل علماء الزاب وثيقة تدل على أنه توفى سنة إحدى وثمانين وتسعمائة، إذ عثر على تأليفه له نظم فيه الأجرومية قال في ختامه:

ثم بحمد الله ما قصدنا — من نظم هذه التي أردنا
سميتها بالدرة البهية — فهي لما في أصلها محوية
وكان في محرم الحرام — بدءا وختمنا لذا النظام

في عــام إحــدى وثمانــين ســنة　　　مــن بعــد تســعمائة مستحســنة

فتبيَّن أنه جاوز الخمسين سنة . وفي هذه الظروف كان تدهور البلاد بلغ نهايته فبجاية العاصمة الثانية لدولة بني حفص سقطت في أيدي الأسبان، ثم لحقتها العاصمة الأولى المركزية تونس، وبلغ الضعف والتخاذل ببقايا الدولة الحفصية، إلى أن صاروا يستعينون بالأسبان لإخراج خير الدين باشا، فثارت القبائل واغتنم الفرصة رؤساء الإقطاع فصاروا يستعينون برجال الدين كان فيهم الغث والسمين، وقد اهتم عبد الرحمٰن الأخضري، بتصوير حالة البلاد، في عدة قصائد، مثل الوصية، والاستغاثة، وخصص القدسية التي تحتوي على 357 بيتا، لمتصوفة زمانه فقال فيهم:

قــد ادعــوا مراتبــا جليلــة　　　والشــرع قــد تجنبــوا ســبيله

قــد نبــذوا شريعــة الرســول　　　فالقوم قد حادوا عــن السـبيل

لم يــدخلوا دائــرة الطريقــة　　　فضــلا عــن دائــرة الحقيقــة

لم يقتــدوا بســيد الأنــام　　　فخرجـوا عـن ملـة الإسـلام

قــد ملكــت قلــوبهم أوهــام　　　فــالقوم إبلــيس لهــم إمــام

كفــاك مــن جمــيعهم خيانــة　　　إذ ختلــوا الــدنيا بالديانــة

إلى أن يقول:

من كان في نيل الأمـاني راجيـا　　　وعــن شريعــة الرســول نائيــا

فإنــه ملتــبس مفتــون　　　وعقلــه مختبــل مجنــون

ثم يتعرض للمتصوف الحقيقي فيصفه بقوله:

واعلــم بــأن الــولي الربــاني　　　لتــابع الســنة والقــرآن

والفرق بين الإفك والصـواب　　　يعــرف بالســنة والكتــاب

والشـرع ميـزان الأمـور كلهـا وشـــاهد لأصـــلها وفرعهـــا
والشرع نور الحق منـه قـد بـدا فـانفجرت منـه ينـابيع الهـدى

ثم ينتقل إلى وصف حالة البلاد إذ ذاك فيقول:

هذا الزمان كثـرت فيـه البـدع واضطربت عليه أمواج الخـدع
وخسفت شمس الهدى وأفلت من بعدما قد بزغـت وكملـت
والـدين قـد تهـدمت أركانـه والـزور طـابق الهـوى دخانـه
وظلـــمات الـــزور والبهتـــان تزخرفــت في جملــة الأوطــان

ثم يرجع إلى ما قاله في وصف الولي الحقيقي فيؤكد ذلك بقوله:

وقال بعـض السـادة الصـوفية مقالـــــة جليلـــــة صـــــفية
إذا رأيـــــت رجـــــلا يطـــــير أو فوق مـاء البحـر قـد يسـير
ولم يقـف عنـد حـدود الشـرع فإنــــه مســــتدرج وبــــدعي
فارفضـــه إنـــما الفتـــى دجـــال لـــيس لـــه التحقيـــق والكـــمال

ثم يختم هذا الفصل ويعترف بأنه استمده من شيخ شيوخه وشيخ والده زروق فيقول:

ومـــن يـــرد معرفـــة بالبـــدع ومــا أنبنـا عليــه أصــل المــدع
ففــي كتــاب شــيخنا الــزروق فوائــــد بديعــــة الفتــــوق

ثم يعود مرة أخرى إلى متصوفة زمانه الذين شوهوا نسبة الطريق بانحرافاتهم ويحملهم مسؤولية هجرانها فيقول:

واحسراتى على الصراط المستقيم قــد ادعاهـــا كـــل أفـــاك أثـــيم
قد أشرفـوا عـلى كهـوف الكفـر وســــتروا بــــدعتهم بــــالفقر

واتخــــذوا مشـــائخا جهـــالا لم يعرفـــوا الحــــرام والحـــلال

لم يقفـــوا عنـــد حـــدود الله وســـنة الهـــادي رســـول الله

فنفـــروهم مـــن رعـــاة الـــدين أولي التقـــى والعلـــم واليقـــين

فأعرضـوا عـن سـبيل الرحمـٰـن واتبعـــوا مســـالك الشـــيطان

وهــــدموا قواعـــد الإســـلام واعتـــبروا خرائـــف الأوهـــام

وعكســـوا حقـــائق الأمـــور ونصـــبوا حبائـــل الفجـــور

وأولعـــوا بشـــهوات الـــنفس بكـــل بـــدعي لهـــم تـــأسي

إلى أن يقول:

آه عـــلى طريقـــة قـــد ذهبـــت وهـــدمت أصـــولها وقلبـــت

وهـــاج أفـــك المـــدعين فيهـــا وصـــار مـــن يطلبهـــا سـفيها

آهـــا عـــلى طريقـــة الكـــمال أفســـدها طائفـــة الضـــلال

طريقـــة أفســـدها أهـــل البـــدع فتركـــت مهجـــورة لا تتبـــع

هذه في الجملة الخطوط الجوهرية من منظومة القدسية، التي كان لها الفضل في تعميم مذهب أحمد زروق السلفي، بعدما أفرغ في بوتقة، روعي فيها الرأي العام، الذي كان ينقاد إلى فقهاء المذهب المالكي حيث برهنوا أنهم كانوا حماة الشريعة الإسلامية في أحرج الأوقات التي اجتازتها البلاد وأصيبت بتيارات مذهبية جارفة خصوصا في عهد الشيعة أحدثت تآليف زروق ثورة فكرية، أمكنها أن تكون حصانة لتعاليم التصوف الإسلامي، الذي انتصر له كثير من علماء البلاد من عهد **الغزالي**، وقد اهتم بهذه **المنظومة** كثير من علماء المشرق والمغرب إلى زماننا هذا، حيث طبعت مع (**فتاوى ابن الصلاح**)، وفي (**كتاب الزهر الباسم**)، وأخيرا في (**الرَّسائل الحلبية**).

وقد اهتم الأخضري بالمجتمع فوصف نخبته، وحذر أيضا من «علماء السوء» كما

سماهم ـ أي: العلماء الانتهازيين الذين كانوا يقولون ما لا يفعلون، ويتقربون إلى رؤساء الإقطاع ويوالونهم ـ فقال عنهم في قصيدة أخرى:

واحــذر علــماء الســوء فقــد ... خصـــوا بالإفـــك وبالخطـــل

حفظـوا الأقـوال ومـا عملـوا ... بـــالعلم فســـاء القـــوم قـــل

مـــا حــــرفتهم إلا لعـــب ... ولحـــوم النـــاس بـــلا قلـــل

أربـــاب قلـــوب قاســـية ... للطاعـــة أصـــلا لم تمـــل

لا نطـــق لـــذكر الله لهـــم ... إلا بـــــاللهو وبــــــالهزل

لا يكســبون العلــم ســوى ... لريـــاء النـــاس وللجـــدل

طمـــس الأقـــوال تملقهـــم ... لـــولاة الســـوء ذوي الخلـــل

يصـــلون دارا كـــما وردا ... مـــن قبـــل أولي الأوثـــان قـــل

الخ

وقد حظيت هذه المنظومة بشروح قيمة، أهمها فيما ظهر لي، شرح الحسين الورتلاني صاحب الرحلة، لأنه ألقى فيه أضواء، على حالة المجتمع، وأحصى تأثير العادات السيئة التي ألصقت بالدين. وقد ظهرت تآليف قيمة أخرى عززت تآليف الأخضري، منها كتاب: (**منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية**) للشيخ عبد الكريم بن الفكون القسنطيني المتوفى حوالي سنة 1073هـ، وكان من فطاحل العلماء حيث أثنى عليه كثيرا أبو سالم العياشي في رحلته، وأحمد المقري التلمساني في نفح الطيب، وغيرهما من علماء المشرق والمغرب، وهذا التأليف من أحسن ما ألف في موضوعه، بل فريد في بابه، تعرض فيه مؤلفه لطبقتين أو طائفتين من معاصريه الطائفة الأولى، ترجم فيها للعلماء الذين تولوا المناصب العلمية، وسلوكهم غير مرضي، وليست لهم كفاءة لتولية تلك المناصب كالقضاء والإفتاء والوزارة، وغيرها، والطائفة الثانية منتحلو الرياسة

الدينية، ومشايخ الطرق الذين يحترفون الدجل والشعوذة، وقد قال في مقدمة تأليفه المذكور الذي قسمه إلى فصول ثلاثة وخاتمة قال:

الفصل الأول: في ما لقيناه من العلماء والصلحاء المقتدى بهم.

الفصل الثاني: في المتشبهين بالعلماء، وهم الذين قصدنا بهذا التقيد إيضاح أحوالهم.

الفصل الثالث: في المبتدعة الدَّجاجلة الكذابين على طريق الصوفية المرضية.

والخاتمة: في إخوان العصر وما هم عليه.

هذه هي النقاط الرئيسية التي حللها المؤلف في كتابه: **(منشور الهداية)**، وميزة التأليف هي أن مؤلفه لم يكتف بعرض الأوصاف التي ينكرها الشرع، بل شخص المتصفين بها، وأفرد لكل واحد منهم ترجمة حياته العامة والخاصة ومعظم من تعرض لهم معاصروه، أو من سبقهم بمدة لا تجاوز القرن، والكثير منهم له بهم علاقة القرابة أو التلمذة، وهذه فقرات من مقدِّمة تأليفه قال فيها: «أما بعد: فلما رأيت الزمان بأهله تعثر، وسفائن النجاة من أمواج البدع تتكسر، وسحائب الجهل قد أظلت وأسواق العلم كسدت، فصار الجاهل رئيسا، والعالم في منزلة يدعى من أجلها خسيسا، وصاحب أهل الطريقة، قد أصبح وأعلام الزندقة على رأسه لائحة، وروائح السلب والطرد من المولى فائحة... فموهوا على العامة بأسماء ذهبت مسمياتها، وأوصاف تلاشت أهلها منذ زمان وأعصارها، لبسوا بانتحالهم لها على أهل العصر أنهم من أهلها، كل ذلك والقلب مني يتقطع، غيرة على حزب الله العلماء، أن ينسب جماعة الجهلة المعاندين الضالين المضلين لهم، أو يذكروا في معرضهم، وغيرة على جناب السادة الأولياء الصوفية أن تكون أراذل العامة، وأنذال الحمقى المغرورين أن يتسموا بأسمائهم، أو يظن بهم اللحوق بآثارهم، ولم آل في التنفير من كلتا الطائفتين والتحذير منهم في كل زمان وأوان، وبين كل صالح من الإخوان... الخ »، وفي هذا التأليف

ترجم لعبد الرحمـٰن الأخضري وأشاد بمواقفه، وذكر أنه كان من العلماء الذين لا يكتفون بتغيير المنكر بألسنتهم وقلوبهم، بل كان يغيره بيده، ويستعين على ذلك بجيش طلبته، كما أشاد المؤلف بزروق وتآليفه، وانفرد بنشر رسائل خاصة كاتب فيها زروق بعض خواص أصحابه في الموضوع خصوصا انطباعاته المبنية على مشاهداته في بلاد المغرب العربي الذي عاش فيه، وهي قيمة جدا مجهولة تماما. ثم ظهرت في نفس الوقت أي القرن الحادي عشر ثم الثاني عشر تآليف أخرى قيمة في الموضوع، وهي شبيهة بالقدسية، كمنظومة عبد الرحمـٰن بن محمد بن علي المجاجي، أستاذ سعيد قدُّورة وقد نوَّه بها ابن الفكون حيث تعرف بمؤلفها الذي زاره إلى قسنطينة في طريقه إلى الحج، وأهدى له منظومته، وطلب منه أن يشرحها، ولما توفي المجاجي هذا رثاه ابن الفكون بقصيدة بليغة أرسلها إلى أخيه.

وظهرت بمستغانم منظومة للشيخ محمد ابن حواء دفين مستغانم، من علماء القرن الثاني عشر سماها: (**سبيكة العقيان فيمن حلَّ بمستغانم وأحوازها من الأعيان**) تعرض فيها لتراجم علماء البلاد، ثم تطرق إلى وصف حالة البلاد في عهده، وانتشار البدع، والعجز عن النهي عن المنكر وتغييره، وهي أيضا شبيهة بالقدسية، وعلى نمطها، وظهر كتاب خاص للشيخ محمد بن عبد الله الجلالي مدير المدرسة المحمدية التي بناها الباي محمد بن عثمان فاتح وهران بمعسكر، وكلفه أيضا برياسة رباط وهران، كتب محمد بن عبد الله الجلالي هذا رسالة خاصة، إلى زميله في الدراسة بفاس الشيخ أحمد التجاني مؤسس الطريقة التجانية، كاتبه جوابا عن رسالته التي ذكر له فيها انه فتح عليه بما لم يفتح على من سبقه، وأنه تصدى للتربية وهو بصدد تأسيس طريقة صوفية فأجابه محمد بن عبد الله الجلالي جوابا مسهبا ناقشه فيه الحساب، وأورد عليه أسئلة لربما يعجز عن جوابها إن وجهت إليه من طرف منتقديه، وحذره من مغبتها، وهذه الرسالة أفرغها مرسلها المذكور، في قالب توجيه وتحذير ونصح، وأهم محتواها حرية الفكر إذ ذاك واليقظة.

كما ظهر من أنصار السلفية إذ ذاك المؤرخ أبو راس الناصري الذي لم يقتصر على سلفية مدرسة زروق، بل جاوزها إلى سلفية المذهب الوهابي، وذلك أنه اجتمع بالأمير الوهابي في الحج، وتذاكر معه بحضور الوفد المغربي، الذي كان يرأسه ولي عهد ملك المغرب إذ ذاك وأوردوا عليه أسئلة أقنعهم في جوابه عنها، وقد أشاد المؤرخ أبو راس بمذهبهم وذكر ذلك كله بتفصيل في رحلته.

وإننا إن تتبعنا قائمة علماء الجزائر الذين وقفوا مواقف تأييد أو إنكار على السلفية لما وسعنا مجال هذه المحاضرة، وقبل الختام نذكر مواقف بعض العلماء الجزائريين من السلفية بعد الاحتلال الفرنسي، فنجد موقف ابن الحداد بطل الثورة المشهورة، فإنه خصص تأليفا للبدع التي كانت تقترف في عهده، وأنكرها، وبرأ الطريقة الرحمانية منها، كما ظهرت حملة ضد البدع بمدينة قسنطينة، كان مركزها نادي صالح باي حيث ألقى فيه بعد تأسيسه مباشرة الشيخ المولود بن الموهوب سلسلة محاضرات، تولى ترجمتها إلى الفرنسية السيد الشريف بن حبيلص القاضي الموثق والنائب السابق بالبرلمان الفرنسي ونشرها، إلا أن هذه الحملة لم تكن تلقائية أو مبنية عن عقيدة، فيما يظهر، بل كانت متصلة ومرتبطة بخيوط حركتها أو شجعتها لمقاومة الطريقة الرحمانية بعد اندلاع ثورة المقراني وصهره ابن الحداد، وقد كشف النقاب عنها أحد أعضاء لجنة البرلمان الفرنسي التي أرسلت إلى الجزائر تحت رياسة الوزير الفرنسي: جول فيرى.

وذكر هذا العضو من جملة وسائل مقاومة التعصب الديني الذي كانت تشخصه الطريقة الرحمانية، الالتجاء إلى الاستعانة بالموظفين الدينيين والشرعيين بالجزائر.

إلا أنها محاولة فاشلة لخبر يطول وإنما نذكر في هذا الباب عالما سلفيا يعد من ضحايا الفكرة السلفية في طورها السابق المتصل بالحرب العالمية الأولى، وقد أثار موقفه أول هزة من نوعها في بلاد المغرب العربي بعد الاحتلال الفرنسي كان هذا العالم هو صالح

بن مهنا القلي منشأ والقسنطيني مقرا وإقبارا، تخرج من الزيتونة ثم من الأزهر، وبعد رجوعه انتصب للتدريس بمدينة قسنطينة، وإن لم يسعنا مجال المحاضرة للتبع مراحل حياته بتفصيل، فإننا نذكرها بإيجاز: كان أحد علماء البلاد أي من القطاع القسنطيني يدعى أحمد بن دادا المشهور بأبي الهدى تخرج من **القرويِّين**، ألف رسالة سماها: (**ضوء الشَّمس**) نوه فيها بالأشراف ولربما بالغ في ذلك، فلما اطلع عليها صالح بن مهنا ردَّ عليه مبالغاته ووضع الأمر في نصابه، في تأليف سماه: (**تنبيه المغتربين في الرد على إخوان الشياطين**)، وصادف هذا التأليف ظهور طبعة أولى لرحلة الورتلاني، بتحقيق صالح بن مهنا في مطابع تونس سنة 1321هـ لفت أنظار القرَّاء إذ ذاك تعليق ابن مهنا عما قاله الورتلاني في الأشراف، قال الورتلاني: «إن الأشراف ثلاثة أقسام: طائعون، مستورون، ومتجاهرون، والتَّعظيم للقسمين الأولين دون الثالث... فهذه الفرقة أي العاصية من الأشراف غير معتبرة عندنا »، فعلق ابن مهنا على هذه الجملة بقوله: «قلت: دلَّ كلامه على أن مَن خالف السنة والشَّرع غير معتبر، ولو كان مدعيا للصلاح أو الشرف أو العلم، وهذه الفرقة التي أنكر عليها الشيخ من الشرفاء قد كنت قلت مثل هذه المقالة التي قالها فيها، وهي أن الشريف الفاسق لا يعتبر، فأنكرها بعض الأرذال ممن قرأ مسألتين، وتعلم باب مسح الخفين...»، إلى أن قال: «وقد صرح به الإمام **الشعراني** في كتابه (**المنن**) فقال: قال بعض العلماء: ولا ينبغي تعظيم الشريف إذا تعاطى المحرمات»اهـ وكذا الشيخ مؤلف هذه (**الرِّحلة**) لأنه صرَّح بشرف هذه الفرقة المذكورة، ثم قال: «فهذه الفرقة غير معتبرة عندنا، وناهيك به علما وديانة وصلاحا وولاية، فأين هو من أولئك الحمير» اهـتعليق صالح بن مهنا، وقد صرَّح فيه بالرد على منتقديه على كتابه:(**تنبيه المغتربين**) من فقهاء قسنطينة، إلا أن ردَّه الثاني كان أعنف، وعدَّه خصومه تحديا لا ينبغي السكوت عنه، ولربما كان بعض المسؤولين يهمُّهم الأمر، حيث كانوا بالمرصاد للأفكار المستوردة ـ كما كانوا يعبرون عنها ـ خصوصا إذا كان

الداعي لها متخرِّجا من الجامعات الإِسلامية حينئذ، فاختير للرد عليه أمثل هجَّاء عرفته البلاد، وهو الأديب العبقري الشيخ عاشور الخنقي، فكان تأليفه:**(كتاب منار الإشراف على فضل عصاة الأشراف ومواليهم الأطراف)** المطبوع في الجزائر سنة 1332هـ/ 1914م.

ولم يكن هذا الرد مقنعا، ولم يؤت بثمرته المرجوة، حيث إن مؤلفه كان مشهورا بثلب الأعراض، وعاشور نفسه لم يخف في تأليفه أن الرأي العام تأثَّر بتعليق صالح ابن مهنا وأعجب به، وفي ذلك قال: «وإن تعجب فعجب قول بعض جهالة الطلبة، وبعض العلماء بالغلبة، حاشا فوارس الحلبة، أي ما تضمنه هذا **المجموع**: كلام هائل ما رأينا مثله في كتب الأوائل، فلا نظن أن يكون له طائل، وجوابه: ما هذا إلا كلام مخلط جاهل، يستحق صاحبه أن يسجل في ديوان الحيوان الناهق أو الصاهل»، ولذلك اختيرت أعظم شخصية علمية بالمغرب إذ ذاك، وهو شيخ الإسلام بالديار المغربية المؤلف الشهير الشيخ المهدي الوزاني، فجاء إلى قسنطينة بسنة 1323هـ واطلع على تعاليق ابن مهنا، وخصها بتأليف سماه: **(السَّيف المسلول باليد اليمنى لقطع رأس ابن مهنا)**.

وقد أخفى الشيخ الوزاني الظروف التي جاء من أجلها إلى قسنطينة، وإنما ذكر أنه ورد إليها عابر سبيل واتصل بعلمائها، فأطلعوه على ما ذكر، ولنترك له الكلمة حيث قال في مقدمة كتابه بعد ذكر أنه عقد الرحلة إلى تونس، ومر على تلمسان، ثم العاصمة ثم قسنطينة قال: «ولما وصلت إلى قسنطينة، اجتمع بي جماعة من علمائها، وفضلائها، ووجوه كثيرة من أهلها وأعيانها، وأخبروني أن عندهم رجلا من أهلها، يقال له ابن مهنا، كان يتعلم العلم بمصر أزيد من عشرة أعوام، ولما رجع لبلده قسنطينة، رجع بزي الفقر، زاعما أنه من أهل التصوف، وينكر أمورا ضرورية، ويسب الأخيار وينقصهم، ويبالغ في شتمهم خصوصا أهل المغرب، وله مقالات تدل على قلة أدبه، مع

أهل البيت، وسألوني عن حكم الله فيه، فقلت لهم هل ثبت هذا عليه ببينة، أو بخط يده أو بغير ذلك ما يثبت به شرعا، فقالوا لي ثبت ذلك في كتاب ألفه بيده، وطبع في تونس على ذمته، فطلبت منهم إحضار هذا الكتاب، فأتوني بنسخة منه، وإذا هو رحلة الشيخ الإمام سيدي الحسين الورتلاني وبهامشه ما كتبه الرجل المذكور كالحاشية عليه فوجدته كما قالوا فأردت إن أذ كرهنا بعض مقالاته في أهل المغرب، وأهل البيت، ونجيبه عنها باختصار» اهـ.

ولا يمكننا أن نتتبع ما كتبه الوزاني في الموضع وإنما نلفت نظر المستمعين إلى أن صالح ابن مهنا قال في تعليق آخر من **(الرحلة)** ذكر فيه الرحالة الورتلاني أهل المغرب وسمعتهم في المشرق، جرَّه إلى ذكرها سياق الحديث، فقال ابن مهنا: «ولقد صدق الورتلاني في جميع ما ذكره، فصار المغربي منسوبا عند المصريِّين إلى الدَّجل والشعوذة والسِّحر، حتى قال بعض العلماء: جميع ما ألفه المغاربة يفوقه ما ألَّفه عالم واحد مصري، وهو الإمام جلال الدِّين السيوطي ما عدا كتب السِّحر والشَّعوذة، فإنَّهم ألفوا منها كثيرا، وملؤوا بها الأرض، كابن الحاج الكبير، وغيره، وجلبوا بها أموال الناس، وأظنهم توارثوها عن أسلافهم... الخ».

وعلى كل حال كان هذا الكتاب الذي حظي بتقاريظ جل العلماء البارزين حينئذ بالمغرب، موسوعة شتائم وقذف انصبت على ابن مهنا الذي لم يقل عشر ما قاله من قبله من علماء المشرق والمغرب، وكتبُ نوازل المغرب العربي مملوءة بأقوال شاذة أحصيت على أصحابها وحوكموا مِن أجلها، من دون أن تحرك ساكن أولائك العلماء، ولهذا كله نرجِّح أن رد الشيخ المهدي الوزاني كان مدبَّرا.

ولنرجع إلى عينات من هذه التَّقاريظ التي لم يقتصر فيها أصحابها على نقد وشتم صالح ابن مهنا بل شاركوا في هجومهم وسبِّهم والده الميت من زمان، فقال أحد أكابر

الفقهاء ـ غفل أو تناسى قول النبي ﷺ: «أذكروا موتاكم بالخير » ـ قال:

تبـا لمهنـا وابنـه الكلـب الـذي … يعـوي ويلهـث سـائر الأحيـان
تعسـا لـه مـن فاسـق متجـاهر … بفجـوره يبغـي رضـا الشـيطان
متسـر بـلا بـرداء فحـش نازعـا … ثوب الحيا عن وجهـه السـرحاني
سل عنه مصر ترى له من فحشـه … شـكوى بقلـة دينـه بعيـان
سل عنـه بلدتـه تريـك خصـاله … حتـى لقـد منحـوه بـالهجران

وهذه المنظومة تبلغ أبياتها ثمانين، كما قرض التأليف المذكور نقيب الأشراف العلويِّين، مؤرخ المغرب في عهده، عبد الرحمٰن بن زيدان، فقال:

الجهـل فيـه فضـيحة الإنسـان … ويقـوده لمـواطن الكفـران
وتجـره أسـبابه لمهامـه … وعـراء يسـلكها ذوو الخسـران
مثل ابن مهنا الجاهل الغمر الذي … قـد قـام يرمـي الغـرب بالبهتـان
تبالـه تبالـه تبالـه … طـردا لـه في سـائر الأوطـان
سحقا لـه سـحقا لـه سـحقا لـه … ويـل لـه مـن فاسـق شـيطان
ويـل لـه مـن فـاجر متجـاهر … بالإفـك والبغضـاء والعـدوان
فلذا غدا الشيخ الإمام المرتضى … بحـر العلـوم العـالم الربـاني
أسـتاذنا أعنـي أبـا عيسـى الهما … م المنتقـى الأتقـى الـوزاني
يسـقيه أكـواب الـردى ويذيقـه … غلـل المرائـر في كـؤوس هـوان
وسـيفه المسـلول يقطـع رأسـه … بـين الأحبـة والعـدو الشـاني

كما ألف في الرد عليه محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي الجزائري الأصل والفاسي دارا ووفاة، سبق له أن هجا الأمير عبد القادر في تأليف خاص وعلي بن الحفاف المفتي المالكي الذي كان كاتبا عند الأمير عبد القادر، كما رد عليه عبد السلام العمراني في

تأليف سماه: (**الكي بمحاور البغال وقتل العقرب بالنعال في رد ما فاه به بعض الأنذال الذي جهل أنه من أهل الضلال**)، ومحمد العابد ابن سودة الذي سمى تأليفه: (**سنان اليراع وبنادق القرطاس في نحر من جازف وشتم الناس**).

أما الشيخ عاشور فإنه بعدما نشر في الأسواق والأوساط العلمية بكامل البلاد هجوه البذيء جمعه في كتابه:(**المنار**) المذكور والكتاب هام في موضوعه إذ تعرض فيه لترجمة حياته، وهو رغم كل ما ذكرناه عنه من الأدباء الممتازين واللغويين الذين ذللوا اللغة العربية ومن الحفاظ النوادر و تأليفه لا يستغني عنه مؤرخو الأدب العربي وتطور الحركة الثقافية بالجزائر .

وهذه بعض أبيات من قصائده في هجو ابن مهنا قال:

تأملـه أيضـا في النسـاء دلالـة على كفرهم فيهم شقاقا جهالـة

تجد من أذاهم ساء سمعا وجابـة على مثل هذا الكفر أفتى رسـالة

لنا ابن مهنا الصالح السالح الجعل

غـراب إذا لاقيتـه فتعـوذ لقد خالف الإسلام في كل مأخـذ

وحارب أهل البيت في كل منفـذ وقـال بإسـقاط اعتبـارهم الـذي

تقدم فيمن لم يطعه علا وجل

ذهابا إلى أن الشريف إذا اتقـى فمعتـبر مـن حيـث تقـواه والنقـى

وإلا فمن أهل الإهانة والشـقا قياسا لمن ألفى مـع الشرـف التقـى

على صحبة الأشقى إذ جهل الأضل

تجاوز ابلـيس اللعـين وصـنفه وجـاوز أجـوان الخـدوع ووصـفه

بـما غـر فينـا أرغـم الله أنفـه عجبـت لأقـوام يصـلون خلفـه

وسائر ما صلوا اقتداء به بطل

لقد بان زنديقا تباح دماؤه على كل رأي لا يصح اقتداؤه
فمن أمهم دهرا يطول أداؤه عليهم بإجماع العلوم قضاؤه

كما أن أجواه الخبيث الذي دغل

على خدمة الناموس في حركاته فغر أناسا فاقتدوا بصلاته
ولكن هذا زاد فوق صفاته خصوصا وقد حاط الجذام بذاته

وشعشع رمح القيح منه متى أطل

حوى جسمه صدرا وظهرا وشينا ذراعا وساقا منه حتى تلونا
على زرقة من جيفة الكلب أنتنا حكى لي ثقات أنه إن يجز بنا

على الصف آذنا بأخبث من بصل

... الخ.

هذه خلاصة أطوار السلفية بالجزائر وقد تركنا الحديث عن حادثين هامين يتعلقان بصميم الموضوع: هما زيارة الشيخ محمد عبده إلى الجزائر في أوائل القرن الجاري واتِّصاله بكثير من علمائها، وآثار تلك الزيارة التي خصَّها العالم الأديب عبد الحليم بن سماية برسالة قيِّمة، اطَّلع عليها أخيرا الدُّكتور عثمان أمين ـ تلميذ عبده وجامع آثاره ـ فرأى أنَّها مِن أهمِّ ما كتب عنه، إذ وجَد فيها مالم يتعرَّض له **رشيد رضا** الذي علَّق على هذه (**الرِّحلة**).

والثَّاني معركة أو محاورة أثارها عالمان جزائريان قبل زيارة الشَّيخ **عبده** بقليل، انتصرا لمحمد صديق خان بهادرامير هوبال الهندي وقرظا كتابه: (**الروضة الندية**)، فلامهما على ذلك مفتي المدينة المنورة الشَّيخ عثمان بن عبد السَّلام الدَّاغستاني، إذ كان

محمد صديق خان الهندي مِن أنصار السلفية الوهابية، وتبادل معهما رسائل هامة في موضوع السَّلفية، والعالمان الجزائريان هما الشيخ الجيلالي بن المنور المجاجي، والشيخ أحمد بن يحيى الشَّرَّاطي الأصنامي، إلا أن هذا الحوار كان في منطقة محدودة، ولكن له وزنه، خصوصا في تلك العهود... فإلى فرصة أخرى إِن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الشَّاعر الشَّعبي
الشَّيخ ابن السويكت السّويدي[1]

ينتمي هذا الشاعر إلى قبيلة سويد العربية التي نزحت إلى الجزائر في مسيرة بني هلال، وقد اعتنى بهذه المسيرة وآثارها وأسبابها مؤرخون وباحثون من مختلف الأجناس وبمختلف اللغات ولا زالت هذه العناية متواصلة حيث إن كثيرا من جوانب هذه المسيرة لا زال مكتنفا بالغموض، ولما كان موضوع دراستنا خاصا بالشاعر ابن السويكت الذي خلد مآثر قبيلة سويد، خصوصا مراحل الحرب التي دارت بينها وبين الجيش النظامي التركي في أواخر عهده بالجزائر.

كانت قبيلة سويد كما سبقت الإشارة إلى ذلك، كبقية القبائل التي نزحت إلى الجزائر في مسيرة بني هلال، إثر انتقال الملوك الفاطميين العبيدين إلى مصر، وقد قتل تاريخ مسيرة بني هلال بحثا داخل البلد وخارجها، ثم خصصت لها الجزائر ملتقى من ملتقيات الفكر الإسلامي الذي انعقد سنة 1972م، وكان موضوعه إحياء ذكرى مرور ألف سنة على وفاة بلقين بن زيري بن مناد الصنهاجي (قائد الدولة الفاطمية) الذي عينه المعز لدين الله الفاطمي لحكم بلاد المغرب العربي، بعد انتقاله إلى مصر، وبلقين هو مؤسس مدن: عاصمة الجزائر ومليانة والمدية، ولهذا خصصت الجزائر هذا الملتقى لإحياء ذكرى وفاته، وإحياء ذكرى مرور ألف سنة على تأسيس مدن الجزائر ومليانة والمدية. ومسيرة بني هلال لها ارتباط قوي بهذه الهجرة أي هجرة الملوك

(1) **مجلة الثقافة**: العدد: 97، ص: 35 ـ 45.

الفاطميين إلى مصر، نكتفي بمجرد الإشارة إليها، ونجنب قراءنا الدخول في التفاصيل، ولنواصل حديثنا عن قبيلة سويد، فهي كما سبق لنا ذكره، كانت كبقية قبائل مسيرة بني هلال في بدايتها متفرقة، ضعيفة تتكون من تجمعات ومخيمات من عرب رحل، يتقربون ويوالون حكام البلاد ليمكنوهم أقطاعات السكن والمراعي وامتازت قبيلة سويد بأن إقطاعها الذي حصلت عليه، تمكنت مع طول الزمان أن توسع أرجاءه، وتنظم سكانه إلى أن صيرته في مصاف الدول، وذلك أنه كان ممر القوافل التجارية التي كانت تلتجئ إلى حماية القبيلة في غدوها ورواحها من المغرب إلى المشرق ذهابا وإيابا، ولنقف قليلا للتعريف بالقبيلة ومصيرها، وقد اخترت من جملة التعاريف تعريف ابن خلدون الذي كان أدرى أهل زمانه بمعرفتها قال في التعريف بالقبيلة وأمرائها ما يلي: «أولاد عريف هؤلاء عرب من سويد، ينتهي نسبهم إلى زغبة، ورثوا الرياسة على قومهم منذ القديم، واتصل عريف ببني مرين ملوك المغرب وسفر عن أبي الحس المريني إلى الحفصيِّين وبني الأحمر، وإلى المماليك بمصر » **ديوان العبر: ج،** 6:44 ـ 48).

كانت مواطن قبيلة سويد كما سبق لنا ذكره، منذ مسيرة بني هلال، تمتد ما بين سهول مليانة إلى نواحي مستغانم وكانت هذه الرقعة تابعة عند الفتوحات الإسلامية إلى قبيلة مغراوة، ولما أسلم زعيمها ونزمار المغراوي على يد الخليفة عثمان بن عفان أقره الخليفة على حكمها وحينئذ تكونت بها ـ أي: في رقعتها ـ أول دولة إسلامية جزائرية لعبت أدوارا هامة في تاريخ البلاد إلى أن قضى عليها بلقين بن زيري سنة 360هـ فأفل نجمها مدة، وفي عهد دولة الموحدين وتقاسم عمالها الثلاث للدولة المركزية، فكان نصيب بني مرين دولة المغرب الأقصى وبني زيان مملكة تلمسان وبني حفص تونس والشرق الجزائري، ثم طرأ خلاف بين بني مرين وبني زيان، فاستعان بنومرين بقبيلة سويد، وأجلوا بني زيان عن مملكتهم مدة ربع قرن أعقب هذه الأحداث صلح

فاسترجع بنوزيان رقعة مملكتهم التي كانت تشمل قبيلة سويد التي أمكنها المحافظة على إمارتيها داخل رقعتها، وهما:إمارة كانت قاعدتها مدينة تنس، والأخرى كانت قاعدتها كلميتو المعروفة الآن بمدينة السور، كما أثبت لنا التاريخ أن قبيلة سويد بقيت محتفظة بنفوذها وصولتها، إذ لما احتل الأسبان مدينة وهران في أواخر عهد ملوك بني زيان (حوالي سنة 914 هـ) وظهر في الأفق خير الدين الذي عينه الخليفة العثماني باشا على مملكة الجزائر هاجم قائد وهران الإسباني مستغانم فلقيه على أبوابها حسن بن خير الدين وهزمه شر هزيمة وقد سجل هذه المعركة الشاعر الشهير سي الأخضر بن خلوف الذي سجل مراحل هذه المعركة انطلاقا من خروج الباشا حسن من الجزائر قاصدا مستغانم، فذكر الشاعر مراحل هذه المسيرة التي كانت علاوة على الجيش النظامي العثماني الذي قاده الباشا حسن، كانت القبائل الجزائرية تلتحق بجيش الباشا وتبايعه على حربه، وكانت في طليعة هذه القبائل قبيلة سويد، وفي ذلك قال الشاعر سي الأخضر:

في زكار[1] أمقيم كم من يوم	لين جاته قيادها ورماة
أخذ الواد[2] الشايع المعلوم	فيه أصلان سويد[3] ملمومة
جاوا شيوخ سويد للسلطان	فيهم بوبكر ومحمد[4]
قالوا للأمير لا تليان	لا دين إلا دين محمد
استشرح سلطانا وازيان	راحت قومه زاهية ترعد

(1) زكار: الجبل المطل على مدينة مليانة.

(2) يقصد بالواد الشايع، شلف.

(3) أصلان سويد موضوع حديثنا.

(4) بوبكر أمير تنس وأخيه محمد أمير كلميتو.

إلى أن قال:

حزنـــاهم للســـور ذاك اليـــوم　　تســـعة آلاف بقـــات مغنومـــة
من حيط الـدشرة لحـوض الـدوم　　عشـــرة آلاف مشـــاة محطومـــة

ومن هذه القصيدة استفدنا أن سويد رغم خلافها مع ملوك بني زيان الذين فقدوا سيادة مملكتهم ربع قرن ثم استرجعوها، بقوا محتفظين بإمارتين في منطقة نفوذهم الأصيلة كما أنهم كانوا في طليعة القبائل التي انضمت للباشا حسن وهزمت الجيش الإسباني على مستغانم هزيمة قل نظيرها في تاريخ الحروب، إذ ما ذكره الشاعر الأخضر بن خلوف، أي خسارة الجيش الإسباني في معركة دامت ثلاثة أيام تسعة عشرة ألف جندي بين قتيل وأسير، هو ما أيده المؤرخون الأجانب الذين استقوا معلوماتهم من سجلات مستودع الوثائق الحربية بوزارة الحرب الإسبانية وكان كذلك من حسن حظ التاريخ أنه منذ سنوات قليلة أحدثت ولاية مستغانم مهرجانا سنويا لإحياء ذكرى هذه المعركة وشاعرها الشعبي الشهير سي الأخضر بن خلوف أطلق على هذا المهرجان: (**مهرجان سي الأخضر**)، وقد شارك في هذا المهرجان السلطات المدنية والعسكرية والمنظمات الوطنية كمنظمة المجاهدين والحزب والجامعة ولا زال إحياء هذا المهرجان متواصلا، كان الفضل في الاحتفاظ بملحمة سي الأخضر التي خصصها لهذه المعركة اشتهار ناظمها بأمداحه النبوية، وكان الشعراء الشعبيون يتسابقون إلى حفظها، إذ لا زالت أمداح هذا الشاعر المجاهد مشهورة في كامل بلاد المغرب العربي . أما قصيدته التي خلد فيها معركة مستغانم ولقي فيها حتفه وخمسين ضابطا ساميا من رفقائه خلدها أيضا ـ كما سبق لنا الإشارة إلى ذلك ـ الشاعر وخصصها مؤرخون أجانب استقوها من مستودع الوثائق الرسمية لوزارة الحرب الإسبانية وقد أثبتناها بالمهرجان الأول الذي خصص لهذا الشاعر بمزيد من البيان.

وإن تتبع مراحل تاريخ قبيلة سويد والأدوار التي قامت بها في الجزائر انطلاقا من مسيرة بني هلال لا زال محل خلاف بين كثير من الباحثين الذين يعتمدون المصادر الزائفة ويثبتون في كتاباتهم أحكاما جائزة مغرضة فيحكمون مثلا على قبائل مسيرة بني هلال باللصوصية وقطع الطرق وتخريب المعالم الحضارية، ثم زاد آخرون فيما يخص قبيلة سويد أنها كانت من القبائل المتعاونة مع الأسبان عندما تصدى لمحاربتهم الأتراك وقد نقل بعض هذه الوثائق التي تثبت تعاون سويد مع الأسبان لمحاربة الأتراك ونشرت في تآليف المرحوم الشيخ أحمد توفيق المدني (الذي كان من المواظبين على الحضور في مهرجان مستغانم) إلا أن هذه الوثائق عثر عليها في بعض مستودعات إسبانيا ونشرت في المجلة الإفريقية التي كانت تصدر بالجزائر ونشرها المرحوم المدني في تأليفه: (**حرب الأسبان مدة ثلاثة قرون**).

وهذا لا يمنع أن قبيلة سويد كانت كثيرا ما تتمرد على السلطات العثمانية كما سنتعرض لذلك بقدر ما يسمح لنا به مجال هذه الدراسة .

نكتفي بهذا القدر ولنواصل حديثنا عن الشاعر الشعبي ابن السويكت موضوع دراستنا الذي سجل في كثير من قصائده وصف بعض المعارك بين أفراد قبيلة سويد والأتراك عندما تمردوا عليهم في أواخر العهد التركي وكان أفراد قبيلة سويد يعرفون إذ ذاك بالمحال أيضا، وكان السويكت يعرف بالمحلي ولا زالت قبائل المحال بنواحي شلف الغربي والشرقي وكذلك بالجنوب الجزائري من عهد الحروب التي دارت بينهم وبين الأتراك، وبعد مقاومة عنيفة دامت أزيد من قرن هاجروا موطنهم شلف واستقووا بالجنوب أي ولاية تيارت الحالية، وقد سجل الشاعر ابن السويكت هذه المعارك، وبعد تغلب الجيش النظامي التركي عليم اختاروا الهجرة إلى الجنوب وكان من حظ تاريخ البلاد أن هذه الحرب سجلها ابن السويكت وبعض الشعراء الشعبيين، إذ

بطبيعة الحال انقسم هؤلاء الشّعراء إلى قسمين: قسم يشيد بقبيلة سويد وقسم آخر يشيد بالأتراك وانتصاراتهم إلى أن ختمت هذه المعارك بالجلاء، وتتبع ابن السويكت قومه سويد بعد جلائهم للجنوب وبين طريق مسيرتهم ومراحلها هذه .

في الجملة الخطوط العريضة من دراستنا نختمها بقصائد الشاعر ابن السويكت وبعض الشعراء الشعبيين الذين كانوا ينتصرون للجيش النظامي التركي . قال الشاعر ابن السويكت يصف إحدى المعارك التي دارت رحاها بين مدينتي وادي ارهيو وجديوية التي كانت تعرف بمنطقة الشلف، قال:

على ارهيو وعلى جديوية كارسين   الترك جوف وسويد جاوا للقبلة

خبا مع خبا والبنود متقابلين   منالصبح للمسا كل يوم مقتلة

لباي باوناقو مقابل العابرين   حتى القات له المحال غلغلا

الباي قد شور لهم   وسويد له زادوا حملة

ارفد سنجاقو و اعلمهم   عمدوا على القتال وقتلوا

اك النهار ماشي ليهم   يتبدل النصل بانصالو

احنا سويد أهل النفار بالجملة   إحنا أهل النشا واحنا إلي طاغين

احنا أهل العلام والطبل والصولة   ربعة وعشرين شاو مقتلة

إذاكم الطمع من امطافل متمقين   سويد ما يطيعوا الشرك قتالا

لترك للبلا ينزادوا   وسويد ما اعطاوا بالطاعة

الباي جاهم بجنودو   طيعوا يا سويد الوحلا

سور الحديد واش يهدو   هيهات ما تصيبوا راحة

السنجاق حمو رفدو   وسويد للبلاد لما

ظهرت شوايع سويد متورخين   ملكوا الشرق والغرب كل قبلة

مـع الأمـير عقبـة جـاو مجاهـدين　　أمنـين كانـت النـاس كـل جهـالا
جازوا وجوزوا من أيامهم سـاعدين　　وجميـع مـن اقصـد إدا بـلا قلـة

وقد شارك في هذه المعركة شعراء شعبيون منهم من انتصر للعثمانيين ومنهم من حاول التخفيف من وطأة الخلاف ودعوة الشعراء المتخاصمين إلى الاعتدال وهذا ما وصلنا من شعر الداعي إلى الاعتدال قال:

لاتـذّم الـترك ولا تـذم سـويد　　لا تجـرح في الأبطـال يـا قـادة
ديـرهم كفـة وحـدة وميـز فريـد　　وحـد مـا هـو بالطغيـان يتعـدى
المحال طيور أحرار وصنايد الوغلا　　عمر حـرت العقبـان مـا يـا يـردى

إلى أن قال:

قـدها بـاي البايـات ثـم يزيـد　　دار كي شـعبان[1] وفـات ونعـدى

ثم خاطب هذا الشاعر ابن السويكت فقال:

ابـن السـويكت أنـت قـوال　　لا تجـرح في هـاذو ولا في ذوك
دبرهم كفة ميزان في كـل أغـوال　　زمـان يغضـب ذو ويـرضي ذوك
ما تدوم الحجزا مـا يـدوم الحـال　　في المضـايق مولانـا يـدير فلـوك
قلت من معناك أنت القوم أعبيد　　والعبيـد قيـام معـدودين
يلقـاوا النصـحا مـالهم تحيـيد　　يتقـوا أشرار الحاميـا السـودا

نكتفي بهذه النماذج التي سجل فيها ابن السويكت وبعض زملائه المعارك التي دارت رحاها بواحة وادي شلف، وبطبيعة الحال اشتد ضغط الجيش النظامي التركي

(1) شعبان كان باي الغرب الجزائري إذ بعد الاحتلال الإسباني لوهران اتخذت مستغانم قاعدة بعدها ثم قلعة بني راشد فمازونة التي ازدهرت، ثم معسكر إلى أن أخرج الباي محمد بن عثمان الأسبان من وهران.

على سويد والتجأ سويد إلى الجلاء بولاية تيارت الحالية فحينئذ سجل هذه المرحلة أي مرحلة الهجرة إلى السرسو الشاعر ابن السويكت الذي انقطعت عنه أخبار الثوار من سويد وصار يتساءل عنهم وعن مصيرهم قال:

يـــا نـــاري وبنـــي ســـويد	واجـــب نحـــزن ونزيـــد
عـــلى الأبطـــال العـــابرين	مـــن كـــانوا ســـور أحصـــيد
يـا نـاري ويـن أهـلا العـلام	ولاو مـــــــا ينــــــــذكروش
أهل العـدة وأهـل الـرأي المجيـد	أهل ركابات وأهل مصـون وعبيـد
وأهـــل الجامعـــات منـــورين	والـــــدير يبـــــان جديـــــد
وأهـــل ركابـــات مـــذهبين	يـــا نـــاري ويـــن اهـــل الكـــلام
فرســــــان لا يخـــــافوش	صـــــدوا فرســـــاني بـــــالتمام

للهانة ما صبروش

إلى أن قال:

مـا ثبطـوا في ذا الـدنيا مقـام	لعـــــدوهم مـــــا طـــــاقوش
خـلاوا واهـدادوا الأرسـام	وافراســـــين لا يخـــــافوش
مـــن ســـكنوا حصـــن بعيـــد	اســـهول عـــلى طـــوال الســـنين
ضـــــد الـــــترك الحديـــــد	للحيـــف راحـــوا مشـــهورين

يفرح له كل العبيد

إلى أن قال:

ألا راحـــوا زل النّقـــار	الأبطـــــال المســـــلحين
يغزوا في الليـل وفي النهـار	لعـــــــدوّهم قتـــــــالين

ما لهم في ذا الدنيا أعمار

إلى أن يقول:

كان شلف عامر بالمحال[1] كلّ الناس تفاديه
غابوا ركابين الطوال كالي ما كانوا فيه
إلي يزكوا يوم القتال أهل الحيف ومواليه
محمد بن عصمان صال قادر ربي يهديه
ثعبان أطلا عيطا غوال بطل لا من ابلاديه

إلى أن يقول: ألا راحوا زل النقار

إلى أن يقول متوسلا بالشيخ عبد القادر الجيلاني (دفين بغداد) (على عادة بعض سكان البلاد إلى يومنا هذا):

في الأعرج قطب الصالحين سد وحاليفو سيد
يقلب للتل العابرين وايجوفي يوم سعيد
وتعود أبطالي زاهيين وأنا في شكري نزيد
من يكره ناس فايزين كرسي ناس اصناديد

إلى أن يقول:

لا من جاب أخبار سويد أين مضرب راهم نازلين امحالي
استقدت افراسين الكيد توحشت سشيب التل الخالي
نيل بعد أن كان سعيد يوم أن فارقوه الأجواد شوف لحالي
وهدف في عيب جديد نقسمت على الوطيات أوصالي

(1) وهنا يعني الشّاعر بالمحال: سويد.

إلى أن قال:

يضحو في سلف الميعاد	ترأس مبنية كلي دهر قلت قبالي
إذا مت تموت شهيد	نبرا من قلبي وتزول أعلالي
سلت على نجع الرياس	لا فارس يعطي الأخبار
قالوا حطوا في منداس[1]	بلغوا لمنازل الأوعار
ارة العابد ذكره غاس	غربي اللوحة في الأجدار

إلى أن يختمها بقوله:

البـاي ظلـم وظلمنـاه واحنـا درنـا فيـه العـار

إنني أعتذر لدى القراء حيث نجد بعض التكرار أو تداخل بعض الأبيات في قصائد أخرى وسنتدارك هذه الأخطاء في دراسة أخرى نجعلها كتتمة ومحلق، وقد كانت الصحف المحلية أطلعتنا على ملتقى موضوع: (**الشعر الشعبي بالجزائر وأهميته للتاريخ الثقافي**)، وبودنا أن نغتنم فرصة هذه الملتقيات لجمع ما تشتت أو أهمل من هذا التراث وإن في إحداث مهرجان سيدي الأخضر بن خلوف لخير مشجع لفوائد هذا النوع من الملتقيات واستمراريتها والتّعرّف بمستودعات هذا النّوع من الشعر الشعبي الذي كان الأوائل يعطونه أهمية عظمى، وقد اطلعت على عدة خزائن شهيرة جمع فيها أصحابها نوادر المخطوطات لم تخل من هذه القصائد .

ولنختم ترجمة الشيخ ابن السويكت موضوع دراستنا التي لخصها أحد معاصريه في هاذين البيتين:

قال الترك ندو شلف لارهمه

(1) تتبع الشّاعر ابن السّويكت المراحل التي مرّ عليها قومه في طريقهم إلى الصّحراء فذكر معالم تاريخية شهيرة لا زالت تحتفظ بأسمائها كمنداس والأوعار، والأجدار، واللّوحة.

فأجابهم سويد:

قلنا لهم جدودنا في الواد

ما تتركوش الحرب حتى تطيب الصما   وما تهـدوش العقبـة عـلى الأولاد[1]

(وهران)

المهدي البوعبدلي

(1) يقصد بالصما: اسم الحجارة التي يتخذ منها الجير، فإنها لا تلين ولوبقيت أياما وليالي في النار.

من أعلام الجزائر
أبو القاسم القالمي كاتب الدولة الموحدِّية(1)

أبو القاسم عبد الرحمٰن القالمي والظروف التي تولى فيها الكتابة عند الملك عبد المؤمن ابن علي.

إنني سأتناول في محاضرتي هذه ترجمة لكتاب أبي القاسم القالمي وقد ركَّزتها على الظروف التي تعرف فيها برئيس دولة الموحِّدين وتولى الكتابة في ديوان الإنشاء، هذا وقد سبق لي أن تحدَّثت وألقيت محاضرة عن حياته منذ سنوات في هذه البلدة في إطار النَّشاط الثَّقافي التي كانت تقوم به وزارة الشؤون الدِّينية عندما دعيت للمساهمة في هذا الملتقى.

اخترت أن أعود إلى ترجمة هذا العبقري وركَّزت دراستي هذه على الظروف التي تعرف فيها بالملك عبد المؤمن بن علي إذ إنَّ كثيرا ما تشح علينا المصادر التَّاريخية بتراجم أمثال هؤلاء، العلماء والمصدران اللَّذان وصلنا عن ترجمة حياته هما كتاب (**المعجب في تلخيص أخبار المغرب**) لعبد الواحد المراكشي المؤرخ المشهور المتوفى سنة 625هـ، وكتاب (**عنوان الدراية في ذكر من عرف من العلماء في المائة السَّابعة ببجاية**) للقاضي

(1) اعتمدنا في إثبات هذا المقال على ما نشرته مجلة المعالم، الصادرة عن جمعية التاريخ والمعالم الأثرية، بمدينة قالمة، العدد: 5، السنة الرابعة، السداسي الثاني من عام 1990م، ص: 10 ـ 15، كما اعتمدنا على نسخة خطية مبتورة الآخر، وهي بخطِّ الشيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى)، تقع في (35) صفحة . (ع)

المشهور أبي العباس أحمد الغبريني المتوفى بتونس سنة 704هـ .

فالمصدر الأوَّل (**المعجب في تلخيص أخبار المغرب**) ذكر فيه صاحبه أبا القاسم القالمي في موضعين: الموضع الأوَّل ذكره في الفصل الذي عقده لترجمة الملك عبد المؤمن بن علي تلميذ وخليفة الإمام المهدي ابن تومرت مؤسِّس دولة الموحِّدين ذكره عندما تحدَّث عن وزراء عبد المؤمن فقال: «واستوزر عبد المؤمن أبا جعفر أحمد بن عطي فجمع بين الوزارة والكتابة فهو معدود في الكتاب والوزراء فلم يزل عبد المؤمن لجمعها له إلى أن فتح بجاية فاستكتب عبد المؤمن من أهلها رجلا من نبهاء الكتاب يقال له أبو القاسم القالمي وسيأتي ذكره في كتابه) .

الموضع الثاني: هو عندما تعرض المؤرخ لذكر كتّاب عبد المؤمن قال: «ثم كتب له بعد أبي جعفر أبو القاسم عبد الرحمٰن القالمي من أهل مدينة بجاية من ضيعة من أعمالها تعرف بقالمة » وهذا التَّعريف الثاني هو كل ما عُرِّف به مترجمنا أبو القاسم عبد الرحمٰن القالمي.

أما المصدر الثاني وهو: (**عنوان الدِّراية في ذكر من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية)** فلم يزد على هذا التعريف شيئا، وقد ورد تعريفه عرضا عند ترجمته لجعفر ابن أحمد، المعروف بابن محشرة، الذي ولي الكتابة للملك أبي يوسف يعقوب بن عبد المؤمن بن علي.

هذا، وإن كانت الوثائق التَّاريخية الأصليَّة شحَّت علينا بتفاصيل ترجمته فينبغي لنا أن نواصل ونتتبَّع أبحاثنا داخل البلاد وخارجها، إذ عار على أبناء الجزائر بصفة عامة وأبناء قالمة بالخصوص أن يهملوا تاريخ بلادهم وتراجم رجالها الذين لعبوا أدوارا مشرفة في تاريخ البلاد، إذ قالمة اشتهرت بمكانتها في العصر الفينيقي والروماني ولفتت انتباه كثيرا من المؤرِّخين الذين لا زالوا يواصلون بحوثهم التَّاريخيَّة ويهتمون بآثارها

الحضاريَّة والثَّقافيَّة، فإنَّ تاريخها في العهد الإسلامي مجهول، وإنَّنا نعرف أنَّ الجزائر في العهد الإسلامي والدول التي تكونت لدولة مغراوة والفاطميَّة وبني زير كانت نفس بعض العواصم تتكوَّن من الخيام وقد أشار إلى ذلك صاحب **(عنوان الدراية)** الذي عرف بقالمة، حيث قال: «ضيعة من أعمال بجاية»، وإنَّنا نرى أنَّ كثيرا من علماء عهدنا لا زالوا يتبعون تاريخ دول وحضارات بادت وفقدت وحدتها وكثيرا من آثارها، ومع هذا فلا زال خلفهم يعقد المؤتمرات، يجتمع فيها أساطين الباحثين مثل: **جمعية حضارات البحر المتوسط** التي أسِّست سنة 1972م وعقدت مؤتمرين بجزيرة مالطة. أمَّا نحن مع الأسف صدق علينا المثل العامي الجزائري الذي يقول: «خلات رجلها ممدود وراحت اتعزِّي في محمود».

ولما كان مجال هذه الدراسة محدودا يمنعنا من الدخول في التفاصيل لننتقل إلى مواصلة حديثنا أي تتمة ترجمة أبي القاسم القالمي والظروف التي اجتمع فيها بالملك عبد المؤمن بن علي رئيس دولة الموحِّدين.

كانت أوَّل دولة إسلامية تكوَّنت في الجزائر إثر الفتح مباشرة هي دولة مغراوة، هي قبيلة بربريَّة كانت تحكم ما بين سهول مليانة إلى مستغانم، وقد أسلم رئيسها ونزمار المغراوي على يد الخليفة عثمان بن عفان لخبر يطول وأقره على حكم قبيلته وقد غلط كثير من المؤرِّخين وبالخصوص الأجانب الذين ذهبوا إلى أنَّ أول دولة إسلامية تكوَّنت في الجزائر بعد الفتح هي الدولة الرستميَّة الإباضيَّة ولم أقصد الدُّخول أيضا في بحث هذا الموضوع وإنَّما سياق البحث جرَّنا إلى الحديث عن الخطوط العريضة منه.

وفي مدة هذه الدولة أي دولة مغراوة التي كانت تعرف بدولة بني خزر ظهر في الأفق الدولة العبيديَّة الفاطميَّة التي تكوَّنت بأيكجان جبل بابور شمال سهول سطيف، وهذه الدولة أي العبيديَّة تمرَّدت على دولة الخلافة العباسيَّة إذ بعد ظهورها بأيكجان

جبال بابور أطاحت بدولة تاهرت الإباضيَّة، اكتشفت الدولة الأغلبيَّة التابعة للدولة العباسيّة وكانت قاعدتها بتونس مدينة القيروان وبشرق الجزائر طبنة وقد نالت استقلالها الداخلي عند خلفاء العباسية فحينئذ انتصرت لها قبائل بني زير بن منَّاد الذين تولى منهم زير بن منَّاد وولده بلكين مؤسس مدن الجزائر الحالية ومليانة والمدية، وقد احتفلت الجزائر سنة 1972م بمرور ألف سنة على تأسيس المدن الثلاثة المذكورة، وقد أطاح بلكين بن زير بدولة مغراوة سنة 460هـ ولما انتقل المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر التي كانت تعرف بالقاهرة المعزية خلف على حكم بلاد المغرب العربي الحالي بلكين لخبر يطول لا يسعنا مجال هذه الدّراسة الدخول في تفاصيله. ثم ظهرت في الأفق دولة بني حمَّاد التي هي من أسرة بلكينِ وأسَّست **قلعة بني حماد** التي لا زالت تحتفظ بآثارها، وبعد مسيرة بني هلال إلى الجزائر أسّس الملك **بن حماد** مدينة **بجاية** ـ موضوع حديثنا ـ وفي **بجاية** اجتمع الإمام **المهدي بن تومرت** في طريق رجوعه من المشرق بتلميذه **عبد المؤمن بن علي**، وقد اختلفت الروايات في ظروف هذه الملاقاة فمنهم من ذهب إلى أنها كانت تلقائية، ومنهم من ذهب إلى أنَّ علماء **تلمسان** لما اشتهر عندهم الإمام **المهدي** أرسلوا **عبد المؤمن بن علي** لملاقاته، اشتهر المهدي بالصلابة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكذلك في دعوته إلى توحيد المذاهب ومحاربته لمذهب الإمام مالك الذي كان يسود بلاد المغرب العربي وبلاد الأندلس، وألَّف ابن تومرت تأليفه الشهير بالموطأ التي عوَّض بها **(موطأ)** الإمام **مالك**، وفي مدة إقامته بـ: **بجاية** اجتمع به تلميذه **عبد المؤمن بن علي** فلازمه وأعانه في نشر دعوته فتوجس الملك الحمادي منهم خيفة فأمر بسجنهم فالتجئوا إلى قرية ملالة التي تبعد عن **بجاية** نحو عشرة أميال فآواهم سكانها من قبيلة صنهاجة ونصروهم ولا زالت قرية ملالة هذه تحتفظ بالمسجد الذي أسَّسه **المهدي بن تومرت**، وبعد إقامة **أحمد** مدَّة طويلة غادر ملالة متوجها إلى بلاد المغرب الأقصى وبالضَّبط إلى مراكش.

هذه لقطات ذكرناها كتوطئة لموضوع بحثنا الذي هو كما يدلُّ عليه عنوان المحاضرة: (**الظروف التي تعرَّف فيها أبو القاسم القالمي بالملك عبد المؤمن بن علي**)، وشاء القدر أنَّ الإمام المهدي بن تومرت عندما رجع إلى مسقط رأسه وجد ملك البلاد علي بن يوسف بن تشفين المتوني فثار عليه وانتصر وبعد وفاته خلفه تلميذه عبد المؤمن بن علي الذي واصل حربه مع بقايا المتونيين وحاصر وهران التي التجأ إليها تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين آخر الملوك اللمتونين لخبر يطول، فواصل عبد المؤمن مسيرته إلى بجاية حيث استلم ملكها الحمَّاد فحينئذ ولى عبد المؤمن أبا القاسم القالمي، وهنا نقف لنطرح سؤالا وهو هل سبق اتصال القالمي بالملك عبد المؤمن أثناء إقامته ببجاية ثم مناله بعد أن أعطى ملكها الحمَّادي أوامره للقبض على المهدي وأصحابه الذي في طليعتهم عبد المؤمن بن علي إذ كان المهدي بن تومرت صاحب مذهب عقائدي وهو الدعوة إلى السلفية وتوحيد المذاهب، وقد انخرط في سلك مذهبه كثير من العلماء، إذ لا يتصوَّر أنَّ عبد المؤمن بن علي بمجرد وصوله يعيَّن أحد كبار إطارات الدولة تلقائيا.

وفي ختام هذه الدراسة نذكر بمزيد من البيان هذه الخطة وما كان يشترط في متوليها، بعدها نجيب على سؤالنا المطروح ولو على سبيل الافتراض.

هذا وإن لم تجد علينا المصادر بترجمة أبي القاسم القالمي متصلة فإنّها جادت علينا بما كان يشترط في ذلك العهد من شروط في من تولوا هذه الخطة، كما جادت علينا بالتعريف المفصل لبعض تلامذته خصوصا إحدى تلامذته المقرّبين الذين خلفوه في منصبه، إذ كان كثير من علمائنا يستدلون على فهم كبار العلماء بتلامذتهم، فنجد مثلا الشيخ عبد الرحمٰن الثعالبي الذي هاجر من الجزائر إلى بجاية لطلب العلم يذكر أنَّه عندما وصل بجاية وجد عالمين من علمائها نالا شهرة وتركا تآليف قيمة كانت من جملة

تلاميذهما المؤرخ ابن خلدون وهما أحمد ابن إدريس وعبد الرحمـٰن الوغليسي فذكر الثعالبي ما يلي: «عندما وصلت إلى بجاية وجدت العالمين الشهيرين قد توفيا إلا أنَّني وجدت تلاميذهما على سنَّتهما وهم أبعد الناس على أبواب القصور».

ولنرجع إلى مواصلة حديثنا عن اتصال الملك عبد المؤمن بن علي بمترجمنا أبي القاسم القالمي وظروف تولِّيه كتابة الإنشاء عند الملك عبد المؤمن بن علي رئيس دولة الموحدين، كان فتح بجاية الذي أعقبه مباشرة تعيين القالمي سنة 547هـ، ثم توفي عبد المؤمن بن علي سنة 558هـ، وكان أبو القاسم القالمي ملازما له طيلة أحد عشر سنة إذ نجد رسالة من رسائله كتبها عنه أي عن الملك عبد المؤمن مؤرخه سنة 555هـ قبل وفاة عبد المؤمن الذي خلف والده بعد وفاته، وفي ذلك قال صاحب المعجب في تلخيص أخبار المغرب مايلي: «كتابه أبو محمد عياش بن عبد الملك عياش كاتب أبيه وأبو القاسم المعروف بالقالمي وأبو الفضل جعفر ابن أحمد المعروف بابن محشرة من أهل مدينة بجاية كان يخدم أبي القاسم القالمي بمنصبه أي كتاب ديوان الإنشاء في بلاط الملك أبي يوسف يعقوب بن عبد المؤمن. ومن ذلك ما ذكره القاضي أبو العباس أحمد الغبريني البجائي في تأليفه: (**عنوان الدراية في ذكر من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**)، قال: «في ترجمته الكاتب الشهير أبو الفضل المشهور بابن محشرة الذي تولى الكتابة عند الملك أبي يوسف يعقوب مكان بن القاسم القالمي»، فقال: «ومنهم الشَّيخ الفقيه الجليل العالم الصدر النبيل النبيه الزكي القدر الكاتب البارع أبو الفضل محمد بن علي بن طاهر بن تميم القيسي، من أهل بجاية وأصله قد اشتهر، ويعرف بابن محشرة، يكنى أبا الفضل وأبا علي، كان أبوه قاضيا ببجاية، له علم متسع المدى وتخصص ووقار بما سبيله في بابه يقتدى».

كان متمكِّن المعرفة حسن الشارة والصفة له الهمَّة السنيَّة والأخلاق المرضية وكان

وجيها مكرما ومشرفا، استدعاه الخليفة ابن عبد المؤمن إلى حضرتهم بمراكش فارتحل من بجاية وهو كاره لارتحاله من علمه أنَّه استدعاه لمنصب يسمو به على أمثاله ولكن عزَّة العلم أغنته عن الناس وحصلت له من المزية في الأنفس أزيد مما به يقاس، ثم واصل الغبريني حديثه فقال: «أخبرنا شيخنا الفقيه أبو محمد عبد الحق بن ربيع أنَّ سبب استدعائه أنّ كاتب سر الخليفة في ذلك الزمان توفي، واهتم أمير المؤمنين بذلك غاية الاهتمام، وكان مسعود بن سلطان الرباحي المعروف بمسعود البلطي وفد على أمير المؤمنين من هذه البلاد وكانت له عند مزية، وقبل أن نواصل حديثنا عن أبي محشرة الذي خلف أستاذه أبا القاسم القالمي في بلاط الملك أبي يعقوب يوسف ابن الملك عبد المؤمن ابن علي، نقف وقفة قصيرة لنبين أنَّنا إنما تتبَّعنا ترجمة ابن محشرة بمزيد من البيان والتَّفصيل لأنّ علماء ذلك العهد لا يتساهلون في خلع الألقاب على مترجميهم من دون مبالغة، ولَمَّا كانت ترجمة أبي القاسم القالمي لم يصلنا منها إلا نزر قليل أثبتنا ترجمة تلميذه الذي كان من ملازميه ولهذه الصفات اختاره الملك يعقوب ابن عبد المؤمن لخلافته، وقد صدق المثل العربي الذي يقول: «الولد نسخة من أبيه » ولنرجع إلى مواصلة الحديث عن الظروف التي اختار فيها الملك أبو يوسف يعقوب ابن الملك عبد المؤمن الكاتب أبا الفضل ابن محشرة تلميذ أبي القاسم القالمي، ذكر الغبريني أنّ الرباحي وفد على أمير المؤمنين أبي يوسف يعقوب متأثرا وكان من تلاميذه المقربين: قال مسعود البلطي في ذلك: «فوجدته مهتما مغتما وقد ظهر التغير في وجهه »، فقلت له: «يا سيدنا، يا أمير المؤمنين، ما الذي أهمكم لا أهمكم الله »، فقال له: «إن كاتب سيدنا فلانا قد مات وقد احتجنا إلى من نقيمه مقامه وما وجدنا لأنه يحتاج في كاتب السرّ أن يكون على صفة كذا وعلى نعت كذا »، فقلت له: «بشراك يا سيدنا يا أمير المؤمنين هذا الرجل ببجاية أبو الفضل ابن محشرة، ووصف له من صفاته ما وقع منه موقع القبول، فكتب له أمير المؤمنين من حينه وأمر والي بجاية أن يحتفي به ويحمله خير محمل، فلم يكنه بعد

وصول الأمر إلا طاعة أمير المؤمنين ولم يمكنه التخلف، ولما وصل إلى حضرة مراكش ومثل بين يدي الخليفة رأى من حسن سيمته وروائه ووقاره ما أغناه عن اختياره فأكرم نزله ورفع منزلته ومحله، ولما وقع الإطلاع على ما عنده من فنون العلم علم أن الكتابة التي وقع الاستدعاء بسببها إنَّما هي بعض صفاته وإحدى آلاته وإدراكاته. انتهى ما كتبه صاحب عنوان الدراية أحمد الغبريني في ترجمة ابن محشرة الذي عين مكان الكاتب أبي القاسم القالمي وأننا أثبتنا هذه الفقرات في ترجمة أبي الفضل بن محشرة الذي كان من تلامذته أبي القاسم القالمي هذا».

ولما كانت تمثل هذه التراجم لعلماء ذلك العهد شحت علينا بها المصادر القليلة الوجود ثم إنّ هذا الكاتب الفريد الذي هو من أبناء هذه البلدة وصادف أنه خلفه في خطة الكتابة تلميذه ابن محشرة بجائي وينتمي إلى أسرة علمية حيث إن أباه كان قاضيا ببجاية، كما أن ذلك العهد أي القرن السابع الهجري كان يزخر بأساطين العلم والكتاب والمؤلفين، إلا أن هذه الوظيفة كان الملوك يراعون في أصحابها مقاييس، وفي عهد الخليفة أبي يوسف يعقوب بن الخليفة عبد المؤمن بن علي لم يعد في عاصمة المملكة إذ ذاك مراكش وفي بلاد الأندلس نخبة من أكابر العلماء لا يحتاج إلى تعيين كاتب سره من البلاد النائية كبجاية.

وقد احتفظ لنا التاريخ ببعض رسائل دولة الموحدين جمعها المستشرق المشهور بنشره لعدة وثائق أصيلة من تراث الموحدين بالمغرب العربي وبلاد الأندلس، فلقد جمع ما أمكنه الحصول عليه من رسائل الموحدين ونشرها تحت عنوان: **رسائل الموحِّدين** 1948م، نقتصر على هذه اللقطات من ترجمة أبي الفضل ابن محشرة الذي خلف أستاذه أبا القاسم القالمي في خطة الكتابة عند ملك الدولة الموحدية هذا، وإنَّنا كما يدل على عنوان هذه الدراسة تعرضنا للخطوط العريضة من الظروف التي تعرف فيها الملك

عبد المؤمن بن علي بمترجمنا وموضوع دراستنا أبي القاسم عبد الرحمٰن القالمي وهي على سبيل الافتراض إذ سبق اتصال عبد المؤمن بن علي به عند ملاقاته بشيخه المهدي بن تومرت في طريق رجوعه من المشرق إلى المغرب، وقد امتحنه كما سبق لنا ذكره والمهدي ابن تومرت كان داعية لمذهب عقائدي وهناك رواية تذكر أن عبد المؤمن جاء موفدا من علماء تلمسان لما اشتهر أمره في الأوساط العلمية بتلمسان، وعلى كل حال فإن عبد المؤمن لم ينس بجاية التي أقام فيها أزيد من سنة صحبة شيخه ورفقائه، فمن ذلك ما أثبته التاريخ أن عبد المؤمن لما كان مختفيا ببجاية وملك البلاد الحمادي أمر بإلقاء القبض عليه واشتد به الجوع فقصد عبد المؤمن خبازا بالحي الذي كان مختفيا به وقدم للخباز هدية رهنها عنده وأخذ خبيزات ووعده بأنه سيرجع إليه بالمقدار الذي استدانه فأعطاه الخباز ما طلبه ورجع له الهدية فحين رجع عبد المؤمن في طريق فتوحاته إلى بجاية فقيل له هل لا زالت مخبزتكم ؟ فأجابه بنعم، فقال له **عبد المؤمن**: ظهر لي أنها ضيقة، وعلى هذا اتَّصل بجيرانها ليبيعوا لك ما تحتاجونه في التوسعة وأنا أتولى دفع ثمن ما تشترونه منهم.

بهذا نختم هذه الدراسة وأمنيتنا أن يعود علينا الزمان بترجمة كاملة لـ: **أبي القاسم القالمي** حتى تكون نواة لمستودع الوثائق التاريخية لهذه المدينة.

ترجمة الشيخ ابن مهدي عيسى بن موسى التوجيني دفين بلاد الطاغية بنواحي معسكر(1)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

أصله (رحمه الله) مِن **بني توجين**، بطنٌ مِن بطون زناتة، أهل **جبل وانشريس**، كان لقومه توجين على عهد دولة بني مرين وبني زيان إمارة قبائلهم، ولأميرهم محمد بن عبد القوي ابن عطية التُّوجيني يدٌ في إعانة السلطان أبي سالم المريني على حرب بني زيان أمراء تلمسان كما سنبيِّنه في آخر حديثنا.

نشأ الشيخ **أبو مهدي** في بلاد **غريس** نشأةَ معظمِ مُواطنيه، كانوا أول ما يستفتِحون به التعليم قراءة القرآن ثمَّ تجويده، وبعد ذلك يأخذون مبادئ العلوم بمَواطنهم، ثم يقصدون العواصم العِلمية فيلتحِقون بها، وليس المقصود مِن رحلاتهم في طلب العلم إلى الخارج فقد أهله بالبلاد، وإنما كانوا يتحمَّلون مشاقَّ السَّفر للبعد عن الأهل والانقطاع للدِّراسة.

قصد الشيخ **أبو مهدي** فاس فقرأ على جلَّة علمائها، منهم الشيخ **عبد الله بن عبدالرزاق الغريسي**، والعلامة الإمام الشيخ **أبو عبد الله محمد بن أحمد بن غازي** عالم فاس وشيخ جماعتها الذي كان مِن مشاهير علماء المغرب، تولَّى رئاسة العلم والفتيا

(1) اعتمدنا في إثبات هذا المقال على نسخة خطية أفادنا بصورة منها الأستاذ **بوزيد بومدين** (مدير الثقافة) بوزارة الشؤون الدينية، وهي بخطِّ الشيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى)، تقع في (7) صفحات . (ع)

بمدينة فاس، والإمامة بجامع القرويِّين، وله تآليف عديدة، لازمه الشيخ **أبو مهدي** إلى أن أجازه كما أجازه غيره، ثم رجع إلى بلده فانتصب للتَّدريس على سَنن علماء بلده، فقصده طلاَّب العلم مِن جميع النواحي، فكان كما وصفه العلامة المؤرِّخ الشيخ **أبو راس الناصري** عندما تحدَّث على قومه بني توجين: «خرج منهم جماعة من العلماء والملوك والأولياء، وكان الشيخ **عيسى بن موسى** واسطة عِقدهم، ومحل فخرهم، وذروة مجادتهم، وكوكب سعادتهم، وعين أعيانهم، وبالجملة فهو علامة المتأخِّرين، وخاتمة المحقِّقين، وغصن شجرة المعارف التي طاب أصلها وزكت فروعها، ورياض الآداب التي تنوَّعت فنونها الماشي على طريقة السلف » انتهى كلام الشيخ **أبي راس**.

تخرَّج عليه عدَّة علماء، منهم العلَّامة الشَّيخ **عبد الرحمـٰن بن محمد بن موسى التِّلمساني**، تعرَّف به الأستاذ **أبو مهدي** في حِصار **وهران** الأول الذي وقع على يد الباشا حسن[1]، الذي قال فيه صاحب (**البستان**): «كان جميل الصِّفات، شريف الأخلاق، كثير الأدب، كثير التَّواضع، دائم البشر، وافر العقل، شديد الاقتفاء لأحكام الشَّرع، كان علَّامة في الفقه والوثائق وعلم الحديث والنحو، ماهرا في اللغة والحساب والفرائض، جيِّد القريحة... إلى آخر ما قال فيه.

كان الشَّيخ **أبو مهدي** (رحمه الله) حضَر في حِصار الباشا حسن بن خير الدِّين، وكان معه تلميذه الشَّيخ عبد الرحمـٰن المذكور، فأهدى له الشَّيخ أبو مهدي ثوبا مِن صُنع البلاد، فلما رجعَ الشَّيخ عبد الرحمـٰن إلى تلمسان بعثَ له كسوة، وبعث معها قصيدة قال فيها:

كســــــوتك فاقبلـــــه لله وادع لي	وأولادي مع أخي وأحبابي مـع أهـلي
ولا تنســـني يـــا شـــيخ لله دائـــما	وخـــذ بيـــدي إني فقـــير وذو ذل

---

(1) ابن خير الدين فتتلمذ له وكان أقرب الناس إليه وكان الشيخ عبد الرحمن هذا شاعرا.

فأبقـــاك ربي كهــف علــم وملجــأ لذا الجنس من أهل اللسان بل الكـل
بجـــــاه إمــــام المتقـــين محمـــــد عليـه صـلاة الله ذي الجـود والطـول

إلى أن يقول:

وناظمــه نجــل ابــن موســى محمــد يقبل منك الكف والرجـل في النعـل

كان الشَّيخ عبد الرحمـٰن شاعرا وله عدَّة قصائد، خصوصا في حِصار وهران، فمِنها قوله يخاطبُ الباشا حسن بن خير الدِّين:

أمــوالي بالمختــار مــن آل غالــب أحبتـه والصَّـحب كـل الأقـارب

إلى أن يقول:

وترعـاه في الـدنيا وفي الأخـرى دائـما من الحقد والأضـغان كـل المصـائب
وتجعلــــه مفتـــاح خـــير وفاتحـــا لذا الحصن يا مولاي معطي المواهـب
ولا يخفـــى عنـــك زادك الله نصـــرة سؤال هرقل لابن حـرب وصـاحب
بقولــه كيــف كـــان إيـــاه حـــربكم ســجال جوابــه بــلا نكــر صــائب
أجابـــــه هـــــو أن ذاك عوائـــــد وعقبـى الأمـور نصـر أهـل المناقـب
وأنـــت لأصـــحاب النبـــي خليفـــة وحـزب الإلـه هـو أفضـل غالـب
فثـــق بالإلـــه واصـــبر تنـــل بـــه مـرادك وهرانـا ومرسـى الغـوارب
وقــد وعــد الرحمـــٰن جــل جلالــه مع العسـر يسـر لسـت في ذا بغائـب
عـلى قـدر تقـوى الله تـأتي المواهـب وتـأتي عـلى قـدر الـذنوب المصـائب

وعندما كان هذا الحصار أهدى له الشَّيخ أبو مهدي ثوبا غريسيا، وبعد رجوعه إلى تلمسان بعث هو بدوره إلى الشيخ كسوة، وبعث قصيدة يقول فيها:

كسوتكم... الخ.

ترجم الشَّيخ عبد الرحمٰن هذا صاحبُ **(البستان)**، ووصفه بقوله: «كان جميل الصفات...».

بقي الشَّيخ مشتغلا بالتدريس إلى أن وقعَ له حادثٌ أثَّر كثيرا في حياته، وذلك أن ظالما مِن بني عباد ـ بطن من بطون الحشم ـ وهي قبيلة عتيدة كانت تتمتَّع بالنفوذ التام بتلك النواحي، سنتحدَّث عنها بعد ـ قتل ولده السيد **محمد** (رحمه الله) سنة إحدى وستين وتسعمائة، فذهب الشيخ إلى الأمير التُّركي بمعسكر فشكا له بالمعتدين، وبقيَ مدَّة يتردَّد على الأمير، وهو ينتحلُ له في الأعذار إلى أن أَيِسَ مِن إنصافه إياه، فتوجَّه إلى الله بنظم قصيدته المشهورة، يستغيثُ فيها بالرُّسل والصَّالحين لينتقِمَ الله له مِن ظالميه، قال فيها:

لما عجزتُ في بلادِ الجور	عن أخذ ثار ولد بالفور
ناديتُ غوثا يا رِجالَ الحق	يا أهل بدر يا عيون الخلق
يا سادة عبيدكم حقيرا	وما له سواكم نصيرا
وأنتم وسيلة لربي	في أخذ ثاري وزوال كربي
بجاههم لديك يا جليل	عجِّل بثأري إنَّني ذليل

وهي منظومة طويلة.

وقبيلة الحشم هذه كانت تسكن بسهول غريس، اختلف في نسبها المؤرِّخون، فمنهم مَن قال إنهم عرب، كالعلاَّمة الشَّيخ الطيب بن المختار قاضي معسكر، وابن عم الأمير المنعم عبد القادر، فإنه ألَّف في نسبهم كتابا سماه بـ: **(القول الأعم في نسب الحشم)**، وأيَّد نظرياته بحجج، ومنهم مَن ذهب إلى أنهم برابر ينتَمون لبني محمد الزناتيِّين أقارب بني زيان، كانوا يسكنون بمواطن بني راشد، وهي المعروفة الآن بجبال عمور، قيل إنهم غادروا مواطنهم إثر حروبٍ وقَعت بينهم وبين بني هلال، ونزلوا عند بني ورنيد

الذين كانوا يمتُّون لهم بصِلة النَّسب، يسكنون بصحراء تلمسان ثمَّ جاؤوها إثر نزاع وقع بينهم وبين بني عامر، واستَوطنوا غريس في القرن الثامن، وكان سكَّان غريس إذ ذاك بني زروال بطن مِن بطون مغراوة، فوقعت بينهم كذلك حروب، ولكن في هذه المرَّة وقَع جلاء السكَّان الأصليِّين بني زروال، فذهبوا إلى نواحي المزيلة قرب مستغانم، حيث يسكنون الآن، وبقي الحشم بغريس.

كانت الحشم مشهورة بالبطولة النادرة، حتى إن أغلب الملوك كالموحِّدين وبني زيان اتخذوا منهم حرسهم الخاص، وبقوا على حالتهم إلى أن استَولى الأتراك على الجزائر فوجدوهم مِن أعظم القبائل، إذ كانوا مدَّة إقامتهم بغريس يتوسَّعون على حساب القبائل المجاورة لهم، إلى أن صاروا يعادلون قبيلة بني عامر، وعندما احتلَّ الأسبانيون وهران دان لهم بالطَّاعة بنو عامر، فبقي الحشم تابعين ومؤَيِّدين للأتراك الذين قطعوا لهم عدَّة جهات، كـ: هبرة، وسيق.

كانت أعظم قبيلة يعتمدها الأتراك إذ ذاك هي قبيلة الحشم، ولهذا لا نستغرب عجز الأمير التُّركي بمعسكر عَن متابعة قاتِل ابن الشَّيخ فضلا عَن عِقابه.

أَيِس الشَّيخُ مِن عدالة أمير وقتِه، وظهر عجزه عَن أخذِ ثأره، فشكا إلى الله بقصيدته المشهورة، وشَرحها هو بِنفسه، كما اطَّلعنا على شرح الشَّيخ أبي راس الذي سماه بـ: **(الدُّرِّ المهدي لغوثية أبي مهدي)**.

انتصر للشَّيخ في نكبته هذه بنو خالد، إذ هم الذين نقلوا جثَّة ابنه، لأنه بعدما قُتِلَ تركوه ملقى في الفلاة، فنقله جماعة منهم لوالده، وحضروا في دفنِه، وهم الذين بحثوا على القاتل فعرفوه، فكان جزاء الشَّيخ لهم هو تخليد ذِكرهم بقصيدةٍ مدحَهم بها، ودعا لهم بالخير والنَّصر:

أولاد خالـد بهـم تفـج الكـروب   كم كشفوا همـا وغـما في الحـروب

أولاد خالــد مــن الشــجعان	كــم قتلــوا قومــا مــن الخزيــان

لاشك أنهم لـدى الحـرب أسـود	كـم شـتتوا مـن السـرايا والجنـود

كـم كشـفوا عـن القلـوب غمـه	كشــف ربنــا علــيهم همــه

كــم دخلـوا عـلى الـورى سرورا	جعــل ربنــا علــيهم ســورا

إلى أن قال:

أدعــو لهــم بــالخير ثــم النصــر	وصــحة الأبــدان طــول العمــر

أَثَّر هذا الحادثُ كثيرا في حياة الشيخ، وصار يُظهِرُ مثالب هذه القبيلة ويهجوها، كما كان يهجو مركز الحكم بها، وهي معسكر، فمِن ذلك قوله:

وكيف تنـزل رحمـة الإلـه عـلى	أم العساكر دار الظُّلم والفُجـر

استأنف الشَّيخ بعد هذا الحادث حياته العِلمية، وقصدَه التلامذة مِن كلِّ ناحية، ونُقِلت عنه حِكمٌ ذكرَ الكثيرَ منها الشَّيخ **أبو راس** في شرحه المذكور، كما أَلَّف الشيخ بعد هذا الحادث منظومة بديعة سماها: **(بغية الطالب في ذكر الكواكب)**، ضمَّنها مَن كان على عهده أو قريبا منه مِن علماء وطنه الراشدية، يقول فيها:

بــدأت ببســم الله ربي ومــالكي	مجيبــي ومنقــذي عنــد النوائــب

وصـليت ثانيـا عـلى خـير خلقـه	محمــد المختــار مــن آل غالــب

ألا أن أهـــل الله ملجـــأ هـــارب	وغنيــة محتــاج وبغيــة طالــب

رجـــال كـــرام أدبـــوا فتـــأدبوا	بـــآداب تنزيـــل مـــن الله غالـــب

بنوا بشـهود الحـق مـن بعـدما فنـوا	عن الكون فاستجلوا ضياء المواهب

يداوون أمـراض النفـوس بجملهـا	عـلى ضـد مـا تهـواه ذات المصـائب

إلى أن يقول:

وفي راشـد جمـع وهـم بنـو راشـد　　وحـل مـن الانجـاد كـل بغـارب

وراشد كما عرفه المتقدِّمون جبلٌ عظيم، أحد سِلسلتي الأطلسي مما يلي الصحراء، وفي ضمنه جبال تعرف بأسمائها، كـ: جبل وانشريس، وجبل السرسو، وجبال العمور، وقيل إنه كان يطلق على هذا الأخير فقط، أي جبل العمور، لأنه مقرّ شعوب زناتة، الذين منهم بنو توجين وبنو راشد وبنو كجيل ثم انتقل بنو راشد إلى سهول غريس بنواحي معسكر، فسمِّيت تلك السهول بالرَّاشدية، وصارت لا تُعرف إلا بها، حتى إن العلَّامة الفقيه الشيخ مصطفى الرماصي المشهور عند الفقهاء بحاشيته على التتائي، قال في بعض أجوبته: «وأراك أيها السائل تحتفل بكلام عبد الباقي، وذلك بمعزل عن التَّحقيق لأنَّ شرحه وشَرح الخرشي لا نكترث بهما في بلادنا الراشدية، لعدم تحقيقهما، وعُمدتهما كلام الأجهوري، وهو كثير الخطأ».

ويقول أحد شعراء الملحون يصف أيضا أهل تلك الناحية:

أمسى الهلال وأكسا صحو أسماهم الغيم　　وأخشـاهم الظـلام أشـياخ ومريـد

أخـلا المكـان بعـد العمارة والـدعيم　　زل النقـار وأذعـن كمـي صـنديد

ما شـفت مـا يصـبر قلبـي مـن ذا الألـيم　　حقـى عـلى الفحولـة نبكـى ونزيـد

وطني الراشدية وأهلي تجانها

والحديث عن بني راشد وعن سبب إطلاق اسم الراشدية على تلك السهول، وهل بنو راشد عرب أو بربر؟ واستيطانهم بجبل العمور ثم انتقالهم لسهول غريس، بحثَ فيه كثيرٌ مِن العلماء، وخصُّوه بالتآليف، نكتفي هنا بنقل بعض آثارهم.

الشَّيخ العلَّامة الطيب بن المختار قاضي معسكر قال في حديثه على الحشم: «وكانوا يسمَّون قبل ذلك بـ: بني راشد، وهو إما لحلولهم أوَّلا بجبل راشد الذي هو بَطن من

بطون زناتة، ويعرف هذا الجبل الآن بجبل العمور، فإن الحشم كانوا أولا به، ثم انتقلوا إلى غريس، وإما لنزولهم على أشراف غريس، ودخولهم في أتباعهم، فأطلِق عليهم اسم الأشراف من باب تسمية التابع باسم المتبوع، ومن المعلوم أن أشرف غريس يدعون ببني راشد، وكانوا لا يعرفون في القديم إلا بهذا نسبة إلى راشد بن إدريس، وراشد هذا هو الأصل الذي يجتمع فيه أعيان أشراف غريس، وفي: (**غرر التنوير في ذكر آل النبي البشير**)، وفي (**غوثية**) الولي الأكبر العلامة الأشهر الشيخ سيدي عيسى بن موسى ما يرشد لهذا، حيث يقول: وفي راشد جمع وهم بنو راشد... الخ، فَقوله: (وفي راشد... الخ)، على حذف مضاف أي: وفي وطن راشد » انتهى قول الشيخ الطيب بن المختار.

وقال صاحب: (**تسهيل المطالب لبغية الطالب**) في حديثه عن الحشم: «وعلى عهد الموحِّدين نزل بغريس قبيل الحشم مِن قبائل سليم وزغبة، وبينهم أفراد مِن قريش، لا زال عقب قريش يعرفون لهذا العهد بالأجواد، وعلى عهد بني زيان أمراء تلمسان، اتخذ يغمراسن منهم جيشا له، وسماهم: **الحشم**، وجعلهم حصنا حصينا بينه وبين أعدائه **بني توجين** (أمراء تاهرت)، واحتلوا لهم مدينة **معسكر**، حيث اتَّخذوها قاعدة عسكرية لهم، ولذلك سمَّوها بـ: **معسكر**، وأنزل معهم كثيرا مِن قبائل **عبد الواد**، كـ: **بني واسين**، وبني **غاسور**، وغيرهم، وصارت لهم الرياسة على أهل الوطن الأصليِّين، ولما انحلَّ نظام **دولة بني زيان** في أوائل القرن العاشر اشتدَّ ظلم **الحشم** على أهل الوطن مِن زناتة، وأجلَوهم مِن **غريس**، فتفرَّقوا في النواحي والأقطار، ومَن بقي منهم اندمجَ تحت الحشم، ولا زال **الزناتي** بينهم معروفا بالعين والأثر لهذا العهد، وصارت ملكا للحشم إلى أن صارت لما هي عليه الآن، وبهذا الوطن بيوت مِن الأشراف الفاطميِّين سكنوها في أوقات مختلفة... الخ»، إلى أن يقول: «وعلى كلِّ حالٍ فالشيخ عيسى بن موسى ذكر في منظوماته العلماء المستوطنين لبلاد غريس التي كان يطلق عليها اسم الراشدية، فذكر

كثيرا من الأشراف، كما ذكر كثيرا من البرابر، فمن ذلك قوله:

فمنهم أبو موسى شريف وماجد والأفضل ميمون مبين العجائب
وميمون أيوب المهاجي شقيقه ضياؤهم في شرقها والمغارب
فما هي في البطحاء إلا فريدة حواها نظام المجد من كل جانب
أبو زكريا وابن يحيى محمد بعلمهما حازا كثير المناقب
ترى علمه في الراشدية زاخرا لعمري بدا كالشمس من غير حاجب

إلى أن يقول:

ويوسف والورغى أحمد كهفهم وبهلولهم عيسى رئيس الكتائب
وللشيخ عثمان بن زيان والذي يلقب قدار علو المراتب

ففي هؤلاء المذكورين نجد كثيرا مِن الأشراف، وكثيرا من البرابر، وبلاد الراشدية المعروفة الآن، وفي عهد الشيخ أبي راس ببلاد غريس، كانت كما وصفها الشيخ أبو راس: كانت في غاية الخير والأمن والعافية، والقرى والبساتين المتصِلة، فقد كانت قرية الجمعة منها المزيلة تخرج منها مائة فرس بالشكائم للتِّجارة بتلمسان وغيرها، وأما العلم والتقوى والولاية فحدِّث عن البحر ولا حرج، واستمرَّت على ذلك إلى أن دخلها الحشم أواخر المائة التاسعة لما ضَعف ملك متبوعهم مِن بني زيان، فأذهبوا معالمها، ودرسوا مراسمها، فصارت كأمس الدابر، والميت الغابر، فكم خربوا مِن مسجد كان مشهورا بالقرآن والفقه وغيرها، حتى حكي أنه كان مِن أعلى نهر الطاغية إلى مضيق كرسوط ستون مسجدا عامرا بالقرآن والعلم... »، إلى أن قال: «وكان أبو مهدي أدرك الحشم ورأى جورهم وفجورهم، وتجبُّرهم وتفاخرهم، وانهاكهم في الباطل، واضمحلال العدل منهم، لا يفعلون خيرا أملوه، ولا يتناهون عن منكر فعلوه» اهـ.

هذه صورة مِن المحيط الذي كان يعيش فيه الشيخ أبو مهدي عيسى بن موسى، ونبذة عن ترجمة حياته المملوءة بالأعمال الجليلة، خصوصا تأليفه للمنظومة الفريدة التي ذكر فيها علماء بلاده المعاصرين له، وبلغنا أن له عدَّة تآليف في مواضع شتى، نتمنَّى أن يقيِّض الله لها مَن يعنى بها ويبعثها مِن مرقدها، ليعمَّ نفعها ويطَّلع الناس على حلقة مفقودة مِن تاريخ البلاد الجزائرية، هذه الناحية التي لعبت دورا عظيما.

توفي الشَّيخ أبو مهدي (رحمه الله) أواخر القرن العاشر، ودفن بشاطئ نهر الطاغية، بنواحي معسكر، وما زال قبره إلى الآن مِن أعظم المزارات بتلك الناحية، أما خصومه الحشم فإِنَّهم كما علمنا كانوا أنصارا للأتراك بعدما خذَلهم بنو عامر، وهم الذين أعانوهم على سويد فأجلَوهم عن مَواطنهم بنواحي غيليزان، وذهبوا إلى السَّرسو، ثم انقلبوا على الأتراك وبايعوا الملك إسماعيل (ملك المغرب)، ثم خذلوا الملك إسماعيل في واقِعة شلف هم وبنو عامر، وتحسَّنت علاقتهم مع الأتراك، إلى أن وقعت ثورة الشيخ ابن شريف الدَّرقاوي فأيَّدوه، وبقَوا على هذه الحالة مع الأتراك، فتارة يطيعونهم، وتارة يثورون عليهم لأدنى سبب، إلى أن وقع جلاء الأتراك ووقع الاحتلال الفرنسي، وإلى أن وقع استسلام تافنة فهاجر بعضهم إلى المغرب، ورجع الآخرون إلى مواطنهم الأولى بغريس، حيث مساكنهم الآن.

مصطفى بن أحمد التهامي الغريسي[1]

عرَّفه تلميذه العلامة الشيخ محمَّد العربي المشرفي صاحب (**ذخيرة الأواخر والأوَّل فيما ينتظم بأخبار الأوَّل**) المشهور عند المعاصرين بـ (**رحلة المشرفي**)، عرَّفه عند ذكر مشايخه الذين أخذ عنهم ومنهم ولده ـ أي ولد أحمد بن التهامي ـ مفتي وهران، فقال في تعريفه: «فهو شفيع سيبويه في النحويات، له الفهم الثاقب، والرأي الصائب، لا يجارى في العروض والمعقولات، درس في علم المعاني والبيان، وحضرنا مجلسه في (**رسالة الوضع**)، درَّسها بالأصنام، وإليه المرجع في المشكلات، له قصائد موزونة... تولَّى الخلافة بالنيابة عن الحاج عبد القادر لقبائل بني عامر، وجبال ولهاصة، وترارة، وسواحل ندرومة، وانتقل للشَّام بأمر أوجبه الوقت، فدرَّس التفسير في جامع بني أميَّة الأعظم بدمشق، وتقدَّم بها على علماء فنونه واشتهر، وكان يتجنَّب النزعات الزَّمخشرية، وفاجأه بها الحِمام، وانتقل إلى دار السلام (رحمه الله، وقدَّس تربة ثراه)».

اشتهر مترجمنا مصطفى بن أحمد التهامي بالعلم والأدب والشجاعة، كان من الأوفياء والمخلصين للأمير عبد القادر، وكان الضُّبَّاط الفرنسيون يخشون بأسه ويرمونه بالتَّعصُّب الدِّيني، وحمَّلوه مسؤولية قتل الأسرى الفرنسيِّين الذين وقعوا في قبضة

---

(1) اعتمدنا في إثبات هذا المقال على نسخة خطية بقلم الشيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى)، تقع في (10) صفحات، وعلى نسخة مرقونة مبتور الآخر، وبها تصحيحا وهوامش بقلم الشيخ **المهدي**(رحمه الله تعالى) . (ع)

جيش الأمير في معركته المشهورة بـ (معركة سيدي إبراهيم)[1]، وكان عددهم يربو على ثلاثة مائة أسير. إنَّ مترجمنا ـ أي: مصطفى بن التهامي ـ علاوة على حياته السياسية له حياة ثقافية تركت له كثيرا مِن الآثار، منها تأليف قيِّم شَرح فيه **(منظومة العقيقة)** للشَّاعر الشعبي الشَّهير سعيد المنداسي ـ وقد تَبارى في شَرحها كثيرا مِن الشُّعراء المعاصرين، وفي طليعتهم المؤرِّخ محمَّد أبو راس المعسكري، فخصَّصها بسبعة شروح ـ كما أَلَّف استغاثة **(غوَثيّة)** صوَّر فيها حياة الأمير ورفقائه بسجن قصر أمبواز، وتحتوي هذه المنظومة على ثلاثين وخمس مائة بيت، قال في مقدِّمتها: «ومما قلته مع الرِّضا، والتسليم للقدر والقضاء، متوسِّلا متضرِّعا، معترفا مشرعا، مفضلا في الوسائل تارة، راجيا النفع لي ولكلِّ مَن دعا بها، مبتذلا ومؤَمِّلا حصول كشف الغمَّة ».

ذكر صاحب **(تحفة الزائر)** يصف المدَّة التي قضاها الأمير بقصر أمبواز فقال: «وداوم الأمير في تلك المدَّة على تدريس العلم وإفادة الطلبة مِن جماعته... ثمَّ سلك أخوه الكبير محمَّد السعيد، والخليفة السيد مصطفى بن التهامي جادته و أفادوا الطلبة إفادته، واجتمعوا لقراءة **البخاري** على نيَّة تفريج كربهم، و**كتاب الشِّفاء** على تلك النيَّة، واجتمعوا على التدريس إلى أن انتهى أجل الأكدار والأتراح، وجاء البشر بطلق السراح على ما نذكره »، ثمَّ اختتم الأرجوزة بقوله:

لمـــا جـــرى القـــدر بـــالخلاف ووقـــع الخلـــف بـــالائتلاف

---

(1) أثارت هذه المعركة ضجَّة عند القادة الفرنسيِّين، وقد خصَّصها الجنرال أزان (Azane) بتأليف خاصٍّ استقاه مِن الوثائق الرسميَّة بمناسبة مرور مائة سنة على المعركة، وذلك سنة 1947م، وكان أزان (Azane) هذا، قائد منطقة تلمسان برتبة كلونيل، ثمَّ ارتقى إلى رتبة جنرال، وعيِّن قبل إحالته على التقاعد إلى عضوية الأكاديمية العسكرية، وألَّف عدَّة كتب، مِن بينها: **(حياة الأمير عبد القادر)**، وكان له اتِّصال شخصي بالأمير خالد، وبالشَّيخ محمَّد بن رحَّال النَّدرومي.

وألحــق الــنقص ببــدر الــتمِّ ووجـب الـوحش بقعـر الـيمِّ

واقتـنص الصـقر عـدو صـائد وللنّعــام في القــرى وصـــائد

وابتعـدت عـن العقـول حيـل واقتعــدت بــالاغتراب جيــل

لم يبــق إلا الابتهــال والســكن للقــاهر المالـك كـلّ مـا سـكن

ســبحانه تعــالى جــده العــلى مــن قــام بالنّصـر لكـلّ معـتلى

وبعد استغاثته بالأنبياء والصحابة التابعين والصَّالحين كما جرت بذلك العادة عند المستغيثين قال:

هــذا الــذي قدَّمتــه نجــواي في رفـع ضـيمه وبـلا بلـواي

فــامنن علينــا بصــلاح الحــال وأنقــذن مــن شــدّة المحــال

مولاي يـا ذا المـنّ والأفضـال داوي ســقام دائنــا العضـــال

نفســي مـع الرفقـة والأفـذاذ مــن ربقــة الأسر إلى اللــواذ

بمنزل رحـب الجنـان والسعة ومســجد جماعــة وجمعــة[1]

... إلى أن قال:

يــا غــوث وقتنــا إليـك يشـكو أميرنــــا ومعشــــر فيبكــــو

يا صاحب التصريف في الأمـور وكــــافلا بشـــأنك المـــأثور

إلى جانبــــك الســــني أشـــفع بأوليـــــاء الله ثـــــمّ أرفــــع

وســــيلتي بــــك إلى الشــــفيع المرتضــــى محمّــــد الرفيــــع

ولمترجمنا عدَّة قصائد رائعة، منها قصيدة رثى بها العلامة الحافظ الشيخ ابن عبد الله

(1) وقد استجاب الله دعاءه حيث تولى قبل وفاته إماما رسميا بجامع بني أميّة الشهير بدمشق.

سقاط المشرفي افتتحها بقوله:

ارم اللباس وخل ذاك التعالي إنّ التلال من الهناء خوال

إلا أنَّ معظم آثاره ـ أي: مصطفى بن أحمد التهامي ـ وآثار والده قبله العلَّامة الشَّيخ أحمد التهامي (مفتي مدينة وهران في عهد الأتراك)، ضاعت مع الأسف، إلا أنَّ التاريخ احتفظ لنا ببعض آثار مترجمنا مصطفى بالمشرق، فقد ذكر البحَّاثة الشَّهير الدكتور محمَّد أسعد طلس في مجموع خصَّصه لمحاضراته عَن المرحوم الشّيخ عبد القادر المغربي عضو المجمع العربي بدمشق الذَّائع الصَّيت، المولود سنة 1284هـ والمتوفى سنة 1375هـ الموافق لـ: 1865م ـ و1956م: «إنَّ والد الشيخ عبد القادر المغربي المذكور هو السيد مصطفى المغربي (من أصل تونسي) كان مدَّة إقامته بدمشق ملازما للأمير عبد القادر الجزائري، وكان مجلس الأمير عبد القادر بدمشق تجتمع فيه نخبة علماء المغرب والمشرق المهاجرين، وكان كثيرا ما يحتدُّ النِّزاع بين المصطفوين ـ أي: مصطفى المغربي (والد عبد القادر المغربي موضوع حديثنا)، ومصطفى بن التهامي ابن عمَّة الأمير ـ وقد ضمن مصطفى المغربي تأليف تلك المجالس التي كان يتجادل في مواضيعها بقصر الأمير...

وقد اطَّلعتُ على فقرات مِن ترجمته بكتاب:(**أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث**) للعلامة أحمد تيمور باشا نشرته لجنة نشر المؤلَّفات التَّيمورية، بتقديم السيد محمد وزير التَّربية والتعليم، الطبعة الأولى: 1387هـ الموافق لـ: 1967م، ذكر المؤلِّف أحمد تيمور باشا في ترجمته: مصطفى المغربي الدرغوثي1205 ـ 1280هـ والد الشَّيخ عبد القادر المغربي، عضو المجتمع العلمي العربي بدمشق، المتحدَّث عنه الذي ألَّف

كتابا سمَّاه:(**آل درغوث في طرابلس الشَّام المشهورين بآل المغربي**)، أودعه[1] ذكر أصل أسرته في تونس، ثمَّ تراجم أجدادهم في طرابلس الشَّام، وقد جاء فيه أنَّ والده الشَّيخ مصطفى المغربي الدَّرغوثي نزل دمشق الشَّام في حدود 1275هـ وكان يحضر مجلس الأمير عبد القادر الشَّهير حيث يجتمع العلماء والفضلاء ويتبارون المسائل العلميَّة والجدلية، ومنهم الشَّيخ مصطفى المغربي التهامي ابن عمَّة الأمير.

وكان الأمير يعجب بمناظرتهما خاصة، واتَّفق أن تناظرا يوما في مجلسه في قول الشَّاعر:

فأصلحت بعد خطّ بهجتها كأنَّ فقر رسومها قلما

وهو مِن ألغاز النُّحاة، فكان كلٌّ منهما يوجِّه توجيها في الإعراب والمعنى يناقض به الآخر، وقد حمل هذا الجدل الشَّيخ عبد القادر المغربي الدَّرغوثي على أن كتب رسالة في هذا البيت وما يتعلَّق به مِن جهة اللغة والإعراب والمعنى.

وذكر الأستاذ المغربي في مؤلِّفه المذكور أنَّ والده ألَّف رسالة تفسير:﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾ (الإخلاص: 1) وقد قرَّظها علماء الشَّام وغيرهم في ذلك العصر، كالأمير عبد القادر الجزائري، والشَّيخ عبد الله الحليّ، والشَّيخ الكزبري، والشَّيخ التهامي المغربي، وكان تَقريظ الأخير لها نظما ونثرا، قال فيه بعد الدِّيباجة ما نصُّه: «وبعد، فقد استقرأت سطور هذه الصفائح، واستقصيت معاني طروسها الصبائح، فتمثَّلت لي، رقوم أقلامها بآثار سيوف قواطع، ورسوم أعلامها بأزهار ونجوم طوالع، يواطىء دلائل حججها هداية تذكار للمسترشدين، وظواهر غلائل لججها رجوم للشَّياطين والمعتدين، معالم سليم الفطرة للذَّوق، ومكارم مريد الحلية بالطوق، حائزة من حوز

(1) بتداءا من هذه الكلمة – أودعته – إلى نهاية الترجمة ص 85 هو منقول من تأليف أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث لأحمد تيمور باشا رحمه الله .

البلاغة السحر الحلال، جائزة من فوز البراعة الشوط الحلال... فحقّ أن تسمَّى عند الأنام بما سمِّي به الإِمام فرائد الاغتنام، رسالة التأسيس والتقديس في الرَّدِّ على أهل التلبيس، أو منهاج الخلاص في تفسير سورة الإِخلاص.

ملاحظة:

فلقد أبدع فيها مؤلِّفها غاية الإبداع، و رصع فوائد فرائدها ترصيع الاختراع والابتداع، وقف فيها على الحقائق، ودعَّمها بدعائم الدَّقائق:

فهناك عقودا قد حكتها جواهر	بلى، وحكتها في سناها زواهر
لها زجل الترصيع يسبى نظامه	مكلّلة بالدرّ تنمو الظواهر
مضمنة الألغاز يزدان حسنها	على القمر المكمول والسرّ ظاهر
فإن حكت الأبريز قل ذاك وصفها	بلى، وحكاه البدر إن تمّ باهر
وحينئذ فاسمع تماثيل مبتغ	يسرك من بشراه ليلا يساهر
يماثلها الإكليل إن زان برجه	وشولتها للغيث و النّهر ناهر
كذا علم يتلو الغروب ابتهاجه	بجمرته والوقت حانت مظاهر
نعم فلق الإصلاح أبدى سفوره	ودلّ على شمس المسرات قاهر
سماء سرايا الغزو إن نظّمت به	لها دبران الجور ولي يعاهر
فذى مثال الأوراق نسج رقمها	وفي قمر وقت اتساق مزاهر
وشيمته قد صانها الضوء معدّلا	بذا كرمت رفعا وعلوا تجاهر
إليك ومنك انحاز للعلم مصطفى	مآثر حلّتها الرقوم الأشاهر
لقد ظفر الغرم الذي حاز مجدكم	بمنبتكم فامتاز بالشّهم ماهر
كتبت لكم ذاك النوال الذي جرى	به القلم المعلوم و الدّهر داهر
نعم هو في الأعراف قد حقّ ظاهرا	ولا أحد عن منبت الأصل ناهر

أتتـك بنـات الفكـر منهـا ابتكـارا ببكر عـذار اللّـبّ تعنـي تصـاهر
لهـا كفـؤ بـالغرب أنسـى لوحشـها ويؤنسها من تونس الفجـر طـاهر

خلَّص الله أعمالنا وأعماله، وسدَّد أقواله وأفعاله، ويسَّر لنيل المراد آماله، كتبه خديم العلماء، ومقبِّل الثرى تحت أقدام الكرماء، المقتفي باعتقاده منهجهم السامي، محمَّد المصطفى بن أحمد بن التهامي، المالكي الأشعري، المغربي الغريسي نجارا، الوهراني تعلُّما، ثمَّ الدمشقي دارا، الحسني الحسيني حسبا ونسبا وشعارا، عرَّفه الله قدر نفسِه، ولطف به في الدُّنيا وحال حلوله في رمسه، وغفر له ولوالديه وللمسلمين أجمعين، آمين، والحمد لله ربِّ العالمين» اهـ.

ووقفت على ترجمة للشَّيخ مصطفى التهامي بخطِّ نسيبه المرحوم السيد محيي الدِّين الحسني، قال (رحمه الله): «غاية ما أعلم مِن ترجمة نسيبنا المرحوم العلامة السيد الحاج مصطفى التهامي أنَّه حينما تولَّى الأمير عبد القادر الجزائري عيَّنه كاتبا لسرِّه، ولما شرع في تنظيم العساكر عيَّنه خليفة يقود قطعة من الجيوش، وقد شاهد عدَّة حروب مع **الأمير عبد القادر** [1]، ولا زال على سيرته الحسنة إلى أن صحبته إلى (**أمبواز**) قرب مدينة باريس، ثمَّ إلى **بروسة ودمشق**، وكان يدرِّس في عدَّة فنون في جامعها الكبير، وتقلَّد إمامة المالكية في الأَموي، وكان (رحمه الله) له جلَدٌ عجيبٌ في العبادة، ففي شهر رمضان مِن كلِّ عام كان بعد أن يصلِّي صلاةَ التَّراويح، ينفَرِدُ وحدَه في الجامع، ويشرعُ

---

(1) لما تمَّت البيعة للأمير عبد القادر، واستقام له الأمر، واتَّخذ الآلة ورتَّب الحاشية، وعقد رجال الدولة، قسَّم ما دخل في طاعته إلى مقاطعتَين:

1. مقاطعة تلمسان: وولَّى عليها السيد محمد البوحميدي الولهاصي.
2. مقاطعة حضرته معسكر: وولَّى عليها السيد الحاج مصطفى بن أحمد التهامي، وكان رئيس ديوان الإنشاء.

في صلاة ركعتَين يختم فيهما القرآن الشَّريف بتمامه، ويظلَّ هذا دأبه في كلِّ ليلة مِن الشَّهر، وما زال على تلك الحالة المرضية إلى أن قضى نحبه على رأس الثمانين بعد المائتين والألف، وكان الأمير عبد القادر غائبا في البقاع الحجازيَّة ». انتهى ما نقلته مِن التأليف المذكور.

عالم جزائري ساهم في إحياء التُّراث والثَّقافة الإسلاميَّة في العالم الإسلامي (الطَّاهر الجزائري)[1]

هو الطَّاهر ابنُ العالمِ المؤلِّفِ صالح بن أَحمد بن موسى بن أَبي القاسم[2] السَّمْعوني الوَغْلِيسي.

هاجر والدُه صالح المذكور قَبيلتَه بني وغليس (**وادي بجاية**) إثر الإحتِلال الفرنسي لبلادِ القَبائل حوالي سنة 1263هـ[3]، وألْقَى عَصَا التِّسْيار بِدمشق إلى أَن توفي بها سنة 1285هـ.

(1) **مجلَّة الأَصالة**: العدد: 48، شعبان 1397هـ/ أوت 1977م، السنة: 6، ص: 43 ـ 48. (ع)

(2) في **الأعلام** (3/ 221): «طاهر بن صالح (أو: محمَّد صالح) ابن أحمد بن موهوب السَّمعوني الجزائري، ثمَّ الدِّمشقي» (ع).

(3) في **الحلية** (2/ 733): «سنة: أربع وستِّين ومائتين وألف»، وذكر الشَّيخ **المهدي البوعبدلي** في **تراجم علماء الجزائر في العهد التُّركي** (7/ 132) بِأَنَّه هاجر إِثر الإحتلال الفرنسي مع شَيخِه **المهدي السَّكلاوي اليراتني** إلى الشَّام سنة 1263هـ، وفي **التَّذكِرَة الطَّاهِرية** نقلاً عن والده أنه «لَّما دهم بلاده ما دهمها مِن حادثة الكفرة الفرنسيس ـ دمَّرهم الله تعالى ـ خرج منها فارًّا بدينه مع شَيخه ووسيلته إلى ربِّه، شيخ الطَّريقة والحقيقة، السَّالك المسلك الشَّيخ **المهدي الزَّواوي**، لازالت حضرته العليَّة كعبة للفضائل يُطاف حولها، ومدينة للآداب والكرامات يُهاجر إليها، ثمَّ صار استقرار الجميع بدمشق الشَّام، أَواخر عام ثلاثة وستين ومائتين وألف، اللَّهمَّ إنَّا نسألك كما هديتنا للإسلام، أن لا تنزعه منَّا حتى تَتوفَّانا ونحن مسلمون»، وأَغْرَبَ الشَّيخُ أبو غدَّة فقال في مقدِّمة تحقيق كتاب (**التِّبيان**) بِأَنَّه هاجر معَ الأَمير **عبد القادر الجزائري**!!. (ع)

وترك عدَّة تآليف في مختلف الفنون، منها: **رسالة في علم الميقات**، و**كتاب في التَّاريخ**، وقد ترجَمه **عبد الرزَّاق البَيطار** في: (**حِلية البشر في تاريخ القَرن الثَّالث عشر**)، ذكر تآليفه وخصَّ منها تأليفه في **التاريخ** فقال: «وله فيه أسلوبٌ عَجيب، وطريقٌ نادِرٌ غَريب، وكان صالحًا تَقِيًّا، وفالحًا نَقِيًّا، رفيع المقام وافر الاحترام، مُقْبِلاً على الله، مُدْبِرًا عمَّا سِواه، جميل المقال، جليل الخِلال، لم يزل على حاله، مُتخلِّيًا مِنَ الدَّهر عَن أَوْحالِه، إلى أنْ خطبته دواعي المنية إلى دار الآخرة العلية» اهـ.

ترك **صالح** أولادًا اشتهَر منهم مُترْجَمنا **الطَّاهر** المشهور **بالجزائري**.

وُلِدَ **الطَّاهر** بِدمشق حَوالي سنة 1268هـ، وتعلَّم في مَدرسة والده، ثم التحق بالمعاهد الشَّامية فنبغ في مختلف الفنون العَربية، وأَتقَن الُّلغتين، الفارسية، والتُّركية.

وقَدْ تَرْجَمَهُ صَدِيقُه وأعْرَفُ النَّاسِ به، **أحمد تيمور** في كتاب: (**أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث**) فقال: «.. وكانت هِوايتُه لِلكُتبِ سَببًا لِتَنقُّلِه في مُختَلفِ البِلاد، لجِمْعِ نَفائِسِها، فَأكْسَبَتْه رَحَلاتُه مَعارِفَ جمَّة جديدة، وتوثَّقَت صِلاتُه بِكثيرٍ مِنَ العلماءِ والأدباءِ في البِلادِ التي زَارَها، وصار مَرْجعًا يُعْتَدُّ به في فنِّ وَصْفِ المخطوطاتِ ومَعرفةِ مَظانِّها».

ثمَّ قال **تَيمور**: «وإلى الشيخ **طاهر الجزائري** يرجعُ الفَضلُ في السَّعيِ الحثيثِ في إِنشاءِ كثيرٍ مِنَ المؤسَّساتِ النَّافعةِ في **دمشق**، وفي مقدِّمتِها (**الجمعية الخيرية**) التي ضمَّ إِليها مشاهيرَ العلماءِ والوُجَهاءِ السُّوريِّين، وتَمَّ تأسيسُها سنة 1894، وأنْشَأَتْ مَدَارِسَ عَديدَة، كَما أنْشَأَتْ مَطبعةً قامَتْ بِطَبعِ كثيرٍ مِنَ الكُتُبِ المدرسيَّة».

ثمَّ واصَل **تَيمور** التَّرجمةَ بِقَوله: «ومِن مَساعيه الحميدة، تأسيسُ (**المدرسة الظَّاهرية**) بدمشق، وإِنشاء مكتَبتها الكَبيرة التي جَمعَ فيها ما كان مُبَعْثَرًا مِن الكُتبِ والمخطوطاتِ

القَيِّمةِ في المساجِد والمدارسِ وغَيرها [1]، فَحفِظَها بِذَلك مِن الضَّياع، ويسَّر الانتِفاعَ بها.

كما يَرجعُ الفَضلُ إلى الشَّيخ **طاهر الجزائري** في إِنشاءِ **(المكتبة الخالدية)** بِالقُدس.

وإلى جانبِ هذا كلِّه عَكَفَ (رحمه الله) علَى جمعِ نَفائس المخطوطات، ونوادر المطبوعات، وواصلَ جهودَه في التَّأليفِ والتَّرجمة، وقامَ بِرَحلاتٍ عِدَّةٍ إلى جَزيرةِ العَرَبِ وغيرِها مِن بِلادِ المشرِق، ثم أَعْقَبَها بِرَحَلاتٍ أُخْرَى إلى **الأستانَة**، و**مصر**، والبلاد الأوروبية.

وفي سنة 1316هـ/ 1898م عُيِّنَ مفتِّشاً لمكاتب **الشَّام**، ولَبِثَ في هذا المنصِبِ أرْبَع سَنوات، قدَّم خِلالها خَدَماتٍ جَليلةٍ لِتَنظيمِ هذه المكاتِب والنُّهوضِ بها.

وحَدَثَ أن قامَ بعد ذلك بِرحْلةٍ إلى **فلسطين**، وفي أثْناءِ غَيْبَتِه هُناك قامت السُّلُطات الحاكِمة في دمشق بِتَفْتيشِ دارِه فيها، ومُصادَرةِ كُتُبه وأَوْرَاقِه، والتَّحفُّظِ عليها في مكتبه الخاصِّ بمدرسة:**عبد الله العظم (باشا)**، فاستاء من هذه المعاملة، واستقرَّ رَأْيُه على المهاجَرَةِ إلى مصر، وتَمَّ له ذلك في سنة 1905.

وحملَ معه إليها أكثر محتويات مَكتَبَتِه الثَّمينة، تارِكًا بقيَّتها في **(المكتبة الظاهرية)** بدمشق، بعد أن وقَّفها عليها، وقد رحَّبَ به علماءُ مصر وأدباؤها، وبقيَ فيها محُوطًا بالإجلال والتَّكريم، حتى أُصيبَ بِمَرَضٍ طالَ علاجه سنة 1919م، فعاد إلى دمشق

---

(1) قال الشَّيخ **علي الطَّنطاوي**: «كانت الكتُبُ المخطوطة مُتفرِّقَة في المساجِد والزوايا، يُخْشَى عليها الضَّياع، ويُخافُ التَّلَف، فعَمل على جمعها في مدرسة الملك **الظاهر (التاريخية)** في دمشق، فقام عليه الجاهلون من أصحاب النَّظر القصير أعداء كلِّ إصلاح، وقالوا: (شَرْطُ الواقِف)، فاستعان عليهم بصديقه الوالي **حمدي باشا**، ولولا صداقته إيَّاه لضاعت هذه الكُتُب ولم تَنشأ **(دار الكتب الظاهرية)** التي نعُدُّها اليوم من مفاخر الشَّام» **رجالٌ من التاريخ** (2/ 129). (ع)

حيث عُيِّنَ مُديرًا للمكتبة الظاهرية، ثم عُضْوًا في (**المَجْمَعِ العِلْمي**) هناك، ولكنَّ مرضَه ما لَبِثَ أنِ اشْتَدَّ، وأَسْلَمَ رُوحَهُ الطَّاهِرة إلى بارئِها بعدَ قليل » ا هـ ترجمة **تيمور**.

وقد تَتلمَذَ له كثيرٌ مِن كِبارِ عُلماءِ **سُورِيا** وزُعَمائِها أمثال: **محمد كرد علي**، و**جميل مردم**، و**الأمير شكيب أرسلان**، و**محب الدِّين الخطيب**، وغيرهم، كما اعترف له بالفضل والإفادة، كثيرٌ من كبار المستشرقين الذين اخترنا من بينهم:(**كولد صيهر**)[1] المجري (Goldziher) الذي كاتَبَهُ مِنْ بُودَابَسْت(Budapest) سنة1317هـ، ونَشَرتْ هذا الكتاب (**مجلَّة الأزهر**) في عددها المؤرخ بصفر 1373هـ الذي استهله بقوله: «سلامٌ إلى صاحبِ الشرفِ الباذِخ، والفضْلِ الشامِخ، هو المرجع للأماثل والأفاضل، الحاوي لأقصى معارج الفضائل والفواضل، العالم العلاَّمة الشيخ طاهر بن صالح المغربي الجزائري، أدام الله تعالى فضله...»، إلى أن يقول: «أرجو أنه ما انمحى مِن قَلْبِكُم خَيالُ صَاحِبِكُم ! المجري، الذي كان يَسْتَجيرُ بِشَامِكُم في سنة1290هـ مُقْتَبِسًا مِن أنوارِ عُلمائِها، وكثيرًا ما تَداوَلَ بَين فُضَلائِها وأُدَبَائِها، وصاحَبَكُم يومًا فَيَوْما، مُسْتَأْنِسًا بِمُجاوَرَتِكم ومُذاكَرَتِكُم، وكُنَّا إذ ذاك ـ أنتُم وعبدُكم الكاتِب ـ في عُنْفُوَانِ شَبابِنا،

(1) **جولد تسيهر** (1850 ـ 1921م): مستشرق مجري من **أصولٍ يهوديَّة**، من مؤسسي الدِّراسات الإسلامية الحديثة في أوروبا، عُرِف بعَدائه للإسلام وبخطورة كتاباته عنه، كتبَ عن القرآن والحديث، وكان من جملة محرِّري: (**دائرة المعارف الإسلامية)!**، عُيِّن أمينًا للجالية اليهودية في مدينة **بودابست**، تأثَّر بكتاباته بعض المنهزمين فكريًّا من أمثال: الكاتب **أحمد أمين!**له مؤلَّفات كثيرة ومقالات نشرها في مختلف المجلاَّت التي تُعنى بالاستشراق، مزج فيها السمَّ بالدسم، وأشهر كتبه: (**محاضرات في الإسلام**)، و(**اتِّجاهات تفسير القرآن عند المسلمين**)، انظر: **الإستشراق والمستشرقون** (ما لهم وما عليهم) (ص: 41) لمصطفى السِّباعي، وقد أدرَجَ اسمه ضمن قائمة: أسماء **أخطر** المستشرقين المعاصرين، وانظر: **موسوعة المستشرقين** (ص: 197 ـ 203) لعبد الرحمـٰن بدوي. (ع)

مُتَبحِّرينَ في العلوم الشَّريفَة، مُسْتَغْرِقينَ في بُحورِ الآدابِ الطَّريفَة، والآنَ هيهات بعد مَرِّ سبعة وعشرين مِنَ الأحوال، وَهَنَ عَظْمِي، واشتعلَ رَأسِي شَيْبا، أمَا وَالله تعالى ما اندرَسَ ذِكْرُ الصَّاحِبين المنبَرين مِنْ نفسي وفؤادي مع أني:

لَقَدْ عِيلَ صَبْرِي بَعْدَكُم وَتَكَاثَرَتْ هُمُومِي، وَلَكِنَّ المحِبَّ صَبُورُ

ومُعتَمِدًا على دوامِ ما جَبَلَ اللهُ تعالى في قلوبِنا مِنَ المحبَّةِ والمودَّة، أَتَجَسَّرُ يا أيها الشَّيخُ العلاَّمة، أنْ أسْتَفْهِمَكُم عَن مسألةٍ دِمَشْقِيَّةٍ، لا أحَدَ [1] لها في الكُتُبِ التي تحت تصرُّفي، مع شِدَّةِ اشْتِياقِي لإزالةِ شُبْهَتي في تلك المادَّة.

فذلك أنِّي قَرأتُ في (**خُلاصَة**) [2] **المحبِّي**.

و(**سِلك الدُّرَر**) [3] **للمُرادي**، لا غيرهما مِنَ الكُتبِ التَّاريخية، وطَبقاتِ علماءِ الإسلام، أنَّ الشيخَ **عبد القادر بن محمَّد ابن سوار** المتوفي سنة 1014 هـ، بعد رُجوعِه من مصر إلى دمشق، كان أوَّل مَنْ أنْشأَ سنة 940 هـ، بِدعةً حسنة نَقلَها مِن مِصر، وهي إقامة الجماعات الذِّكرية، المختصَّة للصَّلوات على النَّبي ﷺ...

تَفضَّلْ عليَّ يا أيها الشَّيخ، بإفادةِ جَوابٍ شافٍ، مُثابًا جميلَ الثَّواب، مِنَ الله الكريمِ الوهَّاب، وتُخبِروني أيضًا عَن أحوالكم كلِّياتِها وجُزئيَّاتِها، وأمَّا عبدُكم فَيَتشكَّرُ لله تعالى على ما أَنعمَ عليه مِن خَيرِه، صابراً على البلايَا، إنَّ الله معَ الصَّابرين، والسَّلامُ علَيكُم

---

(1) كذا، ولعلَّ الصَّواب: «لا أجِدُ لها في الكُتبِ... ».(ع)

(2) **خُلاصة الأثر** (2/ 102 ـ 103). (م)

(3) **المرادي** لم يورد في (**سِلك الدُّرر**) ترجمةً للشَّيخ عبد القادر بن محمَّد ابن سوار المتوفَّى سنة 1014هـ لأنه ابتداءً لا يجري على شَرطه في اقتصاره على إيراد أَعيان القَرن الثَّاني عشر فقط، وإنما ترجم فيه **لمصطفى ابن سوار** الدِّمشقي، المولود سنة 1072هـ والمتوفى سنة 1144هـ وذَكر أنَّه كان مُلازِمًا على خِدمة (**المحيا**) كعادةِ أَسلافه (4/ 218)، دار الكتاب الإسلامي (**القاهرة**). (ع)

ورَحمةُ الله وبَركاتُه.

تحريراً في:**بُودَابستْ** 5 ذي الحجَّة من شهور سنة 1317هـ كتبهُ العبدُ الحقير الفقير أجناس كولد صهر المجرى» اهـ.

وقد نَشرَ نُبذةً مِن تَرجمتِه المستشرقُ الشَّهيرُ الفَرَنسي **هُنْري لاَوُسْت**[1] في مجلة:**(المغرب الجديد)** التي كانت تصدر بِتِطْوَان **(المغرب)** بِعَدَدِها المؤرَّخِ في ربيع الثاني 1354هـ/ 1935م، نَشَرَ المستشرقُ المذكور مَقالاً تحت عنوان:**(الحركة الإصلاحية السُّنِّية المعروفة بالسَّلَفِيَّة)** تحدَّث فيه عن**(المجلة السلفية)** التي أصدرها الشيخ **طاهر الجزائري**[في فبراير] سنة1917 تعرَّض فيها لترجمته فقال: «وُلِدَ **(طاهر الجزائري)** في دمشق سنة 1851 وقد حَذَقَ اللُّغات العربيَّة والتُّركية والفارِسية على السَّوَاء، مع مُشارَكةٍ في مَبادئ العلومِ الغَرْبِيَّة، وأَسَّسَ**(خزانة دمشق)**، وقام في سنة 1878 تحت إشراف **مدحت باشا** بتنظيم التعليم في سورية التي ما يزال ذكرُه فيها محْفُوظًا في رَوْعَتِه، كما أنه شنَّ الغارة على الاستعمار التُّركي، ثمَّ عادَمُلْتَجِئًا في سنة 1919 إلى القاهرة، حيث وافته المنون» اهـ.

أَلَّفَ **طاهر الجزائري** عِدَّة كتبٍ منها المطبوع، وغير المطبوع، وقد تُرجِمَ بعضُها إلى اللُّغاتِ الأجنبيَّة، من بينها:

1) تأليفه: **(تَوجيه النَّظر إِلى علمِ الأَثَر)** الذي تَرجَمه مِن العَربية إِلى الأَلمانية **كولد**

---

(1) **هنري لاؤوست** (1903 ـ 1983م): مستشرقٌ فرنسيٌّ تخصَّصَ في دراسة الإتِّجاه السَّلفي، وهو ما يُفسِّر اهتمامه بالشيخ طاهر الجزائري، له أعمال ومؤلَّفات كثيرة، منها: **(بحثٌ في آراء ابنِ تيمية الاجتماعية والسِّياسية)**، و**(إسهامٌ في دِراسة المناهج الشَّرعيَّة عند ابنِ تيمية)**، عُيِّن مديرًا للمعهد الفرنسي في دمشق، ثم خلف **ماسينيون** في منصب أستاذ بـ: **(كوليج دي فرانس)** بفرنسا، انظر: **موسوعة المستشرقين** (ص: 510 ـ 511) لعبد الرحمٰن بدوي. (ع)

صيهر المذكور.

2) ومن تآليفه المطبوعة: (**عقُود اللآلي في الأَسانيد العَوالي**).

3) و(**منية الأَذكياء في قَصصِ الأَنبياء**).

4) و(**الفَوائِدُ الجِسام في مَعرِفَة خَواصِّ الأَجسام**).

5) ورسالة في الأَمثال والحكم.

6) وأُخرَى في العَقائد.

أمَّا التآليف الغير المطبوعة:

1) فالتَّفسير الكبير.

2) والمعجم العربي.

3) و(**السِّيرةُ النَّبويَّة**).

4) و(**جَلاءُ الطَّبع في مَعرفةِ مَقاصِدِ الشَّرع**).

5) وموسوعة باسم:(**التَّذكِرَة**) في عِدَّة مجلَّدات، ضمَّنها ما اختارَه مِن نَوادرِ المخطوطاتِ والتَّآليف.

وقد زار الجزائر حوالي 1912[1]، ونزل ضَيفًا عِندَ أصهاره الأستاذ **محمد السعيد**

---

(1) في رسالة الشَّيخ **أَبي يعلى الزَّواوي** إلى الشَّيخ **طاهر**، والمؤرَّخة في: 7 جمادى الأولى 1331هـ [14 أفريل 1913م] قال يُخاطبه: «وقد عرَّفكم إليَّ ـ وأنتم أَشهَرُ مِن أنْ تُعرَّفوا ـ الأُستاذُ الوَطني، صديقي الحميم الشَّيخ **محمَّد سعيد [ابن زكري]** المفتي الحالي بمدينة **الجزائر**، أَي: حدَّثني عنكم حينما شرَّفتُم بلاد **الجزائر** منذ نحو **عشرين سنة** »، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر** (2/ 157)، **أبو القاسم سعد الله**، وعلى هذا فيظهر أنَّ الشَّيخ **طاهر** قد قام برحلتَين اثنتَين إلى=

ابن زكري المفتي المالكي، والمدرس بالمدرسة الثعالبية إذ ذاك، وقد سبق **لمحمد السعيد ابن زكري**، أَن زار أقاربه، أسرة الشيخ **المبارك الدلسي** بالشام، صحبة ولده صديقنا الأستاذ **أحمد ابن زكري** مدير (المدرسة الثعالبية) في عهده، وتعرَّفا به، ودَعَيَاهُ لزيارة الجزائر، فأجاب دعوتهما، وأثناء مقامه بالجزائر، كان يتحدَّث بالقبائلية، ولاحظ الشيخ **محمَّد السَّعيد ابن زكري** أنَّ لغتَه كانت أَثْرى مِن اللُّغة المسْتَعْمَلَة حِينَئِذٍ بالجزائر بألفاظها الأصلية[1].

ولنَخْتِم هذه الدِّراسة بِمَقالٍ كَتَبَهُ الأستاذ **محب الدين الخطيب** أَبَّنَهُ فيه ونَقَلتْهُ عنه **(مجلة الشِّهاب)** القسنطينية التي كان يُصدِرُها الأسْتَاذُ **عبد الحميد ابن باديس** بِعَدَدِها المؤرَّخ في جمادى الأولى سنة 1356هـ/ 10 يوليو 1937، تحت عنوان: **(شَيخي)** [2].

=بلاده **الجزائر، المرَّةَ الأولى**: حوالي سنة 1311هـ/ 1893م كما جاء في رسالة الشَّيخ **أبي يعلى**، و**المرَّة الثانية**: حوالي سنة 1912م كما في هذه المقالة، والله أعلم. (ع)

(1) ذكر الشَّيخ **المهدي البوعبدلي** في كتابه: **تراجم علماء الجزائر في العهد التركي** (7/ 137) **(مخطوط)** أنَّ الشَّيخ **ابن زكري** زار **(دمشق)** صحبة ابنه **أحمد**، و« اجتمعا بِجُلِّ المهاجرين هناك، خصوصاً مُواطنيهم وأقاريبهم (كذا) (آل المبارك) الدَّلسيِّين، وقد بُهِتا عِندما وَجَدَا جُلَّ المهاجِرينَ وأبنائهم يتكلَّمون البربريَّة الفُصْحى التي كادَ لا يَعْرِفُ بعضَ مُفْرَداتِها إلا القليلون ـ حكى لي ذلك صديقنا **أحمد ابن زكري** (رحمه الله) ـ».(ع)

وإذا أُطْلِقَ لفظُ **(المغاربة)** في الشَّام، فالمُراد بهم **أهل زواوة** عند الإطلاق، كما ذهب إلى ذلك الشيخ **أبو يعلى الزَّواوي** في رسالته المشار إليها سابِقًا إلى الشَّيخ **طاهر الجزائري**، وهذا الإطلاق وإنْ كان له من الأحداث التَّاريخية ما يُفسِّره، فإنَّ الواقع يُقَيِّدُ بعض أطرافه، والشَّواهد لا تخدمه من كلِّ جوانبِه، وانظر لدفع شُبهة هذا الإِطلاق كتاب: **(الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشَّام)**، للدكتور عمَّار هلال.(م)

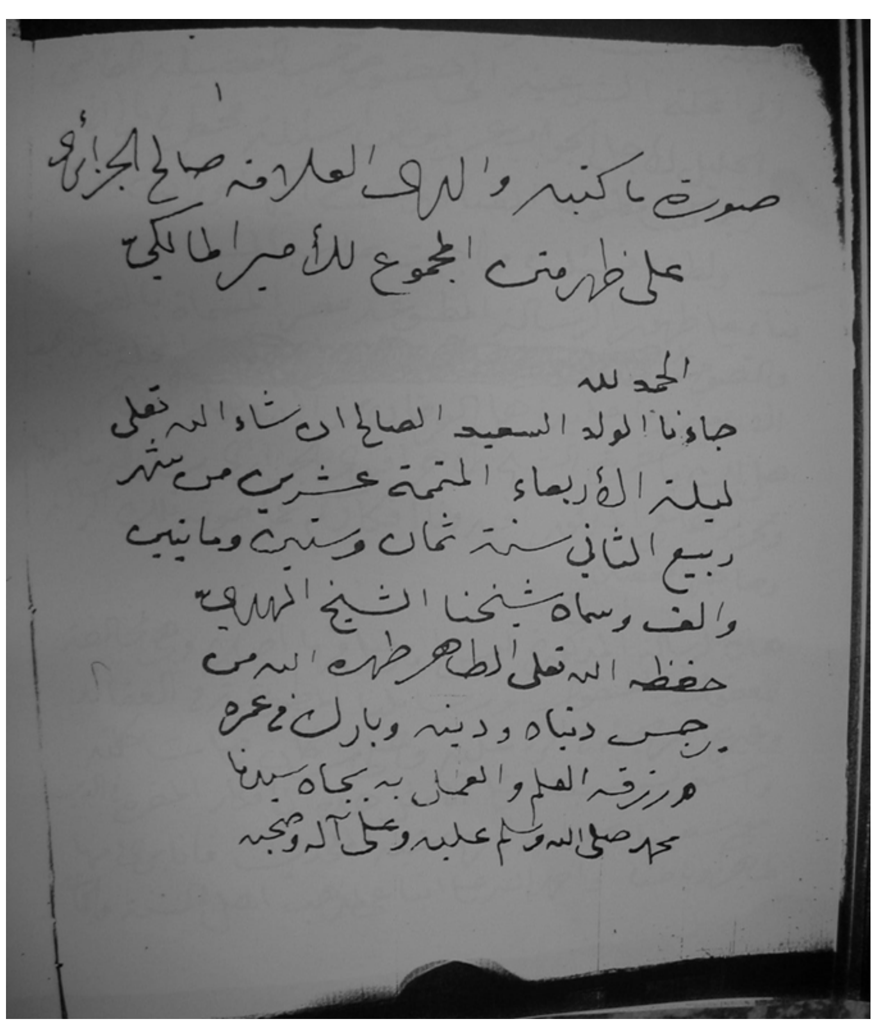
(2) هذه المقالة نُشِرت ضمن آثار الشَّيخ ابن باديس، مِمَّا أَوهَمَ الكثير بأنَّها مِن بناتِ فِكره، وأنه تلمذَ للشَّيخ طاهر الجزائري. (ع)

قال (**مُحِبُّ الدِّينِ الخطيب**) تحت العنوان المذكور: «هُوَ الَّذِي رَبَّى عَقْلِي، وهو الَّذِي حبَّب إِليَّ هذا الاتجاه الفكري، منذ كُنتُ طِفلاً إلى أنْ صِرْتُ رجُلا، ولا أعرِفُ مُؤلِّفًا، ولا حامِلَ قلمٍ في ديار الشام، إلا وقد كانت له صلة بهذا المربِّي الأعظم، واستفادة من عقله وسعة فضله، إما مباشرة، أو بواسطة الذين استفادوا منه، وكل الذين جاهدوا هناك لأجل الحرية، وفي سبيل المعارف، ولإحياء علوم السلف، ولإعادة مجد العروبة والإسلام، إنما كانوا من إخوانه، وهو واسطة عقدهم ورأس مجالسهم، أو من طبقة تلاميذه، وهو قدوتهم، ومطمح أنظارهم، أو من الذين أخذوا عن تلاميذه وهو مضرب المثل عندهم في كمال العقل، وسعة الإطلاع التي لا حد لها، وبالإجمال هو جرثومة الخير الأولى من أيام ولاية مدحت باشا على سوريا، إلى أن هاجر هذا الرَّجل العظيم إلى مصر، حوالي سنة 1325هـ، فكان موضع حرمة كل من يعرف الفضل من أهلها، كتيمور باشا، والشَّيخ علي يوسف، وأحمد بك الحسيني، وأحمد زكي باشا وأمثالهم، وأهم كتب السَّلف النافعة التي نشرها الناشرون إنما نشروها بإشارته وتحريضه، وأنا وكل ما نشرته، لسنا، إلا قطرة من بحر الخير، الذي كان يتدفق من صدر هذا العالم العامل، الذي كانت الدنيا لا تساوي عنده جناح بعوضة، وليس له فيها من أمنية إِلَّا أن يرى عز الإسلام يعود، كما كان في أيام القوة والعدل والعلم وتقوى الله عز وجل، أرمي نفسي بالعقوق، وإنكارِ الجميل، كلَّما فَكَّرْتُ في إبطائي حتى الآن عن القيام بحقه على التاريخ، ولكِنْ إذا عَظُمَ المطلوب، خارت القُوَّة دونه، وحياة الشَّيخ **طاهر الجزائري**، حياة دور من أدوار الإصلاح، بل هي تاريخ الأمة في حقبة من حياتها، ولا بد أن أقوم بهذا الواجب في يوم من الأيام، رحمة الله عليه ومغفرته ورضاه».

هذه (**نُبْذَةٌ**) مِن حياةِ رجلٍ عالمٍ، لَفَتَ أَنْظارَ مُعاصِرِيه علاوَةً على تَعمُّقِه في العِلم،

وسعَةِ إطِّلاعِه، لَفَتَ أنظارَهم بِحياةٍ مِثالِية، كانَ يَحْياهَا عُلماءُ السَّلَفِ الصَّالِح، شَجاعةً أدبِيَّةً نادِرة، ورَفْعَ هِمَّةٍ، حتَّى إنه كان تعوزه الحاجة في ضَروريَّاتِ حَياتِه مِن أكلٍ ولِباس، فَيَبِيعُ بَعضَ كُتُبِه ـ وهِيَ أعزُّ ما يَملِك ـ ولا يلجأ إلى التَّسَلُّف، أو قَبولِ الهدايا حتَّى مِن أعزِّ أصدقائه[1]، وإنَّ له على الجزائر حُقوقًا، فهل قامَت بِبَعض واجِباتِها نحوه؟

(1) قال الأستاذ **محمد رشيد رضا**: «ولو كان الشَّيخ **طاهر** يَقْبَلُ مِن أحَدٍ مُوَاساة مالِيَّة لَكانَ له مِن صديقه الوفِيِّ المخلِصِ **أحمد تيمور** ما يكفيه وفَوْقَ ما يكفيه مع الإخْفاءِ والكِتْمان، ولكنْ كان له مِن عِزَّة النَّفس بالعلم وشَرَفِ البَيْت، ومِن العِفَّة والقناعة بآداب الدِّين ما يَرْبَأ به عَن ذلك (رحمه الله تعالى)»، **مجلَّة المنار**، المجلَّد: 30، الجزء: 10، ص: 784، ذو الحجَّة 1348هـ/ مايو 1930م. (ع)



صورة ما كتبه والدي العلامة صالح الجزائري
على ظهر متن المجموع للأمير المالكي

الحمد لله
جاءنا الولد السعيد الصالح إن شاء الله تعالى
ليلة الأربعاء المتممة عشرين من شهر
ربيع الثاني سنة ثمان وستين ومائتين
وألف وسماه شيخنا الشيخ المهدي
حفظه الله تعالى الطاهر طهره الله من
رجس دنياه ودينه وبارك في عمره
ورزقه العلم والعمل به بجاه سيدنا
محمد صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه

صورة مِن **(التَّذكِرة الطَّاهِريَّة) مخطوط** [1]

(1) **التَّذكِرة الظَّاهرية** (مخطوط)، ذكر الزِّركلي في **الأَعلام** (3/ 222)بأَنَّها مِن أَجَلِّ آثاره، فَقال: «وهي مجموعة كبيرة في موضوعات مختلفة، وفي(**الخزانة الظاهرية**) بدمشق (28) **دفترا بِخَطِّه**، منها ما هو تراجم، ومذكرات، وفوائد تاريخية، وأسماء مخطوطات، مما رآه أو قرأ عنه »، أتحفنا بصورة منها الأستاذ الفاضِل **إبراهيم الميلي** (حفظه الله). (م) وقد طبع مؤخرا بدار التوفيقية للنشر والتوزيع في مجلدين بتحقيق الأستاذ محمد خير رمضان يوسف . (ع)

الشَّيخ محمَّد أمزيان بن حدَّاد
وقضيَّة الحجِّ[1]

أَلَّف الشَّيخ المذكور تأليفا يتعلَّق بالبدع المنسوبة للطَّريقة الرَّحمانية، وقدَّم للتَّأليف بحثا يصف فيه حالة البلاد إذ ذاك ـ أي سنة 1261هـ ـ وذلك بأمر شيخه المهدي السَّكلاوي اليراتني المتوفى بـ (دمشق)، وذلك قبل هجرته بنحو السَّنتين، إذ هاجر المهدي السَّكلاوي وصحبه سنة 1263هـ.

قال ابن الحدَّاد في التَّقديم: «... وبعد، فقد أدركنا الزَّمان الذي وصفه المصطفى ﷺ بقوله: «لم يبق من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه»، فلا ريب وقد شاهدنا ذلك في كلِّ قطر وفي كلِّ عصر بلغ إليه علمنا، فتجدهم يدَّعون أنَّهم مسلمون وهم لا يصلُّون ولا يصومون ولا يزكُّون ولا يحجُّون عند الاستطاعة، ولا يؤمنون بالله ورسله حقَّ الإيمان، فإن فعلوا ذلك أو بعضه فعلى غير وجهٍ شرعيٍّ، فكلُّ ما خالف الشَّرع فهو باطل، فإن صلَّوا لم يأتوا بشروط الصَّلاة وأركانها».

ثمَّ يتتبع المؤلِّف المخالفات في الطَّهارة والصَّلاة بالتَّفصيل وحكمِ الفقه فيها، ثمَّ يتعرَّض للحديث عن الصَّوم، ثمَّ الزَّكاة فيقول: «وأمَّا الزَّكاة فقد هدمت قاعدتها بالكلِّية إلا نادرا، على وجهٍ غير شرعي، فيعطونها للأغنياء دون الفقراء، وللأشرار دون الأخيار، وأمَّا الحجُّ فقد فقدت الاستطاعة التي هي شرط في وجوبه في أهل غربنا هذا،

---

(1) مجلَّة **الأصالة**: العدد: 29/ 30، محرم ـ صفر 1396هـ/ جانفي ـ فيفري 1976م، السَّنة: 4، ص: 142 ـ 154. (ع)

فالحمد لله على سقوطه علينا، وقد نصَّ على سقوطه على من ذكر غير واحد من الأئمَّة المقتدَى بهم، فعليك بالشَّيخ سالم السَّنهوري على (**مختصر الشَّيخ خليل**)، فإنَّه أجاد في نقل نصوص المذهب الدَّالة على سقوطه إلى أن قال: «فمن تكلَّفه وحجَّ أجزأه، ثمَّ أنا لم أر من تكلَّفه غالبا إلاَّ الفقراء الذين يعرضون أولادهم للسُّؤال أو للسَّرقة، وأزواجهم للزِّنا، وأكثرهم جهلة لا يعرفون أحكامه ولا يتعلَّمونها، وأمَّا أغراضهم ونياتهم فيعلمها العليم الخبير»اهـ.

والمقصود أنَّ صاحب هذا الرَّأي هو فقيه جليل محافظ أشدَّ المحافظة، حرُّ الفكر، وعندما نطَّلع على ما كتبه مواطنه الشَّيخ الورتلاني في (**رحلته**) إلى الحجِّ، وما يتعرَّض له الحجَّاج إذ ذاك، نعلم أنَّ موافقة ابن الحدَّاد على مَن حكم بسقوط الحجِّ على سكَّان المغرب في عهده، ليس من المبالغة أو [من] باب التَّساهل في الفتوى، خصوصا وهو من فقهاء المذهب المالكي النَّافين متابعة الرُّخص والأقوال الضَّعيفة في (المذهب).

نبذٌ من انطباعات الرَّحَّالين عن النَّواحي السِّلبيَّة التي شاهدوها مدَّة أداء فريضة الحجِّ، ابتداء من أواخر القرن السَّادس الهجري إلى عهده هذا:

فأوَّل الرَّحَّالين أبو الحسين محمَّد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي البلنسي، الذي رحل إلى الحجِّ سنة (578هـ)، وسمَّى (رحلته):(**تذكرة بالأخبار، عن اتِّفاقات الأسفار**)، (عن النُّسخة المطبوعة في مدينة ليدن (هولاندا) بمطبعة (بريل): 1907م.

وقد اتَّفق الباحثون أنَّ هذه (**الرِّحلة**) هي في طليعة كلِّ الرَّحالات المعروفة، من حيث الموضوعيَّة ودقَّة الوصف، ونزاهة صاحبها، وقد وصل إلى القاهرة في عهد تولية الملك صلاح الدِّين الأيُّوبي.

قال في (ص: 55) من (**رحلته**) المذكورة: «ومن مفاخر هذا السُّلطان المزلفة من الله

تعالى وآثاره التي أبقاها ذكرا جميلا للدِّين والدُّنيا، إزالته رسم المكس المضروب وظيفة على الحجَّاج مدَّة دولة (العُبيديِّين)، فكان الحجَّاج يلاقون من الضَّغط في استيدائها عنتا مجحفا، ويسامون فيها خطَّة خسف باهظة، وربَّما ورد منهم من لا فضل لدين على نفقته أو لا نفقة عنده، فليزم أداء الضَّريبة المعلومة، وكانت سبعة دنانير ونصف دينار، من الدنانير المصريَّة، التي هي خمسة عشر دينارا مومنية (نسبة إلى عبد المؤمن بن علي الذي كانت الأندلس تابعة لحكمه إذ ذاك)، على كلِّ رأس، ويعجز عن ذلك فيتناول بأليم العذاب بـ (عيذاب)، فكانت كاسمها ـ مفتوحة العين ـ، وربَّما اخترع له من أنواع العذاب التَّعليق من الأنثيين، أو غير ذلك من الأمور الشَّنيعة، نعوذ بالله من سوء قدره، وكان بـ (جدَّة) أمثال هذا التَّنكيل وأضعافه لمن لم يؤدِّ مكسه بـ (عيذاب)، ووصل اسمه غير معلَّم عليه علامة الأداء، فمحا هذا السُّلطان ـ صلاح الدِّين ـ هذا الرَّسم اللَّعين، ودفع عوضا منه ما يقوم مقامه من أطعمة وسواها، وعيَّن مجبي موضع معين بأسره لذلك وتكفَّل بتوصيل جميع ذلك إلى (الحجاز)، لأنَّ الرَّسم المذكور كان باسم ميرة (مكَّة) و(المدينة)ـ عمَّرهما الله ـ فعوَّض من ذلك أجمل عوض، وسهَّل السَّبيل للحجَّاج، وكانت في حيز الانقطاع، وعدم الاستطاع، وكفى الله المؤمنين على يدي هذا السُّلطان العادل حادثا عظيما، وخطبا أليما، فترتَّب الشُّكر له... الخ ».

ثمَّ يقول في (ص 62) في نفس الموضوع: «وببلاد هذا (الصَّعيد) المعترضة في الطريق للحجَّاج والمسافرين كـ (أخميم) و(قوص) و(منية ابن الخصيب) من التَّعرُّض لمراكب المسافرين وتكشُّفها والبحث عنها وإدخال الأيدي إلى أوساط التُّجار، فحصًا عمَّا تأبَّطوه أو احتضنوه من دراهم أو دنانير، ما يقبح سماعه وتستشنع الأحدوثة عنه، كلُّ ذلك برسم الزَّكاة دون مراعاة لمحلِّها أو ما يدرك النِّصاب منها، حسبما ذكرناه في ذكر (الإسكندرية) من هذا المكتوب، وربَّما ألزموهم الأيمان على ما بأيدهم، وهل

عندهم غير ذلك، ويحضرون كتاب الله العزيز يقع اليمينُ عليه، فيقف الحجَّاج بين أيدي هؤلاء المتناولين لها، مواقف خزي ومهانة، تذكِّرهم أيام المكوس، وهذا أمر يقع القطع على أنَّ صلاح الدِّين لا يعرفه، ولو عرفه لأمر بقطعه كما أمر بقطع ما هو أعظم منه، ولجاهد المتناول له، فإنَّ جهادهم من الواجبات لما يصدُر عنهم من التَّعسُّف، وعسير الإرهاق، وسوء المعاملة مع غرباء انقطعوا إلى الله عز وجل، وخرجوا مهاجرين إلى حرمه الأمين ».

وفي (ص: 180) يتعرَّض المؤلِّف إلى الازدحام الذي يقع حول البيت فيقول: «... وفي هذه الأيَّام يفتح البيت الكريم كلَّ يوم للأعاجم العراقيِّين الخراسانيِّين وسواهم من الواصلين مع الأمير العراقي، فظهر من تزاحمهم وتطارحهم على الباب الكريم، ووصول بعضهم على بعض، وسباحة بعضهم على رؤوس بعض، كأنَّهم في غدير من الماء، أمر لم ير أهول منه يؤدي إلى تلف المهج وكسر الأعضاء، وهم في خلال ذلك لا يبالون ولا يتوقَّفون، بل يلقون بأنفسهم على ذلك البيت الكريم من فرط الطَّرب والارتياح، إلقاء الفراش بنفسه على المصباح، فعادت أحوال السرو اليمنيِّين في دخولهم البيت المبارك على الصِّفة المتقدِّمة الذِّكر حال توءدة ووقار، بالإضافة إلى هؤلاء الأعاجم الأغتام (نفعهم الله بنيَّاتهم)، وقد فقد منهم في ذلك المزدحم الشَّديد مَن دنا أجله (والله يغفر للجميع)، وربَّما زاحمهم في تلك الحال بعض نسائهم، فيخرجن وقد نضجت جلودهن طبخا في مضيق ذلك المعترك، الذي حمى بأنفاس الشوق وطيشه (والله ينفع الجميع بمعتقده)... الخ».

وذكر أبو سالم العياشي الرَّحَّالة المغربي الشَّهير في (**رحلته**) المطبوعة بـ (فاس)، طبعة حجريَّة، وذلك أنَّه رحل مرَّات في أوائل القرن الحادي عشر، وكان كثيرا ما يرافق الوفد القسنطيني، الذي كان يقوده عالم (قسنطينة) الشَّهير الشَّيخ عبد الكريم بن

الفكُّون، قال في (الجزء الأوَّل) من (**الرِّحلة**) المذكورة (ص: 198) يصف الهدي بـ (مِنًى) ما يلي: «وكان نزولنا وراء المسجد قرب الغار الذي نزلت به (سورة المرسلات) على النَّبيِّ ﷺ، وخبره مذكور في (الصَّحيح)... »، إلى أن يقول: «وكان نزولنا في هذا المحلِّ إيثارا لقرب هذا المكان، وقرب المسجد، مع كونه أنظف وأوسع وأقرب للجبل الذي يشرف منه على (مِنًى) كلِّها، وهو أستر وأمكن للإنسان في حاجته، والنَّاس يتحامون القرب من الجبل تقيَّة من أذى السُّرَّاق، فيستجير بعضهم ببعض، ويفرُّون إلى الدُّخول في غمار النَّاس، ولا يبالون بما نالهم في ذلك من وطء الأقدام وتقطيع الحبال، وتعفُّن الأرجاء واستنشاق الرَّوائح الكريهة، ونحن استسهلنا أمر السَّرقة في جنب هذه المضار، وكان منزلنا أنظف المنازل وأحسنها وأبعدها عن الأذى وأبهجها، وقد ذبح في (مِنًى) ذلك اليوم والذي بعده من البقر والغنم ما أحسب الغنيَّ والفقير، وكفى الوارد والمستوطن، وامتلأت الطُّرقات وأفنية المنازل باللَّحم، وأما الجلد والسَّاقط والأكارع، فلا ترى واحدا يأخذها، بل بقيَ كثير من الغنم غير مسلوخ إلى أن ارتحل النَّاس من هناك، لم يمسَّه النَّاس، فمن الفقراء من يأخذ نحوا من عشرة من الغنم فيبيعون لحومها بأرخص ثمن، وييبِّسون ما قدروا عليه ضيافة الله الملك الحق الذي لا يقدر أحد على كفاية خلقه، فقد ورد من آفاق الأرض أصناف من الخلق لا تحصى، أغنياء وفقراء، فأكل الكلُّ من ضيافة مالكهم وتزوَّدوا ما قدروا، وفضل ما أعجز الطَّير والوحش والهوام.

لقد مررت بهذا المكان بعد سنة أو قريبا من ذلك، في قفولي من (الطَّائف)، فوجدت به عدَّة من الغنم قد يبست جلودها على لحومها وعظامها، لم تمسَّ إلى أن صارت مثل الخشب من يبسها» الخ.

وعن رحلة الحسين الورثلاني (1125 ـ 1193هـ) المسمَّاة: (**نزهة الأنظار في فضل علم التَّاريخ والأخبار**)، طبع الجزائر سنة 1326هـ/ 1908م.

ذكر النَّواحي السّلبية التي شاهدها في (**رحلته**) منها وصفه للحجَّاج الجزائريِّين ـ أي: مرافقيه ـ قال: «... وأمَّا الرَّكب الجزائري فلا حكم عندهم أصلا، ولا يقفون عند الأمر والنَّهي، لاسيما أهل عامر (سكَّان سطيف) فما فارقهم أحد في هواهم إلاَّ أبغضوه وجعلوه عدوّا، وقد أصابتني منهم عداوة عظيمة من أجل أنِّي آمرهم بالسُّنَّة والقيام بالأحكام الشَّرعية، لاسيما السَّير بسير الشَّيخ والنُّزول بنزوله ـ يقصد سير القافلة، والشَّيخ رئيس الرَّكب الذي كان هو يشغله ـ وستر نسائهم لأنَّهنَّ يذهبن مكشوفات العورات، فيبدين زينتهنَّ لكلِّ النَّاس، بل يتزيَّنَّ لأجل ذلك، ليرعن من فتن بهنَّ، فأردتُ إقامة الحدِّ عليهنَّ وعلى أزواجهنَّ، فصارت لي فتنة عظيمة، غير أنَّ من عاداني منهم ببركة السُّنَّة لم يرجع إلى بيته، فأظهر الله أمره، فتطيَّروا وتشاءموا بعد ذلك، وتاب من بقيَ منهم بعد أن هلك من هلك منهم، والحمد لله على إظهار السُّنَّة النَّبويَّة، وقد قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾(محمد: 7)، إلى أن يقول: «وقد سمعنا أنَّ بعض الفاسقات ممَّن يزعم (كذا) الأحوال الربَّانية والمواجد الإلهية، ممَّن استولى الشَّيطان عليهنَّ، وسوَّلت أنفسهنَّ لهن، تتعرَّض بنفسها للرِّجال، وتزعم أنَّ من لم يوافقها في غرضها الفاسد ابتلي بمصيبة، بل قد تقول إن لم توافقني في غرضي، أصابك كذا وكذا، بأن تعيِّنه فيصير ذلك، ويظنُّ الجاهل المغرور، المخدوع المخذول الشَّقيُّ ـ والعياذ بالله تعالى ـ أنَّ ذلك أمر ربَّاني، وكرامة منه تعالى » اهـ.

ثمَّ يقول في موضع آخر متشكِّيا من اللُّصوص الذين يتعرَّضون للحجَّاج ما يلي: «حاصله أنَّ الوقائع التي وقعت بيننا وبين البدويِّين كثيرة، يطول بنا استقصاؤها... »، إلى أن يقول: «... فلما كنا على شاطئ البحر في توديع من ذهب في البحر ولانتقالنا إلى الموضع المذكور أتانا ذلك التُّركي الأوَّل الذي أراد سجني في قضيَّة أخرى ارتشاه بدوي آخر، فلما رأيته أرادني أشليت عليه بعض أصحابي ليقتله فلمَّا علم ذلك المتمرِّد

خاف إذ هو منفرد ونحن في جماعة، فصار يسلك مسالك الطَّلب، فأعطاه سيدي أحمد بن حمُّود ـ من بني يعلى ـ نصف ريال أبي طاقة، وعليه البعد من الله فلا أظن أنَّه مسلم، إذ أكثر العسكر في (**مصر**) أنهم خوارج أو طغاة لا تعمى أبصارهم لكن تعمى قلوبهم.

وقد حُكيَ لنا أنَّهم يأتون إلى المستضعفين من النَّاس فيبيعونهم عبيدا، أو يجعلونهم أسرى يخدمون في مدينة (**السُّويس**) إلى أن يموتوا (أهلكهم الله إن لم يعلم هدايتهم)، وهذا معلوم ضرورة في زمان هذه الحجَّة، وسبب هذا الإهمال من الحكَّام والمترفين لأنَّهم في نعمة عظيمة لم يحسبوا أحدا فأباحوا الرِّقاب والنُّفوس، ولم يعلموا بهذه الرَّذائل كالغشِّ في الأسواق، والسَّرقة في الطُّرق والدَّكاكين، فصارت في النُّفوس أقبح الأوطان، أذلها للغريب (**مصر**) و(**مكَّة**) فلا تجد أحدا من (**مصر**) إلاَّ يحتقر المغاربة حتَّى كادوا أن يخرجوهم من الإسلام، وطبائعهم منافية لطبائع أهل المغرب، بلا نظر لعلمهم ولا لفضلهم، فترى المغربي إذا تكلَّم تعصَّبوا عليهم بالباطل، ولو بالزُّور، فلم ينفع فيهم إلاَّ عدم مخالطتهم والانعزال عنهم، فيتحاشى عن أسواقهم وما فيها، فإذا اضطرَّه أمرٌ اختلس مقصوده اختلاسا يحفظه من المخالطة، أو يتزيَّا بزيِّهم، ليصرف عنه السُّوء والفحشاء الصَّادرة منهم، وما تخفي صدروهم لنا أكبر وأعظم، ودأبهم وديدنهم التَّحيُّل لأخذ أموالنا، وسلب ما عندنا... الخ » اهـ.

نقتصر على هذه الفقرات من السّلبيات التي شاهدها الورتلاني وسجَّلها، ويسهل تتبُّعها في محلِّها، كذكره لما شاهده في الجنوب التُّونسي في طريق ذهابه، كعثوره على اجتماع سكَّان ذلك المحلّ رجالا ونساءً يسبَحون عراة، مجتمعين في بعض الأودية، فأراد أن يغيِّر المنكر، فقابلهم من ضفَّة الوادي وصار يلعنهم ويرميهم بالحجارة إلى أن انصرفوا، وأمَّا الهديَ في (مِنًى) فتعرَّض له ولم يزد على ما كتبه في الموضوع أبو سالم العياشي في (**رحلته**)، وقد نقل ما في (**رحلة العياشي**) بتمامه.

زار محمَّد حسين هيكل الحجاز في الثَّلاثينات كصحافي وكممثِّل لطبقات التَّقدميِّين والمجدِّدين إثر الحملة التي قام بها حوالي (1926/ 27) كرئيس تحرير لمجلَّة **(السِّياسة الأسبوعيَّة)**، وردَّد صداها كتَّاب العالم الإسلامي، فسجَّل انطباعاته في تأليف قيِّم سمَّاه: **(في منزل الوحي)** طبع في القاهرة سنة 1356هـ وقد تربو صفحاته على (670 ص).

وقد تعرَّض لجميع مناسك الحجِّ وبيَّن وجهة نظره في حكمة مشروعيَّتها، وقد تبادل آراءه مع المسؤولين السَّعوديِّين الذين كانوا قريبي عهد بتولية حكم (الحجاز)، وعلى رأسهم الملك عبد العزيز، كما اجتمع بكثير من العلماء والمفكِّرين المسلمين الذين اجتمع بهم في موسم الحجِّ، وأيَّد آراءه بما اطَّلع على انطباعات الرَّحَّالين المسلمين الأصليِّين، والأجانب المعتنقين للدِّين الإسلامي، وإنَّنى سأنقل لقطات تهمُّ موضوع بحثنا ـ من غير ترتيب ـ

قال في (ص: 115) تحت عنوان: **(منازل مِنًى، حكمة الجمرات)**: «عدتُ غداة (يوم النَّحر) من رجم (الجمرة الوسطى) ومعي صاحب يسألني عن رجم الجمار ما حكمته؟ وأيَّة مثوبة فيه؟ وتمثَّل لي وأنا أسمع لقوله صاحب عرفات إذ يقول: أن مناسك الحجِّ فروض نؤدِّيها ولا نعرف حكمتها، كما ذكرت ما يقوله أهل (الحجاز) من أنَّهم إنَّما يرجمون الشَّيطان بالجمرات حتَّى لا يعود فيوسوس إليهم ليردَّهم إلى المعصية والإثم، لكن صاحبي لا يقتنع بهذا القول ولا بذلك، إنَّما يريد أن يعرف رأي المجدِّدين من مفكِّري المسلمين، قلت له: إنَّ هؤلاء العلماء يرون في إلقاء الجمار إعلان المشيئة على طرح ما في النَّفس من زيف، وصدق الإرادة لدوام طهرها بعد أن غفر الله بالحجِّ ماضي حوباتها، وإشهاد ملأ المسلمين على ذلك كلِّه، قال صاحبي: «هذا كلام أدنى إلى تصوُّر العقل، وإن يكن أهل **(الحجاز)** أكثر اتِّفاقا مع ما يقصُّه الرُّواة الأقدمون في بطون الكتب، لكنِّي أحسب حكمة الله أبلغ من هذا ومن ذاك».

وتداولنا الحديث في الأمر، وانتهينا إلى رأي لعلَّه أكثر اتِّفاقا مع ما جاء في القرآن من حكمة الحجِّ، فأوَّل اجتماع للمسلمين في الحجِّ بـ (عرفات)، وهم يومئذ يجتمعون محرمين ملبِّين مستغفرين ربَّهم، مستمعين إلى خطاب أمير المؤمنين، أو مَن ينوب عنه، وفي ذلك كلِّه ما يشغلهم عن التَّعارف والتَّشاور، وشهود المنفعة المشتركة التي تربطهم بعضهم ببعض، لذلك وجب عليهم، متَّى أفاضوا مِن **(عرفات)** ونزلوا منه، أن يجتمعوا وأن يتعارفوا وأن يشهدوا منافع لهم، واجتماع ألوفهم المؤلَّفة ساعات معدودة لا يحقِّق هذا الغرض، لذلك فرضت أيام النَّحر الثَّلاثة ليحسنوا التَّعارف والتَّشاور وشهود المنافع، ولإتمام ذلك بما يتَّفق وروح الإسلام، وجلال موقف الحجِّ، سنَّت لهم مناسك يؤدُّونها إلى الله لتظلَّ نفوسهم نقيَّة، وأرواحهم طاهرة، وأيّ منسك خير من أن يشهدوا (العقبة) التي شهدها الرَّسول ﷺ، وأن يلقوا بسواعدهم جمرات يعلنون بإلقائها أنَّهم على عهده في (بيعة العقبة) ينفع بعضهم بعضا، ويذود بعضهم عن عقيدة بعض، ويكفل الكلّ بذلك حرية العقيدة الإسلامية، وحرية الدَّعوة إليها، ويشهدون على أنفسهم إذ يلقونها أنَّهم على استعداد لإلقاء مثلها في وجه عدوِّهم إذا حاول فتنتهم عن دينهم، أو حاول إخضاعهم وقهرهم.

لعلَّ هذا الرَّأي أدنى من غيره إلى روح الإسلام وحكمة الله فيه، فهذا الدين كله البأس والقوة على الحياة، وكله النِّظام الذي يضاعف هذه القوَّة أضعافا مضاعفة، ولقد جمع الإسلام بين النِّظام والحرية ما لم يجمع بينهما دين غيره، هو يصل بالحرية إلى غاية حدودها، وبالنِّظام إلى غاية حدوده، فلا عبادة إلا لله، والأمير ورجل البادية سواسية في التزام حدود الله، ومن يتعدَّ منهم حدود الله فقد ارتكب إثما وبهتانا عظيما، هم في هذا سواء، وإن تفاوتوا في الثَّروة وفي الجاه، وفي كلِّ مظاهر هذه الحياة الدنيا، والحرية أعزُّ ما يحبُّ الإنسان لنفسه، ويجب أن تكون أعزّ ما يحبُّ لأخيه.

إذا أراد أن يكمل إيمانه، وحرية الفرد ملاكها قوة الجماعة، ولا قوة لجماعة إلا بالنظام يبلغ من دقته أن يكون كنظام جسم الفرد في تألف ذراته، وفي اتساق عملها جميعا تمام الاتساق، كل اضطراب في هذا الاتساق يفسد حياة الفرد ويجعله عرضة للأمراض والعلل، وكل اضطراب في نظام الجماعة يضعفها ويجعلها عرضة لتسلط الغير عليها ولتحكمه فيها، ومظاهر النظام في الإسلام بالغ غاية الدقة من غير أن يجني مع ذلك على الحرية أو أن يمسها، وهو يقوم على أساس من المساواة الصحيحة والتعاون الصادق، ذلك شأنه في أركان الإسلام جميعا: في صلاة الجماعة وفي الصوم، وفي الحج، ومظهره في الحج أوضح جلالا وأعمق في النفس أثرا، واجتماع المسلمين بمنى وإلقاؤهم الجمرات ختام شعائر الحج بعد الوقوف بعرفة والطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة، أما وغاية الحج اشتراك المسلمين من أقطار الأرض في التفاهم على منافعهم واشتراكهم في ذكر الله، فيجب لنجاح هذه الغاية أن يبلغ نظامهم أثناء الحج غاية الدقة، ويجب لذلك أن يكون إلقاء الجمرات والتعارف والتشاور خيرا مما هي اليوم نظاما، والمسلمون يشعرون اليوم بواجبهم في تحقيق هذه الغاية أكثر مما كانوا يشعرون به من قبل، دعا الشباب العربي السعودي ذوي المكانة من الذين جاؤوا يؤدون فريضة الحج من أهل الأمم المختلفة إلى اجتماع بمنى للتعارف والتشاور، وقد اجتمعنا في الموعد المضروب، وجاء مجلس بين هندي وتونسي، وبادل الداعون ضيوفهم التحيات، وأحدثوا بينهم من التعارف ما يستطاع إحداثه في مثل هذه الحفلة، ثم دعوا بعضهم ليتحدثوا إليهم، وكم تمنيت لو كان بين من يؤدون فريضة الحج من أهل المكانة والرأي والكلمة المسموعة في بلادهم من يحضر مثل هذا الاجتماع، لتتم حكمة الحج ولتكون مكة مقرا لعصبة الأمم الإسلامية تسمع كلمة أهلها، ويكون لهم في العالم رأي معدود، ولكن ذوو الكلمة المسموعة ممن حضروا لم يكونوا يمثلون من العالم الإسلامي إلا أقله، ولم يكونوا يقصدون باجتماعهم إلى غاية وراء الاجتماع، لذلك

ضعف الرجاء في أثر ما ألقوا في هذا الاجتماع من أقوال لم تتعد الدعوة العامة إلى إخاء المسلمين وتحابهم، ولو اجتمع ذوو الكلمة المسموعة لغاية يريدون تحقيقها لكان لاجتماعهم أثر يدوي في العالم كله » اهـ.

وبعد أن يتعرَّض المؤلِّف إلى مظاهر الحياة الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة، ويقارن بين ماضي الجزيرة والحرمين بالخصوص في أطوار مراحلها، يتعرَّض إلى ناحية جوهريَّة لا زالت تثير الخلافات بين مفكِّري الإسلام الذين يرون تغيير الوضع، مثل الأمير شكيب أرسلان الذي ذهب إلى أداء فريضة الحجِّ، وأقام مثل زميله هيكل، وسجَّل انطباعاته في (**رحلته**) المشهورة: (**الارتسامات اللِّطاف**) وتعرَّض بالخصُّوص لذبائح الهدي، وقدَّم اقتراحات لحلِّ مشاكلها إلى الملك عبد العزيز آل سعود في الثَّلاثينات، قال هيكل في (ص: 138) ما يلي: «وهذا الماضي الذي يثقل خطى دعاة الإصلاح، يجد في ناحية من نواحي الحياة بـ (**مكَّة**) ما يشدُّ من أزره إزاء المحاولات التي تبذل للتَّغلُّب عليه، هذه النَّاحية هي التَّفكير القديم الذي أشرتُ في أوَّل هذا الفصل إليه، والذي يجعل فكرة التَّوكُّل قائمة على التَّواكل والكسل، وعدم السَّعي في الحياة، والقناعة في الرِّزق بما يجيء من غير مشقَّة أو عمل، وأنَّ ألوفا وعشرات الألوف من المقيمين بـ (**مكَّة**) ليرون حقًّا لهم أن يعيشوا من الصَّدقات التي تجري عليهم، ولا يفكِّر أحدهم في مزاولة عمل يقيم أوده وأود أهله، وهذا الرُّوح هو الذي يجعل التَّسوُّل منتشرا بـ (**مكَّة**)، وخاصَّة أثناء الحجِّ، انتشارا مروعا، فأنت كلَّما ذهبتَ إلى (**المسجد الحرام**) للصَّلاة، وجدتَ على كلِّ باب من أبوابه الكثيرة العدد، وهي تبلغ ستَّة وعشرين بابا، عشرات من الصبية والنِّساء يتكفَّفون النَّاس، ويسألونهم إلحافا، ويرى كثيرون من الحجَّاج، وكثيرات منهم بنوع أخصِّ فرضا عليهم أن يعطوا هؤلاء، فهم ينفقون في ذلك العطاء الرَّخيص الشَّيء الكثير، مؤمنين بأنَّهم يعطون الفقير ممَّا أعطاهم الله من فضله، فلهم مثوبة ذلك عند

ربهم، وكثيرون من هؤلاء المتسوِّلين أقوياء البنية، أصحَّاء الأجسام، قادرون على العمل، وكثيرا ما رأيتُ منهم مَن لو وجد من أحياء (**القاهرة**) أو في أرياف (**مصر**)لأنذر بالتَّشرُّد، ولشدَّدت الشُّرطة عليه الخناق، لكنَّهم في (المدينة) الإسلامية المقدَّسة يجدون عطفا عليهم من حجَّاج المسلمين وتسامحا معهم من جانب الحكومة، ولعلَّك لو سألت في ذلك لقيل: أنَّهم من ذرِّية إسماعيل، وأنَّهم تنطبق عليهم الآية: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ (إبراهيم: 37).

وأنَّ ما يبذله النَّاس من هذه الصَّدقات إنَّما هو هذا الهوى من أفئدة النَّاس إلى ساكني (**البلد الأمين**)، هذا وإن لم يكن بين سكَّان (**البلد الحرام**) من ذرِّيَّة إسماعيل اليوم إلاَّ القليل، أمَّا الأكثرون فخليط من أبناء البلاد الإسلاميَّة في آسيا وإفريقيا.

ولقد ذكَّرني مشهد هؤلاء المتسوِّلين بما تقرر مذاهب عصرنا الحاضر من حقِّ العمل للأفراد كي يعيشوا منه، وذكرتُ دعوة القرآن النَّاس ليمشوا في مناكب الأرض ويأكلوا من رزق الله، وحاولتُ أن أجد مسوغا لانتشار التَّسوُّل بـ (**مكَّة**)، فلم أجده إلاَّ في سوء التَّأويل للفكرة الإسلاميَّة، ذهبت إليه طائفة أرادت استغلال العواطف لفائدة قوم كسالى لا يعملون، وهم على العمل قادرون، وهذا التَّأويل الفاسد لا يقرُّه مذهب سليم، فالدَّعوة الإسلاميَّة أساسها العمل في الحياة والجهاد للرزق فيها، ولقد كان المسلمون الأوَّلون من أهل (**مكَّة**) من أكثر النَّاس دأبا وسعيا، فلمَّا هاجروا مع الرَّسول إلى (**المدينة**)، وأراد الأنصار أن يشاطروهم أموالهم، أبوا ذلك على أنفسهم رغم حاجتهم إليه، وذهب يعمل في التِّجارة منهم من تؤهِّله مواهبه لتجارة، ويعمل في الزِّراعة من يفضِّل العمل في الزِّراعة، ولم تكن الأرزاق يومئذ تجري إلاَّ على العاجزين عن الكسب، شأنهم في ذلك شأن أمثالهم اليوم في أرقى الأمم حضارة، فأمَّا القادر على

الكسب فلا حقَّ له في الحياة ما لم يعمل، والعمل للقادر عليه عبادة لها مثوبتها عند الله، ولها كرامتها واحترامها عند النَّاس، ولو أنَّ الألوف التي تعيش اليوم بـ (**مكَّة**) من الصَّدقات زاولت من الأعمال ما تستطيعه لتغيَّر وجه الحياة في (**مكَّة**)، ولو أنَّ ما يخرجه المسلمون من مالهم صدقات للمتسوِّلين جمع وأنفق في أعمال يقوم على استغلالها هؤلاء لكان أعود عليهم وعلى (**مكَّة**) بالفائدة، ثمَّ لتغيَّرت هذه العقليَّة المريضة، عقلية التَّواكل والكسل المزري العجيب، ولتغيَّر تبعا لذلك تفكير النَّاس تغيُّرا يدفع (**مكَّة**) إلى ناحية الحياة الحديثة، لستُ أجهل ما في ذلك التغيُّر من عسر، وأهل (**مكَّة**) لا تجمع بينهم رابطة الجنس، ولهذه الرَّابطة أثرها القويّ في تكوين الحياة القوميَّة.

ولقد كنتُ أتحدَّث يوما إلى مَكي صميم في حرب الأشراف والنَّجديين، وكنَّا نفرض الأسباب التي أدَّت إلى دخول الإخوان (**مكَّة**) من (**الطَّائف**) موفورين، وممَّا اتَّفقنا عليه من هذه الأسباب تكوين أهل (**مكَّة**) من خليط من أجناس المسلمين المختلفة، المنتشرة في أنحاء الأرض جميعا.

فماذا يعني المغربي أو الجاوي أو الأفغاني أو الهندي أن يكون حاكمه عربيا قرشيًّا أو بدويًّا نجديا، ما دام هذا وذاك مسلما، وما دام كلٌّ منهما يدع له أسباب الرِّزق بلا سعي ولا عمل، ما اعتاده منذ قرون خلت، أمَّا وذلك شأنه فليس يعنيه أن يشترك في نزاع على حكم (**مكَّة**) أو حكم (**الحجاز**)، وليس يصيبه من تغيير الحاكم خير ولا أذى، ولو أنَّ أهل (**مكَّة**) كانت تجمع بينهم رابطة الجنس لتغيَّر وجه تفكيرهم في الدِّفاع عن مدينتهم، ولرأوا هذا الدِّفاع واجبا عليهم، متَّصلا بكرامتهم، لأنَّه الدِّفاع عن الوطن، ثمَّ لرأوا واجبا على كلِّ فرد من أبناء الوطن أن يعمل لخير الوطن، وألاَّ يعيش عالة عليه ما دام قادرا على العمل.

ولقد أدركت الحكومات العثمانية هذا السِّرَّ في الماضي، فلم تعمل لتغيير عقليَّة

التَّواكل في (**مكَّة**) وفي (**الحجاز**) كلِّه، بل عملت على تثبيت قواعدها وتعميق جذورها بإجراء الأرزاق على هؤلاء الأعراب، الذين نزحوا إلى (**مكَّة**) واستوطنوها، وتشجيع ذوي اليسار على حبس الأوقاف لإجرائها عليهم، بذلك توطَّد التَّواكل والقعود بـ (**البلد الحرام**)، وانتشر منه إلى ما حوله من بلاد (**الحجاز**)، وبذلك تعذَّر القيام فيه بأيِّ خطٍّ من الإصلاح، فإذا فكَّر أحدٌ في إصلاحٍ، شُوِّه مقصده ونعت بأنَّه يريد إخراج النَّاس من طمأنينتهم السَّعيدة التي أرادها الله لهم، والزَّجِّ بهم إلى حظيرة العمل الشَّاق، والأفكار الضَّارَّة المارقة.

لستُ أقصد ممَّا سبق إلى أنَّ الطَّبيعة قضت ببقاء فكرة التَّواكل سائدة أهل البلد الأمين، ممتدَّة منهم إلى ربوع البلاد العربية المختلفة، وإنَّما أقصد إلى أنَّ التَّغيير لا يتمُّ سراعا كما يتمُّ في بلد تربط وحدة الجنس بين أبنائه، لكن تمامه أمر لا مفرَّ منه، كما أسلفت، لتزايد أسباب الاتِّصال بين العرب والعالم الخارجي، هذا الاتِّصال يسرع بألوان التَّفكير الحديث إلى (**مكَّة**) على أيدي المسلمين الذين يحجُّون البيت من مختلف الأقطار، كما يسرع به إليها ما بين الحكومة العربية والحكومات الإسلامية الأخرى من أسباب التفاهم ومن أسباب الانهيار في تفكير التواكل، ما تمَّ الاتِّفاق عليه بين حكومة (مصر) والحكومة (**السَّعوديَّة**) في أمر الأرزاق التي تجري من (**مصر**) إلى (**الحجاز**) غلة لأوقاف الحرمين، وفي أمر الأموال التي ترسلها حكومة مصر إلى الحجاز، فقد كانت هذه الأرزاق والأموال توزَّع فيما قبل الاتِّفاق صدقات ضئيلة القيمة على أهل (**مكَّة**) وعلى أهل (**المدينة**)، أمَّا بعد الاتِّفاق الذي تمَّ عام 1936م فقد أصبحت هذه الأرزاق تجمع لتنفق في أعمال ذات فائدة عامَّة، كتعبيد الطُّرق وتعمير المنشآت الإسلاميَّة في البلاد المقدَّسة، وقد كان النَّاس هناك يكتفون بالصَّدقات عن مزاولة هذه الأعمال لإقامة حياتهم، فإذا انقطعت هذه الصَّدقات أو قلَّت فصارت لا تكفي حاجات

العيش، اضطرَّ أهل البلاد للعمل، وحلُّوا بذلك محلَّ العمَّال المصريِّين وغير المصريِّين ممَّن يجاء بهم لإتمام هذه الأعمال.

وسيكون الاتِّفاق الذي تمَّ بين **(مصر)** و**(الحكومة العربيَّة)** مثلا لغير **(مصر)** من الأمم الإسلاميَّة التي تجري الأرزاق إلى الأماكن الإسلاميَّة المقدَّسة، ومن ثمَّ لا يبقى أمام هؤلاء الكسالى إلاَّ أن يعملوا، غير مكتفين بما يصلهم من صدقات الحجَّاج، وأغلب ظنِّي أنَّ الحكومة العربية ستنظِّم هذه الصَّدقات كذلك، وتضرب على أيدي المتسوِّلين، وتعمل جهدها للقضاء على حالة محزنة تثير اليوم إشفاق الكثيرين، ولكنَّها تثير إلى جانب إشفاقهم الزِّراية بمن يقيمون في موطن الرَّسول العربي أعظم داع للسَّعي والعمل، وللإخاء في السَّعي والعمل، هنالك تتغلغل فكرة العمل في حياة **(مكَّة)** وحياة **(الحجاز)**، على أنَّها الفكرة الإسلاميَّة الصَّحيحة، بعد أن كانت تعتبر مخالفة لروح الإسلام.

هذه لمحات سريعة تشفُّ عن العوامل التي تدفع **(مكَّة)** نحو الحياة الحديثة... الخ».

انتهى ما كتبه محمَّد حسين هيكل في كتابه: **(منزل الوحي)**، بعد أن تعرَّض لوصف بعض المناسك ونواحيها السَّلبية، وما دار بينه وبين السُّلطات وبعض الحجَّاج في إصلاح هذه السَّلبيات.

عبد المؤمن بن علي الكومي
ومسقط رأسه هنين[1]

حرِّرت هذه الدِّراسة بمناسبة انعقاد (**مؤتمر الفكر الإسلامي**) بـ (**تلمسان** 1975م)، زرنا خلال هذا (**الملتقى**):(**هنين**) و(**أرشقول**).

ولد عبد المؤمن بن علي آخر سنة 487هـ، بقرية أولاد عبد الله ببني عابد ـ أوعرش بني عابد ـ قرب مدينة هنين بنحو ثلاثة أميال، وما زالت القرية تحتفظ باسمها، اللهم إلا القبيلة التي كانت تعرف بالكومية، فقد استبدل اسمها في العصور الأخيرة بترارة .

عرفت هنين باسمها الحالي في التاريخ الإسلامي ابتداء من سنة 237هـ وذلك أن مشعوذا من نواحي تلمسان كان ادعى النبوة، وأول القرآن حسب هواه، ثم فر من أمير تلمسان إلى الأندلس، وكانت طريقه على هنين، فذكر قصته ابن أبي زرع في روض القرطاس .

ثم بعد قرنين ذكرها البكري فقال: «ومن حصن الوردانية إلى حصن هنين أربعة أميال، وهو على مرسى جيِّد مقصود، وهو أكثر الحصون المتقدِّمة الذِّكر بساتين ودروب ثمر، تسكنه قبيلة تسمَّى: كومية، وبين هذا الحصن ومدينة ندرومة الجبل المعروف بتاجره، ومسافة ما بين الحصن ثلاثة عشر ميلا... »، وبعد قرن ذكرها الإدريسي، وقال: «بأنها مدينة صغيرة جميلة مسورة وبها متاجر، وتجارتها رائجة

---

(1) اعتمدنا في إثبات هذا المقال على نسخة مرقونة تقع في (3) صفحات . (ع)

وضواحيها مغروسة بالأشجار».

ومما لا شك فيه أن هنين استفادت كثيرا من تولية عبد المؤمن الخلافة سنة 538هـ، ففي سنة 557هـ اختارها مركزا للأسطول البحري التجاري والحربي ضمن مراكز الموحِّدين، كـ: بجاية، ووهران، وأرزيو... الخ، وكان مرسى هنين حلقة وصل بين تلمسان والأندلس، إذ كان أقرب المراسي للأندلس، ذكر الرحالة الأندلسي خالد البلوي في (**رحلته**)هنين التي زارها سنة 732هـ فقال: «فنزلنا بها ضحوة يوم الثلاثاء التاسع لجمادى الأولى، فرأيتُ بلدة نضيرة، لا كبيرة ولا صغيرة، جليلة المنظر، متوسِّطة بين الصِّغر والكبر، موضوعة بين أسفل جبلَين بين بحر وشجر، لحفظها ارتفاع قلعة ودار صنعة[1]، وأسواق مدفورة ومساجد معمورة، ولقربها مِن الأندلس هي مذكورة»[2].

ذكر قولد زهير في مقدِّمته لتأليف **المهدي بن تومرت**:(**أعزُّ ما يطلب**) المنقول من أقدم نسخة موجودة في العالم، وهي النُّسخة الموجودة في (**خزانة الجزائر**)، وقد كتبت سنة 579 قال ملخِّصا ما في الكتاب: «مرَّ قرنٌ ونصف ـ أي ابتداءً مِن 515هـ إلى 674هـ الموافق لـ: 1121م و1275م ـ تأثَّرت البلاد الأندلسيَّة والإفريقية أو بعبارة أدقّ اجتاحهما تيار ديني وسياسي هو الذي يظهر مِن الوثائق التي يجمعها هذا الكتاب.

كانت فكرة الموحِّدين كغيرها من الأفكار التي اجتاحت البلاد البربرية بسرعة مدهشة، أثَّرت تأثيرا قويا في السكَّان، وإن كانت هذه المعركة في مبدأ أمرها ضعيفة ـ أي: في عهد المهدي بن تومرت ـ ولم يكن منتظرا منها إحداث ذلك الانقلاب المدهش، فإنه بمجرَّد ما تولَّى عبد المؤمن زِمام القيادة حوالي سنة 558هـ الموافق لـ 1143م إلا وعمَّت الفكرة المغرب العربي وبلاد الأندلس».

---

(1) وما زال موقعها يعرف عند السكان بدار السلطان.

(2) وتعريف خالد البلوي، هو أهم ما وصلنا من التعاريف لـ: هنين.

وإنَّ مَن تتبَّع تاريخ الموحِّدين يجد الفكرة نفسها مدينة لعبد المؤمن، إذ ابتداءً مِن اجتماعه بشيخه بـ (بجاية) وإقامته بـ (ملالة)، كان عبد المؤمن هو الدِّماغ المدبِّر ـ على حدِّ تعبير المعاصرين ـ وهو الذي رسم الخطَّين، السِّياسيَّة والفكريَّة، إذ كان لا يشكُّ في نجاح الفكرة، توفي عبد المؤمن سنة 558هـ وخلفه ابنه أبو يعقوب يوسف، ثمَّ ابنه يعقوب المنصور.

وإنَّ الحديث عن الانقلاب الذي أحدثته فكرة الموحِّدين، خصوصا بـ (**الأندلس**) وبلاد المغرب العربي، ما زال محلَّ اهتمام الكتَّاب والباحثين مِن مختلف الأجناس والأديان.

ونجد **الجزائر** مرتبطة بتاريخ دولة الموحِّدين لا لأنَّها مركز انطلاق الفكرة التي رسم خطَّتها عبد المؤمن مع شيخه **المهدي بن تومرت** بـ (**ملالة**)، وتولَّى سكَّان **ملالة** حمايتهما والدِّفاع عنهما أيَّام مضايقة الملك الحمَّادي بـ (**بجاية**) لهما، بل لأنَّ بجاية كذلك كانت مركز انطلاق مقاومة الفكرة الموحِّدية، إذ كان فقهاؤها ـ أي: بجاية ـ يتمتَّعون بالنُّفوذ القويِّ، كـ: **عبد الحق الإشبيلي**، والشَّيخ شعيب أبو مدين ـ دفين تلمسان ـ الشَّهير، وكانوا يتَّهمون الموحِّدين بـ (**الظَّاهريَّة**)، ردًّا على الموحِّدين الذين كانوا يرمونهم بالتَّجسيم، ولمكانة بجاية وفقهائها، وانتصارهم لـ (**المرابطين**)، اختار أسطول (**بني غانية**) بجاية وباغت الموحِّدين وانتصر الفقهاء علانية لبقايا المرابطين، فاسترجع الموحِّدون بجايةَ بسهولة، وانتقموا مِن المنتصرين لـ (**المرابطين**)، ونظرا لمكانة الشَّيخ أبي مدين عند سكَّان البلاد وداخل المملكة أبعدوه إلى مقرِّ الخلافة بـ (**مراكش**).

إنَّ المقاومة فعلت مفعولها وقضت على دولة الموحِّدين، لا سياسيًّا بل فكريًّا، إذ لا يختلف المؤرِّخون بأنَّ(**دولة الموحِّدين**) القويَّة مزَّق شملها بنو غانية.

وقد تركت (**دولة الموحِّدين**) زيادة على التُّراث الفكري، تراثًا معماريًّا ما زال محلَّ

إعجاب سوَّاح العالم بـ (**مراكش**)، و(**الرِّباط**)، و(**الأندلس**)... الخ.

وامتازت **الجزائر** باحتفاظها بقِسط وافر مِن تراث الموحِّدين، إذ بـ (بجاية) وجِدت جرَّة مملوءة بالدَّنانير الذَّهبيَّة، يرجع عهدها إلى عبد المؤمن، وهذه الدَّنانير وزَّعها الفرنسيُّون قبل (**الحرب العالميَّة الأولى**) على متاحف باريس والمغرب العربي، وما زالت الدَّار التي وجدت فيها تلك الجرَّة تعرف بـ (**فيلا الكنز**) (villa du trésor)، ومنذ ثلاث سنوات فقط، وجِدت قرب **مازونة** جرَّة أخرى مملوءة دنانير ذهبيَّة، من القِطع الكبيرة ـ أي: وزنها أربع غرام ونصف ـ يرجع عهدها إلى الملك أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن.

كما ما زالت **هنين** مسقط رأس عبد المؤمن تحتفظ بصورها وكثيرٍ من آثار المدينة، وقد بنيَ على أنقاض (**المسجد القديم**)، مسجدٌ آخر بعد الاستقلال، وتحت إشراف (**وزارة التَّعليم الأصلي والشُّؤون الدِّينيَّة**)، وقد بقيَ موقع (**المسجد القديم**) محتفظا بجزء من منارته.

عبد الكريم بن الفقون القسنطيني (988- 1073هـ)والتَّعريف بتأليفه: (منشور الهداية في كشف حال من ادَّعى العلم والولاية)(1)

اخترتُ موضوع هذه الدِّراسة لدراسة حياة عَلم من أعلام الجزائر، نال الشُّهرة والإعجاب من نخبة معاصريه، وهو من مواليد هذه العاصمة العلميَّة، كما سأتناول بالبحث والتَّحليل، تأليفه القيِّم، النَّادر المثال في موضوعه، لا على المستوى الوطني بل على مستوى الأدب العربي العام، وهذا التَّأليف هو:(**منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية**).

ينحدر مترجمنا عبد الكريم ابن الفقون، من أسرة علميَّة شهيرة، توارث أفرادها العلم والمجد قرونا بمدينة (قسنطينة)، وقد نوَّه به كثير من معاصريه، أمثال الرَّحَّالة المغربي أبي سالم العيَّاشي، وأحمد المقري التِّلمساني، وغيرهما، كما حظي كثير من أفراد

---

(1) **الأَصالة**: العدد: 51، ذو القعدة 1397هـ/ نوفمبر 1977م، السنة: 6، ص: 14 ـ 32، كما اعتمدنا على نسخة خطية بقلم الشَّيخ المهدي (رحمه الله تعالى) تقع في (52) صفحة، وعلى نسخة مرقونة تقع في (17) صفحة وبها تصحيحات بقلم الشَّيخ المهدي (رحمه الله تعالى)، وأصلها محاضرة ألقاها بالمركز الثَّقافي الإسلامي بتاريخ 2 صفر 1396هـ/ 2 فيفري 1976م، ثمَّ كرَّر إلقاءها بكلية الشَّعب بـ (قسنطسة) بتاريخ 17 محرم 1397 هـ الموافق ل 7 جانفي 1977م، انظر: **الأصالة، عدد**: 31، ص: 160. (ع)

أسرته بتراجم ضافيَّة من أئمَّة العلم والأدب، ابتداء من عميد الأسرة أبي علي حسن بن علي بن محمَّد الفكُّون، صاحب **(الرِّحلة)** المنظومة، التي ضمَّنها رحلتَه من (قسنطينة) إلى مدينة (مراكش) لماَّ ذهب إليها في أواخر القرن السَّادس، عندما كانت عاصمة الدَّولة الموحِّديَّة، وقد تسابق مؤرِّخو الأدب العربي إلى نشرها، والإشادة بصاحبها، وهي التي افتتحها بقوله:

ألا قـل للسَّـري بـن السَّـري   أبي البـدر الجـواد الأريحـي

إلى أن يقول:

فجئـت بجايـة فجلـت بـدورا   يضيق بوصفها حـرف الـروي

وفي أرض الجزائـر هـام قلبـي   بمعسـول المراشـف كـوثري

وفي مليانـة قـد ذبـت شـوقا   بلبن العطف والقلـب القسـي

...الخ

تشتمل هذه المنظومة على اثنين وثلاثين بيتا، وكان الفضل في نشرها، والتنويه بقيمتها، للرحالة أبي عبد الله محمد بن محمد العبدري الحيحي في رحلته المغربية التي ابتدأها سنة 688هـ، ثم تناقلها كثير من مؤلِّفي تاريخ الأدب العربي.

ولنرجع إلى الحديث عن مترجمنا، فإنه كان من مواليد أواخر القرن العاشر الهجري، وبالضبط من مواليد سنة 988 هـ قرأ بـ (قسنطينة) التي كانت آهلة بالعلماء ثمَّ استفاد من رحلاته إلى الحج، حيث كان يرافق والده أمير ركب الحج، قبل أن يستقل بها بعد وفاته، فكان يذهب إلى الديار المقدسة سنويا، كانت خطة إمارة ركب الحج لا تسند إلا لأمثل عالم، تراعى فيه عدة مقاييس، أهمها التبحّر في العلم والاستقامة، إذ هو الممثّل لبلاده، ولنخبة علمائها، حيث يجتمع بجل علماء الأقطار الإسلامية، ويتبادل معهم الإجازات والتآليف، ويشارك في المناظرات العلمية التي كانت تعقد لحل المشاكل

العويصة، فكانت مهمة أمير الركب في رحلاته الإفادة والاستفادة.

تولى مترجمنا هذه الخطة التي خصصها ولاة قسنطينة الأتراك لأفراد أسرته، بداية من تولية جده عبد الكريم بن يحي سنة 975 هـ، الذي ولاه الأتراك بعد احتلالهم لـ (قسنطينة)، اعترافا بموقفه البطولي الذي سهل للجيش التركي احتلال البلدة، وذلك أن قسنطينة كانت تابعة إذ ذاك للدولة الحفصية، وكانت قاعدة الدولة الحفصية بتونس، وعندما احتل خير الدين باشا (تونس) استنجد ملكها الحفصي بملك إسبانيا شارلكان لطرده منها، اتخذ الوالي الحفصي بـ (قسنطينة) نفس الموقف مع الجيش التركي، الذي حاول احتلال البلدة فعندئذ تمرد عليه السكان الذين كان على رأسهم العالم الجليل عبد الكريم بن يحيى الفكون، جد المترجم الذي انتصر للأتراك، أما الوالي الحفصي فقد آزره شيخ الإسلام عبد المؤمن، ودامت مقاومته للجيش التركي سنوات انقسمت فيها المدينة إلى قسمين إلى أن تغلب الجيش التركي نهائيا، وحينئذ قتلوا شيخ الإسلام عبد المؤمن وولوا مكانه جد المترجم المذكور، فتوارث أفراد الأسرة الفكُّونية هذه الخطة طيلة العهد التركي، وفي وصف هذه الأحداث قال المؤرِّخ القسنطيني الحاج أحمد المبارك في تأليفه: (**تاريخ حاضرة قسنطينة**): «ولما وقع الصلح بين القبائل والأتراك، اختلف أهل قسنطينة، فمنهم من أذعن للأتراك، ومنهم من امتنع، وكان رأس الممتنعين الشيخ العالم سيدي عبد المؤمن، ورأس الراضين بدخول الأتراك، العالم الجليل سيدي عبد الكريم الفكُّون، ونزل الأتراك بسطح المنصورة، وشرعوا في بناء قصبة هناك لعسكرهم، وأظهروا العدل والسياسة، وخالف سيدي عبد المؤمن، وأهل حومة باب الجابية على الترك، وقابلوهم ثلاث سنين، إلى أن احتالوا على الشيخ سيدي عبد المؤمن، وكانت له مشيخة البلد، فصالحوه، ولم يزالوا ينصبون له حبائل المكر والخداع، حتى تمكنوا به، دعوه لضيافة بقصبة المنصورة، فأجابهم، وخرج إليهم آمنا فقتلوه،

وسلخوا جلده، وملئوه قطنا وبعثوا به إلى الجزائر، ودفنت جثته بمسجده المعروف به اليوم، فلما قتله الأتراك ردوا مشيخة الإسلام وإمارة الركب إلى ابن الفكون».

كثيرا ما اشتبه على المؤرخين مترجمنا بسميه الذي هو في الحقيقة جده، أي والد والده وقد توفي الجد في نفس السنة التي ولد فيها مترجمنا أي سنة 988هـ. كان المترجم كما ذكرنا من أكابر علماء عصره المشهورين، قضى عمره الطويل في خدمة العلم. ولم تمنعه خطة مشيخة الإسلام، ولا عبء إمارة ركب الحج التي كانت تلزمه التردد إلى الديار المقدسة سنويا، لم تمنعه من خدمة العلم بالتدريس والتأليف. كما اعترف له بذلك جل مترجميه. ذكره أحمد المقري التلمساني في نفح الطيب، فقال: «عالم قسنطينة وصالحها وكبيرها ومفتيها، سلالة العلماء الأكابر، وارث المجد كابرا عن كابر، المؤلف العلامة الشيخ سيدي عبد الكريم الفكون (حفظه الله)».

وقال أبو سالم العياشي في (**رحلته**) يصفه في أخريات حياته: «وكان رضي الله عنه في غاية الانقباض والانزواء عن الخلق، ومجانبة علوم أهل الرسوم، بعدما كان إماما يقتدى به فيها، وله في كثير منها تآليف، شهد له فيها بالتقدم أهل عصره... »، إلى أن يقول: «... ومروياته (رضي الله عنه) مستوفاة في فهرسة شيخنا أبي مهدي عيسى الثعالبي، فنحن نروي عنه جميعا» اهـ.

كما ترجمه المؤلف إجازته لصاحب:(**الزهرات الوردية في الفتاوى الأجهوية**): «ولما أراد الله سبحانه وتعالى الاجتماع بشيخ أهل المغرب، الشيخ الإمام، العالم الهمام، صاحب التصانيف النافعة، والبراهين القاطعة، سيدي الشيخ بن محمد عبد الكريم بن محمد القسنطيني حفظه الله تعالى ورعاه، حال رجوعه من الحج الشريف، وكان ذلك في مستهل ربيع الأول سنة خمس وأربعين وألف، التمس مني أن أذكر له إسنادي في الحديث والفقه والإجازة فيهما وفي غيرهما بعدما التمست منه الإجازة في مصنَّفاته وغيرها» اهـ.

وقد توارث أفراد الأسرة كما سبق لنا مشيخة الإسلام طيلة العهد التركي، وكان آخر من تولاها محمد بن عبد الكريم بن بدر الدين الذي أدركه الاحتلال الفرنسي، وهو يناهز الثمانين سنة، إذ توفي سنة 1256هـ. أي: بعد احتلال الفرنسيين لمدينة قسنطينة الذي وقع سنة 1252هـ، وقد ذكر المؤرخ الجزائري أبو راس الناصري[1] في (**رحلته**) شيخ الإسلام محمد بن عبد الكريم بن بدر الدين الذي نزل عنده ضيفا في رحلته إلى المشرق في أوائل القرن الثالث عشر الهجري وأثنى عليه، وأشاد بأفراد أسرته، وامتازت هذه الأسرة بامتلاكها الخزانة التي كانت أهم الخزائن الجامعة لنوادر المخطوطات شرقا وغربا، ونوَّه بها كثير من العلماء ـ مسلمين وأجانب ـ.

هذه في الجملة الخطوط العريضة من حياة مترجمنا ذكرناها بإيجاز، أما تآليفه، فإن الكثير منها كان في الحديث والفقه واللغة، وقد استوعب ذكرها في تأليفه (**منشور الهداية**)، كما تعرض لذكر بعضها الرحالة أبو سالم العياشي في (**رحلته**) فاعترف بها، وكان في طليعة التآليف التي تناولها بالنقد والتحليل كتاب: (**محدد السنان في نحور إخوان الدخان**) موضوعه الرد على معاصريه الذين أفتوا بجواز التدخين بعد أن أفتى هو بتحريمه، وكان من ضمن المفتين بالجواز الشيخ علي الأجهوري المذكور سابقا، وقد لخص العياشي كتاب: (**محدد السنان**) هذا في عدَّة صفحات من (**رحلته**)، كما حلَّل في (**الرحلة**) المذكورة (**ديوان شعره**) وبعض تآليفه التي أطلعه عليها ولد المترجم الذي خلف والده في إمارة ركب الحج، وكان العياشي يجتمع به في رحلاته.

وننتقل إلى الحديث عن التأليف الذي تعهدت بالتعريف به، وهو: (**منشور الهداية في كشف حال من ادَّعى العلم والولاية**)، وهو كما ذكرنا من التآليف القيمة التي لها وزنها وفوائدها.

---

(1) **أبو راس الناصري الراشدي** (1165 ـ 1237هـ): رحل إلى المشرق مرَّتين الأولى سنة 1204 هـ، والثانية حوالي 1226هـ.

وقبل أن ندخل في صميم موضوع التعريف به، وتحليل بعض جوانبه، نذكر الأسباب الداعية إلى تأليفه حسبما ذكرها المؤلف في تقديمه، كما لا يفوتنا أن نلفت نظر القراء إلى أن حالة البلاد في عهد المؤلف، كانت سيئة جدا، فقد نالت حظها الوافر من التدهور والفوضى إثر استئناف غارات الحروب الصليبية وشن هجوماتها على مدن شواطئ البحر الأبيض المتوسط التي سقطت الواحدة بعد الأخرى، مثل: سبتة، ومليلية، ووهران، وبجاية، وتونس، وطرابلس، وما نجم عن ذلك من الفتن والاضطرابات التي انتشرت داخل البلاد، هذا وإن كانت قسنطينة تحصَّنت بموقعها الجغرافي ونجت من غارات الجيش الصليبي، فإن موقف واليها الذي تعرض لدخول الأتراك، وتمرد السكان عليه، أعقبه تفكك عرى الإدارة الحفصية، وفقدت نفوذها داخل البلدة وخارجها، فاغتنم هذه الفرصة رؤساء الإقطاع، فاستقل جلهم بمناطق نفوذهم، وصاروا يحاربون بعضهم بعضا، فانتشرت الأهوال والفتن، وفقد الأمن، وكانت من جملة الأوضاع التي تغيرت وضاق بها مترجمنا ذرعا، الحياة الدينية والدين والثقافة في ذلك العهد، كانا متلازمين إذ لا يتصور الناس، ولا يعترفون أو يطلقون اسم العالم إلا إذا كان العالم دينا، وكان النفوذ الديني لطبقتين، الطبقة الرسمية الشاملة للقضاة والمفتين والمدرسين، والطبقة الملحقة بالرسمية، وهي طبقة رجال الزوايا والمتصوفين والعلماء الغير المتوظفين، وسلالة البيوتات المنسوبة للشرف، وفي الغالب أن أفراد هذه الطبقة الثانية علائقها حسنة مع السلطات التي كان لها دخل في تعيينهم أو عزلهم، فالمؤلف كما نرى شاهد تغير الأوضاع المذكورة، حيث صار كثير من أفراد الطبقة الأولى كالقضاة والمفتين والمدرسين يتولون هذه المناصب من دون استحقاق ولا كفاءة، وإنما ينالونها بالرشوة، أو المحسوبية، وكذلك كان الأمر بالنسبة لرؤساء الدين، المدعين للصلاح والولاية، ومعظمهم من رؤساء الطرق، فركز مترجمنا تأليفه هذا: (**منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية**)، على هذه الطبقات أي الموظفين، ورؤساء الدين، وأبناء

البيوتات المنسوبة للشرف، ضمن محتوى التأليف الذي كان الهدف منه، ترجمة علماء البلاد المعاصرين، على عادة علماء التراجم والطبقات، وقد بين ذلك في تقديم تأليفه حيث قال: «أما بعد: فلما رأيت الزمان بأهله تعثر، وسفائن النجاة من أمواج البدع تتكسر، وسحائب الجهل قد أظلت، وأسواق العلم قد كسدت، فصار الجاهل رئيسا، والعالم في منزلة يدعى من أجلها خسيسا، وصاحب أهل الطريقة قد أصبح وأعلام الزندقة على رأسه لائحة، وروائح السلب والطرد من المولى فائحة، إلا أنهم أعني الطائفتين تمسكوا من دينهم بمناصب شرعية... فموهوا على العامة بأسماء ذهبت مسمياتها، وأوصاف تلاشت أهلها. منذ زمان وإعصارها... والطائفة أخرى سطرت أناملهم في قراطيس السجلات، ما يوهم من لم يرهم، ممن يأتى في غابر الزمن أنهم من حزب العلماء، بل ومن مشايخهم الأعلين، كل ذلك والقلب مني يتقطع غيرة على حزب الله العلماء، أن ينسب جماعة الجهلة المعاندين الضالين المضلين لهم، أو يذكروا في معرضهم، وغيرة على جناب السادة الأولياء أن تكون أراذل العامة، وأنذال الحمقى المغرورين أن يتسموا بأسمائهم، أو يظن بهم اللحوق بآثارهم.

ولم أزل في التنفير من كلتا الطائفتين، والتحذير منهم في كل زمان وأوان، وبين كل صالح من الإخوان...»، إلى أن يقول: «... فشرح الله صدري في أن أعتكف على تقييد يبدي عوارهم، ويفضح أسرارهم، ويكون وسيلة إلى الله في الدنيا والأخرى.. فهذا الجهاد الذي هو أحد من السيف في نحور أعداء الله، وناهيك بهم أعداء، نسخوا شرع سيدنا ومولانا محمد ﷺ بآرائهم المسطرة بأقلامهم في سجلاتهم وأحلوا الرشى بأفعالهم، والتمدح بها، والعكوف على طلبها، والاعتناء بأخذها في أنديتهم، فهي عندهم أرفع المكاسب، وأسنى المطالب » انتهى.

نقتصر على هذه الفقرات التي ذكرها المؤلف في مقدمة التآليف ليبين منهاجه في تأليفه، وكشف مثالب بعض مترجميه، وقد قسم تأليفه إلى ثلاثة فصول وخاتمة.

فالفصل الأول ترجم فيه للعلماء الذين اتخذهم قدوة، من حيث الصدق والصلاح والنزاهة وجعلهم من علماء القرن التاسع الهجري.

والفصل الثاني ترجم فيه العلماء الذين تولوا الوظائف الدينية، والشرعية والعلمية، كالإفتاء والقضاء، والتدريس، من دون كفاءة، واتخذوا للتحصيل عليها وسائل دنيئة.

والفصل الثالث خصصه لرؤساء الدين المنحرفين وهذا الفصل هو الذي ينطبق على مترجميه عنوان التأليف: **(كشف حال من ادعى العلم والولاية)**.

أما **الخاتمة** فقد خصصها لمن كان لهم به اتصال ومعاصرة، وأهم ما في هذه الخاتمة ترجمة أحمد المقري التلمساني، الذي رغم اهتمام الباحثين بترجمته، بقيت جوانب منها مجهولة في تفاصيلها، كإقامته بمدينة الجزائر في طريق رحلته من المغرب إلى المشرق، واتصاله بعلمائها، وكذلك مروره على تونس، ومرافقته لأحد كبار علمائها إلى المشرق، ثم إن التأليف يحتوي على صفحات من تاريخ الجزائر وتونس، وذكر الأحداث التي تعرضت لها البلدان إذ ذاك، وهي مرتبطة بتراجم كثير من العلماء المذكورين في التأليف، وذلك كاستعراض لبعض الثورات في جبال الأوراس، والوصف الدقيق للمعاهد العلمية والقرآنية، وإحصاء رؤساء الإقطاع، وتمردهم على الحكام واتخاذهم بعض رؤساء الدين آلات لجلب السكان وترضيتهم، كما تعرض للقبائل التي كانت تحترف النهب والسلب وقطع الطريق على القوافل التجارية التي كانت تتردد من شمال البلاد إلى جنوبها، ثم استمرار الاتصال المتين بين علماء البلاد، ذلك الاتصال الذي كان من أسباب تمتين الوحدة الثقافية بين البلدان الإسلامية بصفة عامة، وبلدان المغرب العربي بصفة خاصة، كما سنبين ذلك بمزيد من التفصيل في موضعه من هذه الدراسة.

كان المؤلف يدرك أنه لم يسبق إلى مثل صنيعه في طريقه تأليفه، و لربما بلغه بعض انتقادات معاصريه، حيث تعرض بإسهاب إلى الحياة الخاصة، والعامة لكثير من

مترجميه فلذلك نجده يقدم اعتذاره ليبرر به عمله، مثل قوله: «يهجس في النفس بأن ذكر هؤلاء في الأوراق والاعتناء بهم في الكتب، تنويه بذكرهم، وترفيع لقدرهم، وإهمالهم أولى، وعدم التعرض لذكرهم أحق وأجلى، إلا أن النصح العام، هو الملجئ لذكرهم والغيرة على حمى الله ورسوله وبساط أوليائه وأصفيائه، أن يدعي جلوس مثل هؤلاء عليه، هو الموجب للتعرض لهم، ولي في هذا سلف من خير سلف، لقد أوضحت علماء الدين، وأئمة المسلمين، نقلة حديث من يصح النقل عنه، ومن لا يصح »، من هذه الفقرة الأخيرة، يتأكد لدينا، أن المؤلف لم يطلع على من سبقه من المؤلفين، الذين طرقوا موضوع تأليفه، فجعل قدوته في ذلك، وأسوته فيه علماء الحديث، الذين فتحوا باب التعديل والتجريح على مصراعيه لرواة الحديث، ورجال السند.

بقي هذا التأليف مغمورا، ولم نطلع على ردود فعل ضحاياه، اللهم إلا ما ذكره صاحب منظومة: (**الدُّرة المصونة في علماء وصلحاء بونة**) المشهورة بـ: (**الألفية**) للعالم الشهير الشيخ أحمد ساسي البوني، وهذه المنظومة جمعت بين ما اشتهر في ذلك العهد من نظم التاريخ الجهوي والاستغاثة بالصالحين، وقد خصَّصها صاحبها لذكر علماء بونة ونواحيها، وللعلماء الواردين عليها، وعندما ترجم لجده محمد ساسي، وتعرض لذكر محاسنه، نفى عنه تهم ابن الفكون، التي ذكرها في: (**منشور الهداية**) عندما ترجم للشيخ طراد دفين نواحي بونة، واتهمه بالزندقة، والتدجيل، فقال إنه من جملة من تتلمذ له محمد ساسي خطيب جامع عنابة إذ ذاك، ومحمد ساسي هذا هو جد صاحب (**الدُّرة المصونة**) التي قال فيها صاحبها أحمد ساسي بعد أن عرف بجده في قوله:

بجـــــده محمـــــد ســـــاسي	جــد الفقــير العــارف المــواسي
وفضـــله أشـــهر بـــين النـــاس	من نور نبراس لـدى العسـعاس
من جدد العلم وقد كان انـدرس	وقــام فيــه مخلصــا بــلا دنــس

وهنا لفت انتباه القراء بأن طعن الفكون فيه باطل وظلم، قال:

طعن الفكون فيه صاح باطل | إذ هو قطب عارف وكامل
فطعنه تحامل وظلم | وعند ربنا تعالى العلم
والقدح في أمثاله حرام | وذاك لاترضى به الكرام
فالحكم العدل تعالى يحكم | بينهما وسيجازى الظالم

وهذا كله لم يمنع أحمد ساسي من الاعتراف لابن الفكون بالصلاح والعلم، حيث قال في نفس المنظومة، عندما تحدث عن علماء قسنطينة الواردين أو المارين على بونة قال:

بسيدي عبد الكريم العالم | الصالح الفكون ذي المكارم
مؤلف التآليف الكثيرة | وكان ذا مناقب أثيرة
بنجله محمد نور الظلام | أبقى الاله مجدهم على الدوام أربى
وبيننا وبينه قرابة | على الأقران في النجابة
وعنده الكتب بالآلاف | والمجد تالد بلا خلاف
أمير أركاب إلى الرسول | سيدنا محمد ذي السول

ولنرجع إلى الحديث عن التأليف، فهو كما ذكرنا تناول فيه تراجم الطبقات الأربع من العلماء الذين كان معظمهم من مدينة قسنطينة ومن معاصريه، وقد تتبع حياة المترجمين سواء الممدوحين أو المقدوحين بصراحة وتفاصيل لم يتعودها المؤلفون في التراجم القدامى منهم والمتأخرون، فهو يذكر المترجم باسمه ولقبه، وأطوار حياته، من لدن نشأته، ويجسم المحاسن أو المساوي، وأكثر من حمل عليهم، هم ممن تربطهم به صلة القرابة أو التلمذة، كما أن جلهم، خصوصا قسم الموظفين، من أعيان بيوتات

قسنطينة، الذين لا زالت بقايا أسرهم إلى يومنا هذا، ومن جملة من تعرض لهم بنقده اللاذع طبقة سماها بالحضر وأن مدلول هذا الاسم، المتعارف عند الجميع يطلق على سكان المدينة العريقين في التمدن والحضارة. ولكن المؤلف لم يعن من انتقدهم من أفراد هذه الطبقة بهذا المدلول، وإلا فهو وأسرته من أعرق الأسر الحضارية، حيث استوطنت أسرته المدينة أزيد من خمسة قرون.

وقد عرف بمدلول اسم الحضر إلا أنه بقى يكتنفه الغموض فقد عرفه عندما ترجم لأحد مترجميه وقال: «فوقعت بينهما ألفة الظاهر، وفي الباطن مختلفان على عادة صنفهم المسمى بالحضر إذ ذاك صفة لهم لازمة، بمجرى العادة لا تتخلف، ولو في النادر. وإن كنت أظن تخلفها في بعض منهم كما أشرت إليه في تأليفنا: **(محدد السنان)** ظنا مني لمرءاه، وألم أشعر باطنه، كما يأتي التنبيه عليه إن شاء الله، فانبهر لي عموم الوصف في جميعهم إلا أن بعضهم يعرف عنه ابتداء، وبعضهم يخفي ما أكن إلى بلوغ قصده ».

ثم كرر حملته على الحضر في موضوع آخر من نفس الترجمة وقال: «ورجعت المودة بينهما شحناء، والمخالفة بغضاء. ومع هذا ففي الحضور تحسبهم جميعا، وهم بالغاية القصوى، قلوبهم شتى، وأهواؤهم متبددة، بود كل منهما وقوع منتهى الشرور بصاحبه، وليس هذا بدعا ممن هو من الجنس الذي يلقب حضريا، فقد جبلوا على ذلك، كما أودعت بعض صفاتهم تأليفنا **(محدد السنان)**».

من هذين الفقرتين يتبين لنا أن مقاييس اسم الحضر، بقي غامضا، إذ كل ما عرفنا به المؤلف هو قوله في الفقرة الثانية المذكورة: «وليس هذا بدعا ممن هو من الجنس الذي يلقب حضريا، فقد جبلوا على ذلك، كما أودعت بعض صفاتهم تأليفنا **(محدد السنان)**... الخ». ثم ذكر في موضع آخر من التأليف أنَّ هذا الصنف لا يوجد إلا في قسنطينة، وأعطى أمثلة دعم بها دعواه.

هذا، وإن كانت مسألة الخلاف بين سكان المدن والبدو من جهة، وسكان المدن القدامى، والطارئين عليها، مشهورة في التاريخ خصوصا في المدن العريقة في الحضارة إلا أنَّ علماء الإسلام كانوا لا يهتمون بها كثيرا، ولتتميم الفائدة، وعملا بالمبدأ الذي يقول: «بالمثال يتضح المقال» نذكر نماذج من بعض التراجم المذكورة، قال في ترجمة عالم تولى الإفتاء والقضاء والتدريس بعد أن اعترف به وبأسرته وأنه من أقاربه قال: «وكان في أول زمانه ممن أحبنا لله وأحببناه فيه، وكان ذا نجابة في أحوال الدنيا، وطلب رئاستها، تولى النيابة عن قضاة العجم يقصد بالعجم (الأتراك) وامتحن من الولاة كثيرا، وأغرم المال مرات، وتشكت به العامة، وكان مقليا عند الخاصة، وينسبون إليه أمورا لا يليق صدورها بعاقل، وكان يخدم الولاة، ويعظمهم، ويمتهن نفسه في موالاتهم ويعطيهم الرشا، وربما يقال فيما اشتهر أنه يتوسط لهم في ذلك من أهل البلد والرعايا، وينال هو من ذلك حظا، وتولى خطة الفتوى في زمن زكرياء بن محجوبة، وكانت له يد عليه في بعض الأحيان، إلا أنه كان يستعين عليه بالجمع الخاص وفريق العامة، وبعد وفاته استقل برئاستها في التصدير، وكان أمي الخطاب والكتابة، لا يعرف طريق الخط، ولا يحسن الوسم، غير عارف بالهجاء حتى إنه في غالب أحواله، يتفقد من يجالسه من أحبابه مكاتبه، ليصلح ما فيها من فساد الرسم، وكان في ابتداء أمره منصفا، واقفا عندما يحد له... الخ».

ثم يذكر في ترجمة أخرى من هذا القسم، أي المتولين الوظائف العلمية والدينية من دون استحقاق، بعد أن اعترف بمترجمه وبأسرته: «وأما تكالبه على الدنيا، وانكبابه عليها فهو أشهر من أنه يذكر، وأوضح من أن يسطر، فتراه في جمعها يرتكب أمورا لا يبالي بها من ضعة، أو هلكة، ولا عليه أن تكون من حل أو لا، حتى تحقق فيه وعيد حديث: من لم يبال من أين مطعمه ومشربه، لم يبال الله أي باب من أبواب جهنم

يدخله، هذا مع تغيره للشريعة وتجاهره بالرشاء، وجمع حطام الدنيا، وعدم اكتراثه بالأوامر الشرعية، وتسويغه للعامة، أو من كان على شكله من الخاصة أمورا لا يرضاها من في قلبه مثقال حبة من إيمان، وتسهيله لهم الأمور الشاقة في النواهي والزواجر ويهتك حدودها قولا وفعلا... »، إلى أن يقول: «... أما العمل فلاحظ له فيه، إلا ما سطر من مساويه، وأما العلم فهو أجهل ممن رأيت، وأحمق ممن لاقيت وان كان يتصدى لإقراء المختصر والرسالة، وأعجب من ذلك، تعاطيه لابن الحاجب في ناديه، مع جمع عمتهم الجهالة، فلو كان في زمن محتسب لله لكان له معه شأن »، ثم يقول بعد ذلك: «... ولعمري لا يصلح لأن يقعد بين العلماء فضلا أن يتسمى بالعلم، وأحرى أن يتصدى للتدريس لكن غباوة الجهل، وقلة الحياء من الله، وخراب البلدة، وكثرة العامة هي التي جرأته على ذلك».

ثم يتعرض لتصرفاته في خطته فيقول: «ولقد سمعت من والدي أنه أحصى جميع ما باعه من الأحباس، وتسبب في هتك حرمتها والبيع والابتياع، خمسة وثلاثين حبسا أو نحوها... حتى إنه ترامى به الحال، أن فعل ذلك في الأحباس الموقوفة على خدمة المدينة الشريفة، ولم يراع فيها جانب النبي الشريف، ولا عظمه، ولا وقره، في هتك ما نسب إليه... الخ».

ويختم هذه الترجمة بقوله: «ولنكف العنان، فإن مساويه أكثر من أن يحصيها الإنسان، ولما كان هذا التأليف للنصح العام أتينا بنبذة من مساويه ليدل مبدأها على منتهاها، ولله عاقبة الأمور ».

ثم يتعرض لترجمة شخص آخر من هذا الصنف فيقول عنه: «تولى خطة النيابة ـ أي: نيابة القضاء ـ بالبلد، ومكث فيها زمانا، وعزل مرات... وكان عامي القلم والفكر، لا يعرف ما يصلح له وضوءه وصلاته فضلا عما وراء ذلك، غير أنه اتخذ كتب الوثيقة

صناعة على ما فيها من الفساد والإفساد علما ورسما، وضعف الدين أوجب إنزاله تلك المنزلة، وامتحن مرات، وغرم كرات، وهو أول من ظهر الغرامة على خطة النيابة، أعطى عليها مالا لقضاة العجم، حتى ولوه إياها، وربما أرشى الولاة يمينا وشمالا، وسمعت عن شيخنا أبي عبد الله التواتي المذكور أنه طلب منه الرجوع لقسنطينة، بعد أن أخرج منها واستوطن باجة، كما قدمناه فاعتذر بأنه لا يرجع على بلد فيه فلان نائب، أو قاض، ونحو ذلك، وكان موسوما بالرشى مغموصا بشهادة الزور، والله أعلم بالسرائر».

إلى هنا ننهي **القسم الأول** من النماذج الخاصة بالذين تولوا الخطط الدينية والشرعية بدون كفاءة واستحقاق، وعقد لهم المؤلف **الفصل الثاني** من تأليفه، أما القسم الثاني من هذه النماذج فهو يشمل الطبقة التي خصص لها المؤلف الفصل الثالث من تأليفه، وعنونه بِقوله: «الفصل الثالث فيمن ادعى الولاية من الدَّجاجلة الكذَّابين، والمتشدقة، والمبتدعة الضالين المضلين، وربما ألجأ الحال إلى ذكر من لم يكن بصفة من ذكر لقصد التعريف به، فسننبه عليه إن شاء الله».

فإن المؤلف كما نرى من قوله هذا، كان ينكر على المنحرفين من مدعي المشيخة والتصوف، وكانت أسوته في ذلك، مذهب أحمد زروق، وتلميذه عبد الرحمٰن الأخضري أي كان لا يعمم إنكاره على أصل الصلاح، ولا أصل التصوف، ولهذا نبه في فصله هذا بقوله: «وربما ألجأ الحال إلى ذكر من لم يكن بصفة من ذكر لقصد التعريف به فسننبه عليه إن شاء الله».

وقد لخص نظريته بعد ذلك في المقياس الذي كان يعتمده في أحكامه على هذا الصنف من مترجميه بقوله: «والميزان الأعدل في ذلك أن ننظر إلى المرء وما هو عليه، من الطريق القويم والصراط المستقيم في اتباع السنة قولا وفعلا وعملا. فما كان، فهو ممن يجب الاعتقاد فيه، ما لا، فلا ».

قد بدأ هذا الفصل بترجمة قاسم ابن أمّ هاني وبين الداعي إلى البداية بترجمته في قوله: «وبدأنا به لعظم مفسدته بين الخلق، وشهرة بدعته وقوتها»، وبعد أن ذكر أن جد المترجم ينتسب إلى الصلاح، وكان معاصرا لعبد الرحمٰن الأخضري الذي كان ينكر عليه، قال: «فاعلم أن هذا الرجل ـ أي: قاسم بن أم هاني ـ كان في ابتداء أمره ذا سمت حسن، وكان لجده رعايا وأتباع، وقد أظهر التقشف والزهد ولبس المرقعات، ثم ادعى مراتب الولاية والصلاح»، وحكم المؤلف بالزندقة معللا حكمه عليه بقوله: «وأما الزندقة فبدعواه أن ما أصاب من النكبات، من لم يوافقه على مرغوبه فهو ببركته، ومن أجل حضرته، وقد علم أن التحدي فارق بين منصب النبوءة والولاية، فالولي إذا تحدى تزندق، وخرج عن دائرة أهل القرب والخصوص وقد ذكر علماؤنا في كتبهم، أن من قال أنا ولي، فهو زنديق، هذا لو كان آثار الطريقة ظاهرة على صاحبها، وأما من هو في لجج العماية غريق، وفي تيه الحرمان راكض متلطخ بقذرات المعاصي الظاهرة، التي هي عنوان عن الباطن فأنى يشم رائحة أهل الله».

ثم ترجم لآخر وهو الشيخ طراد دفين نواحي عنابة فقال عنه: «أصله لص من اللصوص ـ ويقصد باللصوص رؤساء الإقطاع ـ وكان كبير المتلصصة ثم زعم أنه تاب، وإلى الله أناب، فصار من أهل الصفوة والولاية، وهو باعتبار ظاهر الشرع من أهل الطرد والجناية، والبعد عن الله والغواية كان لص الظاهر، صار لص الباطن والظاهر، رمحه الظاهر، لم يزل بيده للحرابة والفساد، وسبحته هي ما يذبح بها العباد، ويضلهم بها عن طريق الرشاد، ويقطعهم عن باب الملك الجواد... ولهذا الرجل حروب ووقائع مع شطر قبيلته، إذ لم تدخل تحت طاعته، ويشن الغارات عليها، ويأخذ أموالهم يستحلها.

وبعد أن يذكر موبقاته، والطرق التي يستعملها لجلب الناس، يذكر أن جل سكان عنابة دخلوا في أحبولته، ومنهم خطيب جامعها وفقيه بلدها، وعكف على اتباعه

أجلاف البوادي، وامتلأ بأكاذيبهم حافتا الوادي وأكثر من مآثره التي هي في طي الخرافات، الحاضر والبادي... الخ.

ويقصد بخطيب جامع عنابة الشيخ محمد ساسي، الذي تقدم لنا الحديث عنه، عندما تكلمنا على حفيده أحمد ساسي صاحب منظومة (**الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة**)، ثم ترجم لغيرهم.

وختم **الفصل الثالث** الذي عقده لذكر المنحرفين من المدعين لولاية والصلاح بصنف آخر، يعرف بالمجاذيب، فعقد لهم فصلا مفيدا، نلخِّصه في هذه الجمل التي ذكرها في ترجمة واحد منهم فقال: «فإن زعموا - أي المعتقدون في صلاحهم- أنه من أهل الجذب، وأنه غير مخاطب، فيقال لهم: ما تعنون بالجذب، أجذب أهل الولاية، أم جذب من سلب العقل والدراية، أما الأول، فهو مقام عال، ومرتبة رفيعة، ويتحاشى صاحبها عن ترك المندوبات، فضلا عن الواجبات، والوقوع في المحرمات، وكيف لا وقد جذبته من أوصاف النفس يد العناية، وطهرته من أدناسها، وأبعدته من إيناسها، وإحساسها... الخ »، إلى أن يقول: «وأما الثاني وهو سلب العقل والدراية، فلا يصح في عقل عاقل أن يدعي الولاية فيمن سلب عقله وصار مثل البهيمة، لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا، وقد قال تعالى فيمن سلب التوفيق، وحاد عن سواء الطريق: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ (الفرقان: 44)، وقد علم أن العقل جعله الله تعالى مناطا للتكليف، وأنه لا يسكنه إلا من أحب، وقد امتن به على الإنسان فكيف يكون في نسبتهم، متى كان هم كالأنعام أو أضل وكالخشاش أولياء مقربون، وقد أخبر الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (الأنفال: 22) فهل ترى من أخبر الله عنهم بصفة الشر، أن يكونوا أهل الحضرة والحظوة، وهل معتقد هذا إلا جاهل غبي، أو معاند شقي، عافانا الله مما ابتلاهم، وعافانا مما به أدهاهم ».

وألحق المؤلف بهذه الطبقات، طبقة أخرى تفرعت من أسر دينية أو منسوبة للتصوف فقال في وصفهم: «ظهر منهم العتو والاستكبار، وصار العقب عند الخاصة والعامة في عصرنا ممن لا يلحق لهم شأو، ولا يقاسون بقياس غيرهم، إذا قالوا أولاد فلان، جرى من تفضليهم على جميع الأمة: علمائها، وصلحائها، بل وأولاد سيد المرسلين، فيجعلون لهم من الرفعة والافتخار، ما لم يجعلوا معشاره لأولاد النبي المختار، والكفر أقرب لهؤلاء من الإيمان، والطرد أولى بهم والخذلان.. إلى أن قال فهذه فتنة ومصيبة لا أعرفها إلا في هذه البلدة الظالم أهلها... الخ ».

والحاصل أن هذا التأليف ـ أي (**منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية**) ـ من التآليف التي تعد بالأصابع في المكتبة العربية عموما، وفي المكتبة الجزائرية خصوصا، فإن مؤلِّفه تناول فيه ما يعبر عنه في زماننا هذا، بالحياة اليومية، إذ لم يقتصر فيه على إطارات البلاد من رؤساء الدين الموظفين، وغير الموظفين الذين ركز عليهم تأليفه، وخصصهم بتراجم وافية بشجاعة نادرة، بل تحدث عن أوضاع البلاد في الفترة الحاسمة التي أعقبت انهيار الدولة الحفصية، وتولية الأتراك الذين كان لأسرة المؤلف فضل على تمكينهم من احتلال قسنطينة، ومع هذا فقد احتفظ المؤلف بالنزاهة، حيث عمم انتقاده على ولاة الأتراك المنحرفين، وعلى رؤساء الإقطاع، الذين سماهم باللصوص، وأفتى بعدم عدالة العلماء الذين كانوا ينتصرون لهم، ومن هذه الناحية أقام مؤلف منشور الهداية الدليل على بطلان ما ذهب إليه كثير من كتابنا المعاصرين في تعميم اتهامهم المؤرخين السابقين من أنهم كان لا يعنيهم من تاريخ البلاد إلا حياة الملوك والسلاطين والرؤساء وإهمالهم حياة الشعب، فإن مترجمنا كما نرى أظهر في تأليفه هذا نزاهة وموضوعية وحمل مسؤولية الانحراف الحاكم والمحكوم، ولم يرسل التهم جزافا، بل جسمها في كل منحرف وتعرض من خلال تراجمه إلى حالة البلاد

السياسية والثقافية فذكر المعاهد العلمية والقرآنية بالبلدة- أي قسنطينة- وبقمم الجبال، كما أحصى الثورات التي اندلعت في عهد الأتراك بتفصيل قل ما تعرض لها غيره، وألقى أضواء على صفحات من تاريخ تونس ـ لا زالت مجهولة في تفاصيلها ـ خصوصا عندما استنجد ملكها الحفصي بالطاغية شارلكان على خير الدين واغتنم الملك الحفصي هذه الفرصة فانتقم من خصومه شر انتقام، ومن هؤلاء الخصوم، جد المترجم، يحيى بن الفكون الذي قتل في حلقة درسه بجامع الزيتونة .

كما تعرض المؤلف لترجمة عالمين جليلين من علماء تونس أوفدتهما الحكومة التونسية لإبرام معاهدة صلح، إثر الأحداث التي وقعت بين الجيش الجزائري والجيش التونسي، وذلك في سنة سبع وثلاثين وألف وهذان العالمان هما أبو إسحاق إبراهيم الغرياني القيرواني، وأبو محمد تاج العارفين العصماني، وفي مدة إقامتها بقصر جابر ـ قرب عنابة ـ اجتمعا بالوفد الجزائري الذي كان من بين أفراده العالم الجزائري أبو العباس أحمد بن الحاجة تلميذ المترجم، الذي حدثهما عن أستاذه عبد الكريم فحملاه إجازتين لشيخه المذكور، هما قطعتان من النثر الفني، أثبتهما المؤلف، وهذان الإلتمسان زيادة على قيمتها الأدبية والتاريخية، فيهما دلالة واضحة على أن الوحدة الثقافية والرابطة الإسلامية بين العلماء المسلمين، كانت حقيقة، فإنه رغم الخلافات السياسية والظروف التي ورد فيها هذان العالمان للحدود الجزائرية حملا زميلهم الجزائري، الإستجازة لهما من أستاذه الفكون، ولا أظن الوقت يكفينا لعرض نماذج من الفصل الأخير الذي ختم به المترجم تأليفه، وعنونه بقوله: «خاتمة الكتاب في ذكر من أردنا ذكره من الأصحاب والأحباب »، وقد خصَّها لمعاصريه المستقيمي الأحوال، سواء كانوا من الموظفين أو رؤساء الدين، وهي تراجم مفيدة جدا، ومن بين مترجميه فيها أحمد المقري التلمساني، ولمكانة أحمد المقري في تاريخ الأدب العربي، الذي لا زالت جوانب من ترجمه حياته مجهولة، نقتصر

على ذكرها ونختم بهذه الترجمة دراستنا، أسوة بالمؤلف الذي ختم كتابه بترجمته، إذا المقري شخصية كادت أن تكون عالمية، اهتم به وبآثاره كثير من الباحثين، مسلمين وأجانب، ولا زالت جوانب من حياته مجهولة، مثل إقامته بعاصمة الجزائر، وبمدينة تونس، في طريق ذهابه من المغرب إلى المشرق، ومثل الظروف التي غادر فيها البلاد... الخ.

سبق للمقري التعرف بالمؤلف ابن الفكون، وتبادل معه الرسائل وترجمه في نفح الطيب، إلا أنه حدث ما كدر صفو هذه الصداقة وذلك أن المؤلف ابن الفكون سبق له أن كتب جوابا عن سؤال طرحه تلميذه أبو عبد الله محمد بن باديس، وعند اجتماع تلميذه المذكور بأحمد المقري في موسم الحج أطلعه عليه، فعلق عليه المقري، وبعبارة أصح قرظه، وختم تقريظه بالإشادة والثناء على ابن الفكون وأسرته، ومن جملة ما قال في ذلك: «وبالجملة فهو العالم الذي ورث المجد لا عن كلالة، وتحقق الكل أن بيته شهير الجلالة، بيت ابن الفكون هضاب العلم والوقار والسكون لا زال الخلف منهم يحيون مآثر السلف، ودام عبد الكريم فردا في العلم والزهد والولاية، فهو الذي حاز فضل السبق وصار في ذا الزمان آية، والله يبقيه ذا سمو مخلد الفضل والدراية».

فأجابه ابن الفكون بجواب على نمطه، كما وكيف، إلا أنه تبين له أن المقري لمزه في تقريظه، وعد له بعض الهنات، ولذا انفجر، ولم يكظم غيظه وقال في الرد عليه: «الرجل - أي المقري - فرح بما أوتي من فصاحة اللسان، وصوغ الشعر، وحفظ التصانيف والأقوال، وجانبته رياح التوفيق، فتغطى فكره عن اقتناص بنات التدقيق، وهل طلب المولى من العلم إلا العلم، والعلم غير الحفظ، وهو نور يقذفه الله في قلب من يشاء، ثم إذا أنعم المولى على العبد بنعمة الحفظ، أو فصاحة اللسان، إنما تقابل بالشكر الذي هو سبب المزيد، لا بالاحتقار والاستصغار لغيره، وهل ما ناله من كده أو كد أبيه أو جده، إنما الفضل والمنة له لا لغيره: ﴿عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ٢٣٩﴾ (البقرة: 239)

﴿وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴿١١٣﴾﴾ (النساء: 113)، فلا يرى الموفق لنفسه فضلا ولا شفوفا على غيره، ممن لم يصل إلى درجته، هذا هو عين الصواب وطريقة العلماء العاملين، أن لو كان عنده من الحفظ الفهم فيما حفظ، والمعرفة بأبحاثه وتوجيهاته، فما بالك بمن هو جامد في ذلك كما قال في جوابه، إنه منه كالصداء، صوت خال من معنى، ثم أوضح دُخيلاءه، وأظهر ما كمن في النفس من الحسد ورفعة النفس وترفعها.

والحقيقة أن ابن الفكون أطلق العنان لعواطفه الدالة على حساسيته المرهفة، وتعالى في تحامله على المقري الذي ـ وإن ثبت ما سماه المؤلف لمزا أو مسا بكرامته ـ فلا يبرر له ذلك ما كاله من التهم، كالتخلص من المسؤولية، وأن نظرياته سطحية وأنه معجب بنفسه حسود، ثم تتبعه في حياته الخاصة، فاتهمه باستجداء أغنياء مصر وتجارها بالمدح، بعد وصوله إليها، ولا أظن أن المقري لقي في طريقه من انتقده بمثل هذا النقد اللاذع وطعن في عرضه بمثل هذه القساوة كابن الفكون، اللهم إلا إذا كانت بينهما خلافات أخرى لا زلنا لم نطلع عليها، وعلى كل حال، فعلاوة على هذه النواحي السلبية في الترجمة، فإن المؤلف استوعب فيها جوانب هامة مجهولة تماما من مترجميه القدامى والمتأخرين.

والخلاصة أنَّ هذه التَّأليف نفيس جدًّا، حيث لم يقتصر فيه صاحبه على تجسيم المنكر والانحراف عند طبقات معيَّنة كما هو مألوف في كثير من التَّآليف الخاصَّة بمثل هذه التَّراجم، بل سلَّط أضواء النَّقد والتَّحليل على الإطارات الذين كانوا يتمتَّعون بالنُّفوذ والتَّصرف، المستمَدّ من ولاة البلاد ومن الحكَّام بأمر من رؤساء الإقطاع، كما تسلط على طبقة تغالت في الحضارة والرفاهية والترف، فجعلتها مقاييس للنبالة والفخر، كان رؤساء الإقطاع هم المتصرفون في البلاد، إذ كانت الدولة التركية في أول عهدها تستمد من الكثير منهم نفوذها، فجابهم المؤلف، وصار يطلق عليهم ألقاب اللصوص، وكان

صارما على العلماء الذين يستمدون نفوذهم منهم أو يقبلون عطاياهم وجوائزهم، ثم لم يكتف المؤلف بالتنفير منهم بل ألحقهم بمترجميه، فتعرض لتراجمهم، وللطرق التي سلكوها للوصول إلى رياسة قبائلهم.

وأخيرا، إنَّ المؤلِّف كما ذكرنا كان نزيها، حيث إنَّه كان مدينا لولاة الأتراك الذين ولَّوه (مشيخة الإسلام)، و(مشيخة البلد) التي توارثها أفراد أسرته طيلة حكم العهد التُّركي بالبلد، ومع هذا فلم نر في كتابه جملة واحدة أشاد فيها بحاكم من حكَّام الأتراك، بل بالعكس من ذلك فقد كان كثيرا ما يجرُّه سياق الحديث عن مثالب مترجميه، فيتَّهمهم بالتَّزلُّف والتَّملُّق، والرّشاء للقضاة والولاة الأتراك، الذين كان يلقِّبهم بالأعاجم، هذا كلُّه علاوة على ما تخلَّل تراجمه من الحديث عن وضعيَّة البلاد بتدقيق وتفصيل، لا زلنا لم نطَّلع على مثلها في كتب تاريخ هذه الفترة، كالتَّمرُّدات والثَّورات والخلافات التي كانت بين علماء (قسنطينة) والملوك الحفصيِّين بـ (تونس)، ممَّا أدَّى إلى هجرة الكثيرين منهم، ومن بين هؤلاء المهاجرين جدّ المؤلِّف يحيى بن الفكُّون، الذي استشهد في حلقة درسه بـ (جامع الزَّيتونة) كما تقدَّم لنا ذلك، كما تعرَّض المؤلِّف للاتِّصال الذي كان بين علماء (قسنطينة) وعلماء (تونس) لا في المجال الثَّقافي فحسب، بل في المصاهرة.

وفي الختام ألفتُ انتباه بعض الأخوة [إلى] أنَّ الاهتمام بإحياء مجد الأسلاف، واستعراض مآثرهم، هو من أوكد الواجبات على جيلنا، وذلك ليتصوَّر الجيل الصَّاعد تاريخ بلاده على حقيقتها، وعلى ذكر إحياء التراث والاهتمام به، فإنَّ أحد كبار المستشرقين في العصر الحاضر، ألقى في السَّنة الماضية سلسلة بحوث بـ (جامعة باريس) موضوعها:(**نوازل الفقيه ابن عظوم القيرواني**)، ومن بين هذه النَّوازل الفقهيَّة ردُّه على بعض فقهاء (قسنطينة)، الذين كان من بينهم يحيى بن الفكُّون ـ جدّ المؤلِّف ـ.

وفي صيف السَّنة الماضية انعقد (**مؤتمر لدراسة بحوث الحضارات لغربي البحر الأبيض المتوسِّط**) بـ (جزيرة مالطة)، وكان الباحثون يربو عددهم عن الخمسين، تناولوا بالبحث الحضارات المتعاقبة على حوض البحر الأبيض المتوسِّط، كالحضارة اليونانيَّة، والفنيقيَّة، والرُّومانيَّة، فصوَّروها بجزئيَّاتها، لم يغادروا فيها صغيرة ولا كبيرة، ولم يعتمدوا في بحوثهم على آثار كتابيَّة، إذ معظمها مفقود، وإنَّما هم يتتبَّعون ما يعثرون عليه من آثار مادِّية، كالكتابة على شواهد القبور والنُّصب التِّذكارية، وآثار البناءات والأدوات المنزلية، والأضرحة وما إلى ذلك، فمن العار علينا أن نترك تراثنا الكتابي يضيع.

تأثير الثقافة والبيئة الجزائريتَين في شخصيَّة ابن خلدون[1]

بمناسبة انعقاد هذا **الملتقى** الذي نظمه **المركز الوطني للبحوث التاريخية**، إحياء لذكرى مرور ستَّة قرون على ظهور **مقدِّمة ابن خلدون**، التي كتبها بقلعة مِن قلاع إِمارة وانشريس، اخترتُ موضوع هذه الدِّراسة كما يدلُّ عليها عنوانها، وهو: (**تأثير الثقافة والبيئة الجزائريتَين في شخصية ابن خلدون**).

هذا، وإِن حياة ابن خلدون ولو قُتِلت بحثا ـ على حدِّ تعبير المعاصرين ـ فإن مَعينها لا زال لم ينضب بعد، وكذلك آثاره، خصوصا (**المقدِّمة**) التي لا زالت محل اعتناء الباحثين بمختلف اللغات، ومع هذا كله، لا زالت جوانب من حياته، ومن آثاره في حاجة إلى مزيد من التَّحليل وإلى ربط بعضها ببعض، إذ آراؤه دائما في تجدد وتطور، ولهذا نجد كل باحث يعبر عنها حسب رأيه الخاص، كان ابن خلدون كثيرا ما يشير إلى الأحداث التي شاهدها، أو رواها ويكتفي بذكر الخطوط العريضة منها، متجنبا الدخول في التَّفاصيل، وبعض هذه الأحداث التي أشار إليها ومن بينها التيارات الفكرية التي اجتاحت البلاد، اعتنى بها من جاؤوا بعده وخصصوا لها دراسات قيمة، سنتعرض لها في موضعها، وقد تناولها بعض الباحثين كل منهم تناولها ـ كما تقدم ذكره ـ من زاوية خاصة، إنني أركز دراستي هذه على إظهار صلة ابن خلدون بالجزائر، إذ

(1) **مجلَّة الأَصالة**: العدد: 68/ 69، جمادى الأولى والثَّانية 1399هـ/ أفريل ـ ماي 1979م، ص: 111 ـ 119. (ع)

صلته بها لم تكن تلقائية، بل كانت لها سابقية يرجع عهدها إلى حوالي مائة سنة قبل ولادته، وبالضبط من عهد انتقال جده الحسن من الأندلس إلى المغرب العربي، حيث أقام في بونة، وإلى ذلك أشار في حديثه عن جده المذكور بقوله: «ولحق بالأمير أبي زكرياء ببونة فأكرمه، واستقر في ظل دولته، ومرعى نعمته، وفرض له الأرزاق، وأقطع الأقطاع، ومات هناك، فدفن ببونة وخلف ابنه محمد أبا بكر، فنشأ في جو تلك النعمة ومرعاها» اهـ.

ولما انتقل أفراد أسرته إلى تونس حيث ولد، احتفظت الأسرة بأملاكها في بونة إلى أن صودرت وأممت في عهده.

اهتمَّ **ابن خلدون** بترجمة حياته فضمنها **(مقدِّمته)**، وذكر فيها جل أساتذته وخصص من بينهم من لهم الأثر الملموس في تكوين شخصيته كان في طليعة أساتذته المذكورين، أساتذته الجزائريون، الذين تعهدت بذكرهم، كما يدل على ذلك عنوان الدراسة.

إن أساتذة ابن خلدون الجزائريِّين لم تقتصر شهرتهم على بلاد المغرب العربي، بل جاوزتها إلى بلاد الأندلس والمشرق، كما سأتعرض في هذه الدراسة إلى صلته بالقبائل العربية وانطباعاته عنها، تلك الانطباعات التي جرت عليه وابلا من الانتقادات والاتهامات، مثل العصبية، والعنصرية، والشعوبية، وما إلى ذلك، مع أن كثيرا من معاصريه كانوا يشاركونه في انطباعاته عن القبائل العربية، وفي طلعتهم أشهر فقهاء البلاد المالكيِّين، وعلى رأسهم خصمه اللَّدود الإمام ابن عرفة، الذي أفتى بوجوب ردع تلك القبائل وقتالها، وأيده في فتواه جل معاصريه، ولم يتصد أحد من الكتاب بالإنكار على هؤلاء الفقهاء، كما لم يتهمهم أحد بالعداء للعرب أو يمس كرامتهم، مع أنهم شخصوا جرائم تلك القبائل بمزيد من التفاصيل، ولم تقتصر هذه الفتاوى على نشاطات القبائل العربية إذ ذاك، بل شملت أيضا بعض تصرفات القبائل البربرية كما سبق ذلك.

امتاز ابن خلدون بربط صلته المتينة برؤساء القبائل العربية، واطلاعه عن كثب على نشاطاتهم، وتصرفاتهم، ونظم معيشتهم، والأدوار التي لعبوها في بلاد المغرب العربي، هذه النقاط هي التي سأحاول كشف القناع عنها، إذ نظم هذا القبائل تطورت مع مرور الزمن، ولم تبق على حالتها التي عرفت بها عند بداية مسيرتها واكتساحها لبلاد المغرب العربي في أوائل القرن الخامس، استحالت هذه القبائل في عهد ابن خلدون إلى دول تشعر بمكانتها وقوة نفوذها، المستمدين من ضعف ملوك البلاد، ذلك الضعف الناجم عن انحلال وانهيار الدولة الموحدية المركزية التي تقاسم عمالها أشلاءها، فبنو مرين بالمغرب الأقصى، وبنو زيان بالجزائر، وبنو حفص بتونس.

وقبل مواصلة تتِمَّة هذه النِّقاط، أرجع إلى ذكر نماذج مِن تراجم أساتذة ابن خلدون الجزائريِّين الذين كان يعترف بممنونيته لهم، ولنبدأ بالأخوين أبي زيد عبد الرَّحمـٰن وأبي عيسى ابني الإمام التِّلمسانيِّين المشهورين بابني الإمام، ترجمهما تلميذهما القاضي محمد المقري أستاذ ابن خلدون فقال: «رحل الفقيهان إلى المشرق في حدود العشرين وسبعمائة »، إلى أن قال: «... وناظرا التَّقي ابن تيمية فظهرا عليه، وكان ذلك من أسباب محنته، وكان للتقي المذكور مقالات شنيعة، من حمل حديث النزول على ظاهره »، ثم واصل **المقري** ترجمته فقال: «ولما حللت ببيت المقدس عرف مكانتي من الطلب، وتناظرت مع بعضهم، وأتى إلي بعض المغاربة فقال لي:إن مكانك من النفوس مكين، وقدرك عندهم رفيع، وأنا أعلم أخذك عَن ابني الإمام، فإن سئلت فانتسب إليهما، وقل سمعت منهما وأخذت عنهما ولا تعدل عنهما » اهـ.

تعلم ابن خلدون في مراحل حياته الأولى تعليما تقليديا كبقية مواطنيه، إذ كان نظام التعليم متشابها في جل الأقطار العربية الإسلامية، ثم واصل تعلمه في عواصم المغرب والمشرق التي أقام بها، إذ كانت الحياة الثقافية شغله الشاغل كما أنه ولو كانت شهرته في

علمي التاريخ والاجتماع، كان له الباع الطويل في بقية فروع المعرفة وامتاز بدراسة الحكمة ـ التي كانت تطلق على العلوم العقلية التي من بينتها الفلسفة، وقد درسها على أبرز المتخصصين فيها، رغم أن تعلمها كان محاطا بالحذر والتخوف، ولم يغب ذلك عن ابن خلدون الذي اطلع على بعض ضحاياها من بينهم الفيلسوف الصوفي -كما كان يلقبه- أبو عبد الله محمد ابن خميس التلمساني الذي خصصه معاصروه بتراجم وافية كلسان الدين ابن الخطيب، وأبي عبد الله الحضرمي. وقد مثل ابن خميس أمام محكمة استثنائية بمدينة فاس حكمت عليه بالزندقة والكفر، وقد بسط القول في هذه المحاكمة، وفي ظروفها قاضي مدينة تلمسان، ورئيس وزرائها، ابن هدية القرشي في تأليفه:(**العِلق النفيس في شرح رسالة ابن خميس**) وهي الرسالة التي نشرها لسان الدين بن الخطيب وأشار إليها أحمد **المقري** في (**نفح الطيب**) وبقيت لغزا مقفلا إلى أن اكتشف شرحها المذكور منذ سنوات قليلة لخبر يطول، بين ابن هدية القرشي ظروف محاكمة فقهاء فاس لابن خميس وحكمهم عيه بالكفر والزندقة ذلك الحكم الجائر الذي يترتب عليه هدر دمه، لم يخف ابن هدية رأيه في الفلسفة ومنتحليها في عهده، فقال عند التعريف بها: «والفلسفة عند أهل السنة وكافة الأشاعرة عبارة عن الزندقة البحتة، والضلالة المحضة، والكفر الواضح... »، إلى أن قال بعدما حلل مذاهبها وأصحابها: «فوجب تكفيرهم، وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الإسلاميِّين، كابن سينا والفارابي وغيرهما من المهتدين بهديهم المقتدين برأيهم، عليهم لعنة الله أجمعين » اهـ.

كما أخذ ابن خلدون عن أستاذين جزائريين الفلسفة، وهما أبو عبد الله محمد ابن إبراهيم الآبلي، وأبو عبد الله الشريف التِّلمسانيان، وقد نوه بهما عدة مرات، خصوصا الآبلي الذي لم يحظ أستاذ من جميع أساتذته الجزائريين وغيرهم بترجمة مثله، قال في ترجمة أبي عبد الله الشريف المذكور: «أنه أخذ بتونس عن ابن عبد السلام الذي كان

يخلو به في بيته فيقرأ عليه فصل التصوف من **(كتاب الإشارات)** لابن سينا، بما كان أحكم ذلك الكتاب عن شيخنا الآبلي، وقرأ عليه كثيرا من كتاب الشفاء لابن سينا، ومن تلاخيص أرسطو لابن رشد، وكانت له في كتب الخلافيات يد طولى، وقدم عالية، فعرف له ابن عبد السلام ذلك كله، وأوجب حقه، وانقلب إلى تلمسان » اهـ.

لم يصرح ابن خلدون في ترجمة حياته العلمية بالكتب الفلسفية التي أخذها عن الآبلي، وإنما ذكرها في ترجمة أبي عبد الله الشريف، إذ يظهر عليه أنه كان يحذو حذو ابن هدية القرشي في حكمه على الفلاسفة كالفارابي وابن سينا، حيث تعرض في الفصل الذي عقده للفلسفة تحت عنوان: **(إبطال الفلسفة وفساد منتحليها)** قال بعد أن استعرض تاريخ ظهورها من عهد أفلاطون وتلميذه أرسطو: «ثم كان من بعده في الإسلام من أخذ بتلك المذاهب واتبع فيها حذو النعل بالنعل إلا في القليل، وذلك أن كتب أولئك المتقدِّمين لما ترجمها الخلفاء من بني العباس، من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي تصفحها كثير من أهل الملة، وأخذ من مذاهبهم من أضله الله من منتحلي العلوم، وجادلوا عنها واختلفوا في مسائل من تفاريعها، وكان من أشهرهم أبو نصر الفارابي في المائة الرابعة، لعهد سيف الدولة، وأبو علي بن سينا في المائة الخامسة لعهد نظام الملك من بني بويه بأصبهان وغيرهما » اهـ.

ثم حلل ابن خلدون آراء الفلاسفة ومذاهبهم وعقب على ذلك بنقصها، والتحذير من الاشتغال بها، إلا أنه كان حذرا متحفظا حيث قيد رأيه في تعلمها بقوله: «فليكن الناظر فيها، بعد الامتلاء من الشرعيات والإطلاع على التفسير والفقه، ولا يكب أحد عليها وهو خلو من علوم الملة، فقل أن يسلم لذلك من معاطبها، والله الموفق للصواب» اهـ.

ومما يلحق بموقف ابن خلدون من الفلسفة، موقفه من علم النجم الذي عقد له

فصلا في المقدمة قال فيه بعد أن حلل آراء أصحابه ونقضها إلا أنه لم يمنعه ذلك من الاستدلال على صحتها عندما اجتمع بتيمور مدة حصاره لدمشق وذكر له مسألة القرآن الذي كان يترقبه المنجمون ويذكر في ذلك ابن خلدون أنه سأل شيخه أبا علي بن باديس القسنطيني عام أحد وستين بعد السبع مائة عندما لقيه بجامع القرويين في فاس قال: «فقال لي يدل ـ أي القرآن ـ على ثائر عظيم في الجانب الشمالي الشرقي من أمة بادية، أهل خيام، تتغلب على الممالك، وتقلب الدول، وتستولي على أكثر المعمور »، ثم قال ابن خلدون: «فقلت: ومتى زمنه؟ فقال: عام أربعة وثمانين تنتشر أخباره »، ثم واصل ابن خلدون حديثه فقال: «وكتب لي بمثل ذلك زرزر اليهودي طيب ملك الإفرنج ابن إذ فونش ومنجمه »، ثم قال: «وكان شيخه (رحمه الله) إمام المعقولات محمد ابن إبراهيم الآبلي، متى فاوضته في ذلك، أو سألته عنه يقول: أمره قريب ولابد لك إن عشت أن تراه» اهـ.

وكانت آراء هؤلاء المنجمين في القرآن، هي التي أفرغها ابن خلدون في بوتقة أضفى عليها صبغة علمية، وقدمها لتيمور تقربا أو تقية، ونفس ما ذكرته من آرائه في الفلسفة، وآرائه في علم النجم، نجده ينطبق تماما على آرائه في التصوف التي لا يسعنا المجال لتتبعها.

ولنختم بهذا الفصل ما أثير حول نظريته في الفقه، التي أثارها د. طه حسين عندما انتقده انتقادا لاذعا لا مبرر له، ذكر طه حسين في:(فلسفة ابن خلدون الاجتماعية)أن ابن خلدون الذي ادَّعى أنه قرأ **مختصر ابن الحاجب الفقهي** لم يقرأه، ثم وضح ذلك بقوله: «يقرر ابن خلدون أن **مختصر ابن الحاجب** كان من بين الكتب التي يقول إنه درسها في تونس، ويعدُّه ضمن كتب الفقه المالكي في ترجمتهوفي مقدِّمته، مع أن **مختصر ابن الحاجب** ليس كتاب فقه، بل هو كتاب في أصوله الفقه، وهو مؤلف جم الانتشار

لا يزال يدرَّس في الأزهر حتى يومنا هذا، مؤلفه مالكي المذهب، ولكنه لم يقتصر على الفقه المالكي، بل شرح مبادئ التَّشريع في المذاهب كلها، وهو علم خاص» اهـ. ما كتبه **طه حسين.**

وطه حسين في تحامله على ابن خلدون وتزويره عليه أنه ادعى قراءة **مختصر ابن الحاجب الفقهي** « لكي لا يبدو أقل شأنا من منافسيه أساتذة الأزهر » جارى تحامله هذا كثيرا من القدامى والمتأخِّرين الذين يتسرَّعون إلى إصدار أحكام مغرضة على القدامى بالخصوص من دون تثبُّت، وكثيرا ما يقوِّلونهم ما لم يقولوه، أو يخطر لهم ببال، ويعلِّلون اتِّهاماتهم بعلل واهية مرتجلة، مثل ما علَّل به طه حسين دعوتَه، وابن خلدون لم يقتصر على قراءة **مختصر ابن الحاجب الفقهي**، بل قرأه وقرأ **مختصره في الأصول،** وعقد فصلا في **(مقدِّمته)** لا يقلُّ عن الفصول التي خصَّصها لبقية فروع المعرفة التي كانت تدرس في عهده، مِن تفسير، وحديث، وفقه، وأصول... الخ، وقد خصَّص الفقه وأصوله بدراسة هامة، وعندما ذكر **مختصر ابن الحاجب الفقهي** فإنه لاحظ أن ذلك التأليف أحدثَ ثورة ثقافية عند دارسي الفقه المالكي ببلاد المغرب العربي، ولم يذكر ذلك المختصر « لكي لا يبدو أقل شأنا من منافسيه أساتذة الأزهر »، ولا أظن أنه وجد عالم أشاد بالأزهر وبمصر مثل ابن خلدون، ولكن قتل الإنسان ما أكفره، ولذكر ابن خلدون مختصر ابن الحاجب وما أحدثه من تطور في دراسة الفقه ببلاد المغرب العربي خصَّصه كثير من باحثي تاريخ الفقه الإسلامي بدراسات قيِّمة، كانت من بينها دراسة لها أهمية حرَّرها العالم الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور ـ مفتي الجمهورية التونسية في عهده ـ ونشرها قبل موته بشهور في: **(مجلة المجمع العلمي العربي)** بدمشق سنة 1389هـ/ 1969م، نشرها تحت عنوان:**(الثقافة الإسلامية بالمغرب)**، وهذه الدراسة عبارة عن تحليل وتبسيط وتتميم لما قاله ابن خلدون في الموضوع، إذ قال ابن

خلدون في **الفصل** الذي عقدَه لاستعراض تطوُّر قراءة الفقه ما يلي: «إِن ابن أبي زيد القيرواني الفقيه المالكي المشهور جمع ما في الأمهات في (**كتاب النوادر**)... إلى انقراض دولة قرطبة والقيروان، ثم تمسَّك بهما أهل المغرب بعد ذلك، إلى أن جاء كتاب ابن الحاجب فلخَّص فيه طرق أهل المذهب... »، إلى أن قال: «... فجاء كالبرنامج للمذهب »، ثم واصل ابن خلدون حديثه فقال: «ولما جاء كتاب ابن الحاجب إلى المغرب آخر المائة السابعة، عكف كثير من طلبة المغرب، خصوصا أهل بجابة لما كان كبير مشيختهم أبو علي ناصر الدين الزواوي، وهو الذي جلبه إلى المغرب، فإنه كان قرأه على أصحابه بمصر، ونسخ مختصره ذلك، فجاء به وانتشر بقطر بجاية في تلاميذه، ومنهم انتقل إلى سائر الأمصار المغربية »، ثم ختم ابن خلدون فصله بقوله: «وطلبة الفقه بالمغرب لهذا العهد يتداولون قراءته، ويتدارسونه، لما يؤثر عن الشيخ ناصر الدين من الترغيب فيه » اهـ.

أيعقل بعد هذه التحليلات لأثر مختصر ابن الحاجب الفقهي في تطوُّر دراسة الفقه ببلاد المغرب العربي أن ابن خلدون ادَّعى قراءته « لكي لا يبدو أقل شأنا من منافسيه أساتذة الأزهر »، ثم يذكر طه حسين أن ابن خلدون اشتبه عليه مختصر ابن الحاجب الأصلي بالمختصر الفقهي وتعرض حين ذاك بتعريف المختصر الأصلي، وفاته أن ابن خلدون عقد فصلا لأصول الفقه، وذكر مختصر ابن الحاجب الأصلي، فقال: «وأما كتاب (**الأحكام**) للآبلي وهو أكثر تحقيقا في المسائل، فلخصه أبو عمرو ابن الحاجب في كتابه المعروف بـ: (**المختصر الكبير**)، ثم اختصره في كتاب آخر تدارسه طلبة العلم، وعني أهل المشرق والمغرب به وبمطالعته وشرحه » اهـ.

من هذا كله يتبين أن طه حسين يجهل تماما وجود مختصر ابن الحاجب الفقهي، ولا عذر له إن كان يجهل وجوده أن يرمي شخصية مثل شخصية ابن خلدون بادِّعاء قراءة كتاب قبل تثبته.

استفاد ابن خلدون وتأثر بأساتذته الجزائريين وأتأسف لضيق المجال عن تتبع مراحل هذا القسم من حياة ابن خلدون في المجال الثقافي الدال على أن ابن خلدون كان يعطي الأولوية في جميع نشاطاته للثقافة، وفي ذلك قال عندما عين رئيس وزراء مملكة بجاية « وقدمني ملك بجاية للخطابة بجامع القصبة وأنا مع ذلك عاكف ـ بعد انصرافي من تدبير الملل ـ إلى تدريس العلم أثناء النهار بجامع القصبة، لا أنفك عن ذلك »، وقد احتفظ لنا التاريخ بوثيقة هامة يذكر فيها صاحبها مناخ بجاية الثقافي مدة إقامة ابن خلدون فيها، وأخذه عن عالم بجاية أحمد ابن باديس.

ولننتقل إلى القسم الأخير من المحاضرة وهو ما يتعلق بتأثير البيئة الجزائرية في حياته، ولم أقصد من البيئة الجزائرية العواصم العلمية والسياسية التي أقام بها وخصصها بجل نشاطاته، بل أقصد بيئة القبائل العربية التي نالت حينذاك نفوذا قويا وسلطة ممتازة، كان يخضع لها الملوك والسلاطين.

وعملا بالقول المأثور وهو: ما لا يدرك كله لا يترك جله، نقتصر على ذكر أشهر هذه القبائل، وإن كان ابن خلدون عدد جلها، وذكر أنه كانت له علائق مع جميع رؤسائها، ففي الشرق الجزائري كانت قبيلة الذواودة، وفي غربه كانت قبيلة بني عامر، وفي الوسط كانت قبيلة سويد، كانت صلة ابن خلدون وثيقة بهؤلاء الرؤساء، وكان ملوك البلاد لا يجهلون هذه الصلة، إذ كل منهم يلجأ إليه عند الأزمات ليستعمل نفوذه في صالح مملكته.

إن الحديث عن هذه القبائل وتطورها، وشعور كل من رؤسائها بقوة نفوذه وهيمنته على إقطاعه، ذلك النفوذ الذي كان له أثره عند عزمهم على تولية ملك أو عزله كانتصار سويد، لملوك بني مرين الذين مكنوهم من احتلال الجزائر ربع قرن، ومن الأدوار التي قامت بها قبيلة بني عامر في أواخر عهد ملوك بني زيان، وشاهدها الرحالة عبد البسيط

المصري في رحلته وشبه قبيلة بني عامر بقبيلة آل فضل بالجولان، أما الذواودة فهم الذين ساعدوا ملك قسنطينة على احتلال مملكة بجاية التي كان ملكها أخاه، وكان ابن خلدون رئيس وزرائه، كان رؤساء هذه القبائل كما سبق لنا ذكره يتشبهون بالملوك يولون العمال والقضاة في مناطق نفوذهم، يجمعون في بلاطاتهم الشعراء والفقهاء، يتخذون خزائن الكتب، يدعون الشرف أو على الأقل الانتساب إلى بعض الصحابة، ويأنفون من الانتساب إلى القبائل التي وردت على البلاد في مسيرة بني هلال، بل الكثير من شعرائهم ـ مثل الشاعر الشعبي ابن السويكت السويدي ـ يذكرون أنهم جاءوا مع الفاتحين الأولين، ذكر الفقيه يحيى أبو زكرياء المغيلي قاضي مازونة وتلمسان في عهده، في كتابه **(الدرر المكنونة في نوازل مازونة)** في **(باب الجهاد)** ما يلي: «سأل بعض فقهاء بلادنا – وهو الفقيه أبو العباس أحمد المريض– سأل شيخه الإمام ابن عرفة، عن قضية قتال بني عامر وسويد عام ستة وتسعين وسبعمائة »، إلى أن قال ونص السؤال عن اختصار لبعض ألفاظه: «... جواب سيدنا أمتع الله بكم عن مسألة: هي جماعة في مغربنا من العرب تبلغ ما بين فارسها وراجلها قدر عشرة آلاف أو تزيد، ليس لهم حرفة إلا شن الغارات، وقطع الطرقات على المساكين، وسفك دمائهم، وانتهاب أموالهم بغير حق، يأخذون حرم المسلمين أبكارا وثيبا، قهرا وغلبة، هذا دأب سلفهم وخلفهم، مع أن أحكام السلطان أو نائبه لا تنالهم، بل ضعف عن مقاومتهم فضلا عن ردعهم، بل إنما يداريهم بالأعطية، والإنعام ببعض بلاد رعيته، ونصب عمالهم فيها، وقطع نظر عمال السلطنة عن النظر في جنايتها، وفضل أحكامها إلى أن قال: «فأمرنا بقتالهم، وصرحنا بأنه جهاد » لما قاله مالك في المدونة، فاجتمع الناس على قتالهم فهزمهم الله، وقتل منهم كثير، فأنكر علينا بعض المنتمين للعلم بهذه البلاد بل كلهم، فاستظهرنا عليهم بنصوص المذهب الخ.. فأجابه ابن عرفة بالتأييد والموافقة، وطرح نفس السؤال على فقيه تلمسان ومفتيها محمد العقباني وهذا نصه: «وسئل الحفيد سيد محمد العقباني عن هؤلاء الأعراب المتغلبين على البلاد،

لضعف السلطنة، أحيانا يكونون مخالفين على السلطان كما يفعل عرب بلدنا مثل بني عامر وسويد، يعمد أحدهم إلى تولية قاض في وطنه، بلا أمر الإمام، فيقضي، هل تصح توليته؟ وتنفذ أحكامه؟ ويعمل على خطابه؟ أم لا؟» اهـ.

وما ذكرناه عن أفراد هاتين القبيلتين الشهيرتين وغيرهما، كان ابن خلدون اتصل برؤسائها اتصال ود وصداقة، وانفرد بدراسة خفايا نظمها والاطلاع عن أسرارها، إذ كثير ما التجأ إلى الحياة في ربوعها.

والخلاصة أن ابن خلدون الذي سجل أحداث زمانه وصور القبائل العربية على ما كانت عليه في حياتها اليومية، إذ كانت رغم تطورها مع الزمان، كانت تحتفظ على نظم حياتها العريقة، من ذلك أنه لا يهمُّها إلا مصالح القبيلة، وكان يشارك ابن خلدون في انطباعاته عنها الرأي العام الذي كان يمثله فقهاء البلاد الذين أفتوا بجواز الجهاد فيهم كما أفتوا بجوازه في القبائل البربرية التي كانت تشاركهم في الفعل، ومنها قبيلة بني تيغريت إحدى قبائل مملكة وانشريس التي اعتكف ابن خلدون في إحدى قلاعها لتأليف تاريخه، وكل ما يمكن أن يؤخذ به ابن خلدون عن انطباعاته، أنها اتخذت سلاحا للحط من قيم العرب ومؤهلاتهم في المجال الحضاري فرادى وجماعات، وإذا تتبعنا أمثال هذه التصرفات الفردية أو الجماعية المرتبطة بأزمنتها، نجد أرقى الأمم الحضارية لا تخلو من أمثال هذه التصرفات الهمجية في فترات من تاريخها ومن ذلك ما قام به الجيش الفرنسي إثر الاحتلال مباشرة مدة ثلاث سنوات، وسجلها الباحثون والمؤرخون الفرنسيون أنفسهم كما أيدها كثير من المسؤولين منهم في تقاريرهم الخاصة.

كما اتصل ابن خلدون برؤساء القبائل العربية، وتداخله في استمالاتهم لملوك عهده جرت عليه التهم وفقدت منه الثقة، ولم يكن يخف أن رؤساء القبائل في عهده هم ذوو النفوذ المطلق بخلاف الملوك الذين كان يرتاح إلى حماياتهم، ويتهمهم بعدم الوفاء، وكيف

يرتاح لحماياتهم، وقد شاهد ما هم عليه من الكيد لبعضهم بعض فالولد يغتال أباه، والأب ولده، والأخوة يستعينون على بعضهم بعضا بألد أعداء دولهم.

وقد عقد ابن خلدون فصلا سجل فيه التدهور وبدايته وأسبابه، وذلك من منتصف القرن الثامن، وقد غلب عليه اليأس من تحسن الأحوال، بل كان ينتظر الكارثة وانفجار البركان، وقد صرح بذلك في بعض كتاباته لصديقه لسان الدين ابن الخطيب الذي كاتبه من تونس، وقال له بعد أن وصف له حالة البلاد الحالكة وختم فصله بقوله: «إلا ما يشمل البلاد من تغلب العرب ونقص الأرض من الأطراف والوسط، وخمود ذبال الدول في كل جهة، وكل بداية إلى تمام» اهـ.

فابن خلدون سجَّل وقائع زمانه بما فيها من محاسن أو مساوئ، ثم إن إقامته بالجزائر وتجوُّله في ربوعها، واختلاطه برؤساء قبائلها، وسكناه في مخيماتهم، ثم التفرُّغ لتأليف كتابه في قلعة مِن قِلاعهم، جعلته ينفرد بالحكم على أحداثِ زمانه، حكمَ خبير شاهد عيان، لا أقلَّ ولا أكثر.

وثائق أصيلة تلقي
أضواء على حياة الأمير عبد القادر(1)

إنَّني بمناسبة إحياء ذكرى وفاة الأمير عبد القادر المئويَّة، وإجابة لرغبة مجلَّة: **(الثَّقافة)** التي أعدَّت لهذه الذِّكرى عددا خاصًّا، اخترتُ أن يكون عنوان دراستي: **(وثائق أصيلة تلقي أضواءً على حياة الأمير عبد القادر)**.

إذ حياة الأمير ولو حظِيت بمئات التَّآليف والدِّراسات بمختلف اللُّغات، إلاَّ أنَّ مواضيعها انصبَّت جلُّها على الجانب الحربي من حياته، أمَّا الجانب الثَّقافي فما زال في حاجة إلى مزيد من التَّحقيق والتَّصحيح والتَّوضيح.

ولمَّا منَّ الله علينا في هذه السَّنوات الأخيرة بكثير من الوثائق الجوهريَّة الأصيلة، اغتنمتُ هذه الفرصة لتركيز هذه الدِّراسة على بعض هذه الوثائق، والتَّعريف بها، حتَّى يتسنَّى لي أو لبعض الباحثين نشرها بتمامها، إذ لها أهميَّة عظمى، والأمير عبد القادر كما هو معلوم نشأ نشأة دينيَّة أثَّرت في سلوكه الشَّخصي قبل توليته وبعدها، إذ كان سلوكه في حياته اليوميَّة قبل مبايعته سلوك زعيم ديني، ولم يحد عنه قيد أنملة، ولمَّا بُويع بالمملكة اتَّخذ مثَله الأعلى سيرة الخلفاء الرَّاشدين، فاتَّخذ دستوره القرآن، واختار إطاراته من رجال الدِّين ورؤسائه، كما سنبيِّن ذلك بتفصيل في موضعه.

أمَّا الوثائق التي أشرنا إليها فمعظمها اكتشِف بعد استقلال البلاد، وأهمُّ هذه

---

(1) مجلَّة **(الثَّقافة)**، عدد خاص بالذِّكرى المئويَّة لوفاة الأمير عبد القادر، السَّنة: الثَّالثة عشرة، عدد: 75، رجب ـ شعبان 1403هـ/ ماي ـ جوان 1983م. (ع)

الوثائق: رسالة كتبها والده السَّيد محيي الدِّين من جزيرة (**قبرص**) في طريق رجوعه من الحجِّ، وأطلق عليها اسم:(**رحلة**)، رافقه فيها ولده وثلَّة من أعيان مواطنيه.

والوثيقة الثَّانية (**رسالة**) كتبها الأمير بإعانة كاتبه الشَّيخ مصطفى بن التُّهامي، الذي تولَّى قيادة الجيش، وكان ابن عمَّته ومن أعلام (الجزائر)، كتب الأمير هذه (**الرِّسالة**) لماَّ كان أسيرا في (قصر أمبواز)، وهي عبارة عن جواب على رسالة وردت عليه من بعض القسِّيسين الفرنسيِّين، ضمَّنها كاتبُها عدَّة أسئلة تتعلَّق بحياته الثَّقافية، وحياة والده، والظُّروف التي تولَّى فيها الحكم، فأجاب عنها الأمير ولو بتحفُّظ، إلاَّ أنَّها وثيقة جوهريَّة صحَّحتْ كثيرا من الأحداث، وهي شهادة عيان، أو ملخَّص لحياته الحربيَّة من بدايتها إلى نهايتها، ولهذا أطلقنا عليها اسم: (**مذكِّرات**).

وقد اكتشفها الأسقف المستشرق (**تيسي**)ـ المساعد حاليا لقداسة الكاردينال ديڤال بـ (الجزائر) ـ ولماَّ قارنَّاها مع الوثيقة الأولى، وجدناها متمِّمة لسابقتها، التي أطلقنا عليها اسم: (**رحلة الشَّيخ محيي الدِّين**).

وهناك وثائق أخرى لا تقلُّ عن هاتين الوثيقتين أهمِّيَّة، من بينها (**مرثيَّة**) لأحد تلامذة الشَّيخ محيي الدِّين، ضمَّنها الفنون التي كان يدرِّسها الشَّيخ محيي الدِّين بـ (**معهد القيطنة**) ـ مسقط رأس الأمير ـ التي أسَّسها والد الشَّيخ محيي الدِّين، السَّيد مصطفى بن المختار، الذي كان بدوره أمثل فقهاء عهده وأدبائه، وقد ترك عدَّة رسائل بخطِّه ووثائق.

وهناك (وثيقة) لها أهمِّية أيضا، هي عبارة عن أرجوزة للشَّيخ مصطفى بن التُّهامي، من نوع (**الغوثيَّة**) أو(الاستغاثة) [1]، نظمها الشَّيخ مصطفى بن التُّهامي في (**قصر**

---

(1) وهذا النَّوع من التَّأليف قديم في تاريخ الأدب العربي، ومن أشهر المؤلَّفات فيه، تأليف الأديب القرطبي ابن بشكوال، سمَّاه: (**كتاب المستغيثين بالله تعالى عند المهمَّات والحاجات، والمتضرِّعين إليه بالرَّغبات والدَّعوات، وما يسَّره الله لهم من الإجابات والكرامات**).

أمبواز)، صوَّر فيها حالته وحالة رفقائه أيَّام الأسر، وهي تحتوي على حوالي خمس مائة بيت... الخ.

وسنضيف لما ذكرناه من هذه الوثائق ما يسع ويسمح لنا به مجال هذه الدِّراسة.

ولنرجع إلى الحديث عن بعض هذه الوثائق، ولنبدأ بالأولى التي أطلقنا عليها اسم: (**رحلة السَّيد محيي الدِّين**)، فقد كتبها كما ذكرنا في طريق رجوعه من الحجِّ إلى أخيه السَّيد علي أبي طالب، الذي خلفه كعميد للأسرة بـ (**القيطنة**)، وننشر منها بعض فقرات، وهذه (**الرِّسالة**) نُقلت من خطِّ الشَّيخ محيي الدِّين، نقلها الشَّيخ محمَّد بن الحاج الجيلاني الذي كانت له صلة بالشَّيخ محيي الدِّين وبوالده الشَّيخ مصطفى بن المختار، وكان محمَّد بن الحاج الجيلاني[1] هذا، من بيوتات العلم بـ (**مجَّاجة**)، وقد احتفظ بعدَّة وثائق ورسائل، وكان هذا العالم يتولَّى في العهد العثماني [منصب] أمير ركب الحجَّاج، تلك الإمارة التي كان العثمانيُّون في عهدهم يولُّونها لأهل العلم والفضل، وقد استهلَّ الشَّيخ محيي الدِّين رسالته بما يلي: «من أفقر الورى ... محيي الدِّين بن مصطفى ابن المختار إلى صِنْوِنا سميِّ غوث المواهب، سيِّدنا علي أبي طالب (صانه الله ورعاه)...»، وبعدما ذكر والدته السَّيدة: فاطمة (أعلى الله درجتها، وضعَّف خدمتها، وأطال مع السَّلامة والأعمال الصَّالحة بقاءها)، ذكر عالم (القيطنة) محمَّد بن ناصر، ثمَّ قال: «وشيخنا سيِّدي محمَّد بن عابد، وابنتنا الزَّهرة، وشقيقتنا خديجة، وعمّنا سيِّدي عبد القادر، وكافَّة أهل (**الجيطنة**)ـ هكذا رسمها بـ (**الجيم**) ـ والطَّلبة وجميع القرابة»، إلى أن قال: «والسُّؤال عن كافَّة أحوالكم، جعلها مولانا على وِفق مُرادكم،

---

(1) وبواسطة **محمَّد بن الحاج الجيلاني** تعرَّف والد **الأمير** وجدُّه **مصطفى** بأسر علميَّة شرقَي البلاد، كأسرة **البركاني** بـ (**شرشال**)، وأسرة **ابن علاَّل** بـ (**القليعة**)، الذَين وجدا فيهما **الأمير** بعد توليته أنصارا، خصوصا البطل المثالي **ابن علاَّل**.

فقد أنعم الله علينا بتمام الحجِّ والعمرة، فلله الحمد والمنة، فقد يسَّره الله علينا مع تضييق الزَّمان علينا، لأنَّ أهل (**مصر**) امتحنوا بالفتنة، وامتنعوا من الذَّهاب في البرِّ وعطَّلونا ـ وقصده بالفتنة: ثورة المماليك على أمير(**مصر**) ـ إلى أن قال: «وعطَّلونا إلى الثَّاني عشر من ذي القعدة ...».

ثمَّ قال: «وعجَّل الله علينا بفضله فمكثنا في البحر ثمانية أيَّام، الحاصل بين (**مكة**) و(**مصر**) أربعة عشر يوما، ووقفنا بالأربعاء ... »، إلى أن قال: «إنَّ السُّلطان ـ أي: أمير (**مكَّة**) فيما يظهر ـ حاصر خلقا كثيرا من الحجَّاج المغاربة، وأجبرهم على الخروج ليجعلهم عسكرا يتقوَّى بهم على الوهَّابيِّين »، والحرب التي تحدَّث عنها محيي الدِّين كانت بين أمير (**مكَّة**)، وأمراء (**نجد**) الوهَّابيِّين.

ثمَّ قال: «وكذلك مصير الرَّكب الشَّامي»، ثمَّ ذكر أنَّ المغاربة رفضوا كما رفض أهل (**الشَّام**) التَّجنيد الإجباري، واستعمل المغاربة السِّلاح، ومات من الجانبين أموات، إذ عند تحرير هذه الدِّراسة كانت تحت يدي نسخة مصوَّرة ممزَّقة، ومحا المداد كثيرا من سطورها.

ثمَّ قال: «والحاصل أنَّ الحجَّ كاد أن يمتنع »، ثمَّ تعرَّض لحالة رفقائه من الرَّكب الجزائري، واحدا واحدا، ونسب كلاًّ منهم لبلده، ثمَّ ذكر واحدا منهم فقال: إنَّه اشتدَّ عليه المرض، وطلب السَّماح له بالبقاء في قرية تسمَّى (**أمعان**)، وتولَّى أمره السَّيد محيي الدِّين، فاكترى بيتا، وكانت دراهمه نفذت فباع كساءه ـ أي: محيي الدِّين ـ، الكساء، وتسمَّى: الشَّملة، لا زالت تستعمل لباسا في بعض جهات (**الجزائر**)، وهي اللِّباس الرَّسمي للهيئة الدِّينيَّة بـ (**وادمزاب**) (**العزَّابة**).

وهذه (**الرِّسالة**) التي أطلقنا عليها اسم:(**رحلة**)، طولها:(44سم)، وعرضها:(28سم)، وعدد سطورها: (54سطرا)، وكلُّ سطر يحتوي على:(22 كلمة أومفردة).

فبعد اكتشاف هذه الوثيقة بخزانة آل الشَّيخ **محمد بن الجيلاني** بـ (**مجَّاجة**) حوالي سنة1965م، اطَّلعنا على الوثيقة الثَّانية التي اكتشفها الأسقف (**تيسي**)، وكانت في خزانة أسرة أقاربه (جاك شوفالي) رئيس المجلس البلدي بعاصمة (**الجزائر**) في عهده، وقد ورثها من مكتبه قريبُه الجنرال (**بواصونت**) [1]الذي كان من الضُّبَّاط الذين تداولوا على حراسة الأمير عبد القادر مدَّة إقامته في (**قصر أمبواز**)، فلمَّا قضى منها وطرا ـ [أي:] (**الأسقف**) ـ قدَّمها مالكها (**جاك شوفالي**) هديَّة إلى (**وزارة قدماء المجاهدين**)، وقد أهداها الوزير بدوره إلى (**المكتبة الوطنية**)، حيث اطَّلعتُ عليها وخصَّصتُها بعدَّة محاضرات في (**المركز الوطني للبحوث التَّاريخيَّة**) بـ (**الجزائر**)، وفي (**كلِّية الشَّعب**) بـ (**قسنطينة**)، ثمَّ في (**الكوليج دو فرانس**) بـ (**باريز**)، حيث شاركتُ في ملتقى أقامه(**الكوليج دو فرانس**) موضوعه: (**حياة الأمير عبد القادر بالمشرق**)، وذلك في: 20مايسنة 1977م، وكان منالمشاركين في (**ملتقى باريس**) الذين تحدَّثوا عن هذه (**المذكِّرات**): الأستاذ (**ميشال شودكياو ياز**) ـ مدير دار النَّشر بـ (**باريز**).

أمَّا (**المذكِّرات**) فقد وصف فيها الأمير (**رحلة**) والده إلى الحجِّ بتفصيل، بعدما أطلق سراحه (**الباي حسن**) بـ (**وهران**)، وذلك حوالي سنة 1241هـ، وكان يرافقه في هذه الرِّحلة ولده الأمير، وهذه (**الرِّحلة**)[2] وإن كانت معروفة لدى جلِّ مترجمي ومؤرِّخي حياة الأمير، إلاَّ أنَّها كانت مجهولة في تفاصيلها، إذ ابتدأها الأمير بفائدة عظمى، وهي أنَّ والد الأمير السَّيد محيي الدِّين سافر صحبة الرَّكب الرَّسمي الذي

---

(1) كان حاكما عسكريا بـ (**قسنطينة**)، ولماَّ عيِّن مراقبا للأمير اشتهر باختياره إرسال الشَّيخ الشَّاذلي ـ عالم (قسنطينة) ـ لمؤانسة الأمير.

(2) كثيرمن المؤرِّخين طرحوا السُّؤال عن (**رحلة محيي الدِّين**) ولم يجيبوا عنه، إذ أعوزهم التَّحقيق والدَّليل.

يترأَّسه (**الباي حسن**)، وكان ذهابهم بحرا، أمَّا الأمير فقد ذهب مع قافلة الحجَّاج برًّا، وبيَّن فيها مراحل المسيرة من (**سيق**) إلى (**تونس**)، حيث التقى مع والده، ومن (**تونس**) ذهبوا بحرا إلى (**الإسكندرية**)، حيث وجدوا في انتظارهم عميد الأسرة (**الكيلانية**) بـ (**بغداد**) جاء لاستقبال والده واستضافته ومرافقته إلى (**بغداد**)، إذ كان الشَّيخ محيي الدِّين ووالده الشَّيخ مصطفى من مريدي (الطَّريقة الكيلانية) ومقدِّميها بـ (**الجزائر**)، وقد عثرنا على كثير من رسائلهما في الموضوع، بخطوطهما، احتفظت بها أسرة الشَّيخ محمَّد بن الجيلاني المجَّاجي، الذي كان من مريديهما، ثمَّ ذكر أداءهم لفريضة الحجِّ، واجتماعهم بالحجَّاج، وفي (**مكَّة**) بلغهم خبر ثورة الشَّيخ التِّجاني على (**باي وهران**)، وأنَّ التِّجاني قُتل في (**معسكر**)، وبيَّن الدَّاعي إلى ثورة التِّجاني، ثمَّ تعرَّض بهذه المناسبة إلى أنَّ أخا التِّجاني الثَّائر هو الذي تمرَّد على الأمير بعد مبايعته، وبيَّن أسباب محاربته إياه، وحصاره الطويل في مركزه (عين ماضي)، وهذا الذي ذكره الأمير هو ما قاله في رسالة خاصَّة هي ضمن الوثائق الأصليَّة، كتبها الأمير لبعض لائميه الذين اتَّهموه بمحاربة التِّجاني للتَّنافس الموجود بين الطَّريقتين، القادريَّة والتِّجانيَّة، فنبَّه الأمير في رسالته وتبرَّأ من تهمته إيَّاه بالباطل وبيَّن موقف التِّجاني الذي رفض اتِّباع إجماع الأمَّة التي بايعت الأمير، وأنَّه اعتدى على كثير من مواطنيه بغير مبرّر... الخ

وهذه الوثيقة ـ أي: الرِّسالة الخاصَّة ـ التي كتبها الأمير في عهد المحاربة، تؤيِّد ما ذكره عند تحريره لـ (**المذكِّرات**) فيما يخصُّ الخلاف بينه وبين التِّجاني.

تمتاز هذه (**المذكِّرات**) بوصفها أيضا لحالة البلاد الثَّقافية ـ أي: بلاد (**الرَّاشديَّة**) ـ التي كانت عاصمتها (**معسكر**)، ونالت مكانة بوَّأتها التَّخصُّص في عِلمَي الفقه والتَّوحيد، وأهمّ ما وصفه الأمير في استعراضه لحالة البلاد الثَّقافية مدَّة قرنين، هو تعرُّضه لسند علماء (**أمّ عسكر**) وناحيتها، ببقيَّة علماء البلاد الجزائريَّة في تلك المدَّة.

ولنرجع إلى الحديث عن (**المذكِّرات**) التي تقدَّم لنا الحديث أنَّها اكتشفها الأسقف (**تيسي**)، وهي عبارة عن كرَّاس عادي كُتب عليه بالفرنسيَّة: (تاريخ الأمير عبد القادر، نقل من مخطوط السَّيد الحاج مصطفي بن التُّهامي، كتب بعضه بخطِّ الأمير سنة 1849م).

وهذه (**المذكِّرات**) كما سبق لنا ذكره، هي عبارة عن رسالة كتبها بعض القسِّيسين الفرنسيِّين إلى الأمير عبد القادر بواسطة الضَّابط المكلَّف بحراسته في(**قصر أمبواز**)، طرح عليه فيها بعض أسئلة، طالبا منه بإلحاحٍ الجوابَ عنها، وهذه بعض الفقرات تهمُّ موضوعنا من هذه الرِّسالة، فبعد الحمدلة والتَّصليَّة على النَّبيِّ ﷺ، قال كاتبها: «من عبد الله القبطان فلان إلى المعظَّم المحترم السَّيد الحاج عبد القادر بن محيي الدِّين أعزَّه الله وأرشده» آمين، اعرف أنَّه طالب منك مزيَّة، وهي أن تكتب لي مع وسع الخاطر جميع حوادثك، تبدأ إن شاء الله بحوادث سيِّدنا سيِّدي الحاج محيي الدِّين (رحمه الله)، وتذكر في كتابك أشغال[1] تاريخ ما صار من الأمور العجيبة التي تتعلَّق بأحوالك بعد ابتداء صباك إلى وقتنا هذا، من سفرك إلى المشرق وتوليتك سلطنة العرب، وتأويلك مع ترتيب العسكر، وبناء الأبراج والمدائن، وقوام المخزن، وتقويم أمر الشَّرع، وما جرى لك مع الجنرالات من أمر العافية والفتن، خصوصا فتنة (**موزايا**) و(**لمدية**) مع الجنرال (**دوفيقة**)، والجنرال (**لامورسيار**)، وما جاء في ذهنك[2]عندما التقيتَ بولد السُّلطان في مرسى (**الغزوات**) حاكم مملكة (**الجزائر**)، وتبيِّن ما كان مقصودكَ في الجملة مع أمور الدُّنيا، وما تلوم وتشكي عند الفرنسيِّين، وإذا رضيت تزيد ما يظهر لك منهم ومنك في

(1) يظهر أنَّ الرِّسالة كتِبت بالفرنسيَّة، ثمَّ ترجمت إلى العربيَّة، وكان المترجم ضعيفا في اللُّغة إلاَّ أنَّها مفهومة المعنى.

(2) أي: انطباعاتك.

الماضي، وما تقضي إذا كنت في مضربهم، وما تدبِّر لهم في مصالح المسلمين الذين لم يقبلوا الهجرة وقبلوا حكمهم مشروطا ببقاء ثبوت دينهم، وتفصِّل وقائعك مع سلطان **(الغرب)**، واعلم أنك إذا قبلت كلامي وفعلت بمزيتي تنفع إن شاء الله، وتبطل جميع كذب الكذابين الذين كذبوا عليك وعلى حوادثك في**(القوازط)** وفي المكاتب، ويصفى القول والمقال من تكثير كذب الكذَّابين عليك، ولك الأجر التَّامُّ من الملك العلاَّم، والله يوفِّقنا للخير بجاه أهل الخير، خامس عشر جمادى الأخيرة سنة أربع وستِّين ومائتين وألف اهـ».

هذا الكتاب الذي ضمَّنه كاتبه أسئلة طرحها على الأمير وألحَّ عليه بأن يجيب عنها في صالحه، وقد علَّق عليه السَّيد مصطفي بن التُّهامي بما يلي: «هذا آخر مكتوب للقبطان، فلمَّا قرأ مولانا (أيَّده الله) مكتوبَه، واستوعبَ معانيه كلِّها، كلَّفني (أعلى الله مقامه، وأعان علينا وعليه عوايد برِّه بصلاح الحال والمآل) بأن أجمع ذلك على ما طلب ذلك كاتب المكتوب، فأجبته بالموافقة، واثقا بإعانة المالك، وسالكا صحَّة المسالك، ومرتجيا نفعا دنيويًّا مآله الصَّلاح الدِّيني بحول الله وقوَّته ».

هذا ما علَّق به الكاتب مصطفى بن التُّهامي على الكتاب الموجَّه للأمير وتولَّى تحريره، الذي لا شكَّ فيه أنَّ الأمير كان يشاركه في الصَّغيرة والكبيرة منه، إذ ظروف نقل بنود المعاهدة التي أبرمها الأمير بـ **(جامع الغزوات)** قبل مغادرته البلاد، وشرطه تمكينه من السَّفر إلى بلاد المشرق جعله يجيب عن الأسئلة التي طرحت عليه بتحفُّظ وحذر، خصوصا وأنَّ خصومه العسكريِّين الذين كان في طليعتهم الماريشال **(بيجو)**، واتِّهامه إيَّاه بأنَّه يدا في قتل أسرى معركة سيدي إبراهيم، ومطالبة الرَّأي العام الفرنسي بأن تعامِل فرنسا الأميرَ معاملة مجرِم حرب، فكانت هذه الرِّسالة ليست مجرَّد رسالة شخصيَّة يريد صاحبها الاطلاع على نبذة من تاريخ حياة الأمير من بدايتها إلى نهايتها،

ولكنَّها كان وراء كاتبها مسؤولون كبار، يعطفون على الأمير، وثبت لديهم أنَّ الأمير بريء من دماء أسرى واقعة سيدي إبراهيم، وقد أَثبتتْ بعد ذلك الوثائق الحربيَّة السِّرية التي كانت في مستودعات (**وزارة الحرب الفرنسيَّة**)، وقد نشر معظمها بعض الباحثين، وفي طليعتهم الجنرال (**آزان**)، الذي خصَّص لواقعة سيدي إبراهيم وقتل الأسرى تأليفا كتبه ونشره بعد مرور مائة سنة على تلك الواقعة ـ أي: سنة 1948م ـ سماه:(سيدي إبراهيم)، كما أنَّ الأسئلة التي طرحها أصحابها على الأمير هامَّة جدًّا ومفيدة، إذ طلب من الأمير إفادتهم:

1) بترجمة والده.
2) ترجمة حياته الشَّخصية، بداية من نشأته في(**معهد**) والده، وسفره مع والده إلى الحجِّ.
3) الظُّروف التي بويع فيها.
4) تكوين جيشه، وتنظيم مملكته... الخ.

وأخيرا ألحُّوا عليه بأن يجيبهم ليبطل جميع كذب الكذَّابين الذين كذبوا عليك وعلى حوادثك في (**القوازط**)ـ أي: الصَّحافة ـ ...الخ.

وقد تعرَّض الأمير في أجوبته فحقَّق أحداثا هامَّة، كقضيَّة شيخه أحمد بن الطَّاهر (**قاضي أرزيو**) الذي حكم عليه بالإعدام، وقضيَّة بعض خلفائه كالحاج محمَّد العريبي الذي أشاع خصومه أنَّه مات مسموما لما دعاه الأمير إلي (**معسكر**)... الخ.

كلُّ هذا لا يجعلنا نشكُّ في الجو العكر الذي ساد البلاد إذ ذاك كانت البلاد خصوصا النَّاحية الغربيَّة ما زالت تحت تأثير حكم القبائل المخزنية ـ إدارة الحكم التُّركي ـ وقد ساد البلاد إثر احتلال الفرنسيِّين مباشرة لـ (**الجزائر**) و(**وهران**) جو الفوضى والاضطراب، وكان هذا الجو هو السَّبب في الدَّعوة إلى مؤتمر البيعتَين: الأولى

والثَّانية، إذ جلُّ مَن حضر، خصوصا في البيعة الثَّانية التي وقعت في **(جامع حسن)**، بحي:**(عين البيضاء)**، بمدينة **(معسكر)**، وحرَّر فيه الشَّيخ **ابن آمنة** ـ خال الأمير ـ وثيقة المبايعة التي وقَّعها العلماء المؤتمرون، فجعلوا من الأسباب الدَّاعية إلى جمع المؤتمر ومبايعة الأمير، انتشار الفوضى إذ ذاك، وممَّا يؤيِّد هذا وثيقة أصيلة لها أهمِّيَّة يصف فيها صاحبها حالة البلاد إذ ذاك، أي إثر الاحتلال الفرنسي لمدينتي **(الجزائر)** و**(وهران)**، والوثيقة هي عبارة عن تأليف صغير يحتوي على حوالي ثلاثين ورقة سمَّاه صاحبه: **(زهر البساتين في بيان الاسم الأعظم بالأدلَّة والبراهين)**، ومؤلِّفه هو كما عرَّف نفسه في التَّأليف فقال: «وبعد، فيقول الفقير إلى الله محمَّد العربي بن أويس بن محمَّد بن عبد القادر بن أحمد المعروف بابن خدَّة الرَّاشدي أصلا لطف الله به اللطف الجميل وخار له المقام والرحيل... لماَّ وهن العظم منِّي واشتعل الرَّأس شيبا، وبلغت من الكبر ما ينيف على نيف وستِّين، وعلمت النَّفس علم يقين أنَّها راحلة في عسكر الرَّاحلين، وعضل الدَّاء وعزَّ الدَّواء، وفقد الأطباء ولاسيما هذه السَّنة التي هي المحرَّم سنة 1248، فقد اشتدَّت فيها المحن، وكثرت الفتن من يوم خربت (الجزائر) وثغر (وهران) بسبب الرُّوم الفرنسيس ـ كذا بخطِّ يد المؤلِّف ـ وذلك أوَّل المحرَّم الحرام، فاتح المحرَّم1246هـ فخلت الأرض من الحكَّام، وكثر القتل والهرج والخصام، وتعطَّلت الشَّرائع، وعمَّت الذَّرائع، وذلك من عمالة (تونس) إلى بلاد (وجدة)، والمؤمن في حيرة كالشَّاة في اللَّيلة المطيرة، وإن كان للحكَّام ظلم وجور فهم أولى من أهل الفسوق والفجور، وبفقد الحكَّام يفسد الدِّين والدُّنيا، ويموت الإنسان ميتة الجاهلية، فالتجأتُ إلى الله في جمع تأليف يكون إعانة للطَّالب في كلِّ المطالب، وفي كلِّ طريق كالرَّفيق الشَّفيق، وكنت في أوان الشَّباب، قد فتح الله علينا في كثير من علم الأسماء والحروف والأوقاف والحساب، بعد التَّضلُّع في السُّنة والكتاب، أردت بحول الله وقوَّته أن أجمع سفرا وسيطا، لا مختصرا ولا بسيطا، مشتملا على فضل الدُّعاء ورفعة شأنه، والاسم

الأعظم وتبيانه، مضيفا إلى ذلك ما شاء الله من أدعية الإجابة والقبول، وأسباب بلوغ المقصود والمأمول، مؤيَّدا بآيات قرآنية، وأحاديث نبويَّة، وحكايات صوفيَّة، وسمَّيته:(**زهر البساتين في بيان الاسم الأعظم بالأدلَّة والبراهين**)... الخ».

مؤلف هذا الكتاب -كما ذكر- يجتمع مع الأمير عبد القادر في جده الرابع أي عبد القادر بن المختار المشهور بسيدي قادة الذي أطلق اسمه على روضة أسرة الأمير وبعد الاستقلال أطلق اسمه على القرية إلا أننا لم نعثر له -أي المؤلف- على أثر ما عدا هذه الرسالة التي لها أهمية عظمى في موضوع بحثنا، ويظهر المؤلف أنه كان من ذوي الغيرة والواقعية حيث فضل حكم الحاكم مع الجور على الارتجال والفوضى.

وقد تعرض بعض المؤرخين الذين كانت لهم مكانة في البلاد على وصف هذه الفترة التي حدد بدايتها المؤلف ومن هؤلاء المؤرخين مسلم بن عبد القادر الحميري كاتب بايات وهران الذي عاش بعد انتهاء حكم الأتراك، إذ توفي سنة 1249م، ومن جملة تآليفه – التي رغم أن لغتها مهملة ضعيفة – فلها وزنها إذ صاحبها مارس الحكم مدة طويلة وشاهد جلاء العثمانيين واستسلام باي وهران، وقد امتاز في تأليفه بالنزاهة والوفاء، فقد اعترف بما ارتكبه العثمانيون من غلطات إلا أن هذا لم ينسه الاعتراف لهم بالشجاعة والإقدام. ومن تآليفه أرجوزته في تاريخ الجزائر التي تحتوي على 143 بيتا وقد استهلها بهذه الأبيات:

ثغـر الجزائـر بـه حـل الـبلا ... فانحل عقد النظم منه وخـلا
قد جهز الأصفر جيشا فاجتمع ... وحث في السير حثيث المنتجـع

وحالة البلاد التي وصفها قريب الأمير عبد القادر في تأليفه: (**زهر البساتين**)، ومسلم بن عبد القادر الحميري في أرجوزته التاريخية ليست بالأمر الهين، إذ الأمير لقي عراقيل وصعوبات عندما بويع وشمر على سواعده لتكوين دولة مثالية، فان التفت

جل القبائل حوله في المعارك التي بينه وبين الفرنسيين في غابة مولاي إسماعيل وفي خنق النطاح وكان يقودهما والده محيي الدين وكان حظ التاريخ أن سجلهما الشاعر الشعبي الشهير الحاج عدة التحلايتي ـ من نواحي مدينة سيق ـ وأشار الأمير نفسه إلى معركة خنق النطاح إذ فيها ظهرت شجاعته وانتشرت في جميع الأوساط حيث تمكن من اختطاف ولد أخيه محمد السعيد من صفوف الأعداء، كانت المعركة الأولى بغابة مولاي إسماعيل قرب سيق وقد استهلها الشاعر التحلايتي بقوله:

يـــــا ســـــايل راني نعظـــــم	في ذا الجـــــيش الي تلايـــــم
امشــــي للبهجـــة ايـــزادم	واعمل خصلة ضارب أعدا الرحمـٰن

إلى أن قال:

ســيدي محيــي الــدين دبــر	في ذا الــرأي وجــا امزيــر
في ســيق انــزل يــا الحــاضر	هــو والمــبروك الفحــل ابــن زيــان
مــن ثــم ركبــوا العــاصر	الأقطاب اجتمعوا واتفقوا في ديوان
خليفـــة للجهـــاد لبـــى	واجمـــع قومـــان الغرابـــة
قــال لهــم مــا كــان هربــة	من هدر في الغيب يـاك اليـوم يبـان
للميمــــر نعططــــوا مكبــا	والي مـات امنـازلو جنـة رضـوان

ثم وقعت بعد ثلاثة أشهر المعركة الثانية التي سجلها الشاعر التحلايتي المذكور وهي أيضا تحت قيادة محيي الدين وتلميذه الشيخ عبد القادر بن زيان دفين مقبرة سيق وهي التي وقعت في خنق النطاح على أبواب وهران:

يـا سـائل نعيـد لـك هـاد الغيـوان	يـوم تحركـوا نجوعنـا لـبلاد الـروم
الأقطاب اثنين جمعوا في هذا الديوان	وانصرهم يـا الطالـب الحـي القيـوم
حمر اللحية الفحل الشيخ ابـن زيـان	يبغـي الجهـاد قـدها عـز المضـيوم

محيي الدين الـوقيح زيفـط للعربـان جاتـه الإسـلام كافـة تـرأس وقـوم

أمحـــال قويـــة تلمـــت يـــا فرســـان لا من يحصي اعدادها هيلات اطموم

كجعبـــوني غرابتـــي عـــز عـــلي على الاعلاج يا مـلاح احملهـم جـار

اخـــبرهم راه شـــاع في كـــل ثنيـــة دمار بين الجهـول واشـبوب الي بـار

وهاتان القصيدتان هامَّتان في موضوعهما، خصوصا وأنَّ هذه الثَّانية ذكر فيها صاحبها القبائل التي لبَّت دعوة الشَّيخ محيي الدِّين واحدة واحدة، إذ لم تمرَّ إلاَّ مدَّة قليلة حتَّى انفصل عن الأمير مصطفى بن إسماعيل، العضد الأول لـ (باي وهران)، ولحق به بقيَّة رفقائه، وقد سجَّل هذه المعركة أيضا الأمير عبد القادر الذي قال:

ألم تـــر في خنـــق النِّطـــاح نطاحنـــا غـداة التقينـاكم سـجام لهـا النـوى

وكـــم هامـــة ذاك النهـــار قـــددتها بحـل حسـامي والقنـا طعنـه شـوى

وأشـــقر تحـــت كلمتـــه رمـــاحهم مرارا ولم يشك الجوى بل ومـا التـوى

بيـوم قضى ـ نحبـا أخـي فـارتقى إلى جنـان لـه فيهـا النبـي الـرضى أوى

فـلما ارتـد مـن وقـع السـهام عنانـه إلى أن أتـاه الفـوز بـرغم مـن عـوى

ومـن بيـنهم حملتـه حـين قـد قضـى وكـم رميـة كـالنجم مـن أفقـه هـوى

ويـــوم قضـــى تحـــت جـــواد برميـــة وبي أحدقوا لولا أولو الباس والقـوى

وقفنا وقفة قصيرة لوصف حالة البلاد إثر الاحتلال الفرنسي، وانحلال الحكم العثماني، فالأمير عبد القادر أمكنه بعد مبايعته التي عُرضت على والده واعتذر عن قبولها، كان يتمتَّع بسمعة طيِّبة في الأوساط الغربيَّة، كرجل دِين، وكانت الصِّفات التي راعاها فيه الشَّعب قبل ظهور سمعة والده البطوليَّة هي التي خاطبه بها أحد تلامذته

عندما ألقيَ عليه القبض وسجن بـ (وهران)، خاطبه تلميذه الشَّيخ **السَّنوسي**[1] بن عبد القادر الرَّاشدي الدَّحَّاوي بهذه الأبيات:

عــوِّل عــلى الصــبر لا تفزعــك ولا ترعــك بــما فاجتــك وهــران

إلى أن قال:

لم يثقفـوك أمحيـي الـدِّين عـن زلَّـة رأوا ولكـن أشـقى القـوم شـيطان

إنَّ العواقـــب في القـــرآن ثابتـــة للمتَّقــين وصــدق القــول قــرآن

وأنـــت والله لم تـــزل عـــلى ســـنَّة يهـدي إلى الحـقِّ لم يملـك طغيـان

تقر الضُّيوف وتسعى في حـوائجهم وتحمــل الكــلَّ لا غــشَّ ولا ران

تبيت بين الدُّجى تتلو المفصَّـل عـن قلـب وتصـبح مثـل البـدر تـزدان

تـــدرِّس العلـــم مـــرَّة وثانيـــة تلقِّــن الــذِّكر والفــؤاد يقظــان

والله أســـــأل أن أراك منطلقـــــا تسعى وما حواليك حراس وأعوان

هذه القصيدة تصوِّر لنا كمرآة صافية، حالته وما كان يتمتَّع به من حبٍّ وتقدير في أوساط النُّخبة من مواطنيه، الذين كانوا يمثِّلون الرَّأي العام في البلاد، وهذه هي الصِّفات التي روعيت عند مبايعة الأمير، وما أعقبها من الدَّعوة إلى الجهاد، إذ زيادة على قيادة السَّيد محيي الدين للجيش الذي حارب في المعركتين السَّابقتي الذِّكر، فالشَّاعر سجَّل أنَّ محيي الدِّين هو الذي دعا القبائل للجهاد ولبوا دعوته ثم أن القبائل التي ذكرها واحدة واحدة ـ أي: التي شاركت في المعركة ـ كانت تمثل الطبقتين، طبقة المخزن ـ الجيش الموالي للباي ـ وجيش الطلبة والفقهاء وبعبارة أوضح الطبقات الشعبية المبايعة للأمير وإلى ذلك أشار الشاعر بقوله:

---

(1) **السَّنوسي بن عبد القادر الرَّاشدي**: تخرَّج من (الأزهر) هووأخوه، وأخذا عن مُرتَضى الزَّبيدي، ولهما (فهارس) مشهورة في الشَّرق.

محيي الدِّين الـوقيح زيفـط للعربـان جاتـه الإسـلام كافـة تـرأس وقـوم
أمحــال قويــة تلمــت يــا فرســان لا من يحصي أعدادها هيلات اطموم

ولهذا إن خسر الأمير بعض أفراد الجيش النِّظامي ورؤسائهم، خصوصا بعد تداخل السَّاسة والضُّبَّاط الفرنسيِّين، الذين كوَّنوا المعارضة وغذَّوها بجميع أنواع الإغراءات، وإحياء الضَّغائن، ودوس المعاهدات، كما فعل (**تريزيل**)**بمصطفى بن إسماعيل** وبعض رفقائه، فقد بقي أفراد الشَّعب محافظين على ولائهم له، وقاسموه حلو الحياة ومرَّها.

إذ لا يخفى على أحد أنَّ حرب **الأمير** مع الفرنسيِّين من بدايتها إلى نهايتها كانت حرب كل وقت ولم يخف يوما من الأيام أنه كان في جميع مواقفه مدافعا، إلاَّ أن ما سجَّله تاريخ هذه الحرب أنَّ معظم المعارك التي خاضها **الأَمير** من بدايتها إلى نهايتها كانت هزائم الجيش الفرنسي فيها شنعاء، وقد امتازت هذه المعارك أيضا بنشر الهلع والخوف في صفوف الجيش الفرنسي رغم أن رؤسائهم هم المبادرون بالشر .

ومن بين هذه المعارك معركة واد المقطع، التي شنها الجنرال تريزيل ومعركة سيدي إبراهيم التي شنها الكولونيل دو مونطانياك، وقد أدان كلٌّ منهما رؤساؤهما، وفي طليعة المدينين لهم الوالي العام بالجزائر الذي وصف هذه المعركة في تقرير سري أرسله إلى وزير الحرب قال فيه: «إن الجيش الذي ذهب من وهران تحت قيادة الجنرال تريزيل لقي شر هزيمة يوم 28/ 06/ 1835 فخسارته تربو على ستمائة جندي مع كل عتادهم... »، ثم قال: «إن الأمير عبد القادر الذي تابع جيشنا في انسحابه ـ أي ما تبقى من الجيش الذي هزم ـ إلى مدينة أرزيو دخل معسكر وكتب لي منها رسالة في غاية الاعتدال ومن حسن الحظ أنه لم يلحق الجيش بأرزيو وإلا لكان من السهل عليه أن يأسره أو يقضي عليه».

كان هذا التقرير يحمل رقم:193 بتاريخ 13/ 07/ 1835م، وقد نشر في مجموع

رسائل الجنرال دروني درلون التي أذنت الحكومة الفرنسية بنشرها بمناسبة الاحتفال المئوي للاحتلال سنة 1930م.

كان الأمير كما ذكر ذلك الوالي العام مالكا لأعصابه فإن نشوة الانتصار لم تفقده رباطة جأشه، إذ ختم كتابه الذي أشار إليه الوالي العام بقوله: «وإنكم سمعتم بنتيجة عجرفته »، أي: تريزيل الذي خرق **معاهدة دو ميشال،** وكذلك وقع لزميله دو مونطانياك بمعركة سيدي إبراهيم التي خسر فيها الجيش الفرنسي حوالي 500 جندي بين قتيل وأسير وقد خصصها كثير من الكتاب والمؤرخين بدراسات قيمة التي من بينها تأليف مجموع وثائق للجنرال أزان ألفه بمناسبة الذكرى المئوية لهذه المعركة.

ولننتقل إلى الوثيقة التي تحدثنا عنها وقد ضمنها صاحبها الفنون التي كان يدرسها محيي الدين في معهد القيطنة وهي عبارة عن مرثية رثا بها تلميذ من تلامذة محيي الدين شيخه ضمنها الفنون التي كان يدرسها محيي الدين بمعهد القيطنة وهي تعطينا صورة حقيقية عن ثقافة السيد محيي الدين وأن معهد القيطنة لم يقتصر على تعليم القرآن ومختصر خليل بل كانت تدرس فيه فنون كالتفسير والحديث وعلوم اللغة، وصاحب هذه المرثية هوالعالم المحدث الشيخ **محمد بن معروف الونشريسي** المتوفى في تونس سنة 1265 هـ . كما ذكر ذلك تلميذه علي بن الحاج موسى أمام ضريح الثعالبي بالجزائر في عهده وقد هاجر الجزائر بعد الاحتلال وكان الأمير كلفه بترشيح القضاة بناحية شلف وونشريس وقد عثرنا على وثائق تثبت ذلك. وهذه بعض الأبيات من المرثية المذكورة:

وبعـــد فـــإن الله أنجـــز وعـــده   بفقد سخي الكف شيخ الطريقة

نصـيح لكـل المسـلمين دلـيلهم   لسنة خـير الخلـق أزكـى البريـة

إلى أن قال:

يحـق لجفنـي أن تسـيل دموعـه   عـلى سـيد ذي حكمـة وبراعـة

سما وارتقى وساد أهل زمانه بدا يشهد العدول كالمستفيضة

إلى أن قال:

ترى كتب ابن حاجب وخليلنا وألفية ابن مالك مع غنية
وسعد وسلم وجمع جوامع وتفسير ما يتلى كتاب وسنة
يقولون من لنا بكشف رموزنا وحل غريب اللفظ عند القراءة
ومعرفة الصحيح من ضده إذا تعارضت الآثار من غير ميزة

إلى أن قال:

فيا أسفي على ربيع قلوبنا مزيل الصدا عنها بعلم وحكمة
ويا أسفي على خليفة مالك إمامنا محيي الدين شيخ وقدوتي

ثم تعرض لذكر خليفته وهو ولده محمد السعيد فيقول:

خليفته السعيد فأبشر به ترى نفائس علم مع لذيذ معيشة
سعدنا به فالتم شملنا بعدما تفرق صاح مع عظيم مصيبة

ثمَّ ختم منظومته بتعرُّضه للأمير عبد القادر الذي بويع قبل وفاة والده بسنة واحدة فقال:

وزادنا ربُّنا العظيم سعادة بنشأة شمس النَّصر شمس الخلافة
بدت بعد أن عمَّ السَّحاب سماءها فضاءت على الأقطار غربا وقبلة
وقصدي به المنصور عبد القادر به افتخرت أمُّ العساكر جهرة

... الخ

وهذه المرثيَّة وإن كانت لغتها مهلهلة فإنَّ فوائدها جمَّة، إذ هي زيادة على استعراضها

للفنون التي كان يدرِّسها الشَّيخ محيي الدِّين، تعرَّضت لذكر مَن خلف محيي الدِّين في إدارة (معهد القيطنة)، وهو ولده البِكر محمَّد السَّعيد، لا الأمير عبد القادر كما غلط في ذلك كثير من المؤرِّخين، وهو غير صحيح، ومحمَّد السَّعيد وهو الذي اختطف الأمير ولده القتيل الذي استشهد في أوَّل معركة قادها جدُّه، وعمره لم يجاوز (15سنة)، وذكره الأمير في قصيدته التي خصَّصها لمعركة:(خنق النِّطاح).

نكتفي بذكر نبذة من هذه المرثيَّة للدَّلالة على أنَّ محيي الدِّين لم يكن مجرَّد فقيه، ثمَّ نذكر والده مصطفى بن المختار، الذي علاوة على رسائله التي ذكرنا أنَّه احتفظ بها تلميذه محمَّد بن الحاج الجيلاني بـ (مجاجة)، وهي بخطِّه وجدنا (وثائق) فتاوي فقهية قرضها، وكذلك (منظومة) بليغة كتبها في آخر مخطوط نقله لبعض مشايخه، تدلُّ على تضلُّعه في الفقه والأدب، وهذه بعض الأبيات منها، قال:

كتبتـه لصـاحب المجـد العـلى ... الهاشـمي قـدوتنا ابـن عـلي
إمامنـا ذي الشَّـرف المؤثـل ... شـيخ التُّقـى والعلـم والتبتـل
الرَّاشـدي موطنـا ومولـدا ... الحسـيني نسـبا ومحتـدا
قطـب بـدوره صـفوة الإلاه ... بقطرنـا مـن آمـر نـاهي
رئـيس أهـل العلـم والدِّرايـة ... والفقـه والتَّفسـير والرِّوايـة
مولى المواهـب الجزيلـة العـدد ... رفعـه رافعهـا بـلا عمـد

... الخ

هذه نبذٌ ذكرنا فيها ما يتعلَّق بترجمتي والد الأمير وجدِّه، مستقاة من مصادر جوهريَّة، وعزَّزتها (مذكِّرات) الأمير، التي ركَّزنا عليها وعلى غيرها من الوثائق دراستنا هذه، إذ تعرَّض فيها الأميربتفصيل للحياة العلميَّة بموطنه (الرَّاشديَّة) مدَّة قرنين، وأهمّ ما فيها ربط العلائق العلميَّة بينها وبين علماء البلاد الإسلاميَّة، كـ

(الأزهر) وغيره، وقد تحدَّث عن (معهد القيطنة) وتاريخ تأسيسه، فلهذا أردتُ اغتنام هذه الفرصة فأثبت بعض ما يتعلَّق بـ (المعهد) وتاريخ تأسيسه، إذ لا زال تاريخه يكتنفه الغموض، حيث تسرَّبت إليه أخطاء منافية للواقع.

قال الأمير في (المذكِّرات) يتحدَّث عن الحياة العلميَّة، فقال عن جدِّه مصطفى بن المختار إنَّه أخذ عن عبد القادر بن عبد الله المشرفي[1]، وهو أخذ عن المنوَّر التِّلمساني، وذكر أسانيدهما المتَّصلة بعلماء (الأزهر)، ثمَّ استعرض مشايخ جدِّه مصطفى بن المختار ـ المذكور ـ واحدا واحدا من الجزائريِّين، وذكر أسانيدهم المتَّصلة بعلماء المشرق والمغرب، ثمَّ قال: «وأخذ أيضا عن علماء (وهران) كمصطفى بن الهاشمي، ومحمَّد بن قريد، والأوَّل أخذ عن أخيه محمَّد بن الهاشمي، وعن السَّيد الصَّادق بن الحميسي، وعن محمَّد بن عبد الله الجيلالي، وهذا الأخ له طريقان: إحداهما اتَّصلت بالجزائريِّين ـ يقصد علماء مدينة (الجزائر) ـ إجازة إلى المفتي سعيد قدُّورة، وهذا وإن اتَّصل بسنده إلى الإمام سيِّدي عبد الرحمـٰن الثَّعالبي المتَّصل سندُه بالتُّونسيِّين، فقد أخذ جملة العلوم التي حصَّلها جلها عن جملة من الفاسيِّين، كالعلاَّمة أبي حفص عمر الفاسي، والمسناوي، وأبي علي الحسن بن رحَّال، وهم عن أبي علي الحسن اليوسي، المعلوم اتِّصال سنده بشيخه وأستاذه الإمام ابن ناصر، والمذكور قبل والده وهو السَّيد أحمد بن محمَّد شاركه في الأخذ عن والده المذكور، له طريقان، وانفرد هو بالأخذ عن السَّيد العربي بن قيزان، وهو أخذ عن محمَّد بن عبد الرَّحمـٰن الجرجري، وهو أخذ عن المفتي المصري... الخ».

إنَّ عرض الكاتب لنخبة العلماء الذين أخذ عنهم جدُّ الأمير السَّيد مصطفى بن المختار، وذكر أسانيدهم المتَّصلة بعلماء العواصم العلميَّة إذ ذاك، بالمشرق والمغرب، كـ

---

(1) المشرفي هذا، هوالذي عيَّنه الشَّيخ مصطفى بن المختار مديرا لـ (معهد القيطنة) بعد تأسيسه، وهورئيس أسرة علميَّة شهيرة بـ (**الرَّاشديَّة**).

(**الأزهر**)، و(**تونس**)، و(**الجزائر**)، و(**فاس**)، أفادنا كثيرا عن الحياة الثَّقافية.

ثمَّ تعرَّض الكاتب إلى صاحب (**المذكِّرات**)، إلاَّ أنَّ القارئ لربَّما يتصوَّر عند قراءته لعرض أسانيد مصطفى بن المختار المتَّصلة بعواصم الشرق والغرب فقط... فقال: «هذا ما تيسَّر بحسب الوقت من طريقنا العلميَّة، ولا يذهب الوهم بمن وقف على هذه الأسانيد فيعتقد أنَّنا لم نأخذ العلم إلاَّ من بعيد، بل وطننا (**الغريسي**) ـ إذ كانت البلاد تُعرف بـ (**غريس**)، ثمَّ صارت تُعرف بـ (**الرَّاشديَّة**) كما هو معلوم ـ محطّ علم ومحلّ تعلُّم وتعليم، فها هو (الجوزي) في (**عقد الجمان**) لما تكلَّم عن بعض الأجداد المذكورين في النَّسب، قال: «ومنهم أبو محمَّد السَّيد عبد القادر بن أحمد بن محمَّد من أبناء عبد القوي ـ المعروف بابن خدَّة (**مرضعته**) ـ وبهذه الأوصاف حلاَّه الشَّيخ عبد الله الونشريسي في كتابه (**البستان في ذكر العلماء والأعيان**)... »، إلى أن قال: «... ولماَّ صنَّف خطيب (**الجزائر**) ومفتيها سعيد قدُّورة في التَّوحيد، قال: هذا ما جعلته كالتَّكميل لتقييد شيخ شيوخنا السَّيد عبد القادر بن خدَّة، فلابد من الجمع بينهما على أن الجوزي ذكر أنَّ في (**غريس**) كان ما يزيد على مائة قرية، ثم قال ـ أي: صاحب (**المذكِّرات**) ـ قال شيخنا السيد بن عبد الله بن الشيخ المشرفي رأيت كتابا وقفت على تمامه فوجدت الكاتب لما كتب اسمه قال كتبته بقرية أولاد سيدي عثمان ـ ويقال لها أولاد علي بن رتاق ـ وفي القرية ما يزيد على ثلاثمائة مؤلف والقرية هي اليوم خربة تسمى القوارير وبقربها روضة سيدي عثمان بن عمر تحت أم عسكر عند انحصار واد بها إلى الأرض المستوية البطاح.

وقد وجدنا من العلماء المنسوبين لهذه القرية محمد بن عثمان الزروالي المشهور بابن صفية من كبار المؤلفين وابن عمه عبد القادر بن عبد الرحمٰن في مجشر أولاد علي بن زناق تخرج عن محمَّد بن نمازي المكناسي ذكره الصَّبَّاغ في تأليفه: (**شفاء الغليل والفؤاد**

في **شرح النَّظم الشَّهير بالمراد**)، أي:(**منظومة المرادية**)لإبراهيم التَّازي، قال: «وهذا السَّيد أدركه كثير من أهل عصرنا) أي كان من علماء أوائل القرن العاشر ثم واصل صاحب المذكرات حديثه فقال: وناهيك بوطن خرج منه العلامة شيخ الأسلاف محمد المصطفى الرماصي ومن حاكاه من تلامذته كالسيد أحمد بومعزة الذي يسميه أهل الوطن بشرع الواسطة ثم عدد عدة علماء وقال: إن هؤلاء العلماء اشتهروا بالتخصص في علم التوحيد حتى إنَّ العلاَّمة عيسى السَّكتاني، فقيه مدينة (مراكش) وقاضيها، كان كثيرا ما يقول في حاشيته على (**صغرى السَّنوسي**): «هكذا تلقَّيناه من علماء (الرَّاشديَّة)» اهـ.

هذه صفحات ذكرناها من (**مذكِّرات**) الأمير، وما عرَّفها به مالكها بأنَّ بعضها بخطِّ الأمير والبعض الآخر بخطِّ مصطفى بن التُّهامي يلوح لأوَّل نظرة منها، حيث نجد الكاتب عند ذكره للحافظ ابن عبد الله المشرفي ـ حفيد عبد القادر بن عبد الله المشرفي، شيخ **مصطفى بن المختار** ومساعده الأوَّل في (معهد القيطنة) ـ يعبِّر عنه بشيخنا، وهو في الحقيقة من مشايخه الذين انتفع منهم. ووصفُ الحالة الثَّقافية في بلاد (الرَّاشديَّة) وصلة علمائها بعلماء بقيَّة العواصم العلميَّة داخل (الجزائر) وخارجها، كـ (تونس) و(فاس) و(مصر) من الوثائق الهامَّة في تاريخ الثَّقافة الإسلاميَّة.

ولنرجع الآن إلى ما كان سبق لنا ذكره أنَّ الأمير لمَّا بُويع لم ينحرف عن حياته اليوميَّة الثَّقافية، بل كانت حياته حياة رئيس ديني، فإنَّه قال في (المذكِّرات) بعد حديثه عن المبايعة، وعن (صلح دو ميشال): «فأذعنت له الأعراش، وجاءت له الوفود بالهدايا من كل ناحية، فأوَّل شيء ابتدأ به النَّظر في أمر القضاء، واختيار العدل لها في كل موطن، والسُّؤال عن المؤمنين في كلِّ قبيل، لتعيينهم في جباية الأموال، بعد أن ولَّى كبير كلِّ وفد على قبيلته عاملا بالأثر الوارد عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، فحين استقرَّ الأمر وانتظم، واجتمعت الكلمة بـ (أمِّ عسكر) وتعيَّنت له الإمارة في جميع الأرجاء القريبة،

واستمع أهلها للأمر والنَّهي، شرع في السَّفر... »، إلى أن قال: «فابتدأ بمواطن (مينا) و(الشلف) وما والاهما من المحال وغيرهم، فجاء كلُّ رئيس وافد بمن معه من قبيلته، وفد الحاج محمَّد بن سيدي عريبي، وكان الوالد سافر معه في تلك المدة فاستشاره في ولاية ابن عريبي فولاه خليفة على تلك النواحي كلها إلى وادي الفضة – أي ما بين مستغانم ووادي الفضة – (وهي المنطقة التي كان يشغلها الحاج محمد بن عريبي كخليفة في عهد العثمانيين فأقره عليها الأمير بإذن من والده) – ولنقف وقفة قصيرة هنا لنبين أن الأمير لم يقصد بعد مبايعته مباشرة إبعاد أنصار العثمانيين وخصوصا خلفاء البايات وهم مساعدو الباي في مناطق نفوذهم وممثلوه كمصطفى بن إسماعيل وقدور ولد المخفي والحاج محمد العريبي وذهابه صحبة والده لزيارة العريبي وتجديد تعيينه في مركزه استجابة لرؤساء الوفود التي حضرت لدليل على حسن نوايا الأمير. ولنواصل حديثنا عما قاله في المذكرات عن تعيين العريبي خليفة بالمنطقة التي كان يشغلها في العهد العثماني فقال: «إن الذي تولى تحرير رسم البيعة ـ التعيين ـ هو الأديب النبيه الفصيح البليغ السيد محمد بن الطاهر مِن أولاد ابن حواء القاطنين ما بين الفج ومينة وعين موسى، فجاد في ذلك الشرط وأجاد، وبلغ فيه غاية البراعة بلاغة وبراعة وحسن مطلع.

إلا أن الظروف تغيرت وشاءت الأقدار أن يدعى الخليفة العريبي إلى مقر الأمير بأم عسكر ويموت بها، فشاع الخبر بأنه مات مسموما، فعندما وصل الأمير من غيبة إلى معسكر وبلغه الخبر وتحقَّق أن موته كانت بسبب مرض، ذهب إلى أهله وقدَّم لهم تعزيته وبراءته من القتل... ».

إلى أن صف أعداء الأمير كانوا له بالمرصاد فأشاعوا خبر الموت غدرا وخديعة وأنشد صهره الشاعر الشعبي المشهور الشيخ الطاهر بن حواء الذي سبق أن حرر عقد

تجديد تعيين العريبي خليفة وأعجب الأمير في المذكرات وخلع عليه ألقاب: «الأديب النبيه الفصيح البليغ» كما سبق لنا ذكره، قصيدة بليغة مؤثرة أثبت فيها أن صهره العريبي « قتل مكبلا في سجنه »، ودعا إلى إحياء العصبية والأخذ بالثأر إلا أنها كانت صيحة في واد ولم يظهر أثرها إلا بعد مدة حيث التحق ولده ابن عبد الله بالمتمردين كمصطفى بن إسماعيل وولد المخفي وغيرهما وهذه أبيات من القصيدة التي أنشدها الشاعر الطاهر بن حواء الذي قال:

شي نار قلبي وين وين الربيع النجال	فحل الفحول حماد [1] غـاس اخيـالو
الحـزن واجـب علينـا سـيور الجبـال	انطـوى أعلامنـا وانـدرس اصـيالو
والغرب زهرت انجومـه ورجـع لـو	والشرق صد حرمه وانمسى اهلالـو

(يقصد بالغرب: غريس، وبالشرق: نواحي مينا وشلف، مناطق نفوذ الخليفة محمد العريبي).

إلى أن قال:

مـات العقيـد محمـد غـير بـلا قتـال	ولا عليـه هـيلات أطمـوم ايشـالوا
ولا افنـات فرسـانه بـدق النصـال	قعــدوا محــيرين إيــمان واشــمالوا
الأمان وصله لشـمايت عـز الـدلال	طـافوا بغـير حـق امقـدر مقتـالو
قتلوه موت غفلة مـاهوشي بالقبـال	في ديــار مظلمــة متوثــق باكبــالو
مدوا أيديهم غريس وعملوا ما بغاوا	في الشرق ذي المعرة وجريمـة كاينـا
الجبال شوموا طاحوا وامسـاهلها اعـلاوا	ولى الجـران ياكـل ثعبـان اعيانـا
امنين كان عمر انجوعـوا مـا ادواوا	امنــين مــات محمــد زال اهنانــا

(1) **حماد**: يعني به محمد العريبي.

اخشاش الأرض طلت واثعالبها اعـواوا	والصيد ذل ما قعـدت فيـه اخشـانا
اتعلموا الحكومة فينا من لا اسـواوا	ورمـاوا في الجبـل دار فينـا عاهنـا
قتلوا بغير حشمة واسقاو ألي اسقاوا	ولى المـــخ في الكعـــزه يـــا فطانـــا
بحر الجود أو نجدا من كيلو ارمـاوا	أسقى السواحل مـا يهـدد عطشـان

... الخ

هذه المنظومة التي حاول الشاعر أن يثير بها حمية أنصار العريبي إلا أنها لم يظهر لها أثر إلا بعد مدة بعدما تجددت المعارك بين الأمير والفرنسيين، لم يحضر الأمير عند موت العريبي وبعد رجوعه ذهب بنفسه وتبرأ من التهمة أي قتل العريبي وقدم تعزيته لأفراد أسرته .

وقال أن موته كان متسببا عن الوباء وعلى كل أخذت هذه القصيدة حقها من أنصار وخصوم الأمير والذي نتحقَّقُه على أضواء الوثائق والروايات الشفاهية أن الأمير كان صادقا في نيته عندما أراد الاستعانة بخلفاء العهد العثماني، إلا أن الأمير كان محاطا ببعض أفراد حاشيته كثيرا ما يتصرفون تصرفات مرتجلة وفي هذه القصيدة نرى أن الأمير تعرض لقضية شيخه أحمد بن الطاهر قاضي أرزيو الذي سجنه بمعسكر وحكم عليه بالإعدام وهو أقرب الناس إليه ولكنه على حادثه لم يحاول الأمير انتحال الأعذار بل قال إنه قتله لأنه حاول الفرار وكان من السهل عليه أن يقول مثل ذلك في حق العريبي الذي كان أول من أقره من الولاة ـ خلفاء الباي ـ على منطقة نفوذه في العهد العثماني، وبرنامج الأمير الذي تقدم لنا هو محل اتفاق بين معظم المؤرخين الذي ترجموا بداية حياته بعد المبايعة مباشرة فقد لخص المؤرِّخ الفرنسي يليسي دورا ينو في تأليفه (**الحوليات**)، فقال: «كان بسيطا في مسكنه، لا يميل إلى الزخرفة والرفاهية إلا في الخيل والسلاح، ميالا للثقافة يستغرق أوقات فراغه القليلة في المطالعة كما كان يصحب معه

دائما خزانة كتبه، ولم تظهر عليه شارة الملك إلا عند مغادرته لعاصمته، حيث يتَّخذ بيت شعر جميل يسهر مع مساعديه إلى الثُّلث الأوَّل من اللَّيل، ويستيقظ عند صلاة الفجر فيؤمُّ رفقاءه في صلاة الصُّبح، ويجلس أثرها لإلقاء درس في التَّفسير والحديث »اهـ.

وقد أيَّد ما ذكرناه في الموضوع الرَّائد الفرنسي طارطارو الذي زاره إلى عاصمته بعد **معاهدة دوميشال** وكانت أول مرة قابل فيها الأمير مسؤولا فرنسيا قال في تقرير أثبته الأستاذ ايمريت في تأليفه: (**الحياة الثقافية بالجزائر في عهد الأمير عبد القادر**)، وهو مجموع تقارير، قال: «وجدناه في مكتبه الخاص وهو عبارة عن بيت ناصع البياض وعلى يمينه ويساره نحو الأربعين كتابا مخطوطا ومجلدا وكان كاتبه جالسا على يساره وهناك مقعد فارغ يسع أربعة أشخاص والبيت مفروش بزربيتين من نسج القلعة.

ما ذكر الرائد طارطارو وبما سقناه من هذه الشواهد يتبين لنا أن الأمير لم ينحرف عن حياته التي نشأ عليها وبقي وفيا لها إلى وفاته، فمدة أسره بقصر أمبواز تقاسم هو ورفقاؤه التعليم والتدريس.

وتولى هو تعليم الأولاد الصغار القرآن، فالرجل الذي قضى 15 سنة في الملك ولفت أنظار الدنيا واختار تعليم الصبيان على الألواح ليس بالرجل العادي وقد رأينا أنه لما كان في الأسر وكان كثيرا ما ينقصه الحطب فيمتنع من أخذ الزائد على أصحابه فلامه الكولونيل دوماس[1] وقال له: إني رأيت في بلادكم أن الرؤساء يأخذون الإعانات من رعاياهم، فقال له: لو سرت سيرة أولئك الرؤساء لما قاسموني الحياة التي حييتها 15 سنة، وعندما أطلق سراحه وذهب إلى المشرق، وكانت الجراية التي يتقاضاها تجاوز جراية ملوك ذلك العهد، إلا أنه مال للحياة الثقافية والمجالس العلمية.

---

(1) **دوماس**: كان مراقبا له في أمبواز، وقد سبقت له معرفة الأمير، إذ كان يتولى قنصلية معسكر إثر معاهدة دوميشال، ولم يقطع عنه الزيارة بأمبواز.

وهنا أنتقل إلى **الملتقى** الذي أقامه **الكوليج دوفرانس** بباريس وكان موضوعه: **(حياة الأمير عبد القادر في المشرق)**، وذلك في 20 مايو1977، وقد تولى من بين المشاركين في هذه الندوة، وهم على التوالي: الأستاذ جاك بيرك، ثم الأستاذ شوفالي فاجرون، والعبد لله، وكانت لدراسته أهمية عظمى حيث أثبت الجانب السياسي من حياة الأمير في المشرق، وهي أنه لما وقف موقفه المشرِّف إزاء ذبائح المسيحيِّين الذين دافع عنهم دفاع مَن لا تأخذه في الله لومة لائم، انقلب الرأي العام الفرنسي وتبيَّن لهم قيمة الرجل، فرأى نابوليون أن الفرصة سانحة لعرض مملكة المشرق على الأمير، إلا أن الأمير لم يسعه إلا الاعتذار عَن قبولها رغم المغريات، وقال لرسول نابوليون: «إن هدفي لم يكن في يوم من الأيام تولية المملكة، وإنما ظروف بلادي جعلتني أتولَّى الدفاع عنها، فقدتُ جيوشها، وشاء الله أن تطوى صفحة الجهاد، فانتقلت إلى الجهاد الأكبر، وهو خدمة العلم والدِّين».

وهنا علَّق المحاضر على هذه الصَّفحة والظُّروف التي اجتازتها بلاد المشرق فقال: «لم تكن أمنية رجال الحكم الفرنسي العثور على رجل عربيٍّ قويٍّ يتولَّى حكم بلاد المشرق بإعانتهم، بل كان يشارك الفرنسيِّين في البلوغ إلى هذا الهدف الإنجليز أيضا، وقد بلغت إنكلترا هدفها، إذ وجدت الملك فيصل، إلاَّ أنَّ فرنسا من سوء حظِّها وجدت في طريقها الأمير عبد القادر، وشتَّان ما بين الشَّخصيتين».

قد أطلعتنا الصُّحف في هذه المدَّة الأخيرة التي تناولت حياة الأمير، فأدانه كثير مِن الكتَّاب وعدَّدوا زلَّاته وغلطاته، من جملتها إنهاؤه للحرب مع الفرنسيِّين، وتصوَّروا أن الأمير لو ضمَّ جهودَه إلى أحمد باي قسنطينة لانتصَر، وأنه عاش في المشرق مستجديا... الخ.

إنَّ حياة الأمير مملوءة بالعَظمة التي اعترف له بها المعاصرون والمتأخِّرون، وأجمعوا

على نزاهته وزهده وإخلاصه، ليس هذا محلُّها وإنما نكتفي بذكر ما قاله رجل عظيم في الموضوع، وهو الشَّيخ محمَّد بيرم الخامس التُّونسي صاحب الرِّحلة الشَّهيرة:(**مستودع الأبصار**)، وهو زيادة عن علمه وسعة اطِّلاعه على شؤون الدُّنيا شرقا وغربا، تركِيٌّ أصيلٌ، توارث أفراد أسرته مكانات مرموقة في الوزارة وقيادة الجيش بـ (**الأستانة**) و(تونس)، وزار (الجزائر) واجتمع مدَّة إقامته فيها بمفتيها العالم الشَّيخ علي بن الحفَّاف، الذي كان من العلماء الأفذاذ الذين التحقوا بالأمير في أوَّل عهده، وتولَّى إدارة (ديوانه)، و(كتابة سرِّه)، فذكرَ قضيَّة الأمير وأسباب توليته ومواقفه البطوليَّة بعد الفشل الذَّريع الذي أصاب الجيش العثماني، الذي استسلم حقًّا، وبيَّن العالم الخبير التُّركيُّ الأصيل السَّببَ في انهيار الدَّولة العثمانيَّة، نقتطفُ منه هذه الفقرات، قال بيرم في رحلته (**صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**) (ج:4، ص: 8)، طبع بمصر 1303هـ في فصلٍ عقده تحت عنوان: (**تاريخ الجزائر الجديد**)، ملخِّصًا ما ذكرَه عن تطوُّر تاريخ (الجزائر) في العهد العثماني التي أعقبها الاحتلال الفرنسي وأسبابه، قال: «فتحقيق السَّبب هو أنَّ الله إذا تأذَّن في أمَّة باحتلالها، فسدت أخلاق أكابرها ففسقوا فيها، ومن فسوقهم إسناد الأمر إلى غير أهله فحق عليها القول وسلط عليها ما يدمرها وذلك هو الدَّال عليه القرآن الكريم والحديث الشَّريف، وهو المشاهد بالعيان، والمعلوم من التَّواريخ في اضمحلال الدَّول وتقهقرها».

ثمَّ تعرَّض صاحب (الرِّحلة) لظهور الأمير عبد القادر فقال: «ثمَّ أجمعت الجهات الغربيَّة والجنوبيَّة على مبايعة الرَّجل الوحيد، سلالة النَّسل المطهَّر الأمير سيدي عبد القادر بن محيي الدِّين الحسني، وقام لله حقَّ القيام، وصحبته النُّصرة الإلهيَّة في كثير من الوقائع .. ودام محاربا لهم نحو سبع عشرة سنة، واستقامت له الحكومة، فضرب السِّكَّة باسمه، وأنشأ المدافع والبنادق، ونفذ أمره وخشيته فرنسا، ودعا الحاج أحمد باي ليَتَّحدا ويكونا يدًا واحدة فامتنع، تجبُّرا وطغيانا، وخذل الأمَّة إلى أن وهن أمره واستولى

الفرنسيُّون على من كان تحته، وبقي الأمير سيِّدي عبد القادر مدافعا ومهاجما إلى أن سوَّلت الغلطات النَّفسانيَّة المخالفة للدِّيانة الإسلاميَّة لسلطان (المغرب) الإتِّحاد مع الفرنسيِّين على محاربة الأمير المشار إليه، وقطع عنه سلطان (المغرب) خطَّ التجائه جهات الصحراء، فاضطرَّ الأمير إلى التَّسليم... الخ» انتهى ما ذكره بيرم باختصار.

وقال في موضع آخر: «إنَّ الأتراك وبالخصوص (حسين داي) خسر الصَّفقة وفقد السُّمعة وثقة الشَّعب».

وهذه حقيقة تعرَّض لها جلُّ المؤرِّخين الذين تناولوا العهد العثماني قبل الاحتلال الفرنسي مباشرة، كـ (**دليل الحيران في أخبار مدينة وهران**) للزَّيَّاني، و(**المرآة**) لحمدان خوجه، و(**مذكِّرات**) نقيب الأشراف، ولهذا قال بيرم بأنَّ (أحمد باي) يتحقَّق أنَّ سمعة العثمانيِّين ساءت، وقد رأينا أثر ذلك في المقاومة للاحتلال الفرنسي، فإنَّها كانت هزيلة وضعيفة جدًّا، و(باي وهران) نفسه (حسن) لم يقاوم، وإنَّما استسلم بشرط أن يحتفظ بما له، هذه حقائق وما تكوَّنت مقاومة الشَّعب الحقيقيَّة وظهرت آثارها في جميع ميادين القتال إلاَّ بعد أن اختار الشَّعب رؤساءه، وفي طليعتهم الأمير عبد القادر.

وقبل الختام نرجع إلى الحديث عن الوثيقة الهامَّة التي وعدنا بنشر بعضها، وهي (الغوثيَّة) التي نظمها السَّيد مصطفى بن التُّهامي بـ (قصر أمبواز)، ووصف فيها حالة الأسرى المعنويَّة، وقد وصف الجو الذي نُظمت فيه صاحبُ (**تحفة الزَّائر**) حيث قال: «وداومَ الأمير في تلك المدَّة على تدريس العلم وإفادة الطَّلبة من جماعته، ثمَّ سلك أخوه محمَّد السَّعيد، وأخوه السَّيد مصطفى، وخليفته السَّيد مصطفى بن التُّهامي جادَّته، وأفادوا الطَّلبة إفادته، واجتمعوا لقراءة البخاري على نيَّة تفريج كربهم... الخ».

قال مصطفى ابن التُّهامي في تقديم منظومته (الغوثيَّة) السَّابقة الذِّكر: «وممَّا قلتُه مع الرِّضا والتَّسليم للقدر والقضاء، متوسِّلا متضرِّعا معترفا مفصِّلا في الوسائل تارة،

ومرَّة مجمِلا، راجيا النَّفع لي ولكلِّ مَن دعا بها، متبذِّلا ومؤمِّلا حصول كشف الكرب والفرج، ورفع الشِّدَّة عن الدَّاعي... »، إلى أن قال:

لما جرى القدر بالخلاف	ووقع الخلف بالائتلاف
ووجب الوحش بقفر اليم	وألحق النقص ببدر التم
واقتنص الصقر عدو صائد	وللنعام في القرى وصائد
وابتعدت عن العقول حيل	واقتعدت بالاعتراف جيل
لم يبق إلا الابتهال والسكن	للقاهر المالك كل ما سكن

إلى أن قال:

هذا الذي قدمته نجواي	في رفع ضيقي وبلا بلواي
فامنن علينا بصلاح الحال	وأنقذني من شدَّة المحال
مولاي يا ذا المن والأفضال	داوي سقاما دائم العضال
نفسي مع الرفقة والأفذاذ	من ربقة الأسر إلى اللواذ
بمنزل رحب الجناب والسعة	ومسجد جماعة وجمعة

... الخ

إنَّ حياة الأمير لم تتغيَّر من بدايتها إلى نهايتها، ولاسيما هذا النَّوع من الدِّراسات وقد ركَّزناها على الوثائق الأصلية، وإن طرأ شكٌّ لبعض المصطادين في الماء العكر، واتَّهموا الأمير بأنَّه كان يستجدي ويستغلُّ المناسبات لطلب الإعانات، فيكفينا أنَّه عُرض عليه مُلك المشرق العربي من رئيس فرنسا نفسه، وفرضوا له ميزانيَّة تعجز عن مثلها كبار دول الشرق والغرب كما ذكر ذلك الأستاذ (Ageron) في (ملتقى باريز) السَّابق الذِّكر، ورفض وعلَّل رفضه، فمحاولة إلصاق هذه التُّهمة نجد وراءها بقيَّة المسعورين وأذنابهم، وهذه الوثيقة كتبها صاحبها في أواخر حياته الذي كان يتبادل معه المراسلة،

واستوطن (الجزائر) وتولَّى فيها القضاء، وفي بعض أواخر رسائله بلغه أنَّ الأمير اتَّصل ببعض المشايخ وجدَّد عليه العهد الصُّوفي فلم يتمالك هذا القريب وهو الشيخ الطيب بن المختار قاضي بلدية (تيغنيف) فقال في كتابه: «هذا، وقد بلغنا من ألسِنة المسافرين الوافدين من الحضرة الحجازية والدِّيار التهامية، أنَّك اجتمعتَ في سفرك هذا بشَّيخ عارف أخذت عنه، فما كدتُ أصدِّق فيما سمعت بعد أن علمتُ من فضل الله الذي لديكم ما علمت، ولقوَّة اعتقادي فيك، ولحصول العلم الذي لا يقبل التَّشكيك، فقد جلتُ في مشارق الأرض ومغاربها، وسبرتُ الرِّجال وكشفتُ عن حقائقها، وجالستُ بقصد الاستفادة علماءها، وجالستُ برسم التَّبرك شيوخ الطريق وكبراءها، فلا بحرٌ إلاَّ ورفعتَ شِراعه، ولا برٌّ إلاَّ وطئت كما هو معلوم ذِراعه، فصار لي من أنواع الاغتراب ومشاقِّ السَّفر ما لا أصفه من العناء، ثمَّ رجعتُ وأنا بعد ذلك كلِّه، فما رأيتُ مَن ذهبَ بظاهره مع الشَّريعة، ووقف بباطنه مع الحقيقة مثلك، ولا من تعرف من صدور الكراسي والمنابر، وألسنة الأقلام وأفواه المحابر معرفتك، فمقامُك مقام عارف لا مقام مريد، ومثلُك مَن يفيد لا مَن يستفيد .. الخ».

نكتفي بهذه اللَّقطات، من شهادة أحد أكابر العلماء جاب أقطار الدُّنيا، كاتب بها الأمير في أواخر حياته، وأضيفُ إليها ما ختم به نقيب الأشراف بـ (الجزائر) انطباعاته عن الأمير، وقد ختمها بهذه الجمل القصيرة التي قال فيها: «.. والحاصل أنَّ مدَّة ولايته على إقليم (الجزائر)، مدَّة سبعة عشر سنة لم يحصل من دولة الأتراك من الطاعة وطول المدَّة 335 سنة ما حصل له في هذه المدَّة اليسيرة، بسبب عدله وإحياء سنة نبيِّه أحيا الله ذكره في جميع الدنيا».

وقد ردَّد صدى الطَّيب بن المختار ونقيب الأشراف الشَّاعر الشَّعبي الطاهر بن حواء الذي كان يحرِّض قومه على التَّمرُّد على الأمير بعد موت صهره الخليفة محمد

العريبي، وكان طيلة مدَّة حكم الأمير كثيرا ما سجن فلم تمنعه علائق الماضي بعد خلو البلاد من الأمير وصحبه من رثاء البلاد، ضمَّنها قصيدة بليغة عبَّر فيها عن عقيدة الرَّأي العام المسلم النَّزيه، قال:

آه على الدَّولة النَّاعمة السّعيدة

ناس التقى والدين والثقـة والثبـات	والعقــل الــراجح والجــد ونجــدة
بكياسـة ورياسـة وفخـر متواليـات	ساروا بالسـيرة الواضـحة الحميـدة
بهم فرحت الإسلام والخليقة أرضات	بأحكـــام راضـــية هانيـــة ســـعيدة
بهم سعدت الأوطان وانطبع بالحياة	عـــدلوا فيهـــا وأقوالهـــا أرشـــيدة
ما زاغو ما طاغوا مـا الهـاو بالفانيـا	مـا تركـوا حـق ولا ارضـاوا بقـدة

... الخ

هذه حقائق تاريخيَّة تتعلَّق بحياة رجل عبقري فلت به دهره، ركَّزناها على بعض الوثائق الأصلية، والتَّاريخ كما هو معروف حقائق ووثائق، ساهمنا بها في هذا العدد الخاص الذي أصدرته مجلة (**الثَّقافة**)، وأمنيتنا أن يهتمَّ بعض الإخوة الكاتبين بهذه الوثائق، ليحقِّقوها وينشروها فتعمَّ فائدتها، وسيؤدُّون بذلك واجبا نحو رجل لا نبالغ إن قلنا إنَّه فخر للبلاد الإسلامية كلِّها، ومن الأفذاذ الذين لا يجود بهم الزَّمان كثيرا.

المهدي البوعبدلي

الذكرى الثَّمانون لوفاة جمال الدِّين الأفغاني

دور جمال الدِّين الأفغاني في يقظة الشَّرق ونهضة المسلمين[1]

إنَّ الحديث عن جمال الدِّين الأفغاني من مختلف جوانب حياته، يتطلَّب عدَّة

(1) **الأصالة**: العدد: 44، ربيع الثاني 1397هـ/ أفريل 1977م، ص: 27 ـ 40، واعتمدنا أيضا على نسخة مرقونة تقع في (11) صفحة، وبها تصحيحات بقلم الشيخ **المهدي** (رحمه الله تعالى)، كما وقفنا على ورقة منفصلة بقلمه أيضا تابعة لهذا المقال، جاء فيها ما يلي: «هذا عنوان محاضرة كنتُ ألقيتها بـ (**المركز الثَّقافي الإسلامي**) يوم الأربعاء 19 ربيع الأوَّل 1397هـ الموافق لـ: 09 مارس 1977م، وكان من جملة المعقِّبين الأستاذ **عبد الرَّحمن الجيلالي**، فلفت انتباه الحاضرين بأنَّ انخراط الشَّيخ **جمال الدِّين الأفغاني** في (الماسونية) غير مسلَّم، حيث صرَّح بعض تلامذته بأنَّه تبرَّأ منها قبل وفاته، ومن جملة هؤلاء التَّلامذة: الشَّيخ **عبد القادر المغربي**، عضو (**المجمعالعلمي العربي**) بدمشق، وقد اطَّلعتُ على دراسة **عبد القادر المغربي** لـ (جمال الدِّين الأفغاني) التي نشرتها سلسلة: (**إقرأ**)، بعددها: 68، يوليو 1948م، دار المعارف للطِّباعة والنَّشر بمصر، ص: 32، فقال: «وقد نشأ له من جرَّاء صراحته هذه، وتجديده في العلم والدِّين، وفهم الحياة، مريدون كثيرون، فحسده الشُّيوخ ولاسيما مَن يعدُّ قراءة الفلسفة مِن الكفر، ومال إليهم العامَّة، وخاض السَّيد غمار السِّياسة المصريَّة، ونبَّه المصريِّين إلى وجوب تنظيم حكومتهم، فساعد هذا كلُّه على تنكُّر ولاة الأمور له، والخشية منه، ولاسيما بغضه للإنكليز الذي كان يعلنه ولا يخفيه، وانتظم في سلك (**الماسونية**) ليفسح له المجال أمام الأعمال السِّياسية، وكتب مقالات في السِّياسة تولَّى (**غلادستون**) نفسه الرَّدَّ عليها، ووافق ذلك تولية (**توفيق باشا**) للخديويَّة، فلم يطِق الصَّبر على السَّيد، فأخرِج من القطر المصري، فذهب إلى (**الهند**)، وذلك سنة 1296هـ» اهـ. (ع)

مجلَّدات، وقد خصِّص بالفعل بمئات التآليف، ولا زال محلَّ اهتمام الباحثين، وموضوع دراساتهم، وإنِّي استهلُّ هذه (المحاضرة) ببيت شعر للمتنبِّي سبق لبعض مترجميه افتتاح دراسته بذكرها، وهي:

يقولون لي ما أنت في كل بلدة وما تبتغي؟ ما ابتغي جلَّ أن يسمى

فقال المترجم في تعليقه على هذا البيت: لعل هذا البيت لا يصدق على إنسان كما يصدق على العالم المصلح الفيلسوف جمال الدين الأفغاني، فقد كان ذا أمل كبير يدفعه إلى التنقل في شتى الممالك القاصية، لا لينعم بالرحلة الهادئة ذات البهجة والانتعاش، بل ليقيم في كل أرض ثورة، ويشعل في كل مملكة ضراما، وليهدم ما تعفن من الآثار البالية، ويقيم على أنقاضه صروحا عالية من العزة والاستقلال، وإن رجلا واحد يمكنه أن يزلزل الشرق الهامد بصيحته العالية، لجدير أن يكون رنان الصوت، طائر الصيت » اهـ[1].

وإنِّي سأتعرَّض في هذه المحاضرة لنشأة جمال الدِّين، ثمَّ مراحل حياته في البلدان التي أقام فيها، وطبع كل واحدة منها بما خلَّفه فيها من آثار، سواء في الميدان العقائدي أو السِّياسي، ثم أذكر لقطات من انطباعات بعض مترجميه المشهورين بالنزاهة والاطِّلاع على الخبايا، وتقييم الرجال، وألخصُ ما أمكن من النِّقاط البارزة في ترجمة حياته، وأجنِّب المستمعين الدُّخول في التَّفاصيل.

نشأته وشخصيَّته:

هو جمال الدين بن السيد صفتر الأفغاني، ينحدر من سلالة علي الترمذي، المحدث الشهير، الذي لا زال تأليفه يحمل اسمه وهو (**سنن الترمذي**)، والترمذي هذا يرتقي

---

(1) محمد رجب البيومي، كتاب علماء في وجه الطغيان (العدد: 55)، مطابع الدار القومية بمصر.

نسبه إلى سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب (كرَّم الله وجهه)، كما جزم بذلك الشيخ محمد عبده المترجم الأول لأستاذه جمال الدين.

ولد جمال الدِّين سنة 1254هـ الموافق لسنة 1839م، في قرية (أسعد آباد) القريبة من همذان التَّابعة لبلاد فارس، وهو أفغاني لا فارسي، وانتقل بانتقال والده كما نذكر ذلك في موضعه.

كانت أسرة **جمال الدين** تتوارث منزلة علية في قلوب الأفغانيين، ومن ذلك أنها كانت لها السيادة على جزء من الأراضي الأفغانية تستقل بالحكم فيه، ومركز العشيرة كان في كِنَّر[1] من أعمال كابُل[2].

وقد فقدت العشيرة هذه الإمارة في عهد والد جمال الدين، وكان الأمير الذي استلب من الأسرة إمارتها، نقل أفرادها إلى مدينة كابل، ومن جملة المنقولين والد جمال الدين وأعمامه، وفي السنة الثامنة من عمره، أجلس للتعليم على الطريقة المتبعة في البلاد الإسلامية إذ ذاك، وهي لا تختلف كثيرا عن بعضها، وقد أنهى تعلمه في سن مبكرة نظرا لاستعداده الفطري، وقريحته الوقادة وشهرته بالجد والاجتهاد منذ نعومة أظفاره، وبمجرد إتمامه لمعلوماته فارق بلده لأول مرة لقضاء فريضة الحجِّ، وكان ذلك في سنة 1272هـ/ 1856م، وبعد أدائه فريضة الحج رجع إلى مسقط رأسه فقلده والي البلاد دوس محمد خان خطة في الحكم، وكان دوس هذا هو الذي استلب من الأسرة إماراتها، ونقل أفرادها إلى كابل كما تقدم لنا ذلك، وقعت حروب بين دوس هذا، وبعض أقاربه كان واليا على هراة، وكان ذلك سنة 1280 هـ 1863م فمات دوس أثناء الحصار وتولى ولي عهده، ووقعت أحداث بين أفراد الأسرة فتولى بعضهم، وكان

---

(1) قال ياقوت في (**معجم البلدان**): «كِنَّر: بالكسر وتشديد ثانيه وفتحه، وآخره راء».

(2) وقال: «**كابل**: بضم الباء الموحدة» (**معجم البلدان**).

صديقا حميما لجمال الدين، فعينه رئيس وزرائه ثم هزم ذلك الصديق في حروبه، واشتعلت نار الفتنة، فكانت تلك أسباب مغادرة جمال الدين بلاده، وذلك سنة 1285هـ/ 1869م، وكان أول بلد ألقى فيع عصا التسيار، بلاد الهند، ورغم أن حكومة الهند تلقته بحفاوة وإكرام، إلا أنها أشعرته أنه غير مرغوب في طول إقامته، إذ حالت بينه وبين علماء البلاد، ولم تأذن إلا للقليل منهم بالاتصال به، ولهذا كانت إقامته بالهند لم تزد على شهر واحد، وقد ودعته حكومة الهند بنفس التكريم الذي تلقته به عند وروده عليها، ومن ذلك أنها سخرت له الباخرة التي أقلته إلى قناة السويس على نفقتها، فجاء إلى مصر وأقام فيها نحو الأربعين يوما، كان يتردد فيها على الأزهر، ويجتمع بطلبته، ولم تطل إقامته بمصر أيضا، حيث مكث فيها حوالي أربعين يوما، ثم انتقل إلى الأستانة عاصمة الخلافة العثمانية، وبعد وصوله بأسابيع قليلة اجتمع بالصدر الأعظم علي باشا، الذي تلقاه بمزيد من الحفاوة والتبجيل، وصارا متلازمين، وبعد إقامته حوالي ستة أشهر، عين عضوا في مجلس المعارف، فقام بمهمته أحسن قيام، وكان كثيرا ما يقترح إدخال بعض الإصلاحات لتعميم التعليم، فيعارضه بعض زملائه، الذين كان على رأسهم شيخ الإسلام حسن فهمي أفندي، وعند حلول شهر رمضان سنة 1287هـ 1870م طلب مدير: (**دار الفنون**) تحسين أفندي من السيد جمال الدين أن يلقى محاضرة بـ: (**دار الفنون**)، موضوعها (**الترغيب في التصنيع**)، واعتذر لضعف معرفته باللغة التركية، فلم يقبل عذره، فحينئذ، هيأ خطابه كتابة، وقدمه قبل إلقائه إلى وزير المعارف، صفوة باشا، وإلى الحاكم العسكري على شرواني زادة، وإلى منيف باشا، ناظر المعارف، فاستحسنه كلهم، فمن هذه الاحتياطات كلها تبين أن جمال الدين كان على حذر من مكائد خصومه، وكان اتصاله بالجماهير ومخاطبته إياهم أول فرصة يمكنهم استغلالها ضده، وهذا ما وقع بالفعل، فإنهم قولوه ما لم يقله، وأولوا كلامه فاتهموه بالزندقة والزيغ، وهذه التهم هي التي كانوا يروجونها عليه خفية، فلما سنحت

لهم الفرصة اتهموه بأنه في محاضرته بـ: **(دار الفنون)**، زعم أن النبوة صنعة، حيث ذكرها في خطاب يتعلق بالصناعة، ولم ينتظر شيخ الإسلام رد فعل المحاضر جمال الدين، حتى فاجأه بالإيعاز إلى خطاب المساجد، ووعاظها، بإثارة هذه التهمة الملفقة في خطبهم المنبرية، ودروس الوعظ، والاحتجاج على صاحبها بالتنفيذ والتنديد، فعندئذ طلب جمال الدين أن يمكن من الدفاع عن نفسه، ليثبت على رؤوس الملأ بطلان ما رمي به، وذلك في مناظرة بينه وبين شيخ الإسلام، وكان جمال الدين لا يلين في مثل هذه المواقف ورغم موقف أهل الحل والعقد الذين حضر جلهم للمحاضرة، بعد أن اطلعوا عليها قبل إلقائها، ونصحوه بالتغاضي، وعدم الالتفات إلى كيد خصومه، إلى أن يهدأ الرأي العام، فامتنع وأصر في إلحاحه على المناظرة، ولما لم يجب إلى مرغوبه، غادر (الأستانة) مأسوفا عليه من النخبة التي كانت تقدر مواهبه وعبقريته وشجاعته الأدبية النادرة المثالوكانت وجهته مصر.

رجوعه إلى مصر الثانية:

فارق جمال الدِّين (الأستانة) في وجهته إلى مصر في أول محرم 1288هـ/ 1871م، وكان قصده مجرد الاستجمام، وفي مصر اجتمع برئيس الدولة مصطفى رياض باشا فاستماله على الإقامة ورغبه فيها، فأجرت عليه الحكومة المصرية مرتبا شهريا، قدره ألف قرش مصري مجانا، فلازم بيته التي صارت محط رجال طلبة العلم، ونخبة المفكرين المصريين، وكان يتردد على الأزهر أيام الجمعة ولم يؤثر عنه أنه انتصب يوما ما في حلقة من حلقات الدروس، جريا على عادة كثير من العلماء الواردين على مصر، بل كان يلقى دروسه في بيته، وذلك كله محافظة على عدم المس من كرامة مسيريه (الأزهر) واتقاء جرح عواطف فقهاء البلاد المحافظين، ومع كل هذه التحفظات ثار عليه فقهاء البلاد الذين صبُّوا عليه جامَّ غضبهم، واتهموه بما اتهمه به شيخ الإسلام بالأستانة، أي

الزندقة والإلحاد، ولنترك الكلمة لتلميذه الذي عاش معه تلك الفترة، وهو الأستاذ محمد عبده الذي خصص له ترجمة قال فيها مشيرا إلى موقف علماء مصر منه ما يلي:

«هذا ما حسده عليه أقوام واتخذوه سبيلا للطعن فيه من قراءته بعض الكتب الفلسفية أخذبقول جماعة من المتأخرين في تحريم النظر فيها، على أن القائلين بهذا القول لم يطلقوه بل قيدوه بضعفاء العقول، فصار النظر خشية على عقائدهم من الزيغ، أما الثابتون في إيمانهم فلهم النظر في علوم الأولين والآخرين من موافقيه لمذاهبهم أو مخالفين، فلا يزيدهم ذلك إلا بصيرة في دينهم، وقوة في يقينهم، ولنا في أئمة الملة الإسلامية ألف حجة، تقوم على ما نقول، ولكن تمكن الحاسدون من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة إلى رأي هذا الرجل، وأذاعوا ذلك بين العامة، ثم أيدهم أخلاط من الناس من مذاهب مختلفة كانوا يطرقون مجلسه، فيسمعون مالا يفهمون، ثم يحرفون في النقل عنه، ولا يشعرون، غير أن هذا كله لم يؤثر في مقام الرجل من نفوس العقلاء العارفين بحاله، ولم يزل شأنه في ارتفاع، والقلوب عليه في اجتماع، إلى أن تولى خديوية مصر محمد توفيق باشا، وكان السيد من المؤيدين لمقاصده، إلا أن بعض المفسدين ومنهم مستر فيقيان قنصل انجلترا العام سعى فيه لدى الخديوي، ونقل المفسد عنه ما الله يعلم أنه بريء منه حتى غير قلب الخديوي عليه، فأصدر أمره بإخراجه من القصر المصري ففارق مصر إلى البلاد الهندية سنة 1296هـ/ سبتمبر 1871م، وأقام بحيدر آباد... الخ » اهـ.

هذا ما قاله الشيخ محمد عبده في دراسته الخاصة التي نشرتها دار الهلال تحت عنوان: (**الثائر الإسلامي جمال الدين الأفغاني**)، رمضان 1393هـ أكتوبر 1973 م عدد: 274.

وقبل أن نواصل حديثنا عن حياة جمال الدين نقف وقفة قصيرة لمزيد من البيان والتوضيح عن حياة جمال الدين في مصر، التي كانت منطلقا لتعاليمه في البلاد، الإسلامية بصفة عامة، وفي البلاد العربية بصفة خاصة، كما يظهر لنا من هذا البيان أن

الدعوة إلى دراسة الكتب الفلسفية، وتحريض جمال الدين تلامذته على مزيد من الاهتمام بها، ليست هي التي أوغرت صدر الخديوي محمد توفيق، أو وشايات قنصل انكلترا العام، الذي تسبب في إصدار الأمر بإخراجه من مصر التي فارقها للأبد سنة 1296هـ/ 1871م، بل الذي أوغر صدورهم عليه، نشاطاته السياسية، ومن ذلك ما ذكره صاحب كتاب: (**علماء في وجه الطغيان**)، الذي قال في ترجمة جمال الدين وخروجه من مصر مبعدا، قال: «لقد اتجه إلى مصر ليصل رسالته في البعث والإيقاظ، وقد زارها مرتين، فعرف وجوهها وأحوالها، واتصل بأزهرها الإسلامي، ليتخذ من طلابه دعاة يهدون بالحق وبه يعدلون، ولم تكن الأحوال في مصر بأحسن منها في الهند فقد استدان إسماعيل، وبالغ في القرض والتبذير، حتى جرّ الاستعمار إلى وطنه، وقد ألف الناس الاستكانة والانصياع، فأخذ يفتح العيون على ما يجري في البلاد من أهوال، ويتصدر المجالس ليعلن آراءه في الحكام، وبرامجه في الإصلاح، ثم اختار صفوة من تلاميذه ودفعهم إلى الكتابة في الصحف ليصوروا الفساد الداخلي، ويفضحوا الطغيان الخارجي، ثم يرسموا طريقة الخلاص بالاستقلال التام، وإقامة حكومة دستورية تخضع لبرلمان متيقظ، يحاسب على التبذير والرشوة، ويحد من الفردية الدكتاتورية في الحكم والسلطان، وقد عزل إسماعيل في هذه الظروف التي خلقتها مآسيه المتلاحقة وجاء ولده توفيق، وكان ذا صلة بجمال الدين، فأدرك الحاكم الجديد قوة تأثيره، وأراد أن يلاطفه ليرجع عن مبادئه في الحرية والاستقلال، وهما منه، أن الرجل قد يستجيب وينسحب دون ضوضاء، وكان أن هيأ اجتماعا عاجلا في القصر الخديوي، بدأه توفيق فقال مداهنا، مراوغا: إني أحبُّ كلَّ خير للمصريِّين، ويسرُّني أن أرى بلادي وأبناءها في أعلى درجات الرُّقي والفلاح، ولكن مع الأسف، أن أكثر الشَّعب جاهل، لا يصلح أن يلقى عليه ما تلقونه من الدُّروس والأقوال المهيجة، فيلقون أنفسهم والبلاد في تهلكة.

فاعتدل جمال الدين في مجلسه، ثم رفع رأسه ليقول في اعتداد: «ليسمح لي سمو أمير البلاد أن أقول له: إن الشَّعب المصري كسائر الشعوب، لا يخلو مِن وجود الخامل والجاهل بين أفراده، ولكنه غير محروم مِن وجود العالم والعاقل، فبالنظر الذي تنظرون به إلى الشعب المصري ينظر إليكم، وإن قبلتم نصح هذا المخلِص، وأسرعتم في إشراك الأمة في حكم البلاد عن طريق الشورى، فتأمرون بإجراء انتخابات نواب مِن الأمة تسنُّ القوانين، وتنفِّذُها باسمكم وإرادتكم، يكون ذلك أثبت لعرشكم، وأدوم لسلطانكم »، وانتهى اللقاء، بعد أن لمس توفيق خيبة مسعاه، ثم علَّق صاحب المقال على هذه المقابلة بقوله: «لقد كان جمال الدين يدرك بعد هذه المقابلة أن أيامه في مصر محدودة، فانبعث يشعل اللهب بخطبه وأفكاره، وكانت به حدَّة قاسية تلجئه إلى العنف الصريح دون مواربة، فأنشأ محفلا ماسونيا جديدا، بلغ أعضاؤه أكثر من ثلاثمائة عضو من نخبة المفكِّرين والنَّاهضين المصريِّين، وكان في هذا المحفل مطلق الحرية، نظم شُعَبا للأعمال المختلفة، فشعبة للحقانية ـ أي: العدالة ـ وأخرى للمالية، وثالثة للأشغال، ورابعة للجهادية ـ أي للجيش ـ وهكذا لكلِّ وزارة ومصلحة شُعبة، تدرس كل شعبة شؤون وزارتها ومصلحتها، وتعرف ما يقع مِن الظلم ووجوه الإصلاح فيها، ثمَّ كل شعبة تتَّصِل بالوزير المختصِّ، وتبلِّغه رغباتها في أسلوبٍ حازم صريح، فكان لذلك هزَّة في الأندية والمجتمعات » اهـ.

ثمَّ ختمَ دراسته بالظُّروف التي أعقبت نشاطات جمال الدين بمصر فقال: «وصاحب ثورة كهذه الثورة، لا بد أن يحارب بعنف، فقد تعاون الاستعمار الخارجي، والطغيان الداخلي على إبعاده، فغادر مصر، ولكن بعد أن أعدَّ الموقد وأشعل الثقاب» اهـ[1].

وهذه آراء معظم مترجمي جمال الدين عن مدَّة إقامته في مصر، تلك الإقامة التي قال

---

(1) عن كتاب: **زعماء الإصلاح**، نقلا من محمد المخزومي باشا.

عنها بعض مترجميه: «ما من قطر من أقطار الشرق أثَّر فيه جمال الدين، مثل تأثيره في مصر، فهو من أوائل العاملين على تطوُّر الرُّوح الوطني في هذه البلاد»[1].

ومن ذلك أن جل مترجميه اعترفوا أن الثورة العرابية المصرية من أثر دعوته، إذ كان لكلامه أثر عميق في إيقاظ الناس، وتنبيههم إلى حقوقهم، فاتجه الناس إلى نقد تصرفات أصحاب السلطان، وأخذت تتضاءل عقيدة سيادة الحاكم، وحقه المطلق في التصرف في شؤون الرعية والذي استدل عليه كثير من مؤرخي الثورة العرابية هي قوله: «وليس شك في أن لجمال الدين يدا في الحركة العرابية ومن المحقق أن المبدأ الوطني الذي سيطر على تلك الحركة من غرسه »، وأيد نظريته بما كتبه الأمير شكيب أرسلان في الموضوع حين قال: «وان كان هب على ذلك الزرع من سموم الجهل ونقصان التربية السياسية، ولفحة الدسائس الأجنبية، شأن تلك الدسائس على كل نهضة تحدث في الشرق، أو حركة إصلاح تشفق من ورائها الدول أن تتمزق حجب الغباوة التي هي أصدق عوامل الاستعمار»[2].

كما كان لخطبه على قلتها في التجمعات الجماهيرية تأثيرها في الثورة، سجِّلت خطبة قالها في الإسكندرية قبل خلع الخديوي إسماعيل بمدَّة قليلة قال فيها مخاطبا الجماهير: «أنت أيها الفلاح المسكين، تشق قلب الأرض لتستنبت ما تسد به الرمق، وتقوم بأود العيال، فلماذا لا تشق ظالمك؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك»[3].

ولنواصل حديثنا عن مراحل حياة المترجم بعد مغادرته مصر فإنه قصد حيدر أباد بالهند إلا أنه بمجرد اندلاع ثورة عرابي نقل من حيدر أباد إلى كلكوته التي ألزم بالإقامة

---

(1) **الإمبراطورية المصرية في عهد إسماعيل**: لمحمد صبري باشا.

(2) **حاضر العالم الإسلامي**: شكيب أرسلان (ج 2، ص: 289 ـ 303).

(3) **حوليات مصر السياسة**: أحمد شفيق باشا.

الإجبارية فيها، ثم أذن له في الذهاب إلى أوروبا، فغادر الهند ومر في طريقه إلى باريس على لندن، واختار الإقامة بباريس، لما كانت تتمتع به من سمعة اكتسبتها من ثورتها المشهورة، فأنشأ فيها، جريدة (**العروة الوثقى**) التي أسند رياسة تحريرها لتلميذه ـ الذي لحق به فيها ـ وهو الشيخ محمد عبده، وقد تمكن من إصدار ثمانية عشر عددا منها ثم تعرضت طريقه صعوبات، حيث منعت الجريدة من الدخول إلى الهند، وصودر كثير من أعدادها في بقية البلدان التي كانت تخضع للنفوذ البريطاني مباشرة أو بواسطة فخاب أمله في بلاد الحرية وغادرها سنة 1303هـ/ 1885م.

اهتمَّ كثير من المؤرخين بترجمة مراحل حياة جمال الأفغاني، وهذه التراجم وإن اختلفت في بعض تفاصيلها أو في بعض المؤثرات عليها، فكادت أن تتفق في مجموعها على صدق نية الرجل، وشجاعته المثالية، ونزاهته.

وقبل أن نتعرض لنماذج من انطباعات مترجميه نذكر انطباعات بعض المعاصرين منهم على طريقة اللف والنشر الغير المرتب، أي نبدأ بآخر مترجميه الذي قال في ختام ترجمته إياه: «مات جمال الدين في القسطنطينية في أواخر القرن التاسع عشر مصابا بالسرطان في لسانه، ولهجت الألسن بعد ذلك أنه ذهب ضحية خصومه كما هي العادة في الشرق، وهذه شائعة لا أثبتها ولا أنفيها، ولكن ماذا كانت حياة جمال الدين الذي كان من عظماء العالم؟ إنه كان كسقراط في حكمته وقدرته على تكوين الرجال، وكان كابن خلدون في علمه واتساع دائرة معارفه، وكان كديموستين في فصاحته وخطبته، لقد عاش مضطهدا مطاردا، ولم يتمكن في واحدة من الممالك الإسلامية الشرقية التي عاش فيها وأحب خيرها، وخدم شعبها، من أن يعيش عيشة راضية، أو يتمتع بحياة هادية، ولم يؤسس أسرة، ولم يبن بيتا، ولم يدخر مالا، ولم يتول منصبا، بل عاش عيشة الصعاليك المشرَّدين، يبيت ليلته ولا يدري أين يكون صباحه، ومع ذلك فهو الرجل الوحيد الذي أيقظ الشرق من رقدته التي نامها سبعة قرون، منذ اجتاحه المغول من

الشرق، والأوربيون من المغرب، هو الرجل الذي أنهض الشرق بعد أن يئس كل من عداه من إيقاظه» اهـ[1].

وقال عنه الكاتب الفرنسي **أرنست رنان** (Ernest Renon) الفيلسوف الشهير[2] قال: «كنت أتحدث إليه، فكان يخيل إلي من حرية فكره ونبالة طبعه، وإخلاص قلبه، أني أرى وجها لوجه أحد معارفي القدماء، وأني أشهد ابن سينا أو ابن رشد أو واحدا من أولائك الأحرار العظام، الذين مثلوا خلال خمسة قرون، تقاليد الفكر الإنساني » اهـ.

ولنرجع إلى مواصلة الحديث عن نماذج من انطباعات بعض المؤرخين الذين ركزنا دراستنا هذه على شهاداتهم وآرائهم إذ كانوا أدرى الناس بترجمته.

ومن هؤلاء الأمير شكيب أرسلان الذي قال عنه: «كان جمال الدين سيد النابغين الحكماء، وأمير الخطباء البلغاء، وداهية من أعظم الدهاة... فهذا كان المنهاج الذي نهجه عظيما، وكانت سيرته كبيرة، فبلغ من علو المنزلة في المسلمين ما قل أن يبلغ مثله سواه، وكان سائحا جوابا، طاف العالم الإسلامي قطرا قطرا، وجال غربي أوروبا بلدا بلدا، فاكتسب من هذه السياحات الكبرى ومن الاطلاع العميق والتبحر الواسع في سير العالم والأمم علما راسخا واكتنه أسرارا خفية.

وكان **جمال الدين** يعامل سجيته وطبعه وخلقه داعيا مسلما كبيرا، فكأنه على وفور استعداده ومواهبه إنما خلقه الله في المسلمين لنشرة الدعوة فحسب، فانقادت له نفوسهم، وطافت متعاقدة من حوله قلوبهم، فليس من قطر من الأقطار الإسلامية

---

(1) علماء في وجه الطغيان، لمحمد رجب البيومي.

(2) نشرته جريدة (les débats) الباريسية في عددها المؤرخ في 19 ماي 1883، نقله عنه د. عثمان أمين في تأليفه (رائد الفكر المصري محمد عبده) ص: 305. (2) نقل د.عثمان أمين في تأليفه (رائد الفكر المصري محمد عبده) ج 1 ص: 305.

وطئت أرضه قدما جمال الدين، إلا وكانت فيه ثورة فكرية اجتماعية، لا تخبو نارها، ولا يتبدد أوارها، وكان يختلف على **السنوسي** منهاجا، فجمال الدين انكب على السياسة وشؤونها، وذلك ـ أي: **السنوسي** ـ على علوم الدين وترقيتها، غير أن السيد **جمال الدين** الأفغاني كان أول مسلم أيقن بخطر السيطرة الغربية المنتشرة في الشرق الإسلامي، وتمثل عواقبها فيما إذا طال عهدها، وامتدت حياتها، ورسخت في تربة الشرق، وأدرك شؤم المستقبل، وما سينزل بساحة الإسلام والمسلمين من النائبة الكبرى إذا لبث الشرق الإسلامي على حال مثل حاله التي كان عليها، فهب جمال يضحي بنفسه، ويفني حياته في سبيل إيقاظ العالم الإسلامي، وإنذاره بسوء العقبى، فلما اشتهر شأن جمال خشيت الحكومات الاستعمارية أمره، وحسبت له ألف حساب، فنفته بدعوى أنه هائج، ولم تخف دولة جمالا وتضطهده، مثل ما خافته واضطهدته الدولة البريطانية، فسجنته في الهند مدة، ثم أطلقت سراحه، فجاء إلى مصر حوالي سنة 1880م، وكان له يد في الثورة العرابية، التي أوقدت نارها في وجه الغربيين، فلما احتل الانكليز مصر سنة 1882 نفوا جمالا للحال فزايل مصر، وأنشأ يسيح في مختلف البلدان، حتى وصل إلى القسطنطينية، فتلقاه **عبد الحميد** بطل الجامعة الإسلامية بالميزة والكرامة، وقربه منه، ورفع منزلته فسخر جمال السلطان الداهية، بتوقد ذكائه ونفسه الكبيرة، فقلده السلطان رياسة العمل في سبيل الدعوة للجامعة الإسلامية، ويغلب أن ما ناله السلطان عبد الحميد من النجاح في سياسته، في سبيل الجامعة الإسلامية، إنما كان على يد جمال الدين الأفغاني المتوقد الهمة، المشتعل العزم، والتحق جمال الدين بالرفيق الأعلى سنة 1896 شيخا وعاملا كبيرا في سبيل النهضة الإسلامية حتى النفس الأخير من أنفاسه» اهـ كلام **شكيب أرسلان**.

والنموذج الثاني من هذه النماذج ما قاله الكاتب الشهير محمد لطفي جمعة في تأليفه: **(حياة الشرق: دوله وشعوبه وماضيه وحاضره)**، قال تحت عنوان: **(الزعماء في الشرق)**:

«لقد ظهر في الشرق زعماء سياسيون كثيرون، بل في كل ناحية من ناحيات الشرق العربي، وفي مصر خاصة، ونحن نذكر منهم على سبيل المثال جمال الدين الأفغاني وأحمد عرابي ومصطفى كامل وسعد زغلول... »، إلى أن قال: «أما جمال الدين الأفغاني فكان في الحقيقة مصلحا عاما للدين والسياسة والاجتماع، ولكن السياسة كانت الصبغة الغالبة على مبادئه، ولعله اتخذ الإصلاح الديني والإصلاح السياسي ونشر الفلسفة وسيلة للإصلاح السياسي، لأنه كان يرى أن إصلاح السياسة يصلح كل شيء، وكان الإصلاح السياسي في نظره، ينحصر في نقطتين: الأولى: تحرير الشعوب من الحكم الاستبدادي، أي من ظلم الحكام الشرقيين المطلقين، الذين كانوا لعهده في فارس والأفغان وتركيا ومصر، وعندما ظهر لأول عهده، لم تكن أوروبا قد هجمت على الشرق هذا الهجوم الفظيع، بل كان الإنجليز في الهند وحدها، والفرنسيون في الجزائر، ونظر بعد ذلك في تخليص أمم الشرق الواقعة تحت حكم الأجنبي، وارتأى لخلاص الشعوب الإسلامية مما كانت واقعة فيه لعهده، تأليف الجامعة الإسلامية تحت رعاية الخليفة، ولم يكن لعهده رجل يصلح لتولي هذا المنصب سوى السلطان **عبد الحميد**.

لقد لجأ **الأفغاني** أولا إلى الملوك أنفسهم، وحاول هدايتهم بالعلاقة الشخصية، وقد نجح فعلا في إقناع شاه الفرس بضرورة إعطاء الدستور إلى شعبه، وتمكن من قلب الشاه، وبذل له الإخلاص كله، وامتزج بالمصلحين من الشعب الفارسي، بعد أن استمالهم إليه بعقله وعلمه وفصاحته وشخصيته الجذابة، ولما اضطهد وتآمروا ضده، سافر إلى بلاد الهند، وشعر الإنجليز بقوته ونفوذه فنفوه، فذهب إلى الأفغان وكانت مملكته تتناهبها المظالم، وهي واقعة تحت السلطة الإنجليزية، لأنها خطر على أبواب الهند، فلم يكن الدور الذي لعبه فيها عظيما، ولكنه لقحها، وترك فيها خميرة صالحة كما ترك خميرة في فارس، وكما ترك آثاره في الهند» اهـ.

وقبل أن أنهي هذه الدراسة، نرجع مرة ثانية إلى تتبع مراحل حياة جمال الدين بعد خيبة أمله في باريس كما تقدم، إلا أن مدة إقامته في باريس تركت أثرا محمودا، فعلاوة على الأعداد التي أصدرها من جريدة العروة الوثقى، والتي رددت صداها الأوساط الشرقية والغربية، فإنه اغتنم فرصة وجوده بها، ليرد على بعض الكتاب الأوروبيين، الذين كانوا يتطاولون على الإسلام، وكان من بين هؤلاء **أرنست رينان** (Ernest Renon) الذي ذكرنا انطباعاته عن جمال الدين، وقد سبق لجمال الدين عندما كان بحيدر آباد، ووردت عليه استفتاءات من علماء الهند عن بعض الطوائف ظهرت فيها، فألف رسالته المشهورة بـ: (**رسالة الرد على الدهريِّين**)، غادر باريس تلبية لطلب شاه إيران، الذي عرض عليه أن يتخذه مستشارا للملكة، وعندما عرض عليه الإصلاحات المستعجلة التي من بينها إحداث برلمان يختاره الشعب، ورأى الشاه أن علماء فارس ونخبتها التفوا حوله سارع إلى التخلص منه ومن إصلاحاته، فنفاه ورمى به خارج حدود بلاده، فغادر جمال الدين فارس مكرها، ورجع مرة أخرى إلى الأستانة حيث لقي الحفاوة والتبجيل من الخليفة عبد الحميد، الذي أعد لسكناه قصرا ملكيا، وعرض عليه أرقى منصب ديني في الخلافة ـ مشيخة الإسلام ـ وقد اتفق مؤرخو تلك الفترة، أن الخليفة عبد الحميد، كان يتفق تماما مع جمال الدين في فكرة الجامعة الإسلامية، إلا أن هناك موانع لم تكن في الحسبان قضت على آمال الرجلين معا، في الجامعة الإسلامية، التي لقيت حتفها في مهدها، لأخبار تطول، وكيفما كانت أسباب الإطاحة بها، فإن المنتفع الأول، كان الاستعمار الغربي الذي كانت تشخصه الإمبراطورية الإنكليزية، وقد ظهر تأليف أثناء الحرب العالمية الأولى، وبالضبط سنة 1917م للكاتب الإيطالي الشهير في الأوساط الدبلوماسية وهو الدكتور **أنريكو انزباطو** (Enrico Insabato) في تأليفه: (**الإسلام وسياسة الخلفاء**)، الذي عندما تعرض فيه لسلطة الخلافة الإسلامية العثمانية، وخطرها، ختم بحثه بهذه الجمل: «... من حسن الحظ لأوروبا أن (**الشبان**

الأتراك) الذين أطاحوا بالخليفة عبد الحميد أوقفوا مسيرة « الوحدة الإسلامية » ـ الخطيرة على الغرب ـ التي كان يرعاها عبد الحميد وأن تصرفهم هذا سواء كان ناشئا عن جهل أو غباوة، حيث أرادوا استبدال: **الوحدة الإسلامية**، بـ: **الوحدة التركية**، فإنهم أبعدوا عن الروح العربية، وقد تفطنوا ـ بعد أن فات الأوان ـ إلى هفوتهم، وشعروا بأنهم أخطؤوا المرمى، وذلك عندما أعلن سلطانهم الجهاد أثناء انضمامهم في الحرب العالمية الأولى إلى ألمانيا القيصرية، ثم حاولوا الرجوع عن غلطاتهم، فسبقتهم الأحداث، إذ انكلترا التي تتبع هذه الأحداث عن كثب، تبنت الحركة العربية وآزرتها ـ أي: الوحدة العربية ـ .

والخلاصة أن **جمال الدين الأفغاني** كان من أفذاذ قادة الفكر وعظماء الرجال، ترك بصمات أصابعه في تاريخ البلاد الإسلامية غربا وشرقا، حاول الإنكليز استمالته بالمال والتاج والسلطنة فأشعرهم وهو بلباسه القومي البسيط ـ إذ كان محافظا على زيه الأفغاني قباء وكساء وعمامة عجراء ـ فأشعرهم وهم الذين كانوا يتصورون فيه صورة من كانوا يعرفونهم من الأمراء والسلاطين عباد الفروج والبطون والقصور، بأنهم غلطوا، وترك في سجلاتهم كلمته التي قالها عنهم: إن تخوف حكومة بريطانيا من زائر أعزل مثلي يسجل عليها وهن عزيمتها، وضعف شوكتها، وقلة عدلها، وعدم أمنها وأنها في حقيقة حكمها لهذه الأقطار أضعف بكثير من شعوبها» اهـ.

ولا غرو أن ساهمنا في إحياء ذكراه لمرور ثمانين سنة على وفاته بالمركز الثقافي الإسلامي، الذي صادف الاحتفالات بذكرى المولد النَّبوي الشريف، الذي امتاز في هذه السنة بمحفل رهيب في مدينة وهران تحت رئاسة الأخ الوزير **مولود قاسم نايت بلقاسم** الذي فتح سلسلة محاضرات تحت عنوان: **(اهتمام الأمم بأيامها)**، وأمنيتنا أن نعود إلى الموضوع في فرصة أخرى.

تراجم بعض أبطال المقاومة المسلحة بالهقار وفي طليعتهم السلطان أحمود (المشهور بأمود)[1]

لفت جبل الهقار وسكّانه التّوارق أنظار المؤرِّخين والباحثين ـ مسلمين و أجانب ـ منذ قرون، وخصّصوه بدراسات قيِّمة لا زال معينها لم ينضب بعد، و إنّني في هذه الدِّراسة المحدودة المجال سأتناول بالبحث: (**تراجم أبطال المقاومة المسلّحة الهقار وفي طليعتهم السُّلطان أحمود**)، كما يدلُّ على ذلك عنوان المحاضرة، وسأمهِّد لذلك ببسطة تاريخية أتتبّع فيها مراحل تاريخ التّوراق بصفة خاصة، وتاريخ الصحراء بصفة عامة، أركِّزُها على أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، عندما تسرَّب إلى هذه المناطق الاستعمارُ الأوروبي الذي كان في طليعته المبشرون.

وسأقتصِرُ في هذه الدِّراسة على ذكر نبذ مِن تاريخها في العهد الإسلامي، اللهم إلا إذا جرَّنا سياق الحديثُ إلى ذكر بعض الفقرات مِن تاريخها قبل الإسلام.

عرف هذه المنطقة كثيرٌ مِن الباحثين القدامى والمتأخِّرين ابتداءً من الرَّحّالة **ابن بطوطة**، والمؤرِّخ الجزائري **محمد أبي راس الناصري**[2]، وا**بن خلدون**، واقتصرتُ على تَعريف محمد أبي راس لِقُرب عهدِه، كما أنَّ تعريفه له أهمية حيث استقاه مِن شاهدِ عيان جاب تلك الرُّبوع في عهدِه، قال **أبو راس** في تأليفه (**عجائب الأسفار ولطائف**

---

(1) (الملتقى الثالث عشر للتَّعرُّف على الفكر الإسلامي)، 1979م تمنراست ج1،ص11-29.

(2) محمد أبو راس الناصري (1165 ـ 1237هـ): مؤلف مشهور مِن سكّان معسكر ومواليدها.

الأخبار) [1]في مَعرض حديثه عن قبائل صنهاجة ما يلي: «قلت: وقد أخبرني الطالب الأجل الناسك الأمثل شقيقي سيدي عبد القادر (برَّد الله ضريحه، وأسكنه من الفردوس فسيحه) وكان ذا معرفة بتلك البلدان لما مرَّ بها وتخطَّى إلى السُّودان، وكان إخباره لي بذلك لما سألته سنة أربع وتسعين ومائة وألف (1194هـ) »، ثم واصل أبو راس حديثَه عن صنهاجة فقال: «ثم إن صنهاجة أهل الِّلثام المعروفون عندنا بالتَّوارق، مساكنهم بين السُّودان وبين الرِّمال التي هي تخوم بلاد البربر، متَّصِلون بالبحر المحيط في الغرب إلى ساحل النيل بالمشرق، وهم الآن على اختلاف الكلمة، واختلاف الألسِنة، على عهدهم الأول، بعضهم يعطون الطَّاعة لملك السودان ويفرُّون مِن عسكره، ولهم شرفٌ بأرضهم وتمرُّ عليهم القوافل إلى السودان، فكان أحب شيء عِندهم الدُّخان، وإن ظفروا في غَزوهم بمال أخذوا منه الإِبل والبقر، وأما الغنَم فيأخذها حشَمهم، ويقال لهم العنادي، وبيوتهم مِن الجلد، وإن ذبحوا لِضَيفٍ جمعوا له كل الَّلحم فيأكل، والباقي يتزوَّد به، وبإِزائهم رهطٌ يقال لهم كنت باشام ـ وهي الآن بعضها تابع لمالي وبعضها الأخر لموريطانيا ـ ينتمون إلى بني أمية والأنصار، لم تتغير اللغة العربية عندهم إلى الآن، ثم استرسل أبو راس في حديثه عن التوارق فقال: «هكذا أخبرني شقيقي سيدي عبد القادر (رحمه الله)»، ثم انتقل إلى استعراض قبائل صنهاجة فقال: «فقبيلة قدالة منهم، ومساكنهم قبلة المعقل عرب السُّوس الأقصى، ولمتونة وتيكة في مقابلة ذوي منصور»، ثم قال: «ومرَّ الكلام على ملوك لمتونة[2] ومسوفة، في مقابلة المغرب الأوسط، ولمطة في مقابلة عرب الزَّاب، وتركا في مقابلة

---

(1) هذا التأليف: **(عجائب الأسفار)** شرح به أبو راس منظومته المشهورة بـ: **(الحلل السندسية)** التي قدمها للباي محمد بن عثمان فاتح وهران سنة 1206هـ ضمَّنها تاريخ وهران.

(2) دولة لمتونة هي المعروفة بدولة المرابطين التي أسسها الملك يوسف بن تاشفين دفين مدينة مراكش.

إفريقيا...»، إلى أن قال متحدِّثاً عن التوارق: «والخيل عندهم قليلة أو معدومة، ويركبون من الإبل الفاره، يسمُّونها: **النَّجيب**، ولهم مع بني سعيد من بطون رياح عرب وارقلا وقائع وغارات إلى الآن، ويغيرون أيضا على سوف، وغدامس، وفزان، وغيرهم، وأما أهل وارقلا فهم من بني يفري، ومن مغراوة، وأميرهم يقولون له: **السلطان**، وعلى عشرين مرحلة إلى القبلة منحرفا قليلا إلى الغرب بلدة نكدة لصنهاجة، وقد اجتاز بهم نفر من تجار مالي، أيام أبي عنان[1] فأعطوهم اثني عشر ألف راحلة زكاة، وأما أهل فقيق، وتيقرارين، وتوات، وأكثر مصاب، فكلُّهم صنهاجة، وبعض مصاب مِن لماية، و الله أعلم».

نقلتُ هذا الفصل الذي عقده **أبو راس** للتَّعريف بالتوارق ومناطق جبال الهقار المجاورة لهم، التي كان معظمها مِن أصل بربري، لدحض ما ادَّعاه كثيرٌ من الباحثين الذين حاولوا فرض حصر حروب التَّوارق مع جيرانهم مِن بقية القبائل، للخلاف بين العرب والبربر، وأطلق الكثيرُ مِن المؤرِّخين العنان لافتراضاتهم هذه الخلافات العقائدية والعنصرية، إذ زَعموا أنَّ التوارق هم مِن بقايا أممٍ أوربية نزَحت إلى إفريقيا، وكان في طليعة هؤلاء المؤرِّخين الأستاذ **قوتي**[2] (GAUTIER) الذي ذكر في تأليفه: **(الصَّحراء)** يصف التَّوارق فقال: «إن هؤلاء الناس أقرب إلينا من العرب، فإنَّهم متفتِّحون، والسَّبب في ذلك أنَّ إِسلامَهم ضعيف، فهم لا يعرفون كلمة عربية، العربية لغة القرآن المقدَّس، فهم لا يصومون شهر رمضان، ونساؤُهم متبرِّجات، ولهذا فهنَّأَ قرب شبها بنِسائنا، والتوارق يتحدَّثون بالبربرية، ويمتازون بأنهم لا زالوا يحتفِظون بكتابة هذه اللغة دون بقية سكَّان العالم، فقد انفردوا باستعمال الحروف الهِجائية الِّليبية القديمة، المشهورة بحروف تيفينار (Tifinar)»، ثم واصل **قوتي** حديثه أو **ترهاته** فقال:

---

(1) يقصد به الملك أبا عنان المريني.

(2) E.T.gautier « Le sahara » /3, Edition Payot paris 1950.

«من جملة ما ورثه التوارق مِن أصلهم البربري وحافظوا عليه، هو بغضهُم للعرب الفاتحين، ولهذا فإنَّ الحرب بينهم وبين العرب مستمِرَّة متواصلة، ولا زالوا يحتفِظون بذكر **كُسَيلة** البطل الأوراسي الذي قَتَلَ عقبة الفاتح العربي الأوَّل في سنة 683م»، ثمَّ تعرَّض **قوتي** إلى هذه الحروب التي خاضها التوارق مع العرب: «كان العرب ينتَصِرون فيها حيث إن استِحواذَهم على شواطئ البحر الأبيض جعلهم يستَعمِلون الأسلحة الجديدة الصُّنع، وفي أوائل القرن العشرين وجد الفرنسيُّون التوارق لا زالوا يستَعمِلون الأسلحة القديمة العتيقة، كـ: النِّبال، والسُّيوف، ورغم ضآلة هذه الأسلحة تمكَّنوا مِن إيقاف الغزو العربي والهيمنة على طرق الصَّحراء، كانت هذه الهيمنة على طرق الصحراء تَستمرُّ لولا ظهور الأوروبيِّين في الميدان»، ثم قال **قوتي**: «ينبغي أن نطلع على ما كتبه **ناشِتقال** (Nachitigal) عند وصفِه للمعركة التي دارت رحاها بين التوارق وقبيلة أولاد سليمان العربية، وكيف تمكَّن التوارق مِن ربح المعركة، كما كان نفس المصير الذي لاقاه فيلق بوني (Bounier) الفرنسي قرب **تومبوكتو**، ومما يلفت الانتباه أنَّ التوارق انتصروا في هذه المعارك رغم قِلَّة عددِهم، إذ أقوى قبائلهم لا يجاوز عدد أفرادها المقاتلين 400، كما أنَّ أفراد قبائلهم دبَّ في صفوفهم الخلاف والشِّقاق، فالتوارق الذين ترعى إبلهم بـ: **الاكطاكور** (Octakor)، و**المويدير** (Mouidir)، واحنات (Ahnet)، والذين يسيطرون على **تديكالت** (Tidikelt) في حروب متواصِلة مع قبائل **ازجر**[1] (Azdjer) الذين يرعون في **تاسيلي** ويهيمِنون على واحات غات... الخ».

هذه هي الخطوط العريضة انتقيناها مِن تعاريف القدامى والمتأخِّرين لقبائل التوارق، من دون أن ندخل في التَّفاصيل.

(1) قبائل **أزجر** هم من التوارق أيضا.

هذا، وإن كان موضوع المحاضرة هو: (**تراجم بعض أبطال المقاومة المسلَّحة بالهقار، وفي طليعتهم أحمود**).

والسلطان **أحمود** ظهر في الميدان ابتداءً مِن **الحرب العالمية الأولى**، وهو يعدُّ في ختام سلسلة أبطال المقاومة الذين تَوارثوا المقاومة ببلاد التوارق مِن أواخر القرن التاسع عشر، وإن ترجمتَه وتراجم زُملائه من أبطال المقاومة ببلاد التوارق بصفة خاصَّة وبلاد الصحراء بصفة عامة، تتوقَّف على تتبُّع تاريخ قبائل التوارق منذ تعرَّضت بلادهم لروَّاد الصَّحراء، ولقي جلُّهم مَصارعهم على أيدي السكَّان، إلَّا أنَّ كثيرا من الكتَّاب حاولوا إخفاءَ الأَسباب الحقيقية التي أدَّت بسكَّان الصَّحراء ومن بينهم التوارق إلى تلك الإِغتيالات، فنَسبوها إلى قطَّاع الطُّرق واللصوصية.

وقد تصدَّى أحد الكتَّاب الفرنسيِّين الذي اعتمد على كثير مِن الوثائق الرَّسمية فألقى الأضواءَ الكاشِفة على حقائق هذه الاغتيالات، وهذا الكاتب هو: كلود موريس روبير (Claude Maurice Robert) محرِّر جريدة (**صدى الجزائر**) (L'Echo d'Alger) اليومية، التي كانت لسان حال الاستعمار العُنصري في عهدها بالجزائر في تأليفٍ خصَّصه لترجمة الأَب دوفوكو الذي لقي حَتفَه بتمنراست عاصمة بلاد الهقار سنة 1917م، كان عنوان هذا التأليف: (L'ermite du Hoggar) [1] تعرَّض فيه للتَّعريف بالتوارق، ونقض فيه بالحجج الدَّامغة أراء ونظريات الكتَّاب الذين بالغوا في الإِشادة بالتوارق، وحرَّضوا دولتهم باحتِلال بلاد الصَّحراء، نقتَطِف مِن هذا التأليف فقرات موجزة تهمُّ موضوع دراستنا:

عدَّد الصَّحافي المذكور ما كتبه في الموضوع قوتي (Gautier)، و**ديفريري** (Duveryrier)، وغيرهما، ونقض آراءهم، ثم ختم ردَّه عليهم بهذه الجمل: «فإن هؤلاء

(1) L'Emite du Hoggar.Edit Baccorrier Alger 1939.

الكتَّاب الذين يَسبحون في الخيال والأَوهام يحلمون بالقوافل الحامِلة لدقيق الذَّهب، وريش النِّعام، والعاج، والزَّبرجد، واللؤلؤ، الذي أُشيعَ أن قافلة رائد الصَّحراء **فلاتير** (Flatters) اكتشفه، وكان مِن بينها ما يبلغ حجم بيض الدَّجاج... »، **ثم عقَّب** الصحافي **روبير** (Robert) على هذه الخلاصة بِقوله: «والآن عندما أزيل القناع عن التوارق انحل الُّلغز، فدقيق الذَّهب موجودٌ فِعلا، إلا أنه يتمثَّل في رمال التُّلول... »، ثم قال: «ينبغي أن نصحِّح موقِفَنا، إنَّ قيمة الصحراء الاقتصادية مُنعدِمة تماما، وستَبقي مُنعدِمة، فقيمة الصحراء تَنحصِرُ في المجالين السياسي والموقع الاستراتيجي »، ثم قال: «فالصحراء برزخٌ بين عالمين كانت العداوة بينهما محكمة، إِفريقيا البيضاء، وإفريقيا السوداء، وبعبارة أَوضح: عالم متمدِّن وعالم همَجي متوحِّش »، ثم أَردف مخاطبا: «إنكم ما تطلعون على مثل هذه الترهات، وما هي في الحقيقة إلا ذرُّ الرَّماد للسِّياح والصحفيِّين الأغبياء، وذلك مثل قولهم: الصَّحراء إِمبراطورية، ومساحتها تُعادِل مِساحة فرنسا عشر مرَّات...»، إلى أن قال: «إنني في الطبعة الأولى من هذا التأليف، ذكَرت أنَّ عدد التوارق يبلغ 7800 نسمة، منها (5000) من **الهقار،** و(2800) من **أزجر** (Azdjer)، وقد كنتُ سخياًّ إذ ذاك، وذلك أن الإِحصائيات الرَّسمية الحديثة التي نشَرتها الصُّحف ذكرت أن عددَ التوارق (سكان جبل الهقار) يبلغ (8000) نَسمة، وأما إخوانهم ازجر فعددُهم يبلغ ما بين (1500) و(4500)، فمِن هذا المجموع نرى أَنَّنا بعيدون جِداً عن عددِ المليون الذي قدَّمه أحد الصحفيِّين ونشره سنة 1856م »، ثمَّ ختم روبير فَصلَه بقوله: «خمسة ألاف نسمة مجموعة بشرية يعيش معظمُها في الأوساخ والمسغَبة والفَقر، يسكنون في قِطعة من الأرض مِساحتها تُعادِلُ مساحة فرنسا خمس مرَّات، فهذه حقيقة (دولة التوارق) التي سالت بِسَببها أَودية مِن المِداد ومثلها من الدِّماء »، ثم قال: «هذا الفارق بين الحقيقة والأساطير لا ينبغي أن نسمِّيه تفاؤلا، بل هو مجموع متاهات وأوهام »، ثم قال: «ومن جملة ناشري

هذه الترهات **هنري ديقيري** (Durgrier Henri)، فإذا كان سكان التوارق على ما وصفهم به سنة 1860م، فكيف نُفسِّر حالتَهم التي هم عليها في وقتنا هذا ـ أي سنة 1988م ـ»، ثم قال: «ومن ذلك العهد ـ أي من عهد صدور تأليف **ديفريري** (Duveryrier) سنة 1860م ـ نجد كتَّابا وسوَّاحا وموظَّفين تبارَوا في خلقِ بلاد الهقار الخيالية البعيدة عن الواقع التاريخي، أمثال **بيير بونو** (Pierre Benait) عضو الأكاديمية الفرنسية، الذي ضمَّن رِوايتَه (**الأتلانتيد**) (Atlantide) القِصَّة الخيالية لملكة الهقار (**أنتينيا**) (Antinéa)، تلك الرِّواية التي فتحت أبواب الخيال على مِصراعيها، حتى ذهب بعض الكتَّاب إلى القَول بأن الهقار هو منبع الحضارة البربرية، وأن موقِعَه هو محور للبشرية جمعاء»، ثم نقل **موريس روبير** (Robert Maurice) جملا مِن (**رحلة ابن بطوطة**) تحدَّث فيها عن الهقار، وكان حكمه على سكَّانه ـ أي التوارق ـ لا يختلِف عن حكم الصَّحافي، حيث إنه لم يجرِّدهم عَن وصف (**قطَّاع طرق**).

وبعد أن عرَّف الصَّحافي أصل مادة الهقار واشتِقاقها ومدلولها باللغة البربرية الأَصيلة، نقل انطِباعات الأسقُف دو فوكو الذي اختار بلادَهم للإِقامة، واتَّصل بهِم وبرؤَسائهِم وحكَّامهم اتِّصالا وثيقا مكَّنه مِن جمع مُعطياتٍ لم يحصل عليها غيره، فقال: «إنَّ الأب دو فوكو يعرفهم، وقد اطَّلعَ على لُصوصِيتهِم، فهو مطَّلِعٌ على جميع مُوبِقاتهِم التي قاموا بها من سنة 1876م إلى 1881م، حيث قتلَوا ستَّة آباء بيض كانوا تعهَّدوا بِحراستهِم وحمايتهِم مدَّة إقامتهِم في أراضيهم، كما أنه يعرفُ أيضا كيف اغتالوا أَعضاء قافِلة رائد الصَّحراء الشَّهير **فلاتير** (Flatters) في (**تاجموت**)، ويعرِفُ أيضا الظُّروف التي قتلوا فيها صديقه وزَميله في الدِّراسة الضَّابط **دو موراس** (De Morés) في طريق (**غدامس**) »، ثم عدَّد الصَّحافي **روبير** أسماءَ روَّاد الصَّحراء الذين تعرَّضوا للاِغتيال من التَّوارق واحدا واحدا.

نكتفي بهذا القدر، ولنتقل إلى صميم الموضوع، ولو أطلتُ في التَّقديم الذي لا مفرَّ منه، حيث إن ذكر رؤوس خيوطه مَربوطٌ بموضوع البحث، إذ لولاها لما اهتدَينا بِسهولة إلى استخلاص نتائج مقاومة السلطان أحمود ومَن سبقَه مِن أبطال مقاومة التوارق بصفة خاصَّة، وأبطال مقاومة الصَّحراء بصفة عامة، ارتبطت هذه النتائج بسيل من التآليف والدِّراسات التي حاول فيها أَصحابها أن يخفُوا الدَّواعي الحقيقية لمقاومة الدُّخلاء في مناطق بِلادهم مِن روَّاد الصَّحراء الذين كيفما كانت الأَلبسة التي تقمَّصوها كان حكم السُّكَّان عليهم: أَعداء لا يريدون بهم خيرا، ولهذا كانوا كلَّما سنَحت لهم الفُرص إلَّا وتخلَّصوا مِنهم بالاستِئصال.

ومع كلِّ ما ذكرت فإِنَّ الكتابة عن الهقار، وعن آراء الكتاب المتقدِّمين والمتأخِّرين عنه، وعما ذهبَ إليه الكاتب الفرنسي **بيير بونوا** في روايته: **(الأتلانتيد)** لا زال محلَّ عِناية بعض العلماء المعاصرين، ومن ذلك ما نشرته جريدة **(المجاهد)** اليومية الجزائرية في عددٍ مِن أعدادِها مؤرَّخ في أفريل 1979 تحت عنوان: **(الأتلانتيد: في سبيل اكتشاف القارة المفقودة)**، قال فيه صاحبه: «إِنَّه وردت برقية لوكالة الأخبار من **لشبونة** (Lisbonne) هذا نصُّها: هل اكتشف السُّوفياتيون جزيرة الأتلانتيد؟ هذا هو السُّؤَال الذي تطرحُه الصَّحافة البرتغالية بعد التَّصريحات التي فاه بها في **لشبونة** (Lisbonne) العالم الرُّوسي **أندري أكسنوف** (André Akeswov) نائب مدير معهد (Océquographie) لأَكاديمية العلوم بالاتِّحاد السوفياتي »، ثم قال: «إن السيد **أكسينوف** الذي يقود بعثة تتكوَّن مِن خمسين عالما سوفيتيا نقلها مِن باخرة الِاكتشافات **فيتياز** (Vitiaz) صرَّح أثناء إرساء الباخرة المذكورة في **لشبونة** (Lisbonne) أن الصُّور التي التقطَها أحد أعضاء البعثة العِلمية أظهرت آثار أسوار ومَدارج يَرجعُ عَهدها إلى موقع **جزيرة الأتلانتيد** المفقودة حسبما ذهبت إليه بعض تصوُّرات وافتراضات أعضاء

البعثة»، ثم قال: «هذه الصُّور الثَّمانية التي التقطت مِن منطقة أعماق البحر وسط الطَّريق الرَّابط بين البرتغال ومادر، تظهر آثار بِناءات بشرية، ثم أضاف العالم الرُّوسي في تصريحه بأنَّ هناك صورا أخرى ستلتقط لمساعدة المتخصِّصين للتَّوصُّل إِلى نتيجة تعتمد على الاكتشاف في المجال العلمي، وستُنشر هذه الصُّور في الشُّهور المقبِلة» اهـ.

سقتُ هذا الخبر للاستِدلال على ما ذكرتُه مِن أنَّ هذِه المنطقة كانت محلَّ عناية مِن القُدامى، ولا زالت بحوثهم متواصِلة إلى عهدنا هذا.

وأغتنمُ هذه الفُرصة لأُلفِتَ انتباه كثير مِن مثقَّفينا الذين يَرونَ الإِشتغال بمثل هذه البحوث المتعلِّقة بالآثار والتُّراث ليست لها أهمية، وهي تَضيِيعٌ للوقت، فضربتُ لهم مثلا باهتمام دولة في زَماننا سخَّرت لبعثة عِلمية جميع المعطيات التي تمكِّنها مِن أداء مُهمَّتها في البحث العِلمي الذي هو حقٌّ مشتَرَكٌ لأفراد البشرية جمعاء.

وإِنَّني أُكرِّر الاعتذار إلى المستَمِعين على طول هذا التَّقديم، وأرجعُ إلى صميم موضوع الدِّراسة، وهو بطولة السلطان أحمود التارقي المشخِّصة لمقاومة سكَّان الصحراء قديما وحديثا.

كان هذا البطل ينتمي إلى قبائل إيمانه من فرقة **أزجر** (Azdjer) التارقيِّين الذين تداولوا حكم **إمارة جانت** قاعدة الهقار الشمالية، وكان يدعى عِند مواطنيه السلطان أحمود، وذلك أنه لما اندلعت الحرب الثانية بين ليبيا وإيطاليا حوالي سنة 1915م، إذ كانت سبقَتها الحرب الأولى التي شنَّتها إيطاليا على شمال ليبيا التي كانت تحت حكم العثمانيِّين وذلك سنة 1911م، وقد انتهت بهزيمة العثمانيِّين، إلا أن اللِّيبيِّين شمَّروا على سواعدهم تحت قيادة السَّنوسي أحمد الشَّريف وأخيه العابد، وهاجموا المراكز الرئيسية للإيطاليِّين بجنوب ليبيا ففُوجِئ الإِيطاليُّون هذه المرَّة بجيش باسل مدرَّب على استِعمال الأسلحة الحديثة، فما كان عليهم إلا أن انسحبوا مِن مُعظم مراكزهم، كما فُوجِئَ

الفرنسيُّون مِن جِهتِهم بالهجومات اللِّيبية، إذ تعرَّضت مراكزهم الحربية بالصَّحراء الجزائرية المسامِتة للحدود الليبية، وبالخصوص الحدود الشَّرقية التي كانت تَسكنها قبائل (**أزجر**) مِن التوارق الذين كان يترأَّسهم السُّلطان أحمود ـ موضوع حديثنا ـ فلهذا اعتنَى الفرنسيُّون بِتَشديد حماية هذه المنطِقة، إذ لم ينسَ الفرنسيُّون هَزائمَهم عندَما حاولوا احتلال (**بُحيرة التَّشاد**) و(**أوداي**) اللَّتَين كانتا تحت نفوذ السَّنوسيِّين الرُّوحي، تسبَّبت فيها الفرق الفرنسية المرابطة في **تبستي** و**الاونيانقا** (Tiffeati)، (Onnyanga)، فلهذا أَسرعَ الوالي العام بالجزائر إِذ ذاك إلى إِرسال الحماية للثَّغر الصَّحراوي الشَّرقي، وكان من جملة القادة الفرنسيِّين الذين أُرسلوا إلى تلك المنطقة الرائد **ميني** (Meynier) الذي كان يقود الفَيلق الرَّابع بالحدود الجزائرية ـ التونسية في بلاد الذهيبات، وكان من حسن حظِّ التاريخ أن المصدر الجوهري الوَحيد الذي ركَّزتُ عليه هذه الدِّراسة هو مجموع تقارير حربية كان يرسلها الرَّائد المذكور إلى رؤَسائه، يذكر فيها مراحل هذه الحرب ـ أي: الليبية الإيطالية من جهة، والجزائرية الفرنسية من جِهة أخرى ـ ولما وضعت هذه الحرب أوزارها وارتقَى الرائد إلى رتبة جنرال، وعيِّن مفتِّشا عامًّا بِوزارة الدِّفاع الفرنسية لشمال إفريقيا، خصَّص هذه الحرب بدارسة قيِّمة ضمَّنها مجموع تقاريره التي سبق الحديثُ عنها، ونشر هذا المجموع مع ما كان يتطلَّبه مِن شرحٍ وتَعليق بـ (**المجلَّة العسكرية الفرنسية**) بعدديها:(33) و(34)، ثمَّ نقل تلك الدِّراسة ونشرها بـ (**المجلة الإفريقية**) التي كانت تصدر بالجزائر في عدديها المتتابعين والمؤرَّخَين في سنة 1939م، تحت عنوان: (**الحرب المقدَّسة للسَّنوسية في إفريقيا الفرنسية: 1915م ـ 1918م**)، بيَّن الجنرال ميني في دِراستِه هذه وضعية الحدود بين الجزائر وليبيا، والمواقع التي كانت معرَّضة للخطر، وهي بلاد التوارق الشَّرقية، ثم تعرَّض للظُّروف التي ظهر فيها البطل السلطان أحمود المشهور بأمود ـ موضوع دراستنا ـ وخصَّه بِتَرجمة مفصَّلة وهي ـ فيما أظن ـ الترجمة الوحيدة التي تعرَّضت للتَّعريف بالسُّلطان أحمود، استعرضَ

الجنرال **ميني** (Meynier) ظروف تلك الحرب، وبدأها بوصف حالة الجيش الفرنسي المرابط بالحدود إذ ذاك، فذكر أنه لما جمع قِواه وتمركز بالمواقع الحسَّاسة من الحدود الجزائرية الليبية أَرسلت قيادَته وَفداً إلى غات ومرزوق قاعدتَي القيادة السَّنوسية التي كانت تُشرِفُ على الحرب الِّليبية الإِيطالية التي انضمَّ إليها فيما بعد سكَّان المناطق الصحراوية التي كانت تحت حكم الجيش الفرنسي، ثم تعرض الجنرال للأخطاء التي ارتكبها بعض القادة الفرنسيِّين في تصرفاتهم.

ثم تحدَّث بإِسهابٍ على الظروف التي انضمَّ فيها السلطان أحمود قائد منطقة التوارق الشرقية إلى قبائل **أزجر** فقال: «في هذه الظروف ظهر في الأفق خصمنا القديم السلطان أحمود آخر أمراء إيهان الرَّئيس القديم لـ **(جانت)** (Djanet)، والشَّخص البارز عند قبائل **أزجر**، أعيان بلاد التوارق، حيث بلغه خبر إرسال الجيش الفرنسي المرابط بـ: **تدكالت** (Tidikelt) إلى **تونس**، وذلك في يوليو 1915م، فحينئذ جمع السلطان أحمود أنصاره في مؤتمر سري عقده بـ **(غات)**، ودعاهم لمحاربة الفرنسيِّين، وكان من جملة مَن انضمَّ إليه مِن الرُّؤساء وشدُّوا أَزرَه الزعيم عبد السلام بن عبد الرزاق، بطل تحرير الفزان مِن الاحتلال الإيطالي، فكوَّن هذا الزَّعيم بِدَوره جيشا مدرَّبا معظم أفراده مِن الجنود المسلمين الذين سبقَ لهم التَّدريب العسكري في صفوف الجيش الإِيطالي والجيش الفرنسي، وعندما اندلَعت الحرب الِّليبية بكفرة، تمرَّدت هذه الجيوش والتحقَت بصفوف الثوار حامِلةً معها الأَسلِحة والعَتاد، كان منطلقُ هذا الجيش مِن قاعدة مرزوق مقرّ الزَّعيم عبد السلام بن عبد الرزاق، قصدَ جيشُ السلطان أحمود حِصن **(جانت)** الذي سبق أن عزَّز بحِصنٍ آخر أَطلقَ عليه الفرنسيُّون اسم:(حصن شاريي) (Chariet)، ووضعت فيه كتيبة فرنسية لحمايته، كانت **(جَانَتْ)** في أول عهدها معهدا دينيا، وبعبارة أوضح **(زاوية سنوسية)**، حاصر السلطان أحمود **(جانت)**

(Djanet) مدَّة (18) يوما، وقد تمكَّن الجيش الفرنسي المرابط بها ـ أي المحاصر ـ مِن إرسال النذير وطلب النَّجدة مِن القيادة الفرنسية التي كانت مرابطة بمخيَّمٍ عسكري يبعد عن (**جانت**) بنحو 300 كلم، ولما وصلت النَّجدة وجدَت الجيش الذي كان محاصَرا بـ (**جانت**) غادر المكان وتسلَّل إلى **أساقو** (Assakou)، إلا أنَّ جيش السلطان أحمود كان لهم بالمرصاد فلحقَ بهم وأَسرهم عَن آخرهم، ثمَّ تتبَّع ما تبقَّى مِن الجيش الفرنسيِّ الذي تسلَّل إلى **جبل أساقو** فأسره بدوره، وبعدما استعرض الجنرال **ميني** هذه الأحداث ختم مقاله بقوله: «إن (**جريدة جمعية إفريقيا الفرنسية**) نشرت تفاصيل هذه المأساة بمزيد من البيان، ومن ذلك أنَّ قائد الحامية الفرنسي المرابطة بـ (**جانت**) **لابير** (La pierre) بقي أسيرا في (**كفرة**) من سنة 1915 إلى 1919م، ولم يكُن هذا ـ أي: ما سبق لنا ذكره عن حامية (**جَانَتْ**)ـ نصيب حامية (**جَانَتْ**) والفرق التي حاولت إنقاذها مِن حصار جيش السلطان أحمود، بل كان مصير معظم الفرق الفرنسية المتنقِّلة بتلك المناطق، مِن بينها: الفرقة التي حاولت الاِتِّصال بمركز **جادو** الموجود بإفريقيا الغربية، ويبعد عن (**جانت**) بنحو 600 كلم، وهو بجنوبها الشرقي»، ثم واصل الجنرال **ميني** حديثه ملخِّصا الحالة العامة للجيش الفرنسي بتلك المناطق بعد سقوط (**حصن جانت**) (Djanet)، فقال: «كانت الحالة في آخر مارس 1916م ببلاد **أزجر** سيِّئةً جدًّا، فالطريق الرابط بين **غات والهقار**، كان يهيمِنُ عليه المجاهدون المسلمون، وكانت السلطات تخشى التِحاق بقية التوراق ببلاد **النِّيجر** و**الهقار** بتوارق **أزجر**، وهذا كله يرجع إلى ظهور السلطان أحمود في الميدان، حيث كان يتمتَّع بالسُّمعة الطيِّبة وثِقَة مُواطنيه، سواء سكَّان المنطقة الشرقية أو المناطق الغربية »، وهنا تعرَّض الجنرال **ميني** إلى الأسقف **دوفوكو** وجميع نشاطاته بالصحراء ابتداءً مِن إِقامته في **بني عباس** بـ (**الساورة**)، ثم انتِقاله إلى تمنراست حيث لقيَ حتفَه سنة 1917م، والذي يهمُّنا مِن حديثِ الجنرال عن الأسقف دو فوكو تعرُّضه لما له ارتباط بموضوع حديثنا، حيثُ ذكرَ روابط الصَّداقة التي كانت تَربِطُ بين الأسقف ورئيس

توارق الهقار **موسى أق أمسطان** (Moussa ag amestane) الذي كان صديقا أيضا لقائد المنطقة العسكري **دو لاروش** (de la Roche) الذي كان يؤكِّد له وَلاءَ السكَّان ـ أي: منطقة تمنراست ـ إلا أنَّ السُّكان بمجرَّد اتِّصالِهم بِمُساعِدي السلطان أحمود انضمُّوا إلى بني عمُومَتهِم وأمدُّوهم بالإِعانة» اهـ.

من هذا كلِّه يتبيَّن أن الكتَّاب الذين حاولوا أن يفرِّقوا بين سكَّان التوارق ومواطنيهم مِن سكَّان الصَّحراء عرب، وبربر، وحراطين، وسود، الذين أفرغَتهم العقيدة الإسلامية في بوتقتها وصاروا كجميع إِخوانهم من مختلف الأجناسِ والملل والنِّحل يُدافِعون عَن عقيدتهم الإسلامية، وإن وقَعت بينهم حروبٌ أو ظهرَت في صفوفهِم تمرُّداتٍ أو ثَوراتٍ فهي ضدَّ الأشخاص، وضدَّ الظلم لا ضدَّ الإِسلام والمسلمين، ومِن جملة مَن اكتشفَ حالة التوارق ووَفاءَهم للعقيدة الإسلامية الأسقف **دوفوكو**، فإنَّه فيما حكاه عنه الصحافي **موريس روبير** في تأليفه الذي ترجَم فيه حياة دوفوكو، وفنَّد مزاعم كثير مِن الكتَّاب، فقال عن **دوفوكو** الذي عاش بين أظهر التوارق، واهتمَّ بدراسة تاريخهم وتاريخ لغتهِم وحضارتهم، لم ينخدع لأراء كثير مِن مواطنيه، ومن ذلك ما ذكره الصحافي: «أن دوفوكو كان أثناء جولة صحية لصديقه الرائد **لابرين** (Laperrine) في ثالث يوليو 1904م قال متحدِّثا عن سكَّان تلك المناطق الصحراوية: إِن الأهالي يستقبلوننا بحفاوة، ولكن استقبالهم هذا لا ينمُّ عن صِدق، بل دعتهم إليه المطامع أو الحاجة، كما قال: إن مجتمعهم في الحقيقة هو مجتمع لصوص، فالرِّجال يَعيشون مِن السَّرقة والنَّهب، والنِّسوة يصفِّقن لهم، ثمَّ قال **دوفوكو**: إنه يوجد في البلاد المسيحية الخير كما يوجد الشَّر، أما هذه البلاد فلا يوجد فيها إلا الشَّر، ولا وجود فيها للخَير أثر إلا نادرا، كل ما يوجد فيها الكذب، والنِّفاق، والدَّهاء، والعنف، مع الجهل والوَحشية» اهـ.

لم يخف الأب **دوفوكو** أن سكَّان هذه المناطق سواء منها العربية أو البربرية اصطبغَت بالصِّبغة الإِسلامية، تلك الصِّبغة التي كانت حصانةً حالَت بينَهم وبين كلِّ عقيدة دَخيلة، وإن مَن تتبَّع اغتيال السكَّان لروَّاد الصحراء الذي خصَّصه كثيرٌ مِن الباحثين بدراسات قيِّمة ونَشرت بعضَ فصوله **(نشرة الجمعية الجغرافية)** بالجزائر وبإفريقيا الشمالية [1] تحت عنوان: **(ضحايا الصحراء)** (Les Martyrs de Sahara)، وذلك في الثلاثينات، يجد أن سكَّان هذه المناطق كانوا يتوسَّمون في جميع روَّاد الصحراء الأجانب أعداء لهم، ولذا كانوا يتحيَّنون الفُرص التي تمكِّنهم مِن استِئصالهِم، وأن الصِّبغة الإسلامية وانتشار العقيدة الإسلامية في مختلف المناطق الصحراوية كانت تتَّبع باهتمام لا في الأوساط الرَّسمية فحَسب، بل حتى عند السياح أو الرَّحلات في الميادين الاقتصادية والعمرانية، فإنهم كانوا لا يغفلون عن تتبُّع تأثير العقيدة الإسلامية، ومِن ذلك ما نذكره كنموذج ومثال:

إنّ مسيرة تدشين الطَّريق الرابط بين الجزائر والسُّودان حوالي سنة 1925م، وقد أشرفَت على هذه المسيرة قوافل الغُرَف التِّجارية بالجزائر ووهران وقسنطينة، وقد انضمَّ إلى هذه الوفود جلُّ النواب ورجال الأعمال والاقتصاد، ومن بينهم برلمانيُّون وأعضاءُ مجلس الشُّيوخ، وقَد دوَّن هذه المسيرة [2]أحد الصحفيِّين كان محرِّرا بجريدة **(صدى وهران)** (L'Echo d'Oran) اليومية وقدَّمها **د. قاسير** (Dr gaser) عضو الأكاديمية للعلوم الاستعمارية ومجلس الشيوخ، تعرَّض في تَقديمه لماضي الصَّحراء، مُستَنِدا إلى ما نقلَه عن المؤرِّخين القُدامى أمثال: (Herodote , Plotemée).

أما الصحافي مدوِّن الرِّحلة التي كان منطلقها مِن (بشار) على طريق البر فكان المرَّة بعد المرَّة يستَوقفه الجوُّ الدِّيني، فيطلقُ العنانَ لقلمه، ومن ذلك عِندما وصلت القوافل

(1) Bulletin Société de géographie d'Alger et de l'Afrique du nord.
(2) Engèrre Cruk Rédacteur du quotidien,L'Echo d'Oran sous titre: L'Algérie en Mission au Niger, d'Oran à par Tanezrouft (Edit Heintz Oran) 1926.

إلى مدينة **قاو** (gao) وتحدَّث عن خَرابها الذي كان على أَيدي التوارق، ثمَّ تجديد بِنائها، تحدَّث بإِسهابٍ عَن (**مسجد أسقيا**) وتاريخ بِنائه وما وجدته القافِلة من آثار منقوشة على شواهد قبور أَفرادِ الأسرة، وقبل وصول القوافل إلى (**داكار**) وقف بهم القطار بمحطة **ديرودال** (Diroudal) حيث كان رئيس الطَّريقة الكنتية الشَّيخ **أحمادو باميا** البالغ من العمر إذ ذاك ـ أي: سنة 1926م ـ أربعا وسبعين سنة، وكان ملزما بالإقامة الإجبارية فيها، وفي (**ديرودال**)، كان مسجد الشيخ الكنتي يلفت أنظار السِّياح في ساحة البلدة العمومية، حيثُ كان قريب العهد بالبناء، وقد بلغت تكاليف بنائه حوالي عشرين مليون فرنك، ثمَّ تعرَّض المحرِّر للطَّريقة الكنتية وأعطى بسطةً عن تاريخ ظهورها، وانتشارها، وسِلسلة مشايخها، وكيف انتشَرت بالسِّينغال.

كما تعرَّض لموارد الطَّريقة التي كان يمدُّها بها سكَّان المنطقة، وما ذكرناه كلُّه يدلُّ على أن الاستعمار في جميع مراحله بالبلاد الإفريقية لم تُنسِه الحياة الاقتصادية أو السِّياسية الحياة الدِّينية ومناخها، حيث كانوا يرونَه في طليعة الأَخطار المهدِّدة لانتشاره، أو على الأَقل بقائه، ولهذا فلا زالت الحياة الدِّينية بإفريقيا محلَّ عناية الباحثين والكتَّاب إلى أيامِنا هذه، حيث أطلعتنا صحيفة (**لوموند**) (Le Monde) الباريسية بعددها المؤرَّخ في 12 نوفمبر 1978م عن مقالٍ أَرسله إليها مكاتبها مِن بِلاد **النيجر** تحت عنوان:(**الأزهر الجديد في الغرب الإفريقي**) استهلَّ الكاتبُ مقالَه عن قرية **ساي** (Say) التي تبعد عَن قاعدة ميامي (Miamey) بنحو 560 كلم، تطرَّق إلى ضريح الشَّيخ **ألفا محمان ديوبي** (Alfa Mahamane Diobi) الموجود بالقرية، إذ هو مؤسِّسها، وذلك أنه ورد عليها سنة 1800م فأقامَ فيها تسع سنوات وتوفي بها، واستحال قبره إلى مصافِّ المزارات المشهورة، ثمَّ شبَّه الكاتبُ مكانة (**ساي**) في المجال الرُّوحي بمكانة **أقدز** (Agadés) شرق البلاد، ثمَّ ذكر انطباعات بعض الكتَّاب الذين زارُوها كـ: **بارث**

هانريش الألماني (Barth Heirich) الذي سجَّل انطِباعاتِه عنها في يوليو 1858م، والضابط الفرنسي **لويس منتاى** (Louis Mouteil) الذي زارها سنة 1902م، وغيرهم، ثمَّ ختم مقاله الذي عنونه بقوله: (**أزهر المستقبل في الغرب الإفريقي**)، فقال: «على بعد خمسة كلم خارج القرية وضع الرئيس **سيني كونتشة** (Seyni Kountcha) الحجَر الأساسي لأزهر المستقبل، وقَد بلغت التَّبرُّعات الأولى (17) مليون فرنك إفريقي، وورد على البلدة كثير مِن المهندِسين للشُّروع في العمَل، وقد كان التَّفكيرُ في هذا المشروع ـ أي: بناء الجامعة الإسلامية ـ عندما اجتمعَ رؤَساء الدُّول الإسلامية في **لاهور** (باكستان) سنة 1974م »، ثمَّ ختمَ الكاتب ـ أي مراسل جريدة (**لوموند**) ـ مقالَه بهذه العبارة: «الله أكبر، كلُّ شيءٍ هنا يمرُّ على طريق الإسلام » اهـ.

تراجم بعض مشاهير
علماء زواوة القبائل الصُّغرى[1]

إنَّ بلاد (زواوة) كانت جزءا من (قبائل كتامة) المشهورة بتأسيس الدَّولة الفاطميَّة، في إحدى قراها: (ايقجان)، وموقع (كتامة) يمتدُّ بين مدينتَي (القالة) شرقا، إلى (تنس) غربا، أو (دلَّس) على أصحِّ الأقوال، حسبما ذكره المؤرِّخون، وخاصَّة منهم ابن خلدون.

تاريخ النَّاحية في العهد الرُّوماني:

كانت (زواوة) تابعة لـ (بجاية) الرُّومانيَّة (صلداى)، وكانت في قسمة منطقة نفوذ (ماسينيسا) عندما كان يتمتَّع بالاستقلال الدَّاخلي، أي تابعة لـ (نوميديا)، وبعد ثورة (يوغرطة) أبطلت (روما) الاعتراف بالاستقلال الدَّاخلي لـ (نوميديا)، وأحلَّت محلَّه الحكم المباشر، ثمَّ اقتضى نظر الإمبراطور (أوقست) (Auguste) ضمها إلى موريطانيا (شرشال) القيصريَّة، وذلك سنة 33 قبل المسيح، وقد احتفظت النَّاحية ببعض آثار ذلك العهد، منها:(حصن تيكلات)بسَفح الفناية، بـ (وادي السَّاحل).

كان الرُّومانيُّون يسمُّون **(زواوة) كانكو جنتيان**[1] (Quinquegentiens)، وقد

---

(1) كتِب هذا المقال كدليل للمشاركين في (الملتقى السَّابع للتَّعرُّف على الفكر الإسلامي)، عن المنطقة التي عقِد فيها هذا الملتقى.

سجَّلوا هذا الاسم في كثير من وثائقهم، إذ ثاروا عليهم عدَّة مرَّات، منها الثَّورة المشهورة التي دامت سنين، وذلك سنة 293م، وقام لإخمادها أحد أقارب الملك، ولمَّا تغلَّب عليه الثَّوار التحق به الإمبراطور **ماكسميان هركول** (Maximien Hercule)، وتولَّى قيادة الجيش الرُّوماني الذي كان يضمُّ جيش القطاع الغربي (شرشال)، والشَّرقي الذي كانت قاعدته الممتازة (سطيف)، وقد ترك والي (شرشال) **أورليوس ليسا** (LitruaDrurlins) نصبا خلَّد فيه هذه الحرب التي انتهت سنة 297م، وقد عثِر عليه في أنفاق كنيسة (بجاية) الحالية، وقد ذكَر فيه أنَّهم أخمدوا نار ثورة (الكانكوجنتيان).

وكان سكَّان هذه النَّاحية يثورون على **(روما)** للضَّيم والإهانة التي كانت تلحقهم من الحكَّام، كما كانوا في انقلابات قادة الجيش خصوصا بعدما اشتدَّت الخلافات الدِّينيَّة بينهم، ابتداءً من القرن الرَّابع، وبقيت الحالة مستمرَّة إلى عهد **(بيزنطة)**، فوجدوا سياسة **(روما)** نفسها تتجدَّد، وذلك أنَّهم كانوا يعتنون بالمدن السَّاحليَّة، ومظاهر زخرفتها، والتَّفنُّن في التَّفاخر بالقصور، وإهمال سكَّان القرى والجبال، وتسخيرهم للأعمال الشَّاقَّة، فكانت التَّمرُّدات والثَّورات متتابعة، وقد وصف المؤرِّخ **(فيرو)** السكَّان الأمازيغ إذ ذاك بقوله:« إنَّ سكَّان هذه البلاد كانوا يطمحون إلى الحرِّيَّة، إذ كانوا أباة الضَّيم، ولهذا كانوا يثورون على الحكَّام، فحالتهم هي هي، شبيهة بما هم عليه في زماننا لم تتغيَّر».

وكانت **(بجاية)** بطبيعة موقعها، عاصمة هذه النَّاحية، وكانت طرق معبَّدة تربطها ببقيَّة البلاد، كانت أشهرها:

---

(1) قال **فيرو** في تأليفه:**(تاريخ بجاية)**: «إناَ المؤرِّخ **(بربرجير)**ـ الاختصاصي في اللَّاتينيَّة ـ ترجم هذه اللَّفظة، وأعطى تفاصيل في موقع **(زواوة)** في العهد الرُّوماني، وذلك في تأليفه:
«Les époques militaires de la Grande Kabylie» par Berbruger

الطَّريق التي تربط (**بجاية**) بـ (**دلس**): تشقُّ بلاد القبائل الكبرى:(**بجاية**)، (**قصر كبوش**)، (**جامع الصَّهاريج**)، (**تورقت**)، (**دلس**).

والتي تربط (**بجاية**) بـ (**سور الغزلان**): وتشقُّ القبائل الصُّغرى:(**بجاية**)، (**تيكلات**)، (**أقبو**)، (**سور الغزلان**).

ثمَّ التي تربط (**بجاية**) بـ (**جيجل**): وهي المعروفة الآن بطريق السَّاحل، وتمرُّ على (**المنصورية**)، وقد ذكر هذه الطُّرق ومحطَّاتها، الجغرافيان:(**بتوليمي**)، و(**انطونان**) (Ontonin)، (Ptoleunée).

العهد الإسلامي:

أمَّا في العهد الإسلامي فكانت لبلاد (**الجزائر**) عاصمتان ابتداءً من القرن الخامس: شرقيَّة وغربيَّة، فالشرقية، بجاية، إذ ورثت العواصم الإسلامية المندثرة كـ (القيروان)، و(صقلِّية)، و(**قلعة بني حمَّاد**)، و(**تيهرت**)، كما لجأ إليها كثير من علماء الأندلس إثر انحلال الدَّولة الأمويَّة، وتساقط بعض العواصم في أيدي الأسبان كـ (**طُليطِلة**)، كما كانت (**تلمسان**) العاصمة الغربيَّة.

كانت (**زواوة**) بالطبع تابعة لـ (**بجاية**) إلى أنْ سقطت (**بجاية**) في أيدي الأسبان، حوالي سنة 910هـ في عهد (**الدَّولة الحفصيَّة**)، فعندئذ تكوَّنت في البلاد إمارتان:

(**الأولى**): إمارة القبائل الصغرى: وكانت قاعدتها (**قلعة بني عبَّاس**)، ثمَّ تحوَّلت إلى (**مجَّانة**)، وكان يتداول حكمها آل المقراني.

(**الثَّانية**): إمارة القبائل الكبرى: وكانت قاعدتها (**جبل كوكو**)، ويتداول حكمها أفراد أسرة أحمد بن القاضي الزَّواوي، الذي تولَّى قضاء (**بجاية**) في أواخر عهد (**الدَّولة الحفصيَّة**).

بقيت هاتان الدَّولتان أو الإمارتان تتصرَّفان في البلاد طيلة ثلاثة قرون، أي: عهد الأسبان بـ (**بجاية**)، ثمَّ الأتراك، وكانت علائقهما مع الأتراك ومع الأسبان، ومع بعضهما تختلف، فتارة سلم، وتارة حرب، كما كان نفوذهما يتغيَّر من قوَّة إلى ضعف، والعكس، طيلة هذه القرون الثَّلاثة.

ونجد في العهد الإسلامي أنَّ كثيرا من هذه القبائل ـ أي: الكبرى والصُّغرى ـ اشتهرت بمراكز ثقافيَّة ممتازة، وتكوَّنت بها أسر علميَّة توارثت العلم قرونا، ولم تقتصر شهرة هذه الأسر العلميَّة داخل البلاد فحسب، بل جاوزتها إلى بقيَّة بلاد العالم الإسلامي شرقا وغربا، فمن هذه القبائل:(بترونة، بنو غبرين، بني يتورغ، زرخفاوة، بنو فراوصن، بنو يراثن، قشتولة، بنو صدقة، بنو منقلات، يليتن، مشدالَّة، بنو مليكش)، هذا فيما يخصُّ(**القبائل الكبرى**).

أمَّا (**القبائل الصُّغرى**) فكانت معاهد العلم، بعد سقوط (**بجاية**) في أيدي الأسبان، منتشرة في معظم قُراها، أي: بـ (**وادي بجاية**)، و(**بني يعلى العجيسي**)، و(**زمُّورة**)، وكان مؤسِّسوها علماء البلاد والأندلسيِّين، ولا زالت كثير من الأسَر العلميَّة تحتفظ بوثائق[1]تثبتُ أصلها البجَّائي، كما لا زالت كثير من الأسَر تحتفظ بإجازات علميَّة أزهريَّة، وباتِّصالها بكثير من علماء البلاد القدامى، بإجازات تُثبِت الفنون التي كانت تدرَّس بـ (**وادي بجاية**)، وهي نفس الفنون التي كانت ولا زالت تدرس بالجامعات الإسلامية كالأزهر والزيتونة والقرويين.

---

(1) من جملتها أسرة بـ (بني وغليس)، تنتمي إلى الهادي بن يحي بن موسى الحضري، مؤرَّخة سنة 1149هـ، يقول في ختامها الحضري الشَّريف، من شرفاء (بجاية) الخارجين منها عندما دخلها النَّصارى: وهذه الوثيقة أجاز بها محمَّد الروداني السُّوسي سنة 1064هـ. أفراد الأسرة عند مروره عليهم في طريقه إلى المشرق، وهو جزء من (**فهرسته**): (**صلة الخلف بموصول السَّلف**).

العهد الفرنسي:

بعد احتلال (**فرنسا**) للجِهة، أي: القبائل الصُّغرى، ثمَّ الكبرى، قسِّمت إلى مناطق بقرارات (1850 ـ 1852ـ 1853 ـ 1854 [1].

فكانت ناحية (**دلَّس**) تشمل: بني ثور، بني سليم، ثاورقت، عمراوة، بني خليفة، بترونة، المعاتقة، بني جنَّاد، زرخفاوة، بني غبرين، عزازقة، بني فراوصن، بني يراثن... الخ.

وكانت ناحية (**ذراع الميزان**) تشمل: بني صدقة، بني يني، بني واصيف، بني منقلات، ومشدَّالة .... الخ.

بقي هذا التَّقسيم ساري المفعول، وإن أعيد التَّقسيم مِرارا في العهد الفرنسي إلاَّ أنَّ مواقع هذه المراكز التي اشتهرت بالعلم والعلماء حدِّد موقعها، وأظنُّ أنَّ من أقدس التَّوصيات لـ (**الملتقى السَّابع**) هي تحديد بعض هذه المراكز، وتحديد موقع (**ملاَّلة**)، حيث فيها وقع تخطيط أعظم دولة عرفها الإسلام، وهي:(**دولة الموحِّدين**)، و(**ايقجان**) مَسقط رأس (**الدَّولة الفاطميَّة**) قبل انتقالها إلى (القيروان) وتمركزها في (**مصر**).

فقدت (**بجاية**) مركزها الذي امتازت به طيلة قرون، من عهد الرُّومان إلى أن احتلَّها الأسبان، إلاَّ أنَّ التَّاريخ أنصفها وسجَّل لها صفحات ذهبيَّة، وإنَّ حياة علماء (**زواوة**) مدينون لها، إذ منها تخرَّجوا، وبمعظمهم اشتهرت، وعلى سبيل المثال نذكر ما وصفها رحَّالتان مشهوران زاراها في فترات متقاربة لا تتجاوز (50) سنة، أوَّلهما:

أبو عبد الله محمَّد العبدري الحيحى[2] صاحب: (**الرِّحلة المغربية**)، فإنَّه مرَّ على

---

(1) Notes et documents concernant l'insurrection de 1856/57 de la Grande Kabylie, par le Colonel Robin (Edit. Jourdan Alger 1902).

(2) حقَّقها وقدَّمها الأستاذ **محمَّد الفاسي**، طبع: جامعة محمَّد الخامس، بـ (**الرِّباط**).

(بجاية) حوالي سنة 688 هـ/ 1289م، قال في وصفها: «ثمَّ وصلنا إلى مدينة **(بجاية)**، مبدأ الإتقان والنِّهاية، وهي مدينة كبيرة، حصينة منيعة شهيرة، بريَّة بحريَّة، سنيَّة سريَّة، وثيقة البنيان، عجيبة الإتقان، رفيعة المباني، غريبة المعاني، موضوعة في أسفل سفح جبل وعر، ومقطوعة بنهر وبحر، مشرفة عليها إشراف الطليعة، متحصِّنة بها منيعة، فلا طمع فيها لمحارب، ولا متَّسع فيها لطاعن وضارب، ولها جامع عجيب، منفرد في حسنه غريب، من الجوامع المشهورة، الموضوعة المذكورة، وهو مشرف على برِّها وبحرها، وموضوع بين سحرها ونحرها، فهو غاية في الفُرجة والأنس، ينشرح الصَّدر لرؤيته وترتاح النَّفس، وأهلها يواظبون على الصَّلاة فيه مواظبة رعاية، ولهم في القيام به هِمم وعناية، فهو بهم مأهول عامر، يتخلَّل أنسه مسلك الأرواح ويخامر، وهذا البلد بقيَّة قواعد الإسلام، ومحلُّ حلِّه من العلماء أعلام، وله من حسن المنظر طيب المخبر، ومع المرأى الرَّائق، المعنى الفائق، ومن الحصانة ووثاقة البنيان، ما أزرى بـ **(إرَم)** و**(غمدان)**، ولأهله من حسن الخلق والأخلاق، ما نبأ عن طيب الهواء والماء والتُّربة والأعراق، غير أنَّه اعتراه من الغِيَر، ما شمل في هذا الأوان البدو والحضر، وقد غاض بحر العلم الذي كان له حتَّى عاد وشلا، وعفا رسمه حتى صار طللا، وبه آحاد من طلبة العلم قد اختصُّوا على مطالعة الصُّحف والدَّفاتر، وسلكوا في ترك تصحيح الرِّواية طريقا لم يرضه الأعلام الأكابر».

قد علمنا من الفقرة الأخيرة، أنَّ العبدري لم يعترف بالعلم للذين «اقتصروا على مطالعة الصُّحف والدَّفاتر» ـ أي: النَّاقلين ـ ولهذا وصف **(بجاية)** في نفس الوقت الذي ترجم فيه أحد أبنائها البررة **(أحمد الغبريني)** لمائة وخمسين من أعلامها في تأليفه:**(عنوان الدِّراية)**، وكان الكثير من المترجَمين من القُرى المجاورة التي تحدَّثنا عنها، و**العبدري** نفسه اجتمع بالكثير منهم، كـ **(ناصر الدِّين المشدَّالي)** وغيره.

وثاني الرَّحَّالين الذين وصفوا **(بجاية)** إذ ذاك، **خالد البلَوي الأندلسي**[1]، زارها في أوائل 730هـ، قال: «بلدة قدرها خطير، وذِكرها في كلِّ زمان يطير... »، إلى أن يقول: «يمتدُّ أمامها بسيط أخضر مد البصر، قد أجرى الله فيه عذائب الماء تسقيه وتضرب في نواحيه، كأنَّها سبائك اللُّجَين ممدودة في بساط الزَّبرجد، محفوفة بالزُّمرُّد العسجد، والبساتين ملتفَّة الأشجار يانعة الثِّمار، والنَّهر الأعظم ينساب بين يديها، قد انعطف عليها انعطاف السِّوار، والحدائق تنتظم بحافتيه وتفيء ظلالها الورَّاقة عليه، فهي النَّظيرة الرُّوح، الخضرة الرَّيحان والروح، العذبة الأنهار، الجنيَّة الأزهار، الطَّيِّبة الهواء، المسترقة الأضواء، التي اجتمعت عليها الأمراء، وسلم لها اللواء، وشيد لها البناء، وبعد لها الصَّيت المحدود والثَّناء، وانضمَّ فيها من الوادي والبحر قلادتان على ذلك النَّحر.. فأوَّل مَن لقيتُ بها من أرباب المحابر، وركاب الأعواد والكراسي والمنابر، الشَّيخ **أبو عبد الله محمَّد بن جعفر**... الخ».

تراجم بعض مشاهير العلماء:

ولنبدأ بتراجم العلماء الذين اشتهروا خارج البلاد الجزائريَّة:

1) يحيى بن معطي الزَّواوي:

ترجمه ياقوت الحموي في: **(معجم الأدباء)** فقال: «يحيى بن معطي بن عبد النُّور زين الدِّين المغربي الزَّواوي، فاضل معاصر، إمام في العربيَّة، أديب شاعر، مولده بالمغرب سنة 564هـ وقدم **(دمشق)** فأقام بها زمنا طويلا، ثمَّ رحل إلى **(مصر)** وتوظَّف بها، وتصدَّر بأمر الملك الكامل **(الأيوبي)** لإقراء النَّحو والأدب بـ **(الجامع العتيق)**، وهو مقيم بـ **(القاهرة)** لهذا العهد، ومن تصانيفه:**(الفصول الخمسون)** في النَّحو، و**(الألفية)**

---

(1) **(رحلته)** لا زالت مخطوطة لم تطبع.

في النَّحو أيضا»، ثمَّ ذكر له عدَّة تآليف في مختلف الفنون، خصوصا في اللُّغة، وإلى (**ألفيته**) هذه أشار ابن مالك الأندلسي في (**ألفيته**) المشهورة التي قال فيها:

فائقــة (**ألفيــة**) ابــن معطــي ....

وهــو بســبق حــائز تفضــيلا مســتوجب ثنــائي الجمــيلا!

2) منصور بن عبد الله الزَّواوي أبو علي:

ترجمه لسان الدِّين ابن الخطيب في (**الإحاطة**)، فقال: «اشتهر بحسن العهد والصون، والطَّهارة والعفَّة، قليل التَّصنُّع، مؤثر للاقتصاد، منقبض عن النَّاس، مستقيم الظَّاهر، منصف في المذاكرة... مثابر على تعلُّم العلم وتعليمه، غير آنف عن حمله ممَّن هو دونه، قدِم (**الأندلس**) عام 753ه، وانتصب فيها للتَّدريس، فاستفاد منه كثيرٌ من أعلام البلاد، منهم الإمام أبو إسحاق الشَّاطبي ».

3)**محمَّد بن محمَّد بن أبي القاسم أبو الفضل المشدَالِّي**: ـ بفتح الميم والمعجمة، وتشديد اللاَّم، نسبة لقبيلة من (زواوة)، ويعرف بالمشرق بأبي الفضل، ولد بـ (**بجاية**) سنة 822هـ فأخذ ببلاده ثمَّ(**تلمسان**)، وانتقل إلى المشرق، وكان يقيم تارة بـ (دمشق) وتارة بـ (**القاهرة**)، وذاع صيته، وقصده طلاَّب العلم، وقد عاصر السَّخاوى وترجمه في تأليفه:(**الضَّوء اللاَّمع في بيان علماء القرن التَّاسع**) ترجمةً وافية، استغرقت ما يقرب من عشر صفحات، ومن جملة ما قاله في ترجمته: «وقد حصلت بيننا اجتماعات وصحبة، ورأيتُ منه من حدَّة الذِّهن وذكاء الخطر وصفاء الفكر وسرعة الإدراك وقوَّة الفهم »، إلى أن يقول: «ولقي الإمام ابن حجر وفرح به وأعجب به... فدانت له المملكة المصريَّة، والأقطار الشَّاميَّة، والبلاد القاصية والدَّانية، درَّس في (**الأزهر**)، وعرِض عليه القضاء بـ (**مصر**) و(**الشَّام**) فامتنع ».

وقال السُّيوطي في تعريفه: «اتَّسعت معارفه، وبرز على أقرانه بل مشايخه، وشاع ذكره، وملأ اسمه الأسماع، وصار كلمة إجماع»، إلى أن قال: «هو أحد أذكياء العالم، مات بـ (**حلب**) سنة 860هـ، وقيل: 866هـ، والأوَّل أوفق».

4) منصور بن أحمد بن عبد الحق المشدالي (631 ـ 731):

أبو علي الشَّيخ ناصر الدِّين، ترجمه صاحب (**ذيل الدِّيباج**)، فقال: «الإمام الفذُّ الأوحد ترجمه الغبريني وقال التُّجيبي في (**رحلته**) لقيت بـ (**بجاية**) الشَّيخ الفقيه الإمام أوحد الفضلاء أبا علي منصور الزَّواوي المشدالِّي، آخر رجالات الكمال بـ (**إفريقية**) و(**المغرب الأقصى**)، ممَّن جمع بين معرفة الفقه وأصوله، وأحكم حظا وافرا من العربية وحصَّل المنطق والجدل وغيرهما، وحاز السَّبق في علوم كثيرة، واستبحر فيها وتكلَّم في أنواعها، وناظر في جميعها، وسمع بـ (**الشَّام**) و(**مصر**) وغيرهما، وهو الذي أحدث ثورة ثقافية في البلاد وأمكنه أن يطوِّر الفقه.

5) أبو موسى عمران بن موسى المشدالي:

نزيل (**تلمسان**)، صهر ناصر الدِّين ـ السَّابق الذِّكر ـ وهو الذي بنَى له أبو تاشفين بن أبي حمُّو موسى الأوَّل (**المدرسة التَّاشفينيَّة**) التي بُنيَ على أنقاضها (**المجلس البلدي**) الحالي بـ (**تلمسان**)، وكانت آية في الفنِّ، وقد اكتشفت بعض آثارها في هذه الأيَّام، وممَّن تخرَّج عنه محمَّد المقري الجدّ، أستاذ عبد الرَّحمـٰن ابن خلدون (760 ـ745هـ).

6) محمَّد بن أبي القاسم المشدالي:

والد أبي الفضل ـ السَّابق الذِّكر ـ صاحب التَّآليف المشهورة في الفقه والأصول، وقد زاره الرَّحَّالة **عبد البسيط المصري** بداره في (**بجاية**)، وأخبره عن موت ولده أبي الفضل، وقد كانت شهرته في الأوساط العلميَّة بـ (**الجزائر**) والمشرق، وأثبت كثيرا من

فتاويه صاحب (**الدُّرر المكنونة في نوازل مازونة**)، وصاحب (**المعيار**)، توفي سنة 866هـ.

7) أبو العبَّاس الزَّواوي:

من مشايخ **ابن خلدون**، ترجمه **ابن مرزوق** (الجدّ) في تأليفه:(**المسند الصَّحيح الحسن في مآثر أبي الحسن**)، من جملة العلماء الذين كانوا ملازمين لمجلس الملك **أبي الحسن المرِّيني**، قال **ابن مرزوق**: «ثمَّ لزم الحضرة أخيرا، الأستاذ العلاَّمة المشارك **أبي العبَّاس الزَّواوي** الذي لم يرق عصره أطيب منه نغمة، ولا أحسن صوتا ولا أنداه، وكان آية من آيات الله عزَّ وجلَّ، ولم أر في المشرق والمغرب نظيرا له... الخ »، «... له تصانيف في القراءات والعربيَّة، نظما ونثرا... الخ».

وقال في ترجمته لسان الدِّين ابن الخطيب: «ما رأيتُ قبله ولا بعده في قطر من الأقطار مثله، ولازم الحضرة وارتسم في جملة الفقهاء، فسافر معنا إلى (**إفريقية**)، ومات (رحمه الله) غريقا، وكان مولانا المرحوم وأولاده السُّعداء يجودون عليه، وانتفع به خلق بـ (**تونس**) جوَّدوا عليه وأجازهم ».

8) عيسى بن أحمد الهندسي البجائي:

يعرَف بـ: **ابن الشَّاط**، ترجمه **السَّخاوي** في:(**الضَّوء اللاَّمع**): «تقدَّم في الفقه وأصوله، والعربيَّة وغيرها، حفظا لها وفهما لمعانيها، مع فروسيَّة وتقدمة في أنواعها وديانة، وتصدَّى للإفتاء والإقراء... وهو الآن في سنة 890هـ شيخ وقدوة أهل (**بجاية**) يزيد على (60) سنة، له **تعليق** لطيف على (**صحيح مسلم**)... ».

9) عيسى أبو الرُّوح ابن مسعود المنكلاَّتي (المنجلاَّتي) الزَّواوي:

كان فقيها عالما متفنِّنا، قال في ترجمته صاحب (**ذيل الدِّيباج**): «تفقَّه في (**بجاية**) على

أبي يوسف يعقوب الزَّواوي، وقدم **(الإسكندرية)** وتفقَّه، وليَ القضاء بـ **(قابس)**، ودرَّس بـ **(الأزهر)**، وولي نيابة القضاء بـ **(دمشق)**، فشرح **(صحيح مسلم)** في (12) مجلَّد، وسمَّاه:**(إكمال الإكمال)**، وشرح **(مختصر ابن الحاجب)** الفقهي، واختصر **(جامع ابن يونس)**، وشرح **(المدوَّنة)**، وألَّف كتابا في **(التَّاريخ)** في عشر مجلَّدات (664-743هـ) توفي بـ **(القاهرة)**.

10) أحمد بن إدريس البجائي:

كبير علماء (بجاية) في وقته، أخذ عنه أبو زيد عبد الرَّحمٰن الوغليسي، له شرح **ابن الحاجب**، وعدَّة تآليف ينقل عنها العلماء، كما أخذ عنه يحي الرُّهوني، وعبد الرَّحمٰن بن خلدون، ومحمَّد بن عمر الهوَّاري ـ دفين **(وهران)**ـ ولا زال معهده يحمل اسمه بالقبائل الكبرى، قُرب **(معهد الشَّيخ عبد الرَّحمٰن اليلُّولي)**.

11) عبد الرحمٰن بن أحمد الوغليسي البجائي:

عالمها ومفتيها الفقيه العالم أبو زيد، قال ابن قنفذ القسنطيني: «توفي سنة 786 هـ بـ **(بجاية)**، وله المقدِّمة المشهورة بـ **(الوغليسية)**، كما له فتاوى بـ **(الدُّرر المازونية)**، و**(المعيار)**، وله تلاميذ من كبار علماء **(بجاية)**، كأبي القاسم المشدالِّي.

12) حمزة بن محمَّد بن حسن البجائي:

أخذ عن أبي المشدالِّي وولده أبي عبد الله، وفد على **(تونس)** سنة 808هـ، ثمَّ قدم **(القاهرة)** فنزل في **(الشَّيخونيَّة)** يدرِّس ويؤلِّف إلى أن مات سنة 902هـ بها، ترجمه السَّخاوي في **(الضَّوء اللاَّمع)**.

13) محمَّد بن يعقوب بن يوسف المنجلاَّتي الزَّواوي البجائي:

يعرف بأبي عبد الله الزَّواوي، كان حافظا فقيها مستبحرا، ولي قضاء **(بجاية)**، ثمَّ

أخِّر عنه، وكان صديقا لناصر الدِّين المشدالِّي، ذكر الحضرمي في (**فهرسته**) أنَّ المترجَم ورد عليهم (**المرية**) رسولا، وأقرأ بها، وأخذ عنه كثير من علمائها، وتوفي بها عام 730هـ.

14) محمَّد بن محمَّد بن علي الزَّواوي البجائي:

شهر بالفراوصنى، كان صوفيًّا، وترجمه أحمد زرُّوق، واجتمع به في (**مكَّة**) و(**القاهرة**) إلاَّ أنَّه كانت له مرءاة أنكرها عليه العلماء بسبب دعاويه، فامتحن لذلك «ومات مرفوضا والعياذ بالله» كما قال أحمد زرُّوق، وذلك سنة 882هـ أي: تاريخ وفاته.

15) أبو عبد الله محمَّد بن إبراهيم الوغليسي:

كانت له نباهة ووجاهة، ورفعة وهمَّة، وهو أحد المقتدَى بهم والمعوَّل عليهم، وكان عالما بالكتابتَين، الأدبيَّة والشَّرعيَّة، وليَ الخطبة بـ (**جامع القصبة**)، وأخذ عنه كثير من العلماء، وكان من المستشارين في المملكة.

16) أبو يوسف يعقوب بن يوسف الزَّواوي المنجلاَّتي:

له معرفة بالفقه والأصول، قرأ بـ (**بجاية**)، ورحل إلى حاضرة إفريقية ـ أي:(**تونس**) ـ وكانت تقرَأ عليه الكتب المذهبيَّة، وكان أحد المفتيِّين والمشاورين في وقته، مات بـ (**منجلاَّت**) عام 690هـ.

17) أبو الحسن علي بن محمَّد الزَّواوي اليتورغي:

قال عنه أبو العبَّاس أحمد الغبريني في (**عنوان الدِّراية**): «ولقيته (رحمه الله) بـ (بلدة بني يتورغ)، بموضع سكناه منها، وأنا على أوَّل السِّنِّ، ففرح بي وسرَّني »، كان من أكابر العلماء، ملازما لمعهده حيث يقصده الطلاَّب للأخذ عنه، إلى أن توفي به.

18) **عيسى بن يحيى أبو مهدي الغبريني:**

قاضي (**تونس**) وعالمها، ترجمه السَّخاوي في:(**الضَّوء اللاَّمع**)، وقال إنَّه تصدَّى للتَّدريس في (**تونس**)، ومن جملة تلامذته محمَّد القلشاني، والعجيسي، ونقل عنه البرزلي في (**فتاويه**)، ووصفه بصاحبنا، توفي سنة 816هـ.

19) **محمَّد بن عمر المليكشي:**

قال صاحب:(**نيل الابتهاج**) في ترجمته: «محمَّد بن عمر .. عرِف بأبي عمر المليكشي البجائي الجزائري، كذا بخطِّه، نسبة إلى (**جزائر إفريقية**)، لا إلى بلد الجزيرة (الأندلس)، قال الحضرمي في (**مشيخته**): كان صدرا في الطلبة والكتاب فقيها كاتبا أديبا... الخ، توفي بـ (**تونس**) سنة 740هـ، وعرَّفه صاحب:(**نفح الطِّيب**) «... أبو عبد الله المليكشي كاتب الخلافة، ومشعشع الأدب الذي يزرى بالسّلافة، كان بطل مجال ورب روية وارتجال، قدم هذه البلاد وقد نبابه وطنه... الخ »، وكانت إقامته بـ (**مالقة**)، وترجمته نقلها المقري من لسان الدِّين ابن الخطيب السَّلماني في تأليفه:(**نظم التاج من الجواهر**).

20) **أبو العباس أحمد بن عبد الله الجزائري الزَّواوي:**

صاحب (**المنظومة**) الشهيرة في التَّوحيد (400 بيتا) التي شرحها تلميذه محمَّد السَّنوسي ـ دفين تلمسان ـ كان من تلامذة عبد الرَّحمـٰن الثَّعالبي، وله معهد مشهور، توفي سنة 884هـ، وقد شرح (**منظومته**) عبد السَّلام اللَّقاني وغيره.

21) **يحي العيدلي:**

بـ (**تمقرا**) اشتهر بالصَّلاح والفقه، كان من فقهاء القرن التَّاسع، واشتهر كثير من تلامذته الملازمين له بالتأليف كان يأمرهم بذلك، ومن هؤلاء عبد الرَّحمـٰن الصَّبَّاغ ـ

دفين (**مقبرة**)، بـ (**بجاية**) ـ فقد علّق على (**شرح ابن مرزوق الحفيد على البردة**)، ذلك الشَّرح الشَّبيه بموسوعة أدبيَّة، وقد تبارى المعاصرون بالتَّعليق عليه وتلخيصه ـ توجد منه مخطوطة بـ (**المكتبة الوطنية**) لعبد الرَّحمـٰن الصَّبَّاغ ـ يعترِف في مقدِّمتها أنَّ شيخه حرَّضه على ذلك، كما شرح الصَّبَّاغ (**الوغليسية**)، وقد لازمه الشَّيخ زرُّوق البُرنسي، وقال في (**كناشه**) أنَّه ألَّف عدَّة تآليف بمعهد الشَّيخ في (**تمقرا**)، وللشَّيخ تلامذة كثيرون منهم: مؤسِّس أسرة المقراني، إذ بيت آل المقراني كانت في أوَّل عهدها بيت دين، ثمَّ استحالت إلى بيت رياسة إدارية.

22) محمَّد الصَّالح بن سليمان العيسوي المشدالي الزَّواوي الرَّحموني:

وجد بخطِّه أنَّه قرأ وأجيز بـ (**جامع الزَّيتونة**)، بـ (**تونس**)، ولمَّا رجع انتصب للتَّدريس بـ (**بني عيسى**) إلى أن استدعاه الشَّيخ محمد بن عبد الرَّحمـٰن الأزهري الجرجري، فعيَّنه بـ (معهده) مدرِّسا فبقي ينشر العلم بـ (**جرجرة**)، إلى أن توفي سنة 1242هـ عن نحو (90) سنة، وله تآليف عديدة في مختلف الفنون، لا زالت متداولة عند النَّاس، كما ترك ولده أحمد الطَّيب، خلَف مقامه في نشر العلم، وترك بدَوره عدَّة تآليف، مات أحمد الطَّيب سنة 1251هـ.

23) صالح بن أحمد بن موسى بن أبي القاسم السَّمعوني الوغليسي البجائي:

كان من علماء قبيلة (**بني وغليس**)ـ وادي بجاية ـ وهاجر إثر الاحتلال الفرنسي مع شيخه المهدي السَّكلاوي اليراثني إلى (**الشَّام**) سنة 1263هـ، ترجمه عبد الرَّزَّاق البيطار في:(**حلية البشر**) في تاريخ القرن الثالث عشر فقال: «وله منظومة في فقه السَّادة المالكية، وقد كتب عليها حاشية جليلة، وله (**شرح على رسالة في علم الميقات**)، قد جمع ما نشرته يد الشَّتات، وله (**تاريخ**) على طريق الرَّمز والإيماء والإشارة، وصل فيه لقدوم محمَّد رشدي باشا الشَّرواني، الوزير الأعظم الذي كان قد تولَّى الصَّدارة، وله فيه

أسلوب عجيب، وطريق نادر غريب، وكان صالحا تقيًّا وفالحا نقيًّا، توفي سنة 1285هـ وترك أولادا أشهرهم الشَّيخ طاهر المشهور.

24) طاهر الجزائري (1268هـ):

ابن الشَّيخ صالح ـ السَّابق التَّرجمة ـ ولِد بـ (**الشَّام**)، وفيها أخذ معلوماته، وزار (**الجزائر**)، ونزل ضيفا عند المرحوم محمَّد السَّعيد بن زكري (**المفتي المالكي**)، والأستاذ بـ (**المدرسة الثَّعالبيَّة**) حوالي 1912م، وكان يتكلَّم اللُّغة القبائليَّة، كما كان يتقن اللُّغة الفارسيَّة، والتُّركيَّة، وقد اعتنى به كثير من علماء الشَّرق وترجموه، خصوصا صديقه أحمد تيمور باشا، فإنَّه ترجمه ترجمةً حافلة، في كتابه:(**أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث**)، ومن جملة ما ذكره تيمور قوله: «وإلى الشَّيخ طاهر الجزائري يرجع الفضل في السَّعي الحثيث في إنشاء كثير من المؤسَّسات النَّافعة في (دمشق) .. »

ومن مساعيه الحميدة تأسيس (**المدرسة الظَّاهرية**)، بـ (**دمشق**)، وإنشاء مكتبتها الكبيرة التي جمع فيها ما كان مبعثَرا من الكتب والمخطوطات القيِّمة في المساجد والمدارس... كما يرجع الفضل إليه في إنشاء (**المكتبة الخالدية**)، بـ (**القدس**)، توفى سنة 1919م.

25) الحاج المهدي السَّكلاوي البراثني (1200– 1278هـ):

خلَف شيخه علي بن عيسى ـ تلميذ محمَّد بن عبد الرَّحمـٰن الجرجري ـ على رأس (**الطَّريقة الرَّحمانيَّة**)، وقد قاوم الاحتلال الفرنسي، وبعد تغلُّب الفرنسيِّين خلَّف تلميذه محمَّد أمزيان ابن الحدَّاد على رأس الطَّريقة، وهاجر إلى (**الشَّام**) على رأس ثلَّة من تلامذته وأقاربه سنة 1263هـ، ترجمه عبد الرَّزاق البيطار في: (**حلية البشر في تاريخ القرن الثَّالث عشر**)، فمن جملة ما قاله في ترجمته: «وقد أخذ عنه كبراء (**دمشق**)

وعلماؤها، وحكَّامها وفضلاؤها، وأخذ عنه الوزير الكبير، والمشير العظيم الخطير، صاحب الدَّولة أحمد عزَّة باشا، وكان والي دمشق »، قال إنَّه توفي سنة 1278هـ: «ولماَّ وضع نعشه على الأعناق ازدحم عليه النَّاس حتَّى صارت كالبساط تحته، وانسدَّت الطُّرقات فلم يجد الإنسان طريقا للسُّلوك، وصلَّى عليه الألوف من النَّاس في (**جامع بني أمية**)، ودفن في (قاسيون)، في (مقبرة ذي الكفل) ...الخ ».

26) عبد الرَّحمـٰن بن علي الغبريني البجائي:

كان من علماء القرن التَّاسع، أخذ عن الشَّيخ عبد الرَّحمـٰن الثَّعالبي ـ دفين الجزائر ـ وله عدَّة تآليف، منها: (**تعليقه على شرح ابن مرزوق على البردة**)، وعدَّة كتب أدبيَّة، وفي البلاغة واللُّغة، وقد استوطن (**بجاية**) إلى أنْ مات في أواخر القرن التَّاسع.

27) محمَّد بن علي الشَّريف اليلُّولي:

صاحب (**معهد شلاَّطة**)، ومؤسِّسه، ولد سنة 1112ه، ترجمه تلميذه العربي بن مصباح (**قاضي بني يعلى**)، فقال: «هو الشَّيخ الفقيه العالم العلاَّمة الأستاذ اللُّغوي أبو الفضل السَّيد محمَّد ابن العالم الزَّاهد السَّيد علي الشَّريف (برَّد الله ضريحه) .. الزَّواوي بلدا، الشَّلاَّطي مولدا، اليلُّولي صقعا، ولِد (رضي الله عنه) سنة 1112هـ»، كان (**معهده**) الذي وصفه تلميذه العربي بن مصباح، به (300) تلميذ «إنَّه تكفَّل بمؤنة جميع الطَّلبة، وهم يزيدون على ثلاثمائة، وبمؤنة جميع الضُّيوف الزَّائرين ...الخ »، له عدَّة تآليف ذكرها في مقدِّمة تأليفه:(**معالم الاستبصار بتفصيل الأزمان ومنافع البوادي والأمصار**)، منها تآليف في (**السِّيرة النَّبوية**)، و(**سيرة الخلفاء ومَن بعدهم الملوك والعرفاء**)، و(**التَّوسُّم والاستدلال على محاسن أخلاق النِّساء والرِّجال**)، و(**كتاب في التَّوحيد**) باللُّغة الأمازيغيَّة، كما كان والده وخاله الشَّيخ الحلو مِن أكابر فقهاء تلك النَّواحي، إذ كانا يدرِّسان (**مختصرابن الحاجب**)، وغيره من أمَّهات كتب الفقه والأصول.

28) محمَّد العربي بن مصباح اليعلاوي:

محمَّد العربي بن الموهوب بن أحمد زرُّوق بن مصباح اليعلاوي، نسبة إلى بني يعلى العجيسي، وقد ترجم للكثير من أفراد هذه الأسرة الحسين الورتلاني في (**رحلته**)، فقد توارثوا العلم والتَّدريس أبا عن جدّ، والمترجَم تولَّى القضاء والتحق في زمان الطلب بـ (معهد شلاَّطة)، وهو الذي ترجم لشيخه محمَّد بن علي الشَّريف، وجمع ما قاله الشُّعراء في مدحه، رسالة قيمة سماها: (**توشيح طراز الخياطة**)، تعرَّض فيها لترجمة أستاذه المذكور، واستفدنا منها أنَّ ذلك (**المعهد**) كان يقصده طلاَّب الجنوب، كـ (المسيلة)، و(**الزَّاب**)، زيادة على طلبة (**زواوة**)، ثمَّ أهمّ ما في هذا التَّأليف (**إجازة**) المؤلِّف أجازه بها أحد أقاربه، ذكر فيها الفنون التي كانت تدرَّس بمعاهد (**بني يعلى**).

29) الحسين الورتلاني (صاحب الرِّحلة) (1125 - 1193):

كان الشَّيخ الحسين من بيت علم بـ (بني ورتلان)، وله اتِّصال ـ مصاهرة ـمع آل المقراني، وآل يحيى العيدلي، وكان يتردَّد على (بجاية) فيقضي بها شهر رمضان، وفي سنة 1179هـ ذهب إلى الحجِّ فدوَّن (**رحلته**) التي لها أهمِّيَّة لا من حيث وصفه المدقَّق لنظام الرِّحلة، والمحطَّات التي كانت تجمع فيها القوافل... الخ، ولكن لاشتمالها على وصف ما تبقَّى من معاهد بلاد القبائل العلميَّة، ولتعرُّضه لذكر بعض البيوتات العلميَّة، وإن أثقلَها وفرض عليها النَّسب المشكوك فيه، وكثيرا من الكرامات المبالغ فيها فإنَّها مفيدة جدًّا.

30) أحمد بن يحي بن حمُّود الورتلاني:

عالم فقيه من أسرة علميَّة توارث العلم أفرادها، ونشروه في تلك الجهات، وكانت لهم خزانة كتب مشهورة، ولا زال أفراد الأسرة يحتفظون بإجازة للمترجم أجازه بها

العلاَّمة شيخ الإسلام مرتَضى الزَّبيدي، وقد لقَّبه ـ وهو الضَّنين بالألقاب إلاَّ لمن كان يستحقُّها ـ بقوله: «الشَّيخ الصَّالح الإمام الهمام العلاَّمة مفيد الطَّالبين، ومربِّي السَّالكين، شمس سماء المعارف الإلهية، ومجلي ترقيات الفيوضات اللَّدُنيَّة، شيخ الوقت سيدنا ومولانا الشِّهاب أحمد بن يحي بن حمُّود (نفع الله به)، ولولده الصَّالح خليفته من بعده، أبي التَّوفيق سيدنا الحاج محمَّد»، ثمَّ يذكر علماء آخرين بأسمائهم، ويقول: «وسائر طلبة العلم الشَّريف في (**بني ورتلان**) أن يروُوا عنِّي .... الخ »، وتاريخ (**الإجازة**): شهر صفر 1203هـ .

31) عمر بن محمد بن عبد الرَّحمـٰن المنجلاَّتي:

كان أفراد هذه الأسرة من الأسر التي توارثت العلم قرونا واشتهرت أسماؤها في بلاد العالم الإسلامي لوفرة عدد أفرادها كأسرة المشداليِّ، وأسرة الغبريني ـ وأسرة اليتورغي ـ وأسرة المنجلاَّتي... الخ انتقل كثير من أفراد هذه الأسرة بعد سقوط بجاية إلى عاصمة الجزائر ومنهم مترجمنا الذي قال عنه تلميذه أبو عبد الله محمد بن قاسم بن زاكور الفاسي في رحلته المشهورة: (**نشر أزاهار البستان فيما أجازني بالجزائر وتِطوان**)، وقد طبعت في (**الجزائر**)، ثمَّ أعيد طبعها أخيرا بـ (**المغرب**)، قال في تعريفه: «ممَّن اقتبسني بكِلتا يديه، وأجاز لي رواية ما لديه، العالم الأشهر والحبر الأكبر، حائز الشَّرَفين العرَضي والذَّاتي، أبو حفص عمر بن محمَّد بن عبد الرَّحمـٰن المنجلاَّتي (أبقاه الله ونضَّر مرآه)، هو بقيَّة السَّلف، وبركة الخلف، الذي حمى الله به ذلك القطر من التَّلف، إذ عليه المدار في السير والأخبار، وإليه المرجع في كلِّ خطب مفزع، وإحكامه لقواعد العلوم هو الذي أمطاه فنه النُّجوم، وأعطاه شرفا غير مروم، يصول ويتصول الأصول... الخ»، «... وقد أفصحتُ عن علاه، في قصيدة طرَّزتها ببعض حلاه، وأنشدتها بين يديه، يوم ختمي(**جمع الجوامع**) عليه، وهو يوم السَّبت الرَّابع من جمادى الأولى من شهور

سنة أربع وتسعين وألف 1094هـ »، وقد قال في هذه القصيدة:

بقيَّـــة السَّـــلف المـــاضي ونخبتـــه ... لكـــن محاســـنه أزرت بمـــن غـــبرا

قاضي القضـاة الـذي لا شيء يعدلـه ... في عدله الذي فشا في النَّاس واشتهرا

بحر العلـوم التـي غاضـت مناهلهـا ... منذ زمان وسـيل الجهـل فيهـا جـرا

إلى أن يقول:

بـــدر الجزائـــر صـــان الله بهجتـــه ... عن أن يرى بخسوف البدر مستترا

وبحرها العذب لا زالت جداولـه ... روض العـــالمين البـــدو والحضـــرا

كما أنَّ حفيده العلاَّمة محمَّد بن أحمد بن عمر كان من أكبر علماء البلاد وأدبائها، وجدنا آثاره في منتصف القرن الثَّاني عشر.

وإنَّنا لو تتبَّعنا تراجم علماء هذه النَّاحية لما وسعتنا المجلَّدات، وكلُّ ما نقترحه أنَّ هذه البلاد خدمت العلم والدِّين الإسلامي، وغرست في نفوس السُّكان حصانةً ارتطمت بها كلّ المحاولات السِّياسيَّة والتَّبشيريَّة، في مختلف الأوقات، وبشتَّى الوسائل، فإنَّ أعظم خدمة نقدِّمها للأجيال التي حيل بينها وبين أمجاد أسلافها، تجديد مواقع هذه المراكز العلميَّة، والتَّعريف بتراجم علمائها.

الجوانب المجهولة
من حياة الأمير عبد القادر الثَّقافية[1]



والصَّلاة والسَّلام على رسوله الأمين.

توطئة:

إنَّ اعتناء الأمم بتراثها معناه الاعتراف الكلِّي لقيمة البحث في مجال الدِّراسة التَّاريخيَّة للتُّراث، واعتراف ضمني كذلك للدَّور الكبير الذي يلعبه التَّاريخ الحضاري في حياتنا المعاصرة، غير أنَّ الاعتراف بذلك لا يعني مطلق العزوف عن النَّظرة العميقة والدَّقيقة للحاضر والمستقبل، وإنَّما هي نظرة تجديدية للهيكل الحضاري بالاستناد إلى الماضي، في محاولة التَّصدِّي للأخطار التي تجابه تاريخنا وقيَمنا، والسُّمّ الذي نفثه أعداء الحضارات السَّامية التي احتضنها هذا الكوكب السَّيَّار على مراحل متنوعة من التَّاريخ الإنساني لهذه الشُّعوب، وأن المسؤولية تجاه هذه الحقب التاريخية ملقاة على عاتقنا جميعا، وأن التاريخ لن يتسامح معنا إن لم نقم بواجبنا بكل جدية وبكل نزاهة نحوها، وأن التشكيك سلاح خطير، بل ومن أخطر الأسلحة التي تواجه مجتمعنا المتطلع، نحو غد مشرق، الدائم الحركة والانفعال نحو البناء والتشييد، الساعي إلى تكوين جيل

(1) وأصلها محاضرة ألقاها في إطار الموسم الثَّقافي لمديريَّة التَّعليم الأصلي والشُّؤون الدِّينيَّة لولاية (**قسنطينة**)، يوم الجمعة 12 ربيع الثَّاني 1397هـالموافق لـ: 1 أفريل 1977م، بقاعة: كلية الشعب (قسنطينة).

يؤمن بالقيم والمبادئ، مقدس للمواقف والبطولات، شاعر بالمسؤولية التاريخية نحو تاريخه، في إطار الالتزام والصرامة الأخلاقية تجاه الحضارة، بكل ما تحمله من نور وفعالية...

وإذا كان التشكيك في تاريخنا قد انطلق على يد المفكرين الغربيين الذين ما فتئوا يستعملون أسلحة الموت والدمار ضد أرواحنا وتاريخنا، بادعاءات وهمية قصد إزالتنا عن خريطة الشعوب والأمم الضاربة في عمق أعماق التاريخ، غير أن الحقيقة كانت عكس ما كانوا يسعون إلى تحقيقه، حيث حافظ الشعب الجزائري عن تراثه الحضاري وتاريخه النضالي في المخطوطات، والوثائق، وحتى في الأضرحة وشواهد القبور ولئن قالوا كذلك عنا (تضليلا للرأي العام) إننا نمارس الفحش الفكري في ثقافتنا فإننا صمدنا وبرهنا بالعقل والعمل أننا أمة تحترم تاريخها وتتعامل مع تراثها بكامل الجدية والعناية وبكل تحفظ كذلك إزاء النظريات التخريبية التي ألصقوها بها.

إن تدهور الدول والمجتمعات وانحلالها يبدأ أول ما يبدأ في تشكيك علمائها والمنتضمين إليها بتراثها وقيمها الحضارية والعزوف عنها وازدرائها، ولما كان التراث الحضاري جوهر الحضارات وجامع قيمها ومثلها العليا ... فإن التشكيك فيه ونبذه معناه فقدان المجتمعات شخصياتها البشرية القومية المميزة لها وانعدام التماسك الاجتماعي فيها.

وإذا كان لابد أن نرفض هذا التشكيك حفاظا على أنفسنا وقيمنا من الذوبان والانحلال فلابد أن نكتب تاريخنا بوجه سليم طبقا للحقيقة التي وجد من أجلها[1].

وإنَّ (**المحاضرة**) التي هي بين أيدينا الآن جاءت كنتيجة حتمية لسد الفراغ الذي

(1) انظر مجلَّة: (**آفاق عربيَّة**)، عدد: 7 مارس 1977م، ص: 70، (مجلَّة عراقية).

ظل يعاني منها تاريخ الأمير عبد القادر الثقافي، وإن كانت صفة هذا البحث تتعامل مع التاريخ طبقا للأمانة العلمية، والنزاهة في البحث، والموضوعية في التحليل، فإن هذه الصفة كانت طابع الأستاذ **المهدي البوعبدلي** ـ عرف التَّاريخ وعرف قيمته ـ حيث أزال الغموض والملابسات بأسانيد ووثائق ومقارنات، لا تقبل الشك من حيث أصلها ولا تخضع للتأويل من ناحيتي الشكل والموضوع.

المتصرِّف لـ: (مديريَّة التَّعليم الأصلي والشُّؤون الدِّينيَّة)

لولاية (قسنطينة) م. التواتي

الجوانب المجهولة من حياة الأمير عبد القادر الثقافية:

إن شخصية الأمير **عبد القادر** كما هو معلوم، حظيت باهتمام الباحثين والمؤرخين من مختلف بلدان العالم، وقد خصصت بمئات التَّآليف التي لا زال معينها لم ينضب بعد.

كان في طليعة هؤلاء الباحثين، الكتاب الفرنسيون إذ مقاومة الأمير عبد القادر للاحتلال الفرنسي طيلة خمسة عشر سنة، وثقت الصلة بينه وبين قادة الجيش الفرنسي، الذين اكتسب الكثير منهم شهرة عالمية، بسبب خوضهم غمار الحروب مع نابليون الأول، في ساحات الوغى ببلدان أوروبا والمشرق، إلا أن اهتمام الكتاب المذكورين، كان مقصورا على الجوانب الحربية والسياسية من حياته، وقلّ من تعرض منهم لحياته الثقافية، والمصدر الوحيد الذي تعرض لها هو كتاب (**تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر**) تأليف ولده الأمير محمد، ثم إن الأمير محمد رغم الجهود التي بذلها لاستيعاب ترجمة حياة والده، قد ترك فراغا، حيث لم يتعرض لنشأته العلمية بما تستحقه شخصيته الفذة.

بل اقتصر على سرد أسماء بعض أساتذته في سياق أحاديثه التي طغت عليها النواحي السياسية والحربية.

وإنني في هذا البحث، سأتناول بعض الجوانب المجهولة من حياة الأمير الثقافية، كما أشرت إلى ذلك في عنوان هذه الدراسة، وأن المصادر التي اعتمدتها فيها علاوة على تحفة الزائر، هي مجموعة وثائق تشمل تآليف ورسائل ومذكرات وفتاوى، ومراثي، ومعظم هذه الوثائق كانت مبعثرة في خزائن خاصة وعامة، والكثير منها لم ير النور إلا في هذه السنوات الأخيرة وبالضبط بعد استقلال البلاد، وقد ركزت هذه الدراسة على استعراض تراجم أساتذة الأمير الذين أخذ عنهم مباشرة أو بوسائط، ثم تعرضت للجو الثقافي في عهده بـ **(الرَّاشديَّة)** التي ينتمي إليها، وهي المعروفة الآن بـ: **غريس** وكانت دار علم طيلة ثلاثة قرون، إذ كانت مركز إشعاع، وانبثاق لعلمي التوحيد والفقه، وكثير من المؤلفين ـ خصوصا في علم التوحيد ـ من بلاد المغرب العربي كانوا ينوهون بأسانيدهم في علم التوحيد التي تتصل بعلماء **(الرَّاشديَّة)** [1].

كما ذكر ذلك أحمد المقري التِّلمساني الشهير[2] في حاشيته على صغرى الإمام السنوسي التي قال فيها: (وقد كنت قيدت على أشياخنا بـ: **تلمسان**، قبل الأوان، وغيرهم من علماء بني راشد العارفين بهذا الشأن) والذي يؤسف له هو أن بعض المعاصرين، حاولوا تصوير الجو الثقافي في عهد الأمير على ما يخالف الواقع، إذ ادعوا أنها تدهورت فيه الثقافة حتى لم يبق في ذلك العهد من الثقافة إلا حفظ القرآن الكريم، ودراسة مختصر خليل الفقهي، ومبادئ بعض العلوم اللغوية، وعمموا هذا الحكم

(1) والمصدر الوحيد الذي تعرَّض لحياته الثَّقافية، كتاب: **(تحفة الزَّائر)**.

(2) أحمد المقري التلمساني المتوفى بمصر سنة 1041، ومن تآليفه: **(نفح الطيب)**، و**(أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض)**.

الجائر على القطر الجزائري كله، جريا على ما تواطأ عليه بعض الكتاب الأجانب، الذين كان هدفهم وصم العهد التركي في الجزائر بجميع المساوئ، ومنها انحطاطا الثقافة في عهدهم وتدهورها، إننا لا ننكر أن الثقافة تقهقرت كثيرا وضعفت في ذلك العهد في معظم البلاد الإسلامية، إلا أن الجزائر لم يصل فيها الانحطاط إلى الدرجة التي أراد افتراضها على التاريخ بعض كتابنا، ولهذا فإنني تتبعت في هذه الدراسة تراجم نخبة من أساتذة الأمير، وبينت مختلف المدارس التي كانوا يمثلونها أو ينتسبون إليها، إذ جل من ذكروا هؤلاء الأساتذة، اقتصروا على سرد أسمائهم من دون أن يتعرضوا لتراجم حياتهم ومكانتهم في المعارف، هذا وإن كان نظام التعليم لم يصل إذ ذاك إلى ما بلغه في العصر الحاضر الممتاز بالتخصص، وإحداث الشهادات الجامعية، فإنه كانت توجد مقاييس يتوصل بها إلى معرفة درجة الطالب وذلك مثل الإجازات التي كانت تعطى من المعاهد، يذكر فيها المجيزون الفنون التي تلقاها عنهم طالب العلم مع ذكر أسانيدهم فيها تلك الأسانيد التي كثيرا ما تصل إلى مؤلف الفنون، كما لا تخلو هذه الشهادات من الإشارة إلى درجة الطالب في الاجتهاد والمواظبة على الدروس والسيرة والاستعداد الفطري وتاريخ ولادة الأساتذة المذكورين في السند، ووفياتهم، وتاريخ التناول، والمكان الذي أعطيت فيه الإجازة وذكر من حضر معهم، [1] كل ذلك بضبط وتدقيق، هذا النوع من الإجازات كانت له أهمية عظمى، ودلالة واضحة على قيمة حاملها ومستواه.

وإن منعنا مجال هذه الدراسة المحدود من التعمق أو على الأقل من تقديم نماذج من هذه الإجازات، فلا يمنعنا ذلك من التنبيه عليها، حتى يتسنى لمن يهمهم الأمر من

---

(1) نجد في كثير من الإجازات ذكر من حضر المجلس الذي سلمت فيه الشهادة للطالب، يذكر كلا باسمه ومهنته ومن ذلك إجازة سعيد قدورة الجزائري لسليماني الروداني السوسي.

الباحثين، تتبعها ودراستها، إذ شخصية مثل شخصية الأمير، لا ينبغي أن يقتصر مترجموها على مجرد ذكر أسماء بعض أساتذته، وهذا النقص هو الذي ترك تسرب بعض الأغلاط بالنسبة لبعض معلميه الذين كان من بينهم معلمه الأول: والده السيد محيي الدين، فإن كثيرا من فقهاء البلاد كانوا ولا زالوا يعتقدون أنه مجرد فقيه، أي يدرس مختصر خليل، إلى أن عثرنا على وثيقة من هذه الوثائق التي اعتمدناها في هذه الدراسة، ذكر فيها صاحبها الفنون التي كان يدرسها بمعهده، واحدا واحدا، ومن جملتها التفسير والحديث والنحو والبلاغة وأصول الفقه والتصوف وما إلى ذلك، كما سنجد في ذكر هذه التراجم أدلة، لا يتطرق إليها الشك بأن ما تلقاه الأمير في معهد أسرته البسيط من الفنون، كان ثمرة معظم المعاهد العلمية المشهورة في البلاد الإسلامية إذ ذاك، مثل الأزهر والزيتونة والقرويين.

أسرة الأمير ونشأته:

ينتمي الأمير عبد القادر إلى أسرة مشهورة، تعرض ولده لذكرها في كتاب تحفة الزائر بمزيد من البيان والتفصيل، وما ذكره عنها هو محل اتفاق عند جميع المؤرخين ببلاد **الراشدية** الذين تخصصوا في فن التراجم والأنساب، بداية من القرن التاسع الهجري، كل ما أذكره في الموضوع، مكانة بعض أفرادها العلمية، التي امتاز بها بعضهم، مثل جده الأعلى **عبد القادر ابن خدَّة** الراشدي، الذي اشتهر في الميدان الثقافي بعدة تآليف، أشهرها حاشيته على صغرى الإمام السنوسي، وكذلك ولده أحمد المختار الذي أسَّس معهد بمدينة معسكر القطاع الغربي إذ ذاك، ولضيم أدركه غادرها إلى نسمط التي هي مركز الأسرة الآن ومدفن آباء الأمير وأجداده.

ثم ظهر ولد أحمد المختار، عبد القادر بن المختار، المشهور بسيدي قادة وهو الذي اشتهرت به القرية وسميت باسمه الآن (**سيدي قادة**) ثم ظهر واشتهر حفيده السيد

مصطفى بن المختار أي والد والده ـ هو الذي اختط قرية **القيطنة** الشهيرة قرب **حمّام ابن حنيفية** المعدني وأسّس فيها معهده ـ وفي قرية **القيطنة** هذه ولد الأمير عبد القادر سنة 1222هـ، أسس هذا المعهد حوالي سنة 1190هـ وكان من بداية تأسيسه معهدا علميا، أسندت إدارته إلى أمثل عالم في الراشدية، وهو العالم المفكر عبد القادر ابن عبد الله **المشرفي**، الذي حاز رياسة العلم في عهده، حتى لقب بـ: إمام الرَّاشدية، وقد ترك عدة تآليف، منها كتاب (**بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الأسبان من الأعراب كبني عامر**) ذكر فيها الأحداث التي أعقبت فتح وهران الأول الذي وقع سنة 1120هـ، بعد أن دام احتلال الأسبان لها ما يزيد على القرنين، وخصص هذا التأليف لذكر القبائل التي تعاونت مع الأسبان، وحكم الله فيها، وهو من التآليف القيمة في موضوعه، وقد حققه ونشره منذ سنوات قليلة د. **محمد بن عبد الكريم الزموري**، وكل ما ينبغي أن نلفت نظر القراء إليه، هو أنه وقع غلط في اسم مؤلفه الذي اشتبه باسم حفيده ابن عبد الله، أي ابن ابنه المعروف بـ: **ابن عبد الله سقاط**، وهذا هو الذي تولى الخلافة عند الأمير عبد القادر، أما مؤلف الكتاب جده الشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي إمام الراشدية، توفي قبل ولادة الأمير بنحو الثلاثين سنة، وبهذه المناسبة نقف وقفة قصيرة لتصحيح غلطة من غلطات كتاب (**تحفة الزائر**) الذي ذكر أن معهد القيطنة أسسه جد أبيه مصطفى ابن المختار سنة 1206 هـ، واعتمد هذا التاريخ كل من نقله عنه، وهو خطأ، والحقيقة أن المعهد أسس حوالي سنة 1190 هـ، كما ذكرنا ـ إن لم يكن قبله ـ وذلك أن الأستاذ عبد القادر بن عبد الله المشرفي الذي أسندت إليه رياسة المعهد توفي سنة 1192هـ.

باتفاق مترجميه الذين كان في طليعتهم تلميذه الخاص المؤرخ محمد أبو راس الناصري الراشدي الذي رثاه بمرثية طويلة، ضمنها تاريخ وفاته فقال:

همام ثوى ضحى الخميس لعاشر　　من شهر رمضان الهدى والمغافر
من سنة اثنين وتسعين قيدوا　　من بعد المائة والألف أهل البصائر

كما كان وصف المؤرخ **أبو راس** معهد القيطنة هذا في رحلته، قال فيها: «... وقد ذهبت إلى القيطنة ذات يوم... ووقفت بباب الجامع فإذا هو نوالة كبيرة لمحرابها، وعن يمينه بيت الشيخ المشرفي فرأيت الشيخ **مصطفى بن المختار** أحد تلامذة الشيخ المذكور يدرس في الأول من المختصر ثم رجعت في ساعة فرأيت الشيخ **مصطفى البطيوي** يدرس في الثاني، ولم يبال بي أحد من الطلبة كأني نسيا منسيا».

كانت زيارة المؤرخ أبي راس لقرية القيطنة قبل ذهابه إلى مدرسة مازونة، التي وصلها عندما وجب عليه الصوم، وأبو رأس كما هو معروف من مواليد سنة 1165 هـ، ولهذا إن أمعنا النظر نجد تاريخ التأسيس الذي ذكره صاحب **(تحفة الزائر)** وهو1206 بعيد جدا عن الحقيقة، وكل ما يمكننا افتراضه لإصلاح هذا الخطأ، هو أن المعهد طرأ عليه تجديد، حسبما ذكر ذلك نفس الأمير في مذكراته، التي أشرف على تسجيلها في **قصر أمبواز**، ويكون التاريخ الذي قدمه تاريخ التجديد له لا تاريخ التأسيس.

توفي السيد **مصطفى بن المختار** مؤسس المعهد حوالي سنة 1212هـ بـ: **برقة،** في طريق رجوعه من الحج وخلفه ولده السيد **محيي الدين،** الذي كان من مواليد نسمط سنة 1190، خلفه في التدريس ورياسة المعهد، وقد عثرنا على وثيقة ذكر فيها صاحبها الفنون التي كان يدرسها الشيخ **محيي الدين** بمعهد والده، وهي عبارة عن مرثية أحد تلامذته نال شهرة ومكانة فيما بعد، وهذه المرثية وإن كانت لغتها ضعيفة ومهلهلة إلا أن قيمتها التاريخية في موضوع بحثنا، لها أهمية عظمى، وهذه نبذة منها:

وبعـــد فـــإن الله أنجـــز وعـــده بفقد سخي الكف شـيخ الطريقـة

نصـيح لكـل المـؤمنين دلـيلهم لسـنة خـير الخلـق أزكـى البريـة

ترى كتب ابـن حاجـب وخليلنـا وألفيــة ابــن مالــك مــع غنيــة

وسـعد وسـلم وجمـع جوامـع وتفسـير مـا يـتلى كتـاب وسـنة

يقولون مـن لنـا بكشـف رموزنـا وحل غريب اللفـظ عنـد القـراءة

ومعرفـة الصـحيح مـن ضـده إذا تعارضـت الآثـار مـن غـير ميـزة

هلمـوا إلى دار العلـوم لتكثـروا تأسـفكم عـلى إمـام الأئمـة

فيـا أسـفي عـلى ربيـع قلوبنـا مزيل الصدا عنهـا بعلـم وحكمـة

ويـا أسـفي عـلى خليفـة مالـك إمامنا محيي الدين شيخي وعمدتي

ثم يذكر ولده **محمد السعيد** الذي خلفه في إدارة المعهد والتدريس فيقول:

خليفته السعيد فأبشر بـه تـرى نفائس علم مـع لذيـذ معيشـة

سعيدنا به فالتم شـملنا بعـدما تفرق صاح من عظـيم مصـيبة

وقـد زال عنـا مـا أصـابنا أولا وصرنا بحمد الله في خير منحة

ثم ختم مرثيته بذكر الأمير عبد القادر الذي بويع قبل وفاة والده بسنة واحدة فقال:

وزادنـا ربنـا العظـيم سـعادة بنشأة شمس النصر شمس الخلافة

بدت بعد أن عم السحاب سـماءها فضاءت على الأقطار عربـا وقبلـة

وقصدي به المنصـور عبـد القـادر بـه افتخـرت أم العسـاكر جهـرة

وقد أرَّخ قصيدته هذه بقوله:

وعامنا هذا فيه ساحت دموعنا من أجل رجال حافظين شريعة

فضمَّنه تاريخ (**المرثيَّة**) في أوائل حروف كلمات الشَّطر الثَّاني مِن البيت ـ أي: (**من**

أجل رجال حافظين شريعة)، على طريقة حساب الحروف الأبجدية، فكان المجموع (1249) ـ أي: سنة 1249هـ ـ وقد ذكر فيها وفيات أخرى أيضا، إن صاحب **(المرثيَّة)** هو المحدِّث الشَّهير محمَّد بن معروف **ابن هنِّي الونشريسي**[1]، تولَّى القضاء بـ **(مجَّاجة)**، وولاَّه الأمير عبد القادر ترشيح القضاة والولاة في المنطقة الشَّرقية، ثمَّ هاجر إلى **(تونس)** بعد الاحتلال، فانتصب فيها لرواية الحديث، وسنده فيه مشهور توفي بـ **(تونس)** سنة 1265هـ، حسبما ذكره تلميذه الشَّيخ علي بن الحاج موسى الجزائري في **(فهرسته)**.

والأستاذ الثَّاني الذي أخذ عنه الأمير مبادئ الفقه، وحفظ القرآن، هو السَّيد عبد القادر بن عودة المنصوري، من قرية **(الرحامنة)**، الموجودة في منتصف الطَّريق الرَّابط بين مدينَتي **(أرزيو)** و**(سيق)**، وهذا الفقيه، وإن كان على ثقة وطيدة بالأمير، حيث زاره في **(دمشق)**، وأقام عنده سنة كاملة لخبر يطول، لم يذكره أحد، وقد ترك **(منظومة)** في العبادات باللُّغة الدَّارجة، فيها أحكام الطَّهارة المائية والتُّرابيَّة، وأحكام السَّهو في الصَّلاة، استهلَّها بقوله:

يا عيني كي تنامي ويجيك النُّوم — وعـــذاب الآخـــرة يســـتناك
راكي أمهنيـة وعشـقتي النُّـوم — ذاك المنام هـو غشـك وأعـماك

ثمَّ يتعرَّض لصميم موضوعه أي أحكام الطهارة والسهو ويختم منظومته بقوله:

الله يرحم الشاعر وأهل اللـوم — والي ســـلكوا هـــذا مـــن ذاك
الله يـرحم المنصـوري معلـــوم — قدور ولد بنعودة شاب امعـاك

كما نجد من أساتذة الأمير المشهورين السيد أحمد بن الطاهر قاضي بطيوة المعروفة إذ ذاك بـ: **أرزيو**، والذي لفت أنظار المؤرخين إلى ذكر هذا القاضي، هو حكم مجلس قضاء

(1) لا زال أفراد أسرته قرب (وادي الفضَّة) يحتفلون بجدِّ الأسرة ـ دفين النَّاحية ـ.

الأمير عليه بالإعدام، وتنفيذ الحكم عليه بمدينة معسكر عاصمة المملكة في بداية أمر الأمير، ولهذا لا يخلو تأليف من تأليف مترجمي الأمير من ذكره، ومع هذا لم نجد من تعرض منهم لترجمته العلمية، إلى أن عثرنا أخيرا على نبذة منها في (**دليل الحيران وأنيس السَّهران من أخبار مدينة وهران**) ذكره ضمن علماء وهران، ووجدنا نبذة أخرى من ترجمته في كتاب: (**زهر الآداب في جمع شعر أفاضل الكتاب**)، تأليف العالم الشيخ محمود بن القاضي المجاهد الطَّاهر ابن حوَّاء[1]، ذكر فيه منظومة في المدح النَّبوي لمسلم بن عبد القادر الحميري، دفتر دار الباي حسن بـ (**وهران**)، وذكر الأدباء والكتاب الذين شرحوا هذه المنظومة، أو قرظوها، وكان من بينهم قاضي **أرزيو** الشيخ **أحمد بن الطاهر** الذي أخذ عنه الأمير، قال: «ومنهم الفاضل الجليل الجامع بين كل تعظيم وتبجيل، ذي المكارم والمفاخر، أبي العباس أحمد بن الطاهر، وهوالذي شرح العينية».

ثم قال في موضوع آخر من الكتاب: «وقد شرحها بعض من العلماء، وهو الأديب **أبو العباس أحمد بن الطاهر** (قاضي أرزيو)».

وتوجد نسخة من كتاب: (**زهر الآداب في جمع شعر أفاضل الكتَّاب**) بخطِّ مؤلِّفه الشَّيخ **محمد بن الطَّاهر بن حوَّاء** ـ المذكور ـ الذي كان قاضي المحلَّة في العهد التُّركي، وقد كتبها سنة 1237هـ، توجد بـ (**المكتبة الوطنيَّة**)، وقد حقَّقها ونشرها المرحوم الأستاذ: رابح بونار[2]قبل وفاته بقليل، من هذا يتبيَّن لنا أيضا، أنَّ الشَّيخ أحمد بن

(1) **الطَّاهر ابن حوَّاء**: (قاضي معسكر)، وعيَّنه الباي محمَّد بن عثمان فاتح (وهران)، عضوا لإدارة رباط وهران، فاستشهد في المعارك الأولى، واشتهر بالمجاهد، ذكر ترجمته بتفصيل مصطفى ابن زرفة في (الرحلة القمرية في الأخبار المحمدية)، التي ضمنها مراحل فتح مدينة وهران سنة 1206 حيث استشهد القاضي الطاهر بن حواء.

(2) طبعت حوالي 1974م. (م)

الطَّاهر تولَّى القضاء في العهد التُّركي، أي قبل مبايعة الأمير بما يزيد على العشر سنوات.

ومن أساتذة الأمير الشَّيخ **السَّنوسي بن عبد القادر الرَّاشدي**، مِن أسرة علميَّة شهيرة، كان والده الشَّيخ عبد القادر الرَّاشدي من أبرز علماء عهده، تخرَّج من (الأزهر) على الشَّيخ مرتضى الزَّبيدي، وعلى الشَّيخ **محمَّد الأمير**، وامتاز برواية الحديث، **(فهرسته)** مشهورة عند رجال الحديث بالمشرق والمغرب، وهو من أساتذة المؤرِّخ **أبي راس**، وتلامذته في آن واحد، وبذلك أشار في (رحلته) عند تعداد أساتذته، فقال: «ومنهم شيخنا في منطق المعقول، وتلميذنا في الفقه المنقول »، كما ترجم لولده السَّيد السَّنوسي ـ المذكور ـ ضمن ترجمة والده، فقال: «... وقال ابنه الأمجد الأنجد، وما أشبه الشِّبل بالأسد، تلميذنا العلاَّمة السَّيد السَّنوسي، ونصه، ومما وجد من كلام والدنا في مدح شرح الفقيه الإمام الأديب أبي المآثر والتآليف العديدة المفيدة، مولانا أبا راس الناصري... وقد تأملت مدح والدنا والشرح وما فيه، فوجدته يستجلبه الذوق »، إلى أن قال: «فمدحته بما نصُّه:

يا درة جذبت من خالص الدرر	ونظمت بعقيق أشهى في النظر
أذهلت طرا العقول الناس إذا نظروا	إليك في جيد ذات الخال والخور
لولاك ما طمحت نفس إلى حسن	ولا بدا حسن تلك الخدود الغرر
فخرت إذا سبكتك رائحة شرفت	يد الإمام أبي رأس على بصرى
أدامه للأنام معجزة	يعلم فضله أهل البدو والحضر

والسيد السنوسي هذا كان من تلامذة السيد محيي الدين، وهو الذي خاطبه بقصيدته المشهورة عندما ألقى عليه القبض بمعهده، حرس الباي حسن، وقادوه إلى سجن وهران فقال فيها:

عول على الصبر لا تفزعـك أشـجان	ولا ترعــك بـــما فاجتــك وهـــران
لم يثقفــوك أمحيــي الــدين عــن زلــة	رأوا ولكــن أشـقى القــوم شـيطان
إن العواقـــب في القـــرآن ثابتـــة	للمتقــين وصـــدق القــول قـــرآن
وأنـــت والله لم تـــزل عـــلى ســـنن	يهــدي إلى الحــق لم يملــك طغيــان
تقري الضيوف وتسعى في حوائجهم	وتحمــل الكــل لا غـــش ولا رأي
تبيت بين الدجى تتلو المفصـل عــن	قلـب وتصـبح مثـل الــبدر تـزدان
تـــدرس العلـــم مـــرة وثانيـــة	تلقـــن الــذكر والفــؤاد يقظـــان
والله أســـــأل أن أراك منطلقـــــا	تسعى وما حواليك حراس وأعـوان

ولما توسط بعض أعيان المخزن، واستبدل سجن السيد محيي الدين بالإقامة الإجبارية في وهران، لحق به ولده الأمير عبد القادر، فاغتنم هذه الفرصة للأخذ عن بعض علمائها، وقبل أن نتحدث عن أساتذته بوهران، ننهي حديثنا عن أستاذته بمعهد والده، والذين كان من بينهم خاله، العالم الشهير محمد بن عمر بن آمنة بن دوبة، سليل العالم الصالح الشيخ عمر بن دوبة، وقد اشتهر في التاريخ حيث حرر وثيقة المبايعة الثانية للأمير التي وقعت في المسجد الجامع بمعسكر، الذي اشتهر من ذلك العهد بمسجد المبايعة، وفي ذلك قال صاحب (**تحفة الزائر**) يذكر والده ـ الصواب جده ـ: «ثم خرج إلى المسجد الجامع فصلى بالناس، ثم خطب عليهم خطبة مبكرة، طويلة، تحتوي على وعظ ووعد ووعيد، وأمر ونهي، وحث على الجهاد، وبعد الانصراف منه، انفرد أفاضل العلماء لتحرير صك البيعة، فكتبه في مجلسهم العالم الجليل الشيخ محمد بن عبد القادر الشهير بابن آمنة ـ خال الأمير ـ والشيخ محمد بن آمنة هذا من بيت توارث أفراده العلم خلفا عن سلف، ولا زال إلى الآن كثير من أفراده على سنن أسلافهم، يتعزون بالانتساب إلى العلم وخدمته، والمساعدة على نشره، وقد أمدني أحد الأصدقاء

منهم بوثائق هامة، كما ساهموا في حرب الأمير بالنفس والنفيس، وسأذكر مرثية لبعضهم ألف رسالة أحصى فيها أفراد أسرته الذين استشهدوا في حرب الأمير، يربو عددهم عن العشرين، وذكر المواطن التي استشهدوا فيها، وأعقبها برثاء قريتهم التي هاجرها سكانها وهذا النوع من المراثي شهير في تاريخ الأدب العربي من عهد الفارس العربي الأديب أسامة بن منقذ[1] بطل الحروب الصليبية (480 ـ 534) الذي أثبت كثيرا من هذه المراثي في تأليفه (**المعازل والديار**)[2]، وأسامة خصَّص مراثيه لأفراد أسرته الذين زلزلت منازلهم ليلة واحدة فلم تبق منهم أحدا ولم تذر.

أمَّا قريب خال الأمير وأستاذه فقد رثى المجاهدين في حرب الأمير، وقد ركَّزها على رثاء قريتهم ووطن (غريس) كلّه، إثر انتهاء المقاومة، فقال يخاطب أخاه:

يـا أسـفى عليـه وعـلى غـريس	قــد بــان حزنــه ولا لــه أنــيس
فـــارتحلوا ســـكانه وفقـــدوا	منـــه وفى أركانـــه لا يوجـــدوا
أهل الجيـاد الصـافنات العواتـق	فميــــزوا بزينـــــة البنـــــادق
أهل السيوف الصاقلات للجهاد	فــأمروا بهــا لإصــلاح الفســاد
فـــارتحلوا قاطبـــة مـــن وطنـــه	فأســـود حالـــه بفقـــد أهلـــه
فحالـــــه مماثـــــل لحـــــالي	فيــا أســفي قــال عــلى الرجــال

إلى أن قال في ختامها:

(1) **أسامة بن منقذ**: كان مستشارا عند صلاح الدِّين الأيُّوبي، وترك عدَّة تآليف، أهمُّها كتاب: (**الاعتبار**)، الذي حقَّقه فيليب حتَّى الكاتب اللُّبناني الشَّهير، وطبعته إحدى الجامعات الأمريكية، حوالي سنة 1930م، وقد أقطعه صلاح الدِّين بلاد (المعرَّة).

(2) كانت توجد منه نسخة بـ (**خزانة لينين غراد**)، (**روسيا**)، وشرع في طبعها (**المجلس الأعلى للبحوث الإسلاميَّة**)، بـ (**مصر**).

فشــتتوا في ســائر الأقطــار	تنــوحهم بالليــل والنهــار
أدركهـا الحـب علـيهم باكيـة	بــأدمع لمــا أراهــا شــاكية
ألهمني الشكوى لسـان الحـال	بكاؤهـا كـان عـلى الرجـال
فـارتحلوا تركوهـا بــلا وداع	فـذهبوا وخلفـوا نعـم البقـاع
أعنــي بهــا منــازل العــوالم	مــن أبــدلت أفراحهــا مــآتم
زاهــرة كانــت عــلى البلــدان	بتــدريس العلــوم والقــرآن
مشــائخا أئمــة كــانوا بهــا	باكيــة علــيهم طــول ليلهــا
عرفــوا بالــذكر والصــلاح	والفضـل والتقـى وبالنجـاح

وهذه المرثية وإن كانت ضعيفة في السبك والوزن، خصوصا إذا قورنت بمرثية أسامة بن منقذ، التي هي من روائع الفن، إلا أنها لم تقل عنها تأثيرا وروعة من حيث المحتوى، وشتان ما بين من مات تحت الأنقاض ومن مات في ساحات الوغى، وتتميما للموضوع الذي استطردناه لذكر مرثية أسامة بن منقذ التي قالها عندما رجع إلى قريته، التي غاب عنها ووقعت الواقعة أثناء غيبته ولم يجد منها إلا أطلالها فقال:

لم يترك الدهر لي من بعد فقـدهم	قلبـا أجشـمه صـبرا وسـلوانا
فلـو رؤوا لقـالوا مـات أسـعدنا	وعاش للهم والأحـزان أشـقانا
لم يترك الموت مـنهم مـن يخـبرني	عنهم فيوضـح مـا لاقـوه تبيانـا
بادوا جميعا وما شـادوا فواعجبـا	للخطب أهلك عـمارا وعمرانـا
هاذي قصورهم أمست قبـورهم	كذاك كانوا بها من قبـل سـكانا
ويح الزلزال أفنت معشري فـإذا	ذكرتهم خلتني في القوم سـكرانا
بني أبي أن تبيدوا أو عـدا زمــن	عليكم دون هذا الخلق عــدوانا
فلن يبيد جوى قلبي ولا كمـدي	عليكم أو يبيـد الـدهر شـهلانا

أفسدتم عمري الباقي علىّ فما أنفك فيه كئيب القلب ولهانا

ولم يكتف أسامة بن منقذ بهذا الشِّعر الحزين حتَّى ضمَّ إليه ما وجده من أشعار غيره.

نكتفي بهذا القدر الذي جرنا سياق الحديث إليه، ولنرجع إلى بقيَّة تراجم أساتذة الأمير، فخاله هذا، زيادة على ما قاله عنه صاحب (تحفة الزَّائر)، من أنَّه ارتجل تحرير صكِّ البيعة في مجلس ضم ثلَّة من أعلام ذلك العهد، فنجد ترجمته أيضا في تأليف العالم الأديب الشَّيخ **الطَّيب بن المختار**[1] ـ ابن عمِّ الأمير ـ، المسمَّى بـ **(القول الأعمّ في بيان نسب الحشم)**، في معرض حديثه عن أسرته، فقال: «ومن علمائهم المشهورين بين العلم والولاية، سيدي **ابن يامنة بن دوخة،** خال ابن عمنا الأمير عبد القادر أيده الله، فإنه كان سيبويه زمانه، وأصبحيّ عصره وأوانه، وكانت الرياسة فيهم قديما وحديثا في بيت **أولاد ابن دوخة،** وفي بيت **أولاد سيدي البشير**، و**أولاد سيدي محمود،** وفيهم كان الفضلاء والعلماء والله ولي التَّوفيق».

وقد ترك الشيخ **ابن آمنة** عدَّة قصائد، منها قصيدة في مدح النَّبيِّ ﷺ، تربو أبياتها على (150) بيتا، ختمها بقوله:

جمعني دهر بمن قلوته رغما على أنفي فما العشر مرا

ومن أحب منه قد احضلني فرق شملي منه دهر قداسا

فصرت كالفلو ثناءت أمه يريد أن يلحقها وقد وجا

---

(1) الطَّيب ابن المختار: عالم أديب، نشر بعض قصائده صاحب **(تحفة الزَّائر)**، رافق الأمير بعد إطلاق سراحه في سيره إلى المشرق، ثمَّ رجع بأمر من الأمير، وتولَّى خطَّة القضاء بـ **(تيغنِّيف)**، وكانت مكاتبته مع الأمير متواصلة.

شـافهني دهـري بكـل محنـة وقـد سـقاني كؤسـا مـن الأ لا
أذوق يومـا فيـه مـر حنظـل وتـارة يسـقيني سـلوانا حـلا
يرفعنـي طـورا عـلى منصـة وتـارة إلى الحضـيض والهـوا
يـذودني يومـا عـلى حياضـه وأحيانـا يكـون لي منـه حضـا

وبعد لحاق الأمير بوالده وإقامته في (**وهران**)، أخذ عن مفتيها زوج عمَّته الشَّيخ ابن التُّهامي، والد العالم البطل الشَّيخ مصطفى بن التُّهامي، الذي تولَّى الخلافة في عهد الأمير، وكان قائد المنطقة الغربيَّة عندما ثارت في ربوعها آخر معركة حاسمة وقعت بين الأمير والجيش الفرنسي، وهذه المعركة هي التي وقعت قبل وضع حرب الأمير أوزارها بسنة واحدة، خسِر فيها الجيش الفرنسي ثلاث مائة قتيل، وقد وقعت بـ (**الكركور**)، قرب (**مغنية**)، واشتهرت في التَّاريخ، خصوصا عند الكتَّاب الفرنسيِّين بـ (**واقعة سيدي إبراهيم**)، اسم ضريح موقعه بين مدينتي (**ندرومة**) و(**مغنية**)، أصبحت هذه المعركة وهزيمتها، محلَّ اعتناء قادة الجيش الفرنسي، وقد خصَّها الجنرال أزان عضو(**الأكاديمية العسكريَّة**)، بـ (**باريس**)، بتأليف وضع فيه الوثائق الهامة سنة 1948م[1]، وقد حمل مصطفى بن التُّهامي قائد المنطقة إذ ذاك، مسؤولية قتل الأسرى الفرنسيِّين لخبر يطول.

رافق مصطفى بن التهامي الأميرَ عبد القادر إلى منفاه بفرنسا، ثم إلى المشرق حيث أدركه المنون قبل الأمير بمدة، وسنتحدَّث عنه.

ومن أبرز أساتذة الأمير الذين نختم بهم القائمة السَّيد **أحمد بن محمَّد بن حسن**

---

(1) ألَّف الجنرال أزان (Azan) هذا التَّأليف بمناسبة مرور قرن على هذه المعركة، التي هي من المعارك الحاسمة في التَّاريخ، وقد وقعت بعد ظنِّ جميع قادة الحرب، أنَّ الأمير تلاشت قواه والتجأ إلى حرب الكرِّ والفرِّ.

خوجة المستغانمي، كان من كتَّاب الباي حسن بـ **(وهران)**، وهو أخو حسن خوجة صاحب كتاب: **(درُّ الأعيان في أخبار مدينة وهران)**، الذي كان من مصادر كتاب: **(دليل الحيران وأنيس السَّهران في أخبار مدينة وهران)** لـ: **أحمد بن يوسف الزّياني**.

والأخوان المذكوران من بيت علم توارث أفراده الكتابة في دواوين الإنشاء لبايات **(وهران)**، وقد ترجم لأبيهما المؤرِّخ أبو راس في رحلته: **(فتح الإله ومنَّته بفضل الله ونعمته)**، وهو السَّيد محمَّد بن حسن، المعروف بـ **(الكاتب المستغانمي)**، كان كاتبا عند الباي **محمَّد بن عثمان** (فاتح **وهران**)، قال أبو راس في ترجمته: «لسان الدَّولة، وفارس الجولة، الذي عظم مكانه ورفعه، وأفرد له متلو العزّ وجمعه، وأقرَّه وشفعه، وقرَّبه في بساط الملك تقريبا، فتح له باب السَّعادة وشرعه، وأعطاه لواء العلم الأعلى فوجب على من دونه من أولي صنعته أن يتبعه، وحسبك من ذمام من لا يحتاج إلى شيء معه، العالم الفقيه، الحبر النَّزيه، والأمثل الأفضل الأكمل، ذو البلاغة والجزالة، السَّيد محمَّد بن حسن، من بيت علم وصيانة».

نقتصر على هؤلاء الأساتذة الذين ثبت أنَّ الأمير أخذ عليهم مباشرة، وممَّا لا شكَّ فيه أنَّه يوجد في عهدهم علماء آخرون نالوا شهرة في البلاد الإسلاميَّة، بفهارسهم وتآليفهم، ومناظراتهم، والجلُّ منهم حضر في البَيعتَين.

وقبل أن نواصل حديثنا عن حياة الأمير في الميدان العقائدي، نذكر حالة البلاد في تلك الفترة الفاصلة بين الاحتلال الفرنسي ومبايعة الأمير، وانطباعات بعض علماء البلاد الذين سجَّلوها، وقد كان مِن جملة الوثائق التي اكتشفت في هذه السَّنوات، وثيقة جوهريَّة في الموضوع، لمؤلِّف من أقارب الأمير، غير معروف تماما، وهذا التَّأليف سمَّاه صاحبه: **(زهر البساتين في بيان الاسم الأعظم بالأدلَّة والبراهين)**، بيَّن مؤلِّفه محتواه في تقديمه الذي قال فيه: «وبعد، فيقول العبد الفقير إلى الله... **محمَّد العربي بن أويس بن**

محمَّد بن عبد القادر بن أحمد المختار بن عبد القادر بن أحمد المعروف بـ **(ابن خدَّة)** الرَّاشدي أصلا (لطف الله به اللُّطف الجميل، وخار له في المقام والرَّحيل... لماَّ وهن العظم منِّي واشتعل الرَّأس شَيبا، وبلغتُ مِن الكِبر ما ينيف على نيِّف وستِّين، علمت نفسي علم يقين، أنَّها راحلة في عسكر الرَّاحلين، وعضل الدَّاء، وعزَّ الدَّواء، وفقد الأطباء، ولاسيما هذه السَّنة التي هي المحرَّم الفاتح 1248هـ قد اشتدَّت فيها المحن، وكثرت الفتن، من يوم خربت **(الجزائر)** وثغر **(وهران)**، بسبب الرُّوم الفرانسيس، وذلك بأوَّل محرَّم الحرام فاتح 1246هـ فخلت الأرض من الحكَّام، وكثر القتل والهرج والخصام، وتعطَّلت الشَّرائع، وعمَّت الذَّرائع، وذلك من عمالة **(تونس)**، إلى بلاد **(وجدة)**، والمؤمن في حيرة، كالشَّاة في اللَّيلة المطيرة، وإن كان للحكَّام ظلم وجور، فهم أولى مِن أهل الفسوق والفجور، وبفقد الحكَّام يفسد الدِّين والدُّنيا، ويموت الإنسان ميتة جاهليَّة، فالتجأتُ إلى الله في جمع تأليف، يكون إعانة للطَّالب في كل المطالب، وفي كلِّ طريق، كالرَّفيق الشَّفيق، وكنتُ في أوان الشَّباب، قد فتح الله علينا في كثير من علم الأسماء والحروف والأوقاف والحساب، بعد التَّضلُّع في السُّنَّة والكتاب، أردت بحول الله وقوَّته أن أجمع سفرا وسيطا لا مختصرا ولا بسيطا مشتملا على فضل الدعاء ورفعة شأنه، والاسم الأعظم وتبيانه مضيفا إلى ذلك ما شاء الله من أدعية الإجابة والقبول، وأسباب بلوغ المقصود والمأمول، مؤيدا بآيات قرآنيَّة، وأحاديث نبويَّة، وحكايات صوفيَّة، وأشعار حِكميَّة، وسمَّيته: **(زهر البساتين في بيان الاسم الأعظم بالأدلَّة والبراهين)**».

ومؤلِّف الكتاب كما ذكر، يجتمع مع الأمير عند جدِّه الرَّابع، أي عبد القادر بن المختار، المشهور بـ **(سيدي قادة)**، إلاَّ أنَّنا لم نجد له ذكرا فيما وصلنا من كتُب ذلك العهد، وقد أيَّد ما قاله هذا المؤلِّف، كثيرٌ من المؤرِّخين الذين تعرَّضوا لوصف حالة البلاد بعد انهيار الحكم العثماني، واسترجاع رؤساء القبائل والإقطاع نفوذهم، وكان

مِن جملة مَن تعرَّض لوصف حالة البلاد أيضا، العلماء الذين وقَّعوا صكَّ المبايعة الثَّانية للأمير، ومِن جملة ما علَّلوا به المبايعة، حياة الفوضى والاضطراب التي اجتاحت البلاد إذ ذاك، ولهذا فإنَّني أكتفي لتدعيم ما ذكرناه بوصف رجل خبير تحمَّل مسؤوليَّة حكم القطاع الوهراني عدَّة سنوات، وعاش إلى سنة 1249هـ، أي بعد تولية الأمير بسنة، وهذا المسؤول هو السَّيد مسلم بن عبد القادر الحميري، الذي تقدَّم لنا الحديث عنه، وكان **(دفتر دار)**[1] عند الباي حسن، الذي أدركه الاحتلال الفرنسي، فقد خصَّ الاحتلال الفرنسي بـ **(منظومة)** تشتمل على (143) بيتا، نظمها سنة 1246هـ، وتعرَّض بتفصيل لاحتلال مدينتَي **(الجزائر)**، و**(وهران)**، واقتطفنا منها بعض أبياتها، وهي:

ثغـر الجزائـر بـه حـل الـبلا   فانحل عقد النظم منه وخـلا
قد جهز الأصفر جيشا فاجتمع   وحث في السير حثيث المنتجـع
في عام لـه مـن القـرن العـاشر   كـان ابتـداء الملـك للجزائـر
فامتد ملكهم به كاف وسـينين   حتى إذا كمل الوعد كان البين

ثم تعرض لاحتلال مدينة وهران فقال:

في خامس من صفر حان الرحيل   لأهل وهران خوفـا مـن التبـديل
فـــروا بأنفســـهم وخلفـــوا   بهـا ملـك الوقـت عنـه انحرفـوا
وافترقـوا شرقـا وغربـا ومـاجوا   وساحوا في كل الأوطان وعاجوا
فـارتكبوا وانشـتبوا وانتهبـوا   وانهتكـوا وانتهكـوا وانتكبـوا
في يوم ذي حر والناس سكـارى   كيومهم في الحشر صاروا حيارى

كما ردد صدى هذا الاحتلال كثير من سكان الجبال، ومن جملة الوثائق التي عثرنا

---

(1) (دفتر دار): معناه كاتب عام، كان (**الدَّفتر دار**) يشرِف على الشُّؤون الإداريَّة المدنيَّة، برتبة (**وزير**).

عليها رسالة للشيخ أبي زيان أحمد بن علي بن رابح الونشريسي مؤرخة في الثامن محرم 1246 هي عبارة عما نسميه اليوم منشورا، وجهه إلى تلامذته ومعارفه قال فيه: «والسلام يعم جميع المسلمين من كافة ناحية(**الكرايش**)[1] وغيرهم من أجناس المؤمنين، لأن الجهاد قد حل عندنا في ناحية المشرق، فسلطان الجزائر كان اليوم محصورا في مدينته، والنصارى دائرون به، دائرة الحلقة، وهو يطلب من يعاونه في الجهاد في سبيل الله، لأن الكفار خرجوا لبرنا وغنموا محال السلطان، وصار هرجا كبيرا، فإن المجاهدين في سبيل الله قد مات منهم ستة مائة وكذلك الروم أكثر من ذلك العدد» اه. ـ لا زالت أسرة هذا العالم في **ونشريس** ـ.

في هذا الجو المضطرب المتلاطم الأمواج، تكون مؤتمر البيعتين، الذي لم يكن تلقائيا، إذ كان مسبوقا بمؤتمرات، وقع آخرها سنة 1225 هـ بمعسكر، وهو الذي نجم عنه رباط وهران الشهير، الذي مهَّد للباي محمد بن عثمان الكبير فتح وهران، وقد خصص هذا الرباط، وفتح وهران الذي أعقبه، بعدة تآليف، والذي يتتبع تاريخ وفيات علماء الراشدية يجد قائمة المستشهدين منهم في حرب وهران طويلة ومتواصلة ولهذا وقع اختيار المؤتمرين على أمثل شخصية دينية وهو السيد محيي الدين الذي تنازل عنها لولده بعد أن قاد جيشه وخاض به معركتين حاسمتين مع الجيش الفرنسي على أبواب وهران، ظهرت فيهما بسالته، رغم شيخوخته ومرضه، كما ظهرت فيهما بطولة ولده عبد القادر.

ومن حسن حظ التاريخ أننا عثرنا على قصيدتين لشاعر شعبي شهير[2] سجل فيهما هاتين المعركتين قال في الأولى:

---

(1) **قبيلة الكرايش**: تمتدُّ بين ناحية (**تيارت**)، و(**عمِّي موسى**) ـ (**ونشريس**) ـ.

(2) هو الشَّيخ عدَّة التَّحلايتي، الذي تولَّى القضاء، وكان من سكَّان (**قبيلة تحلايت**)، قرب مدينة (**سيق**)، وهو من فحول شعراء الملحون ـ أي: الشِّعر الشَّعبي ـ.

يـــــا ســـــائل راني نعظــــــم	في ذا الجـــــــيش أليّ تلايــــــــم
أمشـــــى للبهجــــة أيـــــزادم	وعمل خصلة ضارب أعدا الرحمٰن
ســـيدي محيـــي الـــدين دبـــر	في ذا الـــــرأي وجـــــا مزيــــــر
في ســـيق نـــزل يـــا الحـــاضر	هو والمبروك الفحل بـن زيـان[1]
مــــن ثــــم ركبـــوا العـــاصر	الأقطاب اجتمعوا واتفقوا في ديوان
خليفــــة للجهـــــاد لبـــــى	وأجمــــع قومــــان الغرابـــــة
قــال لهــم مــا كـــان هربـــة	مـن يهـدر في الغيـب اليـوم يبـان
للميمـــــر نعطــــوا امكبــــا	والي مـات منـازلوا جنـة رضـوان

ثم قال يصف المعركة الثانية التي وقعت بعد الأولى بثلاثة أشهر:

يا سـائل نعيـد لـك هـاد الغيـوان	يوم تحركـوا نجوعنـا لـبلاد الـروم
الأقطاب اثنين جمعوا في ذا الديوان	وانصرهم يا الطالب الحـي القيـوم
حمر اللحيا الشَّيخ الفحل بن زيـان	يبغـي الجهـاد قـدها عـز المضـيوم
محي الدين الوقيح زيفـط للعربـان	جاته الإسلام كافـة تـرأس وقـوم
أمحـال قويـة التمـت يـا فرسـان	لا من يحصي عدادها هيلات طموم

وقد ذكر الشَّاعر القبائل التي شاركت في هاتين المعركتين، واحدة واحدة، لم تتخلَّف منها قبيلة، إذ كانت المعركتان قبل تمرُّد مصطفى بن إسماعيل ورفقائه على الأمير، وقد أشار إلى هاتَين المعركتَين صاحب (**تحفة الزَّائر**)، فقال: «في أواخر ذي الحجَّة سنة سبع وأربعين ومائتَين وألف جهَّز سيدي الجدّ سريَّة عقد عليها للسَّيد **عبد القادر بن زيان**

---

(1) يقصد به الشيخ عبد القادر بن زيان تلميذ الشيخ محيي الدين وهو دفين (مقبرة سيق)، وله ذرية بها.

الزياني، بعثه لاستكشاف أحوال العدو بـ (**وهران**)، فلمّا قرب ترامى له العدو معسكرا في ساحتها، في الموضع المعروف بـ (**خنق النِّطاح**).

فأقام يراقب حركاته، وطيَّر الخبر إلى سيدي الجدّ، فنهض مِن (**القيطنة**) أمام (**واديسيق**)، وأرسل في البلاد ينادي بالجهاد، وبعد أن تلاحق النَّاس به سار بهم إلى ساحة (**وهران**)، ودارت بينهما رحى الحرب، وكثر القتلى من الفريقَين ».

تكوين الأمير العقائدي:

نشأ الأمير عبد القادر بمعهد جده بـ (**القيطنة**)، فتأثَّر بالجو الدِّيني الذي كان يسود المعهد، وكان (**المعهد**) كما يعرفون أمثاله في زماننا: مركز تكوين الدعاة، فامتازت ثقافته الدينية والعقائدية بصبغة التصوف الذين كانوا يرونه متمما للعلوم الدينية، ينفخ فيها روح التهذيب والتربية الفاضلة، بعيدا كل البعد عن الشعوذة والجمود والدعوات الكاذبة الملفقة، كـ: القطبانية والغوثانية، وتلك الدعوات التي تصدى لمحاربتها أئمة التصوف من السَّلف والخلف.

بقي الأمير محافظا على ثقافته الدينية التي تلقاها في معهد الأسرة ولم يتنكر لها طول حياته، وبفضل هذه الثقافة التي طبعته بطابع الاستقامة في السلوك، نال ثقة القبائل وأهل الدين، تلك الثقة التي تجلت في مبايعتهم إياه، إذ كان في طليعة المبايعين نخبة من رجال العلم والدِّين الذين كان من بينهم أساتذته وأساتذة أساتذته.

اشتهرت أسرة الأمير من عهد جده الأعلى الشيخ **عبد القادر ابن خدَّة**، وولده أحمد المختار الذي سبق ذكرهما بنشر العلم وتلقين أوراد الطريقة القادرية، وقد ترك أحمد المختار منظومة مشهورة في مناقب مؤسس الطريقة القادرية الشيخ **عبد القادر الكيلاني** (دفين بغداد)، افتتحها بقوله:

قـول لمـن أعيـا الطبيـب علاجـه وقد مل مـن شرب الـدواء لعلَّـةِ
ألا لُذ بمحيـي الـدين يـا طالـب وعـوِّل عليـه في الأمـور المهمَّـةِ

اشتهر جده الأقرب الشيخ مصطفى بن المختار بعد رجوعه من حجته الأولى، التي زار خلالها بغداد وجدد الورد القادري الذي صار يلقنه بمعهده الذي أسسه بـ: **القيطنة**، وكان زيادة على تبحره في علوم الدين أديبا موهوبا وشاعرا ممتازا، وهذا نموذج من شعره اقتطفناه من قصيدة مدح بها أحد أساتذته سجلها في ختام مخطوط نسخه له قال فيها:

كتبتـه لصـاحب المجـد العـلي الهاشـمي قـدوتنا بـن عـلي
إمامنـا ذي الشـرف المـؤثل شـيخ التقـى والعلـم والتبتـل
الراشـدي موطنـا ومولـدا الحسـني نسـبا ومحتـدا
قطـب بـدور صـفوة الإلـه بقطرنـا مـن آمـر ونـاهي
رئـيس أهـل العلـم والدرايـة والفقـه والتفسـير والروايـة
مولى المواهـب الجزيلـة العـدد رفعـه رافعهـا بـلا عمـد

أما ولده السيد **محيي الدين** الذي خلفه فقد كان من جملة الكتب التي يدرسها بمعهده، كتاب الغنية الذي ذكره تلميذه في مرثيته كما ألف تأليفا سماه: (**إرشاد المريدين**)، ولما ذهب إلى الحج صحبة ولده، وبقي في المشرق سنتين زار خلالهما بغداد، وجدد الورد القادري ولبس الخرقة على العادة المتبعة، من هذا كله يتبين لنا أن تربية الأمير العقائدية طبعته بطابع تجلى عليه طول حياته، فعندما تولى الحكم لم تستهوه لقاراته، ولا حياة البذخ والترف والقصور التي كان يحياها ولاة البلاد في العهد التركي، فضلا عن حياة البايات، وقد سبق له مشاهدتها في تونس ومصر والبلاد

الشرقية التي زارها رفقة والده، عندما ذهبا إلى الحج [1] .

ذكر المؤرخ **بليسي دورينو** (Pelissier d eRaynaud) في تأليفه: **(الحوليات)** (les annales)، بل يصفه بعد تربعه على عرش المملكة فقال: «كان بسيطا في مسكنه، يعيش بمدينة معسكر بعد مبايعته، كبقية مواطنيه، لا حرس له، كان ملبسه أبسط من مسكنه، لا يميل إلى الزخرفة والرفاهية إلا في الخيل والسلاح، كان ميالا للثقافة، يستغرق أوقات فراغه القليلة في المطالعة، ومن شدة اعتنائه بالثقافة، كان يصحب معه دائما خزانة كتبه، ولم تظهر عليه شارات الملك، إلا عندما يغادر عاصمته حيث يتخذ بيت شعر جميل، يسهر مع مساعديه إلى الثلث الأخير من الليل ثم ينام ويستيقظ لأداء صلاة الصبح بالناس ويجلس إثرها مباشرة لإلقاء درس تارة في التفسير وتارة في الحديث» اهـ.

وقد أيَّد ما قاله المؤرِّخ **(دورينو)**، الرَّائد الفرنسي (طارطارو) (Tartareau) الذي أوفده إليه الجنرال **(دوميشال)** قائد المنطقة الوهرانيَّة، الذي أبرم معه معاهدة الصُّلح المشهورة باسمه، قال **(طارطارو)** فيما نقله عنه الأستاذ: **(إيمريت)** [2] في تأليفه **(الجزائر في عهد الأمير عبد القادر)**، قال: «وجدناه جالسا في مكتبه الخاص، وهو عبارة عن بيت ناصع البياض، وعلى يمينه ويساره نحو الأربعين مخطوطا، كلُّها مجلَّدة، وكان كاتبه جالسا عن يساره، وهناك مقعد فارغ على يمينه يسع أربعة أشخاص، والبيت مفروش بزربيتَين مِن نسج القلعة » اهـ. ـ أي: **(قلعة بني راشد)** ـ .

لم يتنكَّر الأمير لتربيته الدِّينية بعد توليته المملكة رغم صِغر سنه، وشعوره بقيمته

---

(1) ذكر الأمير في **مذكِّراته** الحفاوة التي لاقوها عند عميد أسرة الكيلاني الذي استضافهم بمصر وحياة البذخ التي كان يحياها، فختم روايته بقوله: «إن الملوك والسلاطين يعجزون عنها » أوفي معناه.

(2) إميريت (emerit) كان أستاذا بجامعة الجزائر.

البطولية التي ظهرت للملأ في المعارك التي قادها والده، وتمكن من اختطاف جثة ولد أخيه من بين مخالب أعدائه كما أنه لم يتخذ أسوته عندما تولى الملك السلاطين والملوك وباشاوات الأتراك، بل اتخذ أسوته ومثله الأعلى الخلفاء الراشدين فجعل دستوره الشريعة الإسلامية ومعاملته للرعية كانت معاملة زعيم ديني، فكان يؤم جيشه في الصلوات وبعد فراغه منها يجلس للوعظ والتوعية، ويذهب للمسجد الجامع لفصل الخصومات، وكان أول عمل إيجابي قام به: التسوية بين أفراد الشعب، فألغى النظام الطبقي الذي ساد البلاد طيلة العهد التركي، فسوى بين طبقة المخزن والرعية، وفرض على الجميع الزكاة بدلا من الخراج، ثم اختار إطارات دولته من رجال العلم والدين والنزاهة، وتولى مراقبة جميعهم، فكان صارما على المخالفين، حتى أنه حكم على أستاذه أحمد بن الطاهر بالإعدام ونفذ فيه الحكم، حاول خصومه أن يثيروا ضده عصبية بعض من اتهموه بقتلهم، كخليفته الحاج محمد العريبي[1]، وقد تبرأ من هذه التهمة وذهب بنفسه لتقديم تعزيته إلى أهله وإقناعهم بأن موته كان طبيعيا إلا أنه خصومه كانوا له بالمرصاد وعزموا على استغلال الموقف، فكلفوا صهره الشاعر المشهور الطاهر بن حواء الذي سبق له أن حرر عقد تعيينه الخليفة العريبي، إذ زاره الأمير صحبة والده محيي الدين وأقره في حكم منطقته كخليفة له، وكانت منطقته تمتد من سهول مليانة على مستغانم، وتولَّى الشَّاعر الطَّاهر ابن حوَّاء تحرير عقد لتعيينه وأعجب بإنشائها الأمير، كما ذكر ذلك في (مذكِّراته) التي سجَّلها بـ (قصر أمبواز)، كلَّفوه أن يثير ويثبت الكمين

(1)الخليفة الحاج محمَّد العريبي: كان له نفوذ ديني وسياسي في عهد الأتراك، فقد كان أوَّل خليفة عيَّنه الأمير، وأقرَّه على حكم منطقته الممتدَّة من **(وادي الفضَّة)** إلى **(مستغانم)**، حسبما ذكر ذلك الأمير في **(مذكِّراته)**، بـ **(قصر أمبواز)**، ولما بلغه تمالأ خلفاء العهد التركي عليه دعاهم لمعسكره، وكان مِن بينهم العريبي الذي توفي بـ **(معسكر)**، ورغم ذهاب الأمير لأهله لتعزيتهم وأقامهم وإقناعهم بموته الطبيعي انضم أخوه ابن عبد الله إلى المتمردين.

الذي نصب للخليفة وأن موته كان غدرا، ولهذا طلب أخذ الثأر، فأذاع مرثيته، التي ضمنها ما سماه خديعة، إلا أن الرَّأي العام كان واعيا وإن مال أخوه وبعض أفراد عشيرته إلى مصطفى ابن إسماعيل فمعظم القبائل بقيت وفيَّة للأمير، وهذا نصُّ **(المرثية)**:

شي نار قلبي وين الربيع النجال	فحل الفحول حمادي(1) غاس اخيالوا
مدوا ايديهم اغريس وعملوا ما بغاو	في الشرق ذا المعرة وجريمة كاينا
إلا جبال شومو طاحوا وامساهلها اعلاو	ولى الجران ياكل ثعبان اعيانا
امنين كان عمر انجوعوا ما دوارا	امنين مات محمد زال اهنانا
اخشاش الارض طلت واثعالبها اعواوا	والصيد ذل ما قعدت فيه اخشانا
تعلموا الحكومة فينا من لا اسواوا	ورما وافى الجبل دار فينا عاهانا
قتلوا بغير حشمة واسقاوا الي اسقاوا	ولى المخ في الكعزة يا فطانا
مات العقيد محمد غير ابلا قتل	ولا عليه هيلات اطموم شالوا
ولا افنات فرسانه بدق النصال	قعدوا محيرين إيمان وشمالو
الأمان وصله لشمايت عز الدلال	طاقوا بغير حق امقدر مقتالوا
وقتلوه موت غفلة ما هوش بالقبال	في دار مظلمة متوثق بكبالوا

وتأييدا لما ذكرناه من أن أغلب معاصريه كانوا يرون أن استقامته هي التي فرضت طاعته، نذكر ما قاله في الموضوع نقيب أشراف الجزائر قال بعد أن ذكر ظروف مبايعته فلم يدرك من توله الإمارة شأوه، ولا قاربه أو حذا حذوه، ثم ذكر نبذة من معاركه فقال: «... سل عن تردده في الصفوف أودية سيق، وشعاب خروف، وسل سكان مستغانم، وكم أخذ من أسرى وغنائم، وسل ثنية مزايا، وما نال فيها من قتالها من

(1) يقصد محمد العريبي.

المزايا... والحاصل أن مدة ولايته على إقليم الجزائر مدة سبعة عشر سنة، لم يحصل من دولة الأتراك من الطاعة (وطول المدة 335 سنة) ما حصل له في هذه المدة اليسيرة... فبسبب عدله، وإحياء سنة نبيه أحيا الله ذكره في جميع الدنيا » اهـ.

هذه صفحات من حياة الأمير الثقافية نرى أنها أثقلت ميزان رصيد سمعته الدينية، التي كان يتمتع بها عند الرعية، إذ لم تكن له عشيرة قوية يعتمد على نفوذها، ولا جيشا نظاميا متدربا على الحروب، إذ الجيش النظامي التركي والمخزني انحل، وتفككت عراه بعد هزيمة الأتراك، وما تبقى منه انضم إلى مصطفى بن إسماعيل الذي كان عونا للجيش الفرنسي وكان الأمير بين نارَين: مقاومة جيش الاحتلال، ومقاومة جيش مصطفى بن إسماعيل، فالجانب القوي الذي استعان به في تلك الظروف، هو الجانب الروحي الذي هو مدين به، إلى تكوينه الديني الذي لازمه طول حياته، ولم يحد عنه قيد أنملة، فقد رأيناه أنه أيام توليته الحكم كان يقاسم أوقاته يبن الجهاد والعبادة والتوعية، فقد ذكر ولده في تحفة الزائر القصيدة الرائعة التي أنشدها كاتبه السيد **قدور بن رويلة** بمسجد المدية بمناسبة ختم الأمير لتدريس صغرى السنوسي، كما ترك الأمير نسخة من (**صحيح البخاري**) كتب في آخراها ما يلي: ختمت البخاري أربع مرات بعضه رواية وبعضه دراية وأنا الفقير إلى مولاه كثير الذنوب والأوزار عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى بن المختار الراشدي أمير المجاهدين... وشرعت في الخامسة وأنا محاصر تلمسان عجل الله بفتحها وأعادها دار إسلام وإيمان بجاه النبي وآله والبخاري ورجاله والسلام » اهـ.

وبعد تخليه عن المملكة كان دائما يقتصر في توقيعه على اسمه فيقول: «خديم أهل الله عبد القادر بن محيي الدين».

ومدة إقامته بسجن قصر أمبواز تقاسم مع رفقائه الدروس فتولى بعضها وتولى

تعليم الصبيان القرآن على الطريقة التقليدية، وعندما أطلق سراحه، واختار الإقامة بدمشق تفرغ لخدمة العلم فاستنسخ عدة مخطوطات وكان يشرف على المناظرات التي يدعو لها العلماء من بينها المناظرات التي كانت تقع بين مصطفى درغوث المغربي والد الشيخ عبد القادر المغربي عضو (**المجمع العلمي العربي**) بدمشق ومصطفى بن التهامي، وقد تناول الحديث عنها أخيرا د.محمد أسعد طلس في سلسلة محاضرات، ذكر بعض هذه المناظرات بين مصطفى درغوث المغربي ومصطفى بن التهامي. وإننا نظرا للارتباط الوثيق الذي كان يربط الأمير بقريبه مصطفى بن التهامي، ووعدنا بإتمام الحديث عنه، أختم هذه الدراسة بنبذة من ترجمته التي تعزز بها ترجمة الأمير في الميدان الثقافي والعقائدي: إن مصطفى بن التهامي الذي لازم الأمير منذ توليه الملك وتقلد مسؤوليات مرموقة، ختمت بتوليته قيادة جيش المنطقة الغربية، تفرغ بسجن أمبواز للتدريس وفيه نظم استغاثته المشهورة التي تربو أبياتها على 530 بيتا استهلها بقوله:

لما جرى القدر بالخلاف   ووقع الخلف بالائتلاف
ووجب الوحش بقفر اليم   والحق النقص ببدر التم
واقتنص الصقر عدو صائد   وللنعام في القرى وصائد
وابتعدت عن العقول حيل   واقتعدت بالاعتراف جيل
لم يبق إلا الابتهال والسكن   للقاهر المالك كل ما سكن

وقد ظهر تواضعه وقناعته فاقتصد في طلبه حيث لخصه في هذه الأبيات:

فامنن علينا بصلاح الحال   وأنقذن من شدة المحال
مولاي يا ذا المن والأفضال   داوي سقام دائنا العضال
نفسي مع الرفقة والأفذاذ   من ربقة الأسر إلى اللواذ

وبالفعل استجاب الله دعاءه وختم حياته مع الأمير في دمشق التي تولى في مسجدها الشهير المشهور بجامع بني أمية، إمامة المذهب المالكي إلى أن توفي بها رحمه الله سنة 1280 هـ وكان الأمير غائبا في الحج وكتب ولده السيد محيي الدين إلى صديقه أحمد تيمور باشا المصري ترجمته التي سنختم ببعض فقراتها هذه المحاضرة، بعد أن نذكر جانبا هاما من حياته إذ هو الذي تولى كتابة مذكرات الأمير بقصر أمبواز، تلك المذكرات التي ألقت الأضواء على كثير من النقاط التي كانت مجهولة في تفاصيلها خصوصا الحياة الثقافية بـ: **الراشدية،** وسفره إلى الحج، وقد ركز دراسته للحياة الثقافية بتحليل أسانيد علمائها، المتصلة بعلماء المشرق والمغرب في عهده، وعهد آبائه، كما تعرض لذكر سفره إلى الحج صحبة والده، وتبين طريق القوافل البرية إذ ذاك، وهي تخالف طريق الرحالين التي كانوا يسلكونها ابتداءً من القرن السادس الهجري، وتتميما لموضوع هذه الرحلة نذكر أن من جملة الوثائق التي ظهرت في هذه السنوات الأخيرة رسالة كبتها السيد محيي الدين من جزيرة قبرص في طريق رجوعهم من الحج، أما الأمير فقد تعرض في المذكرات لوصف الذهاب، وكل من المذكرات ورسالة السيد محيي الدين التي أرسلها إلى أخيه في طريق الرجوع من الحج هما من أهم الوثائق التاريخية.

وآن الأوان أن نختم هذه الدراسة بفقرات من ترجمة مصطفى ابن التهامي، التي كتبها قريبه السيد محيي الدين وفيها أكبر دليل، على أن وفاء مصطفى بن التهامي لتكوينه بمعهد القيطنة لا يقل عن وفاء الأمير عبد القادر وهذه هي الفقرات التي ختم بها السيد محيي الدين ترجمته التي قال فيها: «وكان رحمه الله جلداً عجيباً في العبادة، ففي شهر رمضان من كل عام كان بعد أن يصلي صلاة التراويح، ينفرد وحده في الجامع،

ويشرع في صلاة ركعتين يختم فيهما القرآن الشريف بتمامه، ويظل هذا دأبه في كل ليلة من الشهر» اهـ.

بهذا ننهي هذه المحاضرة التي تعرضنا فيها لحياة الأمير عبد القادر الثقافية التي كان مدينا فيها لمعهد أسرته، وقد رأينا من خلال صفحات حياته[1] أنه بقي وفيا لتكوينه في الرخاء والشدة، أو بعبارة أخرى في الجلال والجمال لم تعقه من أدائها حياة الملك أو السجن والمنفى حيث سجل اسمه في مصاف الأبطال الخالدين الذين جاهدوا بالسيف والقلم.

ملحق:

بعد هذه المحاضرة تناول بعض المغرضين كيل التهم للأمير في ختام حياته من بينها أنه كان يستجيب للحكام الفرنسيين وأنه امتنع من ضم جهوده إلى جهود أحمد باي، فصادف أن جامعة **الكوليج دوفرانس** بباريس عقدت ملتقى خاصا بحياة الأمير عبد القادر في المشرق وذلك ـ فيما أظن ـ سنة 1977، وكنت من بين المشاركين حيث تعرضت لحياته الثقافية وقد كان من جملة من تعرض لترجمة حياته الأستاذ شارل **آجرون** (Charles Ageron) تقتصر على مرحلة من مراحل حياة الأمير في المشرق كانت موضوع دراسة (Ageron) هو أن **نابوليون** كان يأمل أن تولي فرنسا وحلفاؤها شخصية عربية قوية تتولى المملكة الشرقية، ونظرا لموقف الأمير عبد القادر في قضية مذبحة المسيحيِّين وحماية الأمير لهم، انقلب الرأي العام الفرنسي لصالحه وتبخرت تهم المارشال بيجو له بمشاركته في قتل أسرى واقعة سيدي إبراهيم فحينئذ جدد **نابوليون** عرضه على الأمير مغريا إياه بميزانية تعجز عنها الدول العظمى فما كان جواب الأمير

---

(1) **أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث**، لأحمد تيمور، الطَّبعة الأولى (1387هـ/ 1967م).

إلا أنه لم يصب إلى تولية قط وإنما ظروف بلاده جعلته يقود المقاومة والدفاع وكانت النتيجة أن خسر المعركة فاختار رجوعه إلى خدمة أمته ودينه. وهكذا علق (Ageron) على موقف الأمير فقال: «إن فرنسا ليست وحدها التي كانت ترمي إلى حل مشكل المشرق بتعيين شخصية عربية قوية، بل كانت تشاركها أيضا انكلترا، ونالت ما كانت تصبو إليه، إلا أن الفرق بين الدولتين أن انكلترا وجدت من حسن حظها شخصية فيصل وأما فرنسا فمن سوء حظها وجدت عبد القادر في طريقها، وشتان ما بين الرجلين أي عبد القادر وفيصل ».

أما فيما يخص ضم جهود **أحمد باي** للأمير فقد تعرض **بيرم** في **(رحلته)** إلى تولية الأمير فأشاد بمقاومة الأمير البطولية وذكر ظروف الاحتلال الفرنسي ونجاحه لضعف حكم الأتراك الذين فقدوا ثقة السكان، ولهذا لم يجد الفرنسيون مقاومة من طرف الشعب، وقال: «إن **أحمد باي** عرض عليه الأمير ضم جهودهما لبعضهما إلا أن أحمد باي رفض تكبرا وتعنتا وفاته أن يدرك أن الشعب الجزائري لم تبق له إذ ذاك أية ثقة في الأتراك»، وساق أمثلة لذلك.

من هذا يتبين لنا أن هاتين التهمتين الشنيعتين اللتين لاكتهما ألسنة المزيِّفين والمغرضين نرى أن **بيرم** التركي القح الذي توارث أفراد أسرته المناصب السامية عند الخلفاء العثمانيين خصوصا بتونس اعترف بأن باشوات الجزائر خسروا الصفقة في أواخر عهدهم وساق أدلة مقنعة للتدهور والضعف وتعصب الجنود الأتراك للتمرد على السلطات وظلم السكان.

أمَّا ما تبجح به كتَّاب آخرون مِن أنَّ الأمير كان يستجيب لحكام بفرنسا فقد شهِد شاهد له مكانة وسعة إطلاع أنَّ الرَّجل عرِضت عليه مملكة بميزانيتها الضَّخمة فأبى ورفض، وكانت الحجج التي اعتمد عليها آجرون (Ageron)عند مناقشة كثير من

الحاضرين في قاعة اجتماعات (**الكوليج دو فرانس**)، وثائق هامَّة رسميَّة وخاصة.

ولا يفوتني أن أذكر في الختام أنَّه عثر أخيرا عند بعض الأسر الجزائريَّة التي هاجرت البلاد بعد الاحتلال الفرنسي ونهاية حرب الأمير أسرة مصطفى بن التهامي وكان ابن أخته تولَّى شرح غوثيته، وقدَّم لها تقديما أماط فيه اللِّثام عن الأسباب الدَّاعية في إنهاء حرب الأمير، سننشرها في فرص أخرى ـ إن شاء الله ـ.

المهدي البوعبدلي

حياة الأمير عبد القادر الثقافية
موضوع ملتقى: في كوليج دو فرانس بباريس

سبق لي أن أعددت دراسة موضوعها: (**الجوانب المجهولة من حياة الأمير عبد القادر الثقافية**)، وألقيتها في أوائل شهر أفريل الماضي بكلية الشعب في مدينة قسنطينة، وكان في الحسبان أن أعيد إلقائها بمركزنا الثقافي الإسلامي هذا، وفي تلك الأثناء وردت على الوزارة دعوة للمشاركة في ملتقى أعدته جامعة باريس الكوليج دو فرانس، موضوعه (دراسة حياة الأمير عبد القادر بدمشق) فأوفدتني الوزارة لتمثيلها في هذا الملتقى فتأجلت إعادة المحاضرة بالمركز الثقافي الإسلامي حيث أضفت لها ملخص ما دار في ملتقى الكوليج دو فرانس بباريس، وعلى هذا فموضوع سمرنا الليلة هو: (**لقطات من ملتقى الكوليج دو فرانس بباريس**)، ثم موضوع محاضرتي الأولى ـ أي: (**الجوانب المجهولة من حياة الأمير عبد القادر الثقافية**) ـ.

افتُتِح هذا الملتقى بقاعة المحاضرات في **الكوليج دو فرانس** صباح يوم الجمعة 20 ماي 1977 وكان المشرف على جلساته الأستاذ **جاك بيرك**، وحينئذ أحال إليَّ الكلمة فافتتحت سلسلة المحاضرات، وكان موضوعه تلخيص محاضرتي المتحدَّث عنها تحت عنوان: «**حياة الأمير عبد القادر العلمية وتربيته الدينية حسب الوثائق التي لم تَر النور**» كان الوقت المخصَّص لكلِّ محاضرة نصف ساعة، ثم تَتلوها مناقشة تستغرق ساعة، هي شِبه حِوار ـ أي: توجَّه الأسئلة للمُحاضر ـ وهي غالبا استفسارات وطلب المزيد مِن تحليل بعض النقاط المبهمة، فيجيبُ المحاضر، وكثيرا ما يشاركه بعض الأساتذة

الذين يشرفون على الجلسات مع رئيسها، هذا كله بعد تعليق المشرف على الجلسات على صلب المحاضَرة ومحتواها، كل هذا يفرغ في جمل مختصرة ليس فيها كلمة زائدة أو خارجة عن الموضوع، وكان عدد المشاركين مِن رجال ونسوة تمتلئ بهم القاعة، وعدد النسوة يفوق عدد الرجال، وامتازت بعض النسوة بأنهن بلغن مِن الكبر عتيا، وتَتبَّعن باهتمامٍ زائد المحاضرات والمناقشات، مما يدلُّ على تعمُّقِهن في الإطلاع على حياة **الأمير**، وهذا كلُّه في جوٍّ كانت الأَمطار فيه مُتهاطلة كأنَّنا في أشدِّ أيام الشِّتاء.

ثم أعقبني الأستاذ **جاك بيرك** فكان موضوع دراسته «**جوانب من كتاب المواقف للأمير عبد القادر**»، فاختار من هذه الجوانب بعض استنباطات أو استلهامات الأمير التي جارى فيها الأمير محيي الدين بن عربي دفين دمشق المشهور عند باحثي العلوم الفلسفية ومن جملة هذه الاستلهامات، ما ذكره ابن عربي فيما يخص قصة فرعون التي كان يرى أنه مات مؤمنا معللا ذلك بما لا يسمح لنا مجال هذه الدراسة المحدود بتتبعه، وكان هذا الرأي لمحيي الدين بن عربي هو الذي جلب له أسباب محنته حيا وميتا، من ذلك حملة الإمام ابن تيمة عليه واتهامه بالزندقة والكفر مما هو منصوص في التآليف المخصصة لهذه المواضيع الشائكة التي لا زالت مثار جدال بين الفرق الإسلامية وغير الإسلامية، كما أن **الأمير عبد القادر** كان يضيق ذرعا بالإمام **ابن تيمية**، ويؤاخذه بما كتبه عن القاضي **عياض**، حيث تشم من كتابته رائحة اللمز، وذلك عندما قال معرضا بالقاضي **عياض**: «وماذا أراد هذا المُغَيْربي »، فرأى **بيرك أن الأمير** في انتصاره للقاضي **عياض** لابدَّ أن يكون أحسّ أو شاهد في اغترابه أنواعا مِن هذا التعالي الذي كان كثيرا ما يشكو منه علماء المغرب الذين كانوا يهاجرون إلى المشرق، حيث يلزمهم لذلك أداء فريضة الحج، إن الصيغة التي صاغ فيها **ابن تيمية** انتقاده على القاضي **عياض** لم يقتصر فيها **ابن تيمية** على نقض آراء **عياض**، بل مسَّ شخصيته ذلك المسّ الذي ينمُّ على الإهانة، حيث قال: «هذا المُغَيْربي».

ثم وقف **بيرك** طويلا عند تحليل **الأمير** وتفسير آية الجهاد، التي بعد أن فسَّرها علَّق عليها بأن ضمير الإنسان لا يرتاح عند قتل الإنسان للإنسان، وكذلك لا يرتاح لتدمير وإبادة ما متَّع الله به عباده من زينة الحياة الدنيا، وختم انطباعاته ـ أي: **بيرك** ـ بقوله: «إن آراء **الأمير عبد القادر** هذه مدهشة، حيث إنها صدرت مِن رجل قضى حياته وشبابه في الجهاد الذي ظهرت فيه بطولته، وكثيرا ما أشاد بها في (**ديوان**) شعره »، ثم واصل حديثه عَن رأيه في المرأة، مما أثار تصفيق الحاضرات وتساؤلهن، ولا يمكننا أن نتوسَّع بأكثر مِن هذا، وإنما سنخصِّص ذلك ـ إن شاء الله ـ بدراسة خاصَّة عندما تتَّصِل بهذه المحاضرات، ثم تلا **بيرك** في جلسة المساء الأستاذ **شارل آجرون** (Charles ageron) الذي كان أستاذا بجامعة الجزائر، وكان موضوع أطروحته التي نال بها دكتوراه الدولة بعض مراحل التعليم في الجزائر، ثم زار أخيرا الجزائر حيث ألقى محاضرة قيِّمة بمركز البحوث التاريخية، كان موضوعها: (**حياة الشَّيخ محمد بن رحال الندرومي**)، وذلك في 24 مارس 1977، وكان موضوع محاضرته: «**موقف الأمير عبد القادر مِن سلطة العرب التي عُرضَت عليه**»، وهذه السلطة ـ أي: سلطه العرب بالمشرق ـ كان أول مَن فكَّر فيها **نابوليون الأول**، ثم اكتشف حفيده **نابوليون الثالث** هذا الحلم أو الأمنية في مذكِّرات جدِّه المذكور فتبنَّاها، وأقنع كثيرا مِن رجالات الحكم، وعندما ختم المطاف بالأمير إلى **دمشق**، ووقف وقفتَه المشهورة في الدِّفاع عن المسحيِّين الذين اغتيلوا بدمشق، انقلب الرأي الفرنسي دُفعةً واحدة، إذ كان يحمل الحِقدَ والعداء للأمير الذي حمَّله إعدامَ أَسرى آخِر معركة وقعت للأمير بِنَواحي مدينة **مغنية**، تلك المعركة التي اشتهرت عند الكُتَّاب الفرنسيِّين بـ: **معركة سيدي إبراهيم**، وكان عدد قَتلاها مئتي جندي، مِن بينهم قائدهم الكولونيل دو منطنياك (Do Montagnac)، وكان عدد الأسرى يَربو على (300)، منهم مائة أُسِروا في المعركة، ومائتان كانوا ذاهبين إلى وهران كحرَّاسٍ لقافلة تحملُ السلاح، فاستسلموا عن آخرهم لجيش الأمير،

لأَخبارٍ تطول، وهذه مِن الأسباب التي ثار لها الرأيُ العام، وتعرَّض لنقل الأمير إلى المشرق كما تعهد له بذلك الدوك دورلياه (Duc d'orléans) عند إبرامه معاهدة السِّلم مع الأمير بمرسى الغزوات التي فارق منها الوطن إلى الأبد، انقلب الرأيُ العام الفرنسي، وكانت صحافة **فرنسا** على نَزعاتها ومشاربها تؤيِّد رأيَ **نابوليون الثالث**، وقد تلا المحاضِر **أجرون** كثيرا مِن عيِّناتها، وتُبودل الاتصال بين أعوان **نابليون** و**الأمير**، وكان **الأمير** في أول الأمر يجامِل رسل **نابليون** ويَعِدُهم في التفكير قبل إجابته النِّهائية، إلى أن انتهى الأمر بأنهم أَوقَفوه أمام الأمر الواقع ـ أي: هيَّئوا له جيشا يتولَّى قيادته لاحتِلال **دمشق** ـ فحينئذٍ رفضَ وأجابَ بِصَراحتِه المعهودة فقال: «إنَّ الظروفَ والأقدار حمَّلتني مسؤوليةَ الدِّفاع عَن حِمَى وطني، فلم آل جُهدا مدَّةَ خمس عشرة سنة، وكانت تحرير البلاد وإرجاع سيادتها بعد طرد العدوِّ المحتل، إلا أنَّ قومي وصلوا إلى درجة لم تمكنهم معها مواصلة المقاومة، وزاد على هذا تألبُّ بعض القبائل علينا، وكان موقف الملك **عبد الرحمـٰن** (ملك المغرب) يتحين الفرص ليلقي عليَّ القبض ويسلِّمني إلى الفرنسيِّين، فاخترتُ إنهاءَ الحربِ ووَضع حدٍّ لها، وطُوِيَتْ صحيفة الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، الذي ينحصر في خدمة العلم والدين، فكرَّست حياتي لهذه الغاية، إذ لم يكن هدفي يوما من الأيام التربع على العرش، فغايتي كانت أنبل مِن السعي إلى سلطنة ومملكة زائفة »، ثم واصل حديثه **آجرون**، فقال: «أيس الفرنسيون مِن **الأمير**، وكان هذا الحلم ـ أي: تولية سلطان عربي على البلاد الشرقية ـ يشارك فيه الفرنسيِّين الإنكليز أيضا، وقد وصل **الإنكليز** إلى أمنيتهم ولو بعد حين، حيث عثروا على **فيصل**، ولكن مِن سوء حظِّ الفرنسيِّين أنَّ الأمير **عبد القادر** غير **فيصل** »، وبعد انتهاء **آجرون** (Ageron) من استعراض الوثائق العامة والخاصة القديمة والحديثة في موضوع دراسته، تعرَّض لقضية ذبائح المسيحيِّين إذ ذاك، فبيَّن أنها لم تنشأ عن حِقد عقائدي حاول ساسة ذلك العهد إلصاقها بها، كما لم تكن تلك المذابح تلقائية، بل هي امتداد

للسياسة الاستعمارية وتخطيطاتها، وإننا نرى أن هذه السياسة لم تنته بعد، إذ وقائع المشرق الآن هي من باب إعادة التاريخ لنفسه ـ وهنا بين قوسين اعتذر حيث قدَّمتُ الحديث عن دراسة **آجرون** على دراسة الأستاذ: (Chodkie wiez,Michel chodkieniez)، مدير البحث العلمي بالمركز الوطني للبحث العلمي، فإنه هو الذي افتتح جلسة المساء بدراسته ثم تلاه الأستاذ أجرون فمعذرة ـ.

تكلم الأستاذ المذكور الذي اعتنق الإسلام وذهب منذ سنة أو سنتَين إلى الحجِّ، فتناول بالبحث الجانب الرُّوحي من حياة الأمير واهتمامه المبكر ـ أي: منذ إلقائه عصا التسيار بدمشق ـ بشخصية الشيخ **محيي الدين بن عربي** الذي كان من الأعمال الإيجابية لهذا الاهتمام استنساخه لبعض تآليفه، منها الفتوحات المكية، وجمع حوله كثيرا من علماء دمشق لهذه الدراسات التي كانت تعقد لها ندوات بمحله، ثم ذكر الظروف التي جدّد فيها الأمير الطريقة الشاذلية بمكة عند اجتماعه بأحد مشايخها بموسم الحج وهذا الشيخ هو الشيخ **محمد الفاسي**، ثم حلَّل الأستاذ **ميشال** طرق أسانيد **الأمير**، ورأى أنَّ الأمير الذي كانت طريقته وطريقة أسرته القادرية، وأخذ الطريق الشاذلية، كان الداعي إلى ذلك حسبما يُستقرأُ مِن البحث في هذا الموضوع ـ أي: تجديد الطرق لغايات سياسية أكثر منها دينية ـ.

هذه فقرات من (**ملتقى الكوليج دو فرانس**) تعرضنا لها في سمرنا الليلة كتوطئة للمحاضرة التي عنونها: (**الجوانب المجهولة من حياة الأمير عبد القادر الثقافية**)، آملين أن نعود إلى الموضوع عندما نتصل بهذه الدراسات بعد طبعها، كما أن بعض المحاضرين المتخصصين في حياة الأمير عرضت لهم موانع عن الحضور فاعتذروا وستطبع دراساتهم . ولنواصل حديثنا الذي يدل عليه العنوان الأول: (**الجوانب المجهولة من حياة الأمير عبد القادر الثقافية**)، ولربما سيطول قليلا.

جوانب مجهولة
من تاريخ حياة الشيخ بوعمامة
(بطل ثورة 1881م)(1)

تقديم:

كانت هذه الثورة حلقة من حلقات سلسلة الثورات المتعددة التي اجتاحت البلاد الجزائرية في أواخر العهد العثماني ثم، استأنفت بعد الاحتلال الفرنسي، واكتست هذه الثورات صبغتَين: إحداهما سياسية والأخرى عقائدية، فالسياسة كانت متسببة عن القمع الذي قام به بعض الولاة العثمانيين، أما العقائدية فكانت تنجم عن الخلافات المذهبية عند ظهور بعض الطرق الصوفية، كالرحمانية الخلوتية، والتجانية، والشيخية، والدرقاوية، التي تصدَّت لها وقاومتها السلفية ابتداءً من القرن الحادي عشر الهجري، وكانت خاتمتها الطريقة الدرقاوية التي قادها مقدمها بالقطاع الغربي الشيخ عبد القادر بن الشريف الفرندي سنة 1220هـ/ 1805م وعزَّزها زميله محمد بن الأحرش بالقطاع القسنطيني، واستمرت هذه الثورة إلى أن لفظت الدولة العثمانية نفسها الأخير سنة 1246هـ.

وقد تمرد على الدولة العثمانية أيضا الشيخ **أحمد التيجاني** مؤسس الطريقة التيجانية وواصل التمرد ولده السيد محمد الذي لقي حتفه في عهد آخر باي بالأيالة الوهرانية.

---

(1) محاضرة الأستاذ الشَّيخ **المهدي البوعبدلي** في إطار (الملتقى الوطني للبحث في تاريخ المقاومة المسلَّحة بالجزائر خلال القرن 19م).

وبعد الاحتلال الفرنسي ظهرت ثورات تختلف قوة وضعفا بعد إنهاء الأمير عبد القادر حربه مع الفرنسيين بعد مقاومة عنيفة دامت حوالي خمس عشرة سنة، كانت هذه الثورات التي اندلعت بعد مقاومة الأمير عبد القادر: ثورة الزعاطشة التي قادها الشيخ بوزيان وواصلها الشيخ الصادق بن الحاج بجبل أحمر خد وحوالي 1850 بالأوراس، ثم ثورة أبناء سيدي الشيخ سنة 1864 وقد آزرها الشيخ الأزرق الفليتي بنواحي منداس وونشريس، ثم ثورة الشيخ محمد أمزيان بن الحداد شيخ الطريقة الرحمانية المشهورة في كتب التاريخ بثورة المقراني سنة 1871، ثم أعقبتها ثورة الشيخ بوعمامة ـ موضوع دراستنا ـ سنة 1881.

التعريف بأبناء سيدي الشيخ:

كان عميد هذه الأسرة الشيخ عبد القادر بن محمد بن سليمان بن بوسماحة المولود في قرية الشلالة الظهرانية سنة 951هـ وهو ينحدر من أسرة دينية اشتهر من بين أفرادها جده الشيخ سليمان بن بوسماحة تلميذ الشيخ محمد بن عبد الرحمٰن الساحلي مريد الشيخ أحمد بن يوسف الراشدي دفين مليانة الشهير، استوطن الشيخ سليمان جد مترجمنا عبد القادر ابن محمد بلدة **فجيج** التي كانت دار علم وقد لاقى فيها حفيده عميد الأسرة الشيخ عبد القادر بن محمد في عهده مقاومة عنيفة في المجال العقائدي، مرجعها إلى الخلافات التي أشرنا إليها فيما سبق من أنها كانت تظهر المرة بعد المرة بين السلفيين ومشايخ الطرق الصوفية، كان قائد هذه المعركة الشيخ أحمد بن القاضي المشهور بأبي علي صاحب معهد بني عباس بالساورة المتوفى حوالي سنة 1023 هـ وقد انضم إلى أبي علي وأيده كثير من علماء الشمال، أمثال الشيخ سعيد قدور المفتي المالكي في عهده وأستاذه الشيخ محمد بن علي المجاجي صاحب (**معهد مجاجة**)، والشيخ المشرفي المعسكري والشيخ أبو القاسم بن عبد الجبار صاحب معهد فجيج وغيرهم

وغيرهم، كانت بداية هذه المعركة سنة 1010هـ حسبما أرخها أبوعلي الذي كان له الفضل في تخصيصها بعدة تآليف أفادتنا، زيادة على المعركة مناخ الحياة العلمية في ذلك العهد والرابطة المتينة التي كانت تجمع بين علماء الشمال والجنوب.

إلا أن رغم شهرة العلماء الذين آزروا أبا علي فالشيخ عبد القادر بن محمد بقي محتفظا بمكانته وسمعته وذلك ما استفد ناه من رحلة أبي سالم العياشي الذي زار المنطقة بعد وفاة الشيخ عبد القادر المذكور وتعرَّف فيها بولده الشيخ أبي حفص وذكر في رحلته يصف مدينة القليعة ـ المنيعة ـ قال: «وبهذه القرية بنزل الشيخ الحاج الأبر سيدي أبوحفص بن الولي الصالح سيدي عبد القادر بن محمد بن سليمان بن بوسماحة ويعرف عند أهل بلده بسيدي الشيخ، وأولاده إلى الآن يدعون أولاد سيدي الشيخ »، ثم واصل العياشي حديثه فقال: «له حرمة وصيت في هذه النواحي كلها، يمّها وصحرائها خصوصا ولده هذا سيدي أبو حفص، فله هدي وصمت حسن وتنسك، مثابر على فعل الخيرات من جهاد وحج، فقد أفنى غالب عمره في التردد على الحرمين الشريفين وربما رجع من الطريق قبل أن يصل ولم يزل ذلك دأبه إلى أن توفي سنة إحدى وسبعين وألف (1071هـ) ودفن عند والده بمقبرتهم المعروفة بالأبيض قرب بوسمغون، وقد حججنا معه سنة تسع وخمسين وقفلنا معه إلى توزر وزرناه مرات عديدة ولقينا بعد ذلك في حجة سنة خمس وستين ونحن قافلون وتؤثر عنه كرامات، وله أتباع وكان يسير غالبا إلى الحجاز بنسائه وأولاده، ويعامله الناس كثيرا الأمراء فمن دونهم، ويتبركون به.

نقلت هذه الترجمة من مصدرها الأصيل إذ هذا النوع من المصادر ضاع جله، إلى أن صار معظم كتابنا وباحثينا عالة على ما كتبه الأجانب واقتصروا على الحوادث الحربية وجردوها من محيطها العقائدي الذي أكسبها أنصارا من القبائل التي توارثت التلمذة

والولاء للأسرة من عهد الشيخ سليمان وحفيده الشيخ عبد القادر بن محمد إذ حاول هؤلاء الكتاب الأجانب حصر الثورة في سبب واحد وهو التغيير الإداري الذي ألغى خطة (**خليفة**) وأبدلها بخطة (**باشاغا**)، ولهذا نجد وصف الرَّحالة العياشي له وزنه، وشهادته صادرة مِن شاهد عيان، حيث قال في ترجمة الشيخ أبي حفص وارث مقام والده الشيخ عبد القادر: «له حرمة وصيث في هذه النواحي كلها يمّها وصحرائها... الخ »، فقد ظهرت آثار ذلك في حياة الشيخ أبي حفص وبعد وفاته، إذ لا زالت مدينة القليعة تحتفظ بآثار معهد الشيخ أبي حفص، كما لا زال تاريخ هذه المنطقة يحتفظ لهذا الزعيم الديني بجم نشاطاته في المجالات الدينية والسياسية كالصلح بين القبائل وتسوية مشاكلهم ونشر تعاليم الإسلام.

هذا وإن كان كثير من الموطنين لا يعطون أهمية لهذا النوع من المصادر فإن كثيرا من المؤرخين الأجانب رغم تحفظهم يشيدون بها ويتخذونها مراجع ومصادر لدراساتهم مثل المستشرق الروسي **كراتشوفسكي** الذي خصص لهذه الرحلة فصلا ممتعا في تأليفه القيم: (**تاريخ الأدب الجغرافي العربي**) الذي قال فيه متحدثا عن الرَّحالة العياشي: «ويحتل أهمية خاصة في مادته الواقعية وصفُه لطرق القوافل من المغرب إلى مكة مع تبيان واف للمنازل المختلفة، كما توجد لديه تفاصيل تمكن من تبيان الحد الذي يفصل بين الأراضي الصحراوية والأراضي الصالحة للزراعة. وقد لفت إلى هذا منذ الأربعينات من القرن الماضي مترجم الرحلة بربريفجير غير أن المؤلف نفسه لم يعتبر كل هذا جديرا باهتمام الرحالة الجاد، فهو قد صرف اهتمامه قبل كل شيء إلى فحص مناهج العلوم الإسلامية في البلاد التي زارها بحيث يمثل كتابه- أي الرحلة- إلى حد ما، دائرة معارف فريدة من نوعها في العلوم والتصوف وقد رأى لزاما عليه أن يشير في كل موضع إلى المخطوطات النادرة التي زارها في الأماكن المختلفة، والمؤلفون المتأخرون في

المغرب استفادوا كثيرا من كتابه، وهو يحتل آخر موضع في سلسلة المنتجات الجغرافية التي نشرها **ريجيس بلاشير**، والتي كثيرا ما رجعنا إليها في تضاعيف كتابنا هذا، ولا يوجد بالطبع ما يبرر ذلك لأنه وجد بعد العياشي عدد من الكتاب من نفس الاتجاه يتممون التقاليد الجغرافية وإن لم يأتوا فيها بجديد، غير أنه يمكن على أية حال أن يعترف به كنموذج لجميع مؤلفي هذا العهد الأخير الذي لم يطرأ فيه أي تقدم في هذا الميدان إلى العصر الحاضر أو على الأقل إلى القرن التاسع عشر » اهـ.

من هذا يتبيَّن لنا وصف العياشي المعمق للمناطق الصحراوية التي كاد أن ينفرد بوصفها هي المصدر الوحيد الذي بفضل نشره كتب له الخلود، وأقل ما استفدناه منه فيما يخص الشيخ أبي حفص وارث مقام والده سيدي الشيخ اهتمامه ـ كبقية علماء عهده ـ بقضايا الجهاد، والحج حيث قال في وصفه:« إِنه مثابر على فعلِ الخيرات مِن جهادٍ وحجٍّ»، فإن تحريض أئمة المسلمين وذوي النُّفُوذ منهم على أداء فريضة الحجِّ وتنظيم القوافل، وتعيين أمراء الرَّكب لها، وحمايتها بحرس خاصٍّ، واتِّخاذ محطَّات طوال طرق القوافل، وتعمير أسواق تجارية لتموين القوافل في ذهابهم وإيابهم، واستضافة السكان للحاج والاحتفاء بهم مدة إقامتهم... الخ، كل هذا يبيِّن لنا أنَّ رفع منابر الإسلام بهذه المناطق حقيقة ملموسة، وقد ظهرت ثمرتها عندما انقطعت الصِّلة بين سكَّان الصَّحراء والدَّولة المركزية بالشمال، لما اشتغلت الدولة العثمانية بالدفاع عن ثغور البحر الأبيض المتوسط وتكوَّنت إمارات بالمناطق الصحراوية لها شبه استقلال ذاتي، فكانت إمارات مثالية استمرَّ حكمُها للبلاد حوالي قرنَين، كـ: إمارتَي **توقرت** و**ورقلة** الَّلتَين ضربتا المثل الأعلى في تسيير شؤون البلاد، والمحافظة على النظام والأمن، ورعاية الاقتصاد، فبرهنَت على أن تعاليم الإسلام كيفما كانت الظُّروف لا تعجز عن حلِّ مشاكل الحياة اليومية بسواء، منها المشاكل السياسية أو الحضارية أو الاقتصادية، وعندما نكبت

(الجزائر) بالاحتلال الفرنسي، وفتح باب الصِّراع على مِصراعيه لروَّاد الصَّحراء الذين كان في طليعتهم المبشِّرون، وجدوا في السُّكَّان حصانةً حالت بينهم وبين التَّنصير.

ثورة أبناء سِيدي الشِّيخ سنة 1864م:

امتازت ثورة أبناء سيدي الشيخ عن الثورات التي سبقتها في عهد الاحتلال الفرنسي أنها كانت منطلق تحويل وانتقال في سياسة الحكم الفرنسي بالجزائر وكانت أسبابها معقولة ولو حاول إخفاءها كثير من الكتاب والباحثين. فعندما اندلعت الثورة كان النظام الحاكم بالجزائر الموروث عن عهد الأمير عبد القادر يقسم البلاد على رأس كل منطقة حاكم مسلم يسمى خليفة، أي خليفة الملك إذ سلطته مستمدة مباشرة من سلطة الملك فاحتفظت السلطات الفرنسية بهذا النظام إثر الاحتلال ثم أبطلته وعوضته بإبطال خطَّة (**خليفة**) وإبدالها بخطة (**باشاغا**) الذي يستمدُّ نفوذه وسلطته مِن حاكم المنطقة العسكري أو المدني.

كانت منطقة أبناء سيدي الشيخ قبل اندلاع ثورتهم سنة 1864 بثورات قيادتها أفراد أسرتهم من بينهم السيد حمزة الذي كان خليفة لمنطقة أولاد سيدي الشيخ الشراقة ولما توفي سنة 1861 خلفه ولده السيد أبو بكر الذي توفي سنة 1862 فحينئذ خلفه أخوه السيد **سليمان بن حمزة** وفي عهد سليمان وقع تغيير نظام الحكم السابق الذكر أي إلغاء خطة **خليفة** وإبدالها بخطة (**باشاغا**)، والسيد **سليمان** هذا هو الذي أعلن الثورة على الفرنسيِّين سنة 1864م، وقد امتازت هذه الثورة كما ذكرناه سابقا أنها أحدثت هزَّة عنيفة ارتاعت لها أوساط الحكومة الفرنسية بالجزائر وبفرنسا معا، ومِن أهمِّ ما نتج عنها إصدار قانون **نابوليون** الذي فتح باب التَّجنيس على مِصراعيه، كما فتح حملةَ التَّنصير التي قام بها الكاردينال **لافيجري** كما سنبيِّن ذلك.

ولنرجع إلى الحديث عن الثورة التي عُرِفَت بـ: (**ثورة أولاد سيدي الشيخ**) التي ذهب كثيرٌ مِن الكتَّاب إلى أن أسبابها جرح عواطف السيد **سليمان**، حيث عيِّن (**باشاغا**) بدلا من (**خليفة**)، فهؤلاء الباحثون لم يجهلوا أسباب اندلاع الثَّورة فالثورة كانت على بصيرة مِن مفعول النُّفوذ الدِّيني الذي غذَّاها، كما كان المفعول الديني هو الغذاء لبقية الثورات في البلاد في أوائل عهد الاحتلال وأواخره كما سنبيِّن ذلك بمزيد من التَّفصيل في ختام دراستنا.

التَّعريف بالشَّيخ بو عمامة:

اسمه الشَّيخ **محمد** واسم والده العربي ابن الشيخ ينحدر من سلالة الشيخ التاج بن الشيخ **عبد القادر بن محمد** عميد أسرة أبناء سيدي الشَّيخ المتقدِّم الذِّكر دفين قرية الأبيض.

استقر السيد العربي والد الشَّيخ بوعمامة بقصر الحمام الفوقاني بضواحي بلدة فجيج التي كانت دار علم بالمنطقة، ومن **معاهد فجيج** تخرج عميد الأسرة السيد **عبد القادر بن محمد** المشهور بسيدي الشيخ، أما الشيخ **بوعمامة** فإنه أخذ عن والده العربي ثم عن مقدم زاوية سيدي الشيخ بقصر الحمام الفوقاني السيد محمد بن عبد الرحمٰن، وفي سنة 1875 انتقل بوعمامة إلى مقرار حيث عين مقدما على زاويتها التابعة لعميد الأسرة سيدي الشيخ وفي مدة إقامته بمقرار لاحظ أن نفوذ الأسرة الديني تضاءل وتقلص ظله، خصوصا بعدما تولى رؤساء الأسرة المناصب الحكومية بعد الاحتلال الفرنسي فحينئذ قام بوعمامة بنشاطات في المجال العقائدي من بينها إدخال تعليمات جديدة في الأوامر وتوجيه المريدين إلى مقاومة الاحتلال الفرنسي على نمط الطريقة السنوسية التي كانت تتركز على السلفية، وسمى طريقته العمامية، وركزها على نشر الدعوة الإسلامية ومحاربة التنصير الذي انتشر إذ ذاك في المناطق الصحراوية على طريق منظمة

المبشرين التي أحدثها الكاردينال لافيجري أسقف الجزائر، وهنا نقف وقفة قصيرة لنبين أن خطر التبشير كان أثره ملموسا بشمال **الجزائر** وجنوبها حيث استغل الكاردينال لافيجري المسغبة التي اجتاحت بلاد الجزائر سنة 1867م، ومات بسببها ثلاثمائة ألف نسمة من السكان المسلمين بسهول وادي الشلف، فحينئذ التقط الكاردينال لافيجري ما يربو على ألف طفل أيتام ولقطاء وافتتح كتاتيب لإنقاذ لقطائه إلا أنه بعد مرور خطر المجاعة امتنع من إرجاع لقطائه إلى أهليهم وذَويهم رغم تدخل السلطات الفرنسية بالجزائر وفرنسا، واختار إحداث دير في نفس المنطقة المنكوبة بسهول وادي شلف، ديرا اتخذه مركزا ومنطلقا للتبشير وأحدث قربه ضريحا رمزيا أطلق عليه اسم سان سيبريان الذي كان محاميا في القرن الرابع الميلادي بقرطاج وحكم عليه بالإعدام حيث اعتنق المسيحية فسعى له أنصاره في الفرار من السجن فامتنع واختار تنفيذ حكم الإعدام عليه ليسجل في قائمة ضحايا العقيدة والمبدأ .

لم يقتنع الكاردينال لافيجري بما قام به بل عزز ذلك بتوجيه إشعار إلى العالم الغربي من أعلى منبر إحدى الكنائس بباريس لمقاومة بيع الرقيق وافتتح اكتتابا آخرا لسد النفقات كما دعا لحملته المسعورة التي شنها على بيع الرقيق تدعيمها بالمتطوعين الأجانب الذين كانوا في ظاهرهم مبشرين، وفي الواقع جنودا مسلَّحين ليفرضوا التنصير بالحديد والنار، وكان من حسن حظ التاريخ أن سجل المرحوم **أحمد زكي باشا** المصري تأليفا خاصا بهذه القضية، وتبودلت بين الكاردينال **لافيجري** وخصومه الذين كان على رأسهم أحد سفراء الدولة التركية مقالات نشرتها الصحف العالمية لكشف القناع عن هذه القضية التي ختمت بالفشل الذَّريع واعتراف **الكاردينال**ـ وهو على فراش الموت بالجزائر ـ أن سبب نقض ما غزله مِن قضية التبشير بالصحراء هو ظهور الطريقة السنوسية، وذلك أنه كان يتعرَّض لطريق قوافل تجار الرقيق وهو بمعهده في

البيضاء ـ**ليبيا** ـ فيشتري منهم الصبيان ويرسلهم للتعلم بزواياه، ثم يعتقهم بشرط أن يرجعوا إلى أهليهم وذويهم ليعلموهم قواعد الإسلام، فمِن كل ما ذكرناه ولو بإيجاز نتصور مناخ البلاد الشمالية والصحراوية الذي عاشه الشيخ بوعمامة هذا وإن لم نتصل بأدلة على انخراطه في سلك أوراد السنوسية إلا أنه كزعيم ديني ينتمي إلى أسرة دينية نالت حظوة ونفوذا في تلك المنطقة كما أشار إلى ذلك أبو سالم العياشي في رحلته فيما سبق لنا ذكره عند حدثيه عن الشيخ أبي حفص حيث قال: «وله حرمة وصيث في هذه النواحي كلها يمّها وصحرائها »، ثم إن ما أثبته الكاتبان الفرنسيان **دوبون** و**كابولان** في تأليفهما المسمى: (**الطرق الصوفية**) الذي هو عبارة عن مجموعة وثائق رسمية جمعاها بأمر الوالي العام بالجزائر قانبو وقد طبع هذا المجموع بالجزائر في مطبعة جوردان سنة 1897 فقد أثبت الكاتبان أن الطريق العمامية المنتحلة من الطريقة الشيخية التي أحدثها الشيخ بوعمامة كانت لها الطريقة السنوسية أسوة ومثلا.

والحاصل أن شخصية الشيخ بوعمامة شخصية لامعة وبطولته في ميادين الجهاد بطولة جلية نادرة رغم قصر مدتها وهذا محل اتفاق بين من كتبوا عنه رغم اختلاف وجهات نظرهم، إلا أنه من الخطأ الفادح محاولة عزل ثورة بوعمامة عن ثورة أقاربه أولاد سيدي الشيخ بل هي امتداد لها كما سنبين ذلك، كما أنه من الخطأ أيضا محاولة عزل ثورة أبناء سيدي الشيخ عن محيطها العقائدي وجعل السبب في اندلاعها جرح كبرياء السيد سليمان الذي أوقد نارها سنة 1864 احتجاجا على تصرفات السلطات التي ألغت خطة الخليفة وأبدلتها بخطة باشاغا، والدليل على ما ذكرناه هو أن بعض الوثائق التاريخية أثبتت أنه قبل اندلاع ثورة أولاد سيدي الشيخ انعقد شبه مؤتمر سري حضره بعض أفراد أولاد سيدي الشيخ وأنصارهم، وقد كان من بين الحاضرين في هذا المؤتمر الشيخ ابن الطيب رئيس أولاد سيدي الشيخ الغرابة، والسيد جلول بن حمزة

الذي كان يقيم بالقليعة ـ المنيعة ـ وتبعته قبائل الخنافسة والتوراق ومعهم الزعيم ابن الناصر بن شهرة الذي كان يقود قبائل الأرباع... الخ.

هذا وإن ثورة أولاد سيدي الشيخ قتلت بحثا، ولا يسعنا المجال المحدود لهذه الدراسة للتعرض إلى مراحلها والدخول في تفاصيلها، ولكن لا يفوتنا أن نثبت ما سبق لنا ذكره من عدم عزل الثورة عن محيطها العقائدي كما تعرضنا للدور الذي قام به سكان الصحراء لما انتقلت الثورة من الشمال إلى الجنوب إذ لما ضعفت الثورة في بلاد الشمال نقلها قائدها إذ ذاك إلى الصحراء وكان سبقه إليها قائد جيشهم أحمد بن التومي المشهور ببوشوشة، الذي انضم إلى الثورة سنة 1869 وقد التجأ القائد بوشوشة إلى تدكالت حيث كانت تقيم أسر الشعابنة الذين وردوا عليها من نواحي ورقلة، واتخذ بوشوشة تدكالت منطلق هجوماته على القليعة ومتليلة سنة 1870 ثم انسحب وأعاد الكرة سنة 1871 فهاجم ورقلة وتقرت ووصل إلى وادي سوف إلى أن هزم وألقي عليه القبض وحكم عليه بالإعدام وبقي سكان تلك المناطق محافظين على ولايتهم لأولاد سيدي الشيخ فآووا أهل القائد بوشوشة وجيشه.

وفي تلك الأثناء ورد على تلك الربوع السيد قدور بن حمزة فاستقبله ونصره سكان الخنافسة سنة 1872 كما انضم إليهم المخادنة وذوو منيع بوادي غير سنة 1876، كون السيد قدور بن حمزة جيشا عرمرما هاجم به ضواحي ورقلة والقرارة بوادي ميزاب ومتليلة والقليعة، ثم انسحب المجاهدون إلى قوارة كما قاد في تلك الفترة السيد الدّين بن حمزة متطوعين من سكان تلك النواحي حارب بهم الأبيض وقصر بريزينا، فغنم منهم ألف جمل.

نكتفي بهذا القدر الذي أثبتنا فيه صفحة هامة من ثورة أبناء سيدي الشيخ في مرحلتها الثانية بعد انتقالها من الشمال إلى الجنوب منقولة من وثائق أصلية عثر عليها

الرائد مارتان بمستودعات وثائق توات ونشرها في مجموعة القيم السابق الذكر وقد سبق للرائد مارتان أن شغل منصب ترجمان عسكريي في مدينة البيض، هذا ولم يكن انتقال الثورة من الشمال إلى الجنوب تلقائيا بل كان لداعي ولاء تلك القبائل إلى أسرة أولاد سيدي الشيخ من عهد عميدها (**سيدي الشيخ وولده أبي حفص**).

وهنا بين قوسين نذكر صِلة الشيخ بوعمامة بأقاربه أبطال ثورة 1864م، إذ لما انتهى بوعمامة من ثورته سنة 1882 انسحب إلى ذوي منيع حيث كان قائد ثورة أبناء سيدي الشيخ السيد قدور بن حمزة لاجئا، ثم شاءت الأقدار أن اختار بوعمامة استئناف حياته العلمية التي ابتدأها بمقرار لظروف لا زالت غامضة من بينها أن بعض أقاربه لم ترضهم ثورته، وقيل إنه انسحب لخذلان أنصاره له وتفرقهم عليه، وإذ كان الرأي الأول محل شك فالرأي الثاني باطل لا صحة له وذلك أننا عثرنا على وثيقة[1] أصلية كتبها الرحالة الشيخ محمد بن هشام الشريف التواتي الذي كان ضمن الوفود التي زارت الشيخ بوعمامة في معهده بدلدول في قصر أولاد عبور وصف الرحالة محمد بن هشام معهد لقرار فوصف المخيم الذي كان يستقبل فيه بوعمامة ضيوفه وأنواع المأكولات والمشروبات التي كانت يقدمها لضيوفه ولطلبة معهده لم يقتصر الرحالة محمد بن هشام على ذكر زوَّار المخيَّم والطلبة بل ذكر القبائل الزائرة ورؤساءها فمن جملة القبائل التي ذكرها: الشعابنة من متليلة وورقلة والقليعة وسكان تيمة (**توات**) الذي كان الرحالة محمد بن هشام من سكانها.

أما الرؤساء فذكر من بينهم باحسّون وأخاه من أولاد عروسة والحاج محمد باخي من بني تامرت ومولاي الصديق ابن العربي من أدغاغ... الخ .

---

(1) أثبت هذه الوثيقة مارتان في مجموعه المسمَّى:(**أربعة قرون من تاريخ المغرب في الصَّحراء من سنة1504م إلى سنة 1902 م، وفي المغرب من سنة 1894م إلى 1922م**).

فمن هذه الوثيقة يتبين لنا بطلان دعوى تفرق أنصار بوعمامة عليه وبسببها أنهى حربه والتجأ إلى الدول لاستئناف حياته العلمية إلا أن السلطات الفرنسية لم تطمئن لنهاية حرب بوعمامة بل بقيت تتبع حركاته وسكاناته ومن ذلك وثيقة عثر عليها بعد استقلال البلاد مؤرخة في سنة 1910 ذكر فيها حاكم عسكري قائمة أشخاص كانوا متهمين بموالاتهم للشيخ بوعمامة في ملف كتب على ظهره **(قائمة أنصار بوعمامة)**، كان وافاني بهذه الوثيقة الأخ محمود الواعي عضو اللجنة المركزية عندما كان محافظا للحزب بولاية سعيدة.

فمن هاتين الوثيقتين يتبين لنا أولا أن إنهاء ثورة بوعمامة لم يكن سببها تفرق أنصاره عليه، ثانيا أن السلطات الفرنسية لم تكن تجهل نفوذ الشيخ بوعمامة الديني في أوساط مواطنيه.

ولنختم هذه الدراسة بنشر وثيقة أصيلة هي عبارة عن مرثية رثا بها صاحبها الشيخ إثر وفاته، تعرض فيها بتفصيل لقيمته الشخصية وسجاياه عنوانها:

عزوني يا ناس:

وصاحب المنظومة الذي هو من تلامذته الذين كانوا ملازمين له هو السيد المهناني من أولاد سيدي عبد الحاكم سليل سيدي الشيخ وتاريخها رمضان 1336:

استهل الشاعر منظومته بقوله:

عزوني يا نـاس في شـيخ العربـان   عـــزه واعنايتـــه ومفتـــاح أوراد
تبكي عيني البوعمامة طول ازمـان   تبكي عينـي عـلى امعكـس مبعـاد

إلى أن قال:

من فقدك يا شيح أدخلها خـذلان   يـــبس أنباتهـــا أشـــوايق واقعـــاد

ضي لبصـــار بـــه تتـــابع الأعيـــان	بحر العلوم ذات علم مـع الزهـد
جـوهرة ديـن باتـت في الأكفـان	وأنا ما جبـت لـه خـبر يـا تكـمان
كنت امعاه كالوزير مع السلطـــان	فالمملكة أوزير تحت حرم سـيدي

وبعد ما يتعرض للحزن والأسى اللذين أصاباه من فقد أستاذه تعرض إلى مناقبه فقال:

كاللي ما كان في امجالس بين إخوان	فوق الكرسي يخاطب كـلام الهـاد
كاللي ما كان في أسر اسير القومان	بعلامـــة كالجهـــاد قـــادم للعبـــاد
لو شفتم ما افعل بشيفين الـديوان	أو شاهدتم يوم تيقـر واخـبر فنـد

ثم تعرض لوصف معارك أخرى فقال:

اعيـاو يحـاربوه بمجـال الجـردان	لا عـــبر ليـــه بالقنســـير اليهـــود
اعيـاوا يـراودوه يعطـيهم الأمـان	قـــالهم يـــا هلاكـــم مـــن بـــارود
اعيـاوا يـراودوه بأثقـال الأثـمان	قال لهم شهدوا أوخذوا مـا عنـده

وهذا البيت دليل قاطع على أن محاربته كانت للدفاع عن العقيدة حيث إن الأمراء عرضوا عليه المال فكان جوابه: شهدوا وخذوا ما عنده والقصد بشهدوا، أي النطق بالشهادتين، ثم قال:

سدت بيبانها أهل الكفر والطغيان	وسدت بيبانهـا عـلى شـوق أثـماد

ثم انتقل الشاعر إلى صفات بوعمامة البطولية فشبهه بالخليفة علي ابن أبي طالب وبعض الصحابة أمثال خالد بن الوليد فقال:

ايمثله علال حيدر مولى السرحان	وابن الوليد خالـد الصـيد الفتـان

سـيف الله في المصـدمة كالأسـد لو حضر في أزمانهم ليه الرجحـان

شـيخ السـلوك عليـه اعـتماده افراقـه راه زاد فالقلـب امحـان

وافراقـه راه حـرم انعـاس ارقـاد يا مولى الزاوية اطعامك للجيعـان

في الشدة والرخاء ادواء اللبد

ثم ينتقل إلى أوصاف مريديه فيقول:

عند فقراء اظراف في الحضرا فرسان وأهل التوبة على الشـيخ إلي سـيدي

مثل اسماحات راكـين عـلى الربعـان بالسهمة واسلاح من كل شيء يقدر

مثـل المجبـود وأمطـار بـالميزان وأركاب اجديد فات نجمـة بالهـاده

وامكاحل صاصـبوتلوح بالنشـاب واقلنزه بقصب البرق ضرب الفـرد

ثم يتعرض للزوار والتلامذة الذين كانوا يردون عليه من مختلف الجهات فيقول:

ايجـوه الـواردين مـن بـر السـودان واتجيه اركاب من أطراف وازيـارى

ويجوه الزايرين مـن عـرش احميـان واتجه لعمور لشيخها كل شيء بعده

وايجيه شعابنة كل الشيب والشـبان وأهـل النيـة ذاك أوذا أغـادي

وايجيه من توقرت وأهـل الحرشـان ويجوه اركـاب مـن القبـل وبريـان

واتجيه اركاب من المغـرب العـادي جـاء لمنيعـة واجريـر والعطـوان

واتجيـه اركـاب شـام والبغـداد يسقيها كامل الفضل فايق الاكـوان

وإلى جاشي على أفضل منه يدري

ثم يختم منظومته بذكر فضائل ولده وخليفته من بعده السيد الطيب فيقول:

ولده الطيب الكامل الدين والإحسان وطريـق الرشـد كالإمـام الجنيـدي

أوتى الحكمة اصغير في حالة الشباب	منها حكمات بالغيب على أهل الوجدة
تبكـي عينـي لبوعمامـة طـول ازمـان	تبكــي عينــي عــلى ذخــيرة بــارود
ادخلت عليك برجـال أهـل الورفـان	هــاذوك الشــاربين كــاس الــودادي
تســقيني في ليلــة اتــروح عطشــان	هــاني والنــاس في الظـلام إلا وحــده

تشتمل هذه المرثية على ثمان وخمسين بيتا وهي كما نرى من الوثائق الأصيلة التي استوعبت ترجمة الشيخ بوعمامة من المهد إلى اللحد وإننا نتبناها في هذه الدراسة على طولها لأننا كما ذكرنا في بداية هذه الدراسة أن جل من كتب عن بوعمامة المؤرخون الأجانب الذين أعطوا لنا وجهات نظر الحكام الفرنسيين أما الوثائق الأصيلة فإن معظمها كان مغمورا مخافة من محاكم التفتيش التي رأينا أنها كانت تتبع حركات وسكنات السكان حتى بعد موت الشيخ ـ مثل الوثيقة التي وافانا بها الأستاذ محمود الواعي المؤرخة سنة 1910م ـ يتبين لنا من هذه الوثيقة أن حياة بوعمامة كانت مركزة من بدايتها إلى نهايتها على الحياة الدينية فمن هذا الجانب حياة تختلف تماما عن حياة أقاربه موقدة ثورة 1864م، فلم تستَهوه المناصب وسواء اتصل بالشيخ السنوسي أولم يتصل به فإنه اتخذه قدوة في نشر الدعوة الإسلامية ومحاربة التنصير وقد أمكنه أن يسترجع النفوذ الديني الذي اشتهرت به أسرة أولاد سيدي الشيخ ذلك النفوذ الذي أشاد به الرحالة العياشي كما أشاد به الشاعر الشعبي محمد بالخير في عدة قصائد من ديوانه وإن غفل عن الجانب الديني بعض الكتاب الأوروبيين ومن نقلوا عنهم فتلك شنشنة اعتمدوها في جل الثورات التي اندلعت في الجزائر خصوصا ثورة أولاد سيدي الشيخ وثورة ابن الحداد الذي وصفوه بأنه شبه عامة وقد اطلعنا على وثائق أصيلة هامة تثبت أن ابن الحداد كان من أمثل علماء عهده أتبناها في الملتقى الخامس عشر للفكر الإسلامي.

الجوانب المجهولةمن ترجمة حياة
الإمام أحمد بن يحي الونشريسي(1)

هو أحمد بن يحيى بن محمَّد بن علي الونشريسي كما عرَّف نفسه بخطِّه في عدَّة وثائق، وقد عرَّفه بعض معاصريه بأنَّه: «أحمد بن يحيى بن محمَّد بن عبد الواحد بن علي»، أي: بزيادة اسم عبد الواحد، بينَ محمَّد وعلي، كصاحب (**دوحة النَّاشر في بيان علماء القرن العاشر**).

ورأيتُالاقتصار على تعريف الفقيه محمَّد الحجوي- وزير المعارف في عهده بـ (المغرب الأقصى)- الذي نشره في تأليفه (**الفكر السَّامي في تاريخ الفقه الإسلامي**) الذي يعدُّ معاصرا، وهو علاوة على ذلك، أتيح له جمع معطيات لم تتح لغيره.

قال في تعريفه: «أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمَّد بن عبد الواحد الونشريسي التِّلمساني (الأصل)، الفاسي (الدَّار)، حامل لواء المذهب المالكي بالدِّيار الإفريقية في وقته، وصاحب كتاب:(**المعيار**) المشتمل على فتاوى فقهاء المغرب والأندلس وإفريقية، جمع فأوعى، وهو من التآليف ذات الشَّأن عند فقهاء الوقت، على ما فيه من ضعف بعض الفتاوى، طبع بـ (فاس) واشتهر في العالم، وله:(**تعليق على مختصر ابن الحاجب**)، وكتاب في القواعد الفقهية سمَّاه:(**إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك**)، جمع نحو

(1) مجلَّة (**الأصالة**)، العدد: (83/ 84)، ص: (19 ـ 28)، السَّنة التَّاسعة، شعبان ـ رمضان 1400هـ/ جويلية ـ أوت 1980م، كما اعتمدنا في تحقيق نصِّ هذه الدِّراسة على (**نسخة**) بخطِّ الشَّيخ المهدي (رحمه الله تعالى) تقع في (38ص).

(مائة) قاعدة فقهية، بنيَ عليها الخلاف المالكي، ولكن كلُّها أو جلُّها مختلف فيها، وعن الاختلاف فيها نشأ الاختلاف في فروعها، فهو كفلسفة فقهيَّة مفيدة، وله (وثائق)، وكتاب في (**الفروق**)، و(**شرح وثائق الفشتالي**)، وغيرها، توفي في عام (914هـ) أربع عشرة وتسعمائة».اهـ

ثمَّ قال الحجوي في التَّرجمة: «وفي (**دوحة النَّاشر**): في آخر العشرة الأولى، في القرن العاشر»، ثمَّ قال: «إلا أنَّ صاحب (**الدَّوحة**) لا يحرِّر الوفيات ».اهتعريف الحجوي بـ (**الفكر السَّامي**).

وفي الحقيقة أنَّ تاريخ الوفاة التي أثبتها الحجوي، هي محلُّاتِّفاق بين كلِّ المترجمين، إذ صادفت وفاته تاريخ احتلال الأسبان لمدينة (وهران)، ولهذا نجد كثيرا من مترجميه وبالخصوص صاحب (**ذيل الدِّيباج**) يعقِّب عليها ويؤكِّدها بقوله: «وهي السَّنة التي احتلَّ فيها النَّصارى مدينة (وهران) ».

وقبل الدُّخول في صميم الموضوع نمهِّد له بذكر نبذة من تاريخ (ونشريس) موطن المترجم، إنَّ(ونشريس) كان علما ملة جبلها الشَّامخ، ولا زال إلى يومنا هذا يُطلق عليه من قبل أن يطلق اسمهـ أي:(ونشريس)ـ على الدَّولة التي تكوَّنت فيه، والتي عُرفت تارة بـ (دولة بني توجين)، اسم القبيلة السَّاكنة في منطقته، وتارة باسم(دولة ونشريس).

تكوَّنت هذه الدَّولة بهذه المنطقة في أواخر القرن الرَّابع الهجري، وبالضَّبط عندما ثار حمَّاد بن بلقين (المشهور) على ابن أخيه باديس بن المنصور بن بلقين (ملك دولة بن زيري بن منَّاد)، إذ لمَّاانتقلت دولة الفاطميِّين العُبيديِّين من الشَّمال الإفريقي إلى (مصر)، وخلَّفت بلقين بن زيري قائد جيشها على حكم الشَّمال الإفريقي، وكانت عاصمة الدَّولة في مدينة (القيروان)، ثمَّ بعد وفاة بلقين خلفه ولده المنصور، فانتقل إلى قاعدة

المملكة بـ (القيروان)، وترك أخاه[1] حمَّاد بقاعدة الأسرة وهي:(أشير) التي لم يفارقها بلقين مدَّة حكمه، كان حمَّاد واليا للمنطقة الغربية، وعندما ثار ابن أخيه كانت قاعدة النَّاحية الغربية مدينة (المسيلة)، فحينئذ حاصر باديس عمَّه حمَّاد، ومن جملة مَن انتصر له أثناء الحصار قبائل بني توجين (البرابرة)، الذين ينتمون إلى (زناتة)، فأقطع لهم باديس جزاءً لنُصرته حكمَ إمارتهم، وهو ما يعرف في عهدنا بالاستقلال الذَّاتي، وبالاستقلال الدَّاخلي، وكان موقع هذه الإمارة كما عرَّفها الشَّريف الإدريسي في كتابه (**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**) الذي قال بعد تعريفه لمدينة (مليانة) ما يلي: «وعلى ثلاثة أيام منها، وفي جنوبها، الجبل المسمَّى (ونشريس)، يسكنه قبائل من البربر منها:(مكناسة)، و(حرشوى)، و(كتامة)، و(بني خليل)، و(مطماطة) [2] ...»، إلى أن قال: «... وطول هذا الجبل أربعة أيام، وينتهي إلى قرب (تاهرت) ».

وعندما تكوَّنت هذه الإمارة، كانت رياسة القبيلة في حكم (دافلتن)، الذي توارث أفراد أسرته الحكم طيلة القرن الخامس، وفي أوائل القرن السَّادس نزل بـ (ونشريس) الإمام المهدي ابن تومرت مؤسِّس (دولة الموحِّدين) في طريقه من (ملاَّلة)ـ (بجاية) ـ إلى (مراكش)، فاستضافهم سكَّان (ونشريس)، رغم أنَّهم كانوا يختفون من عيون ملك (بجاية) الحمَّادي، وانضمَّ إليهم عندما عزموا على الرَّحيل الفقيه عبد الله بن محسن الونشريسي المكَّنى بـ (البشير)، الذي لعب دورا مرموقا في صفوف (دولة الموحِّدين) النَّاشئة، إذ هو الذي عيَّنه الإمام المهدي ابن تومرت وخليفته عبد المومن بن علي

---

(1) حمَّاد هذا هو الذي تنتسب إليه (دولة بني حمَّاد)، كما تنتسب إليه (القلعة) التي أسَّسها وصارت قاعدة حكمه لمَّاانفصل عن أبناء أخيه وانقسمت الدَّولة إلى قسمين: قسم (دولة بني زيري)، من سلالة المنصور، وقسم (بني حمَّاد)، ملوك (القلعة)، ثمَّ(بجاية). (**المهدي**)

(2) وجلُّ هذه القبائل المذكورة، لازالت في مواقعها. (**المهدي**)

الكومي، قائد جيش الدَّولة عندما أعلنوا الحرب على (دولة المرابطين) اللَّمتونيِّين في عهد الملك علي بن يوسف بن تاشفين.

نال قادة (دولة ونشريس) مكانة عند الموحِّدين، إذ صاروا محلَّ ثقة عند ملوكهم، ومن ذلك العهد تبوَّؤوا مكانة مرموقة عند ملوك (الدَّولة الموحِّديَّة)، حيث لمَّا هاجم بقايا (دولة المرابطين) من (بني غانية)، الذين كانوا بجزر (ميورقة) ونزلوا بمدينة (بجاية) على حين غفلة، جهَّز الملك المنصور[1] الموحِّدي جيشه، وتتبَّع آثار (بني غانية)، فلحقهم بـ (تونس)، ومرَّفي طريقه إليها على أمير (ونشريس) إذ ذاك، وهو العبَّاس بن عطيَّة ـ أخ الأمير عبد القوي الذي نالت المملكة في عهده استقلالها، كما سنتحدَّث على ذلك في موضعه من هذه الدِّراسة ـ فاستصحبه معه في ذهابه وإيابه، وذلك في سنة 584هـ، وفي هذه المسيرة ولَّى الملك المنصور عميد أسرة (بني حقل) حكم (تونس) لخبر يطول، لا يسع مجال هذه الدِّراسة المحدودة على تتبُّع تفاصيله، وإنَّما اكتفيتُ بذكر الخطوط العريضة من هذه الأحداث، جرَّني إلى ذكرها سياق الحديث أوَّلا، ثمَّإنَّنا نجدها مرتبطة بموضوع البحث، وليست كما يتراءى خروجا عن الموضوع، إذ كثيرا ما يقتصر الباحث على الإيجاز فيرتكب أخطاءً تتركُ القارئ في حيرة، فينتج عنها التَّناقض والتَّخليط، إذ يعتمدون على سرد الأحداث من تلاخيص، هذه هي بعض النُّقط من تاريخ (دولة بني توجين) التي عُرفت في كتب التَّاريخ تارة بـ (دولة بني توجين) وهو الأكثر، وتارة بـ (دولة ونشريس)، من بداية تأسيسها إثر تولية باديس ملك (دولة بني زيري) على حكمها جزاءً لموقفه معه عندما قمع عمَّه حمَّاد الثَّائر.

وفي عهد الموحِّدين، وبالضَّبط بعد ما لحق الملك المنصور الموحِّدي (بني غانية)، ورافقه في مسيرته أمير القبيلة العبَّاس بن عطية سنة 584هـ تحوَّلت نظرة الموحِّدين

---

(1) المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المومن بن علي، كان بقاعدة المملكة الموحِّديَّة إذ ذاك بمدينة (مراكش). **(المهدي)**

وبرهنوا له أنَّهم يعترفون لهم بالاستقلال، بل وسَّعوا لهم رقعة الإمارة، فصار موقعها تحدُّه شرقا جبال (تيطري) المعروفة الآن بجبال (المدية)، وغربا سهول (منداس)، وشمالا سهول (شلف) وواديه، وجنوبا نواحي مدينة (فرندة)، وصارت هذه المملكة تشتمل على عدَّة قلاع حصينة، منها:(تاقدمت)[1] التي تقاسمت قاعدة المملكة مع الجبل المعروف الآن بـ (برج بونعامة)، و(تفرقينت)، و(تاغروت)، و(لمدية)، فهذه هي القلاع الأربعة التي كانت تشتمل عليها مملكة (بني توجين) في أواخر عهد الموحِّدين.

ومن هذه القلاع اشتهرت(قلعة تاغروت) شهرة عالميَّة، إذ فيها أقام المؤرِّخ عبد الرَّحمـٰن ابن خلدون لتحرير (تاريخه) الخالد، فأقام بها أربع سنوات أتمَّ فيها (مقدِّمته)، وقد احتفلت(الجزائر) منذ سنتين بإحياء ذكرى مرور ستَّة قرون على هذا الحادث، ونظَّم **(المركز الوطني للبحوث التَّاريخية)** ملتقًى جمع نخبة من الباحثين، مسلمين وأجانب، تناولوا حياة هذا العبقري بدراسة عدَّة جوانب من تاريخ حياته.

هذه لمحات من تاريخ مملكة (ونشريس) ذكرتُها كتمهيد لترجمة أحد أبنائها البررة، نال شهرة ومكانة في عهده بعدَّة عواصم إسلاميَّة ثقافيَّة، إلاَّ أنَّه كان وفيًّا لجبله الأشمِّ، فخصَّصه بتأليف قيِّم، أحصى فيه بعض علماء بلاده، وهو المشهور بكتاب:**(الوفيات)**، زيادة على بعض تآليفه التي نالت شهرة في بلاد العالم الإسلامي، كما اشتهر هذا العالم الإسلامي ببعض مواقفه التي تدلُّ على أنَّه من أباة الضَّيم، والذي كان شعاره مع ملوك زمانه ما خاطب به عبد المهيمن الحضرمي[2] ـ أستاذ ابن خلدون ـ ملك عهده أبا

---

(1) **تاقدمت**: أسَّسها الرُّستميُّون، وكانت عاصمة مملكتهم إلى أن أطاح بدولتهم العُبيديُّون الفاطميُّون. **(المهدي)**

(2) انظر عنه مقال: **اهتمام علماء الجزائر بعلم الحديث، قديما وحديثا، (قسم المتفرِّقات)**، من هذه **(الآثار)**.

الحسن المرِّيني الذي كان كاتبه الخاصّ بأبيات لماَّ أساء إليه، فكسَّر قلمه وخاطبه بقوله:

أبــت همَّتــي أن يــراني امــرؤ   مدى الدَّهر يوما له ذا خضــوع
ومـــا ذاك إلاَّ لأنِّي اتَّقيـــتُ   بعـــزِّ القناعـــة ذلَّ الخضـــوع

إذ لم يفارق أحمد بن يحي الونشريسي بلاده (تلمسان) إلاَّ مُكرها، وذلك أنَّ ملكها أبو عبد الله محمَّد بن أبي ثابت المتوكِّل على الله، الذي اشتهر بتشجيعه للعلماء ورعايتهم، إذ في عهده (866/ 888 ه) ظهرت تآليف قيِّمة، من بينها (**الدُّرُّ والعقيان في تاريخ دولة بني زيان**)للحافظ التَّنسي، و(**الدُّرر المكنونة في نوازل مازونة**)ليحي أبي زكريا المغيلي المازوني[1].

ورغم ما اشتهر به فقد حاول إخضاع أحمد ابن يحي الونشريسي، فصادر أمواله، واقتحم عليه داره فهدمها، وكان أمكنه التَّسلُّل منها فمرَّ عليه الخطر بسلام، حيث وصل إلى مدينة (فاس)، فواصل حياته العلميَّة، وترك آثارا فرضت نفسها على تاريخ البلاد الإسلاميَّة، كموسوعته الفقهيَّة المعروفة بـ: (**المعيار المعرب، عن فتاوى علماء أهل إفريقيا والأندلس والمغرب**)، وقد أشار بعض مترجميهإلى اعتزازه بنفسه فقال: «كان شديد الشَّكيمة في دين الله، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولذلك لم يكن له مع أمراء وقته كثير اتِّصال».

أما تآليفه فكلُّها دُررٌ وغرر، خصوصا كتابه (**الوفيات**)، وهو وإن كان صغير الحجم إلاَّ أنَّه نظرا إلى أنَّ تاريخ هذه المنطقة مجهول ومغمور، رغم أنَّ بعض المؤرِّخين لم يهملوه، وفي طليعتهم بن خلدون، إلاَّ أنَّابن خلدون اهتمَّ بتاريخه السِّياسي، وقد ترك الفراغ لتاريخ البلاد، أي:(ونشريس) الحضاري والثَّقافي.

وإن كان [هناك] ما يبرِّر إهمال الكُتَّاب لتاريخها الحضاري، حيث إنَّها كانت دولة

---

(1) يحي أبو زكريا، قاضي (مازونة)، توفي بـ(تلمسان) سنة 883 ه. (**المهدي**)

بدويَّة تسكن الخيام، فإنَّ تاريخها الثَّقافي الذي يتمثَّل في تراجم علمائها أهمل [من غير مبرَّر سائغ]، فسدَّ هذا الفراغ مترجمنا، فخصَّص تأليفه المذكور (**الوفيات**) لعلماء (ونشريس)، وكثيرا [ما] نجد في [كتب] تراجم علماء (الأندلس) و(المغرب) تراجم لونشريسيِّين، إلاَّ أن مجرَّد النِّسبة لا تمكِّننا من القطع بأنَّ صاحبها نشأ بـ (ونشريس)، إذ كانت الهجرة من الشَّمال الإفريقي إلى (الأندلس) متواصلة من عهد فتح (الأندلس)، فكان المهاجرون بنيَّة الاجتهاد والرِّباط كثيرين، وهم بالطَّبع يحتفظون بالنِّسبة إلى قبائلهم، ويورِّثون هذه النِّسبة لأبنائهم وأحفادهم.

أمَّا كتاب (**الوفيات**) فإنَّه خصَّصه مؤلِّفه لمن عاشوا في البلاد أو ماتوا بها، فمن هذه النَّاحية كان لهذا التَّأليف وزنه وقيمته، وقد أدَّى العلاَّمة أحمد بابا التَّنكبتي خدمة جليلة للتَّاريخ، حيث نقل كثيرا من تراجمه في (**ذيل الدِّيباج**)، ويشاع أنَّه كانت توجد منه بعض النُّسخ في الخزائن الخاصَّة بـ (الجزائر) و(المغرب).

ولنرجع إلى مواصلة ما سبق لنا ذكره فيما يخصُّ الأطوار التي استحالت فيها إمارة (ونشريس)، من إمارة بسيطة إلى دولة ذات شأن تركت بصمات أصابعها في التَّاريخ، وذلك من عهد الأمير العبقري عبد القوي التُّوجيني، الذي سبق لنا الحديث عن أخيه العبَّاس ابن عطيَّة ـ الذي رافق الملك المنصور الموحِّدي سنة 584هـ في مسيرته إلى تتبُّع (بني غانية)ـ.

ولنترك الكلمة للمؤرِّخ ابن خلدون الذي خصَّص لهذه المملكة فصولا مضبوطة مدقَّقة فقال: «ولمَّااستبدَّ بنو أبي حفص[1] بأمر إفريقية، وصارت لهم خلافة الموحِّدين،

(1) تقدَّم لنا أنَّ الملك المنصور لمَّا لحق بـ (بني غانية) وهزمهم بـ (تونس)، عيَّن عند رجوعه والد الأمير أبي زكريا الحفصي عاملا عليها، ولمَّا توفي خلفه ولده أبو زكريا فخلع طاعة الدَّولة المركزيَّة، وهذا ما أشار إليه ابن خلدون بالاستبداد. (**المهدي**)

نهض الأمير أبو زكريا ـ الحفصي ـ إلى (المغرب الأوسط)، ودخلت في طاعته قبائل (صنهاجة)، وفرَّت (زناتة) أمامه، وردَّد إليهم الغزو فأصاب منهم، وتقبَّض في بعض غزواته على عبد القوي ـ أي: الأمير ـابن العبَّاس أمير توجين، فاعتقله بالحضرة ـ تونس ـ ثمَّ منَّ عليه، وأطلقه على أنيستألف له قومه، فصاروا شيعة له ولقومه آخر الدَّهر، ونهض الأمير أبو زكريابعدها إلى (تلمسان)، فكان عبد القوي وقومُه في جملته، حتَّى إذا ملك (تلمسان) ورجع إلى(تونس)، عقد لعبد القوي هذا على قومه ووطنه، وأذن له في اتِّخاذ الآلة، فكانت أوَّل مراسم الملك لبني توجين هؤلاء».

ثمَّ تعرَّض ابن خلدون في عدَّة مواضع لمشاركة ملك (ونشريس) في ردِّ عدوان الهجمات الصليبيَّة التي شنَّها على (تونس) الملك الفرنسي: سان لوي (Saint Louis) الذي لقي حتفه، فيها ودفن بمدينة (قرطاج)، وإلى هذه الحادثة أشار ابن خلدون بقوله: «ولمَّا نزل النَّصارى الإفرنجة بساحل (تونس) سنة ثمان وستِّين وستمائة (668 هـ) وطمعوا في ملك (الحضرة) بعث المستنصر بالله الحفصي ـ ولد أبي زكرياء الحفصي (المتقدِّم الذِّكر) ـ إلى ملوك (زناتة) بالصَّريخ، فصرفوا وجوههم إليه، وخفَّ من بينهم محمَّد بن عبد القوي في قومه، وقداحتشد من أهل وطنه، ونزل على السُّلطان بـ (تونس)، وأبلى من جهاد العدوِّأحسن البلاء، وكانت له في أيَّامه معهم مقامات مذكورة، ومواقف مشهورة، وعند الله محتسبة [معدودة]، ولمَّاَارتحل العدوُّ عن (الحضرة) وأخذ محمَّد بن عبد القوي في الانصراف إلى وطنه، أسنى السُّلطان جائزته وعمَّ بالإحسان وجوه قومه وعساكره، وأقطعه بلاد (مغراوة)[1]، وجهات من (الزَّاب)».

---

(1) بلاد (مغراوة) كانت إذ ذاك تحت حكم (بني منديل)، وعاصمتها (مازونة)، وكان حكمها يمتدُّ إلى (متِّيجة) ومدينة (الجزائر).(**المهدي**)

ثمَّ واصل ابن خلدون حديثه عن (ونشريس) وتطوُّرها فقال: «أخرج محمَّد ابن عبد القوي في عهده الثَّعالبةالذين كانوا يحكمون جبل (تيطري)، وانزاحوا إلى سباط (متِّيجة) وأوطانها».

نكتفي بهذا القدر لتوضيح أطوار مملكة (ونشريس) التي لقيت الجحود والعقوق من أبنائها، حيث نجدهم يتطاولون على تاريخ ممالك ورجال لا يمتُّون لهم بصلة، وأهلهم في غنى عن تطفُّلاتهم، ومع هذا يضربون صفحا عن تاريخ بلادهم، وإحياء ذكرى رجال اشتهروا بآثارهم في الميادين البطوليَّة والفكريَّة، وممالك أو إمارات كانت ولا زالت محلَّ عناية المؤرِّخين النُّزهاء، والأنكى أنَّ كثيرا ما يكتب بعضنا عن هؤلاء العلماء ونتَّهمهم ـ ظلما وعدوانا وغباوة ـ بأنَّهم كانوا كلُّهم يتقرَّبون للملوك والسَّلاطين، يحلُّون لهم الحرام، ويشوِّهون التَّاريخ لترضيتهم، ويعمِّمون هذا الحكم القاسي الجائر، الذي لربَّما نجد أقليَّة ينطبق عليها، أمَّا تعميمه على علماء السَّلف فذلك خطأ وظلم.

وذكرتُ هذا بمناسبة تناول ترجمة هذا العالم أي: أحمد بن يحي الونشريسي الذي كان يمثِّل الشَّهامة، وخلَّد له التَّاريخ مواقفه البطوليَّة التي غادر بسببها عاصمة بلاده(تلمسان)، وقد سبقه علماء آخرون خلَّد التَّاريخ مواقفهم مع ملوك زمانهم ـ الذي كان فيه المِلكُ ملِكا ـ ومن ذلك ما قاله عبد الرَّحمـٰن الثَّعالبي[1] ـ دفين الجزائر ـ في (فهرسته) يصف العلماء الذين أخذ عنهم بـ (بجاية) في رحلته العلميَّة، فذكر من بينهم تلامذة أحمد ابن إدريس ـ صاحب المعهد بنواحي (العزازقة) ـ وتلميذه عبد الرَّحمـٰن الوغليسي، وأحمد ابن إدريس هذا، كان من مشايخ ابن خلدون، قال الثَّعالبي:

(1) عبد الرَّحمن الثَّعالبي توفي سنة 875هـ.(**المهدي**)

أنَّه وجدهما توفيا قبل وصوله إلى (بجاية) إلاَّ أنَّه أخذ عن تلامذتهما الذين كانوا على سننهما، « لا يعرفون الملوك، ولا يتردَّدون على أبواب قصورهم».

ولم يخل تأليف من تآليف الثَّعالبي المذكور من تعرُّضه لاستعراض تآليفه التي ألَّفها واحدا واحدا، مع ذكر سنِّه، ويحثُّ قرَّاءهُ على عدم إهمال التَّعريف بأنفسهم، لتتأكَّد الثِّقة في التَّأليف، ثم يصبُّ جامَّ غضبه على المؤلِّفين الذين يهدون تآليفهم للملوك والسَّلاطين، فيقول: «وينبغي للمؤلِّف أن يقصد بعمله وجه الله، وما أقبح حال امرئ يقصد بأعماله عبدا مثله، لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعا».

ثمَّ إذا التفتنا إلى بعض كتَّاب هذه التُّرَّهات، و[الذين] يرسلونها ـ من دون حياء أو خجل ـ في التَّجمُّعات، إن التفتوا إلى أنفسهم ـ بالنَّقد الذَّاتي على حدِّ تعبير المعاصرين ـ يجدون أنفسهم منغمسين في التَّرف والتَّقرب لا إلى الملوك والسَّلاطين، بل إلى الإذناب وأذناب الأذناب، الذين يصطادون في الماء العكر، وينالون [بها] المناصب، وبمجرَّد ما تدور الدَّوائر عليهم يفرُّون منهم ويتنكَّرون لهم.

ولنرجع إلى مواصلة حديثنا عن مواقف الثَّعالبي الذي ذكرناه كنموذج لأباة الضَّيم، فإنَّهاستأذنه سكَّان (الجزائر) على صلاة الاستسقاء، وكان ملازما لبيته إثر مرض، فأجابهم بأبيات شعريَّة منها هذان البيتان:

يطوف السَّحاب بـ (مزغنَّة) بعـذب فـرات ومـاء زلال
يريـد النُّـزول فلـم يسـتطع لجور القضاة وظلـم الـولاة

أأمثال هؤلاء يُرمَون بالتَّزلف والتقرُّب؟ ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ (الكهف: 5).

ولنختم هذا الفصل بذكر شعار علماء الحديث السَّلفيِّين الذين لم تخل جائزة من

جوائزهم[1] لتلامذتهم الذين كانوا يشدُّون إليهم الرِّحالمن هذه الوصيَّة: «اتركوااليأس ممَّا في يد النَّاس تعيشوا أعزَّة»، وكان هذا شعارهم خلفا عن سلف.

ولنعد إلى مواصلة بقيَّة الحديث عن ترجمة أحمد بن يحيى الونشريسي، التي ركَّزتها على بعض الجوانب المجهولة من حياته، وأهمُّ هذه الجوانب هو اكتشاف وثيقة كتبها في(تلمسان) قبل نكبته بثلاث سنوات، وهي عبارة عن تقريظ تأليف أستاذه أبي زكرياء يحي بن موسى المغيلي المازوني (**الدُّرر المكنونة في نوازن مازونة**)، وهذا التَّقريظ مجهول تماما، إذ لم يُشر إليه أحدٌ من مترجمي الونشريسي المتوافرين، بل صرَّح كثيرٌ من هؤلاء المترجمين للونشريسي أنَّ تأليفه (**المعيار المعرب عن فتاوى علماء أهل إفريقية والأندلس والمغرب**) أنَّه استفاد فيما يخصُّ فتاوى (فاس) و(الأندلس) من خزانة تلميذه قاضي (فاس) في عهده، محمَّد بن الغرديس التَّغلبي، قال أحمد بابا التَّنبكتي في (**ذيل الدِّيباج**) في ترجمة أحمد الونشريسي ما يلي: «وبخزانة هذا الرَّجل ـ أي: محمَّد بن الغرديس قاضي (فاس) ـ انتفع، لاحتوائها على تصانيف الفنون، وبها استعان في تصنيف كتابه (**المعيار**) سيما فتاوى (فاس) و(الأندلس)، فإنَّما تيسَّرت له من هذه الخزانة.

قلت: وأمَّا فتاوى (إفريقية) و(تلمسان)فاعتمد في ذلك على (**نوازل البرزليوالمازوني**) فيما يظهر لمن طالعهما » انتهى ما ذكره صاحب (**ذيل الدِّيباج**)، وعلى هذا فإنَّ أحمد بابا التَّنبكتي لم يكن له اطِّلاع على هذه الوثيقة، كما لم يشر أي أحد لها، أوإلى الظُّروف التي اجتمع فيها بشيخه المازوني.

اكتشف هذا التَّقريظ بعد استقلال(الجزائر)، وبالضَّبط سنة 1964م، اكتشفه المرحوم الشَّيخ نعيم النُّعيمي ـ مفتش الشُّؤون الدِّينيَّة بولاية (قسنطينة) في عهده ـ إذ استعار نسخة (**الدُّرر المكنونة في نوازن مازونة**) من خزانة الشَّيخ عبد القادر بن يسعد

---

(1) في (**الأصل المخطوط**)، وكذا في (**المقال المنشور**): «لم تخل جائزة من جوائزهم... ».

بقرية (الدّبة)[1] ناحية (قلعة بني راشد)، قرب (غليزان)، فوجدنا أنَّ النُّسخة نقلت من خطِّ مؤلِّفها وعليها تقريظ الونشريسي المذكور، سمَّاه ناسخه بـ: **(الإجازة)**، وقال إنَّه نقله من خطِّ الونشريسي.

وهذا نصُّالتَّقريظ: «الحمد لله مستحقّ الثَّناء والحمد، والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا محمَّد حائز أوصاف الكمال في كمال المجد، وبعد فإنِّي لما طالعتُ السِّفر الثَّاني على أرمزة الأنكحة والبيوع من التَّأليف الجامع المانع، المطبوع المقيَّد هذا على أوَّل ورقة منه، المترجم بـ **(الدُّرر المكنونة في نوازل مازونة)** جمع الفقيه الشَّيخ القاضي العالم العامل، المفيد الجامع الشَّامل، الحافظ الحافل الكامل، المشار إليه في سماء المعالي بالأنامل، الصَّدر الأوحد العلاَّمة العلم الفضال، ذي الخلال السَّنية، وسني الخصال، شيخنا ومفيدنا، وملاذنا وسيِّدنا ومولانا وبركة بلادنا، أبي زكرياء سيِّدي يحي ابن الشَّيخ الفقيه الإمام، علم الأعلام ...أبي عمران سيِّدي موسى... ».

إلى أن قال: «قد أحرز خصلها، وجمع فرعها وأصلها، ورفع عنها نقاب الشيت والشُّكوك، وأوضح نتائج الرُّسوم والصُّكوك، وشحنه صاحبه ـ أعظم الله مثوبته ـ بكلِّ نكتة بديعة، من علم القضاء والفتوى، وكلِّ حقيقة ودقيقة تمسُّ إليها الحاجة وتعمُّ بها البلوى، وحشد عيون نصوص مالكيَّة المغرب والمشرق، وجنَّد ونشر ألويته الخفَّاقة على كلِّ من ألَّف في الفنِّ وبنى... ».

ثمَّ تعرَّض للظُّروف التي انتقل فيها المؤلِّف إلى (تلمسان)، وذلك أنَّ المتوكِّل ـ السَّابق الذِّكر ـ عيَّنه مستشارا في بلاطه... ثمَّ ختم هذا التَّقريظ بقوله: «والسَّلام الجزيل

---

(1) كان هذا الشَّيخ من المتخرِّجين على الشَّيخ بن محمَّد بن علي المجَّاجي، المتوفَّى سنة 1008هـ وانتصب للتَّدريس بقرية (الدّبَّة)، وكوَّن خزانة جمعت نوادر المخطوطات، وضاع معظمها فيما ضاع من كتب التُّراث. **(المهدي)**

الجميل الأتمّ، الأطيب الأهمّ، يعتمد سيادة مؤلِّفه من كاتبه العبد الفقير الجاني، على البعد والتَّداني، ولحمها بالسِّرِّ والمعاني، عبيد الله تعالى أحمد بن يحي بن محمد بن علي الونشريسي، خار الله له سبحانه، ولطف به، وكتب في العشر الأوَّل (بيـاض) عام إحدى وسبعين وثمانمائة، عرَّفنا الله خيره » اهـ.

هذه هي الوثيقة التي ركَّزتُ عليها ترجمة أحمد بن يحي الونشريسي، وهي علاوة عليتقريظ صاحبها لكتاب (**الدُّرر**)، أفادنا بجوانب متعدِّدة من ترجمة صاحب (**الدُّرر**)، من بينها الظُّروف التي انتقل فيها من (مازونة) إلى عاصمة البلاد (تلمسان)، حيث لقي بها حتفه ودفن فيها، مع أنَّ مترجمي صاحب (**الدُّرر**) لم يخصِّصوه إلاَّ بسطور قليلة، عرَّفوه فيها بأنَّه تولَّى قضاء (مازونة) ومات ودفن بـ (تلمسان).

وفي ذلك قال أمثل مترجميه صاحب (**ذيل الدِّيباج**): «يحي ابن أبي عمران موسى بن عيسى المازوني، قاضيها الإمام العلاَّمة الفقيه، أخذ من الأئمَّة كابن مرزوق (الحفيد)، وقاسم العقباني، وابن زاغو، وابن العبَّاس، وغيرهم، ونجب وبرع وألَّف (**نوازله**) المشهورة المفيدة في فتاوى المتأخِّرين، أهل (تونس)، و(بجاية)، و(الجزائر)، و(تلمسان)، وغيرهم، في سِفرين، ومنه استمدَّ الونشريسي، مع (**نوازل البرزلي**) فيما يظهر لي، وأضاف إليهما ما تيسَّر، أي: من فتاوى أهل (فاس)، و(الأندلس) والله أعلم، توفي كما قال الونشريسي: عام ثلاثة وثمانين وثمانمائة بـ (تلمسان)، ووصفه بالفقيه الفاضل » اهـ.

هذه صفحات من هذه الوثيقة الجوهريَّة بقيت مجهولة مغمورة، نسج عليها العنكبوت بيته، أهملها ورثة هذه الخزائن فلا هم استفادوا منها، ولا مكَّنوا وسهَّلوا المستفيدين أن يطَّلعوا عليها، مع أنَّ مؤسِّسي هذه الخزائن اشترطوا في تحبيسهم الأهليَّة في أعقابهم.

وقيمة هذه الوثيقة ليست منحصرة في تقريظ كتاب (**الدُّرر**) والإشادة بفضائل مؤلِّفها، بل نجدها أيضا في التَّعريف بمؤلِّفها، والإشارة إلى الظُّروف التي انتقل فيها إلى (تلمسان)، وذلك أنَّ الملك المتوكِّل دعاه إلى التَّدريس والاستشارة بالبلاط، ثمَّ تعرُّضه إلى ترجمة والد المؤلِّف وجدِّه الذَين تولَّى كلٌّ منهما القضاء بـ (مازونة)، وكان والده من كبار المؤلِّفين، حيث قال الونشريسي فيه: «صاحب اليد الطُّولى، والقدم الرَّاسخ في كلِّ مقام ضيِّق، والذي وذي التَّصانيف التي كلُّ لبٍّ إليها شيِّق، المفتي المفيد المنعم أبي عمران سيِّدي موسى».

ولولا هذا التَّقريظ لما كنَّا نطَّلع على ترجمة هذا العالم الذي أهمله قومه، ولم تحظ موسوعته الفقهيَّة حتَّى بالإشارة إليها، مع أنَّ(**المعيار**) الذي نقل فتاويها حظي من جهته بالنَّشر، وحظيَ مؤلِّفه بالتَّراجم المسهبة، ولا زال محلَّ عناية الباحثين، بخلاف أستاذه ومفيده المازوني (المذكور)، اللَّهمَّ إلاَّ إن استثنينا ما قام به أخيرا أحد أعلام الفكر المعاصرين، المستشرق الفرنسي (**جاك بيرك**)، الذي خصَّصه بدراسة قيِّمة جعل موضوع سلسلة محاضرات بـ (**الجزائر**)، ونشر بعض فصولها في مجلَّة: (**الحوليَّات**) التي تصدر بـ (**باريز**) (Les Annales)[1].

هذه هي الخطوط العريضة من ترجمة أحمد بن يحي الونشريسي، خصَّصتها للعدد الخاصِّ من مجلَّة: (**الأصالة**)، وقدركَّزتها على هذه الوثيقة الجوهرية.

(1) J.Berque: Les Hilaliens repentis ou l'Algérie rurale au XVe siècle d'après un manuscrit jurisprudentiel (Annales E.S.C) sept-oct 1970. P:1325- 1353.

جوانب مجهولة مِن آثار زيارة الشيخ محمد عبده إلى الجزائر سنة (1903م/ 1322هـ)[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

نواصل في محاضرتنا الليلة حديثنا السابق المتعلق بأطوار السلفية في الجزائر، وترجمة حياة أحد روادها وهو الإمام **عبد الرحمٰـن الأخضري** . تحدثنا عن ظهور السلفية وتطورها في بلاد المشرق والمغرب، وطريق تسربها إلى الجزائر ابتداء من القرن الثامن الهجري، كما ذكرنا أن السلفية التي تسربت إلى الجزائر كانت على طريق الفقيه أبي الحسن الزرويلي المتوفى حوالي 720هـ.

كان أبو الحسن الصغير الزرويلي هذا معاصرا للإمام ابن تيمية إلا أن سلفيته كانت في إطار المذهب المالكي، وشعارها محاربة البدع كيفما كانت، وكيفما كان دعاتها .ولم ندر هل كان بين الرجلين تعارف واتصال؟ وكل ما نعرفه هو أن ابن تيمية كان معروفا عند علماء الجزائر إذ ذاك. يذكر علماء التَّراجم أن العالمين الشَّهيرين ابني الإمام التِّلمسانيَين، اللَّذَين أخذ عنهما عبد الرحمـٰن بن خلدون، وترجمهما ضمن أساتذته كما أخذ عنهما تلميذ ابن خلدون أبو عبد الله محمد بن مرزوق دفين تلمسان، الذي كان في مقدمة العلماء المنتصرين لأبي الحسن الصغير، ناظرا ابن تيمية بالمشرق قبل استيطانهما تلمسان

(1) **الأَصالة**: ربيع الأول والثَّاني 1398هـ/ فيفري ـ مارس 1978م، السنة: 7، العدد: 54/ 55، ص: 72 ـ 88، وأصلها محاضرة ألقاها في المركز الثقافي الإسلامي بالعاصمة بتاريخ 18 جوان 1974م، واعتمدنا في ضبط نصِّها على نسخة خطية تقع في (27) صفحة.

وظهرا عليه، وسكت هؤلاء المترجمون عن موضوع المناظرة، فلم يتعرضوا لها بكلمة، ولا زالت إلى الآن مجهولة، رغم أن كثيرا من الباحثين حاولوا كشف القناع عنها .

واسمحوا لي قبل تناول صميم موضوع المحاضرة أن أتعرض لمناخ البلاد الجزائرية في الميدان العقائدي قبل هذه الزيارة وفي أثنائها. فمما لا شك فيه أن الجزائر كانت لا تختلف في الميدان العقائدي على بقية بلاد المغرب العربي، وذلك حتى في العهد التركي الذي ساد فيه المذهب الحنفي حيث كان المذهب الرسمي للدولة، وبعد الاحتلال الفرنسي تغيرت الأوضاع ولا يمكننا التعرض للأطوار التي مرت بها الجزائر حينئذ، وإنما نكتفي بذكر بعضها بإيجاز، أعقب الاحتلال مباشرة الخلاف بين علماء البلاد، في قضية الهجرة، وذلك أن كثيرا من العلماء الذين هاجروا الجزائر العاصمة، والتحقوا بالثوار، أو خرجوا من البلاد للمشرق والمغرب، أفتوا بكفر من بقي منهم مجاورا وراضيا بأحكام الكفار، وكان من بين هؤلاء المهاجرين الشيخ علي بن الحفَّاف الذي التحق بالأمير عبد القادر وتولى إدارة ديوان الإنشاء بمليانة، وقد رد عليه زميله محمد بن الشاهد وناقشه في فتواه، حيث بين أن بقاءه بالعاصمة مع بعض زملائه ليس رضا بالكفر ولكن كانت هناك أسباب أخرى ذكرها، وقد احتفظ لنا التاريخ بهذه الفتوى وهي هامة في موضوعها، تعطينا وصفا دقيقا للعاصمة إثر الاحتلال، وقد بقي أثر هذه الفتوى ساري المفعول إلى أن زار الجزائر المحدث الشهير الشيخ الرضوي البخاري، ثم بيرم الخامس صاحب الرحلة، وخففا من وطأتها وأفتيا بأن بقاء العالم في وسط قومه أفضل من هجرته لنفسه.

ثم قاومت السلطات الفرنسية التعليم بالمساجد والزوايا وضيقت عليه الخناق، وعوضته في المدن بالتعليم الرسمي وأحدثت لذلك مدارس ثلاث: بقسنطينة والمدية وتلمسان، ثم حولت مدرسة المدية إلى العاصمة فكان مجموع تلامذة هذه المدارس

الثلاث سنة 1892م ثمانمائة واثنان وأربعون تلميذا (842) تخرج منهم في نفس السنة أربعة عشرة تلميذ (14)، وهذه إحصاءات رسمية صرحت بها لجنة مجلس الشيوخ التي أوفدتها الحكومة الفرنسية سنة 1892م تحت رياسة الوزير الشهير (Jules Terry) لتبحث في القضية الدينية والثقافية.

كان من جملة من اتصل بهذه اللجنة الطبيب محمد بن العربي العضو بالمجلس البلدي في العاصمة، والشيخ محمد بن رحال الندرومي، قدّم النائبان المذكوران مطالب كانا يريانها مستعجلة، تتلخص في إصلاح التعليم وتعريبه، وإصلاح الضرائب والقضاء، ثم تكلما على ما تبقى من ريع الأحباس واسترجاعه، إذ كانت هذه القضية أثيرت سنة 1869م، عندما زارت الجزائر لجنة بحث برلمانية تحت رياسة الماريشال (Randon) ـ وسنتحدَّث عنها، إذ لها علاقة بموضوع بحثنا .

و كانت أحباس الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي قدِّرت في أواخر العهد التركي بأربعين مليون فرنك (40 مليون)، وكان نصيب عاصمة الجزائر منها سبعة ملايين (7 ملايين) ينفق ريعها على مائة وخمسين مسجدا (150)، وفي سنة 1892م عند زيارة لجنة (جول فيري) كانت ميزانية الوظائف الدينية الإسلامية ستين ألف فرنك (60 ألف فرنك) وتشمل هذه الميزانية مرتبات السلك الديني الذي كان من بين أفراده المدرسون، وقد بين النائبان للجنة سوء نوايا المتصرفين وعنصريتهم عندما قارنا بين ما كان يخصص للكنسية من هذه الميزانية وضربا مثلا لذلك أن مرتب المفتي كان ثلاثة ألف فرنك سنويا (3000 فرنك) بينما كان مرتب الأسقف ثلاثين ألف (30.000 فرنك) زيادة على القصر الذي أمم من أجله، كما تكلم النائبان المذكوران عن المؤسسة الخيرية التي كانت تعرف بالتكية وقد بلغ ريعها السنوي بعد الاحتلال مباشرة بمائة وعشرة آلاف (110000 فرنك) وكان عدد الفقراء الذين توزع عليهم صدقاتها سبع

مائة (700) وفي تلك السنة أي سنة 1892 م وصل ريعها إلى (40 ألف فرنك) أربعين ألف فرنك بينما تضخم عدد الفقراء من سبع مائة إلى خمسة عشرة ألف (700 إلى 15000) .

كما أثارا قضية أخرى وهي مؤسسة خاصة للمرحوم القينعي ولنعتذر على عدم إمكان التطويل بأكثر من هذا، وإنما ذكرنا هذه الفقرات لنبين أن سكان الجزائر لم يكونوا على الحالة التي لفقها بعض الكتاب، ولا زال الكثير منهم يرددونها إلى اليوم، من أن الجزائر كان يسودها الخمول والجمود واللامبالاة، زيادة على الجهل الذي كان ضاربا أطنابه، ولا زالت السجلات التاريخية الرسمية تثبت الكثير من مواقف أمثال هؤلاء النواب، وابن رحال هذا شخصية لامعة أهملها الخلف، فإنه زيادة على موقفه هذا شارك في مؤتمر المستشرقين المنعقد في باريس سنة 1897م، وقدم دراسة قيمة موضوعها «**مستقبل الإسلام**» يعجز عن كتابتها والتصريح بما فيها كثير من المعاصرين، كما كان أول المدافعين على التعليم العربي، واقترح في مجلس النيابات المالية بعد الحرب العالمية الأولى، جلب الأساتذة من المشرق، وقد اتصل به المستشرق الشهير (غستاف لوبلان) والزعيم اليساري (كارل ماركس) الذي زار الجزائر إذ ذاك وأقام بها مدة عند ابنته التي كانت متزوجة هنا، وفي هذا الأسبوع فقط نشرت مجلة الشاب الإفريقي استنطاقا للمؤرخ الفرنسي (شارل أندري جوليان) الذي خصص عدة تآليف لتاريخ الجزائر، وذكر أن بداية اهتمامه بالجزائر كان في العشرينات من القرن الجاري حيث عين أستاذا بثانوية وهران، وانتخب عضوا بالمجلس العمالي وفيه تعرف بزميله ابن رحال وأشاد بنضاله وعلمه ومواقفه.

وإن رجعنا إلى الحديث عن اللجنة الأولى التي أثيرت فيها قضية الأحباس ووعدت الحكومة إحداث لجنة خاصة لذلك، فإنها لما زارت الجزائر سنة 1869م

قابلها نواب الجزائر وقسنطينة ووهران، وهم السادة حسن بريهمات والقاضي المكي بن باديس وأحمد ولد قادة، وكان كل منهم يمثل المجلس العملي، وترأس هذا الوفد العالم الأديب حسن بريهمات نائب الجزائر، وكان من جملة ما صرح به للجنة المذكورة أن التجنيس لا يوافق تعاليم الشريعة الإسلامية.

كان حسن بريهات أيضا من الشخصيات اللامعة، له اتصال بعدة علماء خارج البلاد، ومنهم الوزير الشهير خير الدين التونسي، ولما ظهر تأليف خير الدين سنة 1284هـ الذي لازال كثير من الباحثين السياسيين يعدونه من دعائم النهضة الحديثة في العالم الإسلامي، قرّضه حسن بريهات تقريضا يدل على مكانته، وعمق نظره، وهذا التأليف هو: (**أقوم المسالك في أحوال الممالك**)، ولننقل بعض فقرات من هذا التقريض الذي احتفظ لنا به التاريخ، فإنه بعد أن عرف بمؤلفه وبما لقيه الكتاب في بلاد العالم الإسلامي من رواج قال: «مؤسس الضوابط السياسية وبهجة الديار التونسية، الأوحد الذي هو في هذا الشأن منقطع القرين، السيد المولى خير الدين أبقاه الله للنصح باذلا وعن بيضة الإسلام مناضلا، لله دره من ناصح أمين ومرشد صادق مبين، قد نطق عن يقين ونصح نصح المشفقين، وكيف يمين من أعطى على الصدق صفقة اليمين، أم كيف يخون، من اختار الحركة فيما ينفع الناس عن السكون، أم كيف يتهم من قام عنهم لله بهذا الأمر المهم، وأنجز فيه وأتمم ، رأى اهتضام الإسلام فامتعض، وشمر عن ساق الجد منتصرا لله ونهض، ودعا القريحة فأسرعت، وزجر سحابة الجهل فانقشعت، أعمل القلم حيث لم يكن للسيف إعمال، وبعث بعوث النصيحة عوضا عن بعوث الأسلحة إلى الأعمال، وآثر الرفق على العنف، وأشار إلى تعيين المصلحة في هذا الصنف، وأنبأ أن العدل لذلك هو الأساس. وأن الإيناس قبل الأساس، وحذر عن ركوب الخُلْف الـمُفْضي إلى الفَشَل والضعف، هذا لعَمْري أسدّ الأعمال وبعض الذل أبقى للأهل والمال، وهو شأن

الأئمة المنصفين، وأهل العدل المتصرفين، فقم بالنصائح لأهلها، ودع الأمور تجري على إدلالها ، جزاك الله خيرا عن آثارك الحميدة، وآرائك المستقيمة السديدة، جيئت على حين تصرف الناس بلا قيد ولا زمام، وانتهكوا حمى المحارم كأن لم يكن عندهم للشريعة ذمام، ولم يراعوا ما في طيها من صلاح المعاش والمعاد، فتقطعت بهم الأسباب وتلاعبت بهم الأهواء في كل واد، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، وأحاق بهم مكرهم وذنوبهم، فأصبحوا وقد تقلص عنهم ظل العمران وانزوى، وانقبض بساط الحضارة والرفاهية وانطوى، وتناولتهم النوائب بالمخالب، وألبستهم مسوك الثعالب، فعظمت بلواهم وانتقضت قواهم، وانحلت عراهم، وخسروا دنياهم وأخراهم، وخبطوا في ليالي الخطوب الحوالك، وهلكوا إن لم يهديهم الله إلى أقوم المسالك»... إلى أن يقول:

لله درك خـير الـدين مـن علَـم	أبدى منار الهدى للناس في القـنن
نهجتَ نهجا قـويما يهـدي سـالكَه	إلى السياسة أو ينْجَبـي مـن الفـتن
بينتَ مـن طـرق السّـداد أقوَمَهـا	وقمـتَ منتصـرا للـدين والـوطن
نصـيحة تلـك حـق شـكر باذلهـا	ومنـةٌ مُنِحَـت مـن أعظـم المـنن

إلى آخر ... القصيدة المحتوية على خمسة عشرة بيت (15).

ويختم تقريضه هذا ببيان الأسباب الداعية إليه فقال: «فخذها إليك من قلم تكلم من غير دهش ، وصدع صفات الحق وما انصدع ولا هش، ولا تبسم في وجه لئيم قط ولا بش، ولا أنذرَتْه التقاريض، ولا حذرته شؤم التخلف إعلانات المعاريض، ولا ألجأته الضرورة أن يتعدى ميسوره، ويتجاوز مقدوره، ولا مترقبا ترويج زخرفاته، وتجويز موضوعاته ومؤلفاته، ولا مترجيا أصفاء مصافاته، وتعجيل مكافآته، ولا متصنعا ولا متنطعا، بل محبا محقا متطبعا، شهادةً عادلة وعن الحق ليست عادلة، تكاد

شوقا إليك أن تسير قبل التمام، وتطير مع القطا والحمام، على ما بها من انكسار الخاطر، لتخلفها عن النظائر، فلهذا وافتك غير متبرجة بزينة ، لارزينتها بما كسبت رهينة، تود أن لو سبقت في الركاب، وتقدمت مع تقاريض الكتاب.. الخ.. وقد كتب هذا التقريض في آخر ربيع الثاني عام 1286 هـ .

وإننا نشرنا بعض فقراته التي هي زيادة على تصوير صاحبها لمناخ البلاد الذي أعقب الاحتلال فإنها فيها دلالة واضحة على مواقف بعض رجال الفكر في تلك الظروف القاسية فلم يقتصر نشاطهم على خويصات أنفسهم، بل كانت مجالات نشاطهم واسعة، حيث ساهموا في تتبع تطور الحركات العلمية والسياسية داخل البلاد وخارجها وسجلوا لبلادهم الجمع بين الجهاد بالسيف والقلم، حيث كانت في عهودهم الثورات متتابعة، وهذا التقريض زيادة على ما ذكرناه من روائع النثر الفني.

نكتفي بهذا القدر ولنرجع إلى الحديث عن زيارة محمد عبده:

زار محمد عبده الجزائر سنة 1322هـ الموافقة لسنة 1903م بعدما أقام رفقة أستاذه جمال الدين الأفغاني سنين بأوروبا، وقد تعرض لهذه الزيارة ووصفها كثير من الكتاب مسلمين وأجانب ولا زالوا إلى الآن يواصلون بحوثهم عنها، وإننا نقتصر على ثلاثة كتاب منهم، لهم اتصال وثيق به، خصوصا من ركزنا عليه موضوع المحاضرة، وعنيناه بأنه صاحب الجوانب المجهولة من آثار هذه الزيارة، أولا وهو الشيخ عبد الحليم بن سماية، الأستاذ بالمدرسة الثعالبية بالجزائر، وأن كتابته عنه هي انطباعاته الخاصة لم يكتبها للنشر، ولا للإشادة بعبده، أو لِانتقاده، وإنما كتبها تأديةً لواجب الصداقة التي كانت تربطه بزميله الشيخ علي بن عبد الرحمٰن الذي كان مفتيا بوهران إذ ذاك.

أما الكاتبان الآخران اللذان اخترنا نقل ما كتباه فهما الشيخ رشيد رضا والدكتور عثمان أمين: فالأول كان ابنا روحيا لعبده، وخصص لحياته تاريخا ضخما جمع فيه كل ما

يتعلق بحياته العلمية ونضاله السياسي، وأما الدكتور عثمان أمين فإنه تخرج عن تلميذ عبده وأقرب الناس إليه، وهو الشيخ مصطفى عبد الرازق وزير المعارف المصرية السابق وشيخ الأزهر، وقد اختار لتلميذه عثمان أمين «**حياة محمد عبده**» موضوع الأطروحة التي نال بها الدكتورة في الأربعينات من القرن الجاري، وقد قال مصطفى عبد الرازق في مقدمته للدراسة المذكورة: «قرأت رسالتك لما أتممتها، وكنت حاضر مناقشاتها حين تقدمت بها لنيل الدكتورة، فكنت من أشد الناس سرورا بك وإعجابا بمصنفك الممتاز الذي يبرز صورة للشيخ عبده، صادقةً ناطقة ويحيط بكل الجوانب من نشاطه الإصلاحي المترامي الأطراف ويعرض أنضاره الفلسفية في اتساق ووضوح وحسن طريقة، وإن كتابك لَيَسُدُّ ثغرةً في الدراسات المتصلة بالشيخ عبده، وفي الدراسات المتصلة بتاريخ نهضتنا الفكرية والاجتماعية الحديثة، من ناحية أثر الشيخ عبده فيها».

علق رشيد رضا على زيارة الشيخ عبده إلى الجزائر فلخصها في نقط ثلاث التي هي:

1- الجد في تحصيل العلوم الدينية والدنيوية من طرقهما القريبة .

2- الجد في الكسب وعمران البلاد من الطرق المشروعة الشريفة مع الاقتصاد في المعيشة.

3- مسالمة الحكومة وترك الاشتغال بالسياسة». اهـ تعليق **رشيد رضا** الذي نشره في (**مجلة المنار**)، ثم نقله في كتابه: (**تاريخ الشيخ عبده**).

أما ما علَّق به الدكتور عثمان أمين على هذه الزيارة في كتابه: (**رائد الفكر الإسلامي محمد عبده**) الذي نشره في سنة 1945 بتقديم مصطفى عبد الرزاق قال: «وقد كان للأستاذ الإمام أثر ظاهر في إفريقيا الشمالية بفضل مجلة المنار، وفي صيف سنة 1903م

أراد الأستاذ الإمام إبان عودته من أوروبا أن يقف بنفسه على أحوال المسلمين في شمال إفريقيا، فقام بجولة إلى الجزائر وتونس، وقد اكتشف هنالك كما ذكر كاتب مقال في جريدة (Le temps) ـ الزَّمان ـ وجود حزب إصلاحي كبير ينتمي إليه، ونستطيع أن نذكر أيضا من أنصار تجديد الإمام في الجزائر الشيخ محمد بن الخوجة وهو مؤلف كتب إسلامية عديدة، وكذلك الشيخ عبد الحليم بن سماية»، ثم ذكر عثمان أمين في موضع آخر من الكتاب أن من جملة تآليف ابن الخوجة تقريض لتفسير سورة: ﴿والعصر﴾ لعبده، وقال عن عبد الحليم بن سماية أنه مدح عبده بقصيدة بليغة، وقد نشر التقريض والقصيدة المنار» اهـ.

هذا جل ما عرفه القراء عن هذه الزيارة، ولنشرع في الحديث عن الجوانب المجهولة من هذه الزيارة وهي التي ذكرها عبد الحليم بن سماية في رسالة، إجابة لزميله مفتي وهران الشيخ علي بن عبد الرحمٰن المشهور بالجزيري، أي نسبة إلى العاصمة. تخرج علي بن عبد الرحمٰن من مدرسة العالم الشيخ حميدة العمالي المتوفى بالعاصمة سنة 1290هـ، وكان من جملة زملائه عبد الحليم ابن سماية ومصطفى الكمال المشهور بمضربة الذي سماه الدكتور عثمان أمين محمد بن الخوجة وحسن بريهمات صاحب تقريض: (**أقوم المسالك في أحوال الممالك**) للوزير التونسي خير الدين وغيرهم، ولما زار عبده الجزائر كاتب علي بن عبد الرحمٰن زميله عبد الحليم يستقصيه عن أحوال الشيخ عبده وهذه جمل من كتابه، قال بعد الديباجة: «قد كثرت علينا القلاقل في شأن ذلك الرجل الفرد الكامل الجليل الشيخ عبده الوارد لحضرتكم السعيدة ما بين قادح ومادح، فمن قائِل السيد من أهل الاجتهاد، عالم بالمعقول والمنقول، ذابّ على الشريعة والدين، سالك المحجَّة البيضاء ... الخ. ومنهم من يقول: إنه سني في الفروع معتزلي في الاعتقاد إلى غير هذا، وتزاحمت علينا أقوالهم وتراكمت أهواؤهم وخديمكم بحمد الله

لا تزحزحه عواصف الأقوال، ولا تزلزله عن موقفه لواعجُ البطالين من غير بيان، قصارى الأمر، تزاحمت القلاقل من غير ترجيح، فالذي يقتضيه النظر الصحيح، هو الوقوف حتى يتبين الحق من غيره، لقوله تعالى: ﴿فتبينوا﴾ ولما أخرجه مسلم في صحيحه من قوله ﷺ: «كفى بالمرء إثما أن يُحَدِّث بكل ما سمع»، وهذا السيد الجليل العالم الفريد ينزه جنابه بمرجّحات، منها حسن الظن المطلوب، ومنها العدالة أصل، والجرح طارئ، كما هو عند الإمام الأعظم، ومنها أنه نشأ ببلدة أهلها سنيون وقرأ مع قوم وعلى علماء سنيين، وأدرك رتبة الإفتاء الكبرى على علماء سنيين، فبعيد أن يكون معتقده على خلاف أهل السنة والجماعة، هذا الذي اقتضاه نظر الخديم، وإن كنت لست بشيء، ولعل هذا السيد سببُ ابتلائه بهوس القاصرين، كلامه في تأثير القدرة الحادثة، الذي هو مذهب العارفين، كالحاتمي وأضرابِه وهي مسألة في غاية الغموض عند المقلدين، الذين يزعمون أنهم خرجوا عن التقليد باتباعهم لأقوال لا يعرفون لها رأسا ولا ذنبا، وهم إلى الآن غارقون في بحر التقليد... إلى أن يقول: قال ﷺ: «الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أين وجدها»، وقال بعض تلامذة العارف أفلاطون الحكيم اليوناني: «أحِبُّ أفلاطون والحق ما اتفقا، فإن اختلفا فالحق أولى. وقولي في حق أفلاطون العارف خلاف ما يعتقده القاصرون، من أنه فلسفي كافر، يقال لهم: وإن كان أفلاطون رئيس الفلاسفة في زمانه، ومعلمهم فهو من الحكماء المشاءين فالفلسفة ما ذمّت لاسمها، فعلم الفلسفة علم إلاهي أتى به نبي الله إدريس على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، فإذاً الفلسفي قالوا معناه: محب الحكمة، والله يقول: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، نعم دخل القيل والقال في الفلسفة من جهة الآراء الفاسدة والعقول الكاسدة ، تكلموا في الإلهيات بعقولهم ونبذوا الكتب الإلاهية وراء ظهورهم، وسدوا أبواب الحضرة في وجوهم...

إلى أن يقول: «ومسألة القدرة الحادثة هي إحدى المسائل التي وقع فيها الخبط والسخط، والتكفير والزندقة، للعارفين من غيرهم، ومنها مسألة وحدة الوجود ومنها مسألة عينية الصفات، ومنها مسألة العينية الذاتية والقرب الذاتي، ومنها مسألة تعلق السمع والبصر بالمعلوم، الذي علم الله أنه سيوجد، ومنها مسألة سببية المعدوم الذي علم الله وجوده، ومنها مسألة الحي، قولهم الحياة لا تتعلق بشيء، مع اتفاق العارفين أنه لا تعطيل في أسماء الله، ومنها مسألة الكلام القديم بحروف وأصوات قديمة، ومنها مسألة الآن الدائم، المعبر عنه بالزمن الخ... ثم يختم رسالته بقوله: «فنرغب من أخينا أن تنعشنا مما علمتم من ذلك الهمام، وترسل لنا رسائله في علم الكلام، والله يبلغكم أقصى المرام»، وأرخ رسالته في 17 ربيع الثاني 1322 هـ.

وهذه فقرات من نص رسالة عبد الحليم بن سماية التي أجاب بها زميله وهي هامة في موضوعها افتتحها بقوله: «مشرفنا الذي نعشو إلى شموس أنواره، ورياض طبيب حياتنا الذي ننتعش باستنشاق أزهاره، مولانا وسيدنا علي بن عبد الرحمٰن، أمدّنا الله من همته العالية، ما يُبَلّغنا إلى المراتب، ويدفع عنا كل ما يُلم من المتاعب والمصائب والحواجب.

أزكى سلام ينافح الزهر في الأكمام، ويكاثر قطر الغمام، وأوفى تحيات طيبات مباركة، أخص بذلك مقامكم الأعلى زاده الله علوا ومن حضرة القدس دُنُوا، وقد انهالت عليّ رحمةٌ ونعمة بكتابكم الشريف، الذي عمّني أنسُه ... الخ».

ومما تضمنه كتابكم الرفيع، استبداء رأيي فيما أعلم من فضيلة العلامة الذي شاع ذكره، واشتهر أمره، وإني عملا بالواجب على كل متدين من الذب عن أهل الله، وإن لم يكن العلماء أولياء الله، فليس لله ولي، أَصدَعُ بما اطلعت عليه، من خصائص الرجل في هذا الزمان الشبيه بزمان الفترة، فأقول: هذا الرجل الجليل رجل حنكته تجارب الزمان،

واستقصى أحوال الأمم حتى ميز منها ما شان وما زان، وتطلع من الفنون على اختلاف أنواعها ومواضيعها، وأعمل فكره أعمق تدبر، وتفَكّرَ في الحبل المتين والقرآن المبين فأدرك قوله عز وجل لنبيه الكريم ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: 107)، فهو يرى أن كل خير صدر أو يصدر في الوجود إنما هو لمحة من شعاعه وبركة ناشئة من اتباعه، فما سعِد من سعد من الأمم، إلا باتباع سننه والاهتداء بأنواره. وقد أفصح عن ذلك في مقالة له طويلة يتأسف فيها على الإسلام من تركهم العمل بما أنزل عليهم من الأمر بالتعاون والتَّناصر واتخاذهم بدَلَ ذلك التخاذل والتقاطع والكذب والخداع إلى أن صاروا حجة لغيرهم على دينهم، وفتنةً للذين كفروا، وتأخروا وتقدم غيرهم بما كانوا يتقدمون به في الأزمنة السالفة، إلى أن عبّر عن ذلك بقوله: «قبس أضاء بالمشرق ونوره بالمغرب ويرمي في جميع أبحاثه إلى بيان المنازع التي منها ثار تأخرُ الإسلام، وشقاقهم وتفرقهم أيدى سبأ، وقد بين في صدر رسالته في التوحيد، بأن سبب أول شقاق وقع بين المسلمين في الاعتقاد هو عدم اقتصارهم على كتاب الله فيما أرشدهم إلى الوقوف عند حده وإدخالهم هوس الفلسفة وإعجابهم بما يُنقَل عن أرسطو وأفلاطون حتى تعمقوا بذلك واشرأَبُّوا إلى أمور ومباحث لا تطيقها عقولهم فتنازعوا وفرقوا دينهم وكانوا شيعا، وكثيرا ما سمعته يستدل إذا ذُكِر هذا وأمثاله، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ ﴾، (الأنعام: 159) ولقد شاهدتُ منه فعلا، كما سمعت منه قولا، أن يفِر من الاختلاف فراره من الأسد، ومن عجيب أمره أنه ما خالفه مخالف في مجلسه إلا وتمكَّن من إلقاء القبض عليه بجند من جنود الحقِّ، حتى يوقفه إلى جنبه، وكل ذلك بكلام لا يخالطه اللغط، وعقلٍ لا يستفزّه الطَّيش، وخُلق لا يأتي على وسعه ضيق، بمقدمات ينتزعها من وجدان مخاطَبِه حتى يضطر إلى الإقرار والاعتراف بنفسه من نفسه، ولعها وراثة من شيخه جمال الدِّين

الأَفغاني الذي تضافرت الروايات عنه أنه ما خاصم أحدا إلا غلبه، وهذا أمر معروف حتى بين علماء أوروبا، ورسالته العجيبة التي ألّفها في الردِّ على الطَّبائعيِّين، كما يشهد لمثل هذا تلميذه الذي نحن بصدد الكلام عليه ما أنشأه من المقالات العجيبة في الردِّ على الوزير (**هانوطو**) بما أفحمه وصيَّره يتشفَّع ويستغفر من الكلام ويعترف بغزارة علم الراد عليه، عند تعرُّضه للطعن في الديانة الإسلامية، وفي مثل هذا المقام الحرج تتبينُ الرجال من ربات الحجال، وتظهر أرباب الغيرة من أصحاب الحيرة، وبعد ما رد عليه وأسمعه أليم الكلام، وجرَّعه المرَّ الزُّعاف، مرَّ على بلده عند سفره إلى الجزائر، وهو باق في سطوة وزارته منطو على ما بثِّه في ضمائره، فأضافه وأكرم مثواه وأرسل إلى النواحي التي يريد التجوُّل فيها بالوصايا للقائمين بها على إكرامه وإسعافه في تجوُّلاته، ومثلكم لا تخفى عليه هذه الأسرار.

ثمَّ ذكر عبد الحليم أدلة على ثقة الشَّيخ وتوكُّله على الله لا يسعنا المقام لتتبُّعِها، ثم انتقل إلى رأي الشيخ في نقص الثقافة الإسلامية إذ ذاك وركودها فقال: «وإني لفي أول ملاقاة بيني وبينه في محلي ذاكرته فيما عليه طلبة الزمان من اقتناعهم بتحصيل قواعد العلم دون تحصيل الملكة الراسخة في النفس التي هي المقصود بالذات من العلم، فقال لي هذا الذي نحن قائمون بالحث عليه، وإنا لنرى أن تحصيل اللغة على الوجه المطلوب هو رابطة هذا الدين القويم، والدين كله كلام الله العظيم الذي لما سمعه الأعرابي سجد لفصاحته، فمرادنا، أن الناس بالأقل يتعلمون لسانهم تعلما حقيقيا، فيُدركون ولو رتبة هذا الأعرابي، واغرورقَت عيناه بالدموع وهو يجتهد ألا يظهر عليه أثر ذلك».

ثم يدخل الشيخ ابن سماية في لبِّ الموضوع وصلبه فيلخص انطباعاته في هذه الجمل التي قال فيها قبل ختامه لكتابه: «وبالجملة فالذي يتلخص من أحوال هذا الرجل أنه لا يرضى لهذه الأمة من علم اللسان إلا أفصحه، ومن علم العقائد إلا أوثقه

وأصدقه، ومن علم الفقه إلا أوفقه وأجمعه وأبعده من الخلاف، ويُبيّن لهم أنه يمكنهم الاجتماع وإن تعددت المذاهب، فإن دين الله واحد يرجع إلى شريعة واحدة، ويمكن لكل إنسان أن يعمل بجميع المذاهب وبالتقليد والتلفيق، وذلك أولى من التنافر والتفريق الذي صيّر الأمة طرائق قِدَدا، وملخص ملحظه أن التزام مذهب معين تحجير للرحمة التي اتسعت بتعدد المذاهب، ولا يعقل أن هذه المذاهب رحمة إلا إذا كان العمل بها مفتوحا لجميع الخلق، فكل من عمل بقول من أقوال المذاهب فهو على شريعة سيدنا محمد ﷺ.... إلى أن يقول: «ولذلك هزّ هِمَمَ العلماء على أن يجمعوا من المذاهب مذهبا لا يخرُج عن أقوالها يتيسرُ به العمل لجميع الناس ويرتفعُ به بينهم الخلاف وروغان القضاة في الأحكام وجريهم على حسب الأغراض مع الأقوال التي تلائِم أغراضهم، ويجنح على ملحظه بأن الناس كانوا قبل زمان الأئمة الأربعة رضي الله عنهم يعملون بكل ما ثبت عن رسول الله ﷺ ويسأل أحدهم سيدنا عليا رضي الله عنه وأكرم وجهه مثلا فيعمل بما أخبره به، والصحابي الآخر فيعمل به، وهكذا، فلما بُدّل هذا المنوال بعد عصر الصحابة رضي الله عنهم ....وله من مثل هذه الأمور التي يقصد بها رفع الخلاف بين الأمة وجرّهم إلى الوفاق في كل مقام يلوح له فيه مثارُ الخلاف، ما لا يمكن أن يعد ولا يحصى، وهو قائم في هذا المقام، لا يتغير ولا يتكدّر ولا يألم من قدْح قادح ولا يفرح بمدح مادح، مع تمام التوءدة والرَّزانة والصَّبر والإحسان لمن أَساء إليه والصَّفح عمن جنى عليه، عاكفٌ في جميع أوقاته على تدبر آي القرآن واستنباط وجوه الحكم من كلامه، وكفاك ما بلغنا أنه إذا أقبل شهر رمضان لا يخرج إلى أحد من الناس ولا يلتقي بأحد، ويشتغل فيه بتدبر القرآن قال: لأنه يجد فيه من قوة الإدراك لمعاني القرآن ما لا يجده في غيره من الأيام.

ثم يتعرض لموقف معاصريه منه، وما جرّه له خصومه من اتهامات فيقول: إِلَّا أن

الرجل لما كان يتنزل في كلامه للعقول بما ألفته من الأفكار والأنظار الوقتية، والعلوم الجارية، وكثيرا ما يجاري الأفهام بمثل ما أَلِفتْه، فتجد الناس في أمره بين فرقتين: فرقة ألفت التعبير بالعبارات القديمة، وكادت أن تُتَخَذَ عندهم مما يُتَعَبّد بذكره، ولا تحصل البركة والنفع إلا بلفظه، فربما تطرق إلى أذهانهم أنه زنديق يحاول بعباراته تدريج الناس إلى الأخلاق والأفكار الأوروبية خصوصا مع كونه قد دارس العلوم الأوروبية وأتقن ألسنتهم، فكان ذلك مما يقوّي الشبهة فيه، والله يعلم أنه ممن يستمع القول فيتبع أحسنه ويتخذ من كل شيء ما يراه أنه سُلّم موصل للنفع اللائق بالوقت. وفرقة أَلِفَت هذه الأفكار الجديدة والقوانين الحادثة فهم كلما سمعوا كلامه أخذ بمجامع قلوبهم وعظم في صدورهم ولكل عقل خطاب، ولكل شبهة حُجة، ولكل وقت كيفية.

ثم ينتقل ابن سماية إلى الخوض في مسألة علم التوحيد وكيف كان ينفُر منه تلامذته إلى أن استعمل معهم طرقا مناسبة للعصر ولعقولهم فأثر فيهم كثيرا وهذه الطريقة هي التي كان يستعملها عبده في تدريسه ومحاوراته، ثم ختم رسالته بأن أرسل إليه نسخة من **(رسالة التوحيد)** وأشار إلى المواضيع التي استقصاه عنها مُراسِله كمسألة الجن وإنكار الولاية، وخلق الأفعال والكرامات للصالحين... الخ».

الفقير إلى مولاه **عبد الحليم بن سماية** في 29 ربيع الثاني 1322 هـ

هذا فحوى رسالة الشيخ عبد الحليم بن سماية التي استوعب فيها جوانب من ترجمة حياة محمد عبده الذي لازمه مدة إقامته بالجزائر. ولا شك أن محمد عبده قبل زيارته للجزائر لم يكن مجهولا في أوساطها العلمية إذ كانت الجزائر متصلةً بالمشرق، فكانت التآليف والصحف والمجلات ترد إليها كما كان المتخرجون من الأزهر في عدة جهات من القطر وكان أمثلهم الشيخ المولود البوشعيبي صاحب المعهد الشهير بنواحي مازونة والذي كان يقضي شهر رمضان للتدريس في البليدة بطلب من علمائها،

كان البوشعيبي هذا من خواص تلامذة الشيخ عليش الفقيه المشهور الذي كان من ألد خصوم عبده، كل هذا لم يمنع عبد الحليم بن سماية وزميله من الالتفاف حول الشيخ عبده والانتصار لتعاليمه بعد أن اطلعوا على تفاصيلها، كان هؤلاء العلماء الثلاثة من خريجي معهد الشيخ حميدة العمالي المتوفي سنة 1290هـ والذي تولى القضاء ثم الفتوى وترك تآليف قيمة، كما كان من خريجي مدرسته الأديب حسن بريهمات صاحب تقريض كتاب (**أقوام المسالك**) الذي تحدثنا عنه وغيره من كبار الكتاب، الذين تركوا آثارا تدل على علو مناصبهم في ميادين العرفان: إن مصطفى مضربة كان مدرسا ثم إماما خطيبا بجامع سفير وقد تولى تحرير جريدة (**المبشر**) الشبه رسمية وختم حياته وكيلا لضريح الشيخ الثَّعالبي، وكان يُرَاعَى في هذه الوظيفة نواحيها الأدبية أكثر من ناحيتها المادية ، كما كان عبد الحليم بن سماية مدرسا بمساجد العاصمة إلى أن عين أستاذا بالمدرسة الثَّعالبية، وقد علمنا أن علي بن عبد الرحمٰن الذي طرح قضية محمد عبده لاستقصائها كان مفتيا بوهران، وكان ثلاثتهم تيجانيي الطريقة فلنقارن بين هذا الصنف من العلماء في عهد الاحتلال الذي كان التعليم العربي مُضيّقا عليه، وكان نصيب جل العلماء السجن والنفي، فلنقارن بينهم وبين أئمة مساجدنا اليوم ، ولو في المحيط الضيق، أي في نطاق العلوم الدينية، فبينما كان أولئك العلماء في طليعة المهتمين بتطور الفكر الإسلامي، وكانت لمواقفهم وآرائهم وزنها وآثارها، نجد هذه الطبقة اليوم مواقفها سلبية تماما، والشيء بالشيء يذكر كما يقال، كنت منذ أشهر قليلة بمفتشية جهوية تابعة لوزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية فقدم كاتب المفتشية ملف بعض الموظفين فأطلعني عليها الأخ المفتش فوجدت صاحبه أي الموظف، يحمل ثلاث شهادات ليسانس واحدة في الأدب الفرنسي والثانية في اللغة اليونانية القديمة والثالثة في اللغة اللاتينية، ثم دكتورة في العلوم الدينية، والموظف المذكور بصدد تحضير دكتوراه في حياة الأمير عبد القادر بالعربية، وهذا الموظف هو أسقف كنيسة وهران ولا زال لم

يجاوز عمره خمسة وأربعون سنة (45 سنة)، إن شهادات هذا القسيس تخوله شغل رتبة أستاذ في كثير من جامعات العالم ولكنه اختار التَّضحية بِشَبابه وحياته الخاصة في سبيل عقيدته، فإذا كنا نشكو من تدهور الأخلاق وطغيان المادة وبُعد كثير من شيوخنا وشبابنا عن المساجد، أليس من حقنا أن نحاسب أنفسنا ونستفت قلوبنا كما يقال أو نخصص أوقاتا للنقد الذاتي على حد تعبير أهل زماننا، وإذا كانت الأجيال المتدينة إلى وقت قريب تشكو من طغيان أمواج الإلحاد والإباحية ويستدلون على ما فاه به ماركس من أن الدين مخدر الشعوب، فقد تطورت الحالة اليوم وظهرت فرق ترى أن شعار ماركس هذا رجعي وهذه الفرق ترى أن كل مؤمن سواء كان يهوديا أو نصرانيا أو مسلما فهو مصاب بداء عضال وهو الخبال، ويرون أن الواجب على المجتمع أن يحمل حملة وعي واسعة لإنقاذ هؤلاء المرضى، حتى لا يسري داؤهم في المجتمعات، وأن خطرهم لا يقلُّ عن الأوبئة المبيدة للشعوب» اهـ ... وهذه الفرق ليست من تصوير الخيال بل عقدت طائفة منها مؤتمرا في هذا الشهر بسويسرا، وهي تضم ما يزيد على خمسة آلاف عضو (5000 عضو) فيهم كثير من كبار العلماء والباحثين يشغلون مناصب راقية في المجتمع.

واسمحوا لي أن جرني سياق الحديث إلى هذا الاستطراد الذي لربما يرى فيه بعض المستمعين الخروج عن الموضوع ولنرجع إلى موضوعنا لنأتي بالخلاصة.

إن زيارة الشيخ محمد عبده للجزائر كما نرى أثارت اهتمام الباحثين في عهدها ثم لا زال الكُتّاب يتحدثون عنها، وفي هذه الأيام اطلعت على مقال نشرته مجلة البلاغ البيروتية، بعددها الصادر في 27 ماي 1974م، بمناسبة وفاة المرحوم السيد علال الفاسي تحت عنوان: (**علال الفاسي في المشرق**)، قالت فيه بعد ذكر نبذة من ترجمته: «وننشر له ملخَّص محاضرتين، الأولى ألقاها في دمشق في نهاية الأربعينات بعنوان:

(**أهمية المغرب بالنِّسبة للعالم العربي**)، والثانية ألقاها في القاهرة في بداية الخمسينات، وركَّز فيها على تطوُّر الحركة السَّلفية في المغرب إلى حركة وطنية، وعنوانها: (**زيارة محمد عبده للجزائر وتونس**)»، ثم قالت المجلة: «ويذكر علال الفاسي هذا زيارة قام بها الشيخ محمد عبده إلى تونس والجزائر دون أن يتمكَّن من زيارة المغرب الأقصى، ويذكر أن مراسلةً قامت بين هذا المصلح المصري وبين زملاء له في المغرب».

ورأى علال الفاسي أن المكاتبة التي تبادلها محمد العربي العلوي شيخ الإسلام بالمغرب وأبو شعيب الدكالي (الوزير السابق) رائد الإصلاح بالمغرب، هي التي كانت بداية الحركة الإصلاحية في المغرب، وما قاله الدكتور عثمان أمين من أن محمد عبده لدى زيارته وجد آثاره التي كانت تصل إلى الجزائر عَلى طريقة **مجلَّة المنار**، يمكننا أن نعلق عليها بأن السلفية كانت موجودة بالجزائر، ومنشورة في عِدَّة أوساط، لا فرق بين السلفية التي تحدثنا عنها، ووصلت إلى الجزائر عن طريق أبي الحسن الزرويلي، ورَدّ عليها الإمام السنوسي في كتابه: (**نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير**)، أو السلفية التي تزعمها ابن تيمية، وقد كنا تحدَّثنا بنوع من التَّفصيل في المحاضرة السَّابقة على أحد روَّادها الذي ظهر في أواخر القرن الميلادي الماضي، وهو الشيخ صالح بن مهنا ـ دفين قسنطينة ـ كما أشرنا في المحاضرة السَّابقة إلى عالمين سلفيَين مِن نواحي الأصنام، هما: الجيلاني بن المنور المجاجي، وأحمد بن يحيى الشَّراطي، وذكرنا أنهما تناظرا مع مفتي المدينة المنورة عثمان بن عبد السلام الداغستاني، والسبب في هذه المناظرة أن أحمد بن يحيى الشرَّاطي هذا اطلع على كتاب (**الروضة الندية في شرح الدرر البهية**) لصديق بن حسن بن علي البخاري الحسيني صاحب التآليف المشهورة التي من بينها: تفسير (**فتح البيان في مقاصد القرآن**)، وقد ألف الكثير منها ابتداء من سنة 1290 هـ، فأنكر عليه بعض علماء البلاد الذين تخرجوا من الأزهر وكان لهم صيت في البلاد،

فوجه الفقيه الشَّراطي إلى بعض معارفه من المهاجرين بالمدينة المنورة، فاطلع على كتابه مفتي المدينة إذ ذاك الشيخ عثمان الداغستاني فأجابه على سؤاله بقوله: «قد أتانا كتابكم في شأن الرجل المسمى بصديق حسن الهندي زوج الهندية امرأة من حكام الهند على يد الإنجليز، الوهابي المشهور، وأنه أعجبكم وظهر لكم أنه مجتهد ومجدد الوقت، من غير معرفة له، وما هو منطوٍ عنه من الظلال والغواية، اللذان لا يختلف فيهما اثنان من سائر علماء السنة من أهل الهند وسائر بلاد المشرق، فإن كنتم مجوزين للاجتهاد في هذا الزمان فالعلماء المذكورون أولى بالاجتهاد، ولكن معاذ الله أن يَدعِيَ الاجتهادَ واحدٌ منهم، لأن الاجتهاد أمره عظيم، حتى انعقد إجماع علماء الأمة أيام الغزالي على عدمه، لعدم وفور الأهلية، وكيف يقاس أئمة السلف بزماننا هذا، وأين الثّرى من الثريا، ومع هذا أردتم مخالفتهم في أمور أجمعوا عليها...وإن علماء الهند الثقات الذين يعرفونه كمعرفة الآباء للأبناء بين أظهرنا، وكذلك يفدون جماعات كل سنة للحج، ويشْتكون ويستغيثون لعلماء الحرمين من فساده وإظلاله للمسلمين، وسببُ تطاوله على أهل السنة لأن له مالا عظيما وجاها عريضا بسبب ولاية الإنجليز لزوجته، وهو وزيرها وقد طغى بسبب ذلك، وأبى أن يشكر نعمة الله تعالى، ولم يرد إلا زيادة العُلو والانفراد بالجاه، واستنكف أن يكون مشاركا للأمة فيما هم عليه من الإتباع للسلف الصالح بل أراد أن يخالف الجميع لحصول الصيت والشهرة، والعجب منكم أيها الأجلة العظام، من عدم التثبت والتحري في الدين مع أنكم أنتم أهل ذلك... والحاصل أننا تحيرنا في شأنكم غاية التحير من هذه النزعة الشيطانية ، كيف وصلتكم، مع أنهم يقولون أن مذهب مالك خال من البدع... ويا عجبا كل العجب لقوم زاغوا يقولون لسالمي العقيدة زيغوا معنا، هل هذا منهم نصحا أو عمى، وأما اغتراركم بإغوائه وقوله كيف يترك العمل بالكتاب والسنة، ويُعمل على خلافهما؟ هذه كلمة حق أريد بها باطل، وقوله: كيف يتبع المذاهب ويترك شريعة النبي ﷺ؟ ومن قال لكم: إن المذاهب مخالفة لكتاب الله

وسنة النبي ﷺ وأنهم خالفوا الشريعة ولو في جزئية، وغاية ما عند أئمة المذاهب رضوان الله عليهم، فهموا الأحكام من الكتاب والسنة على الوجه الأحوط، واستنبطوها،وهذّبوها ونقحوها لنا، فجزاهم الله خيرا، وجعلوا لها قواعد وقوانين وضوابط وحصروها لنا، ولولاهم ما اهتدينا لجزئية واحدة ، وهم أعرف بالناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، وشأن النزول وسبب النزول، وهم الذين رووا السنة لنا وذَبُّوا عنها، وحرسوها من الملحدين، والآن من فيه أهلية الاجتهاد؟ ومن فيه ورع أو أمانة كأمانتهم؟...

وقد أثارت هذه المراسلة ضجة ألجأت علماء المدينة إلى توجيه سؤال علني لعلماء الإسلام إذ ذاك هذه جمل منه: «ما قولكم ، دام فضلكم، ونفع المسلمين بعلمكم، في حسن صديق يَدّعي الاجتهاد المطلق، ويُفتي الناس بأقوال اجتمعت الأئمة على خلافها، هل يعد ذلك خرقا للإجماع؟ أم لا؟ ويَمنع تقليد أئمة الهدى عدول هذه الأمة بإجماع السلف والخلف، ويطعن في جميع أتباعهم ويجعلُهم في أعلى درجات الفسوق والابتداع ، ويقول جميع ما نزل من القرآن في الكفار من الذم والوعيد يحمله عليهم، ويعلن ذلك، بل ألف التآليف والتفاسير ضمنها مذهبه الذي نسخ به الشريعة المطهرة، حتى بلغت أقصى بلاد الإسلام، واغتر منهم أقوام وصمموا على اتباع مذهبه (يقصد بهما الفقيهين الجزائريين) وقالوا هذا مجتهد الوقت ومجدد الدين، يجب على الأمة اتباعه... إلخ..» وختمها بقوله: اِفتونا مأجورين، ولكم جزيل الثواب من الملك الوهاب. اهـ.

وقد أجاب على هذا السؤال كثير من العلماء أيدوا مفتي المدينة فأرسلها بدوره إلى الفقيهين الذين أثارا هذه القضية ، فصمما على رأيهما.

من هذا تبين لنا أن هذين الفقيهين لم يكونا من أكابر علماء البلاد، فإن أحدهما كان

له معهد قرآني والثاني ينتمي إلى أسرة علمية توارث أهلها العلم قرونا، إلا أنهما كانا أحرار الفكر والسلفية كما ذكرنا، ذلك في محاضرتنا السابقة لم يكن الناس مدينين فيها لأفراد أو جماعات، بل يجد العالِم منبعها في الدراسات الإسلامية التي تدعو إلى الكتاب والسنة، وقد حافظ عليها المحدّثون، وفرضوها على النخبة بسيرهم، ونزاهتهم ولم يُلوِثوها باتخاذها وسيلة للاحتراف والارتزاق أو لخدمة ركاب المغرضين من طلاب الجاه والمال الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، ويدخلوا فيها العوام وأشباههم كما فعل كثير من المتصوفين الذين فتحوا باب طرقهم إلى العوام، اتبعوا الجوانب السلبية من التصوف، حتى زهّدوا الناس في التصوف، وتصدى للرد عليهم كثير من المتصوفين الذين ذكرنا من بينهم عبد الرحمٰن الأخضري، وكانت محاربة البدع والمتصوفين المحترفين خصوصا طبقة الجهال التي تستغل الظروف والسذاجة والأوساط الجاهلة، وكثر هذا النوع في أواخر القرن الماضي أي الميلادي، وتولى أحد الأدباء الجزائريين تصويرهم في مقامات باللغة المهلهلة الجامعة بين الفصحى والعامية، وقد كان فضل تخليد هذه المقامات لأحد المستشرقين فجمعها وترجمها إلى الفرنسية ثم نشرها في المجلة الأسيوية التي كانت تصدر في باريس.

وتتميما لموضوع بحثنا أنقل من هذه المقامات فقرات تصور لنا المشعوذ الذي بنى عليه المؤلف مقاماته، وقد كان هذا المشعوذ الذي اختاره المؤلف من طبقة ما يسمى في تونس بالمروقى، والمروقى مفرد المروقية، وهي عبارة عن مؤسسة تشتغل بالقراءة على الجنائز وتشيعيها، ولها نظام وقوانين خاصة ونادي لاجتماع أفرادها، تتكون من بعض من يحفظون بعض سور القرآن، وهذا النوع يوجد عندنا، إلا أنه ليس لهم نظام وقوانين، يذكر المؤلف أنه كان بشاطئ فوكة فأخبره إمامها أنه مدعو لاستقبال أحد المدعين للولاية، فطلب منه المؤلف مرافقته، ولنترك له الكلمة ليصور لنا المحفل على

الشاطئ، فقال: «فنزلت أنا والإمام حافين كما قدر الله ناعمين، فوجدنا الطلبة لبعض السور يقرؤون، والدراويش يركضون، ويُدَرْدِكون، وغيرهم يميسون ويتمتمون، وبلحاهم يرتعدون ويهتزون، فنزل علينا ما نزل على القوم من الجذب، وخشعنا خشوعا من صميم القلب، وصرت أقرأ مع القارئين ومرة أُدَرْدِك مع المُدَردِكين، وأخرى أميس مع المائسين، وطورا أتمتم مع المتمتمين، وأهز لحيتي مع الهزازين، ونحن في شدة تسبيح وتهليل، إلى أن قرب الشيخ على نحو الميل، ... إلى أن يقول ... وقد تجرد جم غفير ودخلوا البحر بالسباحة، ليلتقوا بالفلك على البعد، وتسابقوا على من يمس الفلك باليد، وقد داروا بالفلك متخابطين على الماء، ووقعت العربدة والزبد طائر للسماء ، ولولا عناية القذاف لغرق القطب في الماء وجاف... ثم يصف نزوله من الفلك وذهابه إلى محل الاجتماع، فلما وصلوا، عرفه، فقال: فلما انتهت نوبة مروره بقرب ، لا لتمس منه ما يجلو كُرَب، لَحُتُ بصري عليه، وحققت النظر فيه، فإذا هو صاحبنا ابن عيسى المهلهل والمحلحل السمين المبلبل المبرذل، لازال يتلون ويتقلب في أحواله وأشكاله، ويتمرد بأقواله وأفعاله،...... إلى أن يقول: أنه أسر لصديقه الإمام بأنه عرفه وليس هو بولي صالح، ولا عالم ناصح، وإنما هو صعلوك لكاع، خداع بداع..... إلخ .

ثم يذكر لنا مقامة أخرى جرت له في معسكر ذهب إلى سوقها لقضاء بعض المآرب فقال: «وقد كنت وقتئذ في البلاد غريب، ليس لي فيها قريب، وقد قرب الظلام، وقد حِرْت في المبيت، فلم أدر أأوعِد مسجدا أو أكتمش، أم أدخل قهوة وأرتمش، ثم إني تذكرت أن ولي المجامع منع الرقاد في الجوامع، أما القهاوي فمجلبة للمصائب والدعاوي .... فملت إلى حُوَيْطة فيها ناس مساكين ظاهرين من حالهم محاسين، فلما أتممنا الصلاة، وأعقبناها بالباقيات الصالحات، وقف علينا رجل لابس جلابة مزرقطة الولابة، فسلم على الجلاس وقال يا أيها الناس ألا تحضروا وعدة مبروكة وزيارة

مقبولة، فقالوا له: ففي أي مكان وجودها؟ ومن أين المقصد إليها ؟ فقال: إنها قرية مغراوة، بزاوية درقاوة، فقالوا له: سر اعرض غيرنا، وسننطلق وحدنا، فقاموا بأجمعهم وقبضوا الطريق خلفهم، فحدثتني نفسي بأن أخوض مع الخائضين».

ثم يذكر المؤلف الشعوذة البلهوانية التي يقوم بها الأتباع وعندما تشارك الزوار في تقديم زيارته وتظاهر الشيخ بالإغماء والتف المتبركون حوله عرف المؤلف صاحبه... إلخ.

هذه المقامات كتبت في أواخر القرن الماضي أي قبل زيارة الشيخ عبده بسنوات صور فيها صاحبها جوانب من المجتمع الجزائري، وركزها على الأوساط المنحطة كالحفلات عند الأضرحة وبائعي التمائم والسحرة، والمتمربطين من طبقات الدجالين، وهذه الأشياء لا تجعلنا نعُمُّ حكمنا على المتصوفين كلهم بأنهم من هذا النوع، وهذا ما تصدى له الأخضري وغيره، وقد كان الشيخ عبد الحليم بن سماية ورفيقه مصطفى مضربة عندما تعرفا بالشيخ محمد عبده تجانيِّين، ولكن لم تمنعهما تجانيتهما من الانتصار لمبادئ عبده عن عقيدة وبيان، وإن حافظ الشيخ عبد الحليم على علائقه مع التِّيجانية فقد قطع زميله مصطفى مضربة كل صلة بعد اتصاله بعبده، كما نجد الموظفين الدينيين إذ ذاك ليسوا كلهم من طبقة علي بن الرَّحمـٰن و مصطفى مضربة، بل يحكى أن نابليون الثالث عندما زار الجزائر حوالي 1865م وكان يميل إلى تكوين دولة ملكية أو شبهها، أراد أن يتصل بشخصية إسلامية محلية يتذاكر معها في الموضوع فدُلّ على المفتي، وفي أثناء الحديث سأله عما يقترحه وكان المترجم بينهما يهوديا فأجابه المفتي وكان شهر رمضان على الأبواب بأن العادة أن يعطى له قنطار زُلاَبية بمناسبة رمضان، وفي هذه السنة بلغه أنهم لا يرسلون إليه إلا نصف قنطار فقط، وكان هذا الذي يهمُّه، وقد حكى أحد الأصدقاء أن هذه الواقعة تكررت في العهد الأخير أي في الحرب العالمية الثانية

عندما زار أحد الضباط الأمريكان الكبار من أركان حرب الجنرال **اِيزَنهويَر** مدينة تلمسان وتقابل مع المفتي وسأله عن أمانيه فكشف له المفتي عن صدره، وأطلعه على قميصه الممزَّق، وقال له: هذا ما ينقصنا»، أي: الثياب.

واسمحوا لي أن أطلت وإذا ذكرنا جوانب مجهولة من آثار زيارة محمد عبده إلى الجزائر وهي كلها إيجابية فهناك نواحي سلبية تفرض علينا أمانة البحث أن نذكرها.

لا زالت شخصية محمد عبده تثير الجدل إلى يومنا هذا عند المعاصرين، وإذا كانت نشاطاته في الميدان العقائدي محل اتفاق وتقدير فإن نشاطه السياسي بعكس ذلك، والذي يهمُّنا من هذا هو ما يتعلق بزيارته إلى الجزائر فإن أحد الأصدقاء أطلعني منذ أسبوع على وثيقة تتعلق بالموضوع، وهي تصريح الوالي العام الفرنسي بالجزائر إبان الحرب العالمية الأولى صرح بها في البرلمان الفرنسي في الجلسة التي عقدها المجلس المذكور في 9 فبراير 1914م، أي بعد، وفاة الشيخ بنحو تسع سنوات، وكان هذا الوالي هو **ليوتود** صرح إثر ما أحدثه قانون الخدمة العسكرية الإجبارية التي فُرضت على الجزائر ابتداء من سنة 1911م وهاجر بسببها كثير من سكان البلاد خصوصا التِّلمسانيِّين إلى دمشق، فقد انتقد كثير من النواب سياسة الحكومة فتداخل الوالي المذكور وأجاب بأن فرنسا سعت في تهدئة الأفكار، ومحاربة دعاة الهجرة الذين كانوا يفتون بأن البقاء تحت حكمهم كفر، قال الوالي أنهم حصلوا على ثلاث فتاوى من علماء مصر، فحواها أنهم يمكنهم أن يعيشوا تحت حكم الكفار، وأهم هذه الفتاوى فتوى الشيخ محمد عبده أفتاها عند زيارته للجزائر وهي مهمة للغاية على حد تعبيره(أي الوالي **ليوتود**)، وهذه الفتوى تتلخَّص في أن أرض الجزائر ليست محتلَّة بأيدي الكفار لأنَّ المسيحيِّين أصحاب كتاب يُدْعى الإِنجيل... الخ، ونجد صدى هذا التصريح عند كاتب جزائري مشهور وهو المرحوم عمر راسم الذي لا يشك في نضاله ووطنيته حيث

سجنته السلطات الفرنسية سنين إبان الحرب العالمية الأولى، قال في مذكرات بخطه نقلها الأخ الأستاذ محمد قنانش الكاتب بالخزانة الوطنية، ولازال يحتفظ بالأصل الموجود في مذكرات عمر راسم، قال معلقا على زيارة عبده: «وهكذا كان نبغاءُ الشَّرق مسمومين بداء الماسونية، فإِنَّهم يقدِّمون طاعة أوامر الماسونية على طاعة الله، ولا جرم أن نقول إِنَّ الشيخ محمد عبده منهم، لأنه كان يفضِّل لورد **كرومر** على عباس حلمي والسلطان عبد الحميد، ويرضى بأن تكون مصر إنجليزية ولا تكون مستقلَّة أو عثمانية، وإِنَّه كما صرَّح لنا باعتقاده أن إنجلترا دولة البر والبحر، ذات القوة والبطش، وأن المسلمين ضعفاء لا يمكنهم مقاومة بريطانيا العظمى» اهـ ما نقله الأخ **قنانش** .

والشَّيخ **عمر راسم** مشهورٌ في الأوساط الأدبية الجزائرية، وهو مع فضلِه ومواهبه شاذ، حتى أنه كان مقرئا في الإِذاعة، وكان ينفق مرتَّبه في شراء طوابع البريد، وفي كلِّ شهرٍ يُرسِلُ عشرات الرَّسائل للنوَّابِ والحكَّام والفنَّانين والمقرئين والمصلحين، نظما ونثرا يسبُّهم ويشتمُهم، بل كثيرا ما يُرسِلُ لرؤَساء الدُّول.

وإِنَّنا وإِن تعرَّضنا لهذه الجوانب السلبية مِن زيارة الشَّيخ **محمد عبده** فإِنَّها لا تنقصُ مِن قيمة الرَّجل في ميدان السَّلفية، ووثيقة الشَّيخ **ابن سماية** لها أهمية، إذ اطَّلع عليها الدكتور **عثمان أمين** منذ سنتَين وأطلعَ عليها كثيرا مِن أصدقائه، ورأى أهميتها، وإِنَّنا عرضناها عرضا مِن دون التعرُّض إلى تحليلها، ومقارنتها بما كتب عنه.

صفحات من ترجمة الشَّيخ عبد القادر بن محمَّد
عميد أسرة أولاد سِيدي الشِّيخ

إنَّني استجبتُ لدعوة الإخوة المشرفين على الأسبوع الثَّقافي ببلدية: (**الأبيض**) ودائرتها، واخترتُ أن يكون موضوع دراستي: جوانب من تاريخ هذه المنطقة، التي لها أبعاد وأمجاد في تاريخ بلاد (**الجزائر**)، كما أغتنمُ هذه الفرصة للتَّنويه بظاهرة إحداث هذه الأسابيع الثَّقافية في أنحاء الوطن، ومشاركة السُّكان والسُّلطات لإحياء هذه التَّجمُّعات في المجالات الثَّقافية والاقتصادية، التي لا شك أنها تنعكس بالفوائد الجمَّة على تاريخ البلاد، خصوصًا على تاريخ هذه المنطقة الثَّريَّة بالأحداث الهامَّة التي خلَّدها لها التَّاريخ، ومن بينها ثورة أولاد سِيدي الشِّيخ التي كانت أوَّل ثورة من نوعها بعد الاحتلال الفرنسي، حيث أجمع المؤرِّخون على أنَّها أقضَّت مضاجع الدَّولة الفرنسيَّة، وكانت بداية لتحوُّل وانتقال السِّياسة الفرنسيَّة بـ (**الجزائر**).

هذا، وإني بناءً على ما تعهَّدت به عندما كلِّفتُ بإلقاء هذه السِّلسلة من المحاضرات عبر أنحاء الوطن، في إطار بحوث (**المركز الثقافي الإسلامي**)، التَّابع لـ (وزارة الشُّؤون الدِّينيَّة والأوقاف)، التزمتُ بإعطاء الأولويَّة لتناول التَّاريخ الإقليمي بالبحث والتَّحليل، ولهذا سأتناول في هذه (المحاضرة) التي سأتشرَّف بإلقائها في هذا المنتدى: (**صفحات من ترجمة ـ دفين المنطقة ـ العالم الشَّيخ عبد القادر بن محمَّد بن سليمان بوسماحة، عميد أسرة أولاد سِيدي الشِّيخ**) الذين خلَّدت لهم ثورتهم على الاستعمار الفرنسي سنة 1864 مكانة في التَّاريخ.

اشتهر الشَّيخ عبد القادر الذي هو من مواليد منتصف القرن العاشر الهجري، بمساهمته في أحداث عهده الفكريَّة والسِّياسية، إذ خاض غمار معركة حامية الوطيس في الميادين الفكريَّة، ألَّبت عليه كثيرا من الخصوم، كما سنبيِّن ذلك في هذه الدِّراسة.

اهتمَّ الباحثون المسلمون وأجانب بتاريخ ثورة أبناء سيدي الشِّيخ وخصُّوها بعشرات التَّآليف، وجلُّ مَن كتب عنها الباحثون الفرنسيُّون، فدوَّنوا مراحلها وأسبابها وآثارها، إذ الكثير منهم خاضوا غمارها وسجَّلوا انطباعهم عنها، ثمَّ تعرَّض لها كتَّاب آخرون اعتمدوا فيما كتبوا عنها على الوثائق الرَّسميَّة العامَّة والخاصَّة، وكلُّهم ـ أي: مَن شاهدوها، أو مَن استمدُّوا معلوماتهم عنها، نظروا إليها من زاوية واحدة، وهي لا تخلو من تحيُّز.

أمَّا الكتَّاب المسلمون فإنَّه لم يصلنا منهم إلاَّ ما كتبه بعض علماء الصَّحراء، وكتاباتهم منحصرة عن المرحلة الثَّانية من هذه الثَّورة، عندما انتقلت رحاها من منطلقها بالشَّمال إلى الجنوب، أو ما وصلنا عنها أيضا من انطباعات بعض الشُّعراء الشَّعبيِّين، أمثال الشَّاعر محمَّد بالخير الذي كان الفضل لنشر بعض قصائده في الموضوع يرجع لأحد أبناء هذه المنطقة السَّيد **بوعلام ابن السَّايح**، الذي أضفى عليها بتحقيقه دراسة مستقلَّة، استوعبَ فيها الخطوط العريضة من تاريخ هذه الثَّورة المباركة.

هذا، وإنِّي في هذه الدِّراسة المحدودة المجال، سأتَّبع أيضا الخطوط العريضة من ترجمة عميد الأسرة ـ السَّابق الذِّكر ـ الشَّيخ عبد لقادر، معتمِدا على المصادر الأصيلة.

خاض مترجمنا في حياته ثورة فكريَّة ينطبق عليها ما يعبِّر عنه المعاصرون بالثَّورة الثَّقافية، إذ كانت معركته مع معاصريه امتدادا للصِّراع بين السَّلفيَّة والمتصوِّفة، وهذا الصِّراع ترك بصماته في التَّاريخ الفكري بـ **(الجزائر)** وبالبلاد الإسلاميَّة، ابتداءً من القرن الثَّامن الهجري، وقد ساهم في هذا الصِّراع كثيرٌ من فطاحل العلماء، وتتخلص

هذه المعارك بين الفريقين: أن السَّلفيَّة ترى الاقتصار على العمل بما في الكتاب والسُّنَّة، عملا بوصيَّة النَّبي ﷺفي حَجَّة الوداع التي قال فيها: «إنِّي تركتُ فيكم ما إن استعصمتم بهما لن تضلُّوا أبدا، كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ » أو كما قال.

أمَّا المتصوِّفة فقد ظهرت فِرَق منهم تأثَّرت بالفلسفة اليونانية، وتعرضت لإنكار الفقهاء والمحدِّثين، فقاوَموهم واتَّهموهم بالتَّساهل في الاستدلال بالأحاديث الضَّعيفة والموضوعة، فحينئذ كان موقف السَّلفيَّة محاربة البدع في مختلف مظاهرها ومنابعها.

بقِيَت هذه المعارك تتجدَّد بين أنصار الفريقَين المرَّة بعد المرَّة، وهي تزداد قوَّة وضعفا حسب المؤثِّرات الزَّمانيَّة والمكانيَّة، تجدَّدت هذه المعركة في عهد مترجمنا وبالضَّبط في أواخر القرن العاشر، كان الشَّيخ عبد القادر متصوفا وكان له أنصار أما خصومه فقد ظهر في صفوفهم الشيخ **أحمد ابن القاضي** المشهور **أبي محلي السِّجلماسي** الذي بعد أن جاور **(معهد فجيج)** الذي كان من جملة أساتذته فيه العالم الأديب الشَّيخ **أبو القاسم بن عبد الجبَّار الفجيجي**، وبعد تخرُّجه من معهد ابن عبد الجبار بـ **(فجيج)** انتقل إلى (قصر بني عبَّاس) بـ (السَّاورة)، حيث أسَّس معهدا على سنن علماء ذلك الزَّمان، وفي هذه المدَّة تعرَّف بمترجمنا الشَّيخ **عبد القادر بن محمَّد** في محلِّه بـ (الشَّلاَّلة الظَّهرانية)، وتصاهر معه، وعرض عليه البقاء بمعهده لتعليم أولاده، فوعده بالرُّجوع، وصادف قبل هذه الزِّيارة بقليل، قيام علماء البلاد وفي طليعتهم الشَّيخ **أبو القاسم بن عبد الجبَّار الفجيجي** (أستاذ **أبي محلى**) بحملة عنيفة على الشَّيخ **عبد القادر**، واتَّهموه فيها بالتَّساهل على اقتراف البدع، وبتصرُّفات مريبة، والشيخ ابن عبد الجبَّار هذا، كان مِن أمثل علماء عهده، وأسرتُه من الأسر التي توارثت العلم قرونا، وقد ترك تآليف قيِّمة، مشهورة في تاريخ الأدب العربي، من بينها: **(الفريد في تقييد الشَّريد وتوحيد الوصيد)**، شرح به منظومة عمِّه **إبراهيم** المعروفة بـ**(روضة السّلوان)**، في الصَّيد تحتوي على (213) بيتا،

فحينئذ انضمَّ **أبو محلي** إلى صفِّ المعارضة، وحمل لواءها، وقد خصَّصها بثلاثة تآليف قيِّمة في موضوعها، مفيدة في بابها، حيث تعرَّض لهذه الحملة التي قام بها علماء البلاد، وانضمَّ إليهم علماء الشَّمال، أمثال الشَّيخ محمَّد بن علي صاحب (معهد مجَّاجة)، الذي تخرَّج منه فحول علماء ذلك العهد، وخصَّصهم بعض معاصريهم وتلامذته بتآليف، تعرَّضوا فيها لتراجمهم.

تعرَّض **أبو محلي** لهذه المعركة وسجَّل مراحلها وكلَّ ما يتعلَّق بها من قريب أو بعيد، وركَّزها على الأحداث السِّياسيَّة التي اجتازت على المغرب العربي إذ ذاك، حيث كان الجو مكهربًا لتجدُّد واستئناف الحروب الصَّليبيَّة طوال مدى شواطئ البحر الأبيض المتوسِّط والمحيط الأطلسي، وسقطت من جرَّاء تلك الحروب مدن الشَّواطئ غربا وشرقا، لتقاعس ملوك البلاد وعجزهم، حيث تسرَّب إليهم الضّعف والتَّخاذل لأخبار تطول، فحينئذ تولَّى الأمر الزُّعماء الدِّينيُّون فأحيَوا الرِّباطات، وحرَّضوا السُّكَّان على الجهاد، وكان من جملة هؤلاء الزُّعماء الدِّينيِّين الذين نادوا بالجهاد وحرَّضوا سكَّان (**الجزائر**) و(**المغرب الأقصى**) على توحيد جهودهم وتوثيقها لمجابهة العدوان، الشَّيخ **أبو محلي** الذي التحق به ـ بنية الجهاد ـ علماء جزائريون على رأسهم الشيخ **سعيد بن قدُّورة** صاحب التآليف الشهيرة لم يكتب **أبو محلي** بالدعوة إلى الجهاد بل كون جيشا من أنصاره وتلامذة معهده بقصر بني عباس وهاجم بهم الملك زيدان السعدي الذي اتهمه معاصروه بموالاة البرتغال والأسبان الذين احتلوا مدينة **العرائش**، كان النصر حليف ابي محلي في البداية أمكنه بسهولة احتلال مدينتي **سلجماسة** ومراكش، وخرج الملك زيدان من البلاد خائفا يترقب أخبار تطول أيضا ذكرها جل المؤرخين فحينئذ اصطبغت المعركة الفكرية التي خاضها الشيخ **عبد القادر** بالصبغة السياسية، وقد خصَّصها ـ كما تقدَّم لنا ذكره ـ الشيخ **أبو محلي** بتآليف ضمَّنها فحوى المعركة في الميادين

الفكرية المحضة وفي الميدان السياسي، وهذه التآليف وإن لم تحظ بالنشر فإنها لا زالت موجودة، ولا يخلو كتاب من كتب التراجم التي تعرَّض فيها أصحابها إلى ترجمة **ابن محلي** من الإشارة إليها، كما أن لهذه التآليف مكانة في الأوساط العلمية والسياسية الأجنبية، ومن ذلك أنَّ أحد كبار أساتذة **جامعة الكوليج دو فرنس** جعلها ـ أي: المعركة بين الشيخ **عبد القادر بن محمد** والشيخ **أبي محلي** ـ موضوع دروسه السَّنوية في السَّنة الدِّراسة الجارية.

ولنرجع إلى الحديث عن مترجمنا الذي هو كما ذكرنا يعد عميد أسرة أولاد سيدي الشيخ إذ نال سمعة جعلته يتبوأ القيادة الروحية لدا مواطنيه كما أفادنا بذلك الرحالة **أبو سالم العياشي** ثم توارث أبناؤه فأحفاده هذه القيادة إلى أن أدركتهم ثورة سنة 1864 ـ أي: طيلة ثلاثة قرون ـ فاستفادت الثورة من القيادة الروحية التي توارثتها الأسرة وعضت عليها بالنواجذ وهذه المكانة الروحية هي من العناصر الجوهرية في دعم الثورة وامتدادها ما يربوعلى العشرين سنة كما سيتبيَّن لنا ذلك بالتَّفصيل.

ولنرجع إلى الوراء قليلا فنجد أن الاستعمار الفرنسي لقي مقاومة عنيفة بعد نهاية حرب **الأمير عبد القادر** إذ اندلعت ثورات عديدة متتابعة منها ثورة **الزعاطشة** بـ: **الزاب** التي قادها الزعيم أبوزيان وامتدت إلى جبال الأوراس حيث عززها الشيخ **الصادق ابن الحاج** صاحب معهد جبال أحمر خدّو سنة 1850، ثم ثورة الشيخ **ابن عبد الله الفليتي**، فثورة أبناء سيدي الشيخ موضوع دراستنا وهذه الثورات وإن كانت تختلف قوة وضعفا كما كانت لكل منها دواعي وأسباب فإن هدفها واحد وهوالتخلص من نير الاستعمار ومن الكفر وأهله إذ كانت كلها تحت قيادة زعماء دينيين، امتازت ثورة أبناء سيدي الشيخ ثم ثورة المقراني والشيخ محمد أمزيان ابن الحداد من بعدها أنهما أحدثتا هزات عنيفة ارتاع لها الحكام الفرنسيون بالجزائر وفرنسا، حاول كثير من

الباحثين والمؤرخين أن يرجعوا أسباب ثورة أبناء سيدي الشيخ الذي غضب موقدها السيد سليمان بن حمزة بعد استبدال الحكم العسكري بالحكم المدني إذ كانت الجزائر تنقسم إلى مناطق إدارية، على رأس كل منها حاكم مسلم يسمى خليفة، أي خليفة السلطان لأن سلطته كانت مستمدة من السلطان مباشرة فاحتفظت فرنسا بهذا النظام الموروث من عهد الأمير عبد القادر ثم ألغته وعوضته بنظام آخر استبدلت فيه خطة: الخليفة، هذه بخطة: باش آغا، وصيَّرت **الباش آغا** هذا لا يتمتع بأي تصرف شخصي بل يرجع في جميع تصرفاته الإدارية إلى استشارة الرئيس الفرنسي للمنطقة كانت منطقة أبناء سيدي الشيخ إثر الاحتلال الفرنسي تحت قيادة السيد **حمزة**، الذي عين خليفة للمنطقة المعروفة إذ ذاك بأولاد سيدي الشيخ الشراقة، وبعد وفاة السيد حمزة المذكور سنة 1861 خلفه ولده السيد **أبو بكر** ثم توفي أبو بكر سنة 1862 فخلفه أخوه السيد سليمان بن حمزة الذي استبدلت السلطات الفرنسية في عهده خطة الخلافة بخطة باش آغا وهذا التغيير الإداري هو الذي عده بعض الباحثين الفرنسيين من أسباب غضب سليمان وإعلانه الثورة، إن القيادة الروحية التي توارثها أفراد الأسرة كانت تتنافى مع القيادة الإدارية المستمدة من السلطة الفرنسية وقد أثيرت هذه القضية بعد الاحتلال الفرنسي مباشرة حيث أفتي بعض العلماء المستشارين عند الأمير عبد القادر، وأفتوا بكفر كل من تولى الخطة من سلطات الاحتلال الفرنسي وقد وصلنا من هذه الفتاوى الفتوى التي حررها الشيخ **علي بن الحفاف** كاتب الأمير كما أصدر فتوى في الموضوع **الأمير عبد القادر** إلا أنه بعد انتهاء المقاومة غير الأمير رأيه وأذن لرفقائه بقبولها إذ بقاؤهم بالبلاد أجدى وأنفع لمواطنيهم، وكان من جملة من تولوا الخطط الشرعية ابن عم الأمير الشيخ الطيب ابن المختار وكذلك السيد المولود بوطالب ونفس الشيخ **علي بن الحفاف** محرِّر فتوى التكفير فإنه عيِّن بـ: **البليدة** ثم بـ: **الجزائر** إلى أن توفي مفتيا بها سنة 1307هـ.

لم تكن ثورة **سليمان** تلقائيَّة، بل كانت نتيجة تفكير وتدبير، ومن ذلك أنَّه ثبت أنَّه عقد مؤتمرا سرِّيًّا جمعَ فيه جلَّ أنصار الثَّورة، ومن جملة مَن حضر هذا المؤتمر الشَّيخ ابن الطَّيِّب رئيس فرع أولاد سِيدي الشِّيخ (الغرَّابة) ـ أي: المقيمين إذ ذاك بـ (المغرب الأقصى) ـ والسَّيد جلُّول بن حمزة، المقيم بـ (القليعة)، إذ كان (معهد القليعة) الذي أسَّسه الشَّيخ أبوحفص بن عبد القادر مركز إشعاع توارثَه الأحفاد عن الأجداد، واستصحب جلُّول بن حمزة أعيان قبائل (الخنافسة)، و(التَّوارق)، ومعهم الزَّعيم ابن شهرة على رأس (قبائل الأرباع).

كانت ثورة أولاد سِيدي الشِّيخ منطلق تحويل وتغيير في سياسة فرنسا بـ (الجزائر)، فتفوَّق الحكم العسكري على الحكم المدني، وفتح باب التَّجنيس للمسلمين على مصراعيه، ثمَّ أعقبت هذه الثَّورة مسغبة 1867م، التي مات بسببها (ثلاثمائة ألف) مسلم، فحينئذ ظهر في الأفق رئيس الكنيسة بـ (الجزائر) الكاردينال لافيجري، الذي لم يخف تخطيطه الذي أعدَّه لتنصير المسلمين، خصوصا بالمناطق الصَّحراويَّة، وبالفعل كان أوَّل نشاطاته في الميدان التقاطه لألف صبيٍّ، وافتتح قوائم تبرُّعات بدعوى إنقاذهم مِن شبح المجاعة، إلاَّ أنَّه بعد مرور خطر المجاعة، امتنع من إرجاع ملتقطيه لذويهم، وقد أثار عليه موقفه هذا، معارضة مِن طرف السُّلطات الفرنسيَّة بـ (الجزائر) و(فرنسا)، ولم يفد ذلك شيئا، حيث خرج منتصرا واحتفظ بملتقطيه، وأسَّس لهم معاهد جعلها نواةً لانطلاق التَّبشير والتَّنصير، وقد خصَّصت (وزارة الشُّؤون الدِّينيَّة) لـ (لملتقى السَّابع)، المنعقد في (تيزي وزو) نقاطا للبحث في قضيَّة التَّبشير، وقد تعرَّضت للإشارة إليها ما دعاه سياق هذه الدِّراسة، لنبيِّن أنَّه رغم الجهود التي بذلتها الحكومة الاستعماريَّة، عندما فتحت أبواب التَّجنيس، ثمَّ أمدَّت حملة لافيجري بجميع الوسائل المادِّيَّة والأدبيَّة، فقد تمسَّك المسلمون بقوميَّتهم، ولم يرضَوا بها بديلا، كما

حافظوا على عقيدتهم الإسلاميَّة، ممَّا أدَّى سلاطين التَّنصير وفي مقدِّمتهم الكاردينال لافيجري إلى الاعتراف بفشلهم الذَّريع في مهمَّتهم التَّبشيرية، وهذا كلُّه يرجع إلى فضل المناعة والحصانة التي امتاز بها سكَّان هذه المناطق، فهي أيضا لم تكن تلقائيَّة، بل كانت ثمرة جهود بذلها رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه طيلة قرون، وتتجلَّى هذه الجهود في انتشار معاهد الدَّعوة الإسلاميَّة طول البلاد وعرضها، وهي التي وصفها لنا الرَّحَّالون الذين جابوا هذه المناطق عندما انقطعت صلتها بعواصم الشَّمال، والتي سنتحدَّث في معرض حديثنا عن ثورة أولاد سِيدي الشِّيخ التي امتاز القائمون بها بأنَّهم زيادة على قيامهم بالثَّورة المسلَّحة المركّزة على النُّفوذ الدِّيني للأسرة، ذلك النُّفوذ الذي أمدَّته المعاهد الدِّينيَّة.

ولنواصل حديثنا عن الثَّورة التي استفادت من السُّلطة الرُّوحيَّة التي وثَّقت رباط الصِّلة بينها وبين معظم القبائل الذين كانوا متَّصلين ومرتبطين برؤساء الأسرة في عهد عميدها الشَّيخ عبد القادر بن محمَّد وولده الشَّيخ أبي حفص، وذلك أنَّه لما ضعفت الثَّورة بالشَّمال التجأ قائدها السَّيد قدُّور بن حمزة إلى قبائل (الخنافسة)، و(المخادنة)، فأمدُّوه بالمال والعتاد، وذلك ابتداءً من سنة 1869م، وفي سنة 1876م أمكن للسَّيد قدُّور بن حمزة أن يكوِّن جيشًا مدرَّبا من دون منيع بـ (وادي غير)، وهاجم به ضواحي (ورقلة)، و(القرارة) بـ (ميزاب)، و(متليلي)، و(القليعة)) كما كوَّن جيشا آخر ترأَّسه أخوه الدِّين ابن حمزة قصد به (الأبيض)، وقصد (بريزينا) فغنم به ألف جمل.

ومواقف سكَّان هذه المناطق الذين آووا الثَّورة ونصروها مليءٌ بالأمجاد، حيث أعانوا الزَّعيم بوشوشة الذي كوَّن بدوره جيشا من (الشعابنة)ـ المقيمين إذ ذاك بـ (تدكلت) ـ بعد غزوالفرنسيِّين لـ (ورقلة)، وهاجم بهم بوشوشة حصن (القليعة)، و(متليلي)، ثمَّ أعاد الكرَّة على الفرنسيِّين سنة 1871م، فهاجمهم بـ (ورقلة)، و(تقرت)، و(وادي سوف).

هذه لقطات من تاريخ ثورة أبناء سيدي الشِّيخ التي استفادت من النُّفوذ الدِّيني الذي توارثه أفراد أسرتها ابتداءً من منتصف القرن العاشر الهجري عندما ضعفت الثَّورة بمنطلقها في الشَّمال، وانتقلت بعد خمس سنوات من اندلاعها إلى المناطق الصَّحراويَّة، حيث امتدت من سنة 1869م إلى سنة 1881م، عندما ظهر في الأفق البطل الشَّيخ بوعمامة الذي واصل الثَّورة، ورغم ما تمالأ عليه الكتَّاب والحكَّام الفرنسيُّون من أنَّهم قضَوا عليها في مهدها للتَّقليل من شأنها، فإنَّ آثارها بقِيت إلى حوالي سنة 1910م، ومن ذلك اكتشاف وثيقة جوهريَّة حرَّرها قائد المنطقة العسكريَّة بـ (عين الصَّفراء)، مؤرَّخة سنة 1910م، وهي عبارة عن معرض أرسله إلى رؤسائه يذكر فيها مسيرة الجيش الفرنسي لتتبِّع الثَّوار، وضمَّنه بعض المعارك، منها:(معركة قصر قدُّو) أو(خدُّو)ـ قرب (أيت فوانس) ـ وقد اكتشفت هذه الوثيقة في منطقة (عين الصَّفراء)، بـ (مركز فرطاسة)، أرسل لي منها نسخة طبق الأصل الأخ محمود الواعي المحافظ الوطني السَّابق لولاية (سعيدة)، وتاريخ إرسالها في 18يوليو1974م، أمَّا تاريخ تحرير معرض القائد الفرنسي للمنطقة ففي: 8يونيو1910م.

ولنرجع إلى الوراء قليلا لنتابع حديثنا عن إثبات النُّفوذ الدِّيني لأسرة أولاد سِيدي الشِّيخ الذي توارثه أبناؤهم من عهد عميد الأسرة الشَّيخ عبد القادر بن محمَّد اعتمادا على الوثائق الأصلية، فمن بين هذه الوثائق ما كتبه أبوسالم العياشي في (**رحلته**) عندما تعرَّض للحديث عن مدينة (القليعة)، التي مر عليها في طريق ذهابه إلى الحج فقال: «وبهذه القرية، كان ينزل الشَّيخ الحاج الأبرّ السَّيد أبوحفص ابن الولي الصَّالح سيِّدي عبد القادر بن محمَّد بن سليمان بن بوسماحة، ويُعرف عند أهل بلده بسِيدي الشِّيخ وأولاده، حتَّى الآن يُدعَون بأولاد سِيدي الشِّيخ »، ثم واصل العياشي حديثه عن الشَّيخ عبد القادر عميد الأسرة فقال: «وله حرمة وصيت في هذه النواحي كلها، يمِّها

وصحرائها، خصوصا ولده هذا سيدي أبوحفص فله هديٌ وشمْت حسن وتنسُّك، مثابر على فعل الخيرات من جهاد وحجٍّ، فقد أفنى غالب عمره في التَّردُّد إلى (الحرمَين الشَّريفَين)، وربَّما رجع من الطريق قبل أن يصل، ولم يزل ذلك دأبه إلى أنْ توفي في سنة إحدى وسبعين وألف، ودُفن عند والده بمقبرتهم المعروفة بـ (الأبيض)، قرب (بوسمغون)، وقد حججنا معه سنة تسع وخمسين، وقفلنا معه إلى (توزر)، وزرناه مِرارا عديدة، ولقيناه بعد ذلك في حَجَّة سنة خمس وستِّين ونحن قافلون، وتؤثَر عنه كرامات، وله أتباع، وكان يسير غالبا لـ (الحجاز) بنسائه وأولاده، ويعامله النَّاس الكثير الأمراء فمَن دونهم، ويتبرَّكون به » اهـ.

نقلت هذه الصَّفحة من (**رحلة العياشي**) لأنَّها تُعطينا صورة أصيلة جمعت ترجمة أبي حفص ومكانته، ثمَّ سمعة والده بالمناطق الصَّحراويَّة، وضياع المصادر الأصيلة أوإهمال الموجود منها، جعلت كثيرا من الكتَّاب والباحثين يعتمدون على المصادر الأجنبيَّة، فيفترضون بعض الأحداث الهامَّة ويترجَّلون تأويلها وتفسيرها من دون تحقيق أوتمحيص، كما أنَّ كثيرا من العوامِّ وأشباههم يبالغون في افتراض الكرامات وخوارق العادات التي يأباها الشَّرع، فيُسيئون إلى هؤلاء الأعلام أكثر مما يحسنون، ولهذا اقتصرتُ على وصف العياشي في موضوع هذه الدِّراسة، إذ هوحجَّة قويَّة لها وزنها، وشهادتُه شهادة عيان، وصفَ رجلا تعرَّف به في حلِّه وترحاله، كما وصف منطقة عبرها مرارا عديدة، وهوعلاوة على ذلك يمتاز عن بقيَّة الرَّحَّالين بأنَّه محلَّ ثقة لا عند الكتَّاب المسلمين فحسب، بل حتَّى عند الأجانب، ومن ذلك ما كتبه عن (رحلته) المستشرق الرُّوسي الشَّهير كراتشوفسكي، الذي كان من كبار المؤلِّفين الذين امتازت دراستهم بالخبرة والنَّزاهة، فقد خصَّص لهذه (الرِّحلة) فصلا قيِّما في تأليفه المسمَّى: (**تاريخ الأدب الجغرافي العربي**)، قال فيه: «ويحتل أهمِّيَّة خاصَّة في مادَّته الواقعية، وصفه

لطرق القوافل من (المغرب) إلى (مكَّة)، مع تِبيان وافٍ للمنازل المختلفة، كما يوجد لديه تفاصيل تمكِّن من تبيان الحدِّ الذي يفصل بين الأراضي الصَّحراويَّة والأراضي الصَّالحة للزِّراعة، وقد لفت الأنظار إلى هذا منذ الأربعينات من القرن الماضي، مترجم الرِّحلة بربر بفجيرberbervugger[1] غير أن المؤلف نفسه، لم يعتبر كل هذا جديرا باهتمام الرحالة الجاد فهوقد صرف اهتمامه قبل كل شيء إلى فحص مناهج العلوم الإسلامية في البلاد التي زارها بحيث يمثل كتابه ـ أي الرحلة ـ إلى حد ما دائرة معارف فريدة من نوعها في العلوم والتصوف وقد رأى لزاما عليه أن يشير في كل موضع إلى المخطوطات النادرة التي رآها في الأماكن المختلفة والمؤلفون المتأخرون في المغرب، استفادوا كثيرا من كتابه وهويحتل آخر موضع في سلسلة المنتخبات الجغرافية التي نشرها بلاشيرBlachiére[2] والتي كثيرا ما رجعنا إليها في تفاصيل كتابنا هذا ولا يوجد بالطبع ما يبرز ذلك لأنه وجد بعد العياشي عدد من الكتاب من نفس الاتجاه، يتممون التقاليد الجغرافية، وإن لم يأتوا فيها بجديد، غير أنه يمكن على أية حال، أن يعترف به كنموذج لجميع مؤلفي هذا العهد الأخير الذي لم يطرأ فيه أي تقدم في هذا الميدان، إلى العصر الحاضر أوعلى الأقل إلى القرن التاسع شعر » اهـ.

ولنضف إلى ما ذكرناه أي استمرارية النفوذ الديني للأسرة من عهد عميدها ما وصف لنا أحد الرحالين الصحراويين الشيخ بوعمامة عندما زاره في معهده الذي أحدثه بدلدول بعدما خاض المعارك الأولى مع الجيش الفرنسي وهذا الرحالة هومحمد

---

(1) berbrvugger كان من أساتذة جامعة الجزائر ومن المشرفين على (**المجلةالإفريقية**) التي نشرت عدة وثائق تاريخية.

(2) بلاشيير كان مديرا لمعهد الدراسات بباريز، وله عدَّة تآليف، توفي في السبعينات من القرن الجاري الميلادي.

بن هاشم الشريف التواتي الذي قال بعد أن تعرض لذكر ظهور بوعمامة في الميدان سنة 1881 هـ وخوضه للمعارك مع الجيش الفرنسي، ثم انسحابه إلى دلدول، حيث أسس معهدا بقصر أولاد عبوسنة 1882م، وفي معهده هذا استأنف حياته العلمية التي سبقت له بمعهد مقرار، قبل إعلانه الثورة، وهذه الحياة الدينية أي تحفيظ القرآن والإشراف على الدروس العلمية، وإطعام الفقراء والمساكين وعابري السبيل، هي التي توارثها عن أسلافه، وكانت ميزة أفراد هذه الأسرة وبقية الأسر الدينية الذين رابطوا في المناطق الصحراوية للقيام بالدعوة الإسلامية وبعدما وصف لنا الرحالة محمد بن هاشم ما ذكر قال: «وحينئذ هرع إليه الناس من المغرب والمشرق »، ثم تعرض لذكر بعض هذهالقبائل التي هرعت لزيارة الشيخ بوعمامة في معهده، فهدد الكثير منها، كما عدد كثيرا من رؤسائها وأعيانها، ووصف لنا المخيم الذي كان يستقبل فيه بوعمامة زواره وأنواع المأكولات والمشروبات التي كانت تقدم للزوار ولطلبة المعهد وصاحب الرحلة نفسه كان من بين أعضاء وفودتوات، وقورارة، فمن القبائل التي ذكرها قبائل الشعانبة الذين كانوا مقيمين بمتليلي، وورقلة، والقليعة، وسكان تيمي ثم ذكر رؤساءهم وأعيانهم الذين من بينهم باحسون وأخوه من أولاد عروسة والحاجمحمد باخيمن تامرت ومولاي الصديق بن العربي من أدغاغ... الخ »، ثم تعرض لوصف مخيم أبي عمامة الذي كان يستقبل فيه الضُّيوف الواردين عليه، وعدد ما كان يقدم لهم فيه من المأكولات والمشروبات، وهذهالرِّحلة لها أهمِّيَّة جوهريَّة في موضوع دراستنا، إذ أثبتت لنا استمراريَّة وراثة النُّفوذ الدِّيني لدى أفراد الأسرة، وهذا النُّفوذ كان مدعَّما بنشر العلم فإن وجدنا (**رحلة العياشي**) أثبتت الحلقة الأولى من تاريخ هذه الأسرة في المجال الديني وحصرته في عميد الأسرة وولده السيد أبوحفص فإن رحلة محمد بن هاشم المذكورة، ثم رحلة الشيخ عبد القادر التنلاني قبلها بقليل، التي بدأها عند مغادرته لمسقط رأسه مهدية، تيمي بتوات، رفقة قافلة الحجاج، ووصلنا منها تعرض

لمراحل تلك الرحلة التي سجلها من تيمي إلى عين صالح فوصف لنا بتدقيق المعاهد العلمية والأسواق التجارية والحفاوة والأفراح التي كانت تقام لقوافل الحجاج مدة إقامتهم بالمحطات الرئيسية، في انتظار لحاق بقية القوافل بهم كمحطة عين صالح التي كانت تقام فيها الأفراح أسبوعا كاملا، وبين لنا ذلك بتفصيل الرحالة المذكور، ولا زالت تلك المحطة أي ساحتها محاطة بعناية السكان وهي من بين معالم البلدة المقدسة ومن الصدف أنها مسامِتَة لمقبرة شهداء البلدة الذين استشهدوا في حرب الاحتلال، إذ حاول الفرنسيُّون الاستحواذ على هذه السَّاحة فامتنع السُّكَّان، كان تاريخ تحرير التَّنلاني المذكور لرحلته سنة 1230هـ.

وهاتان الرِّحلتان ـ أي:(**رحلة عبد القادر التَّنلاني**)، و(**رحلة محمَّد بن هاشم**) ـ لا زالتا معروفتين عند سكان تلك المناطق، وقد كانتا من جملة المخطوطات التي استحوذ عليها الضباط الفرنسيون بعد الاحتلال مباشرة إلا أنهما من حسن الحظ أنهما حظيتا بترجمة بعض فصولهما من مجموع قيم ترجم فيها محققه، جل الوثائق التي عثر عليها إذ ذاك ونشرها وهذا المترجم هوالرائد مارتان الذي كان في طلائع جيش الاحتلال عنوانه: (**تاريخ الصحراء من 1504 إلى 1902 وتاريخ المغرب من 1894 إلى 1912م**)، وطبع هذا المجموع سنة 1923 بـ: **مكتبة لروكس** (leroux) بباريس، وهذا المجموع مفيد جدا خصوصا فيما يتعلق بتاريخ ثورة أولاد سيدي الشيخ، بعد انتقالها من الشمال إلى المناطق الصحراوية، ومن جملة الوثائق الهامة التي استفدناها منه، اطِّلاع الرحالة محمد بن هاشم على رسالة وجهها ملك المغرب إذ ذاك إلى الملك بوعمامة يحذره فيها من المشاركة في ثورة أبناء عمه أولاد سيدي الشيخ قبل إعلانه للثورة، وكان هذا التحذير في قالب النصيحة هذا كل ما يتعلق بثورة أبناء سيدي الشيخ وامتدادها من منطلقها بالشمال إلى بلاد الصحراء، وقد رأينا أن القائمين بها استفادوا كثيرا من نفوذ

الأسرة الديني، ولم يكن النفوذ الديني الذي استفادت منه هذه الثورة مقتصرا على أنصار العائلة المقيمين بالصحراء بل استفادت الثورة أيضا بأسرة ذات تأثير شاركت في الثورة وكان أحد رؤسائه الدينيين من تلامذة الشيخ عبد القادر ابن محمد عميد الأسرة، وهذه الثورة التي اندلعت بشمال البلاد اثر اندلاع ثورة أبناء سيدي الشيخ بأسابيع، هي ثورة قبيلة فليتة التياشتهرت أيضابثورة سيدي الأزرق، اسم قائدها وبطلها وقد خصصت هذه الثورة أيضا بتآليف إلا أن معظم من كتبوا عنها لم يتعرضوا للعلائق الخاصة التي ذكرناها، أي تلمذة أحد زعماء القبيلة لعميد أسرة أولاد سيدي الشيخ، كان هذا التلميذ هوالشيخ محمد بن عودة الشهير بقبيلة فليتة قرب مدينة غيليزان، وقد انفرد بذكر تلمذته للشيخ عبد القادر عميد الأسرة المذكورة الشيخ محمد بنو يوسف الزياني صاحب كتاب (**دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران**) الذي كان قاضيا في عهده، وتوفي في الثلاثينات من القرن الجاري الهجري، ذكر أنه عند مطالعته لرحلة المؤرخ أبي رأس الناصري، وجد عليها تعليق بخط أستاذه علي بن عبد الرحمٰن مفتي وهران في عهده والمتوفى بها سنة 1324 هـ، علق فيه على الرحلة المذكورة رد فيه أوبعبارة أصح صوب فيه ما ذكره أبورأس عند تعرضه للخلاف بين الشيخين عبد القادر بن محمد وابن محلى، وانتصر فيه لأبي محلى فاقتدى محمد بن يوسف بأستاذه علي بن عبد الرحمٰن المذكور، في تعقيبه على تعليقه.

وكان هذا التعقيب له أهمية عظمى، حيث تعرَّض فيه لنفي التهم التي وجهها خصومه عليه مستدلا بما كتبه في الموضوع صاحب: (**النزهة النورانية في أخبار قصور صحراء العمالة الوهرانية**)، وما كتبه أيضا الشيخ محمد بن عبد الحق المزكوني صاحب الرد على الاتهامات، وحينئذ تعرض الزياني لذكر تلامذة الشيخ ببلاد الشمال فذكر من بينهم الشيخ محمد بن عودة الفليتي، وهذه فيما أظن الوثيقة الوحيدة التي تعرضت

لذكر تلامذة الشيخ بشمال البلاد، ثم استقصيت بدوره بعض فقهاء القبيلة فأخبروه أنهم كل ما يعرفونه من آثار هذه العلائق أن وفدا من أعيان القبيلة كان يذهب سنويا لزيارة ضريح عبد القادر بن محمد ويقدم بين يديه فرسا، كانت ثورة فليتة هذه التي قادها الشيخ الأزرق بن الحاج بعد أسابيع قليلة من اندلاع الثورة أولاد سيدي الشيخ انطلقت من معهد بطلبها (بدار ابن عبد الله) التي تبعد عن زمورة بنحوالعشر كيلومترات وكان عدد الثوار يشمل خمس مائة فارس ومائة وخمسين راجلا تعرضوا للجنرال لاباسيlapassier قائد منطقة مستغانم الذي كان على رأس فيلق ذهب لحراسة قافلة التموين من مستغانم إلى تيارت وفي طريق رجوعها من تيارت هاجمهم الثوار واستغرقت المعركة التي هزم فيها الجيش الفرنسي هزيمة شنعاء يوما بتمامه، إذ ابتدأت على الرابعة صباحا وانتهت على الخامسة بعد الزوال وكان من حسن حظ التاريخ أن الذي أفردها بتأليف هوضابط كان مرابطا بمدينة مليانة، وعين مساعدا للجنرال liebret قائد المنطقة الذي أرسل لقمع ثورة أولاد سيدي الشيخ وبعد اندلاع ثورة فليتة عين القائد ليبير لمقاومتنا وكان مساعده الضابط أوجي هذا، هوالذي سجل مراحل هذه الثورة، في تأليف من نوع اليوميات أوالمذكرات استفدنا منه كثيرا تعرض فيه للثورتين معا أي لثورة أولاد سيدي الشيخ ثم لثورة فليتة، هذا ولوكانت ثورة فليتة مجهولة في تفاصيلها فإن هذا الضابط تعرض لمراحلها في تأليفه القيم الذي سماه: **(إرسالية جزائرية خاتمة ثورة 1864م)**

«une expédition algérienne épisode de l'insurrection de 1864 » par le capitaine oget écrit basia 1871 .

وأهمُّ ما استنفدناه من هذا التَّأليف الذي دوَّن فيه يوميَّاته ـ أي: الخطوط العريضة من ثورتي (وهران) عندما تحدَّث عن الظروف التي اندلعت فيها ثورة أولاد سيدي الشيخ قال في ص 2 من التأليف متحدثا عن بطلها سليمان ما يلي: «إن سليمان ولد

ووارث السيد حمزة خليفة منطقة أولاد سيدي الشيخ حمل ضدنا راية الثورة وجر في ثورته كل القبائل الخاضعة لنفوذه الإداري ونفوذه الديني »، ثم قال: «إنَّ أسباب هذا التَّقلُّب لا زالت مجهولة ».

وفي حديثه عن (ثورة فليتة)، قال متحدِّثنا عن مدينة (**عمِّي موسى**) التي ذهب إليها صحبة الجنرال (lievert) لملاقاة قائد الجيش الأعلى بـ (**الجزائر**)، ونائب الوالي العام، قال بعد أن ذكر أنَّ الثَّائر الفليتي سيِّد الأزرق: «هوالذي خرَّبها، بحيث لم يبق من مبانيها إلاَّ الحصى »، قال في (ص: 187): «إنَّ المرابط سيِّد الأزرق طاف بالمنطقة حاملا راية الجهاد، وداعيا إليه، فاستجاب لدعوته جميع السُّكَّان الذين كان الحقد كامنا ومتغلغِلا في نفوسهم، كما كانوا متعطِّشين لأخذ الثَّأر من أعدائهم »اهـ.

فمن هذا يتبيَّن لنا أنَّ أسباب الثَّورة أعمق من غضب بطلها لاستبدال الحكم العسكري بالحكم المدني، ونجد ما يؤيِّد هذه النَّظرية يتجلَّى في الشِّعر الشَّعبي الذي أشاد بهذه الثَّوارث، ولنقتصر على بعض ما قاله في الموضوع الشَّاعر محمَّد بالخير الرزيقي في معرض هجوه للقاضي عطا الله الذي أفتى بتجريد هذه الثَّورة من صبغتها الدِّينيَّة ـ أي الجهاد ـ فقال محمَّد بالخير:

مقـواني نبكـي الاجـراح مهـولين ... بي فرقـة وطنـي وعـز الاوطـان
رانا ضروك راس النجوم متنزهين ... ما قعدوا فالذل إلا صحاب بوران

إلى أن قال:

إلي يبغـي الجنَّـة بضـاد الكـافرين ... وإلي ابغـى الهنـا ابغـى التمـران
قولوا لعطا الله وش كلفك يا حزين ... ولاه تشمت في لالـه لـداهم قـران
لعبـت بـك الـدنيا ايامهـا فـانيين ... ما اخيار انتاي وإلا كـلاب رحمـان

إلى أن قال:

احنا مجاهدين ما هوقول ضعيف	تبعنا ما قال ربي فالقرآن
واحنا فزنا على العرب جيد وشريف	وفرح بنا الهاشمي شارع الأديان
واحنا مباعدتا على الميعاد ظريف	بالجودة واجدا ونقمة للعديان

كما تعرَّض الشَّاعر محمَّد بالخير في بعض ابتهالاته لتحقيق رجائه لتغيير أوضاع البلاد التي سئمت الحكم الكافر، إذ الحياة الدِّينيَّة تعتبر العمود الفقري لدى جميع المسلمين، فقال الشَّاعر:

يا سلطان الكريم تاتي بسلطان	ينطق بالحق والشريعة
ينصر دين النبي على دين الخزيان	يعطيه الخارجي ابيعة

إلى أن يقول:

مولى القدرة ضيق عليهم الامكان	يغدا الرومي بلا وديعة
أولاد الروم سلط عليهم ثعبان	وصيروا زابلة وزيعة
من قام الدين بالصلاة وشهر رمضان	في الجنة درجته رفيعة
حبيب الله كل شيء عنده يهون	مولانا صرخته سريعة

التَّعريف بمحمَّد بن إبراهيم (دفين كيف الملح) بِنواحي مدينة سعيدة[1]

إنَّ صاحبَ هذا الضَّريح مَشهورٌ بِقَرية **التوتة**[2]، في الأرض المسماة بـ: **البطحة، ووادي الوراقي**.

تَنتمي أُسرٌ كثيرة إلى صاحبِ هذا الضريح، منها مَن تنتسب إليه بالبنوَّة، ومنها من تنتسب إليه بالتَّلمذَة، وكلٌّ مِن الطائفتَين تتعهَّد صاحبَ الضريح بإِحياء ذِكراه، والتَّردُّدِ على زيارة الضريح، وتخليد اسمه بإِطلاقه على بعض مَواليدهم، حسبَ ما جَرت به العادة في كثير مِن أنحاءِ الوَطن.

أما ثبوت شرفه النَّسبي ـ كونه سليل الرَّسول ﷺ ـ فليسَت لدَينا المعطيات لثبوت ذلك أو نفيه، إذ قضية النَّسب هذه شائِكة مُعقَّدة مِن قديمِ الزَّمان، وقد اهتمَّ بها وُلَاة الأَمر وعيَّنوا لها مصالح أَو إدارات خاصَّة، كلَّفوا بها علماء أَكْفاء، ولم يكتفوا بذلك، بل جعلها هذا التَّعيين يتوقَّف على مُصادقة الأُسر الثابِت نَسبها، وهذِه الإِدارة هي ما كان يُعرف إِلى أَواخِر العهد التُّركي بـ: **نقابة الأَشراف**، وكتب الوثائق الأندلسية بالخصوص خصَّصت نماذج لهذه العقُود.

---

(1) اعتمدنا في إثبات هذا المقال على نسخة مصوَّرة تكرَّم بها علينا الأستاذ الفاضل **بومدين بوزيد** (مدير الثقافة) بوزارة الشؤون الدِّينية، ويقع في (7) صفحات، وظهر لنا مِن خلالِ أسلوبه أنه عبارة عن مُراسلة شَخصية.

(2)**قرية التوتة**: هي التي تعرف بقرية بوعلام حسبما ذكرته صاحبة الرِّسالة.

وكان كثير من المؤلِّفين خصَّصوا تآليف لتَراجِم هؤلاءِ الأَشراف، وبالنِّسبة لبِلادنا خصوصا للناحية المسؤول عَن دَفينها محمَّد بن إِبراهيم ظهَرت تآليف، منها: (**بغيةالطالب في ذكر الكواكب**)، لأبي مهدي عيسى التُّوجيني (دفين وادي الطاغية) حوالي 960هـ، و(**العِقد النَّفيس في بيان علماء وأَشراف غريس**)، لعبد الرحمٰن التُّوجيني، في أوائل القرن الحادي عشر الهجري، و(**القولالأعمّ في بيان نسبالحشم**)، للطيب ابن المختار ابن عمِّ الأَمير ورفيقه في الهِجرة، وهناك كتبٌ أُخرى، كالعشماوي وابن فرحون وغيرها مملوءة بالزُّور، حيثُ زاد فيها المغرِضون وزوَّروا ما أَمكَنهم، وذلك أنَّ الأَتراك كانوا كثيرا ما يعفونَ رجالَ الدِّينِ ـ خصُوصًا الأَشراف منهم ـ بما كانوا يُرهِقون به السكَّان مِن إِيواء، وتموين الحرَس المتجوِّل، ونقل الحبوب، وحِراسة جُباة الضَّرائِب، فكانَت هذِه الطَّبقة تلتَجِئ إلى تلفيق شهادة النَّسب، فيَجمعون الشُّهودَ ويحرَّر العقد ثمَّ يُعرض على مُوافقة نَقيبِ الأَشرافِ الذي كثيرا ما يُصادِق علَيه، ثمَّ يقدَّم للسُّلطاتِ فيصبحُ ساريَ المفعول، وهذِه الشَّهادات بقيت بعضُ الأُسر تَحتفِظُ بها وتَتوارثُها، وضاع معَ طولِ الزَّمان وعدمِ جَدواها أَكثرُها، ومع هذِه الاحتياطات كلِّها نجِدُ بعضَ العلماء ـ خصُوصًا المؤرِّخين مِنهم، كأَبي راس الناصري (1165 ـ 1237هـ) ـ ضاقَ ذرعه في عَهده بِكثرة التَّزوير في النَّسب، فكان ردُّ فِعله أَن أَلَّف كِتابا سمَّاه: (**مروج الذَّهبفي نُبذةٍ مِن النَّسب ومَن إِلى الشَّرفِ انتَسب وذهَب**)، وقَد أَحدثَ تأليفه هذا هزَّة عَنيفة في الأَوساطِ المعنيَّة بِالأَمر إِذ ذاك، وجرَّ له وَيلات، مِنها أَنه أُحرقَ كِتابه وعُزِل مِن وظيفتَي الإِفتاء والقضاء الَّلتَين كان يجمعُ بينَهما في **معسكر**، إِذ لا زالت في تلك النواحي إلى الآن الأُسرةُ الشَّريفةُ ـ سواء حقيقةً أَو اِدِّعاءً ـ لا تُصاهِر الزَّناتي، والزَّناتي هذا يُطلق على غير الشَّريف، بل يُطلقُ على النَّذل، وقد تقدَّم أحدُ كبار الأَغنياء، تَبلغُ ثَروته بعدَ الإِستِقلال بعدَّة مَلايين لِخطبة عائِلة بَسيطةفي تلك الناحية، وقدَّم شَخصيات دينية، فأَطردوه وهدَّدوه إِن عادَ إِليهم، حيثُ هو مجهول النَّسب، وهو

شابٌّ كوَّن ثَروتَه بعدَ استِقلال البِلاد، والحديثُ عنه وعَن ثَروته ومَصاريفه الباهِضة هي أَحاديث النَّوادي والمجتَمعات.

ولنرجع إلى الحديثِ عن تأليف المؤرِّخ **أَبي راس** الذي اعترفَ أنه رَغم المعطيات التي كانت متوفِّرة لدَيه إذ ذاك من سجلَّات نقابة الأشراف والتآليف والعقود الخاصَّة عِند الأُسَر، اعترفَ أنَّ الموضوعَ شائِك، ومِن الصَّعبِ أن يُوافَق الباحثُ على نفيٍ أَو إثباتٍ بعضِ الأَنساب.

وقيل **أبي راس** ـ أي: في عهد المؤرِّخ **ابن خلدون** ـ نجِدُ القاضي **محمد المقريالتِّلمساني** الذي تولَّى قضاءَ مدينة تلمسان، ثمَّ مدينة فاس في عهدِ الملِك أبي عنان المريني، وهو مِن أَساتِذة **ابنِ خلدون**، ولسان الدِّين ابن الخطيب، وقعَ له بِحَضرة الملِك، وفي مجلسه حادثٌ معَ نَقيب أَشرافِ المغرب، وذلك أنَّ النَّقيب المذكور عِندما دخلَ مجلسَ الملِك قامَ له كلُّ الحاضِرين مِن العلماءِ والأعيان، وبقيَ محمد المقري جالسًا، فنظَر إِليه النَّقيبُ شزرا، وسأَله عن امتِناعِه مِن القيام، فأَجابه المقري بأنَّ شرفَه هو ـ أي: **المقري** ـ **محقَّق**، وهو شَرف العلم والمنصب، أمَّا هو ـ أي: النَّقيب المخاطَب ـ فَمشكوكٌ فيه، ولا يُمكِنه إِثباته، ولو ثَبت له ما يدَّعيه لعزلوا الملِكَ ووضَعوه مكانَه، كلُّ ذلك والملِكُ ساكِتٌ، إلَّا أَنَّهم انتقموا منه بعدَ مدَّة ـ أي: الملِكُ والنَّقيب ـ

والاِهتمامُ بهذا الفَرع مِن المعرفة ليسَ هو مِن خُصوصياتِ المسلمين، فكثيرٌ مِن الشُّعوب ـ خصوصا الأُربيِّين ـ لا زال محلّ اهتمامِهم، مِن ذلك ما ظَهر أخيرا في **فرنسا**:

أولا: كتاب سمَّاهصاحبه:

Les Héritiers que je cherche, par Maurice Contot, Edit Laffout Paris.

ثانيا:كتابسمَّاه صاحبه أيضا:

A la recherche de nos ancetres, par yaron Grandeau, Edit Stak Paris .

وقد قرضتها جريدة: (La monde) في عدَدِها الصَّادر في: 15/ 16 ديسمبر 1974 تحت عنوان:

Généalogie Deux livres:une profession passionnante…

وتمتاز بحوثُ العلماءِ الغَير المسلمين في هذا الفنِّ بأَنَّه مجرَّدٌ مِن الصِّبغة الدِّينية، إِلَّا أَنَّه مُفيدٌ مِن الناحية التاريخية. اهـ.

المهدي البوعبدلي

التعريف بمحمد بن ابراهيم
دفين "كيف الملح" بنواحي مدينة سعيدة

ان صاحب هذا الضريح مشهور بقرية(1) الشرفة
في الارض المسماة بالنعمة بوادي الوراقي
تنتمي اسر كثيرة الى صاحب هذا الضريح منها من تنتسب
اليه بالبنوة، ومنها من تنتسب اليه بالتلمذة، وكل
من الطائفتين تتعهد صاحب الضريح باحياء ذكراه
والتردد على زيارة الضريح وتخليد اسمه باطلاقه
على بعض مواليدهم حسب ما جرت به العادة
في كثير من انحاء الوطن

اما ثبوت شرفه النسبي - كونه سليل الرسول
صلى الله عليه وسلم - فليست لدينا المعطيات
لثبوته لكن ان نفيه اذ قضية النسب هذه
شائكة ومعقدة من قديم الزمان، وقد اهتم بها
ولاة الامر وعينوا لها مصالح وادارات خاصة

(1) قرية الشرفة هي التي تعرف بقرية سوحلام حسبما ذكرته
صاحبة الرسالة

صورة عن الصفحة الأولى من المقال السابق

أضواء على تاريخ حياة الأمير عبد القادر قبل توليته من خلال مذكِّراته التي سجَّلها في قصر أَمبواز

إنَّني اخترتُ موضوع سمرنا هذه اللَّيلة، وهو كما يدلُّ عليه عنوانه: (**أضواء على تاريخ حياة الأمير عبد القادر قبل مبايعته**)، وركَّزتُ في هذه الدِّراسة على (**المذكِّرات**) التي كتبها في (**قصر أمبواز**).

كانت هذه (**المذكِّرات**) مجهولة عند بعض الباحثين الذين اعتنوا بتاريخ حياته، اللهمَّ إلاَّ ما عرف مِن بعض تصريحاته ومِن مراسلاته للكتَّاب الهواة الذين كانوا يتردَّدون عليه ويزورونه في معتقلِه.

إنَّ الظروف التي اكتشِفت فيها هذه (**المذكِّرات**) لا زالت مكتنَفة بالغموض، وكلُّ ما يهمُّنا منها في سمرنا اللَّيلة هو أنَّها تلقي أضواءً كاشفة عن المرحلة الأولى من حياة الأمير، وعن الجو الثَّقافي السَّائد إذ ذاك بموطن **الأمير** المشهور ببلاد (**الرَّاشديَّة**)، والمعروف الآن وفي عهده ببلاد (**غريس**).

والحياة الثَّقافية ببلاد (**غريس**) هي التي ركَّز عليها الأمير (**مذكِّراته**) التي كتبها بمساعدة قريبه وخليفته أيام حكمِه السَّيد **مصطفى ابن التُّهامي**، وقد ظهرت فيها جوانب لا زالت مجهولة، حيث لم يتعرَّض لها الباحثون كما تستحقه من العناية والأهميَّة، وقد جنى كثير مِن الكتَّاب على تاريخ الحياة الثَّقافية بـ (**الجزائر**) في العهد التُّركي، فعمَّموا أحكامهم الباطلة بأنَّ الثَّقافة في تلك الفترة تضعضَعت وتدهورت ولم يبقَ مِن آثارها إلاَّ حفظ (القرآن) ودراسة (**مختصر خليل**) ومبادئ العلوم اللُّغوية،

وبعبارة أشمل وأَوضح إنَّ العصرَ التُّركي في زعمهم عصرُ ظلام وجهالة، وإنَّ **(الجزائر)** شرقيها وغربيها لم تنجِب إذ ذاك إلاَّ الفقهاء الرَّجعيِّين المتزمِّتين، والأدباء القاصرين المتكلِّفين، والشُّعراء المدَّاحين المحترفين.

لاشكَّ أنَّ مراكز الثَّقافة بـ **(الجزائر)** انتقلت في العهد التركي من المدن إلى القرى والجبال كما وقع لـ **(بجاية)** بعد احتلال الأسبان فإنَّ مراكزها الثَّقافية انتقلت برمَّتها إلى واديها وقمم جبالها وصار سكَّان المدن يشدُّون الرِّحال إليها ومن بينهم سكَّان مدينة **(قسنطينة)** التي كانت بفضل موقعها بعيدة عن الخطر الأسباني ولم ينقطع منها العلم ومع هذا كان كثير من علمائها يذهبون إلى معاهد **(وادي بجاية)** وغيرها للتَّخصُّص في بعض الفنون ومنها القراءات، بل كان يشاركها في هذا حتَّى بعض علماء **تونس** وكذلك وقع لنفس مدينة **(الجزائر)** التي رغم استحالتها إلى عاصمة وصارت **محطَّ** أكابر علماء **(الأستانة)** الذين كانت توفدهم الخلافة العثمانيَّة لمختلف الوظائف العلميَّة السَّامية كالقضاء والإفتاء والتَّدريس فإنَّ كثيرا من علمائها كانوا يلتحقون بمعاهد قراها وجبالها للتَّخصُّص في العلوم، ومن هؤلاء العالم الشَّهير **سعيد قدُّورة** المتخرِّج من **(معهد مجَّاجة)** بنواحي **(الأصنام)**، وأستاذه قبله **أبو القاسم المطماطي**، وغيرهما.

أمَّا القطاع الغربي الذي له صلة بموضوع بحثنا، فإنَّه اشتهر ابتداءً مِن أوائل القرن العاشر، وامتاز بالتَّخصُّص في دراسة الفقه والتَّوحيد، وصار طلبة العلم يتردَّدون على **(الرَّاشديَّة)** مِن بلاد المشرق والمغرب للتَّخصُّص في التَّوحيد، وعندما يتعرَّضون في تآليفهم أو إجازاتهم للحديث عَن أسانيدهم في التَّوحيد، [يشيدون بالراشدية]، مِن ذلك ما قاله **أحمد المقري التِّلمساني** صاحب (نفح الطيب) في شرحه على **(صغرى السَّنوسي)** الذي كتبه بـ: **الجزائر** في طريقه إلى الحج من **المغرب** قال: «وقد كنت قد قيدت عن أشياخنا بـ: **تلمسان** قبل هذا الأوان وغيرهم من علماء الراشدية العارفين

بهذا الشأن »، كما نجد قاضي مراكش الذائع الصيت **أبا مهدي عيسى السكتاني** يقول في نفس الموضوع: «هكذا تلقَّيناه من أشياخ علماء الراشدية »، وسنتعرَّض لذلك بمزيد مِن التَّفصيل في موضعه.

ولنرجع إلى الحديث عن (**المذكِّرات**) التي كتبها **الأمير** بـ: **قصر أمبواز**، وهي الآن بمكتبتنا الوطنية، وذلك أن **الأمير** لما كان في أسره بـ: **قصر أمبواز** اتَّصل به أحد الأساقفة الفرنسيِّين بواسطة الضابط الفرنسي المكلَّف بحراسته، فقدم إليه كتابا طرح عليه فيه أسئلة، طالبا منه بإلحاح [الجواب عليها، وهذا] ملخَّص ما قاله في الموضوع: «وبعد، فإنَّ بعض أساقفة النصارى طلب كتابا مضمنه تاريخ ما جرى بيننا وبينهم بالقطر الجزائري مِن مكافحة ومصالحة، ببيان سبب كل واحد من الأَمرَين، ونزيده مع ذلك التعريف بالمجاهد الإمام الأعظم الأعدل الأكرم، وهذا هو الغرض الآكد منه، ونص كتابه: الحمد لله والصلاة والسلام على جميع النبيين، إلى المعظم المحترم السيد الحاج **عبد القادر بن محيي الدين** (أعزَّه الله وأرشده)، آمين، اعرف أني طالب منك مزية، وهي أن تكتب لي مع وسع الخاطر جميع حوادثك، تبدأ إن شاء الله بحوادث سيدنا السيد الحاج **محيي الدين** (رحمه الله)، وتذكر في كتابك أشغال تاريخ ما صار من الأمور العجيبة التي تتعلَّق بأحوالك من ابتداء صباك إلى وقتنا هذا، من سفرك إلى المشرق وتوليتك سلطنة العرب وتأويلك مع ترتيب العسكر، وبناء الأبراج والمدائن، وقوام المخزن وتقويم أمر الشَّرع، وما جرى لك مع الجنرالات من أمر العافية والفتن، خصوصا فتنة **موزاية ولمدية**، ومع الجنرال دوقيقة، والجنرال **لامورسيار**، وما جاء في ذهنك حين التقيتَ ولد السلطان في **مرسى الغزوات** حاكم مملكة الجزائر، وتبيِّن ما كان مقصودك في الجملة من أمور الدنيا، وما تلوم وتشكر عند الفرنسيين، وإذا رضيت تزيد ما يظهر لك منهم ومنك في الماضي، وما تقضي عنهم إذا كنت في موضعهم، وما تدبر

عليهم في مصالح المسلمين الذين لم يقبلوا الهجرة وقبلوا حكمهم، مشروطا ببقاء ثبوت دينهم، وتفصِّل وقائعك مع سلطان المغرب، واعلم أنك إذا قبلت كلامي وفعلت بمزيتي تنتفع إن شاء الله، وتبطل جميع كذب الكذَّابين الذين كذبوا عليك وعلى حوادثك في القوازط، وتصفى القول والقال مِن تكثير كذب الكذَّابين عليك، ولك الأجر من الملك العلام، والله يوفِّقنا للخير بجاه أهل الخير، خامس عشر جمادي الأخيرة سنة أربع وستين ومائتين وألف. اهـ كتاب الأسقف »، وقد علَّق عليه **مصطفى ابن التهامي** بقوله: «هذا آخر مكتوب القبطان، فلما قرأ مولانا (أيَّده الله) مكتوبه، واستوعب معانيه كلها، أعلى الله مقامه، وأعاد علينا وعليه عوائد برِّه بصلاح الحال والمآل، فأمرني بأن أجمع ذلك على حسب ما طلب كاتب المكتوب، فأجبته بالموافقة، واثقا بإعانة المالك، وسالكا صحة المسالك، ومرتجيا نفعا دنيويا مآله الصلاح الديني بحول الله وقوَّته، فقلت: إن استقراء جميع ما طلب، واستقصاء كل ما رغب، يقتضي انحصار الجواب في مقدمة وسبعة فصول... الخ »، هذا ما علَّق به **مصطفى ابن التهامي** على كتاب **الأسقف**، وقبل أن نواصل حديثنا عن فحوى الجواب نذكر أن المخطوط كتب على أول صفحة منه بالفرنسية ما يلي:

وهذه ترجمتها: «تاريخ **الأمير عبد القادر** نقل مخطوط السيد الحاج **مصطفى ابن التهامي** كتب بعضه بخطِّ الأمير 1849م».

إن هذه الرسالة والجواب عنها ـ وإن كان مختصرا ـ كشف القناع عن أحداث هامة تتعلَّق بحياة الأمير كلها، ولنبدأ بتحليل الفقرة الأخيرة التي ختم بها **الأسقف** رسالته، حيث تشير إلى الجو المضطرب الذي أعقب إنهاء حرب **الأمير** وتسبَّب في نقض شروط الصُّلح التي أبرمَها مع ولي عهد **فرنسا** بـ: **الغزوات،** وألغى على إثرها ـ أي: بمجرَّد وصوله إلى **فرنسا الدوق أورليون** (le duc d'orléans)، فنقِل إلى السِّجن بدلا من نقله

إلى بلاد المشرق كما وقع الاِتفاق عليه بين الجانبَين.

إن **الأمير** ولو أقيم بـ: **قصر أمبواز**، إلا أن هذه الإقامة كانت مفاجأة له، حيث ديسَت شروط صلح **مدينة الغزوات** التي تعهَّد له بها ابن ملك فرنسا وولي عهد أبيه، ثم اطلع بعد ذلك أن مرجع عدم الوفاء بالعهد هو ضغط الرأي العام الفرنسي الذي حمَّله مسؤوليةَ قتل 300 أسير فرنسي إثر معركة الكركور قرب مدينة **مغنية** سنة 1846م ـ أي: قبل نهاية الحرب بسنة واحدة ـ وهذه المعركة هي المشهورة عند المؤرِّخين الفرنسيِّين بـ: **واقعة سيدي إبراهيم**، ولا زال الباحثون والمؤرِّخون يخصُّونها بالتآليف، منها تأليف الجنرال **أزان** الذي ألَّفه بمناسبة مرور قرن عليها ـ أي: ألَّفه سنة 1946ـ وأظهر فيه براءة **الأمير** مِن هذه التُّهمة، كما أظهر فيه أنَّ جلَّ المسئولين الفرنسيِّين كانوا على علمٍ من هذه البراءة، وإنما تعمَّدوا كتمانها وإخفاءها إثر الحملة المسعورة التي قام بها الماريشال **بيجو**.

وكان هدفها وجود مبرِّر لنقضِ شروط الصلح حتى يتسنَّى لحزب **بيجو** إدانة **الأمير** كمجرم حرب، بدلا مِن مُعاملتِه معاملةَ ملِك، وإلى هذا الجو أشار الأسقف في الفقرة الأخيرة من رسالته التي قال فيها: «واعلم أنك إذا قبلتَ كلامي، وفعلتَ بمزيتي تنفع إن شاء الله، وتبطل جميع كذب الكذَّابين الذين كذبوا عليك وعلى حوادثك في القوازط ـ أي: الجرائد ـ وفي المكاتب، وتصفى القول والقال مِن تكثير كذب الكذَّابين عليك، ولك الأجر التام».

وهذه الفقرة هي التي جعلت **مصطفى ابن التهامي** يصرِّح في تعقيبه على الكتاب في قوله: «فأجبته بالموافقة، واثقا بإعانة المالك، وسالكا صحة المسالك، ومرتجيا نفعا دنيويا، مآله الصلاح الدِّيني بحول الله ».

وبعد تأمُّل الكتاب والأسئلة المطروحة يظهر مِن أوَّل وهلة أن الكتاب ـ وإن قدِّم

للأمير باسم أسقف ـ فهو لا يهمُّ إلا الدوائر العليا المسئولة كما سنبيِّن ذلك مِن جواب **الأمير** الذي أخذَ العهد منهم [بإطلاق سراحه] وفوجئ بالأسر في **قصر أمبواز**، وهو ما نجِده في غير هذه الرسالة، وهي استغاثة **مصطفى ابن التهامي** التي كانت بدورها مجهولة، لم يذكرها عندما تحدَّث عن إقامة والده في **قصر أمبواز** قال: «ودوام الأمير في تلك المدة على تدريس العلم وإفادة الطلبة من جماعته ثم سلك أخوه السيد **محمد السعيد** وأخوه السيد **مصطفى** وخليفته السيد **مصطفى ابن التهامي** جادته وأفادوا الطلبة إفادته، واجتمعوا لقراءة **البخاري** على نية تفريج كربهم».

اكتشفت هذه الاستغاثة منذ ثمان سنوات تقريبا، الاستغاثة كما هي معروفة في تاريخ الأدب العربي يلجأ إليها أصحابها عند شدة الأهوال والمحن وظهور العجز التام في دفعها، فيلتجئون إلى الدعاء والابتهال، وقد بقيت سارية المفعول إلى زماننا هذا، ومن ذلك ما كنَّا نراه عند سكَّان المغرب الأقصى في عهد الحماية، فكانوا كلما أصيبوا بضيم أو جور قصدوا المساجد لقراءة (**اللطيف**)، واستغاثة **مصطفى ابن التهامي** ترجع أبياتها على الخمس المائة، مهد لها بقوله: «ومما قلته مع الرضا والتسليم للقضاء والقدر متوسلا متضرعا ومرة مجملا راجعا النفع لي، ولكل من دعا بها، متبذلا ومؤملا حصول كشف الكرب والفرج ورفع الشدة عن الداعي... الخ »، ثم استهلها بقولها:

لما جرى القدر بالخلاف	ووقع الخلف بالائتلاف
ووجب الوحش بفقر اليم	والحق النقص ببدر التم
واقتنص الصقر عدوصائد	وللنعام في القرى وصائد
وابتدعت عن العقول حيل	واقتدت بالاعتراف جيل
لم يبق إلا الابتهال والسكن	للقاهر المالك كل مل سكن
سبحانه تعالى جده العلى	من قام بالقهر لكل متعلي

وبعد أن استغاث بالأنبياء والصحابة والتابعين والصالحين على عادة المستغيثين، قال:

هــذا الــذي قدمتــه نجــواي	في رفـع ضـيمي وبـلا بلـواي
فـامنن علينـا بصـلاح الحـال	وأنقــذن مــن شــدة الحــال
مـولاي يـا ذا المـن والأفضـال	داوي ســقام دائنــا العضــال
نفسيــ مــع الرفقــة والأفــذاذ	مــن ربقــة الأسر إلى اللــواذ
بمنـزل رحـب الجنـاب والسـعة	ومــن مســجد جماعــة وجمعــة

وقد رأينا أنه وإن كانت المنظومة تربو على (500) بيتا، فإنَّه ضمَّنها طلبه في بيتين، وهما:

نفســي مــع الرفقــة والأفــذاذ	مــن رقبــة الأسر إلى اللــواذ
بمنـزل رحـب الجنـاب والسـعة	ومســـجد جماعـــة وجمعـــة

ولم يستقل **مصطفى ابن التهامي** بهذه الاستغاثة، بل أنشأها بمشاركة **الأمير**، وفي ذلك يقول:

يـا غـوث وقتنـا إليـك يشـكو	أميرنـــا ومعشـــر فيبكـــوا

هذا ما يتعلَّق بمناخ الفترة التي قضاها **الأمير** بـ: **قصر أمبواز**، وكتب فيها رسالته، موضوع حديثنا، وأشار إلى هذا المناخ **الأسقف** في الفقرة الأخيرة مِن رسالته، وإنني لا يمكنني التعرُّض للفصول السَّبعة التي انحصر فيها الجواب، فاقتصرت على فصلين، الأول والثاني مِن جواب الأمير، ركَّزت عليهما هذه الدراسة.

وقد تناول **الفصل الأول** نشأة **الأمير** ومراحل حياته قبل مبايعته أميرا، وتناول **الفصل الثاني** رحلته صحبةَ والده إلى الحج، تلك الرِّحلة التي بقيت تفاصيلها مجهولة أيضا، وإن كشف جانب منها في الرسالة التي كتبها والده في طريق رجوعه، كتبها إلى

أخيه مِن جزيرة **قبرص**، كما سنتحدَّث عنها في موضعها، وهذه الرِّسالة أيضا مجهولة، اكتشفت منذ سنوات قليلة، وبالضبط عند نقل رُفاة **الأمير** إلى **الجزائر**.

يمتاز جواب **الأمير** كما ذكرنا بالحذَر وتجنُّب كلِّ ما كان مَثار خلاف بينه وبين الفرنسيِّين، كما كان **الأمير** يتقيَّد في تصرُّفاته بالتَّعاليم الدينية، سواء في محاربته لصاحب **عين ماضي** أو قتله لبعض خلفاء العهد التركي أو سجنهم، ومن ذلك قتل أستاذه (قاضي مدينة **أرزيو**).

كما يظهر أن **الأمير** لم يعتمِد على تقايِيد مدوَّنة، بل بما كان عالقا بذهنه وذهن مساعده **مصطفى ابن التهامي**.

تحدث في أول الجواب عن نسب الأسرة مما هو معروف ومتَّفق عليه، ثم تعرَّض لنشأة **الأمير**، فقال: «نشأ (رضي الله عنه) بطرف **غريس** مِن الجهة الغربية على مقرُبة من **أم عسكر** بمستقَرِّ أبيه في قرية اختطَّها والد والده على رأس المائة مِن القرن الثالث عشر، واشتهر اسمها بـ: **القيطنة**، مشتقَّة مِن القطن، ضد الضَّعن، لأن أهلَه قاطنون ليسوا بأهل عمود »،ثمَّ يذكر وفاة مؤسِّس القرية الجد **مصطفى ابن المختار** الذي خلفه ولده **محيي الدين**، ويذكر أنه كان له تلامذة ومريدون يبلغ عددهم (600) فردا، تسعهم سبع حلقات للتدريس، ثمَّ تعرَّض للمسجد الذي بناه أحد بايات الأتراك بالقرية، وأن بايا آخر بنى المسكن.

جواب الأمير عن اختطاط القرية:

إن تاريخ اختطاط القرية ـ أي: قرية القيطنة سنة 1206هـ ـ كما هو مجمع عليه في زماننا مصدره الوحيد كتاب (**تحفة الزائر**)، وهو خطأ، إذ نجد المؤرِّخ **أبا رأس الناصري** أول مَن وصف هذه القرية بعد اختطاطها فقال في (**رحلته**): «وقد ذهبتُ

للقيطنة ذات يوم أسأل في البيوت ما يأكله الطلبة، ووقعت بباب الجامع فإذا هو نوالة كبيرة بمحرابها، وعن يمينه بيت الشيخ **المشرفي**، فرأيت **مصطفى ابن المختار** أحد تلامذة الشيخ المذكور يدرِّس في الأول من (**المختصر**)، ثم رجعتُ في ساعة فرأيت الشيخ **مصطفى البطيوي** يدرِّس في الثاني، ولم يبال أحد» اهـ كلام **أبي رأس**.

والشيخ **المشرفي** هو أستاذ **أبي رأس** أيضا، وقد توفي سنة 1192 ـ أي: قبل التاريخ الذي قدَّمه صاحب (**تحفة الزائر**) لاختطاط قرية القيطنة بأربع عشرة سنة ـ ثمَّ نجد **أبا رأس** زار قرية **القيطنة** قبل سفرِه لطلب العلم، وكانت أول بلدة قصدها لطلب العلم **مازونة**، فذكر أنه ذهب إليها بعد صومه بسنة، ونعلم أن **أبا راس** مِن مواليد سنة 1165هـ فقد تكون زيارته حوالي سنة 1180، وقد أيَّد وجود الخطأ في تاريخ اختطاط القرية **الأمير** في هذا الجواب، حيث قال: «في قرية اختطَّها والد والده على رأس المائة من القرن الثالث عشر».

ولنرجع إلى جواب **الأمير** على رسالة **الأسقف**، فقد واصل حديثه فيه بقوله: «وبقي **محيي الدين** إلى أن تولَّى ولده **عبد القادر** فمات بعد سنة مِن تَوليته... الخ ».

ثم عقد فصلا تحدَّث فيه عن الثقافة في بلاد **غريس**، فقال: «إن الشيخ **مصطفى ابن المختار** (جد الأمير) أخذَ عن **عبد القادر بن عبد الله المشرفي**، وهو أخذ عن **المنور التِّلمساني**»، ثمَّ استعرض جلَّ أساتذة الجد والابن والحفيد، ومختلف طرق أسانيدهم المتَّصِلة بعلماء **الجزائر** و**فاس** و**تونس** و**مصر**، كلُّ ذلك لم يوجد حتى عند المتخصِّصين في تتبُّع هذه الأسانيد مِن أصحاب الفهارس المشهورين.

والاهتمام بذكر الأسانيد كان علماء ذلك العهد يعطونَه أهميةً كبرى، إذ فيه الدليل القاطع على التَّبادل الثقافي بين مختلف علماء البلدان الإسلامية، وتمتين الصِّلة بينهم، وتكوين رأي عام قوي يقِف المواقف الحاسمة في وجه كلِّ مَن حاول المسَّ أو تغيير

أحكام الشَّرع أو التلاعب بالدين وإِهانة أهله، ولهذا كان علماء ذلك العهد يشدُّون إليه الرحال.

وبالنسبة لبلاد المغرب العربي نجِد أنه كثيرا ما تتوتَّر العلائق بين حكَّام البلاد، تارة بين **الجزائر** و**المغرب**، ومرَّات بين **الجزائر** و**تونس**، فكانت السلطات توفِد السُّفراء للسَّعي في الصلح، فكان أولئك السفراء بمجرَّد وصولهم للبلاد الموفَدين إليها يتَّصِلون بعلمائها ويتبادلون معهم الإجازات والتآليف رغم تأزُّم العلائق بين ملوكهم وسلاطينهم، ولهذا كانت الروابط متينة بين العلماء.

ولما أنهى صاحب **(المذكِّرات)** حديثه عن أسانيد العلماء الذين أخذَ عنهم جد **الأمير** عقَّب على ذلك بقوله: «هذا ما تيسَّر بحسب الوقت من طريقنا العلمية، ولا يذهب الوهم بمن وقف على هذه الأسانيد فيعتقِد أننا لم نأخذ العلم إلا من بعيد، بل وطننا الغريسي محط علم ومحل تعلُّم وتعليم، فها هو **الجوزي** في **(عِقد الجمان)** لما تكلَّم على بعض الأجداد المذكورين في النَّسب قال: ومنهم **أبو محمد** السيد **عبد القادر ابن أحمد ابن محمد** من أبناء عبد القوي المعروف بـ: **ابن خدَّة** ـ مُرضِعته ـ وبهذه الأوصاف حلَّاه الشيخ **عبد الله الونشريسي** في كتاب: **(البستان في ذكر العلماء والأعيان)**، وتفقَّه عليه كثير من الناس، منهم شيخنا السيد **عبد الرحمٰن بن زرقة**، وسيدي ومولاي **علي الشريف**. اهـ كلام **الجوزي**».

ثمَّ استأنف صاحب **(المذكِّرات)** حديثه فقال: «**قلت**: وقد كان **الغداسمي** يعظِّم نقلَه ـ أي: **عبد القادر بن خدة** (جد الأمير) الذي ذكره **الجوزي** ـ ويعبِّر عنه بـ: شيخ شيوخنا، في غير ما مرَّة في شرحه على **(الصغرى)**، ولما صنَّف خطيب الجزائر ومفتيها سيدي **سعيد قدورة** في التوحيد قال: هذا جعلته كالتكميل لتقييد شيخنا الشيخ **عبد القادر ابن خدة** »، فلابدَّ مِن الجمع بينهما، على أن **الجوزي** ذكر أن في **غريس** كان ما يزيد

على مائة قرية: «قال شيخنا السيد ابن عبد الله ابن الشيخ **المشرفي** ـ وهو الحافظ المشهور، تولَّى القضاء والتدريس في العهد التركي بـ: **معسكر**، ثم عيَّنه **الأمير** خليفة له وأوفده سفيرا إلى ملك المغرب حيث لقي حتفَه، قيل مات مسموما ـ قال **المشرفي** المذكور: رأيت كتابا وقفتُ على تمامه، فوجدت الكاتب لما كتب اسمه قال: كتبته بقرية أولاد علي بن صباح، وفي القرية ما يزيد على ثلاثمائة مؤلِّف، والقرية هي اليوم خربة تُسمَّى: **القواير**، وبقربها **روضة سيدي عثمان ابن عمر**، تحت **أم عسكر**، عند انحدار واديها، ثم قال: وناهيك بوطن خرج منه العلامة الشيخ **محمد مصطفى الرماصي** ومن حاكاه من تلامذته».

وذكر عددا وافرا مِن علماء الراشدية، وختم قائمة علمائها بذكر بعض علماء **وهران** و**تلمسان** القدامى والمتأخرين، ثمَّ انتقل إلى الحديث عن الفقرة الثانية مِن جوابه على الرسالة ـ أي رحلة الأمير صحبة والده إلى الحج ـ.

وقبل أن أتعرَّض لهذه الفقرة التي استوعبت رحلة الأمير إلى الحج لنرجع إلى الحديث عن الحياة الثقافية بالراشدية التي ركَّز عليها **الأمير** مذكِّراته، فنرى أن **الراشدية** اشتهرت ابتداء مِن أوائل القرن التاسع عشر بأنَّها مِن المراكز التي كما قيل: ينبع العلم منها كما ينبع الماء من عيون سهولها، على حدِّ تعبير **أبي عبد الله التِّلمساني** عندما سُئل عن **بجاية** في عهده، فقال: «وجدتُ العلم ينبع مِن صدور رجالها كما ينبع الماء مِن حيطانها »، فقد استقرَّ بها كثير من تلامذة الإمام **محمد بن يوسف السنوسي** (دفين تلمسان) محي علم التَّوحيد في العالم الإسلامي، وهو ما جعل علماء المغرب العربي في تآليفهم وإجازاتهم عند ذكرهم لأسانيدهم في علم التوحيد يذكرون أنهم أخذوه مِن منبعه ـ أي: من علماء الراشدية كما ذكرنا ذلك في أوَّل الدراسة ـ كما روى **المقري التِّلمساني** الذي قال عَن علم التوحيد: «أنه أخذه عن مشايخه بـ: **تلمسان** وعن غيرهم من علماء

الراشدية العارفين بهذا الشأن»، وما قال أبو مهدي عيسى السكتاني: «هكذا تلقيناه من أشياخ علماء الراشدية» وغيرهما.

ثمَّ إن دراسة علم التوحيد كانت لها أهمية إذ ذاك، وكان العلماء على اختلاف مذاهبهم يؤلِّفون في علم التوحيد، إذ يرون أن العقيدة هي الأساس الذي تبنى عليه الحياة الإنسانية، ونرى بعض الفرق كـ: المعتزلة مثلا، جعلوا التوحيد هو الأصل الأول عندما أقروا الأصول الخمسة التي تجمعهم، وبقي هذا الاهتمام إلى عهدنا الأخير، حيث ألَّف الشيخ **محمد عبده** رسالته في التَّوحيد، وترجمت إلى عدَّة لغات، كما امتازت **الراشدية** بأنها مِن أهمِّ مراكز دراسة الفقه المالكي، وكان فقهاؤها مستقلِّين في آرائهم، حيث قاطعوا عدَّة تآليف فقهية مشهورة إذ ذاك في العالم الإسلامي، خصوصا في المغرب العربي، ووقع تصادُم بينهم وبين علماء تلمسان في ذلك، فعلماء **الراشدية** قاطعوا دراسة (**شرح الخرشي على مختصر خليل**)، وتآليف **الأجهوريِّين** و**عبد الباقي الزرقاني**، ومن ذلك ما قاله صاحب: (**تسهيل المطالب لبغية الطالب**) في التَّعريف بالراشدية، قال: «وهي التي عَناها الشيخ **مصطفى الرماصي** محشِّي **التَّتائي** في بعض أجوبته بقوله: وأراك أيها السائل تحتفل بكلام عبد الباقي، وذلك بمعزل عن التحقيق، لأن شرحه وشرح **الخرشي** لا نكترَث بهما في البلاد الراشدية، لعدم تحقيقهما، وعمدتُهما كلام **الأجهوري**، وهو كثير الخطأ »، وقد ألَّف *مصطفى الرماصي* رسالةً أحصى فيها أخطاء **الخرشي** في شرحه على (**المختصر**)، ثمَّ صوَّبها، لأن **مصطفى الرماصي** هذا هو الذي أشاد به صاحب المذكِّرات، وهو حقيقة مِن الأئمة الكبار، لا في بلاد **الجزائر** والمغرب العربي فحسب، بل في المشرق أيضا، وخصوصا في **مصر**، وقد اعتمد تأليفه الفقهي واتَّخذه مصدرا كثير مِن العلماء، منهم الشيخ **الدَّردير** شارح (**المختصر**)، فقد روى الإمام **محمد بن علي السنوسي** (دفين ليبيا) في (**فهرسته**) مِن جملة مشايخه **محمد بن قندوز المستغانمي** (تلميذ الدَّردير)، وقال عنه: «إنه أول مَن أدخل شرح **الدَّردير** على

مختصر خليل إلى **الجزائر** »، ثمَّ ذكر أن شيخه **ابن القندوز** هذا، أخبره أنه عندما كان بصدَدِ تأليف شرحه على (**مختصر خليل**) كان يعتمد على **حاشية مصطفى الرماصي**، ويقول لتلميذه: إنني أعتمدها لأن صاحبها مِن المحقِّقين، حافظي المذهب، فهي تُغنيني عن مطالعة غيرها، وهذا ما أيَّده الشيخ **محمد الحجوي المغربي** في كتابه: (**الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**) عند ترجمته لـ: **خليل** مؤلف (**المختصر**)، قال: «فمختصر خليل أكثر المؤلَّفات الفقهية صوابا، رغما عن كون مؤلِّفه إنما خرَّجه إلى النكاح كما سبق، وقد وقع للزرقاني أغلاط في النقل وغيره، فاعتنى المغاربة بتصحيحه، ووضعوا عليه حواشي مستمدَّة مِن حواشي الشيخ **مصطفى الرماصي على التتائي** وغيرها، منهم الشيخ **محمد بن الحسن بناني**» اهـ كلام **الحجوي**.

كما أشاد كثيرٌ من علماء الجزائر والمغرب بـ: **مصطفى الرماصي**، فقد ذكره **عبد الرحمـٰن الجامعي الفاسي** في رحلته المسماة: (**التاج المشرق الجامع لمواقيت المغرب والمشرق**) عندما زار **الجزائر** مهنِّئا **الباشا بكداش** (فاتح وهران) سنة 1119هـ قال في (**رحلته**): «كنتُ وفدت على العالم العلامة الراوية النقاد منهل العلم الأصفى أبي عبد الله سيدي **محمد مصطفى الرماصي**، فوجدته يسكن بأهله بيوت الشَّعر قرب غابة رأس الجبل يأوي إليهم ليلا ويظلُّ بالنهار في داره ومسجده يطالع كتبه ويقرئ طلبته، فسألته عن ذلك فقال: كنا على هذه الحالة على عهد الإسبانيِّين خوفا منهم، فإننا كنَّا نأمن في الدور مِن أن يصكونا ليلا، فخرجنا لبيوت الشَّعر ليسهل علينا الفِرار لغابة الجبل » اهـ. كلام **الجامعي**.

وفي تلك الظروف كان بصدد نقل تأليفه مِن مسودته، وكان عندما يقطر عليه سقف البيت يحيل بينه وبين القطر ببرنسه الأسود، المشهور في بلاد **غريس** بـ**الرغداني**.

ولا يمكننا أن نطيل في ترجمة **الرماصي** المجهول مع الأسف في بلاده، ولنختم ترجمته

بما قاله هو لبعض تلامذته عندما أنَّبه عَن فتوى فقهية قال له فيها: «فلو أنصفت بالإنصاف، وجانبت التعسف والاعتساف، لوقفت عند تخليط الأمر عليك وقفة حيران ...»، إلى أن قال: «لكن استغنيت بنفسك، واستقللت بفهمك على عادتك، إذ أنت قد أحللت نفسك للفتوى، ولم تسألني عن مسألة، ولم تباحثني في قضية، والأئمة ترِد عليَّ أسئلتهم من **تلمسان** ومن **المغرب الأقصى** ومن **الجزائر**، والإخوان عَن يمينك وعن شمالك تباحثني مكاتبة ومشافهة بجودة الأبحاث، لتفتح لهم أقفال المشكلات، وتلك طريقة أهل العلم ... الخ».

هذه جملة مختصرة علَّقت بها على النقطة الثانية من الفقرة الأولى المتعلِّقة بالحياة الثقافية ببلاد **الراشدية**.

ولنواصل الحديث عن الفقرة الثانية من (**المذكِّرات**) التي خصَّها لرحلة الأمير صحبةَ والده إلى الحجِّ قبل مبايعته بخمس سنوات.

ابتدأ هذه الفقرة بذكر الطريق الذي كان يسلكه المسافرون مِن **وهران** إلى **تونس** برًّا، وهو طريق يخالف طرق الرحَّالين المشهورين، قال: «سافر السيد **محيي الدين** من **وهران** يوم السبت 3 شعبان سنة آخر ثلاثين ومائتين وألف ـ أي: سنة 1240 ـ مع كبائر دولتها ـ أي: مع الوفد الرَّسمي ـ أما **الأمير** فقد ذهب مع القوافل، وكان منطلقهم من مدينة **سيق**»، ثمَّ عرَّف بأن رحلات حجَّاج ولاية **وهران** كان مِن المدينة المذكورة، وهذا ما قاله حسب رحلات وطننا المعروفة، المبنية آثارها المرسومة، وهو **وادي سيق** إلى **وادي سيدي المقداد** إلى **جديوية** إلى **مجاجة** إلى العطَّاف إلى جندل إلى **المدية**، ثم منها إلى **أربعاء بني سليمان** إلى **برج حمزة** إلى قرية **بني منصور** في مبتدأ **البيبان** إلى **سيدي مبارك** إلى **سطيف** إلى **وكالة البار** إلى **قسنطينة**، ثم منها إلى **الصومعة** إلى **الوادي الشارف** إلى **مرجة كحيل** إلى **ورغة** بـ: **وادي شراط** إلى مدينة **الكاف**، إلى **تستور** إلى **سيدي الحطاب**،

ووافق دخولنا المدينة الخضراء **تونس** المؤنسة أول يوم مِن رمضان في 27 يوما مِن مسيرنا، فأعجبنا تأنُّقها، وشغلنا ترنقها، وبعد اطلاعنا على مساجدها البهية، وأسواقها الشهية، قلنا: إنها والله بهية، فلقي أهلها الوالد بالتعظيم والتبجيل، خصوصا علماء التدريس والتبجيل، فكانت أهلا لحسن المقيل:

لتـونس تـؤنس مـن جاءهـا وتودعه لوعـة مـن حيـث سـار

فيغـدوولوحل أرض العـراق يحـي إليهـا حنـين الوجـار

ويأمـل عـودا ويشـتاقه اشـتياق الفـرزدق عـود النـوار

فأقمنا فيها أحد عشر يوما مكرمين عند علمائها وأرباب دولتها خصوصا الفقيه العلامة السيد **أحمد المحرزي** سلالة الشيخ **الطاهر** حائز رياسة العلم والعمل بإفريقية ولقينا وكيل أوقاف المغاربة الحاج **أحمد الحريشي** بإكرام وأي إكرام وأخذ ما عندنا خيلا وبغالا وجمالا بأثمان متضاعفة وبعد أن ذكر إكرام الوكيل المغربي لوالده ورفقائه حيث هيأ لهم فلكا يظهر أن قائده إيطالي قال ولا أستحضر الآن رئيس المركب غير أني أثبت أن عنده صغيرين أديبين حاذقين اسم أحدهما: **كوكو**، واسم الآخر: **أندري**، وسافرنا ستة أيام عارضتنا الريح النكباء وما قدرنا إلا على التولي للمرسى ولما الرئيس صاحب المركب الذي ركب فيه أهل مخزن وهران سافر ومركبه باق اغتاظ لذلك وقال: هذا مركب انجليزي، ونحن أدق منهم صنعة، وأقوى منهم على المسائل العملية، وها هي سبقتني وشد حينئذ قلاعه ووافقت الرياح فبقينا في البحر بين أيام الرجوع الصعبة تسعة عشر يوما فوافق نزولنا لمرسى مقصد المغاربة والمشارقة مدينة الإسكندرية آخر يوم من رمضان واجتمع لنا بذلك عيدان: عيد الفطروعيد السرور بالخلاص من البحر... وقبل أن نواصل الحديث نذكر أن الأمير لم يتحدث عن والده منذ مفارقته بمدينة وهران حيث رافق الوفد الرسمي الذي عبر عنه بـ: (كبائر دولتها) والغالب

أنهم تقابلوا في تونس حيث ذكر أن علماءها أكرموا الوالد... الخ.

ثم استأنف حديثه فقالثم سافرنا في وادي النيل بالمتاع وسافر الوالد من موضع يقال له كافور الزياتلزيارة ولي الله سيدي أحمد البدويوفي اليوم السادس وصلنا قاهرة مصر فلقينا خارجها ولي الله البركة المقتدي به في السكون والحركة السيد محمد السعيد الفاندي وجدناه بعيدا من المدينة ينتظرنا منذ سمع خبر الوالدوهوولد سيدنا ومولانا محيي الدينفمشى بنا إلى داره مكثنا بها أثني عشر يوما ونحن وجميع الرفقة طعامنا من داره غذاء وعشاءوأخبيتنا بموضع يقال له بركة الفيل ورأينا بداره رضي الله عنه من اجتماع العلماء ورؤساء الدولة عنده في كل وقت ما فيه معلوم لمن يجهل قدرهومغنم لمن يأمل أجرهوشاهدنا من برهم بالوالد وأدبهم معه وتعظيمه ما يزهى الناظر ومشى معنا لزيارة الحسنين عليهما السلام والإمام الشافعي وأهل القرافة الكبرى والصغرى والجامع الأزهر ما بهر وأزهر ثم بعد زيارة علمائها المحققين كالشيخ علي الميلي والشيخ فراج والشيخ محمد بن الأمير وأمثالهم سافرنا يومين وليلة إلى مرسى بحر سويس فلقينا ضابط مدينتها بإكرام وتبجيل وعين لنا مركبا مع رفقتنا رئيسه اسم الرئيس سعيد إيمان وخليفته اسمه بخيتوركبنا بإذن الله وعونه بعد صلاة الجمعة وفي أكثر أيامها نمشي بالنهار ونرسي بالليل لما في البحر من كثرة الحجر التي تهلك الفلك فأرسينا على ينبوع البحر في تاسع يوم من سفرناثم ذكر وصولهم إلى جدة بعدما وقفوا برابغحيث لبسوا لباس الإحرام وفي جدة ضيفهم الرئيس سعيد بمنزله ووصف هذه الضيافة بقوله إنها اشتملت على الإكرام المعجوز عنه من كثير من الناس وسرنا منها ليلتين ويما بالتلبية والتهليل إلى أن دخلنا بلاد الله الحرام قبل الفجر بمقدام ساعة وبعد أداء المناسكبهرتهم وفود الحجاجوهوبين مهلل ومكبر وبين طائف حول البيت أوساع بين الصفا والمروةثم قالفجملة إقامتنا لمناسك الحج والعمرة ستة وأربعين يوما ثم سافرنا مع

الركب الشامي قاصدين الروضة الغناء الشريفةفأقمنا بها أيام عاشوراء مقدار ما صلينا جمعتين بملازمة المسجد النبوي وتلاوة قرآن ودعاء وابتهال إلا أن نخرج لزيارة أهل البقيع من زوجاته وبناته ومن به من الصحابة والتابعين أولزيارة أحدوقبر عمه حمزة أوزيارة مسجد قبا ثم خرجنا مودعين صاحب الروضة زائرين مدينة السلام بغداد عن طريق الشام للأمن واتقاءً لقطاع الطريق من اللصوص الذين لا ينالهم حكم السلطان ولا يخشون الله» اهـ.

إلى هنا انتهى الحديث عن الرِّحلة الحجازية، وقد عقَّب عليها بقوله: «وفي هذه الأيام التي وقع السَّفر من **طيبة** إلى **الشام** جرَت بوطننا الوهراني فتنة وراءنا، وكان متولي أمر الناس وقتئذٍ بها في **تلمسان** ونواحيها إلى **مليانة** ونواحيها وما بينهما **حسن بايلار** على يد **بايلار الجزائر حسين باشا** وهو أنه ثار عليهم صاحب **عين ماضي** واسمه **محمد بن احمد التيجاني** أخو هذا الذي هو بها الآن ».

ثم انتقل للحديث عن محاربته أيام حكمه، وأنه حاصره بـ: **عين ماضي** تسعة أشهر، ثم ذكر بتفصيل أسبابَ محاربته إياه سنة 1256هـ، ثم استأنف الحديث عن الصلح بينه وبين الفرنسيِّين ـ أي: المشهور بـ: **معاهدة دو ميشال** ـ ثم تكلَّم عن ظروف البيعة « التي أذعنت لها الأعراش على إثرها، وجاءته الوفود بالهدايا مِن كل ناحية، فأول شيء ابتدأ به النظر في أمر القضاء واختيار العدل لها في كل موطن، والسؤال عن المؤتمنين في كل قبيلٍ لتعيينهم في جباية الأموال، بعد أن ولَّى كبيرَ كلٍّ وفد على قبيلته، عاملا بالأثر الوارد عَن **عمر ابن الخطاب** (رضي الله عنه)، فحين استقرَّ الأمر وانتظم، واجتمعت الكلمة بـ: **أم عسكر** وتعيَّنت إمارته في جميع الأرجاء القريبة، واستمع أهلها للأمر والنهي، شرع في السَّفر»، إلى أن قال: «فابتدأ بموطن مينة وشلف وما والاهما من المحال وغيرهم، فجاء كلُّ رئيس بمَن معه مِن قبيلته، منهم وفد الحاج **محمد بن** سيدي

عريبي، وكان الوالد سافر معه في تلك المدَّة، فاستشاره في ولايته فولَّاه خليفة على تلك النواحي كلها إلى **وادي الفضة**، ومن هناك، ثم على رسله مغربا إلى **أرزيو** فقبض قاضيها سيدي أحمد ابن طاهر لأنه أول من ابتدأ الإفساد بنقض البيعة وأوصله إلى أم عسكر وسجنه بدار سكناه وجعل البواب ناظرا عليه فجاء ذات يوم فوجده فأرا طالعا إلى كوة ليهرب منها ثم استطرد في الحديث عن الخليفة **العريبي** الذي أقره في عمله بإشارة من والده فذكر أن الذي تولى تحرير رسم البيعة بعد توليته هو الأديب النبيه الفصيح البليغ السيد محمد بن الطاهر من أولاد بن حواء القاطنين ما بين **الفج** و**مينة** و**عين موسى** و**أبرطيل** ـ وبين قوسين هذا المحل في الشمال الغربي مدينة **غيليزان** بنحو 15 كيلومترا ـ فجاد في ذلك الشرط وبلغ فيه غاية البراعة بلاغة وبراعة وحسن مطلع... الخ».

هذا ما تمكَّن وما سمح لنا به مجال هذه الدِّراسة من النقاط التي اخترناها من **مذكِّرات** الأمير، وقبل الختام أذكر أن الرسالة التي تحدَّثنا عنها ـ أي: التي كتبها والده في طريق عودته مِن الحجِّ ـ لا يسعنا الوقت لنقل ولوأهم فقراتها، وإنما نذكر أنها كتبت بعد الحجِّ الثاني، وكتبها لشقيقه السيد علي أبوطالب مِن جزيرة قبرص، ذكر له فيها أفراد الأسرة وسكَّان القيطنة الذين كان يشتوَّق إليهم، ثم ذكر الأهوال التي صادفتهم في طريق الذَّهاب ومدَّة الإقامة بمصر، والمسافة بين مصر ومكة، ثم ذكر أن أهل مصر في تلك السَّنة لم يذهبوا إلى الحجِّ للفتنة الموجودة بين المماليك ومحمد علي، كما أشار إلى الفتنة في الحجاز بين أمير مكَّة والوهابيِّين، وحاول أمير مكة تجنيد الحجَّاج المغاربة فامتنعوا واستعملوا السلاح بأمر منه ـ أي: محي الدين ـ ثمَّ ذكر رفقاءه واحدا واحدا وهم كثيرون مِن مختلف بلدان القطاع الغربي، وذكر أن أحدَهم عجز من السَّفر واشتدَّ به الألم وطلب البقاء هناك، فاكترى له بيتا بمدينة أمعان ـ شرقي الأردن ـ ويظهر أنه لم

يبق معه مال، ولذا باع كساءه كما عبَّر عليها، وهي ما يسمَّى الآن بـ (الشملة) أو (الكسي)، ولا زالت مستعملة خصوصا عند الإخوة الإباضية، حيث إنها لباس رسمي للعزَّابة، كما وصف في الرِّسالة جزيرة قبرص.

ولنرجع إلى **مذكِّرات الأمير**، فإنه أثار قضية أستاذه **أحمد ابن الطاهر**، كما أثار قضية الخليفة **العريبي**، لأنَّ الصحافة الفرنسية إذ ذاك كانت حملت عليه أن الأول ذهب ضحيته رغم كونه أستاذ **الأمير**، واتُّهم بأنه كان مواليا للفرنسيِّين، حيث كان يموِّن جيشَهم المرابط بـ: **وهران** إثر قرار **الأمير** بمقاطعتهم، والثاني ـ أي: **الخليفة** ـ وأظهر أنهما نقضا البيعة، وأن **الخليفة** مات موتا طبيعيا إلا أنَّ صهره محمد الطاهر بن حواء الشاعر الشعبي الذي ذكره الأمير بأنه حرَّر رسم البيعة أذاع رواية القتل وطالب بأخذ الثأر وهجا الأمير وقومه:

شي ثار قلبي وبيع الربيع النجال	فحل الفحول حمادي غاس اخيالو
الحزن واجب علينا سيور الجهال	انطوى أعلامنا واندرست حيال
الغرب زهرت انجومه وارجعلو الحال	الشوق حد حرمه وانمسى هلالو
مات العقيد محمد غير بلا قتال	ولا عليه هيلات اطموم ايشالو
ولا افنات فرسانه بدق النضال	قعدوا محيرين ايمان واشمالو
الامان وصلت لشمايت عز الدلال	طاقوا بغير حق امقدر مقتالو
قتلوه موت غفلة ما هوشي بالقبال	في اديار امظلمه متوثق بكبالو

فراش

مدوا ايديهم اغريس وعملوا ما ابغاوا	في الشرق ذا المعرة وجريمة كاينا
الأجبال شوم طاح وامساهلها واعلاوا	ولى الجران يأكل ثعبان أحيانا
أمنين كان عمر انجومه ما ادواو	امنين مات محمد زال اهنانا

خشاش الأرض طلعت واثعالبها عـواو   والصيد ذل مـا قعـدت فيـه اخشـانا
تعلمو فينـا الحكومـة مـن لا اسـواو   وارمـاوا في الجبـل دار فينـا عاهانـا

... الخ.

هذه بعض النِّقاط التي تعرَّض لها **الأمير** في كتابه ليبرِّر موقِفَه ويدفع التُّهم التي اتَّهمه بها الرأي العام الفرنسي الذي تبنَّى المعارضة، وكانت أولى لبناتها مَوقف الرَّجلين: الخليفة، والقاضي، ثمَّ ألحقت بهما البقية، كـ: **مصطفى ابن إسماعيل**، وغيره، وقد التفَّ حول **الأمير** حتى أقارب ضَحاياه، إذ كانوا يرَونَه منفِّذا للشَّرع، خصوصا وأن سلوكه الشَّخصي صار مَضرب الأمثال، فهو الذي كان يقود جيشَه لساحات الوغَى، وهو الذي يصلِّي بهم الصَّلوات الخمس، ثمَّ يدرِّس بعد صلاتَي العشاء والصُّبح، كما وفِّق عند اختياره للنُّخبة المتخرِّجة مِن معاهد الرَّاشدية، فكانت له وفية، وقف رجالُها مَواقفَ الأبطال، وصمَدوا وثبتوا أمام هجومات قادة الجيش الفرنسي، الذين كان مِن بينهم كثير مِن كبار الضُّبَّاط المشهورين، الذين خاضوا غِمار حروب **أوروبا** و**آسيا** مع **نابوليون الأول**، ولم يكتفوا بالدِّفاع بل خلَّدوا انتصارات باهرة، منها **واقعة وادي المقطع**، وأخيرا ـ أي: قبل نهاية الحرب ـ **واقعة الكركور** المتحدَّث عنها، وإنَّنا نرى أن الفضل في ظهور **الأمير** وانتخابه ملِكا يرجع لعلماء **غريس** وإلى البيئة، حيث إنه عندما استسلم **باي وهران** وانصدعَ صرحُ الإدارة التُّركية سادَ الاضطراب، ورجعَت كثيرٌ مِن القبائل إلى شنِّ غارات انتقام على بعضِها بعض، فكان مؤتمر علماء **غريس** المشهور واختياره لوالد الأمير السيد **محيي الدين** الذي لم تكن له عشيرة قوية، وإنما المقاييس التي روعيت في اختياره هي أوصافه التي خاطبه بها أحد تلامذته عندما سُجِن بـ: **وهران**:

عوِّل على الصبر لا تفزعك أشـجان   ولا تَرعـك بـما فاجتـك وهـران

لم يثقفـوك أمحيـي الـدِّين عَـن زلَّـة رأوا، ولكن أشـقى القـوم شـيطان

إنَّ العواقــب في القــرآن ثابتــة للمتَّقــين وصــدق القــول قــرآن

وأنــت والله لم تــزل عــلى سَــنن يهـدي إلى الحـقِّ لم يملـك طغيـان

تقري الضيوف وتسعى في حوائجهم وتحمــل الكَــلَّ لا غِــشَّ ولا ران

تــدرس العلــم مــرَّة وثانيــة تلقــي الــذكر والفــؤاد يقظــان

والله أســـأل أن أراك منطلقـــا تسعى وما حواليك حرَّاس وأعـوان

وقد صوَّر حالةَ البلاد قبل انعقاد المؤتمر بشهور قليلة أحدُ أقارب **الأمير** الذي يجتمع معه في الجدِّ الرابع، حيث ذكر في مقدِّمة بعض تآليفه: «لما وهن العظم واشتعل الرأس شيبا، وبلغت من الكبر ما ينيف عن نيف وستين، وعلمت النفس علم يقين أنها راحلة في عسكر الراحلين، وعظم الداء وعزَّ الدواء وفقد الأطباء، لاسيما سنتنا التي هي المحرَّم فاتح 1248، فقد اشتدَّت فيها المحن، وكثرت الفتن، من يوم خربت الجزائر وثغر **وهران** بسبب الروم الفرنسيس، وذلك بأول محرم الحرام فاتح 1246، فخلت الأرض مِن الحكَّام، وكثر القتل والهرج والخصام، وتعطَّلت الشرائع وعمَّت الذرائع، وذلك مِن عمالة **تونس** إلى بلاد **وجدة**، والمؤمن في الحيرة كالشَّاة في الليلة الممطرة، وإن كان للحكَّام ظلم وجور فهم أولى مِن أهل الفسق والفجور، وبفقد الحكَّام يفسد الدين والدنيا، ويموت الإنسان موت جاهلية، فالتجأت إلى الله عزَّ وجلَّ في جمع تأليف يكون إعانة للطالب في كل المطالب، وفي كل طريق كالرفيق الشفيق ... الخ ».

وبعد أن أنهى الحرب وأطلق سراحه واختار بلاد **الشام**، استأنفَ حياتَه التي نشأ عليها في معهد والده البسيط، الذي أحسن وصفه، وأجاد المؤرِّخ **أبو راس** حيث قال: «إنه عبارة عَن نوالة كبيرة» ـ أي: كوخا كبيرا ـ فتفرَّغ لنشر العلم وجمع العلماء وإحياء التراث، فلم يتنكَّر لماضيه، وهذه الصفات هي التي راعاها له شعبه، خصوصا

الطبقات المثقَّفة منه، وهذا الشاعر الشعبي **الطاهر ابن حواء** الذي كان أوَّل مَن هجاه ودَعا قومَه لطلب الثأر والانتِقام منه، لأنَّ **الأمير** كان كثيرا ما يسجنه، فقد تذكر عهدَه وودَّعه بقصيدة مؤثِّرة، وهذه بعض أبياتها:

آه على الدولة الناعمة السعيدة	ناس التقى والدين والتقى والثبات
والعقل الراجح والجدة والنجدة	بكياسة ورياسة وفخر متواليات
ساروا بالسيرة الواضحة الحميدة	بهم فرحت الإسلام والخليقة ارضات
بأحكام راضية هانية سعيدة	بهم سعدت الأوطان وانطبع بالحياة
عدلوا فيها وأقوالها ارشيدة	ما زاغوا ما طاغوا ما الهاوْ بالفانيات
ما تركوا حق ولا ارضاو بفدية	ما فيهم ما يعاب طاهرين الذوات
بقواعد الشرع أقوالها اقتدو	حكموها شرق وغرب كل ملة اهدات
عفس بخيول السيق كل بلدة	رايسهم عنتر عبس فارس الكائنات
طرشون إلى تضنى الداه ولده	عبد القادر قدره عظيم رتبه اعلات

جامع مانع ملحوظ بالزيادة

إلى أن يقول:

آه على الناس الكرام	عاليين المقام
كانو ركن الإسلام	عز الله انضام
ركبوا فلك التعوام	في بحور الظلام
قفرت منهم الارسام	فاخرين العلوم
من يوصلهم ما يرام	ما اتسوده اهموم
راحوا لأرض الشام	واضحاو كالنجوم

محمد بن رحَّال الندرومي[1]

هو **محمد بن حمزة بن رحَّال** المولود بـ: **ندرومة** في 16 ماي، 1858 تربى في حجر والديه الشيخ **حمزة** الذي كان من أمثل علماء بلاده، وبعد أن تناول معلوماته الأولية على العادة المتبعة إذ ذاك التحق بالمعهد الملكي الفرنسي بالعاصمة، حيث نال شهادته الثانوية بالفرنسية.

وفي سنة 1878 ذهب إلى **باريس** للحضور في **المعرض الأممي**، فاغتنم هذه الفرصة للالتحاق بجامعة **الصُّوربون**، ونال شهادة الليسانس في الآداب الفرنسية، وفي **باريس** تعرَّف بعدَّة شخصيات علمية، منها الكاتب الشهير **ڤستاف لوبون** (Gustave Lebon)، صاحب كتاب: **(تاريخ الحضارة العربية)**، الذي تبادل معه المراسلة فيما بعد.

وفي سنة 1892 عندما أرسلت الحكومة الفرنسية لجنة بحث مكونة من أعضاء مجلس الشيوخ تحت رئاسة الوزير الشَّهير **جول فيري**، كان من جملة مَن اتَّصلت بهم هذه اللجنة مترجمنا الذي رافق الطبيب **محمد بن العربي** (عضو المجلس البلدي) بمدينة **الجزائر**، وقد كانا أعدَّا لهذه اللجنة المطالب التي رأياها مستعجلة إذ ذاك، وهذه المطالب تشمل إصلاح القضاء الشَّرعي، والضَّرائب، وإعانة الفقراء والمساكين، وإصلاح التعليم وتعريبه، وقد تعرَّضتُ لهذه المطالب وما أثارته إذ ذاك في العدد الثَّامن لمجلَّة **الأصالة** (المؤرَّخ في جمادى الأولى 1392 الموافق لـ: ماي 1972)، كما شارك المترجَم في مؤتمر المستشرقين المنعقد بـ: **باريس** سنة 1897م، وألقى فيه محاضرة قيِّمة عنوانها:

---

(1) اعتمدنا في إثباتها على نسخة خطية تقع في صفحتَين.

(**مستقبل الإسلام**)، وقد لخَّصتُها في العدد المذكور مِن مجلة **الأصالة**، وثمَّ نجد للمترجَم مواقفَ بطولته في مجلس النواب المالية الذي كان يهيمِنُ عليه غُلاة المعمِّرين في العشرينات مِن القرن الجاري الميلادي.

أحمد بن يحيى بن قدور
بن عبد القادر بن أحمد المختار الشراطي(1)

كان له معهدٌ قرآني بـ: **أولاد فارس**، وتمكَّن مِن جمع خِزانة تشملُ عدَّة مخطوطات نادرة، كما كانت له مواقف ونشاطات تدلُّ على حيويته وحرية الفِكر، وكان يساعده صديقه العالم الشيخ **الجيلاني بن المنور المجاجي**، وقد كان لهما اتِّصال ببعض المهاجرين الجزائريِّين في **المدينة المنورة**، ولما ظهرت تآليف العالم الهندي **صدِّيق خان**، انتصر الشيخان **الجيلاني بن المنور** و**أحمد الشراطي** له، فلما اطَّلع الشيخ **عثمان ابن عبد السلام الداغستاني** (مفتي المدينة المنورة) على ذلك كاتَبهما، وهذه فقرات مِن كتابه: «المسمَّى بـ: **صديق حسن الهندي**، زوج الهِندية، امرأة مِن حكَّام الهند على يدِ الإنكليز الوهابي المشهور، وإن أعجبكم وظهر لكم أنه مجتهد ومجدِّد الوقت مِن غير معرفة له، وما هو منطوٍ عنه مِن الضَّلال والغواية ... وسببُ تطاوله على أهلِ السنَّة [أنَّه] كان له مال عظيم، وجاه عريض، بسبب ولاية الإنكليز لزوجته، وهو وزيرها، وقد طغى بسببِ ذلك، وأبى أن يشكر نِعمةَ الله تعالى، ولم يُرد إلا زيادة العلوِّ والانفراد بالجاه، واستنكف أن يكون مشاركا للأمة فيما هم عليه مِن الإتباع للسَّلف الصالح، بل أراد أن يخالفَ الجميع، لحصول الصَّيت والشُّهرة، والعجب منكم أيها الأجلة العِظام، من عدم التثبُّت والتَّحرِّي في الدِّين، مع أنكم أنتم أهلٌ ذلك، وكيف يحسن بأمثالكم بِمجرَّد ما

(1) اعتمدنا في إثباتها على نسخة خطية تقع في أربع (4) صفحات.

رأيتم سَوادا في بياض أخذتُم به وتمسَّكتم وانشرحَت صدوركم له، ولم تعرفوا القائل ولا حِليته، ولا مذهبه ولا عقيدته، مع معرفتِكم للكتبِ المجهولة أربابها لا يجوز العمل بها ... والحاصل أننا تحيَّرنا في شأنكم غاية التحيُّر، في هذِه النزعة الشيطانية كيف وصلتكم، مع أنهم يقولون: إن مذهب مالك خالٍ مِن البدع، وأيضا أنتم قد صمَّمتم على اتِّباعه والاقتداء به، وقلتم: يجب اتباعه ومخالفة غيره، ولعمري والله هذه جسارة وتهافت في دين الله ...الخ».

وكان الشيخ **أحمد الشراطي** عندما اطَّلع على تأليف **صدِّيق خان**، المسمَّى بـ: **(الروضة الندية في شرح الدُّرر البهية في الأحكام الفقهية)**، أعجِب به فردَّ عليه بعض فقهاء البلاد، وأظنُّ أن صاحبَ الرَّدِّ هو العلَّامة الشيخ **شعيب البوشعيبي الأزهري**، صاحب **(معهد سردون)**، فكاتبَ الشيخُ **أحمد الشراطي** بعضَ معارفه مِن المهاجرين الجزائريِّين المقيمين بـ: **المدينة المنورة**، كانوا متَّصِلين بالعلماء هناك، ليستفتونهم، وهذه فقرات مِن كتابه: «لما فتح الله علينا بوجود مجتهد الزَّمان، وفارس الحقِّ والبيان، السيد **حسن صديق الهندي** المنتسب إلى ذرية سيد ولد عدنان، وألف التآليف الكثيرة الحسان، وعمت جميع الأقطار والبلدان ووقع بأيدينا كتابه الذي سماه «**الروضة الندية شرح الدرر البهية في الأحكام الفقهية**»، فاستحسناه وقلنا بصحة ما فيه من الأحكام وحكمنا بصحة تقليد من يقلده من الأنام، فأنكر علينا كثير من طلبة بلدنا المنتسبين إلى العلم ولا معرفة لهم بتحقيق الفروع والأصول، ولا مجال لهم في علم المنقول والمعقول، فكتبنا رسالة لمن نعرفه من بعض المهاجرين من بلدنا بالمدينة المنورة...الخ»، وكان تاريخ هذه الرسالة سنة 1306هـ.

1

أحمد بن يحيى بن قدور بن عبد القادر بن أحمد
المختار الشرافي

كان له معهد قرآني بأولاد فارس وتمكن من
جمع خزانة تشمل عدة مخطوطات نادرة كما
كانت له مواقف ونشاطات تدل على حيوية
وحرية الفكر وكان يساعده صديقه العالم
الشيخ الجيلاني بن المنور المهاجي وقد كان لهما
اتصال ببعض المهاجرين الجزائريين في المدينة
المنورة ولما ظهرت تآليف العالم الهندي
صديق خان فاتصل الشيخان الجيلاني بن المنور
وأحمد الشرافي له فلما اطلع الشيخ عثمان
ابن عبد السلام الداغستاني مفتي المدينة المنورة
على ذلك كاتبهما وهذه فقرات من كتابه: "المسمى
بصديق حسن الهندي زوج الهندية امرأة من حكام

جوانب من ترجمة حياة الشاعر الشعبي
سيدي الأخضر ابن خلوف[1]

اسمه الحقيقي: **الأكحل بن عبد الله**، واشتهر بـ: **الأخضر بن خلوف**، المزيلي المغراوي حيث ينحدِر مِن سُلالة **أولاد خلوف**، قبيلة **مزيلة** بإمارة مَغراوة ، ولا زال قبره محط رحال الزوَّار منذ ما يقرُب مِن خمسة قرون، وقبل أن أتَناول بالبحثِ الخطوط العريضة مِن ترجمة حياتِه نَذكر بإجمالٍ نبذةً مِن تاريخ إمارة مغراوة التي كان مَوقعها ما بين سهول **مليانة** و**مستغانم** ... الخ.

لعِبت هذه الإمارة أدوارا في تاريخ البلاد الإِسلامية، فكانت أوَّل دولة إسلامية بـ: **الجزائر** بعد الفتوحات الإسلامية مباشرة، إذ كان زعيم القبيلة **صولات بن وزمار** وقع أسيرا عند الفاتحين، وسيقَ صُحبةَ الأسرة إلى الخِلافة، فأَسلم على يدِ الخليفة **عثمان بن عفان** فمنَّ عليه وأقره على حكم إمارته فتوارث أبناؤه حكم أول دولة إسلامية بـ: **الجزائر**، وعرفت هذه الدولة بدولة مغراوة إلى أن لفظت أنفاسها سنة 360 هجرية إثر حروب طاحنة بينها وبين دولة العبيديين الفاطميين ثم تكونت من أفراد هذه القبيلة دولتان سجلهما التاريخ الأولى عرفت بدولة بني خزرون ستين وثلاثمائة هجرية إثر اكتساح بلاد المغرب العربي من طرف الدولة العبيدية الفاطمية، والدولة الثانية أو

---

(1) اعتمدنا في إثباتها على نسخة خطية تقع في ستٍّ (6) صفحات.

الإمارة تكونت بطرابلس ليبيا عرفت بدولة بني خزرون أما الدولة الثالثة، فقد كونها بنوا منديل واتخذوا مازونة قاعدتها في القرن السادس الهجري بإعانة دولة الموحدين، وإن أقل نجم هذه الدول الثلاثة فقد احتفظت الخريطة الجغرافية بإطلاق اسم القبيلة على المنطقة، أي ما بين سهول مليانة وبلاد مستغانم إلى زماننا هذا أنجبت إمارة مغراوة في مراحل دولها الثلاث زيادة على أبطال حروب اشتهروا في بلاد المغرب العربي والأندلس علماء أجلة خصصهم معاصروهم بتراجم صافية أحفظت لنا بهم كتب التراجم، وقد كان الشاعر سيدي الأخضر ابن خلوف أبرزهم حيث نجده في قصيدته التي ركزنا عليها هذه المحاضرة يشير إلى اتصاله بإمارة مغراوة، وذلك عندما كان يحرض القبائل التي رافقت الباشا حسن بن خير الدين الذي تصدى لرد عدوان الأسبان الذين هاجموا مدينة مستغانم، وقال:

يـــا مغـــراوة اتحزمـــوا للكيـــد مـنكم خلقـت أسـلاطنا وأجـواد

وهذه المنظومة التي خلدها التاريخ لشاعرنا سيدي الأخضر لا زالت محل عناية المعاصرين إذ توارثها الرواة أب عن جد لها أهمية عظمى امتازت بها، وهي وإن كانت تشتمل على حوالي مائة بيت فقد جمعت ما لم تسعه المجلدات الضخام، فقد تعرض سيدي الأخضر إلى المعركة وموقعها، وهي وإن لم تطل مدتها إلا ثلاثة أيام فقد خسر فيها الجيش الاسباني حوالي عشرين ألف جندي بين أسير وقتيل كما بين فيها الطريق الملتوي الذي يسلكه قائد الجيش الإسباني «ألكنت دالكادوت» إذ بدلا من أن يسلك الطريق المشهور الرابط بين وهران ومستغانم أظهروا على أنه ساق عيشه لمناورات حربية بناحية تاشلة إلا أن حيلته لم تفت على المجاهدين حيث كانوا له بالمرصاد،

ولذلك أرسلوا رسلهم إلى العاصمة لينذروا الباشا حسن حيث يعد أهبته وبالفعل جهز جيشه والتحق بمستغانم، وقد تعرض الشاعر لكل ما ذكر أي محاولة العدو مفاجأة الباشا، كما تعرض لذكر المراحل التي مر عليها الجيش وللحاق روسا، القبائل به، وذكر معالم البلد الجغرافية وأسماء القبائل والسكان هذا وإن ظهرت عدة تآليف في وصف هذه المعركة استقاها أصحابها من الوثائق الحربية الرسمية، ولا زالت محل عناية مؤرخي ...

1

جوانب من ترجمة حياة
الشاعر الشعبي سيد الأخضر
ابن خلوف

اسمه الحقيقي الأكحل بن عبد الله
اشتهر بالأخضر بن خلوف المزيلي
المغراوي حيث ينحدر من سلالة أولاد
خلوف قبيلة مزيلة بامارة مغراوة
ولا زال قبره محط رحال الزوار منذ
ما يقرب من خمسة قرون وقبل أن أتناول
بالبحث الخطوط العريضة من ترجمة حياته
نذكر بإجمال نبذة من تاريخ امارة
مغراوة التي كان موقعها ما بين سهول
مليانة ومستغانم اذ لعبت هذه الامارة
أدوارا في تاريخ البلاد الاسلامية

Histoire culturelle de l'EMIR Abdelkader

L'Histoire de l'EMIR Abdelkader a donné matière à un très grand nombre d'écrits dans lesquels, les œuvres de langue Française constituent la majorité.

Peu d'auteurs cependant ont fait places dans leurs travaux à l'éducation et la vie culturelle de l'EMIR Abdelkader et quand ils l'ont fait, ils se sont bornés, à énumérer quelques noms de ses professeurs et quelques dates de son enfance.

Le petit fils de l'EMIR lui-même, dans sa"TOUHFAT EZZAIR FI MAATHIR ILAMIR Abdelkader" n'a rapporté de manière anecdotique que quelque noms de personnes ou quelques faits se rapportent à la vie étudiante de son grand frère.

Des documents récemment mis à jour ou publiés: livres correspondances, fetouas, gasidas découvertes dans des bibliothèques publiques et privées nous permettent de présenter cet exposé sur les aspects encore ignorés de la vie intellectuelle de l'EMIR, son éducation culturelle, ses éducateurs et ses différents professeurs, ainsi que le milieu culturel de la région dans laquelle il a vécu son enfance: LA RACHIDYA ou pays du GHRIS.

Les ulémas de la RACHIDYA ontacquis une grande renommée intellectuelle dans tous les pays du Maghreb où leurs œuvres faisaient autorité notamment dans les sciences juridiques du rite Malekite et en théologie.

Le Cheikh El-Magarri Ettilimçani a indiqué dans son commentaire de la "Soghra" de l'Imam ESSENOUCI: "j'ai enregistré les enseignements de nos maîtres de TLAMCEN dans mon enfance et d'autres maîtres parmi les savants de BENI-RACHED, avertis dans cette matière".

Nous constatons par ailleurs que beaucoup d'Auteurs Contemporaires jugeant la valeur des ulémas de cette époque n'hésitent pas à affirmer que leur savoir ne dépassait point la connaissance du Coran et du droit Musulman de Khalil, sans plus.

Ils ne font en cela, qu'adopter l'opinion de certains Auteurs Etrangers qui s'efforcent de prouver que l'Administration Turque a mené une politique obscurantiste et décadente.

Certes l'état général des connaissances intellectuelles de cette époque n'était pas dans notre pays très élevé mais le phénomène était général à travers tous les pays Musulmans et beaucoup d'autres Régions dans le monde. Nous pouvons affirmer toutes fois que le niveau intellectuel n'était pas et beaucoup s'en faut au plus bas de l'échelle mondiale.

Les critères de valeur n'étaient pas ce qu'ils sont devenus par la suite, ni les diplômes hiérarchisés, les disciplines spécialisées n'avaient cours dans nos régions.

Toutefois les études supérieures étaient sanctionnées par YJAZA(Attestations) qui permettaient d'apprécier d'une manière très détaillée très précises les niveaux des connaissances acquises par les étudient.

Ces attestations précisent les matières étudiées, les références des signataires remontant jusqu'à l'Auteur du livre étudié, les mérites, le sérieux, l'assiduité les efforts, lauréat, sa conduite, ses aptitudes, les professeurs cités dans les références, leurs dates de naissances et décès, la période des études, lieux de délivrance, les personnes présentes aux examens.

L'analyse de se genre de documents auraient permis d'éviter des erreurs d'appréciation sur les éducateurs de l'EMIR.

Le 1er son père MAHIEDINE que beaucoup considèrent comme un simple Fquih n'ayant enseignés que les Coran et Khalil.

Dans un document, un discipline du Cheikh MAHIEDINE énuméré les matières. Qu'il lui avait enseignées.

L’exergére du Coran, Hadith, la grammaire, la réthirique, les sources du droit Musulman, la mystique.

Les matières apprises par l’EMIR dans le modeste Institut familial est le produit des principaux institues scientifiques des pays Musulmans: Azhar, Zeitouna et karaouyine etc...

L’EMIR Mohamed fait l’historique détaillé des études des Membres de sa famille.

Il concorde avec l’unanimité des historiographes de la Rachidya.

Son arrière grand-père: ABDELKADER BEN KHEDDA ERRACHIDI: Auteur de plusieurs écrits dont la plus connu est son commentaire de la Soghra de l’Imam SENOUCI.

SON FILS AHMED EL MOKHTAR Fondateur d’un Institut d’études à MASKARA, alors capital de l’Ouest Algérien s’est installé à Nesmoth devenus depuis résidence de la famille et lieu d’enterrement des ascendants des l’EMIR.

Enumération des présents:(Non et profession) diplôme de SAID KADDOURA EL DJAZAIRI à Solima, Erroudani Essousi.

ABDELKADER IBN EL MOKHTAR (SIDI-KADDA), Fils du président.

MUSTAPHA BEN MOKHTAR Constructeur du Village El Ghetna, voisine des Bains Thermaux actuels Sidi Bou Hanifia où il a fondé son Institut.

C’est dans cette agglomération que ? naquit l’EMIR Abdelkader 1222. (1808).

L’Institut fut fondé en 1990, destiné aux études, sous la Direction du plus illustré parmi les savants de la Rachidya: le savant penseur AEELKADER BEN ABDELLAH EL MECHERFI Dont l’autorité intellectuelle fut unanimement reconnue, qui lui valut le surnom d’Imam Errachidie.il est l’auteur de nombreux écrit, dont le plus connu est le libre Bahdjat Annadhir, qui relate les événement qui survient la première libération d’ORAN

(1420H.1777) après une occupation espagnole de plus de 2 siècles et essentiellement à l'énumération des tribus qu'il ont collaboré et prête leur aide à l'occupant et leur situation devant le droit Musulman. Corrigé et édité par le professeur Mohamed Ben Abdelkrim Ezzemmouri, ce libre à une grande valeur dans son genre, il faut toutefois corriger une erreur dans le nom de l'auteur qui a été confondu avec son petit fils IBN ABDELLAH Saquet qui fit un Khalife de l'EMIR Abdelkader.

L'auteur du livre quant à lui est mort une trentaine avant la naissance de l'EMIR je profite de cette même occasion pour relever une autre erreur dans TOUHFAT EZZAIR où il est mentionné que l'institut de la Guetna fut fondé par MUSTAPHA BENEM LOKHTAR en l'an 1206h.

Cette date se retrouve chez tous les auteurs qui se sont référés au livre. En vérité la fondation de l'institut remonte aux environs de 1190 comme nous l'avons déjà indiqué.

En effet un première directeur, Abdelkader ben Abdallah El Mecherfi est mort en 1192, date confirmée par l'ensemble de ses biographes, dont son disciple, l'histoire Mohamed Bouras Ennassiri Errachidi, qui site cette date dans une élégie composée à l'occasion de sa mort

D'Autre part Mohamed BOURAS relate sa première visite à la GHETNA dans ces termes: « Je me suis rendu un jour à la ghetna…Je me suis arrêté devant la porte de la mosquée. C'était une grande nodale (chaumière) avec son mihrab. A droite se trouvait une pièce occupée par le Cheikh el Mecherfi.

J'ai vu le cheikh MUSTAPHA BEN EL MOKHTAR, un élève de ce cheikh qui faisait un cours sur la première partie du MOKHTACAR (KHALIL).

Je suis revenu, une heure après j'ai vu le cheikh Mustapha El Battioni enseignant dans la seconde partie (du Mokhtacar divisé en quatre parties). Aucun étudient ne fit attention à moi, ce fut si je n'existais pas»(fin de citation).

Après cette visite, le Cheikh BOURAS se rendit à MAZOUNA où il est

arrivé alors atteignait selon ses propres termes l'âge de son premier jeune de Ramadhan (Age de puberté, le Cheikh BOURAS est né en 1165 il est à la date de 1206 indiquée dans la Touhfat, il avait 41 ans.

Le cheikh MUSTAPHA BEN EL MOKHTAR est mort en 1212 à BARGA(Lybie) sur son chemin de retour de la Mecque.

C'est son fils MAHIEDINE, né à Nesmoth en 1190 qui lui succéda, dans la direction de l'institut et dans les cours j'ai retrouvé un document.

Dans un document composé sous forme d'élégie à l'occasion de la mort du cheikh MAHIEDDIN, un de ses disciples cite des déférentes disciplines dans lesquelles il enseignait Ibn Hadjib et Khalil (sciences juridiques) Alfyat Ibn Malik (grammaire arabe) Sâad, Soullem (logique) Djamaa el djaouamia (sources du droit), exégèse du coran et Hadith.

Ce disciple a acquis par la suite une grande notoriété: il s'agit du spécialiste du Hadith, le cheikh Mohammad Ben Mâarouf Ben Henni El Ouencharissi qui devint Cadi de Médjadja (région de l'Esnam) avant de se voir confier par l'EMIR la direction des affaires de l'administration et de la justice dans la partie Est de pays. Il se retira par la suite à Tunis ou il enseigna le Hadith. Le deuxième maître enseignant de l'EMIR, fut le Cheikh Abdallah el Mansouri qu'il a eu pour élève du Coran et du droit, au douar Rhamna à mi-chemin entre Sig et Arzew.

Ce Cheikh dont les historiographes de l'EMIR ne firent aucune mention est resté en rapport étroit avec l'EMIR auquel il a rendu à Damas une visite qui a durés une année entière. Il a composé en langue parlée de ces descendants connaissent par cœur, a ce jour.

Le Cheikh Ahmed Ben Tahar, Cadi de bethioua est le troisième enseignant de l'EMIR. Ce personnage que tout historiens connaissant par la fin dramatique qu'il connut puisqu'il a été condamné à mort pour haute trahison par le conseil de magistrature de l'EMIR et exécuté à MASCARA. AUCUN auteur cependant ne s'est préoccupé de sa vie d'enseignant ni de ses travaux littéraires.

Notre récente mise a jour du"Dalil El Hayran oua anis essahran fi akhbari

mandinati Ouahran” nous permet de la trouvé présenté par l’auteur parmi les oulémas d’Oran.

Nous l’avons retrouvé encore dans “Zahr El Adab” du cheikh Mahmoud Ben El Cadhi Tahar Ben Haoua qui s’est distingué dans le commandement du Ribat du Bey Othman sur la ville d’ORAN, jusqu’à sa mort au combat peu avant la reconquête turque de cette ville.

Tahar Ben Haoua cité le Cadi de Bethioua parmi les commentateurs de la Cacida dédiée au prophète par Mouslim Ben Abdelkader El Himiari. Il écrit “parmi eu, l’illustre et honorable: le généreux et glorieux Aboul Abbas Ahmed Ben Tahar Cadi d’Arzew qui a commenté la Ainya”.

Nous apprenons ainsi que Ahmed Ben Tahar Cadi d’Arzew au temps de l’administration turque, donc plus de dix ans avant l’avènement de l’Emir. Le cheikh Essenouci Ben Abdelkader Errachidi figure sous la liste des maîtres enseignants de l’EMIR.il appartient une famille disciple des cheikhs Ezzoubeidi et Mohamed El Amir. Il est réputé dans sciences du Hadith et a écrit un fihrist très répandu parmi les hommes du Hadith, dans le Maghreb et un moyen Orient. Il a eu pour élève et pour maître à la fois le cheikh Abou Bas Ennaciri qui l’a présenté dans sa rihla dans ses termes: Notre maître dans les sciences philosophiques et élève dans les études du droit. Le cheikh Essenouci fut à son tour le disciple du cheikh Mohiédine. C’est lui qui lors de l’emprisonnement du père de l’EMIR par les autorités turques a exprimé son affliction et sa révolte dans une très célèbre et très belle qacida prends patience, que la douleur ne t’atteigne point et que ne t’afflige point la traitrise d’ORAN, ils ne t’ont pas pris sur une faute constatée mais c’est Satan le plus misérable des créatures. Le Coran a enseigné que la meilleure fin est réservée à ce qui demeurant croyants tu es toujours resté dans la voie qui mène à la vérité sans jamais céder à l’injustice.

Tu accueilles ceux qui t’approchent, soucieux de les servir.

Avec patience et égale humeur.

Tu veilles dans la nuit noire lisant de mémoire du coran.

Et tu te réveilles à l’aube comme l’astre embelli.

Tu dispenses la science puis inculque.

Le Dhikr l'âme en éveil

Je prie dieu de te revoir libre

Marchant sans garde et sans surveillance".

Lorsque la détention du cheikh MAHIEDINE fut transformée en résidence forcée à ORON, il fit venir son fils qui poursuivi alors ses études auprès des plus célèbres professeures de cette ville. Il avait auparavant assisté au cours de son oncle maternel Mohammed Ben Amina Ben Doukha qui est un Chroniqueur très connu. C'est lui qui rédigea dans la grande mosquée de MASKARA l'acte de la deuxième consécration de l'EMIR.

L'auteur de Touhfat Azzair relate ainsi la cérémonie qui s'est tenue à cet effet après un long sermon prononcé par l'EMIR, les oulémas se sont réunis pour mettre au point l'acte de consécration qui fut rédigé en leur présence par le vénéré Cheikh Mohamed Ben Abdelkader, oncle maternel de l'EMIR, plus connu sous le nom de Ben Amina.

Par l'un de ses actuels descendants, j'ai pris connaissance d'une Qacida manuscrite dans laquelle l'auteur, un proche parent du cheikh Ben Amina prononce une élégie sur les quelques quelque vingts membres de sa famille tués dans les rangs de l'armée de l'EMIR et sur leur tribu anéantie et abandonnée par ses habitants. Ce genre d'élégie collective est très usité dans la littérature arabe depuis le guerrier Oussama Ben Mouakid(488-584H) qui a composé une qacida de ce genre lorsqu'un tremblement de terre a détruit sa tribut corps et biens.

A ORAN, l'EMIR a été disciple du Cheikh Ahmed Ben Touham, son oncle par le mariage, père de Mustapha Ben Touhami Khalifat et compagnon d'Oril de l'EMIR qui se trouvait au commandement de la zone Ouest du pays lors de la dernière bataille de la guerre d'Algérie à el karkour prés de Maghnia, mais célèbre sous le nom de la bataille de Sidi Brahim.

Le Cheikh Ahmed Ben Mohamed Ben Hacéne Khodja El Mostéghanemi

Fut à ORAN le deuxième professeur de l'EMIR. Il était secrétaire du Bey Hacéne d'ORON et le frère de Hacéne khoudja auteur du "Dorr El Ayan

Fiakhbari Ouahran” qui a servi de référence à Mohammed Ben Youcef Ezzayani pour mon livre “Dalil Al Hayran”.

C’est là la liste des plus illustrés professeurs qui ont présidé à l’éducation et à l’instruction de l’EMIR. Nous devons maintenant dire quel était le climat politique et social après la disparition de l’armée turque et la débandade de leurs alliés locaux qui en majorité se sont mis à la disparation de l’armée française et combattu, tel Mustapha Ben Ismail à ses côtés.

Cette situation est décrite avec détail dans un document rédigé par un auteur inconnu j’jusqu’à la découverte de son manuscrit dans ses toutes dernières années.

Il s’agit d’un parent de l’EMIR: Mohamed Ben Larbi Ben Ouis descendent, comme l’Emir Abdelkader Ben Khedda Errachidi, intitulé “Zahir El Basatin Fi Bayani Elismi El Aâdham Bil Adillati Oued Barahim” se livre rapporte entre autres faits.

Dans cette année de 1248 H où les malheurs se sont aggravés, les désordres multipliés à cause de la destruction d’Alger et ORAN par les français en 1246, le pays a perdu ses chefs et ses administrateurs, les désordres les crimes, les discordes sont innombrables, la justice a disparu, l’insécurité règne de la province de TUNIS à la ville d’Origa le croyant est angoissé comme la brebis dans la nuit pluvieuse. Les administrateurs même injustes et corrompus sont préférables aux malfaiteurs et aux criminels.

L’absence des chefs aboutit à la dégradation du monde et de la réligion … etc.

D’autre auteurs, et notamment des cheikhs du monde rural ont exprimé des inquiétudes analogues devant ce phénomène dont les développements ont posé d’un poids certain dans la détermination des ulémas et des chefs de tribus à instaurer dans le pays une autorité légitime. C’est dans cette atmosphère perturbée que les deux congrès de congrès de consécration qui avaient été précédé de nombreuses autres réunions de ce genre dont la dernière à MASCARA a aboutit en 1225h (1810 J.C) à la constitution du fameux ribatt d’ORAN qui a ouvert Bey Mohamed Ben Athman le kébir, la voie de la libération d’ORAN.

Les oulémas de la Rachidya ont joué un rôle prépondérant dans l'organisation de ces consultations à trouvé la mort, aussi bien que dans les combats d'ORAN ou un grand nombre parmi c'est pour ces raisons que le choix unanime n'est porté sur le personnalité de la Rachidya la plus présentatives et la plus valeureuse par son savoir et sa piété: le cheikh MAHIEDINE celui-ci a assumé le sultanat durant lequel il a mené ses troupes à deux combats contre l'armée française avant que son âge et son état de santé l'obligent a se faire remplacer par son fils, l'EMIR Abdelkader.

Ces deux batailles sont décrites par un poète populaire, le Cheikh Adda Tahalaiti, dans deux Qasidasd'une haute valeur littéraire et historique, ou énumère toutes les tribus qui ont participé à ces combats.

Quand à l'enfance de l'EMIR à El Guetna, son éducation, sa formation religieuse et ses études, nous avons que ces instituts très répandus dans tout le pays étaient consacrés aux études, à l'éducation religieuse et à l'initiation mystique.

Le Taçaouf (mysticisme) était considéré comme le complément éducatif idéal insufflant à l'homme l'esprit de la morale et des vertus humaines n'ayant rien de commun avec les pratiques qui relèvent plus du charlatanisme et des superstitions que de la véritable religion et qui se répandent souvent là où l'instruction et l'éducation correcte et saine font défaut.

Les authentiques imams du Taçaouf ont précisément pour mission de combattre tout ce qui est de nature à alt-gérer la pureté du culte.

L'EMIR est resté fidele durant toute sa vie est dans ses actes aux principes de cette éducation acquise auprès de ses différents maître et apparait dans sa conduite simple et rigoureuse, sa droiture et sa sincérité.

Ses vertus lui valurent la confiance des tribus qui le connaissaient et qui se sont placées sous son autorité. Car à leur tète se trouvaient les chefs intellectuels et religieux dont les décisions étaient sacrées au sein des populations.

Dans son armée combattait un grand nombre de ses maîtres et des maîtres de ses maîtres.

Sa famille depuis son aïeul Abdelkader Benkhadda et le fils de celui-ci Ahmed El-Mokhtar s'est toujours consacrée aux études, a l'enseignement et à la communication des préceptes de la confrérie Quadirya.

Ahmed El Mokhtar a composé une qasida très répandue dédiée au fondateur de la Tariqua Kadirya, le cheikh Abdelkader El Keïlani enterré à Baghdad.

Le grand- pére de l'EMIR acquit, a son tour, une grande notoriété.

Au retour de son premier pèlerinage à la Mecque, il fit un séjour à Baghdad au cours duquel il acquit l'autorisation de dispenser l'Ourid Kadiri dans l'institut qu'il a fondé à El Guetna. Il était par ailleurs très versé dans les sciences religieuses et homme de lettre de valeur.

Son fils MAHIEDINE enseignait comme nous l'avons vu un grand nombre de matières. Il écrit un livre intitule"Irchad El Mouridine " dans la Taçaouf.

Il fit un pèlerinage à la Mecque en compagnie de son fils Abdelkader. Ce voyage dura deux ans, au cours desquels, ils se rendirent à Baghdad, auprès de l'autorité Kadérite. Nous pouvons montrer ainsi l'héritage spirituel et intellectuel qui échut à l'EMIR et constitua la matière de sa formation idéologique qui a régi son existence. Nanti de l'autorité suprême, il est resté indifférent aux tentations qui harcèlent toujours les souverains.

Il ne s'est permis aucun luxe, il n'a pas habité de parlais, les résidences des beys leurs richesses, leurs terres très riches, celles des gouverneures étaient nombreuses et abandonnées il ne s'est jamais approprié le moindre de ses biens.

L'historien Pélissier le Raynaud a décrit son mode de vie pendent son règne dans les annales:

Ce témoignage est confirmé par le colonel Français Tartareau qui a été envoyé auprès de l'EMIR par le Général et dont les propos sont rapportés par le professeur Emerith.

Tenant de pouvoir absolu, jeune, authentique guerrier qui n'hésite pas à se lancer au milieu de la cavalerie ennemie pour enlever seul le corps de son

neveu trie dans la bataille (Khengue Ennitah), combattant malheureux par la suite, emprisonné, humilié, l'EMIR a accompli sa vie toute dans l'observance de la règle de conduite et avec la foi, acquises depuis sa toute première enfance. Son éducation et sa formation l'ont écarté des honneurs et des opulences que suivent presque toujours les monarques et les souverains, il an obéi aux seules prescriptions de sa religion et s'est comporté avec son peuple. D'abord en chef religieux et en éducateur imprégné des principes de la morale mystique.

Il conduisait les soldats dans les batailles, présidait aux prières, donnait plusieurs cours tous les soirs, se levait tôt et après la prière de l'aube, enseignait encore l'exégèse du coran, le hadith et la théologie.

Dans sa prison d'Ambroise, il enseignait le coran aux enfants de ses compagnons et se consacrait une grande partie de son temps à leur éducation.

Dans la Touhfat son fils l'EMIR Mohamed cite une belle gacida du secrétaire de l'EMIR Bey Rouilan décrivant la cérémonie grandiose que fut tenue dans la grande mosquée de Médéa pour célébrer son cours terminal de la Soghra de l'Imam Essenouci. Dans un exemplaire manuscrit du Sahih El Boukhari qui lui appartenu, figure de propre écriture l'annotation suivante: «j'ai achevé le commentaire d'El Boukhari quatre fois, une partie de mémoire et une partie de lecture, moi l'humble serviteur de son dieu chargé de péché et de remords Abdelkader Ben Mahiedine Ben Mustapha Ben El Mokhtar Errachidi, Emir des Moudjahidines, j'ai entrepris la cinquième alors j'assiège TLEMCEN que dieu rapproche sa libération et en fasse à nouveau une maison d'Islam et de foi, Amen ».

A Damas il s'est consacré entièrement à l'étude. Il a transcrit de sa main plusieurs livres. Il organisait des débats scientifiques auxquels il convient théologien philosophes juristes et hommes de lettres et qu'il dirigeait lui-même parmi les plus habitués à ces débats nous trouvons Mustapha Derghout El Maghribi, père du Cheikh Abdelkeder El Maghribi membre de l'Académie scientifique arabe de Damas et Mustapha Ben Tohami.

Ces débats ont fait l'objet d'une série de conférences que vient de donner le Docteur Mohamed Assad Talas.

Mustapha Ben Tohami qui dans une gasida de 530 vers composée à Amboisé priait Dieu de lui faire retrouver une “maison spécieuse et hospitalière et une mosquée pleine de fidèles” a vu ses vœux exancés puisqu’il devint Immam Malékitede la célèbre mosquée des Oméyades de Damas où il mourut en 1280h.

C’est Mustapha Ben Tohami qui à Amboise a rédigé sous la dictée de l’EMIR les mémoires de l’Amboise « récemment découvertes et qui projette une lumière nouvelle sur la vie intellectuelle de la Rachidya, son voyage avec son père à la Macque, l’inéraire du voyage qui diffère de celui que pratiquaient les caravanes depuis le 60éme Siècle de l’hégire l’analyse des références des ulémas de sa région dont plusieurs remontent à des savants du moyen orient ».

Pendent son séjour à Damas, et au cours d’un pèlerinage à la Mecque, il rencontra son cousin Tayeb Ben El Mokhtar Cadi de TIGHANNIF apprit la nouvelle, il en fut de l’EMIR dans les dernières années de sa vie voici une partie de ce document que nous proposons en conclusion de cet exposé.

Nous avons appris par des voyageurs venant de la cité Hedpazienne que tu as rencontré durant ton séjour dans ces lieux un Cheikh initié de qui tu as sollicité le Dikr.

Je n’ai pas osé prêter foi à cette information, alors que je sais ce dans la générosité devinerons a comblé. La force de ma foi et la certitude que m’ont permis d’éprouver mes voyages dans les pays du couchant au levant et la connaissance des hommes de sciences et les chefs spirituels et les plus grandes éducateurs qu’aucun homme ne t’égale dans se domaine.

Je n’ai pas vu qui autant que toi n’a réglé ses actes sur les prescriptions du droits et sa vie intérieure sur la vérité mystique.

Je n’ai pas connu d’hommes qui aussi entièrement que toi s’est donné aux chaires et aux pupitres et s’est exprimé comme tu le fais par la langue des plumes et la bouche des encriers.

Ta position est celle d’un chef spirituel, non d’un adepte, tu es de ceux qui donnent et non de ceux qui sollicitent …

NOTE SUR SIDI ABED

SAINT - PATRON DE LA REGION D'INKERMANN

Son véritable nom était **ALI Zine-El-Abidine ben Mohammed ben Yamna ben Mohammed-AFGHOUL ben Hadj BOUABDALLAH**, enterré dans la plaine du chélif,il fut surnommé **ABED** (l'ascète) pour sa grande dévotion, son père est Mohammed ben Yamna, son grand père est Mohammed AFGHOUL, fils ainé de SIDI BOU ABDALLAH, ce dernier avec lequel grandit le prestige de la famille, est né au 9° siècle de l'Hégire, il est mort dans le siècle[127)])suivant (15)-16° S.J.C.). Sa réputation d'homme de savoir et de bien lui ont conféré une grande autorité, notamment dans l'immense tribu des SOUID ou il était vénéré et écouté, de nombreux historiens ont écrit à son sujet et au sujet de certaine de ses ascendants et descendants.

Le cheikh Mohammed Ben Ali SABBAGH EL KALU[(128)]nous présente le Cheikh BOUABDALLAH et ses deux[(129)]fils Mohammed AFGHOUL (grand-père de sidi ABED) et Sidi AMMAR, dans son livre «**Boustan El Azhar** » destiné à l'histoire de la vie du Cheikh Ahmed ben Yousef, enterré à Miliana, il nous apprend que ce sont ces deux fils du Cheikh BOU ABDALLAH qui accompagnèrent le Cheikh EZZETTOUNI de Fès, lors de son voyage à Miliana pour y rendre visiteau Cheikh Ahmed ben Yousef, celui-ci était le disciple du Cheikh Ahmed ZERROUK EL BOURNOUCI lui-même disciple du Cheikh EZZETOUNI, il put ainsi traverser en toute

---

(1) Il est mort en 923H.

(2) El Kalý (القلعي)

(3) Ce sont ces deux fils qui sont cités dans la lettre insérée dans la Revue africaine 1873 de ch. Ferand, ainsi que dans la note du poème du Cheikh Bouabdellah dont j'ai relaté dans mes notes sur « **navazil mazouna**» ci-joint.

sécurité, les pays des SOUID qui soumettaient à tribut, toute caravane de passage, dans leur fief, celui-ci s'étendait de Relizane à Orléansville.

Le Cheikh SABBAGH a d'autre part, écrit l'ontologie du cheikh ABOU ABDELLAH qui était contemporain du cheikh Ahmed Ben Yousef et qui à différentes occasions, protégeait ce dernier contre les chefs de la tribu des SOUID.

Le père du Cheikh Sidi BOUABDALLAH est le Cheikh Mohammed ben OUADAH que le cheikh IBN EL CADI EL FASSI[130] nous fait connaitre dans son ontologie du Cheikh Mohammed[131] IBN ALI EL KHERROUBI ; enterré à Alger.

Selon cette œuvre le Cheikh EL KHERROUBI a appris le Hadith dans des variantes transmises par le Cheikh Mohammed ben OUADAH, quand grand-père du Cheikh ABOU ABDALLAH, le Cheikh OUADAH, il est cité par le Cheikh Ahmed ben Yahia El OUENCHARISSI, auteur du «**Mûar**» (المعيار) qui le présente en ces termes «Maitre éloquent, magistrat intègre et généreux, il est notre compatriote et notre proche: mort en 856 de l'Hégire (15° S.J.C.)».

Ce passage est repris dans son livre réputé « **Dheil Eddibadj**» , par le Cheikh Ahmed Baba ETTOMBOUCTI.

Les ascendants aux troisième et quatrième degrés du Cheikh ABOU ABDALLAH ont été cités par le Cheikh MOUSSA BEN AISSA EL MAGHILI EL MAZOUNI, dans son livre « **ManakibEssolah Ech-Chalafyine** » [132]. Il mentionne qu'ils étaient parmi les plus grands hommes

---

(1) El Miknassi.

(2) El Kherroubi mort vers 963H. Était Imam Prédicateur à Alger, chargé par Hacéne b. kheireddine d'une ambassade, il a visité le Maroc a deux reprises, et a eut avec ses savants des controverses qui l'ont laissé célèbre, et on trouve sa biographie dans « **Daouhat annachir** », d'Ibn askar, et « **Nouzhat Al Hadi** » D'El Yefrini.

(3) manakib Echchelefiyne est: (ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار).

de savoir et tous deux [133] magistrats, « Il existe, de se livre, un exemplaire manuscrit dans la bibliothèque de la Médersa de Mazouna, chez l'actuel muphti ».

Voici enfin une citation de M. Louis RINN, dans son livre « Royaume d'Alger sous le dernier dey » Alger, impr. Ad. JOURDAN-.

« Dans la région tellienne, un seul grand fief héréditaire s'est maintenu, entouré de la considération générale: c'était celui des OULED SIDI BOUABDALLAH EL MGHAOUFEL DE TAGRIA, prés de confluent de la Mina et du Chélif ».

C'est le Cheikh SIDI BOUABDALLAH qui s'est fixé dans la région du Chélif, ses ascendants se trouvaient à Ouenchariss (Ouarsenis), capitale du petit royaume des Béni Toudjine.

Les habitants de ce pays avaient coutume de célébrer les anniversaires de leurs chefs religieux ou de ceux de leurs aïeux ayant acquis quelque notoriété d'ordre culturel ou moral.

A l'origine ces manifestations se bornaient à quelques pieuses cérémonies: lectures collectives du coran, causeries sur la vie du défunt … etc.

Elles donnaient lieu à des distributions, aux étudiants et aux nécessiteux de dans d'espèces diverses et de vivres, c'étaient alors des jours de prière, de méditations et d'actions généreuses.

Par la suite, ce genre de manifestations évolua progressivement, des tributs voisines y furent invitées qui accoururent, cavaliers en tête, les poètes intervinrent chantant les éloges de leurs tributs en s'évertuent à ridiculiser les tribus ennemies des leurs, le pèlerinage devint foire, l'un des premiers pèlerinages à avoir franchi ce grand pas est celui de SIDI BOUABDALLAH, après l'occupation française le Khalifat BEN ABDALLAH LARIBI prit à charge la célébration, sept jours durant, du

---

(1) Ce sont cheikh Othman et cheikh aissa Ben Fakroun dans les mausolées se trouvent a Ouencharis (Bordj Bounâama) et les habitants de la région commémorent chaque année leur tombeaux.

pèlerinage de SIDI BOUABDALLAH, son aïeul, il y convia les chefs des tribus voisines comme les Medjadja, Mazouna, …etc.

Les cérémonies comportaient la visite des mausolées de certains descendants de SIDI BOUABDALLAH, tels SIDI AMMAR, SIDI GHLAMALLAH, SIDI ABED.

Un peu plus tard, des descendants de SIDI ABED, fixés dans le voisinage de Tiaret organisèrent le pèlerinage particulier de leur saint aïeul.

Ils étaient riches et animés d'un sentiment d'un sentiment d'émulation, leur déplacement se faisait avec grand apparat, un grand nombre de cavaliers ouvraient la marche et les cérémonies furent comminées par de fastueuses et continuelles fantasias.

C'est ainsi que changea le caractère de ces manifestations: pieuses et modestes, à l'origine, limitées à la participation des descendants de SIDI ABED et leurs fidèles de la tribu des AKARMA, elles firent place à une vaste fête foraine, les tribus environnantes y participèrent en nombre de plus en plus grand, l'usage qui consistait pour les femmes à ne pas se voiler durant la fête, fut adopté par les nouveaux participants, le pèlerinage de SIDI ABED devint alors pour de nombreux jeunes gens, l'occasion attendue de voir celles qu'ils choisiront pour épouses, des gens qui n'étaient en aucun titre, liés à SIDI ABED devinrent des fidèles pèlerins, des pèlerins du plaisir et de débauche.

Les descendants du Saint et ses fideles s'effacèrent complètement, cédant la place à des éléments de' la plus basse catégorie, parmi les habitants des grandes villes des commerçants et des affairistes ne manquèrent guère à exploiter cette manifestation qui a perdu désormais son prestige spirituel et son utilité morale.

Cette évolution des pèlerinages coïncida avec l'apparition, en Algérie, de l'Islah (les Oulémas) dont les écrivains exploitèrent les moindres écarts pour s'attaquer à la chose même leur tache fut facilitée par les excès que nous venons de voir, ils ne manquèrent pas leur but et finirent pas influencer les propres descendants des marabouts et les plus fidèles parmi leurs adeptes: les plus jeunes notamment.

Cet état de choses eut pour conséquence logique d'aider à la perte de toute valeur spirituelle et à la lamentable dégradation des pèlerinages, les propres responsables de ces manifestations affolés par de justes critiques ne surent pas défendre leur cause par le seul moyen efficace: redonner au pèlerinage son caractère religieux et sa pureté, ils se mirent, au contraire à multiplier les erreurs en exagérant le faste et les apparats se soumettant et entrainant leurs fidèles à des dépenses inconsidérées dans les réceptions couteuses et les banquets, ils firent servir du vin en ces lieux qui sont des cimetières et qui doivent rester sacrés et respectés, c'est alors que les critiques se généralisèrent et aboutirent à la condamnation de tous les pèlerinages et l'accusation de profanation à l'encontre de ceux qui les organisent.

En résumé, ces pèlerinages à caractère commémoratif étaient, à l'origine organisés par les membres de la famille du Saint ou de sa tribu, les fidèles se retrouvaient avec un sentiment de piété et de communiation.

Le mausolée et les lieux avoisinants s'emplissaient de prières collectives, de causeries religieuses, de lectures de Coran, des tantes s'élevaient ou les pauvres et les passants étaient rassemblés et généreusement nourris, l'on distribuait aux nécessiteux, des dons en espèce et l'on recevait dignement les invités: chefs de tribus, propriétaires, cheikhs cavaliers.

Les jeunes gens profitaient de ces jours de saine allégresse pour s'adonner aux plaisirs des fantasias et s'y perfectionner, ils écoutaient l'aire l'éloge de leurs familles et dire les mérites de leurs aïeux par les bardes de leurs tribus.

L'on se séparait, au terme des cérémonies, fiers des seins, de ses chefs, des hommes de savoir et du culte, le cœur plein de respect à l'endroit du Saint, qu'il fut un aïeul ou maître de la famille.

Nombreux étaient ceux qui s'abstenaient de fumer leur tabacs dés l'apparition du mausolée, fut-il à des kilomètres.

Mais lorsque ce jeune qui respectait le sanctuaire au point de s'interdire de fumer à sa vue, voit couler le vin à flots en ces lieux sacrés, lorsqu'il y voit, se suivre des spectacles de stupre et d'aberration morale, il est logique

que naisse en lui le sentiment que ces manifestations ont perdu leur contenu moral et tout rapport avec le Saint Homme qui repose là, ainsi, peu à peu, ce jeune perd sa foi dans le pèlerinage et peu à peu apprend à écouter les détracteurs de ce genre de fêtes, à douter de leur utilité et finalement, à ce descendant de tel Saint, la honte fera taire son origine.

A l'origine le pèlerinage de SIDI ABED n'avait rien de différend des autres pèlerinages qui ont gardé jusqu'à nos jours leur caractère de modestie et de propreté: telle la visite du mausolée de SIDI MOHAMMED BEN ALI, Saint patron des Médjadja (Orléans ville) qui est fête tous les ans par ses descendants, la tribu fidèle de SENDJAS et autres, tous s'y rendent, hommes, femmes et enfants pour y passer deux ou trois jours, une fois dans l'année et retournent chez eux.

La particularité du cachet qui marque le pèlerinage de SIDI ABED et qui lui a donné son ampleur actuelle a eu pour origine certaines légendes abondamment imaginées et diffusées par des fidèles fanatisés.

ABOU ABDELLAH MOHAMED IBN KHAMIS

(Le philosophe poète)

(650 - 708 h) (1253 - 1309 j.c)

(Dissipation du voile qui a entouré sa vie durant des siècles et qui devient possible grâce aux documents récemment mis à jour)

Notre auteure est née et vécu à Tlemcen, la plus part de ses commentateurs sont unanimes à dire qu'il a eu une jeunesse pauvre, humble et effacée. Ils ont cependant très peu écrit sur sa jeunesse, sa famille et ses maitres.

Le premier a l'avoir cité et attiré l'attention sur lui fut le villégiateur magrébin EL ABDA [1] qui l'a rencontré en 688-1289 a Tlemcen lors de son voyage vers le moyen Orient.

Beaucoup d'homme de science et de pensée de politique anciens et modernes se son préoccupés de IBN KHAMIS et de son œuvre. En premier lieu, il convient de situer Lissan El Dine IBN KHATIB, l'illustre ministre de grenade qui a fait sa biographie dans deux livres: «Aïd Essila» et « El IHATA fi akhbar Gharnata » et a propagé sa rissala (tout le contenu).

Tout le contenu est resté incompris pendant des siècles, Ibn Khatib s'est contenté de sa propagation sans faire connaitre les causes et les circonstances qui ont motivé la rédaction ni le destinataire à qui elle a été initialement adressée ce document a été évoqué par Ahmed El Makarri [2]

(1) Abou Abdellah Mohamed Ibn Mohamed El Abdari El HIHI, auteur de la: «Rihla El maghribiya » éditée en 1968 par Mohamed El Fassi ? RECTEUR DE L'UNIVERSITE Mohamed V de Rabat.

(2) Ahmed El MAKKARI Ettilimsani (986-1041 h)

dans le long passage consacré a Ibn El Khamis de son livre « Azhar Arriadh fi akhbar El Kadhi Ayadh », mais lé aussi, sans aucun explication sur le texte.

Parmi les contemporaines, le professeur Abdelouahab Ibn Mansour, Historien du royaume marocain, a entrepris d'expliquer et de commencer le rissala dans sa riche étude sur Ibn Khamis: "El Mountakhab ennafis min chir Ibn Khamis" mais ce travail basé essentiellement sur des suppositions personnelles n'apporte aucun éclaircissement réel.

Il en fut de même pour l'étude présentée au deuxième congrée de la fédération des sociétés savantes de l'Afrique du Nord (Tlemcen 14-17 Avril 1936) par le professeur Abdeslam Meziane de la Médersa de Tlemcen.

Le travail représente un effort méritoire mais il est dans ce qui se rapporte à la rissala, empreint d'erreur flagrante incompatible avec la rigueur et l'objectivité requises dans des sujets pareils.

A travers ce qui précède, il nous apparait que les nombreux biographes d'Ibn Khamis ont passé sous silence plusieurs aspects de sa vie, et ont parfois d'entre aux l'accusèrent de sorcellerie, d'imposture ou de charlatanisme.

Ibn El Khatib quant a lui, le présente ainsi: «Models rare d'austérité, d'humilité, de vertu et de dignité, vieux a la belle allure et franc, aimant les voyage et la solitude, averti dans les sciences anciennes et les généalogies … etc ».

Ibn khatima El Andaloussi, homme de lettres du 8° siècle de l'Hégire, souvent cité par "El MAKKARI", cité dans son livre «-Mazyat Almeria», les poèmes désirés par Ibn Khamis au visir Ibn El Hakim[1]. Il dit ensuite: "Il était un grand poète et un maitre de la Rhétorique, utilisait les rimes les plus complexes, planant avec aisance dans les cieux de la poésie, possédant une

(1) Mohamed Ibn Abderrahim Ibn Ibrahim Ellakhmi Errondi, surnommé Ibn El Hakim, né a RONDA en 660h, secrétaire des rois de grenade jusqu'a son assassinat en 708h. Figure parmi les grand savant et hommes de lettres de son époque. Il réserve à Ibn Khamis, le meilleur accueil a grenade et le compte parmi ses intimes les plus proches

grande connaissance de la poésie et histoire arabe, de la philosophie passionnée de l'étude, enseignant de la langue arabe a grenade, etc.… "

Abou Abdellah Mohamed Ibn Ibrahim El Hadrami [1] lui a également consacré une biographie et a assemblé un recueil de ses poésies qu'il a intitulé: "EDDOUR ENNAFIS MIN CHIRI IBN KHAMIS".

Nous devons citer encore parmi ses biographes l'Imam Mohamed Ibn MARZOUK Ettilimçani dans son livre "El Mousned Essahih El Hasas fi maathiri maoulane abilhassan" , qu'il a terminé en l'an 772h.

(Manuscrit a la bibliothèque de l'Escurial): Yahia Ibn Khaldoun, dans sa "Boughiat arraouad fi Hidri El moulouki min béni Abdelouda "(édité en ALGERIE, à l'imprimerie Fontana 1328h-1910 j.c.).

Le Cherif El Gharnati dans se "el Boudjoub el Mestoura fi mahacini el Makaoura"(édition ALGER 1326-1988).

Ce n'est point par souci du détail que j'amène ces références: elles sont presque toutes très réputées et ont déjà fait l'objet de nombreuses études. Elles sont groupées dans les deux livres d'Ahmed El MAKKARI Ettilimçani "Azhar arriadh(édition le CAIRE 1302h)et "Nafh Attib" (imprimerie" El Azhar 1302h). Ainsi que dans celui de Abdelouahad Ibn Mansour: "El Mountakhab ennafis"(édition TLEMCEN 1365 h).

Mon intention, cependant, est d'évoquer certains aspecte ignorés de la vie d'Ibn Khamis et révélés au cours de ces toutes dernières années, dissipant le mystère qui a entouré sa personnalité.

Deux documents importantes ont effet été mis a jour au cour des dix dernières années: le premier est un commentaire de la rissala éditée par l'Issam Eddine Ibn El Khatib et reproduite par Abdalouahad Ibn Mansour, dans le "Mountakhab Ennafi" qui n'apporte comme nous l'avons vu, aucun fait digne d'intérêt dans ce qui intéresse.

Ce commentaire était déjà connu de Aboulhassan Ibn Elhassan Ennibahi

(1) Officier Ministériel d'Alméria, Auteur d'un catalogue très connu, mort en 777-1375. Précepteur d'Abderrahmane Ibn KHALDOUN

El Maliki El Andaloussi qui a été seul a l'avoir cité dans son œuvre biographe sur les cadis de l'Andalousie et qui a pour titre « Kitab El Markaba El Oulia fi man Yastahikou El kadhaa ouel fitia »: ce livre a été revu , présenté et édité sous le titre de "Edition critique " par E.Lévi-Provançal-Profeseur a la Sorbonne ; Directeur de L'Institut d'études Islamiques de l'Université de PARIS(Edition du SCRIBE Egyptien le CAIRE1948).

C'est dans ce livre qu'Abou l'hassan Ennibahi dans le biographie consacrée au Cadi de Tlemcen ABOU Abdallah Mohamed Ibn Mansour Ibn hadya El Koraichi, a noté que celui-ci avait écrit un commentaire de la rissala d'Ibn Khamis sous le titre "Al IIkou ennafisfi charhi rissalati ibn Khamis ". Il s'agit de cette rissala pendant si long temps énigmatique, comme nous l'avons déjà vu.

Il est assez étonnant, par ailleurs, que ce commentaire de la rissala ne fut jamais évoque par les nombreux auteures anciens et contemporaine, notamment Ahmed El Makarri qui a étudié la vie et l'œuvre d'Ibn Khamis avec un soin et un sérieux particulière. C'est lui qui nous a permis de connaitre entre autre, les travaux d'Ibn Khatima et d'Abou Abdallah El Makarri.

« El IIK annafis » a abouti dans une bibliothèque des environs de Bougie un deuxième document s'est retrouvé dans une bibliothèque de Constantine très connue parmi les intellectuels et de nombreux orientaliste.

Ibn Hadya El Korachi était Cadi des Cadis de Tlemcen. En plus de sa fonction judiciaire, il assumait celle qui équivaudrait de nos jours a celle de premier ministre. Son biographe Ennibahi dans son écrit sur les Cadis de l'Andalousie, le présente ainsi "parmi les cadis de la vie de Tlemcen, le cheikh juriste Abou ABDELLAH Mohamed Ibn Mansour Ibn Ali. Ibn Hadya El Koraichi, hautement doué, clairvoyant, rigoureux et intransigeant pour défendre le droit influant après de son Sultan qui lui a confié outre la magistrature suprême, son secrétariat particuliers, lui réservant parmi ses proches, une considération plus importante que celle de ses ministre. Il le consultait dans les affaires du royaume et entreprenait rarement une affaire

sons avoir pris son avis et ses conseils."Ennibahi ajouta plus loin:" il avait une grande part de connaissances de la littérature, de la langue et de l'histoire il a commencé la lettre de Mohamed Ibn Amar Ibn khamis El Hidjri qui commence ainsi: "Il est étonnant que jouisse de sa présence celui qui n'espérait pas même attirer son attention et qui est composé en vers en prose. C'est un bon commentaire ou il montre par ses connaissances de la science et de la littérature, toute sa valeure"(fin de citation).

Ibn Hadya est mort vers 736 de l'hégire, soit 28ans après Ibn Khamis. Celui-ci a rédigé sa lettre a Tlemcen aux environs de 682h ainsi que nous le verrons lorsque nous parlerons du deuxième document d'Ibn Khamis qui vient d'être découvert.

La lecture du commentaire «El IIk ennafis" nous apprend que son auteur était un ennemi acharné d'Ibn Khamis et qu'il n'a entreprit ce travaille qu'il se bornerait a l'explication littérale du texte. Ce qui ne l'a pas empêché d'attaquer Ibn Khamis chaque fois que le déroulement du texte l'entrainait a la polémique dans le domaine doctrinaire. Il le couvrait alors de ridicule et d'insultes et de mépris. Car Ibn Khamis qui avait le parti des philosophes, était fortement accusé de déviationnisme idéologique.

Il connu pour cette raison beaucoup de déboire qui l'ont amené jusqu'à comparaitre a FEZ devant un tribunal inquisitionnaire qui l'a reconnu coupable et inscrit eurlle registre des hérétique . Il ne crut son salut qu'a la fuite. A son retour a Tlemcen, il rédigée deux lettres: la première est celle qui nous préoccupe, l'autre étant le deuxième document que nous avons cité plus haut et qui a été trouvé, il y a cinq ans. Rédiger de la main de son auteure, Ibn Khamis, elle a été écrite 26 années environ avant sa mort. Elle est en effet datée de Tlemcen en 682h.

C'est par ce manuscrit que nous avons pu connaitre la date de la ressala .en effet, Ibn hadya avait omis de dater la procès de Tlemcen. Il connaissait bien toutes les péripéties de l'existence de son auteure.

Quand a la deuxième lettre, Ibn Hadya en a toujours ignoré l'existence pour les raison que nous s'exprime ainsi:

La philosophie cher les sunnites et tous les achaârites, est l'expression de

la pure hérésie, la perdition absolue et abjuration maniâtes. Puis il cite les déferlante sciences de la philosophie, ses parties, les grands philosophes anciens et modernes et termine an ces termes "On doit tenir pour hérétique, les philosophes et leurs partisans musulmans, telle Ibn Sina, El Farabi, et d'autres qui les suivent et adoptent leurs idées. Que le malédiction de Dieu soit sur aux tous".

Cela explique les violente attaques qu'il lance a Ibn Khamis lorsqu'il est amené a discuté ses idées: «il dit entre autre ». Vous voyez ce que contiennent les propos de cet Ibn Khamis d'outrecuidance et d'insolente ambition de s'élever qui l'ont ramené au niveau de la médiocrité et de la bassesse. Mais il ne s'est pas arrêté a cela et n'an a pas fait sa limite. "il ajouta" on sèmerait bien savoir quels intérêts l'ont Soussi a ces propos qui dénotent des meurs objectes et une nature dévoyés. Comment a-t-il osé s'aventurer dans se domaine avec tant d'assurance, ligneront les dangers auxquels il s'apposait a moins qu'il ait agit en inconscient. Puis Ibn Hadya répond a sa question:"Non, appentis hérétique, parle – tu sous l'effet d'un matinal au point que ce que tu veux faire apparait ». Il écrit encore:" si les convenances ne m'incitaient a me détourner de tes mauvaise intentions et tes visées, j'aurai évoqué ce que tu ressentirais avec beaucoup plus mal car tu te trouves dans ton entreprise, dans l'un des deux cas: l'ignorance hanteuse ou l'abjuration manifeste. A vous lecteur, de choisir l'un des deux cas". (fin de citation). Ibn Hadya en arrive ensuite a la partie inconnue de l'existence d'Ibn Khamis. Cette partie que les biographes ont essayé de reconstituer par l'imagination et l'hypothèse. L'auteur nous explique les causes qui ont poussé Ibn Khamis a trouvé refuge dans une vie de solitude et d'isolement est qui ont fait dire a l'auteure du (**Mountakhab ennafis**) que paner du milieu d'un homme qui logeait dans les remises dormait sur des peaux de moutons et sur tous les auteure qui l'ont étudié sont unanimes a le présenter comme un homme austère, solitaire, simple et retiré…".

Il a vécu a Tlemcen ou Ibn Hadya détenait une haute autorité car en plus de son rang dans la couyur Zianide,il jouissait auprès de l'opinion publique d'un crédit particulière a cause de sa descendance du conquérant OKBA Ibn Naffi El Fihri. C'est pour ces raisons, qu'Ibn Khamis ne conse pas longtemps sa

fonction de secritaire du diwan qu'il a occupé dans la cour du Sultan de tlemcen Abi Said Othman Ibn Yaghmorasan Ezzayani, vers l'année 681 – 1282.

Ibn Hadya termine son commentaire par la relation du jugement de FEZ qui a profondément marqué Ibn Khamis. cat il a été la cause non seulement de sa retraite a Tlemcen jusqu'à son départ précipité, dans la peur et l'inquiétude mais dans une grande mesure de sa mort quoique les historiens sont unanimes, a dire que son assassinat a fait suite a celui de son employeur, le ministre Ibn El Hakim.

Voir comment Ibn Hayda relate ces événements:« ces propos d'Ibn Khamis constituent la raison pour laquelle, il a été amené a rédiger la lettre dont j'ai parle au début de cet écrit (la ressala) car Ibn Khamis , comme il a été établi, pratiqué la recherche et s'écarta par ses idées et ses actes de la légalité. Arrivé a FEZ au début de protection de certaines haute personnalités, il s'est trouvé un jour, dans une de cas assemblées ou figuraient grand nombre de personne respectables parmi lesquelles, des Achaarites éminents et des légiste Malékites dont le Charif Abi El Barakat.la discutions sur la théologie fut abordée afin d'AMENER Ibn khamis a dévoiler ses basses idées philosophiques. Dans le chapitre de la création de l'Univers, ils exposèrent des preuves tranchantes et anéantirent arguments des philosophes. Il ne tarde pas a révéler le fond de ses opinions. Abou l'barakat le prie a parti, lui et sa doctrine abjecte. Une longue polémique s'engagea entre eux bien après que les personnes présentes se fussent retirées. A bout d'arguments, Ibn Khamis finit par sa taire et ne souffla mot. Pis, il se renduit compte des applications juridiques de ses propos et craignant des décisions des magistrats il pris la fuite dans la nuit pour ne s'arrêter qu'en son domicile a Tlemcen. Ibn Hadya dit encore:" Nous percevons a travers ses déclarations, sa persistance dans ses idées, celles entre autres qui affirment tant a nier la création de l'univers et la résurrection et qui affirmant la fin absolue du monde. Tout cela équivaut a l'abjuration de la foi et de l'islam, les philosophes que Dieu les maudisses ont depuis toujours soutenu ce genre d'idées et perturbé bien des esprits. Les Achaarites les ont citées dans le détail et détruites par des arguments multiples et convaincants (fin de citation).

Ibn Hadya a ainsi révélé dans ces paragraphes ce qui était ignoré dans la vie d'Ibn Khamis , il a également montré toute la haine et la rancœur qu'il nourrissait a son égard sans connaitre de limite, allant jusqu'à accusation d'hérésie dans les idées et les faits. Ainsi d'un trait de plume, il a proféré un jugement dont nous connaissons les conséquences qu'il pouvait avoir à l'époque (licitation du sang de l'individu dont l'exécution devient un acte pieux).

Il a également porté sur lui une accusation des plus infamantes et des plus humiliantes, lui reprochant ses va- et- vient a **Fes** parmi riches a la recherche de leur secours.

Nous avons cependant qu'Ibn Khamis a défendu ses idées avec obstination devant ses accusateur, qu'il a mis dans l'embarras ses propres juges au point ou seul permis eux, le Chérif Abou l'barakat qui présidait la conseil en vertu de sa qualité de dignitaire de Fes .

c'est a cela que fait allusion Ibn Hadya lorsqu'il écrit comme nous l'avons déjà vu:"Il ne tarda point a dévoiler le font de ses opinions. Abou l' barakat le pris a partie, lui et sa doctrine, une longue polémique s'engagea entre eux et se poursuite bien après que les personnes pressentes se fussent retirées etc.… », Il reprend dans le même chapitre « dans ses propos, nous santons sa persistance dans les idées qui l'ont amené a cette comparution ». De toute cela, nous apprenons que le silence d'Ibn Khamis n'ais pas comme l'écrit ses commentateur a un manque d'arguments, mais plutôt ainsi que le confirme ce même commentateur « Il se rendit compte des implications juridiques de ses propos et craignant les décisions des magistrats, il prit la fuite…».

Ibn Hadya évoque les circonstances qui en amené le rédaction de la rissala une fois arrivé chez lui a Tlemcen. Ecoutons Ibn Hadya:« Lorsque sa frayeur se fut apaisée son esprit calmé, il se mit a rédiger cette lettre , mais quand il l'eut terminé, il craignit les conséquences de sa diffusion et décide que sa propagation se fit sans en franchir les limites. Car s'il l'avait faite parvenir, il l'aurait amèrement regretté et n'aurait foulé le sol du Maghreb qu'an imagination « fin de citation ».

Ibn Hadya a pensé alors que la Rissala n'était pas parvenue au Maroc or la deuxième Rissala adressés par Ibn Khamis a son ami le Cadi de FEZ, Abou Ghalib El Maghli confirme qu'elle est bien arrivée et en précise la date 682.

Il semble qu'Ibn Hadya n'a pris connaissance de ce document que lorsque le Sultan Zianite Abou Tachfine, leur a remise pour le commenter. Il a alors tenté qu'elle n'est jamais sortie de Tlemcen et a aboutie a la bibliothèque du Sultan. Il semble également ignorer la date précise de sa rédaction jusqu'il la situe entre les années 20 et 90".

C'est bien a ce Aboul'barakat Ibn khamis s'est adressé dans se vers. Le professeur Ben Mansour dans "**El Mountakhab ennafis**" a fait une confusion lorsqu'il a écrit" Abou elbarakat pourrait être Abou l'barakat Ibn Aichoun El Balfidi, disciple d'Ibn Khamis.

Quant au professeur abdesslam méziane, il affirme dans l'étude présentée au Congrée des Orientalistes de 1936, que le destinataire de le Rissale s'agit de Mohamed Ibn Yahia El Abdari. Le professeur Abdelouahad Ibn Mansour a relevé cette erreur, après s'être lui-même excusé de se limiter à la seule analyse du texte de la Rissala.

La date de la Rissala, citée par Ibn Hadiya dans le commentaire est confirmée par la deuxième Rissala dont le manuscrit porte à la dernière page, annotation rédigée par le fils du cadi Abou ghalib El Maghili El Fassi: "cette lettre à été écrite par le légiste et littéraire parfait Abou Abdellah Mohammed Ibn Khamis, à son père" Que dieu leur réserve sa miséricorde" de la ville de Tlemcen après son départ de FEZ (dieu la protège) en l'an 602".

Cette deuxième Rissala est composée de 26 pages, chaque page comporte 21 lignes. Dans chaque ligne il y a dix mots. Des pages sont longues de 21 centimètre et large de 15 centimètre et demi. Le style calligraphique est maghrébin andalous. Le papier est légèrement marqué par des lépismes.

Cette lettre constitue un appui à la première, elle rapporte au même sujet. La seule différance entre les deux, réside dans le fait que la première est composée en partie en vers, alors que la deuxième est entièrement écrite en brosse.

La deuxième comme la première, se terminent par une diatribe accablante contre l'habitante de la ville de Fez à qui il s'est adressé dans ces terme: "comment faire face aux mœurs de votre pays impitoyable ? Ma faiblesse ne devrait-elle pas attendrit le cœur dur de votre époque ? Pourquoi ces rancœurs, engante des herbages malsain ? Vous voue êtes montrés hostiles, on vous a alors tourné le dos. Si le savant vous réprimande, vous vous rebellez contre lui et l'accusez d'immoralité. Si le sage apparait parmi vous, vous le haïssez et le déclarez impie et hérétique.

Restez dans l'anarchie car vous n'avez plus de Chefs et circulez librement dans vos champs arides, car vous avez perdu les bergers. Vous avez abandonné les traditions et les lois et montrez des innovations surprenantes, ouvrant la voie à l'hypocrisie et généralisant la débouche. Vous sous-estimez le vice et légitimez les défauts – montrez-moi vous riche, reconnaissants à dieu et s'inquiétants du sort des pauvre résignés – montrez-moi votre savant éminent, intnisent le disciple désorienté. Le savoir est mort par la disparition des savants et l'ignorance a décidé l'extermination des sages. Toi le meilleur parmi les légistes, régénère ton code et fait nous entendre ton prêche, toi le plus éloquent des tabis [(1)]. Non certes, ces sermons.

de Hassan, ne vous réveilleront pas de votre l'Thargis vous ne pouvez être sauvée de la perdition que par le sabre de son maitre Abi l'hassan (le calife Ali).

Une autre différance entre les deux Rissalas apparait: la première est adressés à l'administrateur de Fez Abou ldhl Mohamed Ibn Yahia Atik El Abdari et comporte selon Ibn Hadiya « des remerciements des louange au destinataire ainsi que des plainte contre un groupe de fanatique qui l'avaient malmené, composée on vers et en prose, avec des hauts et des bas, du faux et du vrai…etc. » (fin de citation).

La deuxième fut adressée au Cadi de Fez qui semble être de ses amies. Il a exposé ses idée d'une manière plus détaillée et prend ses adversaires a partie. C'est un document qui pressante une grande valeur dans son contexte et nécessite une étude approfondie par des spécialistes.

1) Il s'agit d'Hassan Ibn abi l'hassan el Basri.)

Le Cheikh Mohamed Ibn Ali El KHERROUBI (XVIe siècle)

Mohamed Ibn Ali El Kherroubi el - Taraboulsi, mort à Alger, au milieu du XVI[e] siècle, tel est le sujet que nous proposons d'étudier.

Le Cheikh El Kherroubi représente par la compétence scientifique et la notoriété religieuse auxquelles il accéda. Une valeur intellectuelle indéniable. Il n'a pas eu hélas! La célébrité qu'il mérite et dans laquelle nous avons coutume de voir la consécration logique des hautes valeurs humaines.

Un grand nombre de ses contemporains, issus pourtant de la même école que lui, sont très connus. De tous El Kherroubi fut le plus érudit. Le plus représentatifs des idées de son école et le plus étroitement attaché a son Maitre. Alors que ses contemporains ont acquis une grande popularité et de maitre en disciples célèbres et très visitez le nom même d'El Kherroubi est tombé dans un oubli quasi-total. Son tombeau est resté inconnu.

Nous allons essayer de rechercher les causes qui ont laissé dans l'obscurité une personnalité éminente qui a joué un rôle important dans l'histoire de ce pays et dont le temps n'a pas même épargné la tombe.

El Kherroubi est né à Karakich-localité située sur le bord de la mer, quatre Kilomètre environs, à l'Ouest de Tripoli, (Libye) et qui porte le nom de son fondateur, le roi karakich qui vivait au vl[e] siècle de l'Hégire). Il entreprit ses études suivant les méthodes traditionnelles de l'époque et eut pour maître le Cheikh Hadj Kacem puis son propre père, le Cheikh vénéré Ali Kherroubi . A la mort de son père, il devait disciple du célèbre Cheikh çoufi Ahmed Zerrouk El Barnoussi El Fassi, enterré à Mesrata (tripolitaine).

Ce Cheikh Zerrouk est l'une des personnalités religieuses et

intellectuelles dominantes de son siècle, le IX^{e} de l'Hégire. Il a fondé une école religieuse au sein de laquelle il a fait revivre les vrais principes, alors négligés, du mysticisme, tout en s'efforçant de les débarrasser des innovations et pratiques illégitimes (bidàa) qui avaient provoqué de puissants mouvements de critique contre les chefs çoufis de l'époque.

Le Cheikh Zerrouk naquit à Fès où il commença son éducation auprès de nombreux maîtres parmi lesquels, le Cheikh Abou Abdellah Ez-Zeitouni. Puis il entreprit un long périple qui le conduisit d'§ord à Tlemcen ou il fréquenta et se perfectionna auprès de maître illustres dont le grand théologien Es-Senousi. A Alger il fut disciple du cheikh abderrahmane Et-Taalibiet de son élève ; le Cheikh Ahmed Ibn Abdellah El Djazairi Ez-Zaouaoui, auteure de la célèbre pièce théologique en vers. Il arriva enfin à Bougie ou il se fixa auprès du Cheikh Abou Zakaria Yahia El Aydali qui lui céda des terres importantes.

C'est à Bougie que le Cheikh Zerrouk eut pour disciples: le Cheikh Ahmed Ibn Youcef Er-Rachidi dont le sépulcre est à Miliana. Le Cheikh Ahmed ben kadda, l'un des ascendants de l'Emir Abdelkader, enterré à Ghriss. Par la suite, le Cheikh Zerrouk quitta Bougie et se rendit à Masratah où il eut pour élève le Cheikh El Kherroubi qui nous dit, parlant de lui:

«Ce Cheikh a dirigé notre éducations et notre instruction: nous avons hérité de lui un bien inestimable. Il s'est chargé, que Dieu ait son âme, de notre enseignement, à la mort de notre père. Il était affectueux, indulgent et généreux ; il est resté fidèle au souvenir de notre défunt père. Des actes trop nombreux pour être cités lui confèrent sur nous des droits qui ne nous serons jamais assez reconnaître. Puise Dieu lui réserver, ainsi qu'a tous nos maîtres, la meilleure récompense».

Sans être en mesure de citer les dates exactes, nous pouvons néanmoins situer la naissance du Cheikh El Kherroubi aux environs de 880h(1475) et celle de son départ du pays natal, vers Alger, en 916h. (1510), date de la conquête de Tripoli par la Génois. Nous savons que cette conquête provoqua l'exode de la quasi-totalité des habitants et tout particulièrement, des Oulémas de cette ville et de sa province.

El Kherroubi, se fixe à Alger où il se voit confier la chaire d'enseignement ainsi que la direction du culte, à la Grande Mosquée. Il entre en relation avec la nombereaux oulémas de la province. Il entre autre: le Cheikh Ahmed Ben Youcef de la Kalaa des beni-rached. Dans cette ville, il fait la connaissance de nombreux maître du Hadith, parmi lesquels le Cheikh Omar El Aloui Er-Radudi, disciple des Maître Abd El Djalil Er-Rachidi, Abou Abdullah Ibn Marzouk, El-Thaâlibi. Il apprend encore par la voie (terme désignant le canal par lequel, les traditions, transmises de maître en disciple, arrivent à l'intéressé) du Cheikh Omar Ibn Ziane El Mediouni, par Es-Senousi, par Ibrahim Et-Tazi, par Mohamed Ibn Ouadah, père de Cheikh Abi abdellah, enterré au chelif.

Après ce bref aperçu sur la jeunesse d'El Kherroubi, sa venue à Alger, ainsi que les maître qu'il y fréquent, essayons de voir quels furent sa vie, l'école mystique qu'il y fondée et enfin le rôle qu'il y a joué.

El Kherroubi , ainsi que nous l'avons déjà vu, et un disciple de l'école çoufie du Cheikh Zerrouk il est cependant plus sévère que son maître et plus ardent la lutte contre la «bidâa» et ce qui la pratiquent. Il se signale tout particulièrement par sa condamnation du Dikr (formule de prières supplémentaires et facultatives récitées en nombre plus ou moins limités). Le premiers à subir son blâmeest son ami et condisciple Ahmed Ben Youcef à qu'il s'adresse en ces termes: «tu profanes la sagesse en apprenant les noms sacrés aux ignorants et jusqu'aux femmes» il est impitoyable, envers ses contemporains, chefs de confréries. Voici sur quel ton il les juge:

«Il paraît, de nos jours, charlatans, dépourvus de toute connaissance solide de l'Islam et qui n'éclairent guère leur conduite à la lumière des traditions du Prophète (que la Paix de Dieu et le salut soient répandus sur lui). Ils s'attribuent les plus hauts titres et les degrés les plus élevés de la sainteté, allant jusqu'à prétendre au khalifat spirituel, que Dieu les extermine! Nous en avons connus qui invitent leurs adeptes à repousser les enseignements dogmatiques et juridiques, ainsi que la culture religieuse. Cet état d'esprit les a amenés à la haine des Oulémas et à la lutte contre eux. Ils croient servir quelque chose. Ce sont des imposteurs, ne savant-ils pas que les Oulémas de l'Islam sont les conducteurs des âmes vers Dieu et les

gardiens du droit qui éclairent les hommes dans la bonne voie, protègent le culte et nous conservent les sciences.»

Dans ce domaine, celui la lutte contre l'enseignement de Dikr aux illettrés, il semble qu'El Kherroubi soit plus imprégné des idées de son père que de celles de son maître, Zerrouk.

Le Cheikh Ali, père d'El Kherroubi était. En effet, selon le témoignage de son disciple Abou Abdellah El Hattab El Maliki, enterré à la Mecque, un ennemi acharné de l'enseignement du Dikr, il lui dit: «on raconte que tu as fixé une obligation» et lorsqu'El Hattab eut reconnu le fait, il ajouta: «Tu fixes une obligation et le prophète en fixe une autre. Que veux- tu qu'il résulte de l'obligation fixée par la prophète de dieu ?». EL Hattab ajoute qu'il abandonna, de ce jour, le Dikr à la suite des reproches de son maître.

El Kherroubi ne s'est pas contenté de rédiger et d'enseigner des théories. Il combattait la «bidâa» là où la découvraient, car il y voyait une atteinte à la religion. Il n'eut aucun égard, aucun ménagement pour ceux qui lui semblaient s'écarter des principes de l'orthodoxie islamique, et cela lui créa beaucoup d'ennemis.

Ces idées sur le mysticisme visaient à faire de ce système un soutien de la religion, qui propageât, par des méthodes nettes et essentiellement conformes auxprincipes de la tradition et de la juridiction islamique, l'amour de la bonne éducation et de l'instruction saine. Il considérait que le mysticisme ainsi conçu était fondé à éclairer la conduite des fidèles grâces à l'austérité et à la piété qu'il imposait à l'âme.

Fidèle au principe qu'il a défendus, sa vie durant, El Kherroubi était lui-même pieux et austère. Il était d'une nature simple et modeste, comme son maître Zerrouk dont il faisait son modèle.il aimait à répéter les vertus de son maître et se plaisait surtout à rappeler qu'a la mort du Cheikh zerrouk, sa succession avait porté uniquement sur quelques vêtements de laine brute, sa bibliothèque et un cheval qu'il possédait avec son beau-frère en copropriété, alors qu'il lui eût été facile d'amasser une fortune, notamment à Bougie où il comptait parmi ses élèves de nombreux fils de familles princières.

C'est pour ces raisons, sans doute que de nombreux auteurs des époques

récentes voient en lui, le dernier des vrais chefs mystiques.

Les relations du Cheikh El Kherroubi avec les gouvernements Turcs d' Alger étaient excellentes. Lorsque la guerre se déclara entre les Turcs et les Chérifs Saâdiens, c'est lui que désigne Hassan Ibn Kheireddine, pour mener les négociations et limiter les frontières entre les deux royaumes. Cette mission diplomatique ouvre un chapitre très important dans l'histoire de la vie d'El Kherroubi ; sans elle nous n'aurions pas su grand-chose de cet homme.

El Kherroubi s'est rendu au Marok, à deux reprises, en 959 et 961h. (1552 et 1554). Il fut l'hôte du sultan Abou Abdellah qui lui fit une brillante réception. Les oulémas du Maghreb entier s'empressent à sa rencontre, car sa renommée de grand érudit et l'écho de ses rapports avec le maghribin d'origine, le Cheikh Zerrouk, l'avaient précédé dans le pays. Au cours de ses entrevues avec les Oulémas, El Kherroubi constate avec une grande surprise qu'un grand nombre parmi eux avaient la moustache rasée. Il devait apprendre, par la suite, qu'il s'agissait des adeptes du Cheikh Abou Amr El Kastalli, disciple du Cheikh El Jazouli, célèbre auteur des «Dalail el Kheirat» et que tout nouvel adepte, dans cette confrérie était tenu de raser la moustache suivant ainsi l'exemple du Cheikh el Jazouli lui-même. Or, la tradition interdit rigoureusement une telle pratique qu'El Kherroubi condamne aussitôt de Bidaâ blâmable. Cet incident donne lieu à une violente polémique dont les échos se répercutent dans tous les milieux culturels du Maghrib où la renommée des deux principaux antagonistes était grande.

L'ambassadeur cependant néglige quelque peu ses obligations diplomatiques pour la polémique religieuse se trouvant ainsi dans son domaine de prédilection. Il se met à énumérer les Bidâa- qui étaient alors nombreuses- de ses adversaires et public sa fameuse «lettre de la ruine sur les distingués habitants de la ville de Fes», violente diatribe contre El Kastalli et ses amis.

Avant d'en arriver aux profondes répercussions de cette «lettre» dans le Maghrib, il serait utile de montrer le prestige dont l'élite intellectuelle

maghribine et en particulier, la Cours de Fes, accréditaient le Cheikh El kastalli et son maître Souleïman el Jazouli. Ce dernier jouissait auprés des habitants du Sous notamment d'une autorité immense qu'illustre cette singulière histoire. Vers la fin du règne des Béni Ouatas un adepte du Cheikh Al Kastalli, Amr Essiaf se porte à la tête d'une révolte ; il exhume le cadavre du Cheikh El Jazouli qu'il promène, dans un cercueil parmi les tribus ; cette macabre exhibition qui dure 20ans se traduit par vingt ans de victoire. Essiaf finit par être assassiné par son épouse qui rend ainsi la paix au pays. Lorsque les Chérif Saâdiens accèdent au pouvoir, ils font enterrer les restes du Cheikh el Jazouli au cimetière de Marrakech qu'il prennent soin de faire surveiller par la garde, de crainte qu'un autre révolté ne déterre, à nouveau, le cadavre pour l'exploiter.

C'est le Cheikh Abou Amar Al kastalli qui succède au Cheikh El Jazouli à la mort de ce dernier. En plus de ce titre, El Kastalli avait celui de descendant direct du grand Calife Otmane Ibn Affane et cela explique d'une part, l'accueil très réservé que font aux critiques d'El Kherroubi un grand nombre de milieux cultivés et qui pis est, le roi, et d'autre part, son échec dans sa mission diplomatique. Mais cette dernière sorte de revers importe bien peu à El Kharoubi qui se retire avec la satisfaction suprême du devoir religieux accompli: il a découvert et dénoncé des Bidâas ; il a pris contact avec de nombreux maîtres de hadith auxquels il a communiqué d'importants textes de cette matière. Il a eu par ailleurs la joie d'acquérir des livres de valeur dont il était un amateur passionné.

Après le retour d'El Kherroubi , la tension s'aggrave entre Alger et le Maghrib ; des propos outrageants sont échangés par lettre et l'animosité augmente au point que le Calife ottoman Souleïman Chah dépêche un de ces régiments d'élite qui lui rapporte la tête de son ex-ennemi, le roi Saâdien.

La lettre du Cheikh El Kherroubi qui devait créer bien des désordres dans les milieux culturels du Maghrib, présente ailleurs un intérêt historique exceptionnel puisqu'il ne se trouve pas ou presque pas d'œuvres des auteurs Maghribins du X^{e}s .H, et de l'époque suivante qui ne s'en soit fait un écho, nous permettant ainsi de grouper quelques renseignements, les seuls qui existent sur la d'El Kherroubi .

La polémique déclenchée à propos de «la lettre» partage les Oulémas du Maghrib en deux clans dont l'un prend position pour El kastalli et l'autre, pour El Kharoubi, car nous pouvons dire que ce dernier est l'héritier spirituel du Cheikh Zerrouk, lequel compte dans le Maghrib un grand nombre de disciples.

Il advint qu'un partisan d'El Kherroubi , le Cheikh El Habti trouva dans la lettre une erreur qu'il craignit de voir exploiter par le clan adverse. Il charge un de ses élèves d'écrire à El Kherroubi pour lui signaler le passage à revoir. L'élèves écrivit bien la lettre, mais il jugea bon, avant de l'envoyer au destinataire, de la communiquer au Cheikh El-Yastitni. Muphti de Fès et courtisan du Sultan.

Le Cheikh El-Yastitni lit la lettre de découvre en l'erreur une aubaine inespérée dont il se hâte de tire profit en ajoutant au texte rédigé par l'étudiant, un commentaire de circonstance. Après quoi il rend la lettre à l'étudiant en lui enjoignant de l'expédier à El Kharoubi. L'étudiant rend la lettre à son maître. Le Cheikh El Habti qui se refuse alors à la communiquer à El Kherroubi , jugeant le sectarisme. Il trouve en outre, dans le commentaire du Muphti de Fès, une erreur plus grossière que celle d'El Kherroubi . Fort de ces prétextes le Cheikh El Habti se met en rapport avec El Yastitni pour tenter de circonscrire l'incident, vainement hélas! Une profusion de correspondance ne tarde guère à changer le duel épistolaire El Kharoubi- El Kastali en quelque entre El-Yastitni et El Habti, chaque antagoniste ayant ses partisans, le premier grâce à sa situation à la Cour, le second, grâce au soutien que lui garantissait sa puissante tribu des Ghomara. Le Sultan de Fès intervient et soumet les deux hommes à l'arbitrage d'un conseil d'Oulémas. Bien que ne se faisant aucune illusion sur l'issue d'un tel débat, le Cheikh El Habti accepte de comparaître devant le conseil proposé. Il savait pourtant que ce genre de haute Cour ne se formait qu'à la seule fin de justifier certaines décisions auprès de l'opinion publique. La sépulture du grand Lissan Eddine Ibn El Khatib, victime d'une accusation de même genre n'est-elle pas là, souvenir immortel d'un exemple édifiant. Le Conseil d'Oulémas se réunit, présidé par El-Yastitni et après avoir proclamé son hérésie, condamne à mort le Cheikh El Habti, se chargeant

ainsi devant Dieu, de la responsabilité de son sang.

Au cours du débat El habti n'a pas tenté de se défendre.il s'est contenté, à l'ouverture du conseil, de demander la faveur de faire réciter «la Fatiha», afin que Dieu éclairât les esprits. Puis il a gardé le silence.

Le conseil achevé, El-Yastitni rédige une lettre de reconnaissance de culpabilité et demande de grâce, qu'il tente, au nom du Roi ; de faire signer par El Habti. Mais celui-ci avait le courage de l'homme de foi qu'il 2tait. Il refuse de se laisser prendre à la ruse de son adversaire ; et au lieu de la signature qui lui était demandée, écrit sur le texte une déclaration en attribuant la rédaction au Sultan et à El-Yastitni. Le Sultan n'a plus qu'un recours: l'amnistie.

Quelle est donc la raison qui a pu dicter ce geste au Sultan car il est évident qu'El-Yastitni n'a pu soutenir l'accusation d'hérésie, contre le Cheikh El Habti que pour se conformer au désir de la Cour et se soumettre à ses ordres.

Serait-ce l'attitude des Ghomara qui ont commencé à s'intéresser à l'affaire surtout lorsque le Chef des Chechaouen eut prétendu qu'El Habti nourrissait l4intention de se saisir du pouvoir ?

Le Sultan aurait-il compris que l'accusation d'hérésie contre la Cheikh El Habti n'était pas de nature à être facilement acceptée par l'opinion publique ?

Devons nous plutôt voir dans ce geste du Sultan, L'attitude du croyant qui craint Dieu ?

Quelle qu'en fût la cause, El Habti s'en fut sain et sauf dans son pays. Un mois après, El-Yastitni succombe à un cancer. Ses adversaires ne manquait pas d'exploiter cette mort qu'il entour de larges commentaires. Mais quelques semaines plus tard El Habti est atteint à son tour, d'une paralysie totale.

Du Cheikh El Kherroubi nous perdons toutes traces ; il survit deux années aux deux héros du fameux conseil d'Oulémas de Fès et meurt au cours de la grande épidémie, en 963h. (1556).

Jetons maintenant un regard sur la situation de l'Afrique du Nord à cette époque. Les gouvernements et royaumes islamiques, minés par la rapide progression de la décadence, tombent l'un après l'autre ; les Béni-Ziane glissent déjà dans l'ombre, leur royaume partagé entre turcs et Espagnols ; les Béni-Ouattas sont supplantés, nous l'avons vu, par leurs adversaires saâdiens, cependant que les Portugais occupent un grand nombre de leurs ports maritimes ; les Béni-Ahmar sont repoussés par les Espagnols, lors de leur dernière base en terre andalouse. A Tunis et Bougie, les berbères se révoltent contre les béni-Hafs dont les ports sont en partie occupés par les Sicilients. Lorsque le Turc Kheireddine eut reconquis le territoire du Prince Hafside, ce dernier se rendit en Espagne et demanda une aide. Il obtint une escadre qui réussit à vaincre Kheireddine ; mais par la suite, les Espagnols s'installent à Tunis après avoir exterminé un tiers de ses habitants. Nous savons que la tripolitaine a été conquise par les Génois qui l'occuperont quelque temps avant d'en être délogés par les Turcs. Il est tout a fait normal que des désordres et des vicissitudes de ce genre et de cette envergure produisent leurs effets et laissent leurs traces: la grande épidémie et du nombre, qui réduisit la population de deux tiers et compta parmi ses victimes le Cheikh El Kherroubi.

Voyants à présent quels furent d'abord l'œuvre de notre personnage et ensuite, les causes qui l'ont privé de la popularité, de la célébrité et de la gloire.

Parmi les livres appréciés d'El Kherroubi, nous pouvons citer «Kifayat El Mourid», que de nombreux auteurs comparent à certaines études d'El Ghazali. Parlant de ce livre, sur la mystique, le Cheikh Hassan El Oudjaimi, un des maîtres du voyageur bien connu Abou Salim El Ayachi, écrit: «parmi les œuvre les plus utiles pour ceux que Dieu veut mettre dans cette sainte voie, le livre kifayat El Mourid du Cheikh El Kharoubi». Cette opinion est aussi partagée par l'œuvre du Cheikh El Kherroubi de celle d'El Ghazali.

Autres œuvres célèbres d'El Kherroubi, son commentaire de la «lettre sur les Origines de la confrérie Religieuse» de son maître le Cheikh Zerrouk: et son commentaire «**ouyoub ennefs**» sur les cinq dogmes de l'Islam.

Quant aux causes pour lesquelles El Kherroubi n’a pas acquis la célébrité qui fut la part de certains parmi ses contemporains dont la valeur culturelle, la moralité, et le rôle joué dans leur génération n’égalent pourtant pas les seins, nous ne pouvons que nous demander s’il ne faut pas les rechercher dans ses rapports avec les oulémas de son temps qu’il ne ménageait guère.

Il y a aussi l’accusation d’hérésie, soutenue contre lui par El-Yastitni au Maghrib et qui a pu être ébruitée en Algérie et toucher les esprits crédules. C’est la une chose très faisable de la part des adversaires d’El Kherroubi qui pouvaient disposer de puissants moyens de propagande. Nous pouvons encore évoquer ses rapports avec les gouvernants Turcs... Mais cette dernière possibilité est plutôt à écarter, car loin de diminuer la célébrité des Oulémas les accointances avec les princes sont plutôt de nature à la consacrer. N’est- ce pas le cas des contemporains d’El Kherroubi, les Cheikhs Ahmed Ben Yousef et son disciple Ech-Chérif, réputés pour avoir vécu en termes très cordiaux avec les Turcs ?

Quoi qu’il en soit il nous est difficile d’expliquer les causes de ce véritable voile tissé par le temps sur la personnalité du Cheikh El Kherroubi. Nous ne pourrons sans doute pas le faire de manière satisfaisante aussi longtemps que nous feront défaut des œuvres locales traitant de la vie de cet homme. Il est à remarquer, cependant que la popularité d’un maître quelle qu’en fût la valeur, n’a jamais pu être consacrée en ce pays, si aux titres intellectuels de la personne ne s’ajoutent une certaine notoriété moral avec l’attribution de propriétés anormales tels les miracles vrais ou simplement éclos dans l’émargination de quelque adepte.

Citons en example, le cas du Cheikh Ouali Dada, contemporain lui aussi, du Cheikh El Kherroubi et dont la popularité atteignit des propositions extraordinaires à la suite d’un fait très anodin qui lui fut attribué. De nos jours encore personne n’ignore, à Alger, le tombeau de Sidi Ouali Dada.

Ibn Khaldoun, lui-même, connu dans le monde entier par son œuvre est resté totalement méconnu dans la région même - proche de Tiaret - où il vécut plusieurs années durant et où il entreprit la composition de ses Prolégomènes. Dans ces mêmes régions qui ont ignoré l’existence d’Ibn

Khaldoun, combien de simples d'esprit errants se sont vu élever des mausolées, aujourd'hui lieux de pèlerinage, pour avoir séjourné ou seulement traversé la tribu.

Disons pour terminer que le Cheikh el Kherroubi était d'une nature ennemie et dédaigneuse de la gloriole. Ecoutons le dans son livre (**Ouyoub Ennefs**), «les imperfections de l'âme humaine».

«Lorsque l'homme montre la piété dans des actes de vertu et de soumission aux prescriptions de Dieu, alors que dans le font il est indifférent, c'est un grand défaut de l'âme humaine, une preuve d'immoralité et de dégradation ; c'est un indice d'hypocrisie. Or, Dieu a flétri ceux dont les apparences ne sont pas conformes au fond. Il a dit dans le Coran -«Ils abusent les gens et ne pensent guère à dieu»- La raison de tout celui est l'amour de l'apparat et des compliments flatteurs. Il n y a aucun doute que celui qui aime les honneurs et les louanges de la part de ses semblables, recherche les moyens qui lui procure ces honneurs et lui attirent les louange, autrement dit, il se rapproche des gens en s'éloignant du créature.

Dieu a épargné El Kherroubi, les gloires éphémères en lui assurant la sympathie et l'admiration de ceux qui apprécient son intelligence et ses œuvre pour la cause de la science et de la religion.

La ville d'Alger, si elle a négligé la tombe d'El Kherroubi a su par contre, conserver de lui un témoignage précieux, dans la Bibliothèque de la Grande Mosquée d'Alger. Ce manuscrit est un volume du «Sahih El Boukhari» (hadith) dont le texte est suivi de l'inscription suivante: «L'esclave de Dieu glorifié, Mohammed Ibn Ali El Kherroubi Ettaraboulsi, que dieu l'absolves ! Déclare: j'ai revu et corrigé ce livre à l'aide d'une vieille édition manuscrite ».

Puis il donne une description détaillé de ce manuscrit annoté par de nombreux oulémas des V^{e} et VI^{e} siècles h. attestant l'austénite du livre. Il continue:« j'ai transcrit tout ce qui précède à partir de cet ancien manuscrit auquel j'ai rendu conformes le présent texte afin que sois certifiée son authenticité. Puisse Dieu nous éclairer dans la bonne vois, il n'y a de Dieu que lui».

La présence de ce livre avec le texte écrit de la main d'El Kherroubi, dans la mosquée d'Alger, présente pour les spécialistes du Hadith une richesse inestimable et autrement précieuse que le tombeau inconnu du Cheikh El Kherroubi.

El Mahdi BOUABDELLI

Sources imprimées:

1) Ibn Askar, Daouhat an nâchir, trad.Graulle, 1913.

2) El kittâni, Calouat al anfâs, Fès, 1316/1898.

3) En-Nâciri, kitâb al istiqça, trad. Nâciri, 1936, vol.34 des Archives marocaines.

4) El Ayachi, voyage, trad, Berbrugger, 1846.

5) Abbâs ben Brahim, cadi de Marrakech, El Ilâm. Fès.

6) Ben Cheneb (Mohammed), Etude sue les personnages mentionnés dans l'idjazâa du Cheikh Abd el Qâdir el Fâsy. XIV^{e} Congrès des Orientalistes, Alger, 1905, Paris, 1908.

Manuscrits:

1) Commentaires de Ouyoub Ennafs, par El Kharrroubi

2) Oussoul Tarika, par El Kharrroubi.

3) Elhikam, par El Kharrroubi.

4) Adjaieb Elasfar, par Bouras.

5) Djadhouat el Iktibas, par Ibn el Qadi.

6) Mirât el Mahâsin.

Etc …

فهرس الموضوعات